

إدوارد هيبون

اضمحل الإمبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الثاني



الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الثاني

تأليف إدوارد جيبون
ترجمة د. محمد سليم سالم

مراجعة وتقديم
أحمد نجيب هاشم

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٦٧

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لمختصر كتاب :

DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE

EDWARD GIBBON'S

الذي أعده

D. M. Low

فهرس

الصفحة

الموضوع

الاصلاح الوثنى المضاد

الفصل الثانى والعشرون (٣٦١ - ٣٦٣)

١١	• • • • •	اعتلاء جوليان العرش
١٤	• • • • •	أخلاق جوليان

الفصل الثالث والعشرون (٣٦١ - ٣٦٣)

١٧	• • • • •	ديانة جوليان
٢٣	• • • • •	تعصب جوليان
٢٨	• • • • •	جوليان يعيد الوثنية ويصلحها
٣٥	• • • • •	جوليان واليهود
٤٠	• • • • •	اضطهاد جوليان للمسيحيين
٤٤	• • • • •	معبد دافنى وغابيتها المقدسة
٤٧	• • • • •	القديس جورج
٥٠	• • • • •	جوليان واثناسيوس

الفصل الرابع والعشرون (٣٦٣)

٥٣	• • • • •	انتخاب جوفيان
٦٢	• • • • •	تأملات فى موت جوليان

عودة المسيحية الى مكان العظوة

الفصل الخامس والعشرون (٣٦٣ - ٣٨٤)

٦٧	• • • • •	المسيحية فى عهد جوفيان
----	-----------	------------------------

الفصل السابع والعشرون (٣٧٤ - ٣٩٧)

٧٠	• • • • •	أمبروز أسقف ميلان
٧٥	• • • • •	فضائل ثيودوسيوس وعيوبه
٧٧	• • • • •	فتنة أنطاكية
٨٠	• • • • •	مذبحة سالتويك

٨٢	• • • • •	ثيودوسيوس يكفر عن ذنبه
٨٥	• • • • •	أخلاق فالنتينيان وموته
٩٠	• • • • •	موت ثيودوسيوس

الفصل الثامن والعشرون (٣٧٨ - ٤٢٠)

٩٣	• • • • •	نهاية الوثنية
١٠١	• • • • •	تدمير معبد سراييس
١٠٤	• • • • •	حظر الشعائر الوثنية
١٠٨	• • • • •	عبادة الشهداء المسيحيين وانتعاش عادات الشرك

الغزوات الكبرى

الفصل الحادى والثلاثون (٤٠٨ - ٤١٠)

١١٧	• • • • •	الاريك يغزو ايطاليا
١٢٠	• • • • •	أخلاق نبلاء الرومان
١٣٠	• • • • •	شعب روما
١٣٤	• • • • •	حصار روما الأول
١٤١	• • • • •	حصار روما الثانى
١٤٤	• • • • •	حصار روما الثالث ونهبها
١٥١	• • • • •	تراجع القوط وموت الاريك

الفصل الثانى والثلاثون (٣٩٥ - ٤٦٠)

١٥٤	• • • • •	حكم أركاديوس
١٥٦	• • • • •	القديس يوحنا كريسوستم
١٦٢	• • • • •	موت أركاديوس وارتقاء ثيودوسيوس الأصغر للعرش
١٦٥	• • • • •	حكم بولكيريا
١٦٨	• • • • •	مغامرات يودوكيا

الفصل الثالث والثلاثون (٤٣١ - ٤٣٩)

١٧١	• • • • •	الوندال يغزون أفريقيا
١٧٢	• • • • •	سانت أوغسطين وحصار مدينة هيبو
١٧٥	• • • • •	نهب قرطاجة
١٧٨	• • • • •	قصة النيام السبعة

نهاية الامبراطورية فى الغرب

الفصل الخامس والثلاثون (٤٥١ - ٤٥٣)

١٨٤	• • • • •	أتيلا يغزو بلاد الغال
-----	-----------	-----------------------

الموضوع الصفحة

١٩٠	• • • • •	غزو إيطاليا
١٩١	• • • • •	تأسيس فينيسيا (البندقية)
١٩٥	• • • • •	موت أتيليا ودمار امبراطوريته
١٩٧	• • • • •	قتل أيتيوس وموت فالنتينيان الثالث
٢٠٠	•	أعراض الاضمحلال في الامبراطورية الرومانية الغربية

الفصل السادس والثلاثون (٤٥٧ - ٤٩٠)

٢٠١	• • • • •	الامبراطور ماجوريان
٢٠٩	• • • • •	أدواكر : ملك إيطاليا

الفصل السابع والثلاثون (٣٠٥ - ٤٥١)

٢١٢	• • • • •	نشأة الرهبان
٢١٦	• • • • •	اسباب سرعة تطور الرهبنة
٢٢٤	• • • • •	سانت سيميون « العمود »

الفصل الثامن والثلاثون (٤٧٦)

٢٣٣	• • •	سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب
		ملاحظات عامة على سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب
٢٣٤	• • • • •	

دولة إيطاليا

الفصل التاسع والثلاثون (٤٩٤ - ٥٢٦)

٢٤٥	• • • • •	عهد ثيودوريك
٢٤٩	• • • • •	رخاء روما وإيطاليا
٢٥٢	• • • • •	أريوسية ثيودوريك
٢٥٦	• • • • •	اعدام بويثيوس
٢٦٠	• • • • •	موت ثيودوريك

عصر جستنيان

الفصل الأربعون (٥٢٧ - ٥٦٥)

٦٦٥	• • • • •	عصر جستنيان
٢٧٠	• • • • •	الامبراطورة تيودورا
٢٧٦	• • • • •	شغب نيقا
٢٨٣	• • • • •	استيراد الحرير من الصين
٢٨٩	• • • • •	كنيسة آياصوفيا

الموضوع الصفحة

٢٩٥	• • • • • القضاء على مدارس أثينا
٣٠٠	• • • • • القضاء على وظيفة القنصل الروماني
الفصل الثالث والأربعون (٥٤٦ - ٥٩٤)	

٣٠٢	• • • • • آخر انتصارات لبليساريوس وموته
٣٠٦	• • • • • أخلاق جستنيان وموته
٣٠٨	• • • • • المذنبات
٣١٠	• • • • • الزلازل
٣١١	• • • • • الطاعون

الفصل الخامس والأربعون (٥٩٠ - ٥٩٤)

٣١٥	• • • • • شقاء روما في نهاية القرن السادس
٣١٧	• • • • • بابوية جريجورى العظيم

المؤثرات اللاهوتية

الفصل السابع والأربعون (٤١٢ - ٥٦٥)

٣٢٥	• • • • • الأيونيون
٣٢٧	• • • • • الفنوصيون
٣٣٠	• النظريات المضادة التي قال بها كرنيثوس وأبولليناريوس
٣٣٣	• كيرلس ونسطور ومجالس افيسوس الكنسية الأولى
٣٤٤	• • • • • هرطقة يوتيكنس ومجلس افيسوس الثانى
٣٤٦	• • • • • مجلس خلقدونية الكنس
٣٥٠	• • • • • قانون التوفيق الذى وصفه زينون
٣٥٣	• • • • • لاهوت جستنيان

الفصل التاسع والأربعون (٧٢٦ - ٨١٤)

٣٦٥	• • • • • ليو محطم التماثيل
٣٧٠	• • • • • ثورة ايطاليا
٣٧٧	• • • • • علاقات بين وشارلمان بالبابوات
٣٨٢	• • • • • إعادة التماثيل والصور الدينية فى الشرق
٣٨٥	• • • • • انفصال البابوات عن الامبراطورية الشرقية نهائيا
٣٨٨	• • • • • عصر شارلمان وشخصيته
٣٩١	• • • • • الامبراطور شارل الرابع
٣٩٣	• • • • • موازنة بين شارل الرابع واغسطس

الفصل الثانى والعشرون (٣٦١ - ٣٦٣)

اعتلاء جوليان العرش • أخلاق جوليان

فى سنة ٣٦١ بعد الميلاد ، وبعد حكم انسم بالطفيان ، مات قسطنطىوس فى مطلع حرب اهلية ضد جوليان الذى اصبح نتيجة لهذا الامبراطور الاوحد • ولقد تحكم فى جوليان خلال فترة حكمه القصيرة ، دافعان استمدهما من دراساته الباكرة • وكان الدافع الاول هو تحقيق المثل الاعلى للملك الفيلسوف ، ولقد مزج هذا باصلاحات عملية وتوفير فى النفقات كما حاول ان يغير الروح الشرقية التى سادت بلاط سلفه ويدخل بدلا منها بساطة اساليب الحياة القديمة • اما الدافع الثانى فهو انه كان طموحا الى التشبه بالاسكندر الاكبر فى الفتوحات الشرقية • وكانت اهميته الخاصة بالنسبة للأجيال القادمة انه نبع المسيحية ، وحاول اصلاح الوثنية وادسا قواعدها من جديد •

اعتلاء جوليان العرش

كان جوليان يتحرق شوقا لزيارة المكان الذى ولد فيه والذى أصبح العاصمة الجديدة للامبراطورية ، فتقدم من نائسوس مخترقا جبال هيموس ومدائن تراقيا • وعندما وصل الى هرقليا ، على بعد ستين ميلا من القسطنطينية ، خرجت العاصمة كلها لاستقباله ، ودخلها دخول الظافرين وسط تهليل الولاء الواجبة الصادرة من الجنود والشعب واعضاء السناتو • واندفعت نحوه الجماهير التى لا تعد وأخاطت به فى احترام ولهفة ، وربما خاب أملهم عندما شاهدوا الرجل بقامته القصيرة وفى ردائه البسيط ، وهو البطل الذى فهو برايرة الألمان وهو لا يزال شابا تنقصه التجربة ، والذى عبر الآن كل قارة أوروبا فى مسيرة ظافرة ، من شواطئ الأطلنطى الى شواطئ البسفور • وبعد ذلك بأيام قليلة ،

عندما وصل جثمان الامبراطور الراحل الى المرفأ ، صفق رعايا جوليان لما اظهره ملكهم من انسانية حقيقية أو مصطنعة . وسار الامبراطور على قدميه ، دون تاج على رأسه ، مرتديا ملابس الحداد ، ورافق موكب الجنازة حتى كنيسة « الرسل المقدسون » ، حيث دفن الجثمان . واذا كانت آيات الاحترام هذه يمكن تفسيرها بأنها ضريبة يدفعها الامبراطور بحافز الانانية اجلالا لمنبت قريبه الامبراطور ورفعة مقامه ، فان الدموع التي سكبتها اظهرت للعالم أنه نسي الاساءات التي اصابته من قسطنطيوس ، ولم يذكر الا التزاماته نحوه . وما أن تأكدت فيالق آكويلا Aquileia من وفاة الامبراطور حتى فتحت أبواب المدينة ، وقتلت قوادها المذنبين ، وبهذا غنمت عفوا سهلا من الامبراطور جوليان ، اما حكمة منه أو لينا وتساهلا . وهكذا أصبح جوليان ، وهو في الثانية والثلاثين من عمره حاكما على الامبراطورية الرومانية ، لا ينازعه منازع .

وقد تعلم جوليان من الفلسفة أن يفرق بين مزايا العمل والجهاد وبين مزايا الركود والانزواء ، غير أن سمو أرومته والحوادث التي اعتورت حياته لم تترك له أبدا حرية الاختيار . وربما كان يفضل في اخلاص بساطين الأكاديمية الاثينية والمجتمع الاثيني ، غير أن مشيئة قسطنطيوس أولا ثم ظلمه بعد ذلك أجبراه على تعريض شخصه وسمعته الى أخطار المجد الامبراطوري ، والى تحمل مسئولية سعادة الملايين أمام العالم وأمام الأجيال القادمة . وتذكر جوليان في فزع ورهبة ملاحظة أستاذه أفلاطون أن حكم الرعية ينبغي أن يلتزم به أفانوس من نوع رفيع ، وأن قيادة الامم تحتاج بل وتستحق قوة الآلهة أو قدرة العباقرة . ولقد كان محقا في أن ينتهي من هذا كله الى أن الرجل الذي يأخذ على عاتقه الحكم ، يجب أن يتطلع الى كمال الطبيعة الالهية ، وأن ينقى نفسه من جانبيها الدنيوي الفاني ، وأن يكبت شهواته ، ويثقف عقله ، وينظم أهواءه ، ويكبح جماح ذلك الوحش الكاسر الرابض في دخيلة نفسه والذي قلما يعجز عن ارتقاء عرش الحاكم المطلق ، على حد التشبيه الحي الذي قاله أرسطو . ولقد جعل جوليان من العرش الوطيد الذي استقل به بعد وفاة قسطنطيوس ، مقاما للتفكير السليم ، وملاذا للمفضيلة ، وربما كان فيه أيضا مجال للغرور . فكان يحتقر أمجاد وامتيازات مقامه السامي ، ويتبدد ملذاته ، ويؤدي ما يلقيه عليه مركزه الرفيع هذا من تبعات في جد ودأب دائمين . وقلة من أبناء شعبه كان يمكن أن ترضى بإراحته من ثقل تاجه لو أنها أجبرت على اخضاع أوقاتها وأعمالها لتلك القوانين الصارمة التي فرضها الامبراطور الفيلسوف على نفسه . ولقد ذكر واحد من أقرب أصدقائه اليه ، طالما شاركه مائدته البسيطة الخالية من الترف والبذخ ،

أن أكلته الخفيفة الضعيفة (التي كانت من النوع النباتي عادة) ، كانت
 تتيح لعقله وجسمه تلك الحرية وذلك النشاط اللازمين للعمل النوع
 الهام الذي كان يقوم به كمؤلف ، وحبر أعظم ، وقاض ، وقائد وحاكم .
 وكان في اليوم الواحد يستقبل العديد من السفراء ، ويكتب أو يملأ عددا
 كبيرا من الرسائل الموجهة إلى قواده ، وحكامه المدنيين ، وخاصة أصدقائه ،
 ومختلف مدائن البلدان التابعة له . وكان إلى جانب ذلك يستمع إلى
 المذكرات التي يتلقاها ، ويدرس مواضيع المنتسبات ، ويصدر قراراته
 فيها بأسرع ما كان يمكن لأمناء سره أن يختزلوا كتابتها رغم جدهم
 ودأبهم . وكان على درجة من مرونة التفكير وقوة الانتباه تمكنه من
 استخدام يده في الكتابة ، وأذنه في الأصغاء ، وصوته في الاملاء ، ومن أن
 يتابع في وقت واحد ثلاث سلاسل من أفكار مختلفة ، دون تردد أو خطأ .
 وعندما كان وزراؤه يركنون إلى الراحة ، كان الملك ينتقل في خفة ونشاط
 من عمل إلى عمل ، وبعد أن يتناول غداء سريعا ، كان يأوي إلى مكتبته
 حتى تدعوه المهام العامة التي خصص لها أمسيته فتقطع عليه متابعة
 دراساته . وكان عشقه الإمبراطور أخف من وجبة غذائه ، ومن ثم فإن
 نومه كان هادئا لا يزعجه سوء الهضم . وكان زواج الإمبراطور قصير
 الأمد ، دفعته إليه السياسة ، أكثر من أن يكون مبعث الحب ، وفيما عدا
 هذا الزواج لم يقتسم جوليان العفيف فراشه مع واحدة أخرى من بنات
 حواء . ومن ثم فإن الإمبراطور سرعان ما كان يستيقظ من نومه بسخول
 آمناء سر آخرين من أولئك الذين أخذوا قسطهم من النوم في اليوم
 السابق ، وكان على وصفائه أن يتبادلوا السهر بينما يظل سيدهم ، الذي
 لا يمل العمل أو يعثره التعب ، ساهرا لا يكاد يرفه عن نفسه إلا بتغيير
 نوع العمل . وكان أسلافه الأباطرة - عمه وأخوه وابن عمه ، يشبعون
 هوايتهم الصبيانية بالألعاب السيرك ، مدعين في تبرير ذلك أنهم إنما
 يمشون مع رغبات الشعب ، وكثيرا ما كانوا يقضون الجزء الأكبر من
 النهار نظارة عاطلين ، أو يكونون جزءا من المشهد الترائع ، حتى تتم
 الأشواط الأربعة والمشرون تماما . أما جوليان ، فقد كان يشعر ، على
 غير عادة العصر ، بكراهية لتلك الملذات الطائشة القافهة ويجهر بذلك ،
 ومن ثم فقد كان في الاحتفالات الهامة يتنازل بحضور السيرك ، وبعد أن
 يلقي نظرة عابرة في غير اهتمام على خمسة أو ستة أشواط ، كان
 ينسحب سريعا في ملل الفيلسوف الذي يعتبر أن كل لحظة لا يكرسها
 لخير الشعب أو لتهديب عقله كأنها لحظة ضاعت هباء . ويبدو أنه بهذا
 الحرص الشديد على الوقت كان يطيل فترة حكمه القصيرة ، ولو لم تكن
 على ثقة من دقة التواريخ لما صدقنا أن ستة عشر شهرا فقط هي التي

انقضت بين موت قسطنطينوس وبين رحيل خلفه جوليان الى الحرب الفارسية . ولا شك في أن أعمال هذا الامبراطور لا يمكن أن يخلدها الا حرص المؤرخ واهتمامه ، غير أن ذلك الجزء من كتاباته الضخمة الذي ما يزال باقيا ، انما يظل أثرا يشهد له بالمشاورة والمبقرية . فلقد ألف ، « الميزوبوجون » (رسالة يرد فيها على من سخروا من فلسفته من انطاكيين) و « القياصرة » ، وكثيرا من الخطب التي ألقاها ، وكتابه الغد ضد الديانة المسيحية ، في الليالي الطويلة من فصل شتاء قضى أحدهما في القسطنطينية والآخر في أنطاكية .

اخلاق جوليان

كانت الادارة المجهدة للشئون العسكرية والمدنية ، التي ازدادت باتساع رقعة الامبراطورية ، هي الميدان الذي مارس فيه جوليان قدراته . غير أنه كثيرا ما كان يقوم بدور الخطيب ودور القاضي ، وهما دوران لا وجود لهما تقريبا في حياة ملوك أوربا الحديثين . ولقد كان القياصرة الأولون يتقنون فنون الاقناع ، غير أن خلفاءهم من جهة العسكريين المتسمين بالفطرسنة الآسيوية أهملوا تلك الفنون ، وإذا حدث أنهم كانوا يتنازلون بالتحدث الى الجنود الذين كانوا يرهبونهم ، فانهم كانوا يعاملون أعضاء السنااتو ، الذين كانوا موضع احتقارهم ، في ازدراء صامت . أما جوليان فقد كان يعتبر اجتماعات السنااتو التي تعاشها قسطنطينوس ، مكانا يستطيع أن يعرض فيه ، بأعظم قدر من اللياقة والكياسة ، مبادئ الرجل الجمهوري ومواهب صاحب الفصاحة والبيان . فكان يمارس في تلك الاجتماعات ، كما لو كان في مدرسة للخطابة ، مختلف أساليب المدح والتفريع والنصح والتحذير ، مرة هذا ومرة ذاك . ولقد ذكر صديقه لبيانيوس أن دراسة هوميروس علمته أن يقلد بساطة أسلوب مينلاوس وإيجازه ، أو يحاكي غزارة أسلوب نسطور Nestor الذي كانت كلماته تتساقط كرقائق ثلج الشتاء ، أو فصاحة يولسيس Ulysses التي تثير الشجون وتتفجر منها القوة . أما القضاء بين الناس ، وهو مهمة لا تتفق أحيانا مع مهام الحاكم ، فقد كان جوليان يمارسه لا كواجب فحسب ، بل من قبيل التسلية . ورغم أنه كان يثق في نزاهة ولائه البريتوريين وجسن تقديرهم ولفظتهم ، الا أنه كثيرا ما كان يجلس الى جوارهم على منصة الحكم . وكان يلذ له أن يستغل قريحته النفاذة في كشف وهزيمة حيل المحامين الذين كانوا يعملون جاهدين على إخفاء الحقائق الصادقة وتحوير معنى القوانين . وكان في بعض الأحيان ينسى مهابة مقامه ويسأل أسئلة طائشة أو غير مناسبة ، ويفصح بصوته الجمهوري

واهتزاز جسمه ، عن حماسه الجدى فى التمسك بأرائه ضد القضاة وضد المحامين وموكليهم . غير أن معرفته بطباعه كانت تدفعه الى تشجيع ، بل والتماس النقد من أصدقائه ووزرائه ، وعندما كان هؤلاء يجلسون فى أنفسهم الجراءة على معارضة نزوات أهوائه الشاذة ، كان فى مقدور المشاهدين أن يلاحظوا ما كان يعترى مليكهم من خجل ، وما كان يبدو عليه من عرفان للجميل . وكانت قرارات جوليان تقوم دائما على أساس من مبادئ العدالة ، وكان لديه من الحزم ما يمكنه من مقاومة اغراءين هما أخطر المفريات التى تهدد محكمة الحاكم والتى تتمثل له فى صورة زائفة من الشفقة والانصاف ، فكان يحدد ما تستاهله القضية دون اعتبار لظروف أطرافها . ورغم نزوعه الى مساعدة الفقراء ، الا أنه كان يدينهم اذا كانت فى ذلك استجابة للمطالب العادلة التى يطالب بها خصومهم من النبلاء والأغنياء . وكان يفرق فى عناية بين مهمة القاضى ومهمة المشرع ورغم أنه كان يفكر فى ضرورة اصلاح التشريع الرومانى ، الا أنه كان ينطق بالحكم وفق التفسير الحرفى الدقيق لتلك القوانين التى كان يتحتم على الحكام تنفيذها ، ويتحتم على الرعية طاعتها .

والمعروف أن أكثرية الملوك ، لو أنهم جردوا من أودية الملك ، وألقى بهم عراة فى غمار هذا العالم لهبطوا على الفور الى أدنى مراتب المجتمع دون أمل فى النهوض من هدمتهم . غير أن الفضائل الشخصية التى كان يتصف بها جوليان كانت الى درجة ما مستقلة عن حظه فى الحياة . ومهما كان اختياره لطريق حياته ، فإن شجاعته انثى لا تنهاوى أو تتزعزع ، وذكاءه الوقاد ، ومنابرته القوية ، كانت كلها كفيلا بأن ترقى به الى أسمى مراتب مهنته ، أو تجعله أهلا لتلك المكانة على أقل تقدير . وكان فى مقدور جوليان أن يرتفع الى مركز الوزارة أو القيادة فى الدولة التى ولد فيها مواطنا بعيدا عن الأضواء . ولو أن تقلبات السلطة الحاكمة قد خيبت آماله ، أو لو أنه شاء عن حكمة وحرص أن ينبذ مسالك العظمة ، لاستطاع باستخدام هذه المواهب نفسها فى الدراسة ، بمعزل عن الناس ، أن يجعل من مسعاده الحالية وشهرته الخالدة شيئا يقصر عن نواله الملوك . وإذا نحن حللنا شخصية جوليان بأمان دقيق ، أو ربما اذا كان مقصدنا من ذلك التحليل شيئا ، لبنت لنا الصورة كلها ، فى جمالها ، وكمالها ، مفتقرة الى شئ ما . فلقد كانت عبقريته أقل سموا وقوة من عبقرية قيصر ، كما أنه لم يتسم بما كان يتحلى به أغسطس Augustus من حكمة بلغ منها الذروة . وكذلك كانت فضائل تراجان أكثر ثباتا وأقرب الى الطبيعة ، أما فلسفة ماركوس فقد كانت أكثر بساطة واتساقا . ومع هذا كله فقد كان جوليان يجابه العسر فى ثبات ، ويقابل اليسر فى

اعتدال • وبعد مائة وعشرين عاما من موت الاسكندر سفيروس ، شاهد
الرومان امبراطورا كان لا يفرق بين واجباته ومسراته ، ويعمل جاهدا على
التخفيف من محن رعاياه وعلى انعاش روحهم ، ويحاول دائما أن يربط
السلطة بالجدارة ، والسعادة بالفضيلة • بل إن الحزبية ، والحزبية
الدينية ، اضطرت الى الاعتراف بسمو عبقريته في السلم وفي الحرب
سواء بسواء ، وإلى التسليم في أسف ، بأن جوليان المرتد عن دينه ،
كان محبا لبلائه ، وبأنه جدير بأن يتربع على عرش امبراطورية العالم أجمع •

الفصل الثالث والعشرون

(٣٦١ - ٣٦٣)

ديانة جوليان • تعصبه • اعادته للوثنية واصلاحه لها •
مسلكه نحو اليهود • ظلمه للمسيحيين • معبد دافني والبستان
المقدس • سانت جورج • جوليان واثناسيوس

اسماء صفة و المرتد • الى سمعة جوليان ، كما أن الحماس الذي
طغى على فضائله والقي عليه ظلا كان من شأنه أن يجسم ضخامة أخطائه
الحقيقية أو الظاهرة • وإن جهلنا الجزئي به قد يصوره لنا ملكا فيلسوفا ،
يهدف الى بسط حمايته في مساواة على الأحزاب الدينية القائمة في
الامبراطورية ، والى تخفيف الحمى الدينية التي ألهمت عقول الناس ،
منذ صدور مراسيم دقلديانوس الى نفي اثناسيوس • غير أن من يدرس
في دقة أكثر أخلاق جوليان وسلكه ، سوف يتخلى عن هذا التحيز الى
جانب ملك لم يستطع النجاة من عدوى أمراض ذلك العصر • ونحن في
هذا الشأن ننفرّد بميزة وحيدة وهي أننا نستطيع أن نعقد مقارنة بين
الصور التي رسمها له أشد المعجبين به وتلك التي رسمها له أعدائه •
أما أعماله وتصرفاته فقد وصفها وصفا أميناً مؤرخ منصف سليم الحكم ،
كان شاهداً غير متحيز شاهده في حياته وفي موته • وتؤكد التصريحات
الخاصة والعامة التي أدلى بها الامبراطور نفسه تلك الأقوال التي صدرت
عن معاصريه بصورة اجتماعية • كما أن كتاباته المختلفة إنما تعبر عن
الطابع الواحد الذي اتسمت به أحاسيسه الدينية التي كان يجوز للسياسة
أن تدفعه الى اخفائها لا الى اصطناعها • وكان تعلق جوليان في صدق
واخلاص بآلهة أثينا وروما ، هو الذي يشكل العاطفة الغالبة عليه ، ومن
ثم فإن تأثير التحيز للخرافات كان يفسد عليه قدرات قريحته المستنيرة
كما كان للأوهام التي لا وجود لها الا في عقل الامبراطور تأثيرها الحقيقي
الهدام على حكومة الامبراطورية • وقد احتقر المسيحيون عبادة تلك الآلهة

الخرافية وحطموا مذابحها ، وهذا الحماس المشتعل من جانبهم جعل ولائهم لدينهم يتجه نحو السداء العنيد لطلائفة كبيرة العدد جسدا من رعاياه ، وكانت رغبته في الفوز والانتصار ، أو خجله من حدوث نكسة ، من الأمور التي تدفعه أحيانا الى خرق قوانين الحكمة بل وفوانين العدالة . وكان فوز الفريق الذي هجره جوليان وعمل على مقاومته ، شيئا أحق باسمه وصمة عار لا تزول ولا تمحى ، ثم انصب سيل من الاتهامات الصادرة عن ورع أصحابها وتقواهم ، على الامبراطور المرتد المخذول ، وكان الأسقف جريجورى نازيانزن هو الذى رفع صوتا مدويا ايذانا بذلك الهجوم . ولقد ازدحمت الفترة القصيرة التى حكمها هذا الامبراطور النشيط بأحداث هامة شائقة تستحق أن تروى رواية منصفه مفصلة ، وسوف نتناول فى هذا الفصل أعماله وآراءه ودوافعه ، بقدر ارتباطها بتاريخ الديانة .

وفى مقدورنا أن نعرف السبب فى ارتداده عن الديانة المسيحية بالرجوع الى الفترة الباكورة من حياته عندما ترك يتيما فى أيدي قلة أسرته . فلقد ارتبط فى مخيلته الفتية اسم المسيح باسم قسطنطينوس ، كما ارتبطت فكرة العبودية بفكرة الدين ، حين كانت تلك المخيلة أكثر ما يكون احساسا بما ينطبع عليها . ولقد كفه ابان طفولته يوسيبوس اسقف نيقوميديا ، الذى كان قريبا له من ناحية أمه . وحتى بلغ جوليان العشرين من عمره كان يتلقى من معلميه المسيحيين تعليما يابق بالقديسين لا بالأبطال ، وكان الامبراطور أقل غيرة على انتاج السماوى منه على التاج الأرضى ومن ثم فقد قنع بشخصية طالب المعمودية ، وهى شخصيه غير كاملة بينما منح ابنى شقيق قسطنطين (جالوس وجوليان) مزية المعمودية ذاتها . بل ان الاثنين سمح لهما بالدخول فى سلك المراكز الصغيرة من الرتب الكنسية ، فكان جوليان يقرأ الانجيل المقدس على شعب كنيسة نيقوميديا . وكان يبدو أن دراسة الدين التى ثابرا على تعلمها قد آتت أحسن ثمار الايمان والورع ، فكانا يقيمان الصلاة ، ويصومان ويتصدقان على الفقراء ، ويقدمان الهدايا لرجال الدين ، ويوزعان القرايين فى مقابر الشهداء ، وعندما أقيم التشال الرائع للقديس « ماماس » فى مدينة قيصرية ، اشترك جالوس وجوليان فى بنائه أو على الأقل فى الاشراف على اقامته . وكانا يتحدثان فى احترام الى الأساقفة الذين اشتهروا بسمو قدامتهم ، ويلتسمان البركة من الرهبان والنسك الذين كانوا ، فى « كبادوكيا » مثالا لتحمل المصاعب التى تطوى عليها حياة التقشف . وعندما تقدم الأميران نحو مرحلة الرجولة ، اكتشفا فى أحاسيسهما الدينية ذلك الفرق القائم بين أخلاقهما . فلقد كان

جاللوس جامد الذهن بطى، انهم ينقبل مبادئ المسيحية فى حماس وتسليم ، دون أن تؤثر هذه المبادئ فى سلوكه أو تلتف من أهوائه ، أما أخوه الأصغر ، فكانت طباعه أكثر رقة وأقل مجافاة لتعاليم الانجيل ، كما أن حبه الزائد للاستطلاع والمعرفة كان يمكن أن يشبعه نظام لاهوتى يفسر الجوهر الغامض للاله ، ويفتح أمام المرء أملا لا حدود له فى العالم المقبل غير المنظور . غير أن روح الاستقلال التى كان يتمتع بها جوليان كانت تأبى عليه أن يسلم بما ينطلبه رجال الكنيسة المتفطرسون باسم الدين من خضوع سلبى لا يثير اعتراضا أو يبدى مقاومة . وكانت آراؤهم الفلسفية تفرض على الناس على أنها قوانين قطعية يحميها ادهاب العقوبات الأبدية . ولكن بينما كانوا يرسمون للأمير الشباب قواعد جامدة صارمة تحدد أفكاره وكلماته وأعماله ، وبينما كانوا يخرسون اعتراضاته ويكبثون حرية الاستفسار عنده فى شدة وقسوة كانت عبقريته الطموحة المتحرقة للمعرفة تدفعه سرا الى نبذ سلطان مرشديه الدينيين . وقد تلقى تعليمه فى آسيا الصغرى حيث شاهد فضائح الجدل الآريوسى . وكانت النزاعات الوحشية بين الأساقفة الشرقيين ، وتغييرهم المستمر لعقائدهم ، والدوافع الدينية التى كان يبدو أنها تحدد مسلكهم ، كل أولئك قوى لدى جوليان ، دون أن يشعر ، ما كان يعتقد فيه من أنهم لا يفهمون الديانة التى يصارعون من أجلها بمثل هذه القسوة ، بل ولا يؤمنون بها . وبدلا من أن يصفى الى أدلة المسيحية بما يناسب ذلك من انتباه يقوى أكثر الأدلة احتراماً ، كان يستمع فى شك وريبة الى المبادئ التى كان يكن لها نفورا لا يستطيع التغلب عليه ، ويتحداها فى عناد وحدة . وكلما كان يطلب الى الأمراء ان يدلوا بأرائهم فى موضوع الخصومات السائدة ، كان جوليان يعلن دائما أنه نصير الوثنية ، مدعيا فى تبرير ذلك أنه ، فى اندفاع عن القضية الأضعف ، يستطيع أن يمارس ويظهر علمه وبراعته بصورة أنفع وأجدى .

وما أن تسلم جاللوس مقاليد الملك حتى أتيح لجوليان أن يستنشق نسيم الحرية ، ويستمتع بالأدب وبالوثنية . وكان جمهور السفسطائيين الذين أعجبهم ذوق تلميذهم الملكى وتحرره قد عقدوا صلة وثيقة بين علم اليونان وبين ديانتها . وبعد أن كانت أشعار هوميروس موضع الإعجاب على أساس أنها إنتاج أصيل للعبقرية الانسانية ، أصبحوا ينسبونها فى جدية الى الوحي السماوى الصادر من الاله أبولو وآلهة الشعر والفنون . ولا شك فى أن آلهة أوليمبوس ، كما يصورها الشاعر الخالد هوميروس ، يمكن أن تنطبع على العقول التى تكون أبعد ما يكون عن تصديق الخرافات : ويبدو أننا عندما نألف معرفة أسائهم

وشخصياتهم وصفاتهم وأشكالهم ، فإن ذلك يضاف على تلك المخلوقات الخيالية وجودا ماديا حقيقيا ، وهذا الافتتان الشهى يفرى مخيلة المرء على أن تتقبل بصفة مؤقتة وبصورة معيبة تلك الأساطير التي تنفر منها عقولنا وتجاربنا . وفي عصر جوليان أسهمت كل الظروف في استمرار تدعيم تلك الخيالات وإطالة فترة تصديق الناس لها - كالمعابد الرائعة في اليونان وآسيا ، وما أنتجه الفنانون الذين عبروا بالتصوير والنحت عن أفكار الشاعر ، وفخامة الاحتفالات وتقديم القرابين ، وفنون التكهن بالغيب المزدهرة ، والتقاليد الشعبية منذ ألفى سنة . ومع أن عبادة الآلهة المتعددة كان لها ضعفها ، إلا أن الناس التمسوا لهذا الضعف بعض المذر لأن مطالب تلك الديانة كانت معتدلة ، ومن ثم فإن ولاء الوثنيين كان شيئا يمكن أن يمشى مع أشد ألوان التشكك بطرفا . وبدلا من أن يكون هناك نظام ديني رتيب لا يقبل التجزئة ، ويشغل نطاق العقل المؤمن كله ، فإن الميثولوجيا اليونانية كانت تتألف من آلاف الأجزاء المفككة المطاطة ، وكان المتعبد للآلهة حرا في تحديد مدى إيمانه الديني وقدره . ولقد اتخذ جوليان لنفسه عقيدة لها أوسع الأبعاد ، وازدري في تناقض عجيب ، ذلك الخطوع النافع للإنجيل . بينما قدم عنه بمحض اختياره قربانا على مذبح الآلهة جوبيتر والآلهة أبولو ، ووقف إحدى خطبه على تمجيد الهة الطبيعة « كيبلي » ، التي طلبت من كهانها المخنثين ذبيحة دموية كتلك التي قدمها الصبي من أهل « فريجيا » في جنون وتهور . ويتنازل الإمبراطور التقى فيقص في جدية ودون خجل ، رحلة الآلهة من شواطئ برجاموس Pergamus إلى مصب نهر التيبر ويحكى تلك المعجزة المذهلة التي أقنعت السناتو وأهل روما بأن كتلة الطين التي نقلها سفراؤها عبر البحار كانت تنبض بالحياة والأحاسيس والقوة الإلهية . ويلتمس من الآثار العامة في المدينة أن تثبت صدق هذه المعجزة ، ويلوم في شيء من الحدة والخشونة ذلك الذوق المريض الذي اتصف به أولئك الرجال الذين كانوا يسخرون في وقاحة من تقاليد أجدادهم المقدسة .

غير أن الفيلسوف الورع الذي اعتنق في إخلاص خرافات الشعب ، وشجعها في حرارة ، احتفظ لنفسه بميزة تفسيرها تفسيراً متحرراً . وكان ينسحب في صمت من عتبات الهيكل إلى محراب المعبد . وكانت الأساطير اليونانية المتسمة بالنظر والمبالاة تقرر في صموت جلي مسموع أن الرجل التقى الذي يسعى وراء المعرفة ، يجدر به ألا يكتفى بالمعنى الحرفي لما يقرأ ، أو يقل أن يتضح جهله ، بل ينبغي عليه أن يعمل جاهداً على كشف الحكمة الغامضة التي حرص الأقدمون على

اخفائها تحت ستار من الحماقة والخرافة (١) ولقد كان فلاسفة المدرسة الأفلاطونية - بلوتينوس ، يورفيرى - أيامبليخوس المقدس Iamblichus - موضع الإعجاب ، على اعتبار أنهم أمهر أساتذة علم المجاز الذى عمل على تخفيف وتنسيق ما فى الوثنية من قسّمات مشوّهة . وكان جوليان نفسه ، الذى تلقى التوجيه فى تلك الدراسة الفاضلة على يد ايديسيوس المبجل ، خليفة أيامبليخوس ، يتطلع من وراء ذلك الى امتلاك كنز كان يفوق فى نظره ملك العالم أجمع ، اذا كان لنا أن نصدق فى هذا الشأن تصريحاته الجدية . وفى الحق أنه كان كنزا يستمد قيمته من رأى الانسان فقط ، وكل فنان أطرى نفسه بأنه قد استخلص المكنى النفيس من الصدأ المحيط به كان يسعى لنفسه الحق فى أن يطلق على ما يكتشفه ذلك الاسم الذى يلذ لحiale ، أو يصوره بالصورة التى تشبع هذا الخيال . فخرافة آتيس وكيبيل كان يورفيرى قد وضع لها تفسيراً ، غير أن اجتهاده فى هذا التفسير لم يكن له من أثر على جوليان التقى المثابر سوى أنه دفعه الى المحاولة من جانبه ، فابتكر تفسيره الخاص لتلك القصة القديمة الفاضلة وتولى نشره . غير أن حرية التفسير هذه ، التى أرضت كبرياء الأفلاطونيين ، كانت كفيلة بأن تظهر عبث فئهم ، فأصبح القارئ الحديث عاجزاً ، بغير الدخول فى تفاصيل مضنية ، عن تكوين فكرة صائبة سليمة ، عن المجازات الغريبة ، والاشتقاقات القسرية ، والهرء المحمول محمل الجد ، والقضوض الذى لا يسقط النفاذ اليه ، وما الى ذلك من أشياء أوردها أولئك الحكماء الذين كانوا ينادون بأنهم أماطوا اللثام عن نظام الكون . وبما أن الأساطير الوثنية قد تناولتها مختلف القصص ، فإن المفسرين المقدسين كانوا أحراراً فى اختيار أنسب الظروف والملابسات التى تلائم تفسيراتهم ، وبما أنهم كانوا يفسرون أشياء أشبه ما تكون بالألغاز ، فقد كان فى مقدورهم أن يستخلصوا من أية خرافة أى معنى يلائم النظام الدينى والفلسفى الذى يحبونه . فكانوا يسسخون قصة التمثال الشهوانى العارى للالهة فينوس ، ويكتشفون منها درساً أخلاقياً ، أو حقيقة مادية ، كما استخلصوا

(١) ارجع الى مبادئ المجاز الذى وضعها جوليان . ولقد كان تفكيره فى هذا المجاز أقل سخفاً من تفكير بعض اللاهوتيين الحديثين ، الذين يقررون أن المذهب الذى يفتوى على مفالاة أو تناقض ، لابد أن يكون الهيا ، لأنه لا يمكن أن يكون ابتكاراً فكرياً من أى انسان حى .

من قصة خصي آتيس تفسيراً لدورة الشمس بين المدايرين ، أو لانتزاع النفس البشرية من الخطأ والرديلة (١) .

ويبدو أن مذهب جوليان اللاهوتي كان يشتمل على المبادئ السامية الهامة للديانة الطبيعية ، ولكن بما أن الإيمان الذي لا يقوم على الوحي والالهام يظل مفقراً إلى الرسوم والثبات فإن تلميذ أفلاطون ارتد في غير حرص أو فطنة إلى عادات الخرافة المبتذلة ، وبدأت الفكرة الشائعة الفلسفية تلاله ، فكرة مهوشة ، في أعمال جوليان وفي كتاباته بل وفي عقله . وكان الامبراطور أنورع يعترف « بالخالق الأزلي » الذي خلق الكون ، ويعبده ، وينسب إليه كل صفات الكمال التي لا حدود لها ، وهي صفات لا تراها العين ولا يرقى إليها فهم الإنسان الضعيف الضائر إلى الفناء . وهذا الإله الأسمى هو الذي خلق ، أو في لغة أفلاطون ، هو الذي أوجد سلسلة متدرجة تتألف من أرواح ، وآلهة ، وشياطين ، وأبطال ورجال ، وكل مخلوق استمد وجوده مباشرة من « الخالق الأول » ، منح هبة الخلود الكامنة فيه ، وبما أن الخالق شاء ألا تمنح هذه الميزة الغالية إلا لمن يستحقها فقد وكل إلى مهارة وقدرة الآلهة الأمل مرتبه مهمة تكوين الجسم الانساني ، وتديبر الانساق الجميل بين مملكة الحيوان ومملكة النبات ومملكة الجماد . وكلف هؤلاء الوزراء السماويين بأن يتولوا الحكم الدنيوي لهذا العالم الأدنى ، غير أن حكمهم المقتدر إلى الكمال ليس معصوماً من التناقص أو الزلل . ولقد قسمت بينهم الأرض ومن عليها ، وفي مقدورنا أن نتتبع بصورة واضحة طابع مارس (إله الحرب) أو طابع مينرفا (إلهة الحكمة والفنون) ، وطابع مركوري (رسول الآلهة المشرف على التجارة) أو طابع فينوس (إلهة العشق والجمال) ، في القوانين والأساليب التي ابتدعها كل منهم في النطاق الذي خصص له . وطالما بقيت أرواحنا الخائفة حبيسة في سجن أجسامنا الفانية ، فانه من مصلحتنا ، بل ومن واجبنا أن نلتصق بفضاء القوات السماوية ، ونستفيد من غضبها ، وهي قوات يشبع ولاء الناس كبريادها ، كما أن جوانب القسوة والغلظة فيها من المفروض أنها تستمد بعض غذائها من دخان الذبائح التي تقدم لها . وقد تتنازل هذه الآلهة أحيانا فتبعث الحياة في التماثيل التي أقيمت لتمجيدها ، وتأوي إلى المعابد التي شيدت

(١) انظر الخطاب الخامس الذي ألقاه جوليان . غير أن كل المجازات التي صدرت من المدرسة الأفلاطونية لا تساوي انقطوعة الشعرية القصيرة التي ألفها « كاتولوس » في هذا الموضوع الغريب نفسه ، وفيها ترى وصفاً لهذا الرجل « آتيس » . وقد انتقل من أشد الحماس إلى الشكوى الحزينة مما لحق به من خسارة لا تعوض ، وهو وصف يتنير الشفقة في نفس الرجل ويبعث اليأس في نفس الخصي .

وخصصت لتكريمها - وقد تزور الأرض بين الحين والحين ، غير أن السموات هي العرش اللائق بمجدها ، وهي رمز هذا المجد - وسرعان ما تقبل جوليان النظام الثابت المتمثل في الشمس والقمر والنجوم دليلا على دوامها الأبدى ، كما أن أبعديتها هذه كانت دليلا كافيا على أنها من صنع الاله القادر على كل شيء ، وليست من صنع اله أقل مرتبة منه . وفي مذهب الأفلاطونيين كانت المرئيات مثالا للعالم غير المرئي ، وبما أن الأجرام السماوية قد شكلتها روح الالهة ففي مقدورنا اعتبارها أكثر الأشياء أهلا للعبادة الدينية . وهكذا ترى أن الشمس التي يسرى تأثيرها المنعش في الكون ويدعمه قد استحققت أن يعبدتها الناس على أساس أنها تمثل كلمة الله Logos أى الصورة الحية الرشيدة الخيرة للآب العاقل .

تعصب جوليان

عندما يفترق أى عصر من العصور الى الإلهام الأصيل ، فإن الناس يعوضون هذا النقص بالتعلق بالأوهام القوية التي تثير حماسهم ، ويفنون الدجل الزائفة - وإذا كان الكهنة الوثنيون في عهد جوليان هم وحدهم الذين مارسوا تلك الفنون تأييدا لقضية زائلة منتهية ، فربما جاز لنا أن نتغاضى عن ذلك الشيء على أساس أن الطابع الكهنوتي كان يتحو هذا النحو من حيث العادات ومن حيث المصلحة . غير أن الذي يبدو غريبا مشينا أن يسهم الفلاسفة أنفسهم في اساءة استغلال تصدير الناس للخرافات (١) - وأن يستخدم الأفلاطونيون الحديثون ضروب الشعوذة أو استخارة الآلهة في مساندة الأسرار والغوامض اليونانية . فقد زعموا في زهو وخيلاء أنهم يتحكمون في نظام الطبيعة ، ويكشفون أسرار المستقبل ، ويستخلصون الأرواح السفلية ، ويتمتعون برؤية الآلهة العليا والتحدث اليهم ، وبأنهم يستطيعون تحرير النفس من قيودها المادية ، وبذلك يعيدون احكام الصلة بين هذه الذرة الخالدة وبين الروح الالهية اللانهائية .

ولقد كان جوليان تقيا ومحبا للاستطلاع دون أن يخشى في ذلك شيئا ، وأغرق كل هذا فلاسفة عصره على أن يأملوا في غزو سهل

(١) قام سفسطاثيو « يونابايوس » بقدر من المعجزات لا يقل عن ذلك الذي قام به قديسو الصحراء والشيء الوحيد الذي ميز معجزاتهم هذه انها كانت من طابع أقل كابة . ولم يعمد أيمابليخوس الى استحضار الشياطين ذوي القرون والذيل ، ولكنه استحضر روح الحب أيروس وروح الحب أنتييروس من ناهوريتين مجاورتين . فخرج صبيان جميلان من الماء واحتضناه كوالدهما ، ثم انصرفا عندما طلب منهما ذلك .

ميسور يستطيعون به أن يحققوا أخطر النتائج ، بحكم مركز ذلك المرتد الشاب . ولقد تلقى جوليان أول مبادئ المذاهب الأفلاطونية من فم ايديسيوس ، الذى أقام فى مدينة برجاموس مدرسته الجواله المضطهدة . غير أن ذلك الحكيم الوقور كان يعانى تدهورا فى صحته لا يمكنه من أن يشبع حماس تلميذه ، ولا جده ودأبه ، ولا سرعة ادراكه وتفهمه للأمور ، ومن ثم فقد كلف جوليان اثنين من أعلم تلاميذه بأن يأخذوا مكان أستاذهم العجوز ، وهما كريسانتيس ويوسيبىوس . ويبدو أن هذين الفيلسوفين قد دبوا ووزعا فيما بينهما الدور الذى سوف يقوم كل منهما به ، وحاولا فى دهاء ، بالتلميحات المريبة ، وبالمجادلات المفتعلة أن يثبوا الآمال المتلهفة فى تلميذهما المتطلع الطموح ، حتى القيا به فى يد زميلهم مكسيموس ، الذى كان أجرا وأمهر أستاذ لعلم المعجزات . وعندما بلغ جوليان العشرين من عمره رسمه مكسيموس سرا فى مدينة اقيسوس حضوا فى مدرسته الفلسفية ، كما أن إقامته فى أثينا ثبتت هذه الصلة غير الطبيعية بين الفلسفة والخرافات . ثم حصل على ميزة معرفة الأسرار الاليوزية التى ظلت تحتفظ ببعض قدسياتها الأولى وسط التدهور العام الذى اعتور العبادة اليونانية . وبلغ به الحماس درجة جعلته يدعو الحبر الاليوزى فيما بعد الى بلاط الغال مستهدفا فى ذلك غرضا واحدا هو أن يكمل هذا الحبر ، بتقديم القرابين وأداء الشعائر السرية ، عملية التقديس العظيمة التى أرادها لنفسه . وبما أن تلك الاحتفالات أقيمت فى أعماق الكهوف فى سكون الليل ، وبما أن جوليان الذى أقيمت هذه الاحتفالات من أجله ، قد احتفظ لنفسه بأسرار الغوامض التى حدثت ، على اعتبار أنها أسرار لا يمكن البوح بها ، فأتى لن أخوض فى وصف الأصوات المزعجة التى سمعها بأذنيه والأشباح النارية التى رآها بعينه ، أو التى خيل إليه أنه سمعها وأبصرها ، وهو المتطلع الطموح الذى يصدق كل شيء (١) ، حتى بدت عليه علائم الراحة والمعرفة فى وهج من نور سماوى . وفى كهوف اقيسوس واليوزيا نفذ الى عقل جوليان حماس صادق عميق لا يعثره التغير ، رغم ما كان يظهره فى بعض الأحيان من تقلبات الخداع والنفاق التى يتسم بها المتدينون ، والتى يمكن ملاحظتها ، أو على الأقل يمكن الارتياح فى وجودها ، فى أخلاق من يستبد بهم التعمصب . ومنذ تلك اللحظة وقف حياته على خدمة الآلهة . ورغم أن

(١) عندما رسم جوليان علامة الصليب ، لم لحظة دعر مؤقتة ، اختفت الأرواح على الفور . ويعتقد جريجورى أنها خافت . غير أن الكهنة أعلنوا أنها استامت وغضبت .
والمقارئ أن يقرر فى هذه المسألة العويصة ما يراه على قدر إيمانه .

مشاغل الحرب والحكم والدراسة كان يبدو أنها تشغل كل أوقاته .
 إلا أنه كان يخصص جزءا محددا لا يجيد عنه من ساعات الليل لممارسة
 عبادته الخاصة . وكان ما فى خلقه من اعتدال جعل به السلوك العنيف
 الذى يتسم به الجندى والفيلسوف ، متصلا بقواعد صارمة قليلة الوزن
 من التقشف الدينى ، فكان فى أيام معينة ، وتكريما للاله بان أو الاله
 مركورى أو للاله هيكيت أو للالهة ايزيس ، يحرم نفسه من تناول طعام
 بعينه قد لا ترضى عنه الالهة الوصية عليه . وبهذه الصيامات الاختيارية
 كان يهيئ ادراكه للزيارات الكثيرة المألوفة التى تشرفه بها القوى
 السماوية . ورغم أن جوليان قد أخذ نفسه بالصمت المتواضع ، إلا أننا
 نعلم من صديقه المخلص « ليبانيوس الخطيب » ، أنه كان على اتصال دائم
 بالآلهة ، وأن هؤلاء الآلهة كانوا يهبطون الى الأرض للتمتع بحديث بطلهم
 المفضل ، فانهم كانوا يقطعون عليه نومه فى لين ورقة ويلبسون يده أو
 شعره ، وأنهم كانوا يحذرونه من كل خطر محقق به ، ويرشدونه بحكمتهم
 المعصومة من الخطأ فى كل عمل من أعمال حياته ، وأنه اكتسب من المعرفة
 الوثيقة بضيوفه السماويين ما كان يمكنه من التمييز بين صوت جوبيتر
 وصوت مينرفا ، وبين شكل أبولو وشكل هرقل ولا شك فى أن كل
 رؤى النوم أو اليقظة هذه ، وهى نتيجة عادية للمتعب والتقشف ، يمكن
 أن تهبط بالامبراطور الى مستوى راهب من رهبان مصر ، غير أن
 انطونيوس وباخوميوس قد استنفدا حياتهما الثقافية فى مثل هذه
 الاهتمامات الباطلة ، وكان فى مقدور جوليان أن يصحو من أحلام
 الخرافة ليجهز نفسه للمعركة . وبعد أن يقهر فى ساحة الحرب أعداء
 روما ، كان ينسحب فى هدوء الى خيمته ليملأ القوانين الحكيمة النافعة
 التى كان يستنها للامبراطورية ، أو ليوجه عبقريته الى متابعة الادب
 والفلسفة متابعة يرتاح لها وينشرح لها صدره .

وكان اوتداد جوليان الى الوثنية سرا خطيرا لم يعرفه الا المخلصون
 من رفاقه فى الأسرار الذين ارتبط بهم برباط الدين والصداقة المقدس .
 وسرت هذه الاشاعة السارة فى حذر وحرص بين أنصار العبادة القديمة ،
 وأصبح ما ينتظره من عظمة ومجد موضع آمال الوثنيين وصلواتهم
 وتكهناتهم فى كل ولاية من ولايات امبراطوريته . وكانوا جميعا يتحرقون
 الى البرء من كل سوء واستعادة كل خير على يد ذلك المهدى الملكى .
 ولم يبد جوليان أى اعتراض على حماس رغباتهم الورعة . بل اعترف
 فى براعة ومهارة بأنه يطمع فى بلوغ مركز يسمح له بأن يكون نافعا
 لبلاده ولدينه . غير أن خليفة قسطنطين كان ينظر نظرة عدائية الى ذلك
 الدين ، وكانت أهواؤه المتقلبة تنفذ حياته تارة وتهدها تارة أخرى .

وكانت فنون السحر والكهانة محظورة كل المحظر تحت حكومة استبدادية لم تتعال عن التصريح بأنها كانت تخشاهما ، وإذا كانت هذه الحكومة قد سمحت للوثنيين ، على غير رغبة منها ، بممارسة خرافاتهم ، فإن مكانة جوليان كانت لا تتيح له التمتع بهذا التسامح ، وسرعان ما أصبح جوليان ولي العهد المنتظر للملكة ، ولم يكن ثمة شيء آخر يهدى من روح المسيحيين ومن مخاوفهم التي كانوا محققين فيها سوى موت هذا الرجل . غير أن الأمير الشاب ، الذي كان يتطلع الى بلوغ مجد البطولة لا مجد الاستشهاد ، توخى لنفسه الامان بالمرأة في دينه ، وسمح له ينشر الوثنية وتساهلها بأن يشترك جهارا في عبادة الطاقة الأخرى التي كان يحتقرها في دخيلة نفسه ، وكان ليبيانيوس يعتبر نفاق صديقه هذا موضع المديح لا موضع النقد والتجريح . يقول ذلك الخطيب :

« كما ان تماثيل الآلهة التي لطختها الأقدار تقام ثانية في معبد فخم . كذلك أعيد جمال الحق الى عقل جوليان بعد أن تطهر من أخطاء وحماقات تعليمه . ولقد تغيرت أحاسيسه فعلا ، غير أن خطورة تصريحه بتلك الأحاسيس أرغمته على إبقاء مسلكه كما كان دون تغير . وهو لم يفعل كما فعل الحمار في قصة ايسوب الذي أخفى نفسه في جلد الأسد . بل ان أسدنا قد اضطر الى إخفاء نفسه في جلد حمار ، ورغم أنه آمن بما أملاه عليه عقله ، الا أنه رضى لقوانين الحرس والضرورة . ولقد ظل جوليان على ريائه هذا أكثر من عشر سنوات ، منذ أن أدخل في زمرة عارفي الأسرار في مدينة أفيسوس ، حتى بدأت الحرب الأهلية ، وعند ذاك أعلن أنه عدو لدود للمسيح وعدو لقسطنطينوس سواء بسواء . ولا شك في أن حالة الكبت هذه كان من شأنها أن تلهب ولاءه للعقيدة الجديدة ، ومن ثم فانه ما كان يفرغ من الوفاء بالتزامه حضور اجتماعات المسيحيين في بعض الاحتفالات الرسمية ، حتى كان يعود ، في لهفة المنحجب الولهان ، الى حرق البخور حرا مختارا في معابد جوبيتر ومركوري القائمة في قصره . غير أن كل عمل من أعمال الرياء هو بالضرورة شيء يؤلم الروح البشرية الصادقة ، ومن ثم فان ادعائه المسيحية زاده كراهية لديانة تكبت حرية عقله وتضطره الى التمسك بمسلك تنفر منه أنبل صفات الطبيعة البشرية . صفة الاخلاص وصفة الشجاعة .

وكان جوليان بطبيعة ميوله يفضل آلهة هوميروس وآلهة سكيبيوس على الديانة الجديدة التي أقامها عمه في الامبراطورية الرومانية ، والتي ينذر لها هو نفسه بسر المعبودية . غير أنه كان من المحتم عليه ، كفيلسوف ، أن يبرر انشقاقه عن المسيحية التي تؤيدها كثرة عدد معتنقيها وسلسلة من النبوءات ، وروعة المعجزات ، والاذلة التي لها وزنها ، ومن ثم فقد

ضمن كتابه ألفه الذى ألفه وسط الاستعدادات للحرب الفارسية جوهر
 تلك الحجج التى طالما دارت فى عقله زمنا طويلا . ولقد نسخ خصمه
 المتوقد كيرلس أسقف الاسكندرية بعض أجزاء من هذا الكتاب واحتفظ
 بها ، وهى تبين خليطا عجيبا من الذكاء والعلم ، ومن السفسطة والتعصب .
 وكانت رشاقة أسلوب الكتاب ومكانة مؤلفه من العوامل التى جعلت
 كتاباته تشد إليها الانتباه العام ، وطفئت شهرة جوليان وجدارته على جميع
 من وردت أسماؤهم فى قائمة أعداء المسيحية المارقين ، الى درجة أنها
 طمست اسم يورفيري الذى كان فى هذا المجال واسع الشهرة ذائع الصيت .
 ولقد أثر هذا الكتاب على عقول المؤمنين بصور مختلفة ، فاستمال بعض
 العقول ، وأزعج البعض ، وصدم البعض الآخر . أما الوثنيون ، الذين
 كانوا فى بعض الأحيان يشتبهون فى النزاع غير المتكافئ ، فانهم كانوا
 يستملون من ذلك الكتاب الذائع الذى ألفه مبشرهم الامبراطورى مادة
 لا ينضب معينها من الاعتراضات السفسطائية المليئة بالمغالطات . غير أن
 امبراطور الرومان ، فى موالاته لهذه الدراسات اللاهوتية ، تشرب
 بالتحيزات والأهواء المتزمتة التى يتسم بها معلمو الجدل والتزم التزاما
 لا رجعة فيه بالتمسك بأرائه الدينية والعمل على نشرها ، وبينما كان فى
 دخيلة نفسه يعجب بمهارته فى استخدام أسلحة الجدل ، فانه كان فى
 الوقت عينه يشك فى اخلاص خصومه أو يحقر مداركهم وفهمهم ، لأنهم
 يقاومون فى عناد قوة العقل وقوة الفصاحة .

وكان المسيحيون يشاهدون ردة جوليان فى فزع وسخط ، ويخشون
 بطشه وقوته أكثر من خوفهم من حججه ، أما الوثنيون فقد كانوا يشعرون
 بحماسة المشتعل ويتوقعونه منه فى لهفة أن يشعل على الفور نار الاضطهاد
 ضد أعداء الآلهة ، وأن يحقه المآكر الماهر سوف يبتكر ألوانا جديدة من
 أساليب التعذيب والقتل القاسية لم تكن معروفة لدى أجداده المتسمين
 بالفظاظة والمفتقرين الى الخبرة . غير أن ما كانت تعقده الأحزاب الدينية
 من آمال وما كان يساورها من مخاوف ، لم يتحقق ، لأن حاكم البلاد كان
 ينصف بانسانية حكيمة وبالحرص على سمعته ، وعلى السلام العام وعلى
 حقوق الانسان . ولقد تعلم من التاريخ والتفكير الفلسفى أن أمراض
 الجسم قد تعالج أحيانا بشئ من العنف المفيد ، غير أن الآراء الخاطئة التى
 يمتنقها العقل لا يمكن أن تتسائل بالحديد والنار ، فقد تجر الضحية
 كارهة مرغمة الى اللذيع ، غير أن قلبها يظل ينبض بالنقمة والسخط على
 ذلك الرجس الذى تقترفه أيدي أعدائها . ولا شك فى أن الظلم يذكى نار
 الثمناد الدينى ويزيده صلابة ، وما أن تنحسر موجة الاضطهاد حتى يتوب
 الذين استكانوا واستسلموا ، ويرفع الذين استشهدوا فى سبيل دينهم
 الى مصاف القديسين والشهداء . ولقد أحس جوليان أنه اذا استخدم

الأساليب القاسية الفاشلة التي استخدمها دقلديانوس وزملاؤه فانه سوف يطلع ذكره باسم الطاعية ويضيف مجدا جديدا الى أمجاد الكنيسة الكاثوليكية التي استمدت من قسوة الحكام الوثنيين قوة ونمو . وبفعل هذه الدوافع التي تحكم في تصرفات جوليان ، وخوفا من ازعاج سكية ذلك العهد غير المستقر فقد فاجأ العالم برسوم يليق برجل سياسي أو بفيلسوف ، منح بمقتضاه كل سكان العالم الروماني مزايا التمتع بالتسامح الحر الذي لا يميز فيه واحد على الآخر ، ولم يقبله المسيحيين الا بقيد واحد هو أنه حرمهم من القدرة على تعذيب أولئك الرعايا من زملائهم الذين وصوهم بذلك اللقب الكريه الملقوت ، لقب الوثنيين والمهرطقة . وتلقى الوثنيون اذنه الكريم ، أو قل أمره الصريح بفتح « كل » معابدهم . وبهذا أقدمهم على القور من القوانين الظالمة والمضايقات التعسفية التي نعموا بها تحت حكم قسطنطين وأبنائه . وفي الوقت عينه أعاد من المنع أولئك الأساقفة ورجال الدين الذين كان الملك الآريوسى قد أبعدهم ، وهم أتباع دوناسيوس ، وأتباع نوقاسيانوس ، واليونوميون (المتطرفون من أتباع أربوس) والمقدونيون ، وأولئك الذين كانوا أسعد حظا وتمسكوا بعقيدة مجمع نيقيا ، أعاد هؤلاء جميعا ، كل الى كنيسته ، وبما أن جوليان كان يفهم خلافتهم اللاهوتية ويسخر منها فقد دعا زعماء الطوائف المتخاصمة الى قصره حتى يستمتع بذلك المشهد الشائق ، مشهد صدامهم العنيف ، وفي بعض الأحيان كان ضجيج أصوات المتنازعين يدفع الامبراطور الى مخاطبتهم قائلا : « استمعوا الى ، لقد استمع الى الفرنجة ، وأصغى الى الجرمان » ، غير أنه سرعان ما كان يتبين أنه الآن أمام أعداء أشد حقا وأكثر عنادا . ومع أنه استخدم قدرته الخطابية فى حثهم على أن يعيشوا فى وفاق ، أو على الأقل فى ، سلام ، الا أنه أقتنع كل الاقتناع ، قبل أن يأمرهم بالانصراف من مجلسه ، بأنه لم يعد هناك ما يخشاه من اتحاد المسيحيين . وهذا التسامح المصطنع من جانب جوليان ينسبه اميانوس فى غير تحيز أو محاباة الى رغبة الامبراطور فى اثارة الانقسامات الداخلية فى الكنيسة ، ويقرر أن الخطة الماكرة التي دبرها لتقويض أسس المسيحية ، كانت وثيقة الصلة بتحمله الى إعادة الديانة القديمة للامبراطورية .

جوليان يعيد الوثنية ويصلحها

ما أن ارتقى جوليان عرش الامبراطورية حتى اتخذ لنفسه ، وفق عادات أجداده ، لقب الحبر الأعظم ، لا على أساس أن هذا اللقب هو أشرف القاب العظيمة الامبراطورية لحسب ، بل على أساس أن هذا المركز

هو أيضا مركز مقدس هام صمم جوليان على أداء واجباته في جده وتقوى . ولما كانت مشاغل الدولة تحول دون اشتراكه كل يوم في العبادة العامة إلى يقرم بها رعاياه ، فقد خصص في قصره معبدا لاله الشمس الذي كان يتعبد له ، وكانت حوائقه مملوءة بالتماثيل وحياتل الآلهة ، كما أن كل جناح في القصر كان يبدو عليه مظهر المعبد الفخم . وفي كل صباح كان الامبراطور ينحدر ذبيحة تحية للشمس ربة النور ، وفي اللحظة التي تغرب فيها الشمس وراء الأفق كان ينحدر ذبيحة أخرى كما أن القمر والنجوم وأرواح الليل ، كان كل منها يلقي التكريم اللائق به من جانب الامبراطور الذي لا يصتريه تعب من تعبدته لتلك الآلهة . وكان في الاحتفالات الدينية الرسمية يزور بصورة منتظمة معبد الاله أو الآلهة التي كرس لها اليوم ، ويحاول أن يثير في الحكام وفي الشعب ذلك الحماس الديني الذي يضرب لهم مثله بما يبدية هو من حماس . ولم يكن في هذه المناسبات يبدو أمام الناس في مظهر الملك الرفيع ولا في رداء الملك الرائع المهييب ، يحف به الحراس في دروعهم المذهبة ، بل كان بدلا من ذلك يقوم ، في لهفة خاشعة ، بأحقر أعمال التعبد للآلهة فكان يندفع وسط جموع الكهنة الخليعين ذوي المراكز المقدسة ، ووسط رجال الدين الأقل منهم مرتبة ، ووسط الراقصات المكرسات لخدمة المعبد ، وكان عليه حينذاك أن يحضر الاختساب ، وينفخ في النار ، ويسك بالسكين ، ويذبح الضحية ، ثم يدفع بيديه المملطخين بالنساء داخل أحشاء الحيوان المذبح ليخرج قلبه أو كبده ، ويقرأ في مهارة العراف الكاملة تلك انعلائم التي تدل على الأحداث المقبلة . غير أن الافراط في هذه الخرافات المأجنة كان موضع نقد عقلاء الوثنيين ، لأنه لا يقيم وزنا للقيود والضوابط التي يفرضها العقل والوقار ، ورغم أن هذا الملك كان يتوخى قواعد الاقتصاد الصارمة ، إلا أن نفقات العبادة الدينية كانت تستهلك جزءا كبيرا جدا من الدخل ، فكانت أندر الطيور راجعها تنقل من أجوائها البعيدة لتذبح على هياكل الآلهة وكثيرا ما كان جوليان ينحدر مائة ثور قربانا للآلهة في يوم واحد ، وسرعان ما أصبح الناس يتمردون بأنه إذا عاد جوليان من الحرب الفارسية ظافرا فان سلالة الماشية ذوات القرون كلها سوف تفنى ، ومع ذلك فان كل هذه النفقات تبدو تافهة هزيلة إذا قيسست بالهدايا الفاخرة التي كان يمنحها الامبراطور بنفسه ، أو كانت تمنح بأمر منه ، إلى كل أماكن العبادة الشهيرة في العالم الروماني أو إذا قورنت بالمبالغ التي خصصت لاصلاح وزخرفة المعابد القديمة التي نالت منها معاول الزمن ، أو التي امتدت إليها يد المسيحيين حديثا بالسلب والتدمير . وكان سخاء هذا الملك التقى والمثل الذي ضربه لشعبه وأساليب الاغراء التي اتبعها ، كل أولئك كان مشسجعا للمدن

والأسرات على أن تمارس من جديد ما كانت قد أهملته من طقوس وشعائر . يقول ليبانيوس في حماس التقى والورع : « كان كل جزء من أجزاء العالم يعبر ، دون خوف ودون تعرض للخطر ، عن نصره الديانة وظفريها ، وكنت ترى في كل مكان منظر الهياكل الموقدة البهيجة ، والضحايا التي تسيل منها الدماء ، والدخان المتصاعد من حرق البخور ، وطابورا من الكهنة والمتنبئين الخاشعين . وكانت أصوات الصلاة والموسيقى تنردد على قمم الجبال الشامخة ، وكان الثور نفسه ينحر قربانا للآلهة وغذاء لعبادها المهللين الفرحين » .

غير أن عبقرية جوليان وقوته لم تكونا على قدر المهمة التي اضطلع بها ، وهي إعادة ديانة تفتقر الى المبادئ اللاهوتية ، والقواعد الاخلاقية . والنظام الكنسي ، ديانة تسير بخطوات سريعة الى التفكك والاضمحلال . ولا تقبل اى اصلاح ثابت ممكن . وكانت السلطة القضائية التي يمارسها الحبر الاعظم ، وخاصة بعد أن أصبح ذلك المنصب موكولا الى العظمه الامبراطورية ، تمتد الى جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية . وكان جوليان يعين في مختلف الولايات أولئك القساوسة والفلاسفة الذين كان يرى أنهم أحسن من يتعاونون على تنفيذ خطته الكبرى . وكانت رسائله الكهنوتية ، اذا جاز لنا أن نستخدم هذا اللفظ ، ترسم صورة عجيبة لرغباته ومقاصده ، فهو يقرر فيها أن الطائفة الكهنوتية في كل مدينة يجب أن تشكل من أكثر الأشخاص تميزا بحبهم للآلهة وللناس دون أى تفضيل للأصل أو الثروة . يقول جوليان : (فادا صدر منهم اى سلوك معيب فان الحبر الاعظم هو الذى يوجه اليهم اللوم أو يخفض رتبته الكهنوتية ، ولكنهم طالما ظلوا شاغلين لمناصبهم فمن حقهم أن يتمتعوا باحترام الحكام والشعب . وينبغى أن يتمثل تواضعهم فى بساطة أرديتهم العادية ، وأن تتمثل هيبتهم فى فخامة أرديتهم الدينية . وعندما تستدعى جماعة منهم للخدمة أمام الهيكل ، فينبغى عليهم فى الأيام المقررة لذلك العمل الا يغادروا حدود المعبد ، ويجب ألا يضيعوا يوما واحدا دون أن يقيموا الصلوات ويقدموا القرابين اللازمة لرفاهية الدولة وسعادة الأفراد . ان ممارسة مهامهم المقدسة تتطلب نقاء الجسم والعقل نقاء لا تشوبه شائبة ولا يمسه دنس ، وحتى عندما ينصرفون من المعبد لمباشرة أعمال حياتهم العادية ، فمن المحتم عليهم أن يبزوا بقية المواطنين وقارا وفضيلة . وينبغى ألا يشاهد كاهن الآلهة فى الملاهي والحانات وأن يكون حديثه طاهرا ، وطعامه معتدلا وأصدقائه ذوى سمعة شريفة . واذا قام بين حين وآخر بزيارة ساحة القضاء أو القصر ، فينبغى أن يسلك هناك مسلك المدافع عن أولئك الذين اتهموا بالعدالة أو الرحمة دون جدوى . ويجب أن تتلهم دراساته مع

قدسية مهنته . أما مكتبته فلا بد من أن تستبعد منها القصة الماجنة والملمهة الخلية ، وكسب الهجو المنطرفة . بحيث لا تشمل الا المؤلفات التاريخية القائمة على الحقيقة ، والكتابات الفلسفية المتعلقة بالدين . أما الآراء الضالة التي نادى بها الاليغوريون والمتسمدون فينبغي ان يكون موضع كراهيته واحتقاره (١) ، غير أنه ينبغي عليه أن يثابر على دراسة آراء فيثاغورس وأفلاطون والرواقيين ، وهى تلك الآراء التي تقرر أن هناك آلهة ، وأن هؤلاء الآلهة يدبرون شئون الدنيا بعنايتهم ، وأن احسانهم هو مصدر كل نعمة دنيوية ، وأنهم قد أعدوا للنفس الانسانية ما تستحقه فى المستقبل من ثواب أو عقاب . - ويشرح الجبر الامبراطورى فى أسلوب اعظم ما يكون اقناعا كل ما ينبغي أن يتضمنه الاحسان والكرم ويحث رجال الدين التابعين له على توصية الناس عامة بممارسة هذه الفضائل ، ويعددهم بأن يسد عوزهم من بيت المال ، ويعلن عن عزمه على إنشاء المستشفيات فى كل مدينة حيث يعالج الفقراء دون تمييز لبلد من البلاد أو لدين من الأديان ، مما يثير الكراهية أو الحقد . وكان جوليان يرقب فى غيرة ما سنته الكنيسة المسيحية من قواعد انسانية حكيمة ، ويقرر فى صراحة أنه يعتزم حرمان المسيحيين من التأييد الذى حصلوا عليه والمزية التي اكتسبوها نتيجة انفرادهم دون الوثنيين بممارسة أعمال البر والاحسان (٢) . وكانت روح التقليد هذه كفيلة بأن تدفع الامبراطور الى الأخذ بعدة نظم كنسية كان نجاح أعدائه دليلا على فائدتها وأهميتها . غير أن خطط الإصلاح الخيالية هذه ، لو أنها تحققت ، لجأت صورة ناقصة لا تطابق الأصل ، ولكانت أمرا يفرض على الناس فرضا ، بحيث لا تفيد الوثنية بقدر ما تشرف المسيحية . وكان الوثنيون يتبعون عادات أسلافهم فى هدوء وسلام ، ولا ينظرون الى ادخال الغريب عليهم من العادات نظرة الرضا بقدر ما ينظرون اليه بعين الدهشة . وكثيرا ما حدث من الظروف والمناسبات ما جعل جوليان فى فترة حكمه القصيرة يشكو من افتقار طائفته الى الحرارة والغيرة .

(١) اغنيان جوليان بأن هذه الطوائف ، بل وكتاباتها ، قد انثرت ، انما يتمشى مع خلق رجال الكهنوت ، غير أنه لا يجدر بالفيلسوف أن يكون راغبا فى أن يخفى عن معرفة الانسان أية آراء وحجج مهما كان قدر تعارضها ومخالفاتها لأرائه الخاصة .

(٢) غير أن ذلك - الى أن المسيحيين ، تحت شعار من الاحساس ، كانوا يفرون الأطفال على - لهم وابائهم ، وينقلونهم على ظهور السفن الى بلدان أخرى بعيدة ، حيث يخدمون - سحاياهم هؤلاء بحياة الفقر والعبودية .

ولو أن هذا الاتهام ثبت صحته - لكان من واجبه أن يعاقبهم لا أن يجعل أعمالهم موضع شكوا .

وكان حرص جوليان دافعا حفزه على أن يحتضن مريدى الاله جوبيتر كاصدقائه وأشقاائه الشخصيين ، وفى الوقت الذى كان يفض فيه الطرف قليلا عن مزية الثبات والجدد المسيحي ، كان يعجب بما اتصف به الوثنيون من مثابة نبيلة على التمسك بالهتهم جعلتهم يفضلون خطوة الآلهة على خطوة الامبراطور ، بل انه كان يكافئهم على ذلك . فاذا ما أخذوا بالأدب اليوناني مثل أخذهم بالديانة اليونانية ، كسبوا قدرا أكبر من صداقة الامبراطور الذى ضم آلهة الشعر والغنون الجميلة الى صفوف الآلهة التى يدين لها بالخضوع والطاعة . وكانت الديانة التى أخذ بها تعتبر التقوى والعلم صنوين ، ومن ثم فان جمهورا من الشعراء والفلاسفة وأرباب الخطابة والبيان سارعوا الى البلاط الامبراطورى لشغل الوظائف الشاغرة التى كان يشغلها الأساقفة الذين كانوا قد استحوذوا على ثقة قسطنطينوس ، اما خلعه جوليان فكان يعتبر روابط الاشتراك فى الاسرار الدينية أكثر قدسية من روابط قرابة الدم ، ومن ثم فقد اختار المقربين اليه والمفضلين لديه من بين الحكماء الماهرين فى علوم السحر والكهانة الغامضة ، وكل محتال دجال يدعى القدرة على كشف أسرار المستقبل ، كان فى مقدوره أن يتمتع فى حاضره بما يقدفه عليه الامبراطور من تشریف وميسرة . ومن بين هؤلاء الفلاسفة كان مكسيموس يحتل أسمى مراتب الصداقة لدى تلميذه الملكى الذى كان يفضى اليه ، فى ثقة كاملة ، بأعماله وأحاسيسه وخططه الدينية ، ابان فترة القلق التى توقفت فيها الحرب الأهلية . وبمجرد أن استولى جوليان على قصر القسطنطينية ، بعث بدعوة كريمة عاجلة الى مكسيموس الذى كان اذ ذاك يقيم فى سارديس باقليم ليديا مع كريسانثيوس رفيق دراساته وزميل فنه ، ولقد كان هذا الرجل حريصا مؤمنا بالخرافات ، الأمر الذى جعله يرفض القيام برحلة أظهرت قواعد علم الغيب أنها تنذر بأشد الأخطار والمهلك . غير أن زميله مكسيموس كان أشد جرأة فى تعصبه ، فالحف فى السؤال والاستفسار حتى انتزع من الآلهة ما يبدو أنه موافقة على رغباته الخاصة ورغبات الامبراطور . وأظهرت رحلة مكسيموس الى القسطنطينية مارا بمدن آسيا أن الزهو بالفلسفة قد اكتسح الميدان ، فكان الولاة ينافس بعضهم بعضا فى استقبالات التكريم التى أعدوها لصديق مليكهم . وعندما علم جوليان بوصول مكسيموس ، وكان اذ ذاك يلقي خطابا أمام مجلس السناتو ، أوقف حديثه على الفور وتقدم للقاءه ، وبعد أن عانقه عناقا رقيقا قاده بيده الى وسط الاجتماع حيث اعترف علانية بما اكتسبه من تعاليم الفيلسوف . وسرعان ما اكتسب مكسيموس ثقة جوليان وأصبح له نفوذ على مجالسه ، غير أن مغريات البلاط أفسدت خلقه دون أن يحس ، فازداد فخامة فى

مبسه وتعاليا في مسلكه الى درجة أنه تعرض ، في العهد الذي تلا عهد جوليان ، الى تحقيق مشين سئل فيه عن الوسائل التي استطاع بها تلميذ أفلاطون أن يجمع في الفترة القصيرة التي نال فيها حظوة الامبراطور قدرا ضخما من المال يجلب الفضيحة على صاحبه . أما الفلاسفة والسفسطائيون الآخرون الذين دعاهم جوليان باختياره الى مقامه الامبراطوري ، أو الذين نحج مكسيموس في دعوتهم ، فان قلة منهم استطاعت أن تحتفظ ببراءتها أو بسمعتها ، ولم تستطع المنح السخية التي أعدها عليهم الامبراطور ، من أموال وأراضى وبيوت ، أن تشبع أطماعهم الجشعة ، وثار سخط الناس عليهم بحق عندما تذكروا حالة الفقر المدقع التي كان عليها هؤلاء الفلاسفة حين جاءوا ، وما يجب أن تتصف به مهنتهم من ترفع عن الأغراض ، ولم يكن من السهل على بصيرة جوليان النفاذة أن تنخدع دائما بما كان يجري أمامه ، غير أنه لم يكن راغبا في امتهان شخصيات أولئك الرجال الذين كانت مواهبهم موضع تقديره ، وكان يريد أن يتجنب لوما مزدوجا ، لوما على افتقاره الى التبصر ، ولوما على عدم ثباته على مبدأ واحد . كما أنه كان يخشى أن يحط من شرف الأدب والدين في نظر الدنيويين من الناس .

وكانت رعاية جوليان مقسمة قسمة متساوية بين الوثنيين الذين تمسكوا في صلابة عبادة أجدادهم وبين المسيحيين الذين دفعهم الحرص الى اعتناق دين مليكهم . وكان اكتساب عدد جديد من المهتدين (١) الى الوثنية شيئا يشبع فيه أهواءه الغالية على نفسه ، كما يشبع فيه غروره وميله الى الخرافات ، وسمع عنه أنه قال في حماس المبشرين انه حتى لو استطاع أن يجعل كل فرد من الأفراد أكثر ثراء من الملك ميداس ، وكل مدينة أعظم من مدينة بابل ، لما اعتبر نفسه ولي نعمة الناس الا اذا استطاع في الوقت عينه أن يرد رعاياه عن ثورتهم الضلالة على الآلهة الخالدة . وكان في مقدور هذا الملك ، الذي درس الطبيعة الانسانية ، وامتلك خزائن الامبراطورية الرومانية ، أن يشكل حججه ووعوده وهباته بما يناسب كل طائفة من الطوائف المسيحية ، ومن ثم فانه كان يعتبر الارتداد الى الوثنية ، لو أنه جاء في إخوانه ، ميزة في المرتد تعوض عن

(١) في عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، كان رعاياه من كل طبقة يتطلعون الى الحصول على اللقب المجيد ، لقب « انهادي » Convertisseur الذي يعبر عن حماسهم ونجاحهم في كسب المرتدين .

ولقد أصبحت هذه الكلمة والمعنى الذي تعبر عنه شيئا عتيقا في فرنسا ، وندرجه الا يدخلنا انجلترا ايها .

عيوبه ، بل وتكفر عن الجرائم التي ارتكبها لو أنه كان مجرماً . ولما كان الجيش أقوى أداة للحكم المطلق ، فقد حرص جوليان حرصاً خاصاً على إفساد ديانة قواته ، لأن عدم تعاونها معه كان كفيلاً بأن يعرض كل إجراء يتخذ للخطر والفشل . وكان فوزه في هذه المهمة أمراً سهلاً بقدر ما كان أمراً هاماً ، وذلك بفضل الخلق الطبيعي الذي كان يتصف به الجنود . وقد أخلصت فرق الجيش في بلاد الغال لعقيدة قائدهم المظفر ولمصائره ، وحتى قبل موت قسطنطيوس كان جوليان يصرح لأصدقائه ، في سرور ورضا ، بأن تلك القوات كانت تحضر في ولاء حار وشهية نهمة تلك الاحتفالات التي كان يقضيها في معسكره وينحر فيها مئات الثيران السمينة . أما جيوش الشرق التي تدربت تحت لواء الصليب ولواء قسطنطيوس ، فقد كانت في حاجة إلى أسلوب من الإغراء أشد دهاء وأكثر تكلفة . ففي أيام الاحتفالات الرسمية المصامة ، كان الامبراطور يتلقى ولاء قواته ويكافئها على جدارتها . وفي هذه المناسبات كان يحيط عرش ملكه بأعلام روما الحربية وأعلام الجمهورية ، وأزال اسم المسيح المقدس من علم قسطنطين الكبير (The Labarum) ، كما مزج شعارات الحرب والملك والخرافات الوثنية مزجاً بارعاً ، وكان من شأنه أن يجعل الجندي الذي يقدم تحية الإجلال لشخص مليكه ، أو لصورته ، يرتكب ذنب عبادة الأوثان . وكان الجنود يمرون في العرض تباعاً ، وقبل أن يتسلم الواحد منهم من يد جوليان منحة سخية تناسب رتبته وخدماته ، وكان يطلب منه أن يلقي حبات قليلة من البخور في النار المشتعلة فوق الهيكل . وربما اعترض على ذلك بعض المسيحيين المترفين ، وربما ندم على ذلك بعض آخر ، غير أن الأكثرية الكبرى كان يبهر نظرها الذهب ويرهبها وجود الامبراطور ، فترتبط بهذا الارتباط الإجرامى . وترغم على المواظبة على عبادة الآلهة في المستقبل بكل اعتبار من اعتبارات الواجب والمصلحة . وبكثرة تكرار هذه الحيل الماكرة ، وعلى حساب انفاق مبالغ ضخمة كانت تكفى لشراء خدمة نصف الأمم السكودية ، استطاع جوليان أن يحصل لجنوده على الحماية الموهومة التي تمنحها الآلهة ، وأن يكتسب لنفسه ذلك التأييد القوي الفعال الذي أراده من القوات الرومانية . وفي الحق أنه من المحتمل ، بل ومن المحقق ، أن إعادة الوثنية وتشجيعها ، قد أظهر عدداً كبيراً من أديان المسيحية الذين كانوا بدافع من النفع المؤقت ، قد اعتنقوا ديانة العهد السابق ، والذين عادوا بعد ذلك بنفس الضمائر المرنة المطاطة إلى العقيدة التي اتخذها خلفاء جوليان .

جوليان واليهود

فى الوقت الذى كان الملك التقي يعمل فيه دون انقطاع على ارجاع ديانة اسلافه ونشرها كان يدبر خطة عجيبة لاعادة بناء معبد اورشليم (بيت المقدس) . وفى رسالة عامة وجهها الى امة المجتمع اليهودى المشتتة فى ولايات الامبراطورية ، نراه يرثى لمحنهم ، ويدين ظالمهم ، ويمتدح ثباتهم ، ويعلن أنه حاميمهم الكريم ، ويعبر عن امله الورع فى أنهم ، بعد عودته من الحرب الفارسية ، سوف يأذنون له بأن يوفى ندور الشكر « للرب القادر على كل شئ » ، فى مدينة اورشليم المقدسة . ولا شك فى أن التزمت الدينى الاعمى الذى اتصف به هؤلاء المشردون اليوساء وعبوديتهم الوضعية لابه أن يتيرا اذراء امبراطور فيلسوف ، غير أنهم اكتسبوا صداقة جوليان بحكم كراهيتهم العاتية لاسم المسيح . وكانت معايه اليهود الفقيرة الجرداء تنير فيهم الكراهية والحقد نحو الكنائس النائرة المليئة بالمتعبدين ، غير أن قوتهم لم تكن معادلة لحقدهم ، ومن ثم فإن المتزمتين من رجال الدين عندهم كانوا يوافقون على اغتيال المرتد الى المسيحية سرا ، وكثيرا ما أثار صخبهم وضجيجهم الحرك للفتنة نائرة الحكام الوثنيين النزاعين الى الهدوء . وفى عهد قسطنطين أصبح اليهود رعايا لأبنائهم الثائرين المرتدين الى المسيحية ، ولم يمض زمن طويل حتى شعروا بمرارة طغيان هؤلاء عليهم ، وألقى الملوك المسيحيون شيئا فشيئا تلك الحصانات المدنية التى منحها أو أكدها لهم سفروس ، ثم قام يهود فلسطين بحركة شغب طائشة كانت فيسا يبدو ، مبررا لشنى أساليب الاضطهاد الناجمة التى ابتكرها اساقفة قسطنطينوس وخصيائه ضدهم . أما الحاخام اليهودى ، الذى كان لا يزال مسموحا له بممارسة سلطة قانونية مقلقة ، فقد أقام فى طبرية . وابتلأت مدائن فلسطين المجاورة ببقايا شعب طلل متمسكا فى شغف بأرض الميعاد . غير أن مرسوم هادريان تجدد ونفذ ، وكان أبناء هذا الشعب يرقبون من بعيد أسوار المدينة المقدسة التى دنسها فى نظرهم انتصار الصليب وولاء المسيحيين .

كانت اورشليم قائمة وسط أرض صخرية جرداء ، وكانت أسوارها تضم بينها جبل صهيون وأكرا داخل رقعة بيضوية الشكل مساحتها ثلاثة أميال انجليزية ، وأقيم الجزء الأعلى من المدينة وحصن داود صوب الجنوب على السفح المرتفع من جبل صهيون . وعلى الجانب الشمالى كانت مباني المدينة السفلى تغطي القمة القسيحة لجبل أكرا ، كما أن جزءا من التل المعروف باسم المرية ، مهدته وسوته أيدي الانسان ، كان يقوم عليه هيكل مهيب ضخم ، هو هيكل الامة اليهودية . وبعد أن دمر تيتوس

وهادريان ذلك الهيكل تدعيها نهائيا رسم على الأرض المقدسة شكل يمثل سن المحراث علامة على أن المكان أصبح محرما تحريما دائما . وبعد ذلك هجر الناس جبل صهيون وامتلات الرقعة الخالية من المدينة السفلى بالمباني الخاصة والعامة لمستعمرة « عيليا » The Aelian Colony ، وانتشرت هذه المباني فوق تل كلفاري Calvary المجاور لتلك المنطقة وكانت الآثار الوثنية تدنس تلك الأماكن المقدسة ، وكرسى معبد من المعابد للالهة فينوس في المكان المقدس الذي حدث فيه موت المسيح وبعثه ، ولسنا نعلم اذا كان ذلك شيئا متصودا أو أنه حدث مصادفة ، وبعد ثلاثمائة سنة تقريبا من تلك الأحداث العجيبة هدم معبد فينوس الدنس بأمر من قسطنطين ، وبعد أن أزيلت الأحجار والأتربة أبصر الناس ضريح المسيح المقدس . ثم أقام أول الأباطرة المسيحيين كنيسة فخمة في ذلك المكان المليء بالأسرار الغامضة المقدسة ، وكذلك امتدت أريحيته الورعة الى كل بقعة قدستها أقدم البطاركة وأقدم الأنبياء ، وأقدم ابن الله .

وقد جذبت أورشليم اليها جمهورا متلاحقا من الحجاج القادمين من شواطئ المحيط الاطلنطي ومن أقصى بلدان الشرق ، تتملكهم رغبة جامحة في رؤية الآثار القديمة الأصيلة التي يتمثل فيها فداؤهم وخلاصهم . محتدين في ورعهم وتقواهم حذو الامبراطورة هيلانة التي جمعت في كبر سننها بين سلامة الطوية وبين المشاعر الحارة التي يبعثها في الانسان ارتداد حديث الى الدين . ولقد اعترف الحكماء والأبطال الذين زاروا تلك الأماكن الشهيرة ، أماكن الحكمة والمجد ، اعترف هؤلاء جميعا بالالهام الذي تبعثه روعة المكان ، وكل مسيحي ركع أمام الضريح المقدس كان يعزو ايمسائه الحي وولاه الحار الى التأثير المباشر للروح الالهية . وكان حماس رجال الدين في أورشليم وربما طمعهم ونهمهم ، من العوامل التي عززت هذه الزيارات النافعة وزادتها . فكانوا يحددون بصورة تقليدية لا جدال فيها المكان الذي حدث فيه كل حدث مشهود ، ويعرضون الأدوات التي استخدمت في تعذيب المسيح ، كالمسامير والحربة التي اخترقت يديه ورجليه وجنبه ، وتاج الشوك الذي وضع على رأسه ، والعمود الذي جلد الى جواره ، وأهم من ذلك كله كانوا يعرضون الصليب الذي تألم فوقه ، والذي استخرج من بطن الأرض في عهد أولئك الملوك الذين أدخلوا رمز المسيحية في أعلام الجيوش الرومانية . وانتشرت دون مقاومة أخبار المعجزات التي كان يتحدث عنها لازما لتفسير ذلك الحدث الخارق ، حدث بقاء الصليب مدفونا لم يمسه سوء ، ثم الكشف عنه في الوقت المناسب . وكان هذا الصليب الأصيل في حراسة أسقف أورشليم ، يعرضه أمام الناس في جلال يوم أحد عيد القيامة ، وكان الأسقف وحده هو الذي يشجع ما في نفوس

الحجاج من ولاء عجيب بأن يمنحهم قطعاً صغيرة من الصليب الخشبي يوشونها بالذهب أو الجواهر ويحولونها معهم الى بلادهم ظافرين . غير أن هذا النوع من التجارة المربحة كان لابد أن ينتهى سريعاً بنفاذ المادة التي تباع وتشتري ، ومن ثم فقد أصبح من الأمور المجدية أن يفلح أن الخشب العجيب له قوة غامضة على النمو ، وأن مادته ، رغم تناقصها المستمر ، ظلت كاملة غير منقوصة . وقد كان من المتوقع أن قدسية المكان واعتقاد الناس بالمعجزة الدائمة لا يد أن يكون لهما بعض التأثير النافع المقيد على أخلاق الناس وإيمانهم . غير أن أكثر الكتاب الدينيين وقاراً لم يسعهم إلا الاعتراف بأن طرقات أورشليم كانت تضج بضوضاء التجارة وصخب اللذات . وأن كل ضروب الرذيلة من فسق وسرقة وعبادة أوثان وقتل وتسميم ، كانت شيئاً مألوفاً لدى أهل المدينة المقدسة . ولقد أثار ثراء كنيسة أورشليم ورفعة شأنها أطماع الراغبين فيها من آريوسيين وأرثوذكس ، وتجلت قدرات الأسقف كيرلس ، الذي أنعم عليه بعد موته بلقب « القديس » ، في ممارسة منصبه الأسقفى الوقور أكثر من أن تتجلى في حصوله على هذا المنصب (١) .

وكان جوليان يتطلع الى استعادة المجد القديم الذي كان لهيكل أورشليم بدافع من الغرور والطموح اللذين اتسمت بهما عقليته . وبما أن المسيحيين كانوا مقتنعين كل الاقتناع بأن صرح القانون الموسوى كله كان مقضياً عليه بالدمار الدائم ، فإن الإمبراطور السفسطاني كان يريد أن يجعل من نجاحه في تلك المهمة حجة براقية ضد الإيثار بالنبوءات وصدق الوحي والرؤيا (٢) . ولم يكن جوليان راضياً عن العبادة الروحية التي يمارسها المجتمع اليهودي ، غير أنه كان يحبذ أنظمة موسى الذي لم يترفع عن الأخذ بكثير من شعائر مصر وطقوسها . وكان الإله الذي يعبده اليهود سواء في مجتمعاتهم المحلية أو في مجتمعهم القومي موضح أعجاب صادق من

(١) نيز كيرلس رسامته الأريوثكسية قسيساً ويأمر أعمال الشمس ، ثم أعاد الأريوسيون رسامته قسيساً . غير أن كيرلس تغير مع الزمن . وكان من الحكمة بحيث اعتنق عقيدة « نيقيا » .

ويجل « تلمونت » ذكراء ويتناولها في لبن ورفق ، ومن ثم فقد تحدث عن فضائله في متن كتابه ، أما الأخطاء التي ارتكبها ، فقد أشار إليها إشارة عابرة في المذكرات التي نيل بها مؤلفه .

(٢) كشف العالم المتعسف وبرنث Warburton أسقف جلوسستر الراحل ، عن نوايا جوليان الخفية . وقد تحدث في ثقة العالم اللاهوتي عن مسلك الإله الأعلى وادافعه ويقسم حديثه عن جوليان بكل الخصائص التي تقسب الى المدرسة الواربيروتونية .

امبراطور يدين بتعدد الآلهة ، ولا يرغب الا في زيادة عددها . وكان هذا الرجل شديد النهم بالقرايين المموية الى درجة أنه كان يريد أن يبرز الملك سليمان في تقواه وورعه حين نحر في عيد التقدمة اثنى وعشرين ألف ثور ، ومائة وعشرين ألفا من الخراف . وربما كان لكل هذه الاعتبارات أثرها في مخططاته ، غير أن الأمل في تحقيق ميزة هامة عاجلة لم يسمح للملك المتعجل للأمور بأن يصبر حتى تنتهي الحرب الفارسية ، وهي حدث بعيد وغير أكيد . ومن ثم فقد صمم على أن يشيد ، دون إبطاء ، فوق المرتفع الشامخ من جبل موريه ، معبدا ضخما تتضاءل الى جانبه فخامة كنيسة القيامة القائمة على تل كلفاري المجاور ، وأن يشكل طائفة من الكهنة يكون لهم من الحماس لدينهم ما يمكنهم من كشف حيل منافسيهم المسيحيين ومن مقاومة أطماعهم ، وأن يدعو الى ذلك المكان جالية يهودية على درجة من الانتماء الشديد تدفعها دائما الى تأييد الاجراءات العدوانية التي تستخدمها الحكومة الوثنية ، بل وتسبقها اليها . ولقد اتخذ الامبراطور لنفسه صديقا فاضلا عالما ، هو ألبوريوس Alipius ، خصه من بين أصدقائه (اذا امكن أن تمشي كلمة امبراطور مع كلمة صديق) بالمكانة الأولى . وقد جمع اليبوريوس بين الحنان وبين العدالة الصارمة والجلد اللاتق بالرجال ، وبينما كان يمارس قدراته هذه في الادارة المدنية في بريطانيا ، كان ينظم المقطوعات الشعرية على نحو قصائد الشاعر اليوناني سافو في رقتها وانسجامها . وكان جوليان يفضي الى هذا الوزير دون تحفظ بأشد حماقاته طيشا وبأخطر آرائه ، فكلفه بمهمة عجيبة غير عادية ، وهي أن يعيد بناء هيكل اورشليم في جماله الأول الاصيل ، ولقي اليبوريوس في هذا العمل الذي باشره بجهد ومثابرة تأييدا قويا من حاكم فلسطين ، اذ كان العمل في حد ذاته يتطلب مثل هذا التأييد ، وعندما تلقى اليهود دعوة من مذهم العظيم جوليان الى اورشليم اجتمعوا من كل ولايات الامبراطورية فوق جبل اجدادهم المقدس ، وأزعج انتصارهم الفاجر سكان اورشليم المسيحيين ، بل وأثار سخطهم وغضبهم . ولقد كانت الرغبة في اعادة بناء المعبد عاطفة تملك أبناء اسرائيل في كل العصور وفي تلك اللحظة الموفقة نسي الرجال جشعهم ، ونسى النساء رقتهن ، فتقدم الأغنياء المغرورون بمحاول وفؤوس من الفضة ، وقللت الأتربة في عبادات من الحرير . وأسهم كل انسان بأمواله في گرم وسخاء ، وامتدت كل يد تطلب الاشتراك في ذلك العمل الصالح ، ونفذ شعب بأسره في حماس أوامر الملك العظيم .

ومع ذلك ، فإن تضافر القوة والحماس في مجهود مشترك لم يصب في تلك المناسبة نجاحا ، وبقيت أرض الهيكل اليهودي ، التي يقوم عليها الآن مسجد اسلامي ، كما كانت عليه من قبل ، مشهدا للخراب والدمار ،

ومنهلا للعبر . وربما كان غياب الامبراطور ثم موته ، ومعجىء عهد مسيحي ببادئ الجدينة ، هما السبب الذى يفسر توقف عمل مجهد شاق باشره اصحابه فى الشهور الستة الأخيرة من حياة جوليان . غير أن المسيحيين كان يراودهم أمل طبيعى دينى فى حدوث معجزة خارقة تشد أزر شرفهم الدينى فى ذلك الصراع المشهود . وهناك من الأدلة المعاصرة الموثوق بها ما يؤيد ، فى قليل من الاختلاف ، حدوث زلزال ، وهبوب عاصفة هوجاء ، وثورة بركان عارمة ، دمرت الأسس الجدينة التى شادها اليهود للهيكل ، ومارحت بها فى جميع الأرجاء . ولقد جاء وصف هذا الحدث المشهود على لسان امبروز ، أسقف ميلان ، فى رسالة كتبها الى الامبراطور ثيودوسيوس ، وهى رسالة لا يد أن تثير على صاحبها أشد اللوم فى جانب اليهود . وذكره أيضا الحبر الأسمى كريسوستوم نقلا عن كانوا يكبرونه سنا من رجال الدين فى انطاكية ، وتحدث عنه كذلك جريجورن نازيانزن الذى نشر قصة المعجزة قبل انصرام السنة نفسها . وقد أعلن هذا الكاتب الأخير فى جراءة وشجاعة أن الكفار لم يكذبوا هذا الحدث الخارق للطبيعة ، وهذا القول . على غرابته ، تؤيده شهادة دافنة أدلى بها ثيميانوس ماركانيوس . وهذا الجندى الفيلسوف ، الذى أحب فضائل سيده جوليان دون أن يأخذ بتعصبه وتحيزه ، قد ذكر فى التاريخ الصادق المنصف الذى كتبه عن العصر الذى عاش فيه ، تلك العقبات المعجبة غير العادية التى حالت دون إعادة بناء معبد اورشليم . يقول هذا الكاتب : « بينما كان اليبسوس ، بمعاونة حاكم الولاية ، يقوم بتنفيذ العمل فى قوة ومثابرة ، كانت تنفجر الى جوار البناء ، فى هجمات كثيرة متكررة ، كرات نارية رهيبة تفلح اجساد العمال وتحرقها ، وتجعل دخولهم الى المكان مستحيلا . واستمرت النار على هذا المنوال فى عناد وتصميم ، كما لو كانت عازمة على طردهم بعيدا ، حتى اضطر الناس الى التخلي عن المشروع بأكمله » . ولا شك فى أن مثل هذه الحجة الموثوق بها تلقى لدى العقل المؤمن قبولا ، ويدهش لها العقل الذى لا يصدق كل ما يقال . ومع ذلك فإن الفيلسوف لابد أن يشعر بالحاجة الى الدليل الاصيل الذى يأتى به شهود عيان من الأذكياء الذين لا يحابون ولا يتحيزون . وفى مثل هذه الأزمة الخطيرة ، فإن أية حادثة عجيبة من حوادث الطبيعة قد تبدو كأنها معجزة حقيقية ، ويكون لها من التأثير مثل تأثير المعجزة . ومن ثم فقد تناول رجال الدين فى اورشليم هذا الحدث الذى كان فيه خلاصهم بالتهويل والتهذيب ، مستخدمين فى ذلك فنونهم الدينية ، ومستغلين استعداد العالم المسيحي لتصديقه والايمان به . وبعد انقضاء عشرين سنة على هذا الحادث ، جاز

لمؤرخ روماني لا يعبأ بالخلافات الدينية أن يزين مؤلفه بتلك المعجزة الرائعة المزعومة .

اضطهاد جوليان للمسيحيين

كانت رغبة جوليان في إعادة بناء معبد اليهود مرتبطة خفية برغبته في هدم الكنيسة المسيحية ، ولقد ظل جوليان محافظا على حرية العبادة الدينية دون أن يدرى اذا كان هذا التسامح العام صادرا عن عدالة أو عن دافع من الشفقة والرحمة . وكان يدعى بأنه مشفق على المسيحيين المتعساء الذين جانبهم الصواب في أهم هدف من أهداف حياتهم ، غير أن شفقتهم هذه كانت مشروبة باحتقار للمسيحيين زادت مرارة كراهيته لهم . وكان يعبر عن أحاسيسه هذه بأسلوب ذكي ساخر يصيب الضحية بجرح قاتل ، سيما اذا كان صادرا من شفاه ملك البلاد . ولقد أدرك جوليان أن المسيحيين يتفاخرون باسم المسيح ، مخلصهم وفاديتهم ، ومن ثم فقد شجع استخدام اسم آخر أقل تشريفا لهم وهو « الجليليون » ، ان لم يكن قد أمر بذلك . وأعلن أن حماقة الجليليين ، الذين وصفهم بأنهم طائفة من المتعصبين يحتقرون الناس وتمتقهم الآلهة ، قد دفعت الامبراطورية الى حافة الهلاك والدمار ، ولح في مرسوم عام أصدره بأن المريض اللئيم الذي لا يملك زمام نفسه قد يجدى في علاجه الصف أحيانا . وقد تملكك عقل جوليان وآراءه تفرقة ظالمة تتسم بالتعصب بين طائفتين من رعاياه ، تختلف كل منهما عن الأخرى في مشاعرهما الدينية . وكان يرى أن واحدة منهما جديرة بحظوته وصدافته ، وأن الطائفة الأخرى لا تستحق الا المزايا العامة التي يأبى عليه عدله أن يحرم منها شعبا مطيعا . وقد وضع جوليان مبدأ يفيض بالظلم والأذى ، نقل بمقتضاه الى أحبار ديانته هو حق التصرف في المنح السخية التي كان قسطنطين التقى وأبناءؤه قد أغدقوها من الخزانة العامة على الكنيسة المسيحية ، وقضى على ذلك النظام المجيد الذي كان يحدد مكانة رجال الكهنوت وحصاناتهم ، وهو النظام الذي وضع من قبل في كثير من العناية والمهارة . وكذلك سن من القوانين الصارمة ما هدم آمالهم في الحصول على الهبات التي كان يوصى بهسا الناس لهم . وهكذا أدخل القسوس المسيحيين في زمرة أحقر طبقات الشعب وأقلهم شأنا . وما هو جدير بالذكر هنا أن ملكا أرثوذكسيا حكيما جاء بعد جوليان ، سرعان ما انتقى من تلك القواعد التي وضعها ما رآه ضروريا لكبح أطماع رجال السياسة أو من انتعصب والتزمت ، على أن تكون قاصرة على أولئك الكهنة الذين يسلمون بديانة الدولة ، غير أن مشيئة المشرع لم تكن في هذا الشأن خلوا من التحيز والهوى ، وكان جوليان يهدف بهذه السياسة

الماكرة الى أن يحرم المسيحيين من كل المزايا والأمجاد الدنيوية التي أكسبتهم أجالا واحتراما في أعين العالم .

ولقد وجه نقد شديد عادل الى القانون الذي سنه جوليان وحرم به على المسيحيين تعلم فنون النحو والبلاغة . وكانت الدوافع التي ذكرها الامبراطور لتبرير هذا الاجراء الظالم التمييز ، من النوع الذي يكفل تكميم أفواه العبيد واستحسان المتملقين ، طالما بقي الامبراطور على قيد الحياة . ذلك أنه استغل استغلالا سيئا كلمة من الكلمات اليونانية مبهمة المعنى بحيث يمكن أن تعنى لغة اليونان ، كما يمكن أن تعنى ديانة اليونان ، وقال في احتقار ان أولئك الذين لا يجهرن بالايمان بديانة اليونان ، لا يحق لهم أن يطالبوا أو يتمتعوا بمزايا العلم ، وأكد في غرور أنهم اذا رفضوا عبادة آلهة هوميروس وديوسستين ، وجب عليهم أن يقنعوا بشرح انجيل لوقا وانجيل متى في كنائس الجليليين . وكان تعليم الشباب في كل مدن العالم الروماني موكولا الى أساتذة النحو والبلاغة الذين ينتخبهم الحكام ، وينفقون عليهم من الأموال العامة ، ويخصونهم بالكثير من الامتيازات المشرفة المربحة . ويبدو أن مرسوم جوليان شمل الأطباء وأساتذة كل الفنون الحرة . وبما أن الامبراطور قد احتفظ لنفسه بحق التصديق على طلبات مراوطة هذه المهنة ، فقد أصبح في مقدوره بحكم القوانين أن يعاقب أعلم المسيحيين على ثباتهم الديني اذا ثبتوا ، أو يفسد هذا الثبات اذا ما أرغموا على التحول عن دينهم . وقد ترتب على هذا الوضع أن استقال المعلمون الأكثر عنادا وصلابة ، وفتح المجال على مصراعيه أمام السفسطينيين اللوثنيين الذين أصبحوا سادة الموقف دون منازع أو منافس ، وطلب جوليان من شباب الجيل الصاعد أن يتجهوا في حرية الى المدارس العامة ، وكله ثقة في أن عقولهم الغضة سوف تتلقى هناك انطباعات الأدب والوثنية . فاذا تورع الجزء الأكبر من الشباب المسيحي عن قبول هذا النوع الخطر من التعليم ، أو اذا رفض آباؤهم ذلك العرض ، فانهم سوف يحرمون ، في الوقت عينه ، من مزايا التعليم الحر . وكان جوليان على حق في توقعه أن الكنيسة سوف تعود نتيجة لذلك الى حالتها البدائية البسيطة في غضون سنوات قليلة ، وأن رجال الدين الذين كانوا يملكون قدرا مناسباً من علم ذلك العصر وفصاحته ، سوف يخلطهم جيل من المتعصبين الجهلاء غير المتبصرين الذين لا يستطيعون الدفاع عن صديق مبادئهم أو التشهير بمختلف حماقات الوثنية .

ولا شك في أن جوليان كان راغبا في حرمان المسيحيين من مزايا الثروة والعلم ، وكان يرسم الخطة لذلك . غير أن إبعادهم عن كل الوظائف

التي يكون صاحبها موضع الثقة . التي تدبر عليه ربحا ، كان اجراء ظالما يبدو أنه جاء نتيجة سياسته العنيفة أكثر منه نتيجة لأى قانون وضعى . ورغم أن أصحاب الكفاية الممتازة كانوا يستحقون بعض الاستثناءات غير العادية ويحصلون عليها ، إلا أن أكثرية الموظفين المسيحيين أبعدوا شيئا فشيئا عن وظائفهم فى الدولة وفى الجيش وفى الولايات . كما أن آمال طلاب الوظائف فى المستقبل تحطمت على يد حكام يعلن على الملأ تحيزه ضدهم ، ويذكروهم فى عقد وخبث أنه ليس من حق المسيحي أن يستخدم سيف القتال أو سيف العدالة ، ويعنى بحماية معسكرات الجيش وساحات القضاء بشعارات الوثنية . وقد سلم جوليان سلطات الحكم الى الوثنيين الذين أظهروا حماسا متقددا لديانة أسلافهم ، وبما أن اختيار الامبراطور كان فى أكثر الأحيان نتيجة توجيه الكهان والمعرافين فان أولئك المحظوظين الذين كان يفضلهم على أساس أنهم أكثر الناس قبولاً لدى الآلهة لم يكونوا دائما موضع الرضا من الناس . ولهذا عانى المسيحيون كثيرا تحت حكم أعدائهم ، وكان ما يخشونه أكثر مما يعانون . ولم يكن جوليان ميالا بطبعه الى القسوة ، كما أنه كان يهتم بسمعته التي تتطلع اليها عيون العالم ، وهذا كله جعله يتورع عن خرق قوانين العدالة والتسامح التي وضعها بنفسه منذ وقت قريب . غير أن المنفذين لسلطته من حكام الولايات لم يكونوا محل الأبصار مثله ، وكانوا ، فى ممارستهم لسلطتهم المطلقة ، يتلمسون رغبات ملوكهم أكثر مما يتلقون أوامره ، ومن ثم فانهم وجدوا لديهم من الجراءة ما جعلهم يمارسون طغيانهم السرى الكيدى على أبناء تلك الطوائف الذين لم يكن مسموحا لهم بقتلهم ، حتى لا يكتسبوا بذلك شرف الاستشهاد . أما الامبراطور فقد تظاهر أطول مدة ممكنة بأنه لا يدري شيئا عن أعمال الظلم التي كانت تمارس باسمه ، ولكنه كان يعبر عن شعوره الحقيقى بجلاء مسلك موظفيه بالتأنيب الرقيق أو المكافآت السخية .

وكان أمضى سلاح من أسلحة الظلم والاضطهاد فى أيديهم ، ذلك القانون الذى يحتم على المسيحيين أن يقدموا تعويضا كاملا مناسباً عن المعابد التي دمرها فى العهد السابق . ولم تكن الكنيسة فى ذلك الوقت السابق تنتظر موافقة السلطات العامة على هدم المعابد ، بل كثيرا ما كان الإساقفة ، وهم فى مأمن من العقاب ، يسبرون على رأس طوائفهم لمهاجمة وتدمير حصون ملك الظلام . وكانت الأراضي الموقوفة على المعابد والتي آلت بعد هدم المعابد الى الملك أو الى رجال الدين ، محددة المعالم ومن السهل اعادتها الى أصحابها غير أن المسيحيين ، فى كثير من الأحوال ، كانوا قد أقاموا صروحهم الدينية على هذه الأراضي وعلى أنقاض معابد الخرافة

الوثنية ، ولما كان من الضروري أن تزال الكنيسة قبل أن يشاد المعبد من جديد ، فقد أشاد فريق الوثنيين بمدالة الامبراطور وتقواه ، بينما اعتبر الفريق المسيحي هذا العنف من جانبه تدنيسا للأماكن المقدسة ، وصبوا سخطهم ولعناتهم عليه . وبعد أن هدمت كنائس المسيحيين ومهلت الأرض ، أصبحت إعادة بناء معابد الوثنيين الضخمة التي كانت قد سويت بالتراب ، واسترداد الخزخارف الثمينة التي حولها المسيحيون إلى ما يستفيدون منه ، أصبح كل ذلك أمرا يتطلب نفقات ضخمة في صورة تعويضات وديون . ولم يكن لدى المتسببين في تلك الأضرار وهم المسيحيون ، قدرة ولا استعداد للوفاء بهذه المطالب المتركمة ، ولو كان المشرع حكيما وغير متحيز ، لأظهر حكمته وعدم محاباته في تسوية شكاوى ومطالب طرفي النزاع عن طريق تحكيم عادل معتدل . غير أن الامبراطورية كلها ، والشرق بنوع خاص ، كانت في حالة ارتباك وفوضى من جراء المراسيم التي أصدرها جوليان في تسرع وتهور ، كما أن حكام الولايات الوثنيين ، الملتهمين حماسة ورغبة في الانتقام ، أساءوا استقلال الميزة القوية التي منحهم إياها القانون الروماني ، وهي أن المدين الذي لا يستطيع الوفاء بديونه ، ويصبح من حق دائئه أن يتصرف في شخصه مسادا للمدين . وقد حدث في المهد السابق أن الأسقف مرقس ، أسقف أرثوذا . كان قد استخدم في تحويل الناس إلى المسيحية أساليب أشد فعالية من مجرد الاقتناع ، ومن بين هذه الأساليب أنه ، في حماس لا يقبل تسامحا أو تسامحا ، هدم أحد معابد الوثنيين ، ومن ثم فإن حكام جوليان طالبوه بأن يدفع ثمن المعبد الذي هدمه كاملا . ولما كانوا على يقين من فقره ، فقد كانت رغبتهم الوحيدة أن يذلوا كبرياه العنيدة بأن ينتزعوا منه وعدا بدفع أتعفه تعويض . وكانوا يخشون العجز العجز ، فجلبوه بطريقة وحشية ، وفتقوا ذقنه ، ثم طلوا جسده العاري بعسل النحل ، وعلقوه في شبكة بين السماء والأرض عرضة لللدغ الحشرات ولأشعة الشمس السورية . غير أن الأسقف مرقس ظل ، وهو معلق على هذه الصورة ، يفخر بالجريمة التي ارتكبها ، ويوجه الاتهامات إلى معذبيه الماجزين الفاضلين . ثم أنقذ في نهاية الأمر من أيديهم ، وأصبح طليقا يستمتع بشرف نصره الإلهي . وأخذ الآريوسيون يسجدون فضيلة راعيهم التقى ، ويطمع الكاثوليك في تحالفه معهم . أما الوثنيون ، الذين ربما استشعروا الخزي والندم ، فقد أوقفهم ذلك عن تكرار مثل هذه القسوة عديمة الجدوى . ثم عفا عنه جوليان ، ومنحه حق الحياة ، غير أن أسقف أرثوذا كان هو الذي قد أظلم طفولة جوليان بحمايته ، ومن ثم فإن الجيل المقبل سوف يدين نكران الامبراطور للجميل بدلا من أن يستدح شفقتة .

معبد « دافنى » وغابتها المقدسة

على بعد خمسة أميال من أنطاكية ، كان ملوك سوريا المقدونيون قد كرسوا للاله أبولو مكانا للعبادة يعتبر من أفخم أماكن العبادة فى العالم الوثنى ، وشادوا هناك معبدا رائعا تكريما لانه النور ، وأقاموا له فى المعبد تمثالا ضخما يكاد يملأ المحراب الفسيح ، زينوه بالذهب واللازلى ، وتناولوه مهرة الفنانين اليونان بالزركشة والزخرفة ، وتمثل الاله فى وضع منحني وهو يمسك بيده قدحا مذهبا يسكب منه على الأرض خمرًا ، كما لو كان يتضرع الى الام الوقور أن تعيد الى ذراعيه محبوبته الجميلة المفاترة « دافنى » . ولقد أضفت الأساطير على ذلك المكان رونقا وجلالا ، وكان خيال الشعراء السوريين قد نقل هذه القصة الغرامية من شواطئ بتيوس Peneus الى ضفاف نهر الماسى Orontes وظلت مستعمرة أنطاكية الملكية تقلد الشعائر القديمة التى كان يمارسها اليونان . وكانت تتدفق من النافورة « القسطنطية » فى دافنى نبوءات تنافس فى صدقها وشهرتها تكهنات عرافة دلفى . وأقيم فى الحقول المجاورة ملعب كبير دفع ثمن التصريح ببنائه الى مدينة « ايلس » ، وكانت الألعاب الأولمبية يحتفل بها على نفقة المدينة ويصرف دخلها المقدر بثلاثين ألفا من الجنيهات الاسترلينية سنويا على ألوان اللهو العام . ونشأت الى جوار المعبد ، بصورة غير محسوسة ، قرية جميلة أهلة بالسكان هى قرية دافنى التى كانت تضارع فى فخامتها مدينة اقليمية دون أن يطلق عليها اسم المدينة ، وذلك نتيجة لتدفق الحجاج والمشاهدين على المكان بصورة مستديمة . وكان المعبد والقرية قائمين فى حضن غابة كثيفة من أشجار الفار والسرو يمتد محيطها عشرة أميال ، ويجد فيها الناس فى أحد أيام الصيف ظلا ظليلا رطبا لا تنفذ اليه أشعة الشمس . وتناثرت فى تلك البقعة آلاف الجداول التى تنساب فيها من كل تل أنقى المياه وأصفها ، فتحفظ للأرض خضرتها ، وللهواء حرارته اللطيفة ، ولم يكن يسمع فى تلك الغابة الهادئة الساكنة الا الأصوات الجميلة المتناسبة ، كما لم يكن يفوح منها الا العبير العطرى ، ومن ثم فقد خصصت للصحة والمرح ، وللترويح والحب . وكان الفتيان المنسلثون شبابا ينشدون هناك فتيات أحلامهم كما كان يفعل الاله أبولو ، أما العذارى الخجولات فقد وجدن فى مصير العذراء « دافنى » ما يشجعهم على التخل عن حماقة الحياء : وقد وجد للفلاسفة والجنود أنه من الحكمة ألا يعرضوا أنفسهم لاغراء تلك الجنة التى تفيض بما يشير الحواس ويستهوئ الأجساد ، حيث تتخذ الملذات طابع الدين ، وتذيب فضيلة الرجولة دون أن يشعر الانسان . ورغم ذلك فقد ظلت غابات « دافنى » عصورا كثيرة تتمتع باحترام الوطنيين والأجانب ، كما أن كرم

الاباطرة المتعاقبين أغدق على المكان المقدس مزيدا من الامتيازات ، وكان كل جيل يضيف زخارف جديدة الى رونق المعبد وروعته .

وعندما سارع جوليان ، يوم الاحتفال السنوي ، الى التعميد للاله أبوللو في معبد « دافني » كانت حرارة الايمان قد ارتفعت في صدره الى ذروتها تلهفا وولها ، وقد صور له خياله الملتهب أنه سوف يشاهد عظمة قرايين الشكر المقدمة للاله من ضحايا وخمور ويخور ، وموكبا طويلا من الفتيان والعذارى في ثياب بيضاء ترمز الى طهارتهم ، وجمعا غفيرا من الناس يهللون ويكبرون . غير أن حماس أنطاكية كان قد تحول منذ عهد المسيحية الى مجرى آخر . فبدلا من الثيران السمينة العديدة التي كانت تنحرها قبائل المدينة الثرية قربانا لالههم الذي يتعبدون له ، فإن الامبراطور لم يجد الا أوزة واحدة قدمها على نفقته الخاصة كاهن شاحب الوجه كان يعيش وحيدا فريدا في ذلك المعبد المتهدم (١) . وكان الهيكل مهجورا . وصوت الوحي صامتا ، أما البقعة المقدسة فقد دنستها الشعائر الجنائزية المسيحية . وكان قد حدث من قبل أن جثمان الأسقف بايلاس (أحد أساقفة أنطاكية) ، الذي مات في سجنه اثر حركة تعذيب أجراها ديسيوس بعد أن رقد قرابة مائة عام في قبره ، نقل بأمر من القيصر جالوس الى وسط غابة دافني . ثم أقيمت كنيسة رائعة فوق قبره ، واغتصب جزء من الأرض المقدسة ليعيش عليها رجال الدين ، ولكي يدفن فيها مسيحيو أنطاكية الذين كانوا يطمعون في الرقاد تحت أقدام أسقفهم ، ومن ثم فقد انسحب كهنة أبوللو وغادروا المكان مع جمهور المتعبدين له ، وهم خائفون ساخطون . وما أن بدت بوادر ثورة أخرى تهدف الى إعادة مجد الوثنية ، حتى هدمت كنيسة القديس بايلاس ، وأضيفت مبان جديدة الى ذلك الصرح المتهدم الذي شاده ملوك سوريا الاققياء . . . غير أن جوليان وجه أول وأهم ضلته الى انتقاد الهه المظلوم من المسيحيين الذين أسكتوا صوت الحماس أو صوت الدجل والخداع ، اذ كان وجود الأحياء منهم والأموات شينا كريها ومقوتا لديه . ومن ثم فقد طهر المكان الموبوء ، واتبعت في ذلك الطقوس القديمة ، فنقلت جثث الموتى في احترام ، وسمح لقساوسة الكنيسة بأن ينقلوا رفات القديس بايلاس الى موطنهم السابق داخل أسوار أنطاكية . وقد تخلى المسيحيون في حماسهم لهذا العمل عن مسلك التواضع الذي ربما كان كفيلا بتهدئة غيرة حكومة تناصبهم العداء ، فتنجست

(١) يظهر جوليان في كتابه « الميزوبوجون » (Misopogon) 'خلاق الشخصية في تلك السذاجة ، والبساطة الطبيعية التي لا يحس بها صاحبها والتي تشكل دائما عرضا للفكامة .

جباهير من الناس لا يحصى عددهم ، سارت وراء العربة التي نقلت جثمان نابيلاس ، ولازمتها واستقبلتها وكانوا ينشدون في أصوات مجلجلة مزامير داود التي تعبر أصلىق التعبير عن احتقارهم للأوثان ومن يصدونها . وكانت عودة جثمان القديس نصرا للمسيحيين ، وكان النصر امانة لدين الامبراطور الذي تعامل على كبريائه ، لكن يخفى استياءه . وخلال الليلة التي انتهى فيها هذا الموكب المتسم بالتهور ، أشعلت النار في معبد « دافنى » ، وأحرق تمثال أبولو وتركت أسوار البناء أثرا عاريا يبعث الرهبة فى القلوب . ولقد أكد مسيحيو أنطاكية فى ثقة دينية أن قوة شفاعة القديس نابيلاس هى التى وجهت بروق السماء الى السقف المقدس ، وأصبح جوليان أمام أمرين لا ثالث لهما ، فاما أن يؤمن بحدوث المعجزة ، أو يقرر أن فى المسألة جرما ، فاختار دون تردد ، ودون أى دليل لديه ، ولكن فى شئ من الاحتمال ، أن الجليليين هم الذين أشعلوا النار فى معبد دافنى ، بدافع من الانتقام . ولو أنه استطاع أن يثبت عليهم اقتراف ذلك الجرم ، ثباتا كافيا ، لكان هذا مبررا لما اتخذهُ فور ذلك من اجراء ثارى نفذ بأمر منه ، وهو اغلاق أبواب كاتدرائية أنطاكية ومصادرة ثروتها . وفى سبيل اكتشاف المجرمين الذين أثاروا الشغب ، وأشعلوا النار ، وقاموا بتهريب نفائس الكنيسة ، عذب الكثيرون من رجال الدين وقطعت رقبة سطران اسمه تيودور Theodore بمقتضى حكم أصدره حاكم الشرق . غير أن هذا العمل السريع كان موضع تأنيب الامبراطور ، الذى عبر عن أسفه الحقيقى . أو المصطنع ، لهذا الحادث ، قائلا ان وزراءه ، فى حماسهم المتهور ، سوف يصمون عهدهم بعار التعذيب والاضطهاد .

وسرعان ما كبت عبوس جوليان حماس وزرائه ، ولكن ، عندما يعلن أكبر الناس فى البلد أنه زعيم حزب ، فان انطلاقة الهياج الشعبى لا يمكن قمعها بسهولة ، ولا معاقبة أصحابها عقابا مناسباً . ولقد أشاد جوليان علانية باخلاص مدن سوريا المقدسة وولائها ، تلك المدن التى حطم سكانها عند أول اشارة أضرحة الجليليين ، وشكا بصورة ضعيفة من أنهم انتقموا للاساءات التى لحقت بالآلهة بطريقة أقل اعتدالا مما كان يريد . وهذا الاعتراف المعيب الذى عبر عنه كارها ، يبدو أنه يؤكد القصص الدينية التى تقول بأن الوثنيين ، فى مدن غزة ، وعسقلان ، وقيصرية ، وهليوبوليس ، وغيرها ، أساءوا استغلال لحظة انتصارهم ، دون حكمة أو تأنيب ضمير ، وأن التعمساء الذين انصببت عليهم قسوتهم لم يتخلصوا من العذاب الا بالموت ، وأن أجسادهم الممزقة ، بينما كانت تجر فى الطرقات ، كانت تطفن بأسياخ الطهارة ، وقرانيس النساء ، وأن أحشاء القساوسة المسيحيين والعذارى المسيحيات ، بعد أن كان ينوقها

أولئك المتعصبون المتعطشون للدماء ، كانت تخلط بالشعير ، وترمي في احتقار الى الحيوانات القذرة في المدينة . وهذه المشاهد ، التي تدل على الجنون الديني ، انما تمثل الطبيعة البشرية في أحط وأبشع صورها . غير أن مذبحة الاسكندرية تجذب قدرا أكبر من الانتباه ، من حيث ثبوت حقيقتها ، ومكانة ضحاياها ، وروعة عاصمة مصر .

القديس جورج

ولد جورج في ابيغانيا باقليم قيليقيا Cilicia في حانوت أحد المنجدين ، وأطلق عليه والديه ، أو اكتسب من تعليمه ، لقب « الكبادوكي » (من اقليم كبادوكيا) . ومن هذا المنبت الحقير المغمور أمكنه أن يرفع نفسه بمواهب الانسان الطفيلي ، واستطاع أسياده الذين كان يتسلقهم دون كلل أو ملل أن يحصلوا لتابعهم التافه الحقير على عقد تزويد الجيش بلحم الخنزير ، وهو عمل يدر عليه مالا وفيرا . وكان عمله هذا وضيعا قافها ، فجعله هو دينيا مبتذلا ، وجع المال بأحط وسائل النش والفساد ، غير أن مسلكه المغيب هذا بلغ من الخسة حدا أرغمه على الفرار من العدالة . وبعد هذه الفضيحة الشائنة ، التي يبدو أنه أنقذ فيها ثروته على حساب شرفه ، اعتنق الدعوة الآريوسية ، في حماس حقيقي ، أو حماس مصطنع . ويبدو أنه كان محبا للعلم أو للزهو به ، ومن ثم فقد جمع مكتبة قيمة من كتب التاريخ والبلاغة والفلسفة واللاهوت (١) ، واستطاع الكبادوكي أن يرقى الى كرسى الأسقفية الذي كان يشغله أنناسيوس ، بعد أن اختاره الحزب السائد في ذلك الوقت لشغل ذلك المنصب . وكان مسلك الأسقف الجديد مسلك أحد الغزاة البرابرة ، فلوث كل لحظة من لحظات عهده بالقسوة والجشع ، وأصبح كاثوليك الاسكندرية ومصر تحت رحمة طاغية هيأته طبيعته وتعليمه لممارسة التعذيب والاضطهاد ، غير أن يد اضطهاده امتدت في غير محاباة الى مختلف سكان أسقفيته الفسيحة سواء بسواء . واتخذ أسقف مصر مظهر العظمة والتسلط الذي يتفق مع مركزه الرفيع ، غير أن مسلكه كان يتم رغم ذلك عن ذلة ووضاعة أصله . فلقد أدى احتكاره

(١) بعد أن قتل جورج أرسل جوليان أوامره للاحتفاظ له بمكتبته ، ومعاقبة العبيد الذين يشتبه في أنهم أخفوا شيئا من الكتب . ويشيد جوليان بهذه المجموعة القيمة من الكتب التي استعار منها الكثير من المخطوطات ونسخها عندما كان يتابع دراساته في « كبادوكيا » . ومع أنه كان يرغب في تضييع مؤلفات الجليليين ، غير أنه كان يريد أن يحتفظ بسجل لتلك الكتب اللاهوتية ، حتى لا تبسح معها مؤلفات أخرى أكثر قيمة .

الكلبي الظالم للملح والورق ونترات البوتاس ودفن الموتى الى فقر تجار الاسكندرية ، كما أنه ، وهو الاب الروحي للشعب عظيم ، انحدر الى مستوى رجل ينقل أخبار الناس ويستخدم في ذلك مختلف الحيل الضارة الخسيسة . ولم ينس أهل الاسكندرية أو يصفحوها عن تلك الضريبة التي اقترحها على كل منازل المدينة ، مدعيا في ذلك ادعاء عقيما بأن الملك الذي أسس المدينة كان قد نقل الى خلفه من البطالة والقياصرة حق الملكية الدائمة للأرض . وكان الوثنيون قد انخدعوا بأمال التمتع بالحرية والتسامح في عهد ذلك الرجل ، غير أنهم أيضا أثاروا فيه جشعه الدني ، وتعرضت معاينهم الغنية في الاسكندرية للنهب أو الاهانة من جانب أسقف متشامخ كان يقول مهددا في صوت مسموع : « الى متى سوف يسمح لهذه الأشرعة بالبقاء ؟ » . وفي عهد قسطنطيوس طرد الشعب هذا الأسقف من منصبه ، غضبا عليه ، أو اقتصاصا للعدالة منه ، ولم تستطع سلطات الدولة المدنية والعسكرية إعادة سلطانه اليه واشباع رغبته في الانتقام ، الا بعد كفاح عنيف مرير . ثم جاء جوليان ، وأعلن رسول منه الى الاسكندرية خبر توليه العرش وعزل الأسقف في وقت واحد ، ثم اقتادت السلطات جورج واثنين من وزرائه الأذلاء - الكونت ديودوروس ، ودراكونتيوس المشرف على دار سك النقود - مكبلين بالأغلال الى السجن العام ، في صورة مخزية شائنة وبعد أربعة وعشرين يوما حطم جمهور من الوثنيين في غضبة عارمة أبواب السجن ، بعد أن ضاقوا ذرعا بشكليات الاجراءات القانونية المملة . ومات أعداء الآلهة والناس متأثرين بما لحق بهم من الاهانات وأعمال القسوة ، وحملت جثث الأسقف وزميليه على ظهر جمل طاف شسوارع المدينة . أما فريق أثناسيوس فقد ظل بعيدا عن تلك الحركة ، وكان هذا الهدوء من جانبه مثالا رائعا للصبر الذي تحدث عنه الانجيل . ثم أقيمت جثث هؤلاء الأشقياء المذنبين في البحر ، وأعلن زعماء الثوار عن عزيمتهم على هدم آمال المسيحيين وتحطيم ولائهم للأسقف ، وعلى الحيلولة مستقبلا دون منح شرف الاستشهاد لأولئك الذين عوقبوا ، كما عوقب أسلافهم ، على أيدي أعداء دينهم . وكان الوثنيون على حق فيما كانوا يخشونه ، كما أن احتياطاتهم كانت عديمة الجدوى . ذلك أن الموت الذي استحقه الأسقف معا من ذاكرة الناس ما فعله في حياته ، وكان هذا المنافس لأثناسيوس عزيزا ومقدسا لدى الآريوسيين ، وترتب على اعتناق أبناء تلك الطائفة للمسيحية أن أصبح ذلك الأسقف شخصية مقدسة في قلب الكنيسة الكاثوليكية . وهكذا ترى ذلك الغريب الممقوت الذي شوه كل طرف من ظروف الزمان والمكان ، وقد ألقى عليه بعد موته قناع الشهيد ، والقديس

والبطل المسيحي (١) ، وهكذا أيضا تحول (٢) ذلك الرجل الفاجر سيي ،
السمة ، جورج الكبادوكي ، الى سانت جورج ، قديس انجلترا الشهير ،
راعي الجلود والفروسيه ، وصاحب وسام ربطة الساق (٣) .

وفي نفس الوقت الذي ابلغ فيه جوليان نبيا اضطرابات
الاسكندرية ، تلقى نيا من مدينه اذاسا (الرها) Edessa بان رجال
حزب الآريوسيين التري المتطرس قد استهانوا بضعف الفنوصيين من اتباع
فلنتينوس « The Valentinians » وابوا من اعمال الشغب ما لا ينبغي ان
تقبله دولة منظمة ، وتتركه دون عقاب . فلم ينتظر الملك الغاضب
اجراءات العدالة البطيئة بل أرسل أمرا الى حكام اذاسا بمصادرة كل
أموال الكنيسة ، فوزعت أموالها على الجنود ، وأضيفت الأراضي الى
ممتلكات الحكومة ، وزاد من جور هذا الاجراء التسففي قول الملك في
سخريه أشد ما يكون عنه : « اني بهذا الاجراء انما أثبت اني صديق
مخلص للجليلين ، ذلك أن شريعتهم (التراثة) قد وعدت الفقراء بملكو
السماء . ومن ثم فقد أزلت عن كواهلهم عبء الممتلكات الدنيوية حتى
يسيروا في طريق الفضيلة والاخلاص بهمة أكثر » . واستطرد يقول
بلهجة أكثر جدية : « حذار اذن من أن تستنفدوا صبري ومشاعري
الانسانية . واذا استمرت هذه الاضطرابات فسوف أنتقم من الحكام بسبب
الجرائم التي يرتكبها الناس ، وسوف تلقون مني لا مجرد المصادرة والتف
فحسب ، بل النار والسيوف » . ولا شك في أن اضطرابات الاسكندرية
كانت أكثر خطورة وفتكا غير أنها أسفرت عن مقتل أسقف مسيحي على

(١) كان الجريجوريون ، وقديسو كيادوكيا ويازل يجهلون زميلهم المقدس ، وقد وضعه
البابا جيلاسبوس (٤٩٤ بعد الميلاد) ، وهو أول كاثوليكي يعترف بسانت جورج ، في
مصاف الشهداء ، الذين يعرفهم الله أكثر مما يعرفهم الناس . ولم يصد هذا البابا
ما سجل من أعمال جورج ، بل اعتبرها من خلق الهراطقة . وما تزال بعض هذه الأعمال
التي سجلت عليه محفوظة ، ومن الجائز أنها ليست أقدم أعماله . ومع ذلك فانه في
مقدورنا أن نبين تلك الحملة التي شنها سانت جورج الكبادوكي ، في حضرة الملكة
الكسندرا ، على « الشاعر الثناسيوس » ، من ثنايا قصة حياته .

(٢) ليس في مقدورنا أن نؤكد هذا التحول تأكيداً مطلقاً ، ولكننا نورد هنا من
قبيل الاحتمال الشديد .

(٣) هناك تاريخ عجيب لتقديس سانت جورج منذ القرن السادس (وكان إذ ذاك
مقدسا في فلسطين وأرمينيا وروما وفي ترينغز ببلاد الفال) أورده دكتور هيلن
Dr. Heylin في كتابه « Hist. of St. George » وقد بدأت شهرته وشعبيته
تظهر في أوروبا وخاصة في إنجلترا منذ الحروب الصليبية .

أبدى الوثنيين ، وأنتك لتجد في الرسالة العلنية التي أصدرها جوليان ، دليلا حيا على روح المحاباة التي كانت مهيمنة على حكمه . فقد مزج فيها نانيه لمواطني الاسكندرية بعبارات التقدير والعطف ، وأبدى أسفه لانهم في تلك المناسبة قد تغفلوا عن المسلك الرقيق الكريم الذي يدل على منبتهم اليوناني . ثم يلومهم بشدة على الاساءة التي ارتكبوها ضد قوانين العدالة والانسانية ، ولكنه يستعرض في شيء من السرور الواضح تلك الاثارات غير المحتملة التي عانوها من جراء الطغيان الفاشم الذي انتصف به جورج الكبادوكي ثم يقرر جوليان ذلك المبدأ الذي يقضي بأن الحكومة العاقلة القوية ينبغي أن تعاقب المذنبين المسيئين ، غير أنه ، اكراما للاسكندر مؤسس الاسكندرية ، واكراما لانهم سراجيس Serapis قد أصدر عفوا كريما حرا عن المدينة المذنبه ، التي يشعر نحوها بمحبة الأخ لأخيه .

جوليان واثناسيوس

بعد أن هدأت اضطرابات الاسكندرية ، ارتقى اثناسيوس عرش الاسكندرية الأسقفى الذي نبذ منه منافسه الوضيع نبذ التواة ، وسقط نهيل الشعب وتكبره . ولما كانت حكمة الأسقف عاملا في وجود زعيم شعبي جرىء على رأس المدينة الهائجة المضطربة ، وأنتك لثري في اللغة التي عبر بها عن استيائه ما يبين رأيه في شجاعة اثناسيوس وقدراته . ذلك أن أكديكيوس Ecdicius وإلى مصر ، أجل تنفيذ الحكم الصادر من جوليان بنفى اثناسيوس ، حرصا منه أو اهمالا ، وأخيرا وجه إليه الامبراطور رسالة لوم شديدة اللهجة أيقظته من سباته ، وقال فيها : « اذا كنت تهمل الكتابة لى عن أى موضوع آخر ، فإن من واجبك على الأقل أن تحيطنى علما بما فعلته مع اثناسيوس عدو الآلهة . ولقد أخبرتك عن نواياى منذ مدة طويلة ، وانى أقسم بالاله العظيم سيرايس أنه اذا لم يرحل اثناسيوس عن الاسكندرية ، بل عن مصر كلها ، قبل حلول شهر ديسمبر ، فإن موظفي حكومتك سوف يدفعون غرامة قدرها مائة وطل من الذهب ، وأنتك لتعرف طباعى جيدا فأنا بطيء في إصدار حكمي ، ولكنى أكثر بطئا في تسامحي وصفحي » . وعزز الامبراطور هذه الرسالة بملاحظة قصيرة كتبها بخط يده في نهاية الرسالة ، وقال فيها : « ان ما يوجه الى الآلهة من ازدراء واحتقار انما يملأ قلبى حزنا وسخطا ، وليس هناك ما يلد لي رؤيته أو سماعه أكثر من طرد اثناسيوس من مصر كلها . يا له من شقي كريبه بغيض ! ، لقد كان من نتائج وسائل الاضطهاد التي اتبعها أن قبلت المعمودية كثرات من أرقى السيدات اليونانيات وأرفعهن قدرا » .

ونم يأمر الامبراطور بقتل اثناسيوس سرراجه ، غير أن والى مصر أدرك انه لكي يضمن أمانا أكثر يجب عليه ألا يمهل أوامر مليكه الناصر ، بل يبالح في تنفيذها . ومن ثم فقد لجأ الأسقف في حرص الى أديرة الصحراء ، وأفلت بهارته المعتادة من شراك عدوه ، وعاش ليشهد انتصاره على وفات حاكم أعلن في كلمات مخيفة في معناها أن كافة سموم المدرسة الجليلية قد تجسدت في شخص اثناسيوس وحده .

لقد حاولت مخلصا أن أرسم صورة للطريقة الماكرة التي أراد بها جوليان أن يحصل على نتائج الاضطهاد ، دون أن يرمى بذنب الاضطهاد أو يلام على اقتترافه . ولكن اذا كانت روح التعصب القاتلة قد أفسدت قلب حاكم فاضل وضللت تفكيره ، فينبغي في الوقت عينه أن نعترف بأن الحساس الدينى والأهواء البشرية هي التي ضخمت آلام المسيحيين وزادتها حدة . ذلك أن صفات الدعة والاستسلام والصبر التي تميز بها حواريو الانجيل الأوائل ، قد أصبحت موضع استحسان خلفهم دون أن تكون مثلاً يحتذونه . وانك لترى المسيحيين ، بعد أن انقضى عليهم الآن أكثر من أربعين عاما وهم مسيطرون على الحكم المدني والدينى في الامبراطورية ، قد أصيبوا بحدوى الرفاهية والنقاىص المعيبة ، وسيطر عليهم الاعتقاد بأن القديسين وحدهم هم أصحاب الحق في حكم الأرض .

وما أن ناصبهم جوليان العداء ، وحرّم رجال الدين من تلك الامتيازات التي أغدقها عليهم قسطنطين ، حتى جأروا بالشكوى من أنه يضطهدهم أقسى الاضطهاد ، وأصبح تسامحه مع الوثنيين والهرطقة أمرا شائنا يدعو الى الحزن والأسى في نظر الفريق الأارثوذكسى . ومع أن الحكام أقلعوا عن أعمال العنف ولم يعودوا يجذبونها ، الا أن حماس الناس ظل يدفعهم الى ممارستها ، ففي بسينوس Pessinus قلب الناس عيكل الالهة كيبيلى Cybele ، وكاد ذلك أن يكون في حضرة الامبراطور . وفي مدينة قيصرية باقليم كبادوكيا ، دمر معبد « الحظ » Fortune

وهو مكان العبادة الوحيد الذى تبغى للوثنيين ، في ثورة شعبية عارمة . وفي تلك المناسبات لم يشأ الملك ، وهو الذى يحترم شرف الالهة ، أن يعترض طريق العدالة ، بل انه استشاط غضبا عندما علم أن المتعصبين الذين عوقبوا على اشعالهم الحرائق ، وكانوا يستحقون هذا العقاب ، قد كوفئوا بما يكافأ به الشهداء . وكان رعايا جوليان من المسيحيين يعلمون حق العلم بالخطط العدوانية التي كان يرسمها مليكهم ، وكانت كل واقعة من وقائع حكمه تدعوهم الى التذمر والشك وتثير فيهم مشاعر الخوف والغيرة . وكان أمرا طبيعيا أن يسفر التطبيق العادى للقوانين

عن اداة كثير من المسيحيين الذين كانوا يشكلون جزءا كبيرا من الشعب ، غير أن اخوتهم في المسيحية كانوا يقررون ، بدافع من التساهل ، ودون أن يبجسوا القضية ، أنهم أبرياء ، ويصدقون دعواهم ، ويلبسون صرامة قاضيهن الى حقه المحاباة الذي يتسم به الاضطهاد الدينى . وهذه المحن الحالية ، رغم أنها كانت تبدو محنا لا يمكن تحملها ، كان المسيحيون يصورونها على أنها مقدمة بسيطة لما ينتظرهم من كوارث . وكان جوليان فى نظرهم طاغية واسع الحيلة قاسى القلب ، أوقف تنفيذ انتقامه حتى يعود ظافرا من الحرب الفارسية ، وكانوا يتوقعون أنه بمجرد أن ينتصر على أعداء روما من الأجانب ، سوف ينزع عن وجهه قناع التظاهر المضنى وأن المدرجات سوف تسيل عليها دماء النسيك والأساقفة ، وأن المسيحيين الذين مازالوا مصرين على الجهر بعبادتهم ، سوف يجرمون من المزايا العامة التى يتمتعون بها بحكم الطبيعة وبحكم الاجتماع . ومن ثم فقد كان خصومه المسيحيون يصدقون كل وشاية تجرح سمعة جوليان « المرتد » خوفا منه وكراهية له ، ولا شك فى أن صخبهم وضجيجهم الأحق أثارا غضب مليكهم الذى كان من واجبه أن يحترموه ، ومن مصلحتهم أن يتملقوه . ولكنهم ظلموا يجهرون بأن صلواتهم ودموعهم هى سلاحهم الوحيد ضد الطاغية الزنديق ، الذى أساء الى الله ، وأنه لا يسعهم الا ترك أمر قصاصه الى عدالة السماء ، غير أنهم قالوا فى عزم وتصميم ان خضوعهم لم يعد نتيجة ضعفهم ، وإنه مادامت الفضيلة البشرية تفتقر الى الكمال ، فإن الصبر المستند الى المبدأ انما يستنفذه الاضطهاد . وليس فى مقدورنا أن نحدد مدى تغلب حماس جوليان على حكمته والنسائيته ، غير أننا اذا أخذنا فى اعتبارنا الجدى قوة الكنيسة وروحها ، فاننا سوف نقتنع بأن الامبراطور ، قبل أن يستطيع القضاء على ديانة المسيح ، لابد أن يكون قد أوقع بلاده فى فظائع حرب أهلية .

الفصل الرابع والعشرون

(٣٦٣)

انتخاب جوفيان • تأملات في موت جوليان

بدأ جوليان الحرب ضد الفرس في شيء من النجاح • غير أنه مع ذلك أُرغم على الانسحاب ، وأصيب بجرح مميت في معركة حاسمة فيما وراء نهر دجلة • ومات يوم ٢٦ يولية سنة ٣٦٣ •

انتخاب جوفيان

في مقدورنا أن نعزو انتصار المسيحية والكوارث التي حلت بالامبراطورية الى جوليان نفسه لأنه لم يرشح في الوقت المناسب ، وبطريقة فطنة حكيمة زميلا يخلفه بعد موته ، ويعتبر هذا اهمالا منه في ضمان تنفيذ مخططاته المستقبلية • غير أن سلالة قسطنطيوس كلوروس الملكية لم يتبق منها الا هو ، واذا كان قد فكر جديا في أن يرشح لتولي العرش أجدر من يستحقه من بين الرومان فان صعوبة الاختيار ، وغيخته على السلطة ، وخوفه من نكران الجميل ، وغرور الصحة والشباب والرفاهية ، كل أولئك كان كفيلا بأن يثنيه عن عزمه • ولقد ترتب على موته الفجائي أن أصبح عرش الامبراطورية شاغرا ، لا وريث له ، وفي حالة من الارتباك والخطر لم تتعرض لها خلال السنوات الثمانين التي انصرمت منذ انتخاب دقلديانوس • وفي حكومة كادت أن تنسى رفعة الدم النقي النبيل ، أصبح سمو المنبت شيئا قليل الأهمية ، وغدت حقوق المنصب الرسمي مزعزة تعتمد على الصدفة ، أما أولئك الذين كان من المحتمل أن يتطلعوا الى ارتقاء العرش الشاغر ، فلم يكن لهم من سند سوى شعورهم بما يتصفون به من فضائل شخصية ، أو آمالهم في نوال حظوة شعبية • غير أن موقف الجيش الذي كان يتضور جوعا ، وقد أحذقت به جفاف البرابرة من كل جانب ، لم يترك الكثير من

الوقت للحزن والتدبير . وفى وسط مشاهد الفزع والمحنة هذه حفظ
جثمان الملك الراحل فى اجلال واحترام ، بناء على توجيهاته الخاصة ،
وعند مطلع الفجر عقد القواد مجلسا حربيا دعوا اليه قواد القياتل
وضباط الفرسان والمشاة . ولم تكن قد انقضت ثلاث أو أربع ساعات
من الليل دون أن تدبر بعض المؤامرات ، وعندما قدم اقتراح انتخاب
الامبراطور ، بدأت روح الحزبية تنير الاضطراب فى الاجتماع . فالتف
الباقون من بلاط قسطنطينوس حول « فيكتور » و « ارتنيوس » وتجمع
أصدقاء جوليان حول زعيمى بلاد الغال « داجاليفوس » و « نفيتا » .
وخشى الجميع تلك النتائج المينة التى لابد أن يسفر عنها تنازع حزبين ،
كل منهما يناقض الآخر من حيث الأخلاق والمصلحة وقواعد الحكم ، وربما
من حيث المبادئ الدينية . ولم يستطع ضم صفوفهم وتوحيد آرائهم
الا الحاكم « سالوست » Sallust . بفضل ما كان يتصف به من
فضائل سامية ، وكان من الممكن على الفور أن ينصب هذا الحاكم الوقور
خليفة لجوليان لو أنه لم يصرح فى اخلاص وفى حزم وديع بأن كبر سنه
واعتلال صحته لا يتحملان ثقل التاج الامبراطورى . وقد دهش القواد
لرفضه ، وتملكتهم الحيرة ، وبدأ عليهم الميل الى الأخذ بنصيحة مجدية
تقدم بها أحد صفار الضباط ، وهى أنه ينبغي عليهم أن يتصرفوا الآن
كما كان لزاما عليهم أن يفعلوا لو كان الامبراطور غائبا عنهم ، وأنه يجب
عليهم أن يبدلوا كل ما فى مقبورهم لانقاذ الجيش من محنته الحالية ،
فاذا ما وفقهم الحظ الى بلوغ حيود العراق ، بدؤوا عملية انتخاب الملك
الشرعى مستعينين بأراء موحدة حازمة . وبينما كانوا يتناقشون ،
ارتفعت بعض الأصوات بتحية « جوفيان » Jovian ملقبة اياه باسم
امبراطور وباسم أغسطس ، مع أنه لم يكن سوى رئيس الحجاب .
وسرعان ما ردد الحراس المحيطون بالخيمة ذلك الهتاف الصاخب ، ثم
سرى الهتاف فى لحظات قصيرة الى نهاية صفوف الجنود ، ودهش الملك
الجديد لذلك الحظ الذى هبط عليه ، وسرعان ما البسوه الأردية
الامبراطورية المزركشة ، وأدى القواد أمامه يمين الولاء ، ثم طلب اليهم
جوفيان فى نهاية الأمر أن يمنحوه ودهم وحمايتهم . ولقد كانت أقوى
تزكية لجوفيان أن والده ، الكونت فارونيان ، كان رجلا فاضلا يعيش
فى عزلة شريفة ، متمتعا بشمار خدماته الطويلة . وكان الابن يشغل منصباً
غير رسمى يتمتع فيه بحريته بعيدا عن العيون ، ويشبع رغبته فى الخمر
والنساء ، الا أنه كان يتصف عن جدارة بأخلاق الرجل المسيحي وأخلاق
الجندي . ولم يكن متميزا بأية صفة من صفات الطموح التى تكبر اعجاب
الناس وحسدهم ، غير أن طامعه الجميلة ، وطباعه المرحية ، وما اشتهر

به من ذكاء ، كل أولئك أكسبه محبة ورفاقه الجنود ، ووافق قواد كل من الحزبين على ذلك الانتخاب الذي أجري دوني أن تستخدم فيه الأعياب أعدائهم . ولقد خفف من زهو الامبراطور الجديد بهذه الرفعة غير المتوقعة ما كان يخشاه من أن ذلك اليوم نفسه قد يكون نهاية حياته ونهاية حكمه ، ولم يكن في خوفه هذا بعيدا عن الحقيقة ، ومن ثم فقد أطاع صوت الضرورة الملحة دون إبطاء ، وكانت أول أوامر أصدرها جوفيان بعد انقضاء ساعات قليلة من وفاة سلفه هو أن يشن هجوما على العدو ، إذ لم يكن هناك من سبيل لانتقاذ الرومان من محتلتهم الحالية غير ذلك .

إن مخاوف العدو هي التي تعبر أصدق تعبير عن قدره وقوته ، ويمكن أن يقاس مدى هذا الخوف قياسا دقيقا بما يظهره من فرح لنجاته . ولقد نقل أحد جنسود الرومان الهاربين خبر وفاة جوليان إلى معسكر سابور Sapor ، وأوحى هذا الخبر السعيد إلى الملك اليأس الجزوع بثقة فجائية من أنه سوف ينتصر على الرومان . فأرسل على الفور الفرسان الملكية ، التي ربما كان قوامها عشرة آلاف من « الخالدين » ، لتقوية ومساعدة جيشه الذي كان يطارد العدو ورعى بكل ثقل قواته المتحدة على مؤخرة الرومان ، فحلت بها الفوضى ، وتحطمت الفيالق الشهيرة التي استمدت اسمها من دقلديانوس ورفاقه المحاربين الأشداء . ثم وطأنهم أقدام الفيلة ، وهلك ثلاثة قواد في محاولة منع جنودهم من الفرار . وأخيرا استطاع الرومان بشجاعتهم وصمودهم أن يملكوا زمام المعركة ، فصدوا الفرس وكبدوهم خسارة كبيرة في الأرواح ، وقتلوا الكثير من الفيلة ، وبعد أن قضى الجيش يوما طويلا من أيام الصيف في القتال والتقدم ، وصل في المساء إلى مدينة سامرا (سر من رأى) على شاطئ الدجلة ، وفوق « المدائن » Ctesiphon بما يقرب من مائة ميل . وفي اليوم التالي لم يحاول المتبربرون عرقلة تقدم الجيش ، ولكنهم ، بدلا من ذلك ، هاجموا معسكر جوفيان الذي كان قائما في واد عميق منعزل ، وبدأ دماء السهام الفرسى يوجهون سهامهم إلى القوات المجاهدة ، واستطاعت قوة من الفرسان أن تخترق في شجاعة مستميتة بوابة موقع الحرس الامبراطوري ، ولكنها أبعدت عن آخرها بعد صدام متأرجح بالقرب من خيمة الامبراطور . وفي الليلة التالية كان معسكر كارش Carhe في موقع تجبصنه شواطئ النهر المرتفعة . أما الجيش الروماني ، فرغم أنه كان معرضا بصورة مستمرة إلى ملاحقة القوات العربية ملاجمة تزعجه وتضايقه إلا أنه ضريب خيامه بالقرب من مدينة « ديورا » بعد أربعة أيام من موت جوليان . وكان نهر الدجلة إلى يسارهم ، وقد كادت آمالهم أن تنهار ، وكادت مؤنهم أن تنفذ ، أما الجنود

فقد عيل صبرهم ، وكانوا يمللون النفس بأن حدود الامبراطورية لم تعد بعيدة عنهم ، فطلبوا من ملكهم الجديد أن يسمح لهم بالمغامرة بعبور النهر . غير أن جوفيان ، بمعاونة أعقل ضباطه ، حاول أن يثنيهم عن ذلك التهور فائلا لهم أنهم حتى اذا كان لديهم من المهارة والقدرة ما يمكنهم من مواجهة تيار نهر عميق جارف ، فانهم لن يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من تسليم أنفسهم عراة عاجزين الى المتبريرين الذين احتلوا الضفة المقابلة . وأخيرا رضخ الى الحاجهم الصاخب ، ووافق مكرها على أن يقوم بالمخاطرة الجريئة خمسمائة من الفاليين والجرمان الذين درجوا منذ نعومة أظفارهم على السباحة في مياه نهر الراين ونهر الدانوب ، على أن تكون تلك المخاطرة مشجما أو نذيرا لبقية الجيش . وفي سكون الليل ، عبر الرجال نهر الدجلة ، وفاجأوا مركزا من مراكز العدو كان متروكا بغير حراسة ، وعند مطلع الفجر أعطوا لبقية الجيش علامة تدل على توفيقهم فيما عقدوا العزم عليه . وكان نجاح تلك المحاولة مشجعا للامبراطور على الاصغاء الى وعود مهندسيه الذين اقترحوا أن يقيموا قنطرة عائمة من جلود الخراف والثيران والماعز ، ينفخونها ثم يفتونها بالخطب والتراب . وانقضى يومان في هذا العمل المجهد غير المجدى ، وبدأ الرومان يعانون آلام الجوع ، وأخذوا ينظرون نظرة اليأس الى نهر الدجلة والى البرابرة الذين ازداد عددهم واشتد عنادهم ، بينما كان الجيش الامبراطوري في محنته .

وبينما كان الرومان في هذا الموقف اليائس ، دوى صوت يبشر بالسلام أنعش فيهم روحهم المنهارة . ذلك أن الغرور العابر الذي كان يملأ سابور كان قد زال ، وأخذ الملك الفارسي يلاحظ في جزع شديد أن المعارك المتكررة التي خاضها دون نتيجة أكيدة قد أفقدته أصمق وأجراً نبلاؤه ، وأشجع قواته ، والجزء الأكبر من قطيع القبيلة الذي يملكه . وخشى الملك المحنك أن يثير في أعدائه مقاومة اليأس ، ويعرض نفسه لتقلبات الخطر ، ولقوى الامبراطورية الرومانية المجهدة التي قد تتقدم لانقاذ خليفة جوليان ، أو للانتقام له . وذهب « السورناس » نفسه (لقب أحد كبار قواد الفرس) في صحبة أحد كبار حكام الولايات الى معسكر جوفيان ، حيث أعلن أن شفقة عليه لا تمنعه من تحديد الشروط التي يرضيها في مقابل افساح الطريق أمام القيصر وبقايا جيشه الأمير المحاصر ، ولأن عناد الرومان واصرارهم أمام الأمل في النجاة ، واضطر الامبراطور ، عملا بنصيحة مجلسه واستجابة لهتافات الجنود ، الى قبول عروض السلام ، وأرسل على الفور الوالى « سالوست » ومعه القائد « أرينثيوس » لمعرفة ما يطلبه الملك العظيم . غير أن ملك الفرس الداهية

أخذ يماطل ، بشتى الأعذار والادعاءات ، فى إبرام الاتفاق . فأنار المصاعب ، وطلب الإيضاحات ، واقترح الوسائل والسيبل ، وتراجع عما كان قد منحه ، وتغالى فى مطالبه ، وخصيخ أربعة أيام فى فنون المفاوضة ، حتى استنفذ مخزون المؤن التى تبقت فى معسكر الرومان . ولو أن جوفيان استطاع أن يتخذ اجراء جريئا حكيما لواصل سيره بجدة ودأب لا يفتر فى وقت توقفت فيه هجمات البرابرة بحكم وجود الاتفاق على إيقاف القتال ، ولاستطاع قبل انتهاء اليوم الرابع أن يصل فى امان الى مقاطعة كوردوين Corduene الغنية على بعد مائة ميل فقط من معسكره . غير أن الامبراطور المتردد ، بدلا من أن يخترق شباك العدو . أخذ ينتظر مصيره فى استسلام وصبر ، وقبل شروط الصلح المذلة التى لم يعد فى مقدوره أن يرفضها . وبمقتضى تلك الشروط استعاد الملك الفارسى الولايات الخمس الواقعة فيما وراء نهر دجلة ، والتى كان جد سابور قد تخلى عنها للرومان ، وحصل بمقتضى مادة واحدة على مدينة نصيبين Nisibis المنيعه التى حاصرها ثلاث مرات متوالية صمدت فيها أمام أسلحته وقواته . وكذلك اقتطعت من الامبراطورية مدينة سنجار Singara وقلعة المفاربة ، وهى من أقوى معاقل العراق ، واعتبر من قبيل التساهل أن سكن تلك المعاقل قد سمح لهم بالانسحاب عنها بامتعتهم ومقتنياتهم ، غير أن الملك المنتصر أصر فى عناد وعصاة على أن يتخلى الرومان الى الأبد عن مملكة أرمينيا وملكتها . وعقد اتفاق صلح . أو قل هدنة طويلة ، لمدة ثلاثين عاما بين الأمتين المتخاصمتين ، وأقسم الطرفان على احترام المعاهدة قسما جادا عززته الاحتفالات الدينية وتبادلا رهائن تتألف من شخصيات رفيعة المقام ضمانا لتنفيذ الشروط .

أما السفسطائى الأنطاكى ، الذى كان يرقب فى غضب وسخط صولجان بطله فى يد خليفة مسيحي ضعيف ، فقد جهر بإعجابه باعتدال سابور وقبوله لمثل هذا الجزء الصغير من الامبراطورية الرومانية . يقول ليبانيوس ان ملك الفرس ، لو أنه مد أطباعه الى نهر الفرات ، لكان من الأمور المؤكدة أن طلبه لن يقابل بالرفض ، ولو أنه قرر أن تكون حدود فارس هى أنهار العاصى وكيدتوس وسنجاريوس ، بل وبسفور تراقيا . لما افتقر بلاط جوفيان الى بعض المتملقين الذين يستطيعون اقناع الملك الهيباب بأن ما تبقى له من ولايات يمكن أن يشيع فيه شهوة السلطان والترف على أحسن ما يكون الاشباع . ولبنا نريد أن نقبل هذا التلميح الخبيث بكل ما يحمله من معنى غير أنه لا يسعنا الا الاعتراف بأن أطماع جوفيان الشخصية هى التى سهلت إبرام مثل تلك المعاهدة الشائنة . ذلك أن هذا الشخص المغرور الذى كان يعمل

حاجبا في قصر الملك ثم ارتفع الى العرش لا عن جدارة فيه بل برمية من رميات الحظ ، كان يتحرق الى الخلاص من أيدي الفرس حتى يحبط خطط بروكويوس ، قائده جيش العراق ، ويوطد حكمه المزعزع على فرق الجيش والولايات التي كانت لا تزال تجهل ما حدث في معسكر ملك فارس وراء نهر دجلة ، وتسرع الامبراطور في قبول المعاهدة ، وما اقترن بذلك من هرج واضطراب .

وفي منطقة النهر نفسه ، وعلى مسافة ليست بالكبيرة من موقع مدينة ديورا Dura المشنومة ، تركت الفرقة اليونانية المكونة من عشرة آلاف رجل ، دون قائد ودون أدلاء ودون مؤن ، على بعد أكثر من ألف ومائتي ميل من وطنهم ، وظلت كذلك معرضة لما يوقعه بها ملك غاضب منتصر . غير أن سلوك هؤلاء الرجال ونجاحهم يرجع أساسا الى أخلاقهم أكثر مما يرجع الى حالتهم . فبدلا من أن يستسلموا في خنوع وخوف الى المداورات السرية التي يقوم بها شخص واحد ، والى آرائه الخاصة ، فقد عقدوا فيما بينهم مجالس متحدة الكلمة تستمد الهامها من طابع الاجتماع الشعبي الذي يمثل عقل كل مواطن فيه بحب المجد ، والزهو بالحرية واحتقار الموت . وكانوا يدركون أنهم متفوقون على البرابرة في السلاح والنظام ، ومن ثم فقد استنكفوا انخضوع ورفضوا الاستسلام وتغلبوا على كل عقبة بالصبر والشجاعة والمهارة العسكرية ، ونجحوا في تهقيرهم بصورة أظهرت ضعف الملكية الفارسية ، وكانت سببا واهانة لها .

وربما كان حريا بالامبراطور أن يشترط ، في مقابل الامتيازات الشائنة التي منحها للفرس ، أن يزود معسكر الرومان الجائعين بالوفير من المؤن ، وأن يسمح له بعبور نهر دجلة على القنطرة التي بناها الفرس ، غير أن جوفيان لم يشترط شيئا من هذا ، وإذا كان قد زعم أنه التمس هذه الشروط العادلة ، فقد رفضها في جفاء وقبوسة طاغية الشرق المتشامخ ، الذي دفعته رحمته الى الصلح عن غزاة بلادهم . وكان العرب في بعض الأحيان يعترضون سبيل المتخلفين من جيش الرومان ، غير أن قواد سابور وقواته احترموا شروط ايقاف القتال ، وسمحوا لجوفيان بأن يبحث عن أنسب مكان لعبور النهر ، وادت اعظم خدمة للرومان تلك القوالب الصغيرة التي نجت من حريق الأسطول . فقد حملت أول ما حملت الامبراطور وبطاقته ، ثم نقلت بعد ذلك ، في رحلات كثيرة متعاقبة ، جزءا كبيرا من الجيش . غير أن كل رجل كان يتحرق الى النجاة بنفسه ، ويخشى أن يتركه الجيش على شاطئ الأعداء ، ومن ثم فإن الجنود الذين لم يكن لديهم من الصبر ما يعينهم على انتظار

عودة القوارب البطيئة ، غامروا في جراءة بالقاء أنفسهم على أطواف خفيفه أو على جلود منفوخة ، وسحبوا خيولهم وراهم ، محاولين عبور النهر . ولم يكن النجاح نصيب الجميع في تلك المحاولات ، فقد ابتلعت الأمواج كثيرا من هؤلاء المغامرين ، واندفع كثيرون غيرهم مع التيار العاتى بعيدا عن مواقعهم فوقعوا فريسة سهلة لجشع الأعراب الهمج أو لقسوتهم . ولم تكن خسارة الجيش في عملية عبور نهر دجلة أقل من خسارته في معركة يوم كامل . وبمجرد أن وصل الرومان الى شاطئ النهر الغربي . أصبحوا في مأمن من ملاحقة أعدائهم البرابرة ، غير أنهم قطعوا في مسيرة مجهدة مسافة مائتى ميل عبر سهول العراق ، عانوا فيها أشد درجات الجوع والعطش . فقد اضطروا الى اختراق صحراء رملية لم يجدوا في سبعين ميلا منها عودة واحدا من العشب الأخضر أو عينا واحدة من الماء العذب ، أما بقية البيداء الفقراء الموحشة فقد كانت أرضا لم تطأها قدم عدو أو صديق . وعندما كان يكتشف في المسكر قدر ضئيل من الدقيق . كان الجنود يتكالبون على شرائه بعشر قطع من الذهب ولقد ذبحت دواب الحمل والنهم لجعها ، وتناثرت في الصحراء أسلحة جنود الرومان . وأمتعتهم وكانت أرديتهم الممزقة المهلهلة ، ووجوههم المنحيلة الشاحبة دليلا على الآمهم السابقة ومحنتهم الحالية . وقد تقدمت قافلة تحمل المؤن لمقابلة الجيش حتى بنفت قلعة أور Dr ، وكان ذلك اعلافا بالولاء من القائدين سيباستيان وبروكوبيوس ، ودليلا على عرفانها بالجميل وفي مدينة ثلثافاتا Thilsaphata ، تلطف الإمبراطور بمقابلة قواد العراق ، وفي نهاية المطاف هجعت الشراذم التي تبقت من جيش كان في يوم من الأيام جيشا مظفرا تحت أسوار نصيبين .

وكان رسل جوفيان قد أعلنوا بكلمات الزلقي والملق ما كان من أمر انتخابه ومعهادته وعودته الى بلاده . وكان الملك الجديد قد اتخذ من الاجراءات أجداها وأقواها لضمان ولاء جيوش أوروبا وولاياتها ، وذلك بأن وضع القيادة العسكرية في أيدي أولئك الضباط الذين يؤيدون قضية ولي نعمتهم ، مدفوعين الى ذلك بدافع من مصلحتهم أو من ميولهم .

وكان أصدقاء الإمبراطور جوليان قد أعلنوا في ثقة نجاح حملته ، وأصبحوا يعللون النفس بأن معابد الآلهة سوف تزدان بغنائم الجيش من الشرق ، وأن ملكة فارس سوف تنحط مكانتها وتفقد ولاية تابعة تدين لقوانين روما ولحاكمها ، وأن البرابرة سوف يلبسون أزياء غزاتهم ويتكلمون لغتهم ويأخذون عاداتهم وطرائقهم ، وأن شباب سوسا واكباقانا سوف يدرسون فن البلاغة على أيدي أساتذة اليونان . وقد ترتب على تقدم جيوش جوليان أن انقطع اتصاله بالإمبراطورية ، ومنذ اللحظة التي

عبر فيها نهر دجلة ، أصبح شعبه المخلص يجهل مصير مليكه وتقلبات
 حظه . ثم سرت اشاعة موته الحزينة فازعجت صور الانتصارات الخيالية
 التي كانت تملأ عقولهم ، وأصروا على الشك في صحة ذلك الحدث
 المفجع بعد أن عجزوا عن تكذيبه أو انكاره . ثم جاء رسول جوفيان
 ليعلنوا القصة الملفقة التي تحكى أن الصلح كان أمرا ضروريا حكيما .
 غير أن صوته الأحداث التي وقعت ، وهو أعلى وأصدق من أصواتهم ،
 قد أطمأ اللثام عن خزي الامبراطور وعن شروط المعاهدة الشائنة .
 فامتلات عقول الناس بالحزن والدهشة وبالسخط والفرع ، عندما علموا أن
 خليفة جوليان النافه الهزيل قد تخلى عن الولايات الخمس التي ظفر بها
 جاليريوس (Valerius) ، وأنه مسلم الى البرابرة في خسة وعار مدينة
 نصيبين الهامة ، وهي أثبت حصن يحمي ولايات الشرق ، وانطلقت
 السنة الناس تسأل في حرية سؤالا خطيرا عويصا عن مدى وجوب
 التمسك بالعهد اذا ما تعارض ذلك مع الأمن القومي ، وراود الناس
 بعض الأمل في أن الامبراطور قد يصحح مسلكه الشائن بأن ينقض عهده
 مع ملك الفرس ، وهو عمل يعتبر عملا وطنيا . ولقد كان مجلس السناتو
 الروماني ، بروحه التي لا تنثنى ولا تلين ، قد رفض الشروط غير المتكافئة
 التي أعليت على جيوش روما الأسيرة حين كانت في محنتها . واذا
 استلزم الأمر ، ارضساء للشرف القومي ، أن يسلم القائد المذنب الى
 أيدي البرابرة ، فإن الجزء الأكبر من رعايا جوفيان كان في هذه الحالة
 يقبل في ارتياح اتباع السابقة التي كان معمولاً بها في العصور القديمة .

غير أن الامبراطور ، رغم كل القيود المفروضة على سلطته الدستورية ،
 كان السيد المطلق لقوانين الدولة وجيوشها ، وكانت الدوافع التي أرغمته
 على توقيع معاهدة الصلح ، هي نفسها التي تدفعه الآن الى تنفيذها ،
 فلقد كان يتحرق شوقا الى ضمان حكم امبراطورية بأكملها على حساب
 عدد قليل من الولايات ، أما الألفاظ المبجلة التي كان يتشدد بها جوفيان ،
 من دين وشرف ، فلم تكن الا ستارا يخفي وراءه مخاوفه وأطماعه
 الشخصية . ورغم ما قعمه السكان الى الامبراطور من التماسات تليق
 بمقامه لكي يقيم في قصر نصيبين ، فإن اللياقة والحكمة منعته من أن
 يفعل ذلك . غير أنه حدث في صباح اليوم التالي لوصوله الى المدينة أن
 دخل المدينة سفير المرس بينسيس Benesis ، ورفع على القلعة علم
 الملك المعظم ، وأعلن باسمه أن السكان ليس أمامهم الا الطرد من المدينة
 أو الخضوع والاستكانة . أما كبار القوم في المدينة ، وكانوا حتى تلك
 اللحظة الحاسمة الخطيرة يشقون في قدرة مليكهم على حمايتهم ، فقد
 ارتموا تحت قدميه ، واستحلفوه ألا يتخلى عنهم ، أو على الأقل ،

الا يسلم مستعمرة مخصصة الى طاغية بربرى تائر يمتلئ قلبه غيظا وحنقا من جراء الهزائم الثلاث المتتالية التى منى بها تحت أسوار نصيبين ، وقالوا انهم ما زالوا يملكون الاسلحة والشجاعة التى تمكنهم من صد الغزاة عن بلادهم ، والتمسوا منه أن يسمح لهم فقط باستخدامها فى الدفاع عن أنفسهم وبمجرد أن يحققوا استقلالهم فانهم سوف يلتزمون منه أن يتعطف بقبولهم ثانية فى عداد رعاياه . غير أن حججهم ، وفصاحتهم ، ودموعهم ، ذهبت جميعا أدراج الرياح ، وردد جوفيان فى شيء من الارتباك أن اليهود لها قدسيتهى ، ثم قبل كارها تاجا من الذهب قدمه له المواطنون ، وكان هذا المسلك من جانبه دليلا أقنع المواطنين بأن موقفهم قد وصل الى حالة اليأس ، الأمر الذى دفع المحامي سلفانوس الى مخاطبة الامبراطور قائلا : « مولاي الامبراطور ! انا لنترجو أن نتوج كما توجت الآن فى جميع مدائن ملكك » . أما جوفيان ، الذى اكتسب فى أسابيع قليلة عادات الملوك ، فقد كان لا يرتاح للحرية ويستاء من الحق ، ولما كان يعتقد أن تدمير الناس قد يدفعهم الى الخضوع للحكومة الفارسية ، وكان محقا فى اعتقاده هذا ، فقد أصدر مرسوما يحتم على الناس مغادرة المدينة فى مدى ثلاثة أيام ، والا كان الموت نصيبهم . ولقد رسم اميانوس Ammianus صورة حية لمشهد اليأس الشامل الذى يبدو أنه شاهده بقلب يفيض شفقة ورثاء . فقد ترك الشبان المحاربون فى حزن مشفوع بالغضب والاحتقار أسوار المدينة التى طالما دافعوا عنها دفاعا مجيدا ، وسكب الحزاني المعذبون اليائسون دموعا أخيرة على قبور الأبناء والأزواج التى ستندسها سريعا يد الحاكم البربرى ، وقبل المواطنون الطاعنون فى العمر أعتاب دورهم ، وتشبهوا بأبوابها ، تلك الدور التى قضوا فيها أوقات طفولتهم فى مرح ولهو . وازدحمت الطرقات بجماهير واجلة مرتجفة ، وزال وسط هذه الكارثة الشاملة كل تقدير للمركز أو الجنس أو العمر . وحاول كل انسان أن يحمل معه بقية من حطام متاعه ، ولما كانوا عاجزين عن الحصول مباشرة على العدد المناسب من الخيول أو العربات ، فقد اضطروا الى ترك الجزء الأكبر من ثمين مقتنياتهم ، ويبدو أن قسوة جوفيان الوحشية قد زادت محنة هؤلاء الشاردين . ورغم ذلك فقد خصص لاقامتهم حى جديد البناء من مدينة أميدا Amida . أما هذه المدينة النامية ، فبعد أن انضمت اليها ودعمتها

(★) قام جوفيان لى نصيبين بعمل من أعمال الملوك . فقد كان هناك ضابط شجاع يحمل نفس الاسم ، وكان حديرا بأن يصبح حاكما . وأمر جوفيان بانتزاع هذا الضابط من حاشية عشائه ، وألقى به فى بئر ، ورجم بالحجارة حتى مات ، دون أية محاكمة ، ودون دليل على ارتكاب أى ذنب .

مستعمرة كبيرة ، سرعان ما استعادت فخامتها القديمة وأصبحت عاصمة العراق . وقد أصدر الإمبراطور أوامر أخرى بإخلاء مدينة سنجار وقلعه المغاربة ورد الولايات الخمس الواقعة فيما وراء نهر دجلة . وتمتع سايبور بمجد انتصاره وتمرتة ، ويعتبر هذا الصلح الثنائى المهنى بحق فترة مشهودة فى اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . لقد تخلى أجداد جوفيان فى بعض الأزمنة عن حكم ولايات نائية لا نفع منها ، غير أنه منذ تأسيس مدينة روما ، فإن راعيها ، الإله ترمينوس *Terminus* ، الذى كان يذود عن حدود الجمهورية ، لم يتراجع قط أمام سيف عدو منتصر .

تأملات فى موت جوليان

بعد أن وفى جوفيان بتلك العهد التى كان من المحتمل أن يغريه صوت شعبه على الإخلال بها ، أسرع فى السير بعيدا عن مشهد خزيه وعاره ، وبدأ يتمتع هو وجميع حاشيته بحياة الترف فى أنطاكية . ولم يأبه بما يمليه الحماس الدينى ، بل ذهب ، بدافع من الانسانية وعرفان الجميل ، يودع رفات مليكه الراحل وداعه الأخير اجلالا وتكريما . أما بروكوبيوس ، الذى كان ينمى فى صدق وإخلاص خسارة قريبه الراحل ، فقد أبعد الامبراطور عن قيادة الجيش ، مدعيا فى تبرير ذلك ادعاء مهذبا بأنه سوف يتولى تشييع الجنازة . ونقل جثمان جوليان من نصيبين الى طرسوس فى مسيرة بطيئة استغرقت خمسة عشر يوما . وعندما كانت تمر فى مدن الشرق كانت تقابل من مختلف الأحزاب المعادية بالعيون والنحيب ، وبالأهانات الصاخبة . فالوثنيون رفعوا بطلمهم المحبوب الى مصاف تلك الآلهة التى أعاد عبادتها ، بينما كان المسيحيون يشيعون باللعنات روح ذلك المرتد الى الجحيم ، وجثمانه الى القبر . فريق يرثى لما سوف يحقق بهياكله من خراب قريب ، وفريق يحتفل بخلاص الكنيسة ذلك الخلاص العجيب . ولقد هلل المسيحيون بأصوات عالية مهوشة لرمية الانتقام الإلهى الذى ظل معلقا أمدا طويلا فوق رأس جوليان المذنب ، وقالوا ان موت الطاغية قد تجلى لقديسى مصر وسوريا وكبادوكيا فى اللحظة التى انتهت فيها حياته ، وصورت لهم جهالتهم أنه لم يمت بنبال الفرس ، وإنما كان موته عملا بطوليا قامت به يد خفية من أيدي حماة العقيدة المسيحية ، وقد تكون يد انسان فان ، أو يد العناية الإلهية الخالدة . وسرعان ما أخذ خصومهم بهذه الأقوال الحقاء ، تصديقا لكلامهم أو حقدا عليهم ، وأخذوا يقولون فى غموض ، أو يؤكدون فى ثقة أن حكاه الكنيسة هم الذين أثاروا على الامبراطور تعصب أحد رجال الحاشية ، وحرصوه على اغتياله . وبعد أكثر من ستة عشر عاما

من موت جوليان أثار ليبانيوس هذا الاتهام في عنف وجدية ، في خطاب عام وجهه الى الامبراطور ثيودوسيوس ، وإن لم يدعم شكوكه هذه بحقائق أو حجج ، ونحن لا يسعنا الا أن نقدر في السفسطائي الأنطاكي ، ليبانيوس ، ما كان يشعر به من حماس كريم نحو تلك الترفات الباردة المهمله التي تبقت من صديقه جوليان .

ولقد كان من عادات الرومان القديمة ، في المآتم أو في الاحتفالات بالنصر ، أن صوت الاطراء والمدح ينبغي أن يمتزج بشيء من القبح والسخرية . وأنه في ثنايا العرض الرائع لعظمة الأحياء أو الأموات ، ينبغي ألا تخفى نقائصهم عن أعين العالم . ولقد روعيت هذه العادة في مآتم جوليان . فانبرى الممثلون الهزليون ، الذين كانوا يكرهون فيه احتقاره ومقته للمسرح ، يعرضون أخطاء وحماقات الامبراطور الراحل عرضا شائعا مبالغا فيه ، ويلقون من جمهور النظارة المسيحيين تصفيقا واستحسانا . وأصبحت شخصيته المتقلبة وعاداته العجيبة مجالا فسيحا للدعابة والسخرية ، فقليل عنه انه في ممارسة مواهبه الفذة كثيرا ما نزل الى مرتبة دون جلال مركزه ، وأن شخصية الاسكندر الأكبر فيه قد تحولت الى شخصية الفيلسوف ديوجين ثم تلى الفيلسوف الى مرتبة قسيس . وقيل أيضا ان نقاء فضيلته كان يشوبها غروره الزائد وان خرافاته أزعجت أمن الامبراطورية العاتية وهددت سلامتها ، وان نزواته الشاذة لم تنجبه نحو كثير من التسماع ، اذ يبدو أنها كانت نزوات عقل خبيث ماكر . أو قل نزوات مبمتهبا التحيز والمحاباة . ودفن جثمان جوليان في طرسوس بافليم قيليفيا ، غير أن ضريحه الفخم الذي شيد في تلك المدينة على ضفاف نهر كيدنوس (Cydnus) لم يرضى أصدقاء المخلصين الذين أحبوا ذلك الرجل غير العادي . فالفلاسفة منهم كانوا محقين في التعبير عن رغبتهم في أن تلميذ افلاطون كان جديرا بأن يرقد وسط الغابات المحيطة بالأكاديمية ، أما رجال الحرب فقد جهروا في لغة أقوى بأن رفات جوليان كان ينبغي أن تختلط برفات قيصر في ساحة مارس اله الحرب ، وبين الآثار القديمة التي تنطق بفضائل الرومان ، وذلك لأن تاريخ الملوك لا يوجد كثيرا بمثل هذا المنافس الخطير .

عودة المسيحية إلى مكان المظفرة

الفصل الخامس والعشرون

(٣٦٣ - ٣٨٤)

المسيحية في عهد جوفيان

كان موت جوليان قد ترك شئون الامبراطورية العامة في موقف خطير مبهم . فقد أنقذ الجيش الروماني بمعاودة مخجلة ، بل ربما كانت معاهدة أملتها الضرورة (١) ، وكرس جوفيان الورع الفترة الأولى من السلم لاعادة الهدوء الداخلى للكنيسة والدولة . ذلك أن سلفه جوليان ، بدلا من أن يهدىء الحرب الدينية ، فقد أذكى نارها بحماقته ومكره ، أما التوازن الذي اصطنع تحقيقه بين الأحزاب المتناجزة ، فلم يترتب عليه الا دوام الصراع بينها بدافع من الآمال والمخاوف التي كان يشعر بها المتنافسون ، الذين كان بعضهم يدعى لنفسه سيطرة قديمة ، بينما يدعى البعض الآخر حظوة حالية . وقد نسى المسيحيون روح الانجيل ، وتشرب الوثنيون بروح الكنيسة . وفي محيط الأسر الخاصة قضت ثورة الحماس والانتقام العمياء على المشاعر والأحاسيس الطبيعية ، أما جلال القوانين فقد انتهكت حرمة أو أسوء استغلاله ، ولطخت مدائن الشرق بالدماء ، وأصبح أعداء الرومان الألداء في قلب البلاد . وقد تعلم جوفيان عقيدة المسيحية ، وعندما تقدم من نصيبين الى أنطاكية رفع علم الصليب (علم قسطنطين الامبراطورى) مرة ثانية على رأس قواته ، اعلانا منه للناس عن عقيدة امبراطورهم الجديد . وما أن ارتقى العرش حتى بعث برسالة دورية الى كل حكام ولاياته يعترف فيها بالحقيقة الالهية ويضمنها

(١) نياشين جوليان تزينه بالامتصارات ، وأكاليل الغار ، والأسرى المنبطحين تحت اقدامه . والملق نوع من الانتصار الأحمق يدمر نفسه بيده .

الاقرار الشرعى بالديانة المسيحية ، ثم ألغى المراسيم الخبيثة التى أصدرها جوليان ، وأعاد الحصانات الكنسية ووسع نطاقها وتنازل بآبداء أسفه على اضطراره الى تضييق نطاق احساناته بحكم المحنة التى تعرضت لها البلاد فى ذلك الوقت . وهلل المسيحيون جميعا تهليلا مخلصا مسموعا لخليفة جوليان التقي ، غير أنهم كانوا لا يزالون يجهلون نوع العقيدة الارثوذكسية التى سوف يعتنقها أو نوع المجمع الذى سوف يختار الانضمام الى مذهبه ، وسرعان ما اعتورت هدوء الكنيسة تلك النزاعات الحامية التى كانت قد توقفت خلال فترة الاضطهاد ، وسارع الزعماء الدينيون للطوائف المتناجزة الى بلاط اذاسا أو بلاط أنطاكية ، لأن التجربة علمتهم أن مصيرهم يتوقف الى حد كبير على أول الانطباعات التى يتأثر بها عقل جندى لم يصب من التعليم شيئا ، وازدحمت طرقات الشرق بالهوموجيين (الذين يقولون بمساواة الآب والابن فى الجوهر) وبالآريوسيين ، وأشباه الآريوسيين ، وأساقفة اليونوميين ، الذين كان ينافس بعضهم بعضا فى كسب ذلك السباق المقدس ، وكانت غرف القصر تردد صدى صخبهم وضجيجهم ويطرق أذان الملك خليط ، ربما دهش له ، من الحجج الميتافيزيقية والسباب الغاضب ، وكان جوفيان رجلا معتدلا ، فأوصاهم بالوفاق والبر والمحبة ونصح المتجادلين بانتظار حكم مجلس سوف يعقد فى المستقبل ، وفسر هذا الاعتدال من جانبه بأنه دليل على عدم اكترائه ، غير أن جوليان كشف فى نهاية الأمر عن تعلقه بعقيدة نيقيا ، وأنصح عنها بالاحترام الذى أبداه لما كان يتحلى به أثناسيوس العظيم من فضائل « مساوية » . وكان جندى الدين المحنك . أثناسيوس ، الذى بلغ السبعين من عمره ، قد خرج من عزلته عندما بلغه أول نبا عن موت الطاغية جوليان . وقد أجلسه ترحيب الشعب وتهليله مرة ثانية على عرش الأسقفية ، وتقبل ، أو توقع ، عن حكمة دعوة جوفيان . وكانت مهابة شخصه ، وشجاعته الهادئة الرزينة وفصاحته المقنعة ، عاملا دعم الشهرة التى كان قد بلغها فى بلاط أربعة ملوك متعاقبين . وما أن كسب ثقة الامبراطور المسيحي ، واستحوذ على ايمانه به ، حتى عاد مظهرها الى أسقفيته ، وظل يدير شئون الدين فى الاسكندرية ومصر ، وفى الكنيسة الكاثوليكية عشر سنوات تالية ، بمشورات ناضجة وهمة لم يلحقها وهن . وقبل أن يرحل عن أنطاكية أكد لجوفيان أن ولاءه الأرثوذكسى سوف يكافأ عليه بحكم طويل تظلمه السكينة والهدوء ، وكان أثناسيوس محقا فى أن يتوقع واحدا من أمرين ، فاما أن يكون له فضل النبوة الصادقة ، أو يكون عذره فى دعوات شكر وامتنان لم تستجب .

مات جوفيان بعد حكم لم يدم أكثر من ثمانية شهور . وجاء بعده
الامبراطور فالنتينيان الذى أشرك معه أخاه فالنز Valens ، وأصبحت
الولايات الغربية والشرقية على هذا النحو مقسمة بصورة رسمية . وأقر
فالنتينيان التسامح الدينى فى الغرب ، بينما اعتنق فالنز المذهب
الآديوسى فى الشرق .

وكان ضغط البرابرة يشتد على مختلف الحدود ، الألمان والبرجنديون
فى بلاد الفال ، والبكتيون ، والاسكتلنديون فى بريطانيا ، والقوط
والسرماتيون Sarmatians على نهر الدانوب . وكانت قبائل الهون Huns
تدفع تلك الشعوب أمامها ، ونتيجة لهذا الضغط سمح لقبائل القوط
الغربيين باستيطان إقليم الدانوب ، غير أنهم ثاروا هناك وهددوا
القسطنطينية . وقابلهم فالنز فى أدرنة ، ولكنه هزم وقتل فى معركة
حاسمة أكلت فيها تكتيكات القتال تفوق الفرسان على المشاة تفوقا دام
حتى موقعة كريسى Crecy ، وألحق برجال الجيش الرومانى وبممكانته
خسارة لم يفق منها أبدا .

ووسط الكوارث العامة التى تلت ذلك ارتقى ثيودوسيوس عرش
امبراطورية الشرق وكان هذا الحدث نقطة تحول فى الحكم الدينى
والحكم الدينى . فقد هزم القوط ، وعقد معهم معاهدات ، تضمنت رغم
ذلك استيطانات أخرى داخل الامبراطورية ، ثم حصل على لقب
« ثيودوسيوس العظيم » بإقراره مذهب الأرثوذكسية الكاثوليكية وبعد
موت جراثيان وفالنتينيان الثانى ، ومنصب للعرش اسمه يوجينيوس
Eugenius أصبح الحاكم الأخير الأوحى للامبراطورية فى الغرب وفى
الشرق .

كل هذه الأحداث ورد ذكرها فى بقية هذا الفصل وفى
الفصل ٢٦ (١) .

(١) ناقش جيرون نشأة قبائل الهون فى الفصل ٢٦ ، غير أن نشاطهم هذه لا تزال

E. A. Thompson

غامضة . وأحسن وصف حثيث لها هو ما ورد فى كتاب

وعنوانه : Attila and the Huns (١٩٤٨)

الفصل السابع والعشرون (٣٧٤ - ٣٩٧)

- امبروز أسقف ميلان • فضائل ثيودوسيوس وأخطاؤه •
- فتنة انطاكيا ومذبحة سالونيك • توبة ثيودوسيوس •
- شخصية فالنتينيان وموته • موت ثيودوسيوس

ظلت القسطنطينية أربعين عاما حصنا للمذهب الآريوسي • وكان ثيودوسيوس أول امبراطور يعتمد على مذهب التثليث الأرثوذكسي • وفي سنة ٣٨٠ عين أسقف أرثوذكسي اسمه جريجورى نازيانزن في القسطنطينية ، وأبعد المذهب الآريوسي عن الشرق وفي مجمع القسطنطينية الذي عقد سنة ٣٨١ اكتمل مذهب التثليث اللاهوتي الذي كان قد اقراه مجمع نيقيا • وبين ٣٨٠ ، ٣٩٤ أصدر ثيودوسيوس عدة مراسيم صارمة ضد الهرطقة •

وفي خلال تلك الفترة كان تراخي جراشيان ، امبراطور الغرب ، قد اثار التدمير بين القوات الرومانية • وثار عليه مكسيموس في بريطانيا وقاد ضده حملة هزمته بالقرب من ليون قبل ان يغف ثيودوسيوس لنجدته • ثم اغتيل جراشيان وعقد ثيودوسيوس تحالفا مع مكسيموس أصبح مكسيموس بمقتضاه حاكما للأقاليم الواقعة فيما وراء الألب ، وثبت فالنتينيان ملكا على ايطاليا •

« امبروز » أسقف ميلان

من بين رجال الدين الذين ازدان بهم عهد ثيودوسيوس تميز جريجورى نازيانزن بمواهب الواعظ صاحب البيان ، أما مارتن أسقف مدينة تور فقد اشتهر بأنه أوتي القدرة على عمل المعجزات ، وقد اضاف ذلك وزنا وعزة الى فضائله الرهبانية • أما الأسقف الجريء امبروز ، فقد حق له أن يدعى لنفسه شرف القوة والقدرة على الاضطلاع بالشئون

الكنسية . وكان سليل أسرة رومانية نبيلة ، وقد تولى والده منصبا خطيرا هو منصب الوالى اليريتورى لاقليم الغال . أما الابن ، فبعد ان أتم دراسات الفنون الحرة ، وتدرج فى المناصب المدنية وصل الى منصب قنصل ليجوريا Liguria ، وهى ولاية كان يقوم فيها قصر ميلان الامبراطورى ، وفى الرابعة والثلاثين من عمره ، وقبل أن ينال سر المعبودية ، نقل من منصب الحاكم الى منصب الأسقف ، وكان ذلك مفاجأة له ومفاجأة للعالم . وقد حياء الشعب بأسره بلقب الأسقفية دون أن يكون فى الأمر أى مزيج من النحاء أو الدس ، كما يقولون ، بل نسب اتفاق الناس واصرارهم على هذا الترحيب الى دافع فوق الطبيعى ، واضطر الحاكم كارها الى قبول منصب روحي لم يكن مهيا له بحكم ما اعتاد فى حياته السابقة وبحكم المهن التى يابشرها . غير أن عبقريته القوية الوثابة سرعان ما أهلته لأن يباشر ، فى مجلس وفطنة ، مهام اختصاصاته الكنسية ، وبينما نبذ فى سرور وفرح زخارف العظمة الدنيوية الفخمة الباطلة ، فقد تكرم ، من أجل خير الكنيسة ، بتوجيه ضمير الأباطرة والتحكم فى ادارة الامبراطورية . وكان جراشيان يحبه ويحترمه كوالده ، وقد قصد الأسقف بالرسالة المتقنة التى كتبها عن عقيدة التثليث أن تكون درسا للملك الشاب . وبعد فاجعة موت جراشيان ، وعندما كانت الامبراطورة جستينا Justina ترتعد خوفا على سلامتها وعلى سلامة ابنها فالنتينيان Valentinian أوفد أسقف ميلان فى مهمتين مختلفتين الى بلاد تريفرز Treves . واستخدم الأسقف هناك ما لشخصيته الروحية ولشخصيته السياسية من سلطات فى حزم ولباقة متساويين ، ومن الجائز أنه أسهم بنفوذه وفصاحته فى صد أطماع مكسيموس وحماية سلام ايطاليا . وقد كرس أمبروز حياته وقدراته لخدمة الكنيسة ، وكانت الثروة موضع احتقاره ، فنبذ الميراث الخاص الذى ورثه عن أبيه ، وباع الأواني المقدسة دون تردد ليفدى بئمتها الأسرى . ولقد تعلق الشعب ورجال الدين فى ميلان بأسقفهم ، واستحق هذا الرجل تقدير ملوكه الضعفاء ، دون أن يلتبس حظوتهم أو يخشى غضبهم .

ومن الطبيعى أن انتقل الى جستينا ، والدة الامبراطور ، حكم ايطاليا وحكم الامبراطور الشاب . وكانت جستينا امرأة ذات جمال وهبة ، ولكنها كانت لسوء حظها تدين بالهرطقة الأريوسية وسط شعب أرثوذكسى . وحاولت غرس عقيدتها فى عقل ابنها . وكانت جستينا مقتنعة بأن للامبراطور الرومانى أن يتطلب من الشعب فى محيط ملكه ممارسة ديانته ، واقتрحت على الأسقف أمبروز أن يقبل تنازلا معتدلا وهو أن يتنازل لها عن استخدام كنيسة واحدة ، اما فى مدينة ميلان أو فى ضواحيها . غير أن سلوكه أمبروز كان خاضعا لمبادئ أخرى تختلف

عن ذلك كل الاختلاف ، فقصور الأرض يمكن في الحق أن تكون من شأن قيصر ، غير أن الكنائس هي بيوت الله ، وبوصف كونه الخليفة الشرعي للرسل ، فإنه في حدود أسقفيته ينبغي أن يكون النائب الأوحى عن الله . وكان يرى أن امتيازات المسيحية ، دنيوية أو روحية ، تقتصر على المؤمنين الصادقين ، وكان عقله مقتنعا بأن آراء اللاهوتية الخاصة هي معيار الحق والأرثوذكسية (صحة المعتقد) . ولقد أبى الأسقف أن يعتقد أية مداونة أو مفاوضة مع عملاء الشيطان ، وأعلن في حزم متواضع أنه يعتزم الموت شهيدا ولا ينحني أمام الرجس والدنس . أما جستينا فقد ساءها رفض الأسقف واعتبرته وقاحة وتمردا ، ومن ثم فقد قررت في عجلة أن تستخدم حقوق ابنها الامبراطورية . ولما كانت رغبة في أداء الصلوات العامة في يوم عيد القيامة ، فقد أمرت أمبروز بأن يمثل أمام المجلس ، وأطاع الأسقف هذا الأمر بالاحترام الواجب على فرد مخلص من أفراد الرعية ، غير أن جمهورا كبيرا من الناس سار وراءه ، دون موافقته واندفعوا في حماس عنيف الى أبواب القصر . ولهذا فان وزراء فالتينيان ، الذين تولاهم الهلع ، لم يستطيعوا إصدار حكم بالنفي على أسقف ميلان ، بل التمسوا منه في خشوع وذلة أن يتوسط بنفوذه لحماية شخص الامبراطور وإعادة الهدوء الى العاصمة . غير أن الوعود التي تلقاها أمبروز ثم أذاعها على الناس ، سرعان ما نقضها البلاط الفادر ، وخلال ستة من أقدم الأيام التي خصصها المسيحيون للأنقياء لممارسة شعائر الدين ، كانت المدينة في حالة اضطراب من جراء هزات الشعب والتحمس الديني التي اعتورتها . وصدر الأمر الى ضباط القصر بأن يجهزوا كنيسة « بورشيا » أولا ثم الكنيسة الجديدة (The New Basilica) لاستقبال الامبراطور وأمه على الفور . ونظم المقعد الملكي بمظلته وستائره على الطريقة المعتادة ، غير أنه كان من الضروري حمايته من تهجم الجمهور وأهائته بحرس قوى . أما رجال الدين من الآريوسيين الذين تجاسروا على الظهور في شوارع المدينة فقد تعرضت حياتهم لأشد الأخطار ، وكسب الأسقف الفضل وحسن السمعة لأنه حمى أعداءه من أيدي الجمهور الثائر .

ورغم أن الأسقف كان يعمل جاهدا على كبح جماح حماس الشعب ، إلا أن الحرارة العاطفية التي اتسمت بها عظاته كانت تلهب مشاعر شعب ميلاد الغاضب المتمرد . ونعشت أم الامبراطور في بداية بأنها مثل حواء ، ومثل زوجة أيوب ، ومثل ايزابيل ، ومثل هيروديا ، ووصفت رغبته في إقامة كنيسة للآريوسيين بأنها لا تقل عن أقصى الاضطهادات التي عانتها الكنيسة تحت حكم الوثنيين ، ولم يكن للأجراءات التي اتخذها البلاط

من جدوى اللهم الا انها كشفت عن جسامه الاتم . وفرضت غرامة قدرها مائتان من الجنيهات الذهبية على جمهور التجار والصناع مجتمعين ، وصدر امر باسم الامبراطور الى كل موظفى دور القضاء والقائمين على خدمتها بالآيادادروا منازلهم مطلقا طوال فترة الاضطرابات العامة : واعترف وزراء فالنتينيان دون حرص بأن أكثر مواطني ميلان احتراماً ، يؤيدون قضية أسقفهم . ثم التمسوا منه مرة ثانية أن يعيد الهدوء الى بلاده بأن يلبى مشيئة مليكه بصورة مؤقتة . وقد أجاب أمبروز على ذلك بأجابة غلفها في أكثر العبارات تواضعاً واحتراماً ومع ذلك فقد كانت عبارات يمكن اعتبارها اعلاناً خطيراً بحرب أهلية . قال الأسقف : « ان حياته ومصيره في يد الامبراطور ، ولكنه لن يخون أبداً كنيسة المسيح ، أو يحط من كرامة الشخصية الأسقفية . وانه في مثل هذه القضية على استعداد لتحمل ما يستطيع حقد الشيطان أن يوقعه به ، وانه لا يرغب في أكثر من أن يموت بين رعيته الأمانة ، وأمام المذبح . وقال انه لم يكن « هو الذى اتار غضب الشعب ، وأن الله وحده هو الذى فى مقدوره أن يهدى ذلك الغضب ، وأضاف أنه يستعيز بالله من مشاهد الدم والفوضى التى يمكن أن تحدث وأنه يدعو فى صلواته الحارة ألا يعيش ليشهد خراب مدينة مزدهرة ، وربما دمار ايطاليا بأسرها » . وكان من الممكن أن يؤدى التعصب العنيد الذى اتصفت به جستينا الى تعريض امبراطورية ابنها للخطر ، لو أنها استطاعت أن تعتمد فى صراعها هذا مع الكنيسة وأهل ميلان على طاعة قوات القصر طاعة ايجابية . وسار عدد كبير من جنود القوط لاحتلال كنيسة البازيليكا الجديدة ، وهى التى كانت هدف النزاع . وكان المتوقع من المبادئ الأريوسية التى كان يعتنقها هؤلاء المرتزقة الأجانب ، ومن طرائقهم الهمجية أنهم لن يقورعوا عن تنفيذ أشد الأوامر الدموية . غير أن الأسقف قابلهم على العتبة المقدسة وأصدر عليهم فى صوت كالرعد حكماً بالحرمان من عضوية الكنيسة ، وسألهم فى لهجة الوالد والسيد ما اذا كانوا قد التمسوا أن تظلهم الجمهورية بحمايتها الكريمة لكى يقتحموا بيت الله ؟ وأتاح توقف البرابرة بضع ساعات من الوقت لمفاوضة أجري ، وتلقت الامبراطورة نصحا من أعقل مستشاريها بأن تترك كل كنائس ميلان فى حوزة الكاثوليك ، وبأن تفض الطرف وتخفى نوايا انتقامها حتى تواتيها فرصة أنسب . ولم تستطع أم فالنتينيان أن تصفح عن انتصار أمبروز ، أما الملك الشاب فقد أبدى عجبه قائلاً فى انفعال ان خدمه كانوا على استعداد لخيانته ودفعه الى أيدي قسيس وقح .

وكانت قوانين الامبراطورية ، التي كان بعضها مبصوما باسم قائلتيينيان ، لا تزال تدين الهرطقة الآريوسية ، وتبرر مقاومة الكاثوليك . ولهذا استخدمت الامبراطورة جستينا نفوذها واستصدرت مرسوما يقضى بالتسامح ، وجه الى كل الولايات الخاضعة لبلاط ميلان ومنح بمقتضاه كل معتنقي عقيدة ريميني The Faith of Rimini حق ممارسة دينهم وأعلن الامبراطور أن كل من يخرقون ذلك الدستور المقدس السليم سوف يعتبرون أعداء للأمن العام ، وتوقع عليهم العقوبة العظمى . وجدير بالذكر أن أخلاق أسقف ميلان ولفته قد تبرر الشك في أن مسلكه سرعان ما هيا سندا معقولا ، أو على الأقل مبررا ظاهريا للوزراء الآريوسيين ، الذين كانوا يرقبون الفرصة لمفاجأته متنبسبا بعضيان قانون كان غريبا منه أن يصفه بأنه قانون دموى طفيفاني . فصدر عليه حكم لين شريف بالنفى ، يمرض عليه أن يغادر ميلان دون إبطاء ، ويسمح له باختيار منفاه وعدد رفاقه . غير أن سلطة رجال الدين ، وهم الذين كانوا يعطون بمبادئ الولاء السلبي ويمارسونها ، كانت تبدو في نظر أمبروز أقل أهمية من ذلك الخطر الهائل الملح الذي كان يهدد الكنيسة . ومن ثم فقد رفض في جراحة أن يطيع الأمر ، ولقي في هذا الرفض تأييدا اجماعيا من شعبه المخلص وتولى هذا الشعب حماية شخص الأسقف بالتناوب ، وحصنت أبواب الكاتدرائية والقصر الأسقفى تحصينا قويا ، وكانت القوات الامبراطورية التي تولت الحصار غير راغبة في مهاجمة ذلك الحصن المنيع . أما الفقراء الذين كان أمبروز يصدق عليهم الخيرات ، فقد رحبوا بتلك الفرصة المواتية لظهور حماسهم وامتنانهم . ولما خشي الأسقف احتمال نفاد صبر الجماهير من طول السهر الليلي وتويريته ، هدته حكمته الى أن يأخذ في كنيسة ميلان بنظام كان له نفعه في ذلك الوقت ، وهو أن تتشد الجماهير المزامير بصوت مسموع وبصورة منتظمة ، وبينما كان يواصل صراعه الشاق المضني ، تلقى توجيهها في أحد أحلامه بأن يحفر الأرض في مكان كانت قد دفنت فيه منذ أكثر من ثلاثمائة عام رفات شهيدين هما جرفاسيوس ، وبروتاسيوس . وما أن حفرت الأرض تحت أرضية الكنيسة حتى عثر على هيكلين آدميين كاملين ، فصلت رأساهما عن جسديهما ، وكانا غارقين في الدماء . ثم عرضت تلك البقايا المقدسة في جلال مهيب على الشعب الخاضع ، واستخدمت كل واقعة من وقائع ذلك الاكتشاف السعيد بطريقة تدعو الى الاعجاب لخدمة مخططات أمبروز . فقبل ان عظام الشهيدين ، ودماهما ، وملابسهما لها القدرة على الشفاء من الأمراض ، وأن هذا التأثير الخارق للطبيعة يمكن أن يصل الى أبعد الأشياء دون أن يفقد أي جزء من ميزته الأصلية . وحدث أن رجلا أعمى استرد بصره بصورة غير عادية ، وشفى بعض أناس كان بهم مس من

الجن وانتزعت منهم اعترافات بذلك ، كل أولئك يبدو أنه أيد إيمان
وقدسية امبروز . وقد شهد امبروز بصحة تلك المعجزات ، كما شهد
بها أمين سره بولينوس ورجل آخر اهندي على يديه ، هو أوغسطين الشهير
الذى كان اذ ذاك يعلم فن البلاغة فى ميلان - ومن الجائز أن عقلية العصر
الحاضر تؤيد الامبراطورة جستينا وبلاطها الآريوسى فى عدم تصديقهم
لتلك الأحداث ، وفى سخريتهم من تلك الصور التمثيلية التى عرضت
على الناس بفضل تحايل الأسقف ، ولحسابه - غير أن تأثير تلك الأحداث
على عقول الناس كان سريعا لا يقاوم ، فوجد عاهل إيطاليا الضعيف
نفسه عاجزا عن منازعة ولى الله . وكذلك توسطت قوى الأرض فى الدفاع
عن امبروز ، فتقدم ثيودوسيوس الى الامبراطور بنصيحة خالية من
الأغراض ، وكانت نصيحته خالصة لتقواه وصداقته ، أما طامعية بلاد
الغال فقد أخفى مقاصده العدوانية الطموحة تحت ستار من الغيرة الدينية .



وغزا مكسيموس إيطاليا فى سنة ٢٨٧ . وفر الامبراطور فالنتينيان
وامه الى ثيودوسيوس فى سالونيك . وتزوج ثيودوسيوس من شقيقة
الامبراطور ، وانهى الحرب الأهلية بهزيمة مكسيموس وقطع رقبتة .

فضائل ثيودوسيوس وعيوبه

ان الخطيب الذى فى مقدوره أن يصمت دون التعرض للخطر .
يستطيع أن يكيل المدح طواعية وفى غير صعوبة . وسوف تعترف
الأجيال القادمة بأن أخلاق ثيودوسيوس يمكن أن تكون موزعا لاطراء
صادق كثير . فلقد تمكن بحكمة قوانينه ونجاح جيوشه من أن يجعل
حكمه مبعجا فى أعين رعاياه وأعدائه . وكان يحب فضائل الحياة المنزلية
ويمارسها ، وهذا شيء قلما يكون له وجود فى قصور الملك . وكان
ثيودوسيوس معتدلا عفيفا ، يمتنع نفسه فى غير اسراف بمثلذات المائدة ،
حسية واجتماعية ، ولم تنحرف عواطف حبه الحارة عن أهدافها الشرعية .
وكانت صفاته الوديمة ، كزوج مخلص ووالد غفور ، زينة تزدان بها ألقاب
عظمته الامبراطورية السامية . وارتفع عنه بفضل حبه له وتقديره إياه
الى مرتبة والده . وكان يحتضن أبناء أخيه وأبناء أخته كأولاده سواء
بسواء ، وامتنعت أيادى عطفه الى أبعد أقاربه العديدين وأقلمهم مقاما
وظهورا . وكان يختار أصدقاءه المقربين فى حكمه من بين أولئك الذين
يظهرون أمام عينيه دون قناع فى اتصالات الحياة الخاصة المتكافئة .

ومكفه معموره بقيمة الفضائل الشخصية وسموها من ازدراء الرقعة الملكية
 المحظورة ، وأثبت بمسلكه أنه نسي كل الاسماء التي لحقت به قبل
 اوتخاذه عرش الامبراطورية الرومانية ، وتذكر بأكثر الامتنان كل أفضال
 الماض عليه وخدماتهم له وكان يجد أو يتبسط في حديثه حسبما يلائم
 أقواد الرعية الذين يأذن لهم بحضور مجتمعه ، سنا ومقاما وخلقا ، وكانت
 بشاشته في معاملة الناس صورة لعقله . وكان ثيودوسيوس يحترم
 بساطة الخيرين والفضلاء ، ويكافئ في سخاء حريص كل فن وكل موهبة
 من الفنون والمواهب النافعة ، بل والساذجة . وفيما عدا الهراطقة الذين
 اضطهدهم في كراهية عنيدة ، فإن دائرة احسانه الواسعة لم يكن لها
 من حدود الا حدود الجنس البشرى بأكمله . ولا شك في أن حكم
 امبراطورية عظيمة لا بد أن يكفي لشغل وقت رجل من البشر واستنفاد
 قدراته ، غير أن ذلك الملك المثابر المجد كان يخصص دائما بعض لحظات
 فراغه للقراءة كنسلية تثقيفية ، دون أن يتطلع الى شهرة العلم العميق
 التي لا نلائمه . وكان التاريخ دراسته المفضلة لأنه الطريق الى توسيع
 تجاربه ، ومن ثم فإن حوليات روما عبر فترة طويلة قدرها ألف ومائة
 من السنين كانت ترسم أمامه صورة رائعة متنوعة الأشكال للحياة الانسانية
 وقد لوحظ عليه بصفة خاصة أنه كلما كان يتابع أعمال القسوة التي
 أتاها سنا Cinna أو ماريوس Marius أو سلا Sylla ، كان يعبر
 في حماس عن مقتته الشديد لأعداء الانسانية والحرية هؤلاء . وكان يكون
 رأيه عن الأحداث الماضية في غير تحيز أو محاباة ، وينتفع من آرائه تلك
 بتطبيقها كقاعدة لأعماله وتصرفاته ، واستحق ذلك الاطراء العجيب
 لأن فضائله كانت تنمو وتتزايد كلما ازداد توفيقا ، وأن تواضعه واعتداله
 كانا ينشيان مع ازدهاره ونجاحه ، وأن تسامحه كان أبرز ما يكون بعد
 فوزه في الحرب الأهلية وزوال خطرهما . ولقد حدث أن ذبح حراس الطاغية
 من المفاربة في حدة النصر الأولى ، كما أن عددا قليلا من المجرمين المفقوتين
 وقعوا تحت طائلة القانون ونالوا عقابهم ، غير أن الامبراطور اهتم باغاثة
 الأبرياء أكثر من اهتمامه بمعاقبة المذنبين . ولشده ما كانت دهشة الرعايا
 المظلومين في « الغرب » ، الذين كان يمكن أن يعفوا أنفسهم سعداء
 لو أنهم استردوا أراضيهم ، عندما تلقى كل منهم مبلغا من المال يعادل
 ما لحق به من خسارة . كما أن سخاء الامبراطور الفاتح ، ثيودوسيوس ،
 امتد الى أسرة عدوه مكسيموس ، فأعان أمه العجوز وتولى تعليم بناته
 اليتامى . ولا شك في أن مثل هذه الشخصية الكاملة المهذبة يمكن أن
 تبرر المغالاة التي ذهب اليها الخطيب باكاتوس Pacatus عندما افترض
 أن بروتس الأكبر ، وهو الجمهورى العنيد ، لو أنه استطاع أن يعود الى
 الدنيا مرة ثانية ، لتبذ تحت أقدام ثيودوسيوس كراهيته للملوك ،

ولا اعترف صادقاً بأن مثل ذلك الملك هو أخلص من يحمي سعادة الشعب الزوماني ويحفظ له غزته وكرامته .

غير أن مؤسس الجمهورية هذا (بروتيس) لابد أنه كان يستطيع ببصره النافذ أن يتميز في شخصي ثيودوسيوس نقيصتين رئيسيتين ربما خففتا من حبه الحديث للحكم المطلق . ذلك أن عقلية ثيودوسيوس الفاضلة كثيراً ما كانى يتتابها اكسل والتراخي ، كما كانت تلتهب بالفضب والانفعال في بعض الأحيان . وعندما كان يتابع هدفا هاما كانت همته النشيطة تمكنه من بذل أشد الجهود وأعظمها ، غير أن ذلك البطل ، بمجرد أن كان يحقق الخطة أو يتغلب على الخطر ، كان يهبط الى استرخاء معيب ، وينصرف الى الاستمتاع بميزات بريئة ولكنها تافهة من تلك اللذات التي تنهى له في جو الترف السائد في بلاطه الملكي ، ناسيا أن وقت الملك هو ملك للشعب . وكان ثيودوسيوس بطبيعته عجولا غضوبيا ، وهناك من المواقف ما كان لا يستطيع أحد فيها أن يقاوم نتائج سخطه الخطيرة ، كما أن قلة من الناس كانت تستطيع أن تثنيه عن الوصول الى تلك النتائج ، غير أن الملك الرحيم كان في تلك المواقف ينزعج بحق من شعوره بضغفه وبقوته . وكانت دراسة حياته المستمرة تنبج الى كبح أو تعديل الشاذ من نزوات الفضب والانفعال ، وكان نجاحه في ذلك عاملاً في رفع قيمة تسامحه وحلمه . غير أن الفضيلة التي يثابر عليها المرء ، والتي من حقها أن تنال ميزة النصر والظفر ، تتعرض لخطر الهزيمة ، فقد تلوث عهد ذلك الملك الحكيم الرحوم بعمل من أعمال القسوة كفيل بأن يصم سيرة فيرون أو دوميتيان . ومن ثم فان من يؤرخ لعهد ثيودوسيوس خلال فترة ثلاث سنوات لابد أن يكون متناقضا ، اذ عليه أن يروي قصة العفو الكريم الذي منحه لمواطني أنطاكيا ، وقصة المذبحة الوحشية التي تعرض لها أهل سالونيك .

فتنة أنطاكيا

كان أهل أنطاكيا في حالة من القلق الشديد لم تسمعهم أنهم أبدا بالرضا عن حالهم أو عن أخلاق وسلوك من تبعاقبوا عليهم من الملوك . فكان رعايا أنطاسيوس من الأريوسيين ينعون فقدانهم لكنائسهم ، ونظرا لأن ثلاثة أساقفة متنافسين كانوا يتنازعون كرسى أنطاكيا ، فان الحكم الذي فصل في دعاوهم أثار تذمر المجمعين الآخرين اللذين لم يصيبا نجاحا . وكانت ضرورات الحرب القوطية والنفقات الحتمية التي لازمت توقيع الصلح قد أرغمت الامبراطور على زيادة أعباء الضرائب العامة ، ونظرا لأن ولايات آسيا لم تشترك في تلك المحنة ، فانها كانت أقل ميلا الى

المساهمة في اغائة أوروبا . وكانت الفترة الميمونة من حكم بيودوسيوس قد اقترنت من السنة العاشرة وهي مناسبة ساعد بها الجنود الذين منحوا مكافآت سخية أكثر مما ساعد بها أفراد الرعية الذين تحولت حياتهم الاختيارية منذ فترة طويلة الى حمل ثقل غير عادى . ثم جاءت مراسيم الضرائب فقطعت على أنطاكيا راحتها وملذاتها ، فأحاط جمهور مسترحم من الناس بدار القضاء التي كانت مقرا للحاكم ، والتمسوا منه رفع الظلم عنهم في لغة مؤثرة راعوا فيها الاحترام في بادئ الأمر ثم اشتعل غضبهم شيئا فشيئا من جراء كبرياء وتعالى حكامهم الذين اعتبروا شكواهم من قبيل المقاومة الاجرامية ، فانحط أسلوبهم الساخر الى تقريع لاذع غاضب ، وجاوز التقريع سلطات الحكومة الدنيا الى مهاجمة شخص الامبراطور المقدس نفسه . ثم انفجر غضبهم ، الذى أثارته مقاومة ضيقة وانصب على تماثيل الأسرة الامبراطورية التي كانت مقامة في أبرز أماكن المدينة لتكون قبلة احترام الشعب وتبجيله . وهاجم الناس تماثيل ثيودوسيوس ، وأبيه ، وزوجته فلاكيللا Flacilla وولديه أركاديوس وأونوريوس ، ثم قذفوا بها من فوق قواعدها بصورة مريعة ، وحطموها قطعا ، أو جروها بازدراء في شوارع المدينة ، وكانت الاهانات التي وجهت الى الصور التي تمثل الجلالة الامبراطورية اعلانا كافيا عما كان يجيش به صدر الشعب من رغبات الخيانة والكفر . غير أن هذا التمرد سرعان ما قبح بوصول قوات من رماة السهام ، وأتيحت لأنطاكيا فسحة من الوقت للتدبر في طبيعة جرمها ونتائجه . وارسل الحاكم الى الامبراطور ، بمقتضى ما يمليه عليه واجب منصبه ، وصفا أميناً لكل ما حدث ، أما المواطنون الذين تولاهم الهلع ، فقد استبدعوا الاعتراف بجرمهم وتأكيد تسلمهم غيرة أسلافهم فلاقيان ، وفصاحة عضو السناتور هيلاريوس الذى كان صديق ليبيانيوس ، ومن أوجع الأمور أنه كان تلميذه . ولا شك في أن عبقرية ذلك الرجل في ذلك الظرف المحزن لم تكن عديمة الجدوى . غير أن امعاصيتين ، أنطاكيا والقسطنطينية ، كانت تفصل بينهما مسافة ثمانمائة ميل ، ورغم سرعة البريد الامبراطورى ، فقد عوقبت المدينة المذنبة عقابا شديدا بتعرضها لفترة طويلة رهيبة من الانتظار والترقب . وكانت كل اشاعة تثير آمال ومخاوف أهل أنطاكيا ومن بين ما سمعوه في فزع ورهبة أن مليكهم قد استشاط غضبا للاهانة التي لحقت بتماثيله ، وبتماثيل زوجته الحبيبة بنوع خاص ، وأنه لذلك قد عزم على تدمير المدينة تدميرا شاملا كاملا ، وعلى ذبح سكانها المجرمين دون تمييز للعمر والجنس ، وقد دفع الخوف كثيرا منهم الى الفرار واللجوء الى جبال سوريا والصحراء المجاورة . وأخيرا ، وبعد

مرور أربعة وعشرين يوما على حدوث الفتنة ، أعلن القائد هلبليكيوس Hellebicus ورئيس الديوان سيزاريوس ، مشيئة الامبراطور وحكمه . وبمقتضى ذلك الحكم أنزلت تلك العاصمة الشامخة من مرتبة المدينة ، وجردت قصبة الشرق من أراضيها ، وامتيازاتها ، وموارد دخلها ، وأطلق عليها اسم القرية ، اذلالا لها ، ثم أتبعت فى ادارتها الى مدينة لاوديكية Laodicia (اللاذقية) وأغلقت الحمامات والسيرك والملاهي ، وألغى توزيع القمح بتعليمات مشددة من ثيودوسيوس لى يقطع الامبراطور عن المدينة فى الوقت نفسه كل مورد للوفرة والمتعة . ثم بدأ مندوبوه التحقيق فى جرم الأفراد لمعرفة أولئك الذين ارتكبوا جرم تحطيم التماثيل المقدسة ، وأولئك الذين لم يحولوا دون ارتكابها وأقيمت محكمة هلبليكيوس وسيزاريوس وسط ساحة السوق The Forum ، وأحيطت بالجنود المسلحين - ثم مثل أمامها أنبل وأغنى مواطنى أنطاكيا وهم مكبلون بالأغلال ، واستخدمت وسائل التعذيب فى استجوابهم ، وكان الحكم عليهم يصدر أو يوقف وفق ما يراه هذان القاضيان غير العاديين . وعرضت بيوت المجرمين للبيع وتحول أبناءهم وزوجاتهم فجأة من حالة الميسرة والترف الى أدنى حالات المحنة . وتوقع الناس أن تنتهى غطائع اليوم بمجزرة دموية ، ولقد كان يوما وصفه واعظ أنطاكيا ، وصاحب البيان ، كريسوستوم Chrysostom ومعناه الفم الذهبى ، بأنه صورة حية ليوم الحساب الشامل الأخير . غير أن وزراء ثيودوسيوس كانوا يؤدون المهمة القاسية التى أسندت اليهم وهم كارهون . فكانوا يسكبون دموع الحنان بدافع الشفقة على مصائب الناس وينصتون باحترام الى التوسلات العارة التى أبداها الرهبان والنسك الذين هبطوا فى جماعات من الجبال . وكان هلبليكيوس وسيزاريوس يميلان الى إيقاف تنفيذ الحكم ، واتفقا على أن يبقى الأول فى أنطاكيا ، بينما يعود الثانى بكل سرعة ممكنة الى القسطنطينية ، بزعم استطلاع مشيئة عليه مرة أخرى . وكان منخط ثيودوسيوس اذ ذاك قد خفت حدته ، واستطاع مندوبا الشعب ، الأسقف والخطيب ، أن يحظيا بمقابلة الامبراطور ، فاتخذ تأنيبه طابع الشكوى من الاساءة الى صداقته أكثر من أن يكون تهديدا صارما من صاحب المهابة والسلطان . ومنح الامبراطور المدينة ومواطنيها علوا شاملا غير مقيد بقيود ، وأمر بفتح أبواب السجون ، أما أعضاء السناتو الذين كانوا فى يأس من حياتهم ، فقد استردوا بيوتهم وأملاكهم ، وعادت حاضرة الشرق الى الاستمتاع بمزتها وروعها القديمة . وتفضل ثيودوسيوس بأطراة شيوخ السناتو فى القسطنطينية الذين تكرموا بالتوسط لديه من أجل اخوتهم

حين كانوا في شقاء ومحنة ، ومنح هيلاريوس حكم فلسطين مكافاة له على بلاغته وقصاحته ، وودع أسقف أنطاكية باحر عبارات احترامه وامتنانه . وقابل أهل أنطاكية هذا التسامح من جانب الامبراطور بإقامة ألف تمثال جديد ، واستحسن الامبراطور من قلبه تهليل رعيته ، واعترف بأنه اذا كانت العدالة هي أهم واجبات الملك ، فإن الرحمة هي أشهى متعة يستمتع بها .

عذبة سالونيك

تعود فتنة سالونيك الى سبب أشد حزيا ، كما أنها أسفرت عن نتائج أعظم هولاً . ولقد كانت تلك المدينة ، وهي حاضرة كل الولايات الإليرية ، في حمي من أخطار الحرب القوطية بفضل حصونها القوية وحاميتها الكبيرة ، وكان بوثرىك Botberic ، قائد تلك القوات من الثبريرة ، كما يبدو من اسمه ، وكان من بين خدمه الأرقاء صبي جميل الطلعة أثار في صدر أحد سائقي عربات السيرك رغبات دنسة ، فأمر بوثرىك بالقاء ذلك المحب البهيمى الوقح فى السجن ، ورفض فى عنف أن يستمع الى ضجيج ولجاجة الجمهور الذى ساء ، فى يوم الألعاب العامة ، أن يغيب عنه لاعبه المفضل ، اذ كان الجمهور يعتبر براعة سائق العربا أكثر أهمية من فضيلته . وثمة نزاعات سابقة زادت سخط الجمهور ، كما أن جزءا من قوة الحماية كان قد سحب للخدمة فى الحرب الإيطالية . ومن ثم فإن البقية الضعيفة التى قل عندها من جراء حرب بعض أفرادها ، لم تستطع انقاذ قائدها التمس من ثورة غضب الشعب الجامعة ، فقتل بوثرىك وكثير من كبار ضباطه بصورة وحشية . وسحبت أجسادهم الممزقة فى شوارع المدينة ، وفوجيء الامبراطور ، الذى كان اذ ذاك مقيما فى ميلان بنياً أعمال القسوة الفاجرة المتهورة التى أتاها أهل المدينة . ولا شك فى أن تلك الجريمة ، لو أنها طرحت أمام قاض رزين غير متأثر بعواطفه لأصدر حكما بتوقيع عقوبة صارمة على مرتكبيها ، كما أن صفات القائد بوثرىك لا بد أنها أسهمت فى الهاب حزن مليكه وسخطه . ولما كان ثيودوسيوس جاد الطباع سريع الغضب ، ولا يستطيع الصبر انتظارا لشكليات التحقيق القضائى البطيئة ، فقد قرر فى عجلة أن دم نالبه ينبغي أن يكفر عنه بدم الشعب المذنب . ومع ذلك فقد كان عقله يتأرجح بين الرحمة والنقمة . وكادت غيرة الاساقفة تنتزع من الامبراطور وعدا بعفو عام ، دون رضائه . غير أن وزيره روفينوس Rufinus أثار حفيظته وغضبه مرة أخرى بما قدمه من اقتراحات تتسم بالملق والمداينة . وبعد أن أرسل ثيودوسيوس الى

المدينة وسل الموت ، حاول بعد قوات الأوان أن يوقف تنفيذ أوامره . وهكذا أسند عقاب مدينة رومانية دون تبصر الى سيوف البرابرة التي لا تفرق بين مذنب وبريء ، واقتربت الاستعدادات المدوانية بخسدة غادرة غامضة تنطوى على مؤامرة غير مشروعة . فدعى اهل المدينة بطريقة خائنة لمشاهدة ألعاب السيرك ، باسم مليكهم ، وكان ولع الناس بتلك المتع لا يرتوى ولا يشبع ، ومن ثم فإن جمهور النظارة لم يلق بالآلى اعتبار من اعتبارات الخوف والشك ، وما أن اكتمل الاجتماع ، وكان الجنود اذ ذاك قد احتلوا مراكزهم سرا على محيط السيرك ، حتى تلقوا اشارة لا يبده السباق ، بل يبده مذبة عامة . ودامت المذبحة ثلاث ساعات واختلط فيها الحابل بالنابل ، دون تمييز بين اجانب ووطنيين ، أو بين شباب وشيب ، أو بين رجل وامرأة ، أو بين برى ومذنب . أما عدد الضحايا فقد قدرته أكثر التقديرات اعتدالا بسبعة آلاف قتيل ، ويؤكد بعض الكتاب أن أكثر من خمسة عشر ألف قتيل قدموا قربانا لروح بوثرىك وقيل ان تاجرا اجنبيا لم يكن له ، على ما يبدو أى يد فى مقتل بوثرىك ، قد عرض حياته وكل ثروته لانقاذ حياة « واحد » من ولديه ، وكان حنانه نحو ولديه متساويا ، فوقف مترددا حائرا فى اختياره ، يريد أن ينقذ أحدهما ، ولا يريد أن يهلك الآخر ، وبينما هو كذلك قطع الجنود عليه انتظاره وحيرته وأغمدوا خناجرهم فى وقت واحد فى صدر الشابين الأعزلين . وكان اعتذار القتلة أنهم كانوا مرغين على قتل عدد معين من الناس ، وليس فى هذا العذر من جدوى اللهم الا أنه يضخم لفظائح المذبحة التي نفذت بمقتضى تعليمات ثيودوسيوس ، لأنه يظهرها فى صورة أمر صدر وخطة نفذت . ومما يجعل ذنب الامبراطور أكثر جساما أنه كثيرا ما تردد على هذه المدينة وكثيرا ما اطلال مكثه فيها ، وأن موقع للمدينة البائسة ، ومنظر الطرقات والمباني ، وأزياء السكان ووجوههم ، كل أولئك كان شيئا مألوفاً لديه ، بل وحياً فى خياله . وأن ثيودوسيوس كان لديه احساس مرهف رقيق بوجود الشعب الذى اهلكه .

وكان الامبراطور على صلة يسودها الاحترام برجال الدين من الأرثوذكس ، وقد دفعته هذه الصلة الى حب شخصية أمبروز والاعجاب بها ، لأن هذا الرجل كان يجمع بين كل الفضائل الاسقفية فى أسس درجاتها . وحذا أصداق ثيودوسيوس ووزراؤه حذو مليكهم فى التملق بالأسقف أمبروز ، وكان مما أدهش الامبراطور أكثر مما أغضبه أن كل آرائه السرية كانت تنقل على الفور الى الأسقف الذى كان يرى ، عن اقتناع جدير بالثناء ، أن كل اجراء تتخذه الحكومة المدنية قد

تكون له بعض الصلة بمجد الله وبمصلحة الديانة الحقيقية . وحدث أن رهبان وسكان مدينته كالينيكوم Callinicum وهي مدينة صغيرة مشهورة على حدود فارس ، دفعهم تعصبهم وتعصب أسقفهم الى اشمال النار في اجتماع لاتباع فالنتينوس ، وفي كنيس لليهود بصورة يتمثل فيها الشغب والاضطراب ، فحكم حاكم الولاية على الحبر الذي اثار الشغب بإعادة بناء الكنيس ، أو بدفع قيمة الخسائر وصدق الامبراطور على هذا الحكم المعتدل . غير أن كبير أساقفة ميلان لم يعتمد هذا الحكم ، وأرسل الى الامبراطور رسالة نقد وتأنيب ، ربما كانت تصبح أكثر ملامة ، لو أن الامبراطور كان قد قبل الختان ونبد عقيدة معموديته . وذلك لأن أمبروز كان يعتبر التسامح مع اليهود بمثابة اضطهاد للديانة المسيحية ، ويعلن في جراءة أنه هو نفسه ، وكل مؤمن حقيقى يود أن ينزع أسقف كالينيكوم ميزة ذلك العمل الذى قام به ، وتاج الاستشهاد من أجل العقيدة ، كما أبدى أسفه ، في أشد عبارات الأسى ، على أن تنفيذ ذلك الحكم سوف يكون خطيرا كل الخطورة على شهرة ثيودوسيوس وخلاصه . ولما عجز ذلك التقرير الدينى الشخصى عن أحداث أثر مباشر ، فقد وجه رئيس الأساقفة خطابا علنيا من فوق المنبر الى الامبراطور الجالس على عرشه وامتنع عن تقديم قربان المذبح حتى حصل من ثيودوسيوس على تصريح رسمى قاطع ضمن به عدم معاقبة أسقف كالينيكوم ورهبانها . وكان ثيودوسيوس صادقا فى الغائه الحكم السابق ، وخلال اقامته فى ميلان تزايد حبه للأسقف أمبروز بفضل ما كان يتبادل معه من أحاديث الافة والتقوى .

ثيودوسيوس يكفر عن ذنبه

عندما علم أمبروز بنبا مذبحة سالونيك امتلا عقله بالفرع والعذاب ، فاعتزل فى الريف ليطلق العنان لأحزانه ، وليتجسب مقابلة ثيودوسيوس . غير أنه اقتنع بأن الصمت الخجول كفىل بأن يجعله شريكا فى جريمة الامبراطور ، ومن ثم فقد أرسل له خطابا خاصا صور له فيه فداحة الجرم الذى لا يمكن أن تزيله الا دموع التوبة ، واستمد أمبروز من حكمته وحرصه ما يخفف به من عنفه الأسقفى فاكتفى فى خطابه بالإشارة غير المباشرة الى حرمانه من أخوية الكنيسة ، حيث أكد للامبراطور أنه تلقى فى الرؤيا تحذيرا بأن يقدم الذبيحة باسم ثيودوسيوس أو فى حضوره ، ونصحه بأن يقتصر على الصلاة دون الاجترار على الاقتراب من مذبح المسيح ، أو تناول القربان المقدس باليد التى لا تزال ملوثة بدم شعب برى . وتأثر الامبراطور

تأثيراً عميقاً بتبكيك ضميره وتأييب أبيه الروحي ، وبعد أن انتحب على النتائج الوبيلة التي لا سبيل الى تعويضها والتي ترتبت على غضبه الطائش المتهور ، توجه بالطريقة المعتادة لتقديم صلواته في كاتدرائية ميلان . فأوقفه الأسقف عند مدخل الكنيسة ، وصرح له في لهجة ولنة صغير السماء أن التوبة الشخصية لا تكفى للتكفير عن خطأ عام أو لتهدئة عدالة الرب المستاء . ورد ثيودوسيوس في ذلة وخشوع

انه اذا كان قد ارتكب خطيئة القتل ، فإن داود ، وهو الرجل الذي احبه الله ، قد اقترف خطيئة القتل وجريمة الزنا . فأجاب أمبروز في جراءة وشجاعة : « لقد حذوت حذو داود في جرمه ، فمليك اذن أن تحذو حذوه في ندمه » وقبل الامبراطور شروط الصلح والفقران الصارمة ، وسجلت كفاوة الامبراطور العلنية كحدث من أشرف الأحداث في سيرة الكنيسة . وطبقا لأهون قواعد النظام الكنسي التي قررت في القرن الرابع ، فإن جريمة القتل يمكن التكفير عنها بفترة توبة قدرها عشرون عاماً . ولما كان من المستحيل في فترة الحياة الانسانية أن يظهر الذنب المتراكم الذي اقترفه الامبراطور في مذبحه سالونيك ، فإن القاتل كان لابد أن يحرم من تناول القربان المقدس حتى تحين منيته . غير أن الأسقف ، مراعاة لقواعد السياسة الدينية ، أبدى بعض التساهل نحو مقام التائب لثرموق الذي اذل كبرياء الناج ، ورأى أن تهديب الامبراطور بصورة علنية يمكن قبوله كمبرر قوي لاختصار مدة عقوبته ، فاكتمى بإلزام امبراطور الرومان بأن يظهر أمام الناس متجرداً من شارات الملك في مظهر الحزن والتوسل ، ويلتمس وسطاً كنيسة ميلان غفران ذنوبه ، بالتأوهات والدموع . واستخدم أمبروز في هذا العلاج الروحي مختلف اساليب الرقة والشدّة ، فأصدر مرسوماً باعادة ثيودوسيوس الى أخوية المؤمنين بعد تأخير دام قرابة الثمانية شهور ، وضمن قراره هذا وجوب انقضاء فترة أمان قدرها ثلاثون يوماً بين صدور الحكم وتنفيذه ، ويمكن اعتبار هذا القرار ثماراً قيمة لتوبة الامبراطور وندمه . وقد استحسنت الأجيال التالية موقف الأسقف المتسم بالحزم والفضيلة ، كما أن المثل الذي ضربه مع ثيودوسيوس انما يدل على ما كان من تأثير كريم لتلك المبادئ التي استطاعت أن ترغم ملكاً ، كان فوق مستوى الخوف من العقوبة البشرية على احترام قوانين « قاض » غير مرئي ، وتبجيل قساوسته . ويقول مونتسكيو : « مثل الحاكم الذي يتصرف مدفوعاً بالأمال والمخاوف الدينية مثل أسد لا يطيع الا صوت حارسه . ولا ينقاد الا ليدمه » ومن ثم فإن حركات الحيوان الملكي انما تتوقف على ميل واهتمام الرجل الذي يمتلك مثل هذا السلطان الخطير عليه ، كما أن الكاهن الذي يملك

فى قبضة يده ضمير الملك يستطيع أن يطفئ أو يلهب أهواءه الدموية .
ولقد أيد أمبروز قضية الانسانية وقضية الاضطهاد بانهم أنفسهم
وبالنجاح نفسه .

وبعد هزيمة طاغية بلاد الغال وموته دان العالم الرومانى لسلطان
نيودوسيوس . فقد حصل باختيار جراثيان على لقبه الكريم ملكا
على ولايات الشرق ، وحصل على ملك الغرب بحق الفتح ، واستغل
السنوات الثلاث التى قضاه فى إيطاليا استغلالا نافعا فى إعادة صياغة
القوانين واصلاح المساوىء التى سادت البلاد دون أن تلقى عقابا ،
عندما اغتصب مكسيموس السلطة ، وعندما كان فالنتينيان تحت
الوصاية ، ثم ادخل اسم فالنتينيان بصورة منتظمة فى القوانين واللوائح
العامة ، غير أن صغر سن ابن جستينا وعقيدته المشكوك فيها يبدو
انهما كانا فى حاجة الى رعاية حريصة من وصى أرثوذكسى ، وكان
يمكن لأطماعه الظاهرية أن تبعد الشاب السيئ الحظ ، دون عناء ، بل
ودون إثارة أى لغط ، عن حكم الامبراطورية ، بل وعن وراثتها ،
ولو أن نيودوسيوس راعى القواعد الصارمة التى تملها المصلحة
والسياسة ، لحاز مسلكه هذا لدى أصدقائه قبولا ، غير أن مسلكه
الكريم فى ذلك الطرف المشهود انتزع من الله أعدائه قبولهم
واستحسانهم . ذلك أنه اجلس فالنتينيان على عرش ميلان وأعاد إليه
السيطرة المطلقة على كل الولايات التى طرده منها جيوش مكسيموس ،
دون أن يشترط الحصول على أية مزايا ، حالية أو مستقبلية ، ولم يكتف
برد ميراثه الحقيقى اليه بل أضاف الى ذلك منحة خالصة كريمة هى
حكم البلدان الواقعة فيما وراء جبال الألب . والتى استطاع بشجاعته
المظفرة أن يستردها من قاتل جراثيان . وبعد أن قنع الامبراطور بالمجد
الذى حصل عليه من الانتقام لقتل الرجل الذى أحسن اليه وبعد أن أنقذ
الغرب من تير الطغيان ، عاد من ميلان الى القسطنطينية ، وبهذا الملك
الهادى لبلاد الشرق رجع دون أن يحس الى عاداته السابقة عادات
الترف والاسترخاء . ولقد قام نيودوسيوس بالتزاماته نحو شقيق
فالنتينيان ، وانغمس فى عواطفه الزوجية الرقيقة نحو شقيقة فالنتينيان .
وان الأجيال التى تعاقبت بعده ، والتى أعجبت بما انفرد به من عظمة
وسمو لا يد لها من أن تثني على كرمه الفريد فى استغلال ظفروه
وانتهصاره .

أَخْلَاقُ فَالْتِنْيَانِ وَمَوْتُهُ

لم تعش الامبراطورة جستينا طويلا بعد عودتها الى ايطاليا . وزعم أنها شهدت انتصار ثيودوسيوس ، الا أنها لم يُسمح لها بالتأثير على حكم ابنها ، وتشرب منها فالنتينيان ومن تعاليمها تعلقا خبيثا بالمذهب الارثوذكسى ، غير أن دروس التعليم الأرثوذكسى سرعان ما محت تلك الصلة ، وكان حماسه المتزايد لعقيدة نيقيا ، واحترامه البنوى لشخصية امبروز وسلطته ، من الأشياء التى شجعت الكاثوليك على تكوين أحسن فكرة عن فضائل امبراطور الغرب الشاب (١) . وامتدحوا فيه عفته واعتداله ، واحتقاره للمتعة ، ومثابرتة على العمل ، وحبه للحنون لشقيقته ، ومع ذلك فإن هذا الحب لم يستطع أن يجعله يتحرف عن عدالته وعدم تحيزه ويصدر حكما ظالما على أخط رعاياه . غير أن هذا الشاب المحبوب قبل أن يتم العشرين من عمره ، وقع تحت وطأة خيانة داخلية ، وتعرضت الامبراطورية مرة أخرى لأهوال الحرب الأهلية . فقد كان هناك جندي شجاع اسمه أربوجاستس Arbogastes من أبناء الفرنجة يحتل المركز الثانى فى خدمة جراثيان ، ولما مات سيده ، انضم الى ثيودوسيوس ، وأسهم بشجاعته ومسلكه الحريى فى إهلاك الطاغية ، وعين بعد النصر قائدا أعلى لجيوش بلاد الغال . واكتسب بجدارته الحقيقية وإخلاصه الظاهر ، ثقة الملك وثقة الشعب ، غير أن سخامه الذى لا حدود له أفسد ولاء الجيوش ، وبينما كان الجميع يعتبرونه دعامة الدولة ، كان ذلك البربرى الجرىء المسافر يعتزم سرا حكم امبراطورية الغرب أو إهلاكها ، فوزع القيادات الهامة فى الجيش على الفرنجة ، ورقى صناعته الى كل مناصب الحكومة المدنية ووظائفها وتطورت المؤامرة الى إبعاد كل خادم أمين عن حضرة فالنتينيان ، أما الامبراطور الذى حرم من القوة ومن الذكاء ، فقد هبط بصورة غير محسوسة الى وضع مزعزع ، هو وضع أسير تابع لغيره . وقد عبر الامبراطور عن سخطه غير أن ذلك السخط ، الذى لا ينبعث الا من طباع الشباب المتهورة المتعجلة ، قد نستطيع أن ننسبه فى إخلاص الى روحه الكريمة ، وإلى شعوره بأنه لم يكن غير جدير بالحكم . ودعا الامبراطور كبير أساقفة ميلان سرا الى أن يتولى وساطة الصلح ، متعهدا

(١) عندما كان الامبراطور الشاب يقيم ولية ، كان يستنح عن الأكل ويرفض رؤية الممثلات الرشيقات . وبما أنه أمر بقتل الوحوش الكاسرة التى كان يقتنيها ، فليس كريما من جانب فيلومستورجيوس أن يؤنبه على حبه لتلك التسلية .

بإخلاصه ، وأميناً على سلامته . وتمكن من اعلام امبراطور الشرق بموقفه اليائس ، وصرح لثيودوسيوس بأنه ان لم يخف الى نجده ، فانه سوف يضطر الى الهرب من قصر فين ، أو بالأحرى من سجن فين Vienne في بلاد الغال ، الذى كان قد اتخذه مقراً له ، دون فطنة أو تبصر ، وسط الحزب المعادى له . غير أن الأمل فى النجدة كان بعيداً ومشكوكاً فيه . ولما كان كل يوم يعجى بأثارة جديدة ، فقد قرر الامبراطور فى تسرع ، ودون قوة أو مشورة ، أن يغامر بصراع عاجل ضد القائد القوى . ومن ثم فقد استقبل أريوجاستس وهو جالس على عرشه ، وعندما اقترب الكونت فى شىء من الاحترام الظاهرى ، سلمه ورقة تقضى بطرده من كل وظائفه . فأجاب أريوجاستس فى برود مهين : « ان سلطتى لا تتوقف على ابتسامة ملك أو عبوسه » ، ثم قذف الورقة باحتقار الى الأرض ، فمد الملك الفاضب يده الى سيف أحد حراسه وجاهد فى سحبه من غمده ، ولم يمنعه من استخدام السلاح المميت ضد عدوه أو ضد نفسه الا شىء من العنف . وبعد أيام قلائل من هذا الشجار العجيب غير المعادى الذى أظهر فيه فالنتينيان التمس سخطة وضعفه ، وجد الامبراطور مخنوقاً فى غرفته ، وبذلت الجهود لاختفاء الجرم الواضح الذى ارتكبه أريوجاستس ، لاقناع العالم بأن موت الامبراطور الشاب كان باختياره ونتيجة لياسه . ونقل جثمانه فى عظمة لائقة الى ضريح ميلان ، وألقى رئيس الأساقفة خطاب رثاء أحيا فيه ذكرى فضيلة الامبراطور وما تعرض له من سوء الحظ . وفى هذه المناسبة اندفع امبروز ، يوحى من انسانيته الى الشذوذ عن نظامه اللاهوتى ، فواسى شقيقتى فالنتينيان الباكيتين بأن أكد لهما أن أحابها التقى ، رغم أنه لم يتلق سر المعمودية المقدس ، الا أنه دخل ، دون صعوبة ، رحاب النعمة الأبدية .

وكان حرص أريوجاستس قد مهد لنجاح خططه الطموحة ، وأصبح سكان الأقاليم ، الذين انطلقوا من صدورهم كل احساس بالوطنية أو الولاء ينتظرون فى استسلام خاشع ذلك السيد المجهول الذى سوف يختاره ابن الفرنجة ليجلسه فوق العرش الامبراطورى . غير أن بقية من الكبراء والتحيز كانت لا تزال تترسز ارتقاء أريوجاستس نفسه ذلك العرش ، ورأى البربرى الحكيم أنه من الأصوب له أن يحكم البلاد مستقراً وراء اسم أحد الرومان التابعين . فمنح رداء الملك الى الخطيب البليغ يوجينيوس Eugenius ، الذى كان قد رفعه من مركز أمين سره الخاص الى مركز رئيس الديوان . وكان الكونت أريوجاستس يتمدح محبة يوجينيوس وقدراته ، كما أن عامه وفصاحته ، تعززهما رزانه مسلكه ،

كل أولئك جعله موضع تقدير الشعب ، ثم ان الاحجام الذى أبداه عند ارتقائه العرش ربما يوحى بفكرة حسنة عن فضيلته واعتداله . وانطلق سفراء الامبراطور الجديد على الفور الى بلاط ثيودوسيوس وأبلغوه فى حزن مصطنع نبأ الحادث التعس ، وهو موت فالنتينيان والتمسوا من ملك الشرق ، دون ذكر اسم أربوجاستس ، أن يقبل كزميل شرعى له ، ذلك المواطن المبجل يوجينيوس الذى استحوذ على أصصوات الجيوش وولايات الغرب . وأثار حفيظة ثيودوسيوس بحق أن تدمر خيانة رجل من البرابرة فى لحظة واحدة كل الجهود التى بذلها فى سبيل انتصاره السابق ، وتقضى على ثمرة ذلك النصر . وأثارت دموع زوجته الحبيبة رغبته فى الانتقام لموت شقيقها التعس ، وفى أن يؤكد بقوة السلاح جلال العرش الذى انتهك . غير أن غزو بلاد الغرب مرة ثانية كان مهمة عسيرة خطيرة ، ولهذا فانه صرف سفراء يوجينيوس بالهدايا الفخمة ، وحملهم اجابة مبهمة . ثم انصرف بعد ذلك عامان تقريبا فى الاستعداد لحرب أهلية . وقبل أن يكون الامبراطور التقى قرارا حاصما ، كان تواقا الى استطلاع مشيئة السماء ، وكان انتشار المسيحية قد أسكت أصوات الوحي فى « دلفى » وفى « دودونا » ، فقد لجأ الى استشارة راهب مصرى كان يملك ، فى رأى ذلك المصر ، موهبة صنع المعجزات ومعرفة الغيب . فابحر الى الاسكندرية يوتوبيوس ، وهو أحد الخصيان ذوى الخطوة فى قصر القسطنطينية ، ومن هناك أقلع فى نهر النيل الى مدينة ليكوبوليس Lycopolis ، أو مدينة الذئب ، فى مديرية طيبة النائية . والى جوار تلك المدينة ، وعلى قمة جبل مرتفع ، كان يوحنا المقدس قد بنى بيديه صومعة متواضعة اقام فيها أكثر من خمسين عاما ، دون أن يفتح بابه لأحد ، ودون أن يرى وجه امرأة ، ودون أن يذوق طعاما طهته النار أو جهزه فن انسان . وكان يقضى خمسة أيام من الأسبوع فى الصلاة والتأمل ، ولكنه فى أيام السبت والأحد كان يفتح بصورة منتظمة نافذة صغيرة يستقبل من خلالها جمهور المتوسلين الذين يفدون تباعا من كل أجزاء العالم المسيحى . واقترب خصى ثيودوسيوس من النافذة بخطوات الوقار والاحترام ، وسأل ما أراد من أسئلة تتعلق بحدث الحرب الأهلية ، ثم عاد مسرعا الى ثيودوسيوس يحمل جوابا مشجعا أحيا شجاعة الامبراطور ، حيث أكد له أنه سوف ينال نصرا بالدعاء ، ولكنه نصر أكيد لا ريب فيه . وعمل ثيودوسيوس على تحقيق النبوة بكل الوسائل التى يمكن أن تأتى بها العطنة البشرية ، وجد القائدان العامان ، ستليكو وديماسيوس فى تعبئة الفيالق الرومانية وفى اعادة تنظيمها . وسارت فرق البرابرة العاتية تحت أعلام رؤسائها الوطنيين ، وانضم الى

خدمة ملك واحد جتود من الأيبيريين والعرب والقوط كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض في عجب ودهشة ، وحصل الأريك Alaric الشهير في مدرسة ثيودوسيوس على تلك المعرفة بفن الحرب التي استخدمها فيما بعد بصورة قاتلة في القضاء على روما .

وقد تعلم امبراطور الغرب ، أو بعبارة أصح ، قائد أربوجاستس ، عن سوء تصرف وسوء حظ مكسيموس ، أنه من الخطورة بئس أن يعطيل خط الدفاع ضد خصم يارع ويستطيع أن يضغط بمختلف وسائله الهجومية أو يوقفها ، ويستطيع أن ينقصها أو يزيدنها . ومن ثم فقد حدد أربوجاستس مواقفه على حدود إيطاليا ، وسمح لقوات ثيودوسيوس أن تحتل دون مقاومة ولايات يانونيا Pannonia حتى سفوح جبال الألب الجوليانية Julian Alps ، بل أنه تخلى للفتاح الجريء عن ممرات الجبال ، أما إهمالا منه ، أو أنه ربما تصد ذلك مكرا ودهاء . ونزل ثيودوسيوس من فوق التلال ، وشاهد في شيء من الدهشة ، معسكر قوات الغال والجرمان الهائل الذي كان يغطي الأرض المراء بالعشب والخيام ، ويمتد إلى أسوار أكويليا وضفاف نهر فريجيدوس أو النهر البارد . وكان ميدان الحرب هذا ضيقا ومحصورا بين جبال الألب والبحر الأدرياتي ، ومن ثم فإنه لم يكن مجالا فسيحا لعمليات البراعة العسكرية . وكانت روح أربوجاستس من النوع الذي يحتقر أن يقبل من عدوه عفوا ، كما أن جرمه قضى على كل أمل في المفاوضة ، وكان ثيودوسيوس مبتلها على أرضاء كبريائه وانتقامه بمعاقبة قتلة فالنتينيان . ودون أن يقدر امبراطور الشرق تلك العوائق الطبيعية والمفتعلة التي تعترض طريق جهوده ، هاجم على القور حصون خصمه ، ووضع القوات القوطية في جبهة الخطر والشرف على أمل كان يراوده سرا في أن الصراع الدموي قد يذل كبرياء الغزاة ويقلل من أعدادهم . ومات في ساحة هذه المعركة موت الشجعان عشرة آلاف جندي من تلك القوات الاحتياطية ومعهم قائد قوات أيبيريا ، باكورپوس . غير أن دماءهم لم تحقق النصر ، واحتفظت قوات الغال بميزتها ، وفرت قوات ثيودوسيوس ، أو تقهقرت في غير نظام تحت حماية الظلام المقرب . وانسحب الامبراطور إلى التلال المجاورة حيث قضى ليلة كئيبة ، دون نوم ، ودون مؤن ، ودون أمل ، اللهم إلا ذلك الاطمئنان القوي الذي يستمدّه العقل الحر ، في أشد الظروف ياسا ، من احتقاره للحظ وللحياة . واحتفل معسكر يوجينيوس بذلك الانتصار بصورة وقحة ماجنة ، بينما أرسل أربوجاستس النشيط اليقظ ، سرا ، قوة ضخمة من جيشه لاحتلال الممرات الجبلية والاحداق بمؤخرة الجيش الشرقي . وعندما لاح الفجر تبين ثيودوسيوس مدى

الخطر المحقق به وشدة ، غير أن مخاوفه سرعان ما زالت عندما تلقى رسالة ودية من قواد تلك القوات يعبرون فيها عن رغبتهم في التخلي عن علم الطاغية . ومنحهم ثيودوسيوس دون تردد مكافآت الشرف والمال التي اشترطوا الحصول عليها ثمنا لخيانتهم . ولما لم يكن من السهل الحصول على خبر ووزق فقد وقع الامبراطور على لوحاته الخاصة بالتصديق على المعاهدة ، فانتششت روح جنوده بهذه الامدادات التي جاءت في اوانها ، وساروا في ثقة مرة ثانية لمهاجمة معسكر الطاغية الذي كان يبدو أن كبار ضباطه لا يثقون في عدالته أو في نجاح جيوشه . وعندما كانت المعركة في ذروة حدتها هبت من الشرق بصورة فجائية عاصفة عاتية من تلك العواصف التي كثيرا ما تهب على جبال الألب ، وكان جيش ثيودوسيوس بحكم موقعه في حصن من قبضة الرياح التي اثارَت سحابة من التراب على وجوه الاعداء ، فاحدثت الفوضى في صفوفهم وأطاحت أسلحتهم من أيديهم ، وطوحت بنبالهم أو ردتها فاصبحت عديمة الجدوى ، واستغلت جيوش ثيودوسيوس هذه الميزة التي جاءت وليدة الصدف ، كما أن الفزع الخرافي الذي تملك جنود الفال زاد من أثر العاصفة العاتية ، فاستسلموا دون خجل الى قوى السماء الخفية التي بدا لهم أنها تناضل الى جانب الامبراطور الوريث . وكان انتصار الامبراطور حاسما ، ومات منافسوه ، كل بطريقة مختلفة تتفق مع شخصيته . ذلك أن الخطيب يوجينيوس ، الذي كاد يملك السيطرة على العالم ، تدلى الى التماس رحمة الفاتح المنتصر ، غير أن الجنود لم تأخذهم به شفقة ففصلوا رأسه عن جسده بينما كان طريقا تحت أقدام ثيودوسيوس . أما أريوجاستس ، فإنه بعد أن خسر معركة أدى فيها واجبات القائد والجندي ، سار هائما على وجهه بضعة أيام بين الجبال . غير أنه ايقن أن قضيته أصبحت قضية خاسرة يائسة ، وأن نجاته لا يمكن تحقيقها ، ومن ثم فإن البربري الجري حذا حذو قدماء الرومان وأغمد سيفه في صدره . وهكذا تقرر مصير الامبراطورية في دكن ضيق من إيطاليا ، وعانق خليفة امرة فالنتينيان الشرعي رئيس اساقفة ميلان ، وتكرم بقبول خضوع ولايات الغرب . ولقد كانت تلك الولايات شريكة في جريمة التمرد ، كما أن شجاعة أمبروز التي لا تنثنى ولا تلين ، هي وحدها التي قاومت مطالب اغتصاب ناجح . فلقد رفض رئيس الاساقفة هدايا يوجينيوس في حرية وشهامة كان يمكن أن تهلك أي فرد آخر من أفراد الرعية ، وانسحب من ميلان ليتجنب لقاء كريها مع طاغية تنبأ أمبروز بسقوطه في لفة حريصة مبهمة . وقوبل فضل أمبروز باستحسان الامبراطور المنتصر الذي ضمن حب الشعب بتحالفه مع الكنيسة ، ويعود

الفضل في صفح ثيودوسيوس ورافته الى الشفاعة الانسانية التي قام بها
وقيس أساقفة ميلان .

موت ثيودوسيوس

بعد هزيمة يوجينيوس اعترف كل سكان العالم الروماني في غبطة
وسرور بسنطان ثيودوسيوس وبما كان له من فضل . وكان سلوكه
السابق تجربة شجعت الناس على أن يعتقدوا أجمل الآمال على عهده
المقبل ، كما أن عمر الامبراطور ، الذي لم يتجاوز الخمسين عاما ، بدا
انه يفسح الأمل في الرخاء العام . غير أنه مات بعد أربعة شهور فقط
من انتصاره ، واعتبر الناس موته هذا حدثا مشؤوما لم يكن في
الحسبان ، هدم في لحظة واحدة آمال الجيل الصاعد . غير أن انغماسه
في حياة الميسرة وانترف كان قد غذى فيه مبادئ المرض دون أن
يدرى ، ولم تستطع قوته أن تتحمل الانتقال الفجائي العنيف من
القصر الى المعسكر ، وظهرت عليه بصورة مضطربة أعراض مرض
الاستسقاء الذي اندر بسرعة هلاك الامبراطور . وكان رأى الشعب ،
وربما مصلحته أيضا ، من العوامل التي تؤكد ضرورة تقسيم
الامبراطوريتين : الشرقية والغربية . وأصبح مقدر أن يجلس على عرش
القسطنطينية وعرش روما الأميران الشابان أركاديوس وأونوريوس
الذين أنعم عليهما حنان والدهما بلقب أغسطس Augustus . ولم
يسمح لهذين الأميرين بأن يشتركا في أخطار الحرب الأهلية وأمجادها ،
غير أن ثيودوسيوس بمجرد أن انتصر على خصميه الحقيرين ، دعا ابنه
الأصغر أونوريوس ، للتمتع بثمار النصر ، ولتسلم صولجان الغرب
من يد والده وهو على فراش الموت . ورحب الشعب بوصول أونوريوس
الى ميلان باقامة عرض رائع لألعاب السيرك . ورغم أن الامبراطور كان
ينوء تحت ثقل المرض ، الا أنه حضر العرض مشاركا في الفرحة العامة .
غير أنه أجهد البقية الباقية من قوته بالمجهود المضني الذي بذله
لحضور عروض الصباح ، وجلس أونوريوس مكان والده بقية اليوم ،
ثم مات ثيودوسيوس في الليلة التالية ، ورغم العداوات الحديثة التي
ترتبت على الحرب الأهلية ، فقد قوبل موته بالأسف العام الشامل ،
فالبرابرة الذين غلبهم على أمرهم ، ورجال الدين الذين أخضعوه
لسلطانهم ، كل هؤلاء أحيوا بأصوات الاستحسان العالية المخلصة ما كان
يتحلى به الامبراطور الراحل من صفات بليت في أعينهم أجل الصفات
وأحسنها . وفزع الرومان من الأخطار المحدقة بهم من جراء حكم ضعيف

منقسم ، وكانت كل لحظة مخزية من حكم أركاديوس وأونوريوس تعيد الى ذاكرتهم خسارتهم الفادحة التي لا تموض .

وفي الصورة الصادقة التي رسمناها لقيودوسيوس ، لم نحاول اخفاء نواحي قصوره ، مثل أعمال القسوة وعادات الترفيخ التي لوئت مجد واحد من أعظم ملوك الرومان . ولقد بالغ مؤرخ كان يعترض دائما على شهرة قيودوسيوس ، في ردائل ذلك الرجل وما كان لها من نتائج وبيلة ، فأكد في جراحة أن كل أفراد طبقات شعبه قلدوا أساليب مليكهم المخنثة ، وأن كل أنواع الفساد لوئت مجرى الحياة العامة والخاصة وأن ضوابط النظام واللياقة كانت من الضعف بحيث لم تكف المقاومة نمو روح الانحلال التي تضحي ، دون خجل ، باعتباريات الواجب والمصلحة في سبيل الانغماس الدنيء في الكسل والشهوات . وأن شكاوى الكتاب المعاصرين الذين يرون لزيادة الترف وفساد الأخلاق ، إنما تعبر عادة عن خلقهم ووضعهم الخاص ، وقلة من المراقبين هي التي تملك نظرة جليلة شاملة عن ثورات المجتمع ، وفي مقدورها أن تستشف دوافع العمل الجليلة الخفية التي تحرك الأهواء العمياء المتقلبة لجمهور من الأفراد في اتجاه واحد بعينه . فإذا أكد البعض ، بأى قدر من الصحة والصواب ، أن ترف الرومان كان أكثر فجرا وانحلالا في عهد قيودوسيوس منه في عهد قسطنطين ، أو في عهد أغسطس ، فإن التغيير لا يمكن أن ينسب الى أية تحسينات مفيدة نشأت عنها بالتدريج زيادة الثروة القومية . ذلك أن فترة طويلة من المحنة أو الاضمحلال كان يمكن أن تعوق الناس عن عملهم وتوقف ثرائهم ، وتكون مغالاتهم في الترف عندئذ نتيجة لذلك اليأس الكسول الذي يدفع صاحبه الى الاستمتاع باللمحة الراهنة ، والاعراض عن التفكير في المستقبل . ومن ثم يمكن القول بأن رعايا قيودوسيوس لم يطمئنوا الى سلامة ملاكهم ، الأمر الذي ثبط همتهم عن الاضطلاع بتلك الأعمال المجيدة المفيدة التي تتطلب نفقات عاجلة ، وتبشر بمنفعة بطيئة بعيدة . فكثيرا ما شاهدوا أمثلة من الخراب والعمار اغرتهم على اتفاق أية بقايا من ميراث يمكن في أية لحظة أن تقع فريسة لنهب القوط وسلبهم . وأن الاسراف الجنوني الذي يسود في حالة الارتباك الناشئة عن تحطيم سفينة أو وجود حالة حصار يمكن أن يفسر لنا تزايد الترف وسيط الكوارث والأحوال التي تعتور أمة غارقة .

وكان الترف المخنث ، الذي أصابت عدوه أخلاق الناس في المدين وفي بلاط الملوك ، قد نفث سما خفيا قاتلا في معسكرات الجيوش .

وصور أحد الكتاب المسيكرين التحاليم هذا بعد أن درس دراسة
 حقيقة المبادئ الأصلية القديمة للنظام الروماني . ومن الملاحظات الهامة
 التي أبدعها فيجيتيوس *Vegitius* أن الجنود المشاة كانوا يلبسون
 دائما دروعا كاملة واقية ، منذ تأسيس المدينة حتى عهد الامبراطور
 جراسيان ، وبترأخي النظام ، وانعدام التمرين أصبح الجنود أقل قدرة
 على تحمل متاعب الخدمة ، وأقل رغبة فيها وأصبحوا يجازون بالشكوى
 من ثقل الدروع التي قلما كانوا يرتدونها ، ونجحوا بصورة متوالية
 في الحصول على اذن بخلع خوداتهم ودروع صدورهم ، وكانت الأسلحة
 الثقيلة التي استخدمها أجدادهم وأخضعوا بها العالم ، وهي السيوف
 القصيرة والحراب القوية ، تسقط من أيديهم الخائرة دون أن يحسوا .
 ولما كان استخدام الدرع لا يتلاءم مع استخدام القوس ، فقد كانوا
 يسيرون إلى المعركة كارهين ، إذ كان مقضيا عليهم اما بالاصابة
 بالجروح ، أو بتحمل عار الفرار ، وكانوا ينزعون دائما إلى تفصيل
 هذا البديل الأكثر خزيا . ولقد أحس فرسان القوط والهون والألاني
The Alani بمزايا الدروع الواقية ، واستخدموها . وبما أنهم تفوقوا
 في استخدام أسلحة القذائف ، فقد سهل عليهم غلبة الفرق المتجردة
 المرتجلة التي تعرضت صدورهم ورموس رجالها إلى سهام البرابرة دون أن
 يفيها شيء . وأخفقت خسارة الجيوش ، ودمار المدن ، والعار الذي
 لحق بالاسم الروماني ، في حث خلفاء جراسيان على إعادة الخوذات
 ودروع الصدور الخاصة بالجنود المشاة ، فتخلى الجنود الذين أعوزتهم
 القوة والشجاعة ، عن الدفاع عن أنفسهم وعن بلادهم . وفي مقدورنا أن
 نعتبر هذا التقاعس الرعيد من جانبهم سببا مباشرا في سقوط
 الامبراطورية .

الفصل الثامن والعشرون

(٣٧٨ - ٤٢٠)

نهاية الوثنية • تدمير معبد سرايس •
حظر الشعائر الوثنية • عبادة الشهداء
المسيحيين • انتعاش عادات الشرك •

ربما كان في مقدورنا أن نعتبر دمار الوثنية في عهد ثيودوسيوس
المثل الوحيد للقضاء التام على أية خرافة قديمة شائعة ، ومن ثم فإنه
يستحق أن نتناوله كحدث مفرد في تاريخ العقل البشري • فالمسيحيون •
ورجال الدين بوجه خاص ، كانوا قد تحملوا بنافذ الصبر تلك الماطلة
الحريصة التي أبداهما قسطنطين ، وما في حكم ذلك من تسامح فالتينيان
الأكبر • ولم يكن في مقدورهم أن يعتبروا انتصارهم على خصومهم
كاملا أو مضمونا طالما كان مسموحا لهؤلاء الخصوم بالبقاء • ولقد
استخدموا النفوذ الذي اكتسبه أمبروز وأخوانه على جراثيمان الشاي
وثيودوسيوس التقى ، في بث مبادئ الاضطهاد في صدور أباطرتهم
المهتدين • ولقد أقرت في الفقه الديني قاعدتان منمقتان اشتقوا منهما
نتيجة صارمة مباشرة ضد رعايا الامبراطورية الذين مازالوا متمسكين
بطقوس أجدادهم ، أولاها أن الحاكم يعتبر ، الى درجة ما ، مدينة
بالجرائم التي يهل في حظرها أو في عقابها ، وثانيتهما أن العبادة
الوثنية التي تؤدي لآلهة خيالية لا تعدو أن تكون في واقع الامر
شياطين ، هي أبغض جريمة ترتكب ضد الجلال الاسمي للخالق • وطبق
رجال الدين في عجلة ، وربما خطأ ، شرائع موسى وأمثلة من التاريخ
اليهودي ، على عهد المسيحية المعتدل بعد ستين سنة من تحول قسطنطين
الى المسيحية •

واحتفظ الرومان ، من عهد الامبراطور نوما Numa الى عهد جراشيان بتوارث عدة هيئات للنظام الكهنوتي . فكان هناك خمسة عشر حبرا يمارسون سلطتهم القضائية على كل ما يخص لخدمة الآلهة من أشياء وأشخاص ، وتختص محكمتهم المقدسة بالفصل في مختلف المسائل التي كانت تنشأ على الدوام ، في نظام تقليدي مفكك . وكان هناك خمسة عشر عراقا من العلماء الوقورين يرقبون وجه السماء ويقررون أعمال الأبطال وفق تحليق الطيور . وكان هناك خمسة عشر أمينا على كتب العرافة يتشاورون من حين الى حين في مجريات الأحداث المقبلة أو قل الأحداث الطارئة (كان اسمهم *Quindecemvirs* مشتقا من عددهم (١)) وكان هناك سبع عذارى (كاهنات الهة النار فستا) نفرن عذرتين لحراسة النار المقدسة والرهائن المجهولة الخاصة بنوام روما وبقائها ، وهن اللاتي لم يرهن انسان دون أن يحل به القصاص . وكان هناك سبعة كهان يعدون مائدة الآلهة ، ويقودون الموكب المهيّب ، وينظمون طقوس الاحتفال السنوى . وكان هناك ثلاثة كهان للآلهة جوبيتر ، ومارس ، وكويرينوس يعتبرون وزراء خاصين لاقوى ثلاثة آلهة يسهرون على مصير روما ومصير الكون . وكان « ملك القرايين » ينوب عن شخص الامبراطور نوما Numa وخلفائه الأباطرة في المهام الدينية التي لا يمكن أدائها الا بأيد ملكية . أما رابطة كهنة الاله مارس ، وكهنة الاله لوبركس (اله الخصوبة) وغيرهم فقد كانوا يمارسون شعائر دينية تنتزع ابتسامة الاحتقار من أى رجل عاقل ، وهم على ثقة قوية من أنهم بهذا العمل ينالون حظوة لدى الآلهة الخالدة . غير أن السلطة التي كان كهنة الرومان قد حصلوا عليها من قبل في سياسة الجمهورية ، ألغيت شيئا فشيئا بقيام الملكية ونقل مقر الامبراطورية . ومع ذلك فان قوانين وعادات البلاد ظلت تحمى جلال طابعهم المقدس ، واستمروا يمارسون ، وخاصة هيئة الاحبار ، في العاصمة وفي الولايات أحيانا ، حقوق سلطتهم القضائية ، الكنسية والمدنية . وكانت أروبيتهم الأرجوانية وعرباتهم الرائعة وولائمهم الفخمة ، تستحوذ على اعجاب الناس ، وكانوا يتلقون من الأراضي الموقوفة ومن الإيراد الصام رواتب وفيرة تكفى للانفاق بسخاء على فخامة مراكزهم الكهنوتية ، ودفع نفقات العبادة الدينية في الدولة . ولما كانت خدمة المذبح لا تتنافى مع قيادة الجيوش ، فان الرومان ، بعد أن كانوا يصلون الى منصب القنصل ويحققون انتصاراتهم

(١) *Quindecemvirs* = ١٥ Vers = رجال (باللاتينية) - (الترجمة) .

الحربية ، كانوا يتطلعون الى مناصب الاحبار والعرافين ، ومن ثم فان المقصد الذى كان يشغله بومبى Pompey وذلك الذى كان يشغله شيشرون Cicero شغله فى القرن الرابع نبع أعضاء السناتو ، واضفى سمو ارومهم روعة اضافية على شخصيتهم الكهنوتية . وامتج الكهنة الخمسة عشر ، الذين كانوا يشكلون هيئة الاحبار ، بمركز أعظم رفعة ، بوصفهم رفاق مليكهم ، وتفضل الأباطرة المسيحيون بقبول الرداء والشعارات التى كانت مخصصة لمنصب احبر الأعظم . ولكن عندما ارتقى جراشيان العرش ، وكان أكثر حزما أو أكثر استنارة ، نبذ فى جفاء تلك الرموز الدنسة ، ووجه دخل أنكهنة والكاهنات الى خدمة الدولة أو الكنيسة ، وألقى مناصبهم وحصاناتهم ، وهدم الكيان القديم للخرافات الرومانية ، وهو الذى كانت تؤيده عادات وآراء نمت خلال ألف ومائة عام . وكانت الوثنية لاتزال الديانة الدستورية للسناتو ، فكانت القاعة أو المعبد الذى يجتمعون فيه مزينا بتمثال ومذبح الهة النصر « فيكتورى » ، وهو تمثال امرأة مهيبة واقفة على كرة ، ذات أردية فضفاضة ، وجناحين مبسوطين واكليل من الفار فى يدها المبسوطة . وكان أعضاء السناتو يقسمون على مذبح الآلهة أن يعطعوا قوانين الامبراطور وفوانين الامبراطورية . كما أنهم درجوا على تقديم التبيذ وحرق البخور فى وقار وخشوع كمقدمة لمناقشاتهم العامة . وكانت ازالة هذا الأثر القديم هى الاساءة الوحيدة التى ألحقها قسطنطيوس بخرافات الرومان . ثم أعاد جوليان مذبح الهة النصر ، وتسامح فالنتينيان فى وجوده ، ثم أزاله جراشيان من السناتو مرة ثانية بدافع من غيرته . ومع ذلك فان الامبراطور لم يمس تماثيل الآلهة المعروضة للعبادة العامة ، فبقى أربعمائة وأربعة وعشرون معبدا أو مصلى ليقيم الناس فيها صلاتهم ، وفى كل حى من أحياء روما كان دخان الذبائح الوثنية يجرح شعور المسيحيين

غير أن أن المسيحيين كانوا يشكلون أقل الأحزاب عددا فى سناتو روما ، ولم يكن أمامهم سوى التغييب عن المجلس كى يستطيعوا التعبير عن رفضهم للقرارات المدنسة التى تصدرها الأكثرية الوثنية ، وإن تكن قرارات قانونية . وفى ذلك المحفل اذكت أنفاس التعصب حينما من الزمن جذوات الحرية التى كادت تخبو ، وزادتها اشتعالا . فأولف الى البلاط الامبراطورى مفوضين محترمين ، واحدا بعد الآخر لعرض شكاوى الكهنة والسناتو ولالتماس إعادة مذبح الهة النصر . وعهد بالقيام بهذه المهمة الخطيرة الى رجل الفصاحة سيماخوس ، وهو رجل ثرى نبيل من أعضاء السناتو ، جمع بين شخصيتى الحبر والعراف المقدستين وبين المنصبين

المدنين ، بروقنصل أفريقيا وحاكم المدينة . وكان صدر سيماخوس
 يلتهب بأحر الحساس لقضية الوثنية المحترقة ، وكان خصومه الدينيون
 يأسفون لسوء استخدامه عبقرته وعدم جدوى قضائيه الخلقية . وأدرك
 الخطيب الذي رفع الحماسة الى الامبراطور فالنتينيان أن المهمة التي
 اضطلع بها عسيرة خطيرة . ومن ثم نراه يتجنب في فطنة وحرص أي
 موضوع قد يتعكس على دين مليكه ، ويعلم في خشوع أن الصلوات
 والتوسلات هي أسلحته الوحيدة ، ويستمد حججه في دهاء من مدارس
 البلاغة لا من مدارس الفلسفة ، ويحاول أن يفرى خيال الملك الشاب
 بعرض صفات آلهة النصر وسجايها ، ويلجأ الى أن مصادرة الإيرادات
 التي كانت مخصصة للآلهة هي اجراء لا يناسب خلقه السخي المنزه عن
 الأغراض . ثم يقرر أن القرابين الرومانية سوف تفقد قوتها وفعاليتها
 إذا لم تقدم ويحتفل بها على نفقة الجمهورية وباسمها . بل انه يستمد
 من التشكك ما يبرر به الخرافة ، فيقول ان سر الكون العظيم ، الذي يدق
 من الفهم ، يستصعب على بحث الانسان واستقصائه ، وحيشا يعجز العقل
 عن الارشاد ينبغى أن يتاح للعرف مجال الهداية ، وان كل أمة يبدو أنها
 تتوخى ما يملئها الحرص بالتعلق الأمين بتلك الشعائر والآراء التي
 أقرتها العصور والأجيال . فإذا كانت تلك العصور قد كللت بالجد
 والازدهار ، وإذا كان الشعب الورع كثيرا ما حصل على النعم التي
 التمسها أمام مذبح الآلهة - فانه يبدو من الأصوب أن يستمر الناس على
 نفس عاداتهم النافعة ، وألا يغامروا بالتعرض الى الأخطار المجهولة التي
 قد تترتب على أية بدع متهورة ، ولقد جاوزت ديانة الامبراطور نوما اختبار
 العصور وظفرت بمزية فريدة . ثم يستعين الخطيب سيماخوس بربة
 روما نفسها ، وهي الربة السماوية الساحرة على مصائر المدينة ،
 ويجعلها تدافع عن قضيتها أمام محكمة الأباطرة ، فنقول الربة الوقور
 « ايها الحكام المظام الأمجاد ، يا آباء البلاد ! رفقا بشيخوختي واحتراما
 لعمرى الذي قضيته في طريق الورع دون توقف ، وبما أنى غير نادمة
 على ما فعلت ، فاسمحوا لي بأن أستمع في ممارسة شعائري القديمة .
 وبما أنى ولدت حرة فاسمحوا لي بأن أتمتع بأنظمتي الداخلية . لقد
 أخضع هذا الدين العالم بأسره لقوانيني ، وصلت هذه الشعائر هانيبال
 عن المدينة ، وردت الفالين عن الكابيتول . فهل بقيت شعرات رأسي
 التي وخطها الشيب لتلقى مثل هذا الهوان الذي لا يطاق ؟ اني لأجهل
 هذا النظام الجديد الذي يطلب الى أن أعتنقه ، غير أنى وثقة تماما من أن
 معاقبة الشيوخ أمر شائن يتسم بالجنون » . وأفصح مخاوف الناس
 عما لم يفصح عنه الخطيب المصيف ، فاجتمعت كلمة الوثنيين على أن

الكوارث التي ألقت بالامبراطورية المتدهورة ، أو التي كانت تهددها ،
أما تعود الى ديانة المسيح الجديد ، ديانة قسطنطين .

غير أن المقايمة الحازمة البساعة التي أبدتها رئيس أساقفة ميلان
كانت تقف في طريق آمال سيمباخوس مرة تلو الأخرى ، واستطاع
الأسقف أن يحصن الأباطرة ضد البلاغة الخادعة المغرورة التي كان
يستخدمها محامي روما . وتنازل أمبروز في هذه الخصومة باستخدام
لغة الفيلسوف ، فتراه يتساءل في شيء من الازدراء ، لماذا يكون من
الضروري أن يسمند الى قوة خيالية خفيه أنها السبب في تلك الانتصارات
التي يكفي في تفسيرها أنها تحققت بفضل شجاعة الجيوش ونظامها .
ثم يسخر عن حق من ذلك الاحترام السخيف للتقديم الذي يمارس
بصورة تدعو الى تثبيط الجهود التي تبذل في تحسين الفن ، وتلقي
بالجنس البشري مرة أخرى في همجيته الأولى . ثم يرتفع الأسقف من
هذا الى نغمة أكثر سيموا وأقرب الى اللاهوت ، فيقول ان المسيحية وحدها
هي مذهب الحق والخلاص ، وان كل نوع من أنواع الشرك انما يقود
أنصاره المخذوعين الى سبل الضلال التي تؤدي الى هوية الهلاك . ومثل
هذه الحجج التي قدمها أسقف ذو حظوة لدى الامبراطور ، كان لها من
القوة ما جعلها تحول دون إعادة مذبح الهة النصر ، غير أن هذه الحجج
نفسها ، عندما فاه بها الامبراطور المنتصر ، كان لها وقع وتأثير أشد ،
فسيقت أنهى العصور القديمة بصورة يتجلى فيها الظفر وراء عجالات عربية
ثيودوسيوس . وفي انعقاد كامل للسنااتو طرح الامبراطور ، بمقتضى
رسميات الدولة سؤالاً هاماً عما اذا كانت عبادة جوبيتر أو عبادة المسيح
هي التي ينبغي أن تكون دين الرومان ؟ وتحطمت حرية التصويت التي
تظهر بالسماح بها ، بفعل الآمال والمخاوف التي أوحى بها وجوده في
الاجتماع ، كما أن نفى سيمباخوس بصورة تعسفية كان بمثابة نذير
قريب العهد بأن معارضة رغبات الملك تنطوي على الخطر . وعندما
أخذت الأصوات بالطريقة المعتادة انحازت أغلبية كبيرة جداً ضد جوبيتر
فأدانت وحرقته . وقد يكون مدعاة للدهشة أن بعض الأعضاء ، مهما قل
عددهم ، كان لديهم من الجرأة ما جعلهم يعلنون ، بكلماتهم وبأصواتهم ،
أنهم مازالوا يؤيدون جانب الاله المتبوء . وهذا التحول السريع من جانب
السنااتو لابد أنه يرجع اما الى عوامل خارقة للطبيعة أو الى دوافع حقيرة ،
وقد أفصح كثير من هؤلاء الذين اعتدوا كرها لا اختياراً ، في كل مناسبة
ملائمة ، عن رغبتهم الباطنة في خلع قناع المرادة الكريهة . غير أنهم
تمسكوا شيئاً فشيئاً بالديانة الجديدة ، لأن قضية الديانة القديمة
أصبحت أكثر بأساً . فاذعنوا الى سلطان الامبراطور ، وإلى أسلوب العصر

والى توسلات زوجاتهم وأبنائهم الذين كان رجال الدين فى روما ورهبان الشرق يحرضونهم ويسيطرون عليهم . وسرعان ما أصبح المثل الذى ضربته أسرة أنيكيا The Ancian Family درساً تعلمته بقية الأسرات النبيلة : كأسرة باسى وأسرة بوليني وأسرة جراتشى ، فاعتنقت جميعها الديانة المسيحية ، كما أن « أعضاء مجمع كاتو الموقرين ، وهم كواكب الدنيا (على حدة التعبير المنق الذى استخدمه برودنتيوس) ، كانوا يتحرقون الى التجرد من أرديتهم الكهنوتية ، والى التخلص من جلد الثعبان القديم ، وارتداء الثياب البيضاء الناصعة ، ثياب المعمودية البريئة ، واذلال عزة شارات السلطة القنصلية أمام قبور الشهداء » أما المواطنون الذين كانوا يعيشون بعملهم وجدهم ، والنهضة الذين كانوا يعيشون على سخاء المجتمع ، فقد اكتظمت بهم كنائس الفاتيكان وكنائس اللاتيران فى جموع لا تنقطع من المهتدين الأنقياء . وهكذا أقر الرومان برضايتهم العام تلك القرارات التى أصدرها السناتو بتحريم عبادة الأوثان ، واندثرت روعة الكابيتول ، وتركت المعابد المنعزلة للخراب والهوان وخضعت روما لسيطرة الانجيل ، ولم تكن الولايات المقهورة قد فقدت بعد احترامها لاسم روما وسلطانها .

وكان الاخلاص الذى يكنه الباطرة لأهمهم روما مما جعلهم يسرون فى اصلاح المدينة المخالفة فى شىء من الحرص والبرقة ، ولم يكثرث هؤلاء الملوك أصحاب السلطة المطلقة اكترائاً كبيراً بتحامل سكان الولايات واستأنفوا بهمة ذلك العمل الصالح الذى توقف قرابة عشرين سنة منذ وفاة قسطنطينوس ، ثم أتته أخيراً الامبراطور الورع ثيودوسيوس . وبينما كان ذلك الملك الجرى لا يزال يصارع القوط ، لا من أجل مجد الدولة ، بل من أجل سلامتها ، غامر بالاسامة الى جزء كبير من رعاياه ببعض الأعمال التى قد تظللها السماء بحمايتها ، غير أنها تتسم فى نظر الحرص الانساني بالتهور والبعد عن التعقل . ذلك أن نجاح التجربة الأولى التى قام بها الامبراطور الورع ضد الوثنيين شجعته على التماهى فى اصدار مراسيم الحظر والحرمان وتنفيذها : وبعد هزيمة مكسيموس طبقت على امبراطورية الغرب كلها نفس القوانين التى كان قد أصدرها أصلاً فى ولايات الشرق ، وكان كل ظفر يحققه ثيودوسيوس الأرثوذكسى (صاحب المعتقد الصحيح) ، يسهم فى انتصار العقيدة المسيحية الكاثوليكية . وهاجم ثيودوسيوس الخرافة فى أعظم جانب حيوى لها ، وذلك بحظر تقديم القرابين التى أعلن أنها عمل اجرامى بقدر ما هو عمل مشين ، وإذا كانت الألفاظ التى صيغت بها مراسيمه قد أدانت بصفة أخص ذلك الفضول الذى يدفع الناس الى فحص أحشاء الضحايا ، فإن

كل تفسير نال لمراسيمه ادخل في الجزيرة نفسها عادة تقديم القرابين بوجه عام ، وهي التي تشكل أساسا ديانة الوثنيين ، وبما أن المعابد كانت قد أقيمت لغرض تقديم الذبائح ، فقد أصبح واجب الملك الخير أن يبعد عن رعاياه ذلك الاغراء الخطير الذي يفريهم على الاساءة الى القوانين التي سننها ، فأصدر تكليفا خاصا الى كينييجيوس Cynegius الحاكم انبريتورى للشرق ، ثم الى الكونت جوفويوس والكونت جودنتيوس ، وهما ضابطان من رتبة رفيعة في الغرب ، يأمرهم فيه بإغلاق المعابد ، والاستيلاء على أدوات العبادة الوثنية أو تدميرها والغاء امتيازات الكهنة ، ومصادرة الأملاك الموقوفة على الأماكن المقدسة ، لمنفعة الامبراطور أو الكنيسة ، أو الجيش . والى هنا كان يمكن للخراب أن يتوقف ، وكان يمكن للصروح العارية التي لم تعد تستعمل في خدمة العبادة الوثنية ، أن تبقى بعيدة عن ثورة التعصب المدمرة ، وكان الكثير من تلك المعابد أجمل وأروع آثار فن العمارة اليوناني ، وكان الامبراطور نفسه حريصا على عدم تشويه روعة مدائنه ، أو الاقلال من قيمة ممتلكاته . وكان يمكن لتلك المباني الفخمة أن تبقى نصبا كثيرة دائمة تخلد ذكرى انتصار المسيح . وإذا انحطت القنون ، كان يمكن تحويلها بسهولة الى مستودعات ، أو مصانع ، أو أماكن اجتماعية عامة . ومن الجائز أن جدران المعبد ، بعد أن تطهرها الشمائر المقدسة تطهيرا كافيا ، يمكن أن تكفر عبادة الرب الحقيقي فيها عن ذنب العبادة الوثنية القديم ، ولكنها طالما بقيت قائمة ، ظل الوثنيون يداعبهم أمل خفي عزيز في قيسام ثورة موفقة ، أو مجيء امبراطور آخر مثل جوليان يمد لهم مذابح الآلهة ، كما أن الجدية ، التي قدموا بها توسلاتهم المجدية الى العرش ، ألهمت حماس المصلحين المسيحيين الى استئصال جذور الخرافة دون رحمة . ولم تتسم قوانين الإباطرة بمثل ذلك العنف ، بل كانت أميل الى الاعتدال ، غير أن جهودهم الفائرة الضعيفة لم تكن كافية لصد تيار الحماس والنهب ، الذي دبر له ، أو قل دفعه دفعا حكام الكنيسة الروحيون . ففي بلاد الغال سار الأب المقدس مارتن (١) ، أسقف تور ، على رأس رهبانه المخلصين ، لتدمير الأصنام ، والمعابد والأشجار المقدسة في أبرشيته الواسعة ، وفي مقدور القاري الفطن أن يحكم اذا كان مارتن قد أيده في تلك المهمة الشاقة عون من قوة معجزة ، أو من أسلحة دنيوية . أما في سوريا ، فإن ماركيلاوس التقى الطيب ، على حد تصوير تيودور ، وهو أسقف يلتهب بالغيرة الرسولية ،

(١) انظر : حياة مارتن ، (The Life of Martin) تأليف Sulpicius Severus

وقد حدث مرة أن رأى الأب المقدس جنازة بريئة فظن خطأ أنها موكب وتنى ، وهنا خاتمة الحكمة وارنكب معجزة .

عقد العزم على أن يسوى بالأرض كل المعابد الفخمة القائمة في أبرشية أباميا Apamea . غير أن المهارة والصلابة اللتين شيد بهما معبد جوبيتر قاومتا هجوم الأسقف ورجاله . فقد كان البناء قائما فوق ربوة عالية ، وكانه الأسقف المرتفع مستقلا في الجوانب الأربعة على خمسة عشر عمودا ضخما يبلغ محيط الواحد منها ستة عشر قدما ، كما أن الأحجار التي بنيت منها كانت ملصقة لصقا قويا بالحديد والرصاص ، بحيث أخففت في هدمها أقوى وأحد الأدوات ، وأصبح من الضروري تقويض أساسات الأعمدة نفسها ، فانهارت بعد حرق الدعائم الخشبية التي شيدت بصفة مؤقتة ، وقد وصفت الصعاب التي اعترضت هذا المشروع بصورة مجازية على أنها من عمل شيطان أسود استطاع أن يؤخر عمليات المسيحيين ، ولكنه عجز عن منعها . وانتفخ ماركيللوس بهذا الانتصار فقاد الحملة بنفسه ضد قوى الظلام ، وسير قوة كبيرة من الجنود والمجالدون تحت العلم الأسقفى هاجم بها معابد القرى والريف في أبرشية أباميا . وكان بطل الايمان ونصيره يعانى من عرج لا يمكنه من القتال أو الفرار ، ومن ثم فكلما كان يخشى مقاومة أو خطرا ، كان يقف على مسافة بعيدة عن مرمى النبال . غير أن هذا الحرص من جانبه هو الذى أودى بحياته ، فقد فاجأه بعض القرويين الثائرين وذبحوه ، وأعلن مجمع الولاية دون تردد أن ماركيللوس المقدس قد ضحى بحياته من أجل قضية الله . وتأييدا لهذه القضية اندفع الرهبان من الصحراء في غضب صاخب ، وأظهروا ما يتميزون به من غيرة وهمة استحقوا بها عداوة الوثنيين ، وقد يستحق بعضهم أن يوصم بالطمع الذى أشبعه بنهب الأماكن المقدسة ، وبالأفراط الذى انغمسوا فيه على حساب الناس الذين أعجبوا في غيابهم بملابسهم المهلهلة ، وترتيلهم الجهورى ، وشحوبهم المصطنع (١) . ونجا عدد قليل من المعابد بفضل مخاوف الحكام الدينيين والمدنيين ، أو بفضل رشوة أخذوها ، أو بدافع من الذوق أو الحكمة . أما معبد فينوس السماوية في قرطاجة ، الذى كان محيطه المقدس يبلغ ميلين ، فقد رثى من الحكمة أن يحول الى كنيسة مسيحية ، وحدث ما يشبه ذلك لمعبد البانثيون المهيب ، وبهذا بقيت قبة الفخمة سليمة . غير أن كل ولاية من ولايات العالم الرومانى تقريرا شهدت جيشا من المتعصبين يهاجم السكان الأعداء ، دون نظام ودون سلطان عليه ويهدم أجمل الصروح القديمة التي ما تزال آثارها

(١) وجه ليبانيوس تعظيما الى أصحاب الأودية السوداء هؤلاء . وهم الرهبان المسيحيون الذين يأتون أكثر مما ياكل الفيلة . مساكن هؤلاء الفيلة !! انها حيوانات عظيمة .

تشهد يعبت هؤلاء البرابرة الذى توافر لهم من الوقت والرغبة ما جعلهم
ينفذون ذلك التفسير الضيف الشاق .

تفسير معبد سراجيس

وفى هذا الخراب الذى اتسح مداه وتنوعت أشكاله يستطيع
المشاهد ان يميز أطلال معبد سراجيس Serapis فى مدينة الاسكندرية .
ويبدو أن سراجيس لم يكن أحد الآلهة أو الوحوش الوطنية ، ولم ينشأ فى
مصر المؤمنة بالخرافات وذات التربة الخصبة . ذلك أن أول ملوك البطلمة
قد تلقى فى أحد أحلامه أمرا بأحضار تمثال ذلك الأجنبى الغريب من
شاطئ بنطس Pontus ، حيث كان معبودا عبده أهل سينوب Sinope
مدة طويلة ، غير أن أحدا هناك لم يكن يفهم شيئا عن صفاته وعهده الى
درجة أن الجدل كان قائما حول ما يمثله التمثال ، وهل يمثل كوكب
النهار الوضاء ، أو ملك العالم السفلى المظلم الكئيب ، ورفض المصريون
المتشبهون بدين آبائهم فى صلابة وعناد قبول هذا الاله الأجنبى داخل
أسوار مدائنهم . غير أن الكهنة الأذلاء ، الذين أغراهم سخاء البطلمة ،
خضعوا دون مقاومة لسلطان اله بنطس ، ووضعوا له تاريخا شريفا وطنيا
يتسلسل فيه نسب ذلك المقتصب السعيد المحظ الى عرش و فراش
أوزيريس ، زوج ايزيس وملك مصر السمارى . وأصبحت الاسكندرية
التي اختصها هذا الاله بحمايته ، تفخر باسم مدينة سراجيس . وأقيم له
معبد ينافس الكابيتول عظمة وبروعة ، على قمة فسيحة لتل صناعى يعلو
عن الأجزاء المجاورة من المدينة بمائة درجة من درجات السلم ، ودعم
تجويفه الداخلى تدعيمات قويا بالأقواس ، وقسم الى أبهاء وغرف تحت
سطح الأرض . وأحيطت المباني المقدسة برواق مربع الزوايا ، وتجلت
فى القاعات الفخمة والتمائيل الرائعة عظمة الفنون وتقدمها ، كما احتفظ
بكنوز العلم القديم فى مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي أعيد بناؤها بروعة
جديدة بعد أن كانت تحولت الى رماد . وبعد أن أصدر ثيودوسيوس
تلك المراسيم التي حرم فيها قرابين الوثنيين تعريفا صارما ، ظل تقديمها
مسموحا به فى مدينة سراجيس ومعبد ، ونسب هذا التسامح فى غير
فطنة الى الفزع الخرافى الذى تملك المسيحيين ، كما لو أنهم كانوا
يخشون إلغاء الطقوس القديمة التي تستطيع وحدها أن تحقق فيضان
النيل ، وتضمن المحاصيل المصرية ، وغذاء القسطنطينية .

وفى ذلك الوقت كان كرسى كبير أساقفة الاسكندرية يشغله
توفيلوس Theophilus الذى أبدى للسلم والفضيلة ، وهو رجل جرىء
سبى الخلق تلوثت يده بالذهب تارة وتخطبت بالدماء تارة أخرى .

ولقد أثار سخطه الدينى ما أضفى على سراييس من ألوان التكريم وكانت
اللاهانات التى وجهها الى معبد باكوس Pacchus القديم من الأمور التى
أقنعت الوثنيين بأنه كان يدبر مشروعا أكثر أهمية وأعظم خطورة . وفى
عاصمة مصر الصاخبة كانت أقل إثارة تكفى لاشعال نار حرب أهلية .
وكان المتعبدون لسراييس أقل بكثير من خصومهم عددا وأضعف قوة ،
ولكنهم ناروا وحملوا السلاح بتحريض من الفيلاسوف أولمبيوس
Olimpius الذى حثهم على الموت دفاعا عن مذابح الآلهة . وتحصن
هؤلاء الوثنيون المتعصبون فى معبد سراييس ، أو قل حصن سراييس ،
وصدوا المهاجرين بهجمات فجائية جريئة ، وبدفاع عنيد ، والتمسوا
آخر عزاء يائس بما أوقعوه بإسراهم المسيحيين من أعمال القسوة
الوحشية ، وضاعت الجهود التى بذلها الحاكم الحصيف فى اقرار هدنة
بين الفريقين حتى تصل من ثيودوسيوس اجابة يقرر فيها مصير سراييس .
 واجتمع الفريقان ، وهم عزل من السلاح ، فى الميدان الرئيسى حيث قرىء
الرد الامبراطورى علنا . وعندما نطق الحاكم بحكم الامبراطور الذى
يقضى بتدمير أولئان الاسكندرية ارتفعت أصوات الفرح والسرور من جانب
المسيحيين ، أما الوثنيون التمساء الذين انقلب غضبهم الى فزع وحيرة ،
فقد انسحبوا فى خطوات سرية صامتة ، وافتتوا بفرارهم وانزوائهم من
سخط أعدائهم . وبدأ توفيلوس تقويض معبد سراييس ، دون أن يلتقى
آية صعوبات اللهم الا تلك التى وجدها فى ثقل وصلابة المواد التى شيد
منها البناء . غير أن تلك العوائق كانت منيعة لا تقهر بحيث اضطر الى
ترك الأساسات والاكتفاء بتحويل البناء نفسه الى كومة من الأنقاض ،
وسرعان ما نظفوا جزءا منه لبناء كنيسة تقام تكريما للشهداء المسيحيين .
أما مكتبة الاسكندرية القيمة فقد نهبت ودمرت ، وبعد انقضاء قرابة
العشرين عاما بدت الرفوف خاوية خالية تثير الأسف والسخط فى نفس
كل مشاهد لم يطخ على عقله ظلام التمسب الدينى ، ولقد كان من المستطاع
أن يستثنى من تدمير الوثنية ما أنتجتة العبقريّة القديمة من مؤلفات هلك
الكثير منها دون ما أمل فى تعويضها ، بحيث تبقى لتسليّة الأجيال التالية
وتعليمها ، وكان من الممكن أن يشبع الأسقف غيرته أو طمعه بما حصل
عليه من أسلاب ثمينة جزءا انتصاره . وقد حرص الأسقف على صهر
التمائيل والأواني الذهبية ، أما تلك المصنوعة من معدن أقل قيمة فقد
حطمها فى ازدراء وألقى بها فى الطرقات ، وفى الوقت عينه عمل على اظهار
رذائل كهنة الأوثان وأساليب تدليسهم ، وبراعتهم فى استخدام حجر
المغنطيس ، ووسائلهم الخفية فى ادخال أحد الممثلين فى تمثال أجوف .

وفى استغلال الشائنة الأزواج الأتقياء وزوجاتهم السادجات (١) • ويبدو أن مثل هذه الاتهامات قد تستحق قدرا من التصديق ، لأنها لا تجافى الروح الخبيثة المفروضة التى ينسب بها أهل الخرافات • غير أن هذه الروح نفسها هى التى اتجهت بالصورة عينها الى ذلك الاجراء الخسيس وهو التعريض بعدد مهزوم والافتراء عليه ، ومن الطبيعى أن تعترض تصديقنا فكرة أن ابتكار قصة وهمية أقل صعوبة بكثير من اثبات تدليس فعلى • ولقد أصاب تمثال سراييس الضخم ما أصاب معبده وديانته من دمار • وكان التمثال الهائل لهذا الاله مكونا من عدد كبير من الواح من مختلف المعادن ملتصحة بعضها ببعض ، ويلمس من جانبيه جدران المحراب ، وكان شكل سراييس ، ووضعه الجالس ، وانصولجان الذى كان يحمله فى يده اليسرى ، كل أولئك كان شديد الشبه بالتماثيل العادية للاله جوبيتر ، ولكنه كان يفترق عن جوبيتر بالسلة أو المكيال الذى وضع فوق رأسه ، وبألوحش الرمزى الذى أمسك به فى يده اليمنى ، وهو رأس وجسم ثعبان يتفرع الى ثلاثة ذيول ، وهذه بدورها تنتهى بثلاثة رؤوس هى رأس كلب ورأس أسد ورأس ذئب ، وكان المقول فى ثقة وتأكيد انه اذا تجرأت يد دنسة على المساس بجلال الاله ، فإن السموات والأرض سوف تعود على الفور الى حالة فوضاها الأصلية • غير أن جنديا جريئا ألهمه الحماس وكان مسلحا ببليطة القتال ، فارتقى السلم صاعدا الى التمثال ، وحتى الجمهور المسيحي نفسه توقع فى شيء من القلق ما سوف يحدث نتيجة للصراع • وصوب الجندي ضربة قوية الى خد سراييس ، فوقع الخد الى الأرض ، غير أن الرعد ظل صامتا ، وظلت السموات والأرض تسير فى نظامها وهدوئها المعتاد • وعاد الجندي الظافر ضرباته وأطاح بالصنم الضخم الذى تحطم قطعا ، وجر الجمهور أطراف سراييس فى طرقات الاسكندرية بصورة شائنة • ثم أحرقوا تمثاله فى مدرج المدينة وسط صيحات الجماهير ، ونسب كثير من الناس ارتدادهم عن الوثنية الى اكتشافهم عجز الاله الذى كان يرعاهم ويحرسهم • ولا شك فى أن أساليب الدين الشعبية المألوفة التى تقدم للناس أية معبودات مادية مرئية إنما تتمتع بميزة أنها تستطيع أن تشكل نفسها وفق حواس الإنسان ، وتجعل الناس يألّفونها ، غير أن هذه الميزة يقابلها ما يتعرض له إيمان العابد من

(١) يذكر « رولينوس » اسم كاهن زحل الذى كان يلبس شخصية الاله ويتحدث فى اللغة الى كثيرات من الميديات الثقيات ورفيعات الشأن ، حتى فضح نفسه فى لحظات من لحظات الذنوة حين لم يستطع اخفاء نبرات صوته • وقد تثبت للقصة الصانقة غير المتحيزة التى أوردها أسكينيز Aschines ، ومغامرة مندوس Mandus أن مثل هذه التدليسات الغرامية كانت تمارس فى نجاح •

تأثر بما يعتور الصنم من مختلف الحوادث التي لا بد من وقوعها • ولا يكاد يكون ممكناً أن مثل هذا العابد يستطيع في كل اتجاه من اتجاهات غفله ، أن يحتفظ باجلاله الثابت الوطيد للأصنام أو للمخلفات التي لا تستطيع العين المجردة واليد المدنسة أن تفرقا بينها وبين الأشياء العادية الى أبعد حد ، تلك التي ينتجها الفن أو تأتي بها الطبيعة • وإذا عجزت قدرتها الخفية المعجزة ، في ساعة الخطر ، عن اثبات وجودها ، فانه يسخر من دفاع كهنته ، ويهزأ من القىء الذي كان يعبده ومن حماقة تعلقه به • وبعد أن سقط سرايبس ظل الوثنيون يعلقون بعض الآمال على أن نهر النيل سوف يضمن بفيضه السنوى الذى يزود به سادة مصر الكافرين ، وبدأ تأخر الفيضان غير العادى في تلك المناسبة كأنه نذير بغضب النهر الاله • غير أن هذا التأخير سرعان ما عوضته سرعة ارتفاع المياه التي وصلت الى مستوى غير عادى ارتاح له الفريق المتذمر ، وتوقع في سرور أن الفيضان سوف يكون طوفانا ، غير أن النهر الهادى هبط ثانية الى مستواه المعروف الذى يحمل الخصوبة الى الأرض ، وهو ستة عشر قدماً أو ثلاثون قدماً انجليزيا •

حظر الشعائر الوثنية

رغم أن معابد الامبراطورية الرومانية هجرت أو هدمت ، الا أن براعة الوثنيين المؤمنين بالخرافات ظلت تحاول التهرب من قوانين ثيودوسيوس التي حرم بمقتضاها كل الذبائح والقربان • فسكان الريف الذين كن مسلكهم أقل تعرضاً للعيون الخبيثة المستطلعة ، كانوا يخفون اجتماعاتهم الدينية تحت قناع من اللهو والمرح • ففي أيام الاحتفالات الدينية كانوا يجتمعون في أعداد كبيرة تحت ظل شجرة وارفة مقدسة ، ويذبحون الخراف والثيران ويشوونها ويقدمون هذه المأدبة الريفية بحرق البخور بانشاد التراتيل تكريماً للآلهة • وكانوا يدعون أن تلك اللقاءات الاحتفالية لا تعتبر من جانب المدعين ارتكاباً لجريرة التقدم غير المشروعة ولا تعرضهم للقصاص المترتب عليها ، لأنهم في حرص وحذر ، لا يقدمون أى جزء من الحيوان قرباناً محروقاً ، ولا يقيمون مذبحاً لتلقى "الماء" ، ولا يشبهون بتقديم قربان الكعك المالح ، ولا ينهون الاحتفال بسكب الخمر • • ومهما كان صدق هذا التفريق أو قيمته ، فان المرسوم الأخير الذى أصدره ثيودوسيوس قضى على كل هذه الادعاءات الباطلة وأصاب خرافة الوثنيين بجرح مميت ، وقد صيغ هذا القانون التحريمى في عبارات شاملة مطلقة أكثر ما يكون الشمول والاطلاق • يقول الامبراطور :

« تقتضى ارادتنا ومشيئتنا ، انه ينبغي على كل فرد من رعايانا ، حاكما أو مواطنا ، عظيم الشأن والمقام أو حقيرا ، ألا يصد فى أية مدينة ، أو فى أى مكان ، صنما لا حياة فيه ، بذبح ضحية بريئة » . وأعلن هذا الرسوم أن تقديم الذبائح والتكهن بالغيب عن طريق أحشاء الضحية (دون أى اعتبار لموضوع البحث) يعتبر خيانة عظيمة ضد الدولة ولا تكفير عنها الا بموت المذنب .

أما طقوس الخرافة الوثنية التى قد تبدو أقل دموية واجراما ، فقد ألغيت على اعتبار أنها شديدة المساس بحقيقة الدين وشرفه ، وأدين منها بنوع خاص اشعال النيران وارتداء صفائر الزهور ، وحرق البخور العربية ، وتقديم قرابين انبيد ، كما أن المطالب البريئة للأرواح العائلية والآلهة المنزلية شملها جميعا هذا التحريم الصارم . وأصبح أداء أى من هذه الشمامسة غير المشروعة يعرض المذنب الى فقدان المنزل أو العقار الذى أقيمت فيه . وإذا كان قد تحايل على اختيار منزل شخص آخر لممارسة هذا الضلال ، فانه يرغم فوراً على دفع غرامة فادحة قدرها خمسة وعشرون رطلا من الذهب ، وهى أكثر من ألف جنيه استرليني . وفرضت غرامة لا تقل عن ذلك على تواطؤ أعداء الدين السريين الذين يهملون فى كشف جريمة العبادة الوثنية أو توقيع العقاب عليها . هكذا كانت روح الاضطهاد التى انطوت عليها قوانين ثيودوسيوس ، ونفذها أبناؤه وأحفاده مرارا وتكرارا وقوبل ذلك بالتهليل والاستحسان الاجماعى من جانب العالم المسيحى .

ولقد حرمت المسيحية فى عهد ديكيوس ودقلديانوس ، وهما عهدان اتسما بالقوة ، على أنها تورة على الديانة القديمة الموروثة فى الامبراطورية ، وحامت حول معتنقيها ريب ظالمة بأنهم حزب غامض خطير . غير أن هذه الريب قوبلت الى حد ما باتحاد لا ينقسم ومكاسب سريعة من جانب الكنيسة الكاثوليكية . غير أن هذا الخوف والجهل نفسه لا يمكن أن يعتبروا عذرا ينطبق على الأباطرة المسيحيين الذين خرقوا مبادئ الانسانية وتعاليم الانجيل ، فلقد كشف تجربة العصور عن ضعف الوثنية وحقاقتها ، كما أن نور العقل والايمان أظهر لأكبر جزء من الجنس الانسانى ثقافة الأصنام وبطلانها . وكان فى الامكان أن يسمح لأبناء هذه الطائفة المتدهورة التى ظلت متمسكة بعبادتها أن يتمتعوا بالعبادات الدينية التى ورثوها عن أجدادهم فى هدوء وانزواء ، ولو أن الوثنيين اشتمل فى صدورهم ذلك الحماس العنيد الذى تملك عقول المؤمنين القدامى ، لتلطف انتصار الكنيسة بالدماء ، ولرحب شهداء جويتر وأبوللو بالفرصة المجيدة التى تمكنهم من التضحية بأرواحهم وثوراتهم أمام مذابح الآلهة ، غير أن

هذا الحماس العنيد لم يكن من شيمة الطباع الوثنية المتسمة بالتفكك والاهمال فكانت الضربات العنيفة المتكررة التي يوجهها اليهم الحكام الأرثوذكس تقع على مادة ليئة مرنة فتتكسر حدتها ، ووقاهم خضوعهم السريع من الآلام والجزاءات التي تضمنها قانون ثيودوسيوس وبدلا من أن يصروا على أن سلطان الآلهة أسمى من سلطان الامبراطور ، فقد أقلعوا بدمعة حزينة عن ممارسة تلك الشعائر المقدسة التي أدانها مليكهم .

وإذا كانوا في بعض الأوقات يمارسون خرافتهم المفضلة بدافع من نزوة الهوى ، أو بأمل في عدم افتضاح أمرهم ، فإن توبتهم الذليلة كانت نسلب الحاكم المسيحي قسوته ، وكلما كانوا يرفضون التكفير عن تهورهم بالخضوع الى سيطرة الانجيل ، على شيء من المفض . واعتلأت الكنائس بأعداد متزايدة من هؤلاء المهندسين التافهين الذين اعتنقوا الديانة السائدة مدفوعين بدوافع دنيوية ، وبينما كانوا يقلدون في خشوع جلسة المؤمنين ويرددون صلواتهم ، كانوا يرضون ضمايرهم بالتضرع الى آلهتهم القديمة في دخيلة أنفسهم . وإذا كان الوثنيون في حاجة الى الصبر على الألم ، فقد كانت تموزهم روح المقاومة ، ومن ثم فإن أعدادهم الغفيرة المشتتة ممن كانوا يكون على خراب معابدهم ، استسلموا دون كفاح الى فوز خصومهم . أما المقاومة غير المنظمة التي أبداهم فلاحو سوريا وأهل الاسكندرية ضد التعصب المحلي ، فقد أسكتت باسم الامبراطور وبسلطانه . أما وثنيو الغرب فمع أنهم لم يسهموا في وصول يوجينيوس الى العرش ، الا أنهم الحقوا العار بقضية المقتصب وبشخصيته من جراء تعنتهم المغرض به فقد رماه رجال الدين في عنف بأنه ضاعف جرم التمرد بذنب المروق عن الدين ، وبأنه أذن بإعادة مذبح آلهة النصر ، وبأن شارات جوبيتر وهرقول الوثنية كانت تظهر في ميدان القتال قبالة علم الصليب الذي لا يقهر . غير أن آمال الوثنيين الباطلة سرعان ما تحطمت بهزيمة يوجينيوس ، فتركوا معرضين لسخط الفاتح المنتصر الذي عمل جاهدا على أن ينال حظوة السماء بإبادة الوثنية .

ان أمة من العبيد لا تتوانى عن اظهار استحياسها لشفقة سيدها عندما لا يستغل سلطانه المطلق ويذهب الى أبعد حدود الظلم والاضطهاد . ولا شك في أن ثيودوسيوس كان في مقدوره أن يخير رعاياه الوثنيين بين المعمودية أو الموت ، ولقد امتدح رجل البلاغة ليبانيوس اعتدال ذلك الملك الذي لم يسن قانونا قاطعا يفرض على كل رعاياه أن يعتنقوا ويمارسوا دين مليكهم . ولم يجعل ثيودوسيوس اعتناق المسيحية شرطا جوهريا للتمتع بحقوق المجتمع المدنية ، ولم يفرض منغصات خاصة على أبناء الطوائف التي صدقت تلك القصص الخرافية التي كتبها الشاعر

أوفيد Ovid ، ونبتت في عناد تلك المجزات التي ورد ذكرها في الانجيل . وكان الوثنيون الذين يجهرون بعقيدتهم ويتمسكون بها يملأون القصر والمدارس والجيش والسناتو ، وكانوا يحصلون دون تفرقة على المناصب المدنية والعسكرية في الامبراطورية ، وأظهر ثيودوسيوس اجلاله الكريم للجدارة والمبقرية بأن منح سيماخوس منصب القنصلية الرفيع ، وبما أظهره نحو ليبانيوس من صداقة شخصية ، ولم يطلب الى نصري الوثنية البليغين أن يغيرا آراءهما الدينية أو يمازيا فيها ، ومارس الوثنيون توسع حدود الحرية كلاما كتابة . واثق التجد فيما خلفه يونايبوس وزوسيموس ، معلمو مدرسة أفلاطون المتعصبون ، من كتابات فلسفية وتاريخية ، ما ينم عن أشد العداوة ، وما يحتوي على أقذع الاتهامات الموجهة الى مشاعر وسلوك خصومهم المنتصرين . وبما أن هذه الاتهامات الجريئة كانت معروفة للناس جميعا فانه ينبغي علينا أن نطرى أريحية الملوك المسيحيين الذين نظروا في ابتسامة ازدراء الى آخر كفاح الخرافة واليأس . غير أن القوانين الامبراطورية التي حرمت قرابين واحتفالات الوثنية ، نفذت تنفيذا صارما ، وكانت كل ساعة تضي من الوقت تسهم في القضاء على نفوذ ديانة تؤيدها العادات دون العجة . وان الشاعر أو الفيلسوف ليستطيع خفية أن يشبع عبادته بالصلاة والتأمل والدراسة . غير أن ممارسة العبادة العلنية يبدو أنها الانساس المتين الوحيد لاثباع الأحاسيس الدينية التي يشعر بها الناس ، تلك الأحاسيس التي تستمد قوتها من التقاليد والمادة . ولا شك في أن اعاقه هذه الممارسة العلنية قد تكمل في مدى سنوات قليلة ذلك العمل الهام الذي تقوم به ثورة قومية . كما أن تذكر الناس للأراء الدينية لا يمكن أن يبقى طويلا دون مميزات صناعية يستمدونها من رجال الدين ، ومن المبادئ ، ومن الكتب . والدهماء الجهلاء ، الذين لا تزال عقولهم مضطربة بما فيها من الآمال والمخاوف العمياء التي تثيرها الخرافة ، سرعان ما يغريهم سادتهم على توجيه ولائهم الى آلهة العصر السائدة ، فيسرى فيهم ، دون أن يشعروا ، حباس متقد لتأييد ونشر العقيدة الجديدة التي أرغمهم جوهم الروحي على قبولها في بادى الأمر . ولقد اتجه الجيل الذى نشأ فى العالم بعد اصدار القوانين الامبراطورية نحو حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ودخل رحابها ، وكان سقوط الوثنية سريعا وهادئا الى درجة أنه لم تنقض ثمانية وعشرون عاما على موت ثيودوسيوس ، حتى اندثرت آثارها الضعيفة الزهيدة ، فلم تعد تراها عين المشرع .

عبادة الشهداء المسيحيين

وانتعاش عادات الشرك

يصف السفسطانيون سقوط الوثنية بأنه حدث معجز ونذير شؤم
هذهل رعيب أسدل على الأرض ليلا وأعاد عهد الظلام والفوضى القديم .
وهم يقصون في لهجة الجدد والحزن أن المعابد تحولت إلى أضرحة ، وأن
الأماكن المقدسة التي كانت تزينها تماثيل الآلهة ، دنستها بصورة دنيئة
بقايا الشهداء المسيحيين - يقول يونايبوس : « إن الرهبان (وهم جنس
من الحيوانات القذرة لا يستأهلون اسم الرجال) هم الذين ابتكروا العبادة
الجديدة التي وضعت أحقر العبيد وأكثرهم مهانة مكان تلك الآلهة التي
يمزكها العقل والفهم - وأولئك الشهداء هم المذنبون الخاطئون الذين
استحقوا الموت الشائن العادل جزاء جرائمهم الكثيرة ، أولئك هم
المجرمون ، ببجاعتهم المملحة المحنطة ، وبأجسادهم التي لا تزال تحمل
آثار السياط وندوب التعذيب الذي حكم عليهم به الولاة ، أولئك هم الآلهة
التي تخرجها الأرض لنا في هذه الأيام - أولئك هم الشهداء ، أصحاب
المقامات السامية المتحكمون في صلواتنا وتضرعاتنا إلى الإله ، أولئك هم
الشهداء الذين قدست قبورهم وأصبحت موضع إجلال الناس واحترامهم .
ولسنا نوافق على ما يحمله هذا الكلام من حقد ، غير أنه من الطبيعي أن
تشارك السفسطاني يونايبوس دهشته ، فهو الذي شهد ثورة رفعت ضحايا
قوانين روما للمفمورين إلى مصاف الحماة السماويين غير المرتين للإمبراطورية
الرومانية ، ذلك أنه بمرور الزمن وبحكم انتصار المسيحيين ، ارتفع
أجلالهم لشهداء الدين المقربين بعرفانهم لفضلهم ، إلى مرتبة القديس
الديني ، واستحق أشهر القديسين والأنبياء أن يقرنوا بأعجاد الشهداء .
وبعد مائة وخمسين سنة من الموت المجيد الذي انتهت به حياة القديس
بطرس والقديس بولس ، كان طريق الفاتيكان وطريق أوستيا يتميزان
بالأضرحة ، أو قل بالنصب المقامة لهذين البطلين الروحيين . وفي العهد
الذي تلا تحول قسطنطين إلى المسيحية ، كان الأباطرة والقناصل وقواد
الجيوش يزورون في خشوع أضرحة صناعات الخيام وصاندي الأسماك الذين
دفنت عظامهم المبجلة تحت هياكل المسيح ، تلك الهياكل التي يقدم عليها
أساقفة المدينة الملكية قرايبنهم عبر الدهوية بصورة مستمرة . أما العاصمة
الجديدة للعالم الشرقي فقد عجزت عن إيجاد أية نصب قديمة محلية ،
فتزودت بما غنمته من الولايات التابعة لها . وكانت أجساد القديس
اندراسي ، والقديس لوقا والقديس تيموتاوس ، ترقد منذ ما يقرب من
ثلاثمائة سنة في قبورها المظلمة ، ثم نقلت منها في موكب مهيب وقور

الى كنيسة الرسل التي شاعت عظمة قسطنطين أن تشيدها على ضفاف
البيسفور في تراقيا . وبعد ذلك بخصين عاما تشرفت الضفاف نفسها
بمجيء جثمان صمويل ، نبي شعب اسرائيل وقاضيه . ووضعت بقاياها
في اناء ذهبي مغطى بنقاب حريري ، وتبادلتها أيدي الاساقفة . وقابل
الاساس بقايا صمويل بالفروح والاجلال كما لو كان النبي حيا ، وامتلأت
الطرقات ، من فلسطين الى ابواب القسطنطينية ، بنوكب متصل ، وخرج
الامبراطور اركاديوس بنفسه على رأس المجمع أعضاء الكهنوت والسنااتو
لمقابلة هذا النضيف غير العادي الذي كان جديرا دائما بولاء الملوك ،
ويتطلب منهم هذا الولاء ، وبفضل ذلك المثل الذي ضربته روما
والقسطنطينية توطد ايمان العالم الكاثوليكي ونظامه وبعد تدمير ضعيف
عديم الجدوى يعود الى سبب دينوي دنس ، توطدت أمجاد القديسين
والشهداء في كل مكان ، وفي عصر امبروز وجيروم كانت قدسية اية كنيسة
مسيحية تعتبر مفتقرة الى ما يكملها ، حتى تقدسها قطعة من رفات مقدسة
تدعم ولاء المؤمنين وتلهبه . وخلال فترة طويلة قدرها مائتان وألف سنة ،
بين عهد قسطنطين وبين حركة الاصلاح التي قادها لوتر ، أفسدت عبادة
القديسين وعظام الشهداء تلك البساطة النقية الكاملة التي اتسم بها
النموذج المسيحي ، وفي مقدورنا أن نلاحظ بعض أعراض الانحلال ،
حتى في الاجيال الأولى التي أخذت بهذه البدع الهدامة واحتضنتها .

١ - دلت التجربة على أن بقايا القديسين كانت أكثر قيمة من
الذهب أو الأحجار الكريمة وأغرت هذه التجربة رجال الدين على مضاعفة
أموال الكنيسة ، فلم يابهاوا بالحقيقية أو الاحتمال ، وابتكروا أسماء لهياكل
عظيمة ، وابتدعوا للأسماء أعمالا ، ولوثوا شهرة الرسل وأتقياء الرجال
الذين حذوا حذوهم في فضائلهم ، بالقصص الدينية الزائفة وأضافوا الى
انحصة الصامدة من الشهداء الأولين الأصليين عددا لا يحصى من الأبطال
الوهميين ، الذين لم يكن لهم وجود الا في خيال القصاصين الماكريين
أو السذج . وهناك ما يبرز الشك في أن أسقفية تور لم تكن الاسقفية
الوحيدة التي بجلت فيها عظام أحد القديسين (١) . وهكذا مارس الناس
الخرافة التي ضاعفت مغريات الغش والتصديق ، وأخذت دون أن يشعر
أحد نور التاريخ والعقل في العالم المسيحي .

٢ - غير أن سير الخرافة كان يمكن أن يكون أقل سرعة ونجاحا
لو أن ايمان الناس لم يتلق عونا جاء في أوانه من الرؤى والمعجزات التي

(١) انتزع مارتين أسقف تور هذا الاعتراف من فم الرجل الميت . والخطا جازز على
أنه امر طبيعي . اما اكتشاف الخطا . فالمفروض أنه معجز . فليهما كان أكثر حدوثا ؟

أن البقايا ، التي كانت موضعاً لأكبر الشكوك ، هي بقايا صحيحة لأناس أتقياء . ففي عهد ثيودوسيوس الأصغر كان هناك كاهن في اورشليم اسمه لوكيان Lucian ، يشغل منصب شيخ الكنيسة في قرية كفارجمالا Cafargamala على بعد عشرين ميلاً من المدينة تقريباً . وقص هذا الرجل - كلما عجبنا كل العجب عاوده في يوم السبت مدة ثلاثة أسابيع منوالية لكي يزيل شكوكه . ويقول القسيس انه رأى في الحلم شخصاً مبعجلاً وقوراً يقف أمامه في سكون الليل ، وقد ارتدى ثوباً أبيض ، وندلت لحيته الطويلة ، وأمسك في يده عصاً من ذهب ، وقال ان اسمه جماليل Gamaliel ثم أوضح للقسيس الذي تولته الدهشة أن جثمانه وجثمان ابنه أبيباس وجثمان صديقه نيكوديμος ، وجثمان اسطفان الشهير ، أول شهداء العقيدة المسيحية ، كانت مدفونة سراً في الحقل المجاور . وأضاف في شيء من نفاذ الصبر ، أن الوقت قد حان للامراج عن نفسه وعن رفاقه من سجنهم المظلم ، وأن ظهورهم سوف يخدم العظام المكروبة ، وأنهم جميعاً قد وقع اختيارهم على لوكيان ليتولى أخبار أسقف اورشليم بمكانهم وبرغباتهم . وتتابعت عليه رؤى جديدة أزال تلك الشكوك والصعاب التي كانت لا تزال تؤخر هذا الكشف الهام . وتولى الأسقف حفر الأرض بحضور جمهور كبير العدد ، وهناك وجدت توايبت جماليل وابنه وصديقه في نظام مرتب . ولكن عندما أخرجوا التابوت الرابع ، وهو التابوت الذي ضم رفات الشهيد اسطفان ، زلزلت الأرض ، وفاح عير ذكي كبير الجنة ، شفى على الفور مختلف الأمراض التي كان يقاسى منها ثلاثة وسبعون من الحاضرين . وترك رفاق اسطفان في مثواهم انهادي ، أما رفات الشهيد الأول . فقد نقلت ، في موكب رهيب ، الى كنيسة أقيمت تكريماً لها على جبل صهيون ، وأصبح من المعترف به ، في كل ولاية من ولايات العالم الروماني ، أن جزئيات هذه الرفات ، أو أية نقطة من الدم (١) ، أو أية قطعة من العظم ، لها صفة سماوية معجزة . وانك لتري العلامة الوقور أوجستين (٢) Augustin ، الذي كان على قدر من الادراك لا يسمح بأن يعتذر لصاحبه بالسذاجة والتصديق ، يشهد

(١) كانت قذاب قارورة من دم القديس اسطفان في نابولي كل سنة حتى خلفه القديس جانويرايوس St. Januarius .

(٢) ألف أوجستين الأجزاء الاثني والعشرين من كتاب « مدينة الرب » في ثلاث عشرة سنة (٤١٣ - ٤٢٦ بعد الميلاد) . وكثير من المعلومات الواردة في هذا الكتاب منقولة ، اما حجه فهي في أكثر الأحيان من عمله ، غير أن الكتاب في مجموعه جدير بأن يعتبر عملاً رائعاً ، اتمه صاحبه في قوة ومهارة .

بالمعجزات التي لا حصر لها التي صنعتها بقايا القديس اسطفان في أفريقيا ، وهذه الرواية العجيبة يشتمل عليها المؤلف الرائع « مدينة الرب » الذي وضعه أوجستين أسقف هبو Hippo لكي يكون دليلا ثابتا خالدا على حقيقة المسيحية . ويعلن أوجستين في كثير من الجدية أنه لم ينفق إلا المعجزات التي اعترف بها علنا أولئك الذين كانوا موضوع قدرة الشهيد ، أو الذين كانوا شهود تلك القدرة . وقد نسي الكثير وحذف الكثير من الأعمال المعجزة ، كما أن مدينة هبو كان حظها من المعجزات أقل من حظ مدائن الولاية الأخرى ، ومع ذلك فإن الأسقف يعد أكثر من سبعين معجزة ، ثلاث منها بعث من الموت ، في غضون سنتين ، وفي حدود أسقفيته وحدها (١) فإذا اتسع مدى أبصارنا بحيث يشمل كل أسقفيات العالم المسيحي ، وكل القديسين ، فلن يكون من السهل علينا أن نحصى كل الخزعبلات وكل الأخطاء التي خرجت من هذا المصدر الذي لا ينضب معينه . غير أنه لابد أن يسمح لنا بأن نلاحظ أن المعجزة ، في ذلك العصر الذي عرف بالخرافة والتصديق ، فقدت اسمها ومزيتها ، حيث لا يكاد يكون ممكنا أن تعتبر انحرافا عن قوانين الطبيعة العادية القائمة .

٣ - كانت قبور الشهداء هي المسرح الدائم للمعجزات التي تفوق الحصر . ولقد كشفت تلك المعجزات للمؤمن التقى عن الحالة الفعلية والتكوين الفعلي للعالم غير المنظور وبدا له أن تأملاته الدينية قائمة على أساس متين من الحقيقة والتجربة . فمهما كان من أمر الأرواح العادية في الفترة الطويلة التي تنقضي بين تحلل أجسادها وبين بعثها ، فقد كان من الواضح أن الأرواح الأكثر سموا ، أرواح القديسين والشهداء ، لا تستنفد تلك الفترة من جودها في نوم صامت خامل . وكان من الجلي (دون التجرد) على تحديد مثواها أو طبيعة سعادتها) أنها تستمتع بما لديها من وعي نابض نشيط بسعادتها وبفضيلتها ، وبقدراتها ، وبأنها قد استحوذت على جزائها الأبدى . أما اتساع ملكاتها العقلية فانه يفوق مقاييس الخيال البشري ، حيث ثبت بالتجربة أنها تستطيع أن تسمع وتدرک تضرعات المديدين من أنصارها الذين يستعيذون باسم اسطفان أو مارتن ويلتشمسون عونهما ، في نفس اللحظة من الزمن ، وفي أقصى أنحاء الدنيا . وكانت ثقة هؤلاء المنصرعين قائمة على اقتناعهم بأن القديسين ، الذين يحكمون مع

(١) انظر كتاب « مدينة الرب » تأليف أوجستين ، الجزء الأول ، الفصل ٢٢ - والملحق ، وهو يحتوي على كتابين عن معجزات القديس اسطفان من وضع افولنيوس ، أسقف يوزاليس . وقد احتفظ فريكلوس بمثل أسباني أو غالي ، يقول : « إن من يدعي أنه قرأ كل معجزات القديس اسطفان ، فهو كاذب » .

المسيح ، ينظرون بعين الشفقة الى الأرض ، وأنهم يهتمون اهتماما حارا بازدهار الكنيسة الكاثوليكية ، وأن الأفراد الذين يحذون حذوهم في ايمانهم وتقواهم هم في موضع الحظوة الخاصة من أرق ألوان حذبهم وعطفهم . وفي الحق أن صداقتهم كانت تتأثر أحيانا باعتبارات أقل سموا: فيخسون بالحب تلك الأماكن التي قدست بمولدهم فيها ، أو باقامتهم ، أو بموتهم ، أو تلك التي دفنت فيها أجسادهم ، أو باقتناء آثارهم . أما ما هو أدنى من ذلك من أهواء كالكبرياء ، والطمع ، والانتقام ، فكلها أهواء تعتبر غير جديرة بضمير وخلق سماوى ، ومع ذلك فإن القديسين أنفسهم تفضلوا بآثبات استحسانهم وامتنانهم لسخاء أنصارهم ومريديهم ، كما كانوا ينزلون أقصى ضربات العقاب بأولئك الأشقياء الضالين الذين يندسسون أضرحتهم ، أو الذين لا يؤمنون بقدرتهم الخارقة . وفي الحق أن جرم هؤلاء الناس لا بد أن يكون شنيعا ، وأن شكلهم لا بد أن يكون غريبا عجيبا ، إذا هم قاوموا في عناد أدلة الأداة السماوية التي كان يتحتم طاعتها على عناصه الطبيعة ، وعلى الخليقة الحيوانية بأكملها ، بل وعلى العمليات الغامضة الخفية التي تدور في العقل البشرى . ان النتائج المباشرة ، التي تكاد تكون تلقائية ، والتي كان مفروضا أنها تعقب الصلاة ، أو الاسامة أقنعت المسيحيين بما كان يتمتع به القديسون من حظوة وسلطان لدى إله الأسمى ، وكان يبدو أنه ليس هناك ما يدعو الى التساؤل عما إذا كان على القديسين بصورة مستمرة ان يتوسطوا لدى العرش الالهى ، أو أنه كان مسموحا لهم بأن يمارسوا السلطات المخولة من الله لوزرائه الخاضعين له . ومن ثم فإن الخيال الذى ارتفع بجهد جهيد الى تأمل عبادة خالق الكون ، اتخذ من دون الله أشخاصا يقدسهم ، واختار أولئك الذين هم أكثر تناسبا مع آرائه الفجة وملكاته الناقصة . وهكذا اعتور الفساد بالتدريج تلك الأفكار اللاهوتية السامية البسيطة التي كان يعتنقها المسيحيون اولون . أما مملكة السماء ، التي أظلمتها الغوامض الميتافيزيقية من قبل ، فقد نال منها الآن ما استحدثت من أساطير شعبية وخيصة أصبحت تنبج الى إعادة عهد الشرك .

٤ - وعندما انحدرت أهداف الدين شيئا فشيئا الى مستوى تصور الناس وخيالهم أدخلت في العبادة تلك الشعائر والطقوس التي رأت أنها تؤثر أعظم التأثير في حواس الدهماء والعامية . ولو أتيح لراعى الكنيسة تروتليانوس أو لاكتانتيوس أن يبعث من الموت فجأة في أوائل القرن الخامس ، ليجلس احتفالا أقيم لقديس أو شهيد شعبى ، لنظر بعين الدهشة والسخط الى ذلك المشهد الدنس الذى حل مكان العبادة الظاهرة الروحية التي يقيمها جمهور المصلين المسيحيين ، ولا بد أن كان يزعجهما ، بمجرد

فتح أبواب الكنيسة ، دخران البخور ، وعبير الزهور ، ولحان المصاييح والشموع التي ينبعث منها في منتصف النهار ضوء متلألئ لا لزوم له ، وينال ، في نظرهما ، من قدسية المكان . فإذا ما اقتربا من سور المذبح ، شقا طريقهما وسط جمهور منبسط على الأرض ، يتألف أكثره من غرباء وحجاج جاءوا الى المدينة في عشية العيد ، وبدوا يحسون بنشوة الحماس انديني ، وربما نشوة الخمر . وكانوا يطعمون قبلاهم الورعة على أسوار الهيكل المقدس وأرضيته ، ويتجهون بصلواتهم ، مهما كانت لغة كنيستهم الى عظام القديس ، أو الى دمه ، أو الى بقاياها التي جرت العادة على اخفائها عن عيون الدهماء وراء نقاب من الحرير أو التيل . وكان المسيحيون يترددون على مقابر الشهداء ، بأمل الحصول ، عن طريق شفاعتهم القوية ، على كل نوع من أنواع النعم الروحية ، والنعم الدنيوية على الأخص . فكانوا يلتمسون دوام صحتهم ، أو شفاء عائلهم ، أو زوال عقم زوجاتهم ، أو سلامة أبنائهم وسعادتهم . وعندما كانوا يعتزمون القيام برحلة بعيدة أو خطيرة ، كانوا يلتمسون من الشهداء المقدسين أن يكونوا أدلاهم وحماهم في الطريق . فإذا ما عادوا دون أن يمسه سوء ، سارعوا مرة ثانية الى قبور الشهداء للتعبير ، بصلوات الشكر والامتنان ، عما يدينون به من فضل لذكرى هؤلاء الأبرياء السماويين وبقاياهم . وكانت الجدران مليئة بما يعلق عليها من رموز ترمز الى ما حصلوا عليه من أفضال ، فكانت ترى العيون ، والأيدي ، والأقدام ، المصنوعة من الذهب والفضة ، وكنت ترى صورا دينية لم تستطع الحفاظ على رونقها طويلا من جراء ما ناله منها السعد الوثني الطائش ، وهي صور تمثل شخص القديس الولي ، وسجاياء ومعجزاته . ولا شك في أن هذه الروح نفسها ، روح الخرافة المتأصلة قد فوحت ، في أقدم العصور ، وفي أبعد البسلاط ، بنفس الأساليب التي استخدمت الآن لخداع سذاجة الناس ، وللتأثير على حواسهم . غير أنه ينبغى علينا أن نعترف في صراحة بأن قساوسة الكنيسة الكاثوليكية غلدوا الأنموذج المقدس الذي كانوا يتلهفون على تدميره . وبلغ الحال بأعظم الأساقفة احترامهم الى أنهم أقنعوا أنفسهم بأن الدهماء الجهلاء سوف ينبذون في سرور خرافات الوثنية اذا ما وجدوا في قلب المسيحية ما يشبه تلك الخرافات ، أو ما يعوض عنها . وهكذا ترى أن ديانة قسطنطين قد حققت ، في أقل من قرن واحد ، انتصارا كاملا نهائيا عن الامبراطورية الرومانية ، غير أن الغزاة أنفسهم خضعوا دون أن يحسوا الى فنون منافسيهم المقهورين .

بعد وفاة ثيودوسيوس انفصل نصف الامبراطورية الشرقى نهائيا عن نصفها الغربى واستقل ابنه اركاديوس بحكم الشرق ، كما استقل أونوريوس بحكم الغرب • وكان أونوريوس شخصية غسيفة ، فكانت السيطرة فى الغرب لوزيره روفينوس ، ولشخص آخر اسمه ستيلكو Stilicho وهو وندالى يجمع بين كفاية القائد وقدرة المفاوض • وكان دوره كمفاوض دورا غامضا ، اما حملاته العسكرية فقد اعترضها الثغور المتزايد بين الشرق والغرب •

وفى الفترة التى انقضت بين سنة ٣٩٥ وسنة ٣٩٨ ، غزا القوط بقيادة الاريك بلاد اليونان ، وكادوا يعزلون فى شبه جزيرة البلوبونيز • غير ان الاريك انتشل نفسه بفضل تواطؤ ستيلكو ، وعقد اتفاقا سريا مع الحكومة الشرقية ، وعين قائدا اعلى لجيوش الليريا الشرقية ، ونصب ملكا للقوط الغربيين • ثم هاجم الاريك ايطاليا ، ولكنه رد عنها ، واحتفل أونوريوس بالنصر فى روما ، ثم اقام فى رافنا • وفى سنة ٤٠٦ غزا راداجيسوس Radagaisus ايطاليا ، وتحطم جيشه على يد ستيلكو الذى بدأ مفاوضاته مع الاريك ، غير انه قتل نتيجة دسيسة دبرت ضده فى القصر •

(كل هذه الاحداث يصفها جييون فى الفصل

التاسع والعشرين وفى الفصل الثلاثين) •

الفصل الحادى والثلاثون

(٤٠٨ - ٤١٠)

الاريك يقزو ايطاليا • اخلاق نبلاء روما وشعبها • حصار
حصار روما ثلاث مرات ونهبها • تقهقر القوط وموت
الاريك •

ان عجز الحكومة الضعيفة اللاهية كثيرا ما يبدو كأنه اتصال غادر
بعذر البلاد ، كما أنه يؤدى الى النتائج نفسها • ولو أن الاريك نفسه
اشترك فى مجلس رافنا ، لكان من المحتمل أن يتصح باتخاذ نفس
الاجراءات التى اتخذها فعلا وزراء أونوريوس ، ولكان من الجائز أيضا أن
يتأمر ، على غير رغبة منه ، على تدمير خصمه القوى الذى هزمته جيوشه
مرتين ، مرة فى ايطاليا ، وأخرى فى اليونان • فلقد عمل هؤلاء الوزراء
جاهدين يدفع من الكراهية العنيفة التى كانوا يضمونها لشخص
سبيلكو العظيم ، وبخاف من مصالحتهم ، على الحاق العار والدمار بذلك
الرجل • ولم يستطع ساروس Sarus وقدرته الحربية ، ونفوذ
الشخصى أو الورائى على البرابرة المتحالفين ، لم تستطع هذه كلها أن
تجعل له قيمة الا فى نظر المخلصين لبلدهم الذين كانوا يحتقرون ،
أو يكرهون شخصيات توربيليو Turpilio وفارانس Varanes
وفيجيلانتوس Vigilantius وكلهم شخصيات قافهة لا قيمة لها •
رقد ترتب على الحاح هؤلاء المحظوظين الجدد ، وهم قواد أثبتوا أنهم غير
جديرين باسم الجنود ، أن ارتقوا الى قيادة الفرسان ، والمشاة والقوات
الوطنية • وكان يمكن أيضا أن يوقع الأمير القوطى فى سرور على الرسوم
الذى أملاه تمصب أوليمبيوس على الامبراطور الساذج الورع • فقد أبعد
أونوريوس كل معارضى الكنيسة الكاثوليكية عن تقلد أى منصب فى

الدولة ، ورفض في عناد خدمات كل من انشقوا عن دينه ، وجرى في ظهور كثيرا من أشجع وأمر الضباط الذين تمسكوا بالعبادة الوثنية أو الذين اعتنقوا الآراء الآريوسية . كل هذه الاجراءات ، وما أعظم نفعها للعدو ، كان من الجائز أن يوافق عليها الأريك ، بل كان من المحتمل أن يقترحها غير أنه يبدو من الأمور المستحكة فيها أن البربرى الأريك كان يقبل أن يحقق مصلحته بأعمال القسوة الوحشية الحقاء التي اقترفت بتوجيه وزراء الامبراطور ، أو على الأقل بفضل تفاضسيهم . ولقد حزن لموت ستيلىكو أفراد القوات الأجنبية الذين كانوا تابعين له ، غير أن رغبتهم في الانتقام كبتهما في صدورهم خوفاهم الطبيعى على سلامة زوجاتهم وأطفالهم ، الذين احتجزوا كرهائن في مدائن ايطاليا القوية حيث احتفظوا أيضا بأثمن مقتنياتهم . ولقد حدث في وقت واحد وكما لو كان ذلك بإشارة مشعركة ، أن تلوئت مدن ايطاليا بنفس المشاهد التي راح ضحيتها دون تمييز أسرات البرابرة ، ومشاهد النهب العام الذى تناول ثرواتهم وممتلكاتهم . وازداد حنقهم لهذه الاساءة البالغة ، التى كانت كفيلة بإثارة أسس النفوس قيادا وأشدّها خضوعا وذلة ، فنظروا نظرة غضب وأمل الى معسكر الأريك ، وأقسموا قسما اجماعيا على أن يشنوا حربا عادلة لا هواة فيها على الأمة الفادرة التى حطمت مبادئ الضيافة بمثل هذه الحقارة . وبهذا المسلك الطائش الذى سلكه وزراء أونوريوس فقدت البلاد مبيعات ثلاثين ألفا من أشجع جنودها ، واستنقحت عداوتهم وتحول ثقل هذا الجيش الهائل من جانب الرومان الى جانب القوط ، رغم أنه كان هو وحده الكفيل بتقرير مصير الحرب .

وقد احتفظ الملك القوطى ، فى فنون المفاوضة ، وفى فنون الحرب سواء بسواء ، بتفوقه الكبير على عدو كانت قلباته البادية للمعانى تعود الى افتقاره الكامل الى المشورة والتخطيط ، وكان الأريك يرقب فى انتباه ، عن معسكره على حدود ايطاليا ، ثورات القصر ، ويلاحظ مسير الحزبية والتدمير ، ويخفى المظهر العدوانى ، مظهر الفاتح البربرى ، ويبدو فى مظهر شمعى ، مظهر الصديق والحليف للقائد ستيلىكو العظيم ، الذى يستطيع الآن أن يوفيه ما تستحقه صفاته من مديح صادق ، بعد أن زالت خطورتها ، وأن يأسف على ضياعها ، وتلقى ملك القوط من التذمرين دعوة ملحة تحضه على غزو ايطاليا ، وعزز هذه الدعوة احساسه الحاد المرهف بالاساءات التى لحقت بشخصه ، وهو يستطيع أيضا أن يصطنع الشكوى من أن وزراء الامبراطور ما زالوا يماطلون ويسوفون فى دفع أربعة آلاف من الأرطال الذهبية التى وافق على منحها له السناتو الرومانى مكافأة على خدماته ، أو تهديّة لثورته . ولقد أبدى اعتدالا ماكرا عزز موقفه الحازم

المهذب ، وأسهم في نجاح خططه . ذلك أنه طلب ترضية عادلة ممقولة ، ولكنه قدم أقوى التأكيدات بأنه سوف ينسحب على الفور بمجرد الحصول عليها ، ورفض أن يثني في كلمة الرومان إلا إذا أرسلوا إلى معسكره ايتيوس وجاسون وهما ابنا لائين من كبار موظفي الدولة ، كرهائن حرب ، وأبدى استعداداه لتسليم عدد من أنبل شبان القوط في مقابل ذلك . وفسر وزراء راغنا هذا النواضع من جانب الأريك بأنه دليل أكيد على ضعفه وخوفه . ورفضوا في أنفة أن يتفاوضوا على عقد معاهدة ، أو أن يجمعوا جيشا ، وترتب على هذه الثقة الطائشة ، التي كانت وليدة جهلهم بالخاطر الهائل ، أنهم ضيعوا المخططات الحاسمة في مصير السليم والجرب .
بينما كانوا يتوقعون في صمت كثيب أن يجلو البرابرة عن حدود إيطاليا ، عبر الأريك جبال الألب ونهر البو في مسيرة جريئة سريعة ، واستولى بصورة عاجلة على ملان أكويليا والتيفوم وكونكورديا وكريمونا ، التي استسلمت جميعها إلى جيوشه ، وتضاعفت قواته بدخول ثلاثين ألف جندي من القوات الأجنبية . ودون أن يلقي عدوا واحدا في الميدان ، تقدم إلى جافة المستنقع الذي كان يحصي المقر للمنيح لامبراطور الغرب . وبدلا من أن يحاول قائد القوط الحصيف محاصرة مدينة راغنا دون جدوى ، سار نحو مدينة ريمنى ، مجتاحا شاطئ البحر الأدرياتي ، وأخذ يدبر لغزو سيده العالم القديمة ، وقابل الملك المنتصر في طريقه ناسسكا إيطاليا كانت غيرة وقدسيته موضع احترام البرابرة أنفسهم ، وانصحب الناسك في جراءة عن سمخط النساء على الظالمين في الأرض . غير أن القديس نفسه أرتج عليه الأمر عندما أكد له الأريك أنه يشعر بقوة غامضة خارقة تدفعه ، وتوجهه ، بل وترغمه على السير نحو أبواب روما . وأحس الأريك أن عبقريته وحظه يؤهلانه لأشقى المشاريع ، كما أن البصائر الذي بثه في القوط أزال عن صدورهم ، دون أن يحسوا ، ما كانت تشعر به الأمم من احترام شائع يكاد يصل إلى درجة الخرافة ، نحو جلال الاسم الروماني : وسارت قواته في طريق فلامينا ، تلهب حماسها أعمال الغنائم ، واحتلت صرات الابنيل (١) التي تركت دون حراسة ، ثم نزلت إلى سهول أمبريا Umbria الغنية ، وعسكرته على شواطئ نهر كليتومنيوس Clitumnus واخذت تذبح وتلتهم بلا حساب تلك الثيران الناصعة البيضاء التي ظلت مدخرة تلك الفترة الطويلة لانتصارات الرومان : ولم تبق مدينة نارني الصغيرة بفضل ارتفاع موقعها ، وبفضل عاصفة رعد وبرق هبت في

(١) لورد اديسون وصفا راغنا للطريق الذي يهترق جبال الابنين . ولم يكن لدى القوط وقت لمشاهدة جمال للنظر ، غير أنه سرهم أن يجسوا أن يمر ناسسكا اقترسيسا ، وهو من ضيق نحتة فسبازيان في الصخر ، كان مهملا كل الاممال .

الوقت المناسب ، غير أن ملك القوط لم يأبه بتلك الفريسة الحقيرة ، وواصل تقدمه دون هوادة ، وبعد أن اخترق الأقواس الفخمة المزينة بأسلاب الانصارات الهمجية ضرب خيام معسكره تحت أسوار روما .

ولم يحدث من قبل خلال فترة ستمائة وتسعة عشر عاما ان طرق عدو أجنبي أبواب عاصمة الامبراطورية . فالحملة الفاشلة التي شنّها هانيبال لم يترتب عليها سوى أنها أظهرت طابع السناتو وطابع الشعب ، السناتو الذي يسمى اليه أكثر مما يشرفه أن يقارن بجمعية من الملوك ، والشعب الذي نسب اليه سفير الملك بيروس Pyrrhus (ملك ابيروس ٣١٨ - ٢٧٢ ق.م) أنه يملك موارد لا ينضب معينها كوحش الهيدرا المائي (وحش ذو رموس كثيرة ينمو غيرها اذا قطعت) . وكان كل عضو في السناتو في وقت الحرب البونية قد أتم مدة خدمته العسكرية ، سواء في منصب صغير أو كبير ، ثم صدر مرسوم بمنح قيادة مؤقتة لكل من كانوا يشغلون منصب قنصل أو مراقب Censor أو حاكم فوق العادة ، وبهذا كسبت الدولة على الفور مساعداة الكثيرين من القواد انشجعان المحنكين . وفي بدء الحرب كان الشعب الروماني يتألف من ربع مليون من المواطنين تسمح لهم أعمالهم بحمل السلاح . وكان قد مات خمسون ألف رجل منهم في الدفاع عن البلاد ، وكانت الفيالق الثلاثة والعشرون المستخدمة في مختلف معسكرات ايطاليا ، واليونان ، وسردينيا ، وصقلية ، وأسبانيا في حاجة الى ما يقرب من مائة ألف رجل . وكان لا يزال في روما والاقليم المجاور عدد مماثل يلتهب بالشجاعة الجريئة نفسها ، وكان كل مواطن يتدرب من باكورة شبابه على نظام الجندية وتدريباتها . ولقد دهش هانيبال لثبات السناتو الذي انتظر مجيئه دون أن يحاول رفع الحصار عن كابوا Capua ، أو استدعاء القوات المبعثرة . فعسكر على شواطئ نهر انيو Onio ، على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، وسرعان ما بلغه أن الأرض التي ضرب عليها خيمته قد بيعت لقاء ثمن مناسب في مزاد علني ، وأن فرقة من الجنود قد أرسلت في طريق عكسي لتعزيز فيالق أسبانيا . ففقد قواته الأفريقية الى أبواب روما ، حيث وجد ثلاثة جيوش في حالة استعداد للمعركة تتأهب للقائه . غير أن هانيبال تهيّب قتالا لا يأمل في الافلات منه الا اذا قضى على آخر جندي من أعدائه وكان تفهقره السريع دليلا على شجاعة الرومان التي لا تفقر .

أخلاق نبلاء الرومان

منذ وقت الحرب البونية حافظت الأجيال المتصلة من أعضاء السناتو على اسم الدولة الرومانية وطابعها ، وكان رعايا أونوريوس الذين أصابهم

الفساد والانحلال يفخرون بأن أصولهم ترجع الى الأبطال الذين ردوا جيوش هانيبال على أعقابها وأخضعوا أمم الأرض . ويجعل لنا شيخ الكنيسة جيروم في كثير من العناية تلك الأمجاد الدنيوية التي ورثتها وازدرتها الامبراطورة الورعة بولا Paula ، وكان جيروم مرشداً لضميرها ومؤرخاً لحياتها . وكان نسب أبيها ، روجاتوس ، يرتفع الى الملك أجاممنون . الأمر الذي يبدو أنه ينم عن أصل يوناني ، غير أن أمها بلاسيللا Blaesilla كانت تعد في قائمة أجدادها أسرات سكيبيو ، امبليوس بولوس ، وجراتشي ، أما توكسوتيوس ، زوج بولا ، فقد انحدر عرقه الملكي من اينياس Aeneas جد الفرع الجولياني . كل هذه الدعاوى الشامخة كانت تشبع غرور الأغنياء الراغبين في أن يكونوا من طبقة النبلاء . وسهل على هؤلاء أن يخدعوا سذاجة الغمياء من الناس ، يشجعهم على ذلك نرجيب من كانوا يعيشون عائلة عليهم ، ويؤيدهم الى حد ما ما درجوا عليه من انتحالهم أسماء أولياء نعمتهم ، وهي عادة كانت سائدة دائماً بين المتقاة وأتباع الأمر الشهيرة . الا أن أغلب تلك الأسرات اندثرت شيئاً فشيئاً بفعل الكثير من عوامل العنف الخارجي أو الاضمحلال الداخلي . وأصبح من الأيسر أن تبحث عن تسلسل نسب عشرين جيلاً من جبال الألب أو في اقليم أبوليا Apulia الهادئ المنعزل عن أن تبحث عنه في صعيد روما ، مركز الثراء ، والخطر ، والثورات الدائمة . ففي كل عهود الحكم المتعاقبة ، ومن كل ولاية من ولايات الامبراطورية ، كانت تجيء جماعات من المغامرين الأشداء الذين ارتفعوا الى المجد بفضل مواهبهم أو نقائصهم ، وتغتصب ثروة روما ، ومناصبها وقصورها ، وتضطهد أو ترعى البقايا الفقيرة الذليلة من أسرات القناصل ، وربما كانت هذه البقايا لا تدرى شيئاً عن مجد أجدادها .

وفي عصر جيروم وكلوديان كان جميع أعضاء السناتو يسلمون بسمو أسرة أنيكيوس ، وان نظرة بسيطة الى تاريخهم لكفيلة بتقدير مقام وعراقة الأسرات النبيلة التي كانت تتنازع على المكان الثاني بعد هذه الأسرة ولا تتطاول اليها . وخلال العصور الخمسة الأولى لمدينة روما لم يكن اسم أسرة أنيكيوس معروفاً . ويبدو أنها استمدت أصولها من برانست Praeneste ، وأصبح هؤلاء المواطنون الجدد طموحهم فترة طويلة بمناصب صغيرة هي مناصب التربيون (المدافعون عن حقوق الشعب) وقبل العهد المسيحي بمائة وثمان وستين سنة تشرفت الأسرة باختيار أنيكيوس لمنصب البريتور ، واستطاع هذا الرجل إنهاء الحرب اللاليرية بصورة مجيدة وذلك بقهر أمة الليريا وأسر ملكها . ومنذ آن انتصر ذلك القائد تولى ثلاثة ممن يحملون اسم هذه الأسرة منصب القنصلية في عهود بعيدة . ومنذ عهد دقلديانوس الى زوال الامبراطورية

الغريبة كان اسم هذه الأسرة يلح لمانا لم يحجب في تقدير الشعب
جلال الرداء الامبراطوري ، وجمعت الفروع العديدة التي كانت متصلة
بها ، عن طريق الزواج أو الميراث ، بين ثروة وألقاب أسر انيوس
وجترونيوس وأونيوس وأوليبيريوس . وفي كل جيل من الأجيال كان عدد
الشياعين لمنصب القنصلية يتضاعف بحق الارث ، وسعت أسرة أنيكيوس
في إيمانها ، وازداد ثراؤها ، وكانت أول أسرة في السيناتو الروماني
تؤمن المسيحية ، ومن المحتمل أن أنيكيوس جوليان الذي أصبح بعد ذلك
قنصلا وحاكما للمدينة ، كفر عن اتصاله بحزب مكسينتيوس بسرعة تقبله
للديانة المسيحية . وازداد ثراؤهم الوفير بفضل مجهود بروبوس Probos
عميد الأسرة ، الذي شارك جراثيشيان شرف القنصلية ، وتولى أربع مرات
منصبا رفيعا هو منصب الحاكم البريتوري . وكانت أملاكه الثمانية
مبعثرة في كل العالم الروماني ، ورغم أن الشعب قد يشك في الأساليب
التي حصل بها على هذه الأملاك ، أو لا يحبها ، إلا أن عظمة ذلك السياسي
المحظوظ ، وما كان يظهره من كرم ، أكسبها امتنان أتباعه وإعجاب
الغريب عنه ، وبلغ من احترام ذكرى ذلك الرجل أن ولديه ، وهما في
باكورة الشباب ، وبناء على طلب السيناتو ، ألحقا بالسلك القنصل ، وهذا
تشريف مشهود لا مثيل له في سجلات تاريخ روما .

وكانت عبارة « رخام قصر أسرة أنيكيوس » تضرب مثلا للبلخ
والفخامة ، غير أن نبلاء روما وأعضاء السيناتو تطلعون ، درجة بعد درجة ،
إلى تقليد تلك الأسرة اللامعة . وفي الوصف الدقيق للمدينة الذي وضع
في عهد ثيودوسيوس ، يوجد ألف وسبعماية وثمانون من المنازل المهيئة
لاقامة المواطنين الاغنياء ذوي المكانة . وكثير من هذه القصور الفخمة قد
يبرر مبالغة الشاعر الذي قال - ان روما تحتوى على عدد كبير من القصور ،
وان كل قصر يعتبر مدينة بأكملها ، لأنه يضم داخل نطاقه كل شيء يمكن
الافتقار به أو استخدامه وسيلة من وسائل الترف ، كالأسواق وحلقات
سباق الخيول والعربات ، والمعابد ، والنافورات ، والحمامات والأروقة ،
والغابات الظليلة ، وحظائر الطيور . ويكمل المؤرخ اليمبيودوروس
Olympiodorus هذا الوصف ، في تصويره لحالة روما عندما حاصرها
القوط ، فيذكر أن كثيرا من أغنياء السيناتو كانوا يحصلون من
أملاكهم على دخل سنوي قدره أربعة آلاف وطل من الذهب أي أكثر من
ستين ومائة ألف من الجنيهات الاسترلينية ، دون أن تسفل في ذلك مؤن
القمح والنبذ التي ، اذا بيعت ، تساوت قيمتها لث هذا المبلغ . وبالمقارنة
إلى هذه الثروة الزائلة عن الحدود ، فإن دخلا عاديا قدره ألف رطل
أو ألف وخمسمائة رطل من الذهب لا يعتبر أكثر مما يكفي لمقام منصب

السنانو ، الذي كان يتطلب الكثير من النفقات المظهرية العامة . وهناك أمثلة كثيرة مسجلة في عصر أونوريوس ، لنبله مفرورين معروفين كانوا يحتفلون بذكرى السنة التي تولوا فيها منصب البريتور بأقامة حفل يقوم سبعة أيام ويكلفهم أكثر من مائة ألف من الجنيهات الاسترلينية . وكانت أملاك أعضاء السنانو ، التي زادت إلى هذا الحد عن الثراء في العصور الحديثة ، غير محصورة داخل حدود إيطاليا ، بل امتدت فيما وراء بحر أيونيان وبحر إيجه إلى أبعد الولايات . فكانت مدينة نيكوبوليس التي أسسها أغسطس لتكون أثرا خالدا لاغتصامه في اكتيوم ، ملكا للامبراطورة الورة بولا ويلاحظ سينيكا Seneca أن الأتجار التي كانت من قبل تفصل بين أهم متخاصمة متنازعة أصبحت الآن تجري وسط أرض يملكها أفراد مواطنون . وكان الرومان ، وفق مزاجهم وظروفهم ، يكلفون أرقاعهم بزراعة أراضيهم ، أو يؤجرونها مقابل إيجار متفق عليه للفلاحين المجدين . ولقد حذ قدامى الكتائب الاقتصاديين اتباع الطريقة الأولى حيثما كانت طريقة عملية ، أما إذا كانت الأرض أبعد أو أكبر من أن تراها عين صاحبها ويشرف عليها إشرافا مباشرا ، فإنهم يفضلون أن يعهد بالأرض لعناية مستأجر حريص يتوارث إيجارها ، ويرتبط بها ، ويهتم بانتاجها ، على أن يوكل أمر إدارتها إلى وكيل مرتزق مهمل ، وقد يكون وكيلا خائنا .

وكان النبلاء المترفون الأثرياء في تلك البعاصمة الضخمة لا يشترهم مطلقا السعي إلى المجد العسكري ، وكلما كانوا يعملون في وظائف الحكومة المدنية . فمن الطبيعي والحالة هذه أن يوجهوا فراغهم إلى ميثاغل الحياة الخاصة ومسرتها . وكانت التجارة في روما تعتبر دائما من الأعمال المحتقرة ، غير أن أعضاء السنانو ، منذ أول عصور الدولة ، كانوا يزدبون أملاكهم الموروثة ويضاعفون مواليتهم بممارسة الربا المربح ، ويتعديون من القوانين المتينة أو ينقضونها لأن أطراف العملية كانوا يميلون إلى ذلك ويجدون فيه مصلحة متبادلة . ولا بد أن روما كان بها قدر ضخم من المدخرات ، سواء من عملة الامبراطورية المتداولة أو في صورة أوان ذهبية وفضية . وفي عصر بليني Pliny (عالم روماني) كان يخزون الفضة في المنازل أكثر مما نقله القائد سكيبيو Scipio من قرطاجة المتهورة . ولقد بدد أكثر النبلاء ثرواتهم في الترف المفرط ، ووجدوا أنفسهم فقراء وسط الثراء ، وتفهاء مهملين وسط حلقة دائمة من التهلك . وكان هؤلاء النبلاء يعتمدون في اشباع رغباتهم على العمل الذي تقوم به آلاف الأيدي ، فهناك عهد كبير من الخدم الأرقاء الذين يفضلون بدافع من خشية العقاب ، وهناك مختلف الصناعات والتجار الذين يعملون بدافع أخرى ، هو الأمل في الربح . ولا شك في أن هؤلاء القدامى كانوا يفتقرون في حياتهم إلى الكثير

عن وسائل الراحة التي أوجدها أو حسنها تقدم الصناعة ، فوفرة الزجاج والمنسوجات زودت أهم أوروبا الحديثة بوسائل الراحة الحقيقية أكثر مما كان أعضاء السناتو في روما يستمدونه من كل أنواع الترف المحسى أو أبهة المظهر (١) . ولقد كان ترفهم وعاداتهم موضوع بحث دقيق جهيد ، غير أن الخوض في هذه البحوث من شأنه أن يبعدني كثيرا عن الغرض من هذا المؤلف ، ومن ثم قاني سوف أورد وصفا صادقا صحيحا من وسائل الراحة التي أوجدها أو حسنها تقدم الصناعة ، فوفرة الزجاج القوطي ، كتبه أميانوس ماركيلينوس *Amianus Marcellinus* الذي حرص على اختيار عاصمة الامبراطورية مقاما أكثر ما يكون ملائمة لمؤرخ يكتب عن العصر الذي عاش فيه . ولقد مزج هذا المؤرخ رواية الأحداث العامة بتصوير حي للمشاهد التي كانت مألوفة لديه . ولا شك في أن القارئ الحصيف سوف لا يرضى دائما عن حدة المؤرخ في النقد والذم ، أو عن اختياره للملابسات والظروف ، أو عن أسلوب تعبيره . وربما استشف تحيزاته الكامنة ، وحنقه الشففى ، وكلها أمور نفتت المראה في صدر أميانوس نفسه . غير أنه من المؤكد أن القارئ سوف يلاحظ في رغبة استطلاع فلسفية ، صورة شائقة أصيلة لما كانت عليه أساليب الحياة في روما (٢) .

لقد قامت عظمة روما (هذه هي لغة المؤرخ) على ارتباط نادر لا يكاد يصدق بين الفضيلة والثراء . وكانت الفترة الطويلة من طفولتها كفاحا جريدا شاقا ضد قبائل إيطاليا ، وجيران المدينة الناشئة وأعدائها . وفي قوة وخيامة الشسباب قاومت عواصف الحرب ، وسيزت جيوشها الظافرة الى ما وراء البحار والجبال ، وجاءت الى الوطن بأكاليل النصر من كل بلد من بلدان الأرض ، وفي نهاية المطاف ، عندما بلغت من العمر عتيا ، وأصبحت في بعض الأحيان لا تقوى على الغزو الا بفضل رهبة سمعتها ، حينذاك سمعت الى نعيم الراحة والهدوء . وكنت ترى المدينة الوقور ، التي روضت أعناق أشد الأمم ضراوة ، وسنت القوانين لحماية العدالة والحرية حماية دائمة ، كنت تراها وقد قنعت ، كالوالد الثرى الماقل بأن تمهد الى ابنائها المفضلين من القياصرة بحكم ميراثها الكبير .

(١) يلاحظ العلامة *Arbuthnot* في شيء من الدماجة ، واعتقد أنه كان صادقا أن أغسطس كانت تروا لقمرة خلوا من الزجاج ، وأن ظهوره كان دون قميص . وفي عهد الامبراطورية الجنوبية أصبح الزجاج والقماش أكثر شيوعا .
(٢) لابد لي من أن أقرر التصرف الذي تصرفه فيما يختص بالفصل الذي كتبه أميانوس : (انظر هامش الصفحة التالية) .

وجاءت فترة هدوء وطيد عميق ، كذلك التي استمتعت بها مرة في عهد الإمبراطور نوما Numa وفي أعقاب اضطرابات عهد الجمهورية ، بينما ظلت روما موضع الإعجاب والاحترام والجلال كملكة الدنيا ، كما ظلت الأمم الخاضعة لها تقديس اسم شعبها وجلال السناتو . غير أن هذه العظمة الوطنية (يستطرد أميانوس) إنما يلوئها ويحط من شأنها مسلك بعض النبلاء الذين لا يراعون كرامتهم وكرامة بلادهم ، وينتازعون على الرتب والألقاب أرضاء لغرورهم الأجوف . ومن عجب أنهم ينتقون أو يبتكرون أرفع الأسماء وأعلاها رتبة - ريبوروس أو فايونيوس ، ياجونيوس أو تاراسيوس - وكلها أسماء تؤثر في آذان الدهماء وتنتزع دهشتهم واحترامهم . واستبد بهم الطمع المفرور في تخليد ذكراهم ، فتراهم يعملون إلى الاكثار من صورهم مجسمة في تماثيل من البرونز والرخام ولا يشعرون بالرضا حتى تغطي تلك التماثيل بالذهب ، وهو امتياز كريم منح أول ما منح إلى القنصل اكيلوس Acilius بعد أن قهر بجيوشه ونصائحه سلطان ملك انطاكيا . وإن مباحاتهم المظهرية بالأموال التي تفيض عليهم من إيجار الأراضي التي يملكونها في كل الولايات ، أو قل مبالغتهم في التفاخر بهذا الثراء ، من شروق الشمس إلى غروبها ، إنما تشير سمخه كل إنسان يذكر أن أجدادهم الفقراء الذين لم يقهرهم أحد ، لم يتميزوا عن أحقر الجنود بطعامهم الشهى أو فخامة ملابسهم . غير أن النبلاء الحديثين يقيسون قدرهم وأهميتهم بفخامة عرباتهم (١) . وروعة ملابسهم . فأرديتهم الطويلة الحريرية الحمراء تهتف في الهواء وعندما تتطاير بمحض

= (١) أدمجت في قطعة واحدة الفصل السادس من الكتاب الرابع عشر ، والفصل الرابع من الكتاب الثامن والعشرين .

(٢) نظمت المادة الهوشة وأوجدت ارتباطاً بين أجزائها .

(٣) خفلت بعض الغلاة المبالغ فيها وحذفت بعض ما لا لزوم له في الأصل .

(٤) أبرزت بعض الملاحظات التي نكرت ضمناً لا صراحة .

وبهذا التصرف تكون الترجمة بعيدة عن الحرفية ، ولكنها آمنة دقيقة .

(١) كانت عربات الرومان تصنع في العادة من الفضة الخالصة ، وتنقش وتحفر بصورة عجيبة واستمر هذا البذخ من عهد ثيرون إلى عهد أونورفوس وكان طريق آيبيا مليئاً بالعربات الفضة الخاصة بالنبلاء الذين جاءوا لمقابلة القديسة ملانيا St. Melania عندما عادت إلى روما بعد حصار القوط بست سنوات .

غير أن الراحة قد أخذت الآن مكان الفخامة ، والعربة البسيطة الحديثة القائمة على (المسست) أحسن بكثير من العربات القديمة التي كانت تسير على عجلات خشبية ، وكانت معرضة في أكثر الأحيان لقسوة الطقس .

الصدفة أو يفتعلون تطايرها ، تبدو من تحتها بين الحين والحين ملابسهم الداخلية ، وهي قصان فاخرة مزركشة برسوم مختلف الحيوانات (١) . وهم يركبون عرباتهم وخلفهم حاشيه من خمسين خادما يدفون الارض ويسعرون في الطرقات بسرعة عنيفة كما لو كانوا يركبون خيول البريد . وتحدو السيدات حذو أعضاء السناتو ، فعرابهن المعلقة نجوب الرفعة الفسيحة التي تضم المدينة وضواحيها ، بصورة مستمرة . وكلما تنازل هؤلاء الأشخاص المرموقون بزيارة الحمامات العامة ، فانهم يتخذون لانفسهم مظهر الأمرين السليبين ، ويخصون أنفسهم بوسائل الراحة المخصصة للشعب الروماني . واذا قابلوا في هذه الاماكن العامة التي يختلط فيها الجميع أيا من خدام ملذاتهم ذوى السعة السيئة ، فانهم يعبرون عن مودتهم بمنأق وقيق ، بينما يعرضون في أنفة وكبرياء عن نحيات رفاقهم المواطنين الذين لا يسمح لهم بالتطلع الى أكثر من التشرف بتقبيل أياديهم أو أرجلهم ، وما أن ينتهوا من استمتاعهم بالحمام المنعنى حتى يعادوا التحل يخواصهم ويكل مظاهر عظمتهم وينتقون من خزائن ثيابهم الخاصة المديته بأجمل الملابس التي تكفي اثني عشر شخصا ما يلائم مزاجهم من أردية ، ويحتفظون حتى رحيلهم بذلك المسلك المتعالي الذي ربما كان يمكن أن يعذر عليه ماركيلوس العظيم بعه غزو سيراكيوز . وفي الحق أن هؤلاء الأباطال يقومون بمنجزات أكثر مشقة ، فيزودون أملاكهم في ايطاليا ، ويوفرون لانفسهم ملذات الصيد بفضل جهد ابائهم الأذلاء . واذا حدث في أي وقت من الأوقات ، وخاصة اذا كان اليوم حارا ، أن وجدوا في أنفسهم شجاعة على التنزه في زوارقهم المزركشة من بحيرة لوكرين Lucrine الى (دورهم) الأنيقة على شاطئ بوتبول وشاطئ كايثا ، فانهم يقارنون رحلاتهم هذه بمسيرة قيصر أو مسيرة الاسكندر . ولكن اذا تجاسرت ذبابة على الوقوف على طيات مظلانهم الحريرية المذهبة ، أو اذا نفذ اليهم شعاع خلال فتحة في المظلة لا تكاد تدرك ، تركت دون حراسة ، فانهم يندبون مخنتهم التي لا تحتمل ، ويقولون في عبارات حزينة مصطنعة أنهم لم يولموا في بلاد الكميريلي (٢) ، بلاد الظلام الأبدي . وفي هذه الرحلات الى الريف يسير حشم البيت

(١) من علة من عطات إستيريويس . أسقف آيسيا . اكتشف M. de Valois أن ذلك كان طرازا جديدا . وأن البيبة ، والذباب ، والأسود والنمور ، والفأيت ، ومباريات الصيد وغيرها كلنت تصور بالنطرون . أما المختلفون الأكثر ورعا فانهم كانوا يرسون على ثيابهم صورة قبس مفضل لديهم ، أو قصته .

(٢) باللاتينية Cimmerii نسب أسطوري قال عنه الشاعر هوميروس انه يقطن مملكة نائية يحيط بها الظلام والغباب - (الترجمة) -

جميعهم مع سيدهم . وكما أن الفرسان والمشاة ، والقوات المسلحة الخفيفة والثقيلة ، وحرس الطليعة والمؤخرة ، تنظمهم مهارة قوادهم العسكرية ، فإن موظفي القصر الذين يعملون عصيا تظهر سلطانتهم ، يوزعون ويرتبون العدد الكبير من العبيد والأنبياع . وتحصل الأمتعة وخزانة الثياب في المقدمة ، ثم يجرى بعد ذلك عدد كبير من الطهاة والخدم الأدنى مرتبة الذين يعملون في خدمة المطابخ والمائدة . أما الجزء الرئيسي من الموكب فإنه يتألف من جمهور خليط من العبيد ، يزداد عدده بمن يحتشد معهم مصادفة من الدهماء المتسكعين أو الاتباع . وتسير في المؤخرة زمرة من الخصيان ، كبار السن أولا ، ثم الشباب ، وفق نظام الأقدمية . وتثير أعدادهم وأشكالهم المشوهة فزع المتفرجين الساخطين الذين يلعنون ذكرى سيرايميس التي ابتكرت ذلك الفن القاسي لهدم أغراض الطبيعة والقضاء على آمال الأجيال المستخدمة وهي لا تزال في شبابها . وفي ممارسة سلطتهم القضائية على خدم الدار وعمالها فإن نبلاء روما يعبرون عن حساسيتهم الشديدة لكل اساءة تلحق بأشخاصهم ، وعن احتقارهم لبقية النوع الانساني وعدم اكتراثهم به . فاذا طلبوا ماء دافئا . وتأخر العبد في تلبية الأمر ، فإنه يعاقب بالجلد على الفور ثلاثمائة سوط .

غير أن العبد نفسه ، اذا ارتكب جريمة قتل متعمدة فإن سيده يقول في رقة انه عبد حقير ، وانه اذا ارتكب الجرم مرة ثانية فلن ينجو من العقاب . ولقد كان كرم الضيافة فيما مضى فضيلة الرومان ، وكان كرمهم يمتد الى كل غريب يظهر مزية فيكافئونه عليها ، أو يشكو من محنة ، فينقذونه منها . أما الآن ، فإن الأجنبي ، الذي ربما كانت له مكانته ، اذا قسم الى أحد الأثرياء المتشامخين من أعضاء السناتو ، فإنهم يرحبون به في أول مقابلة بالمبارات الحارة والاستفسارات الرقيقة التي تجعله يغادر المكان وقد سحرته بشاشة صديقه العظيم ، فيأسف لأنه آخر طول ذلك الوقت رحلته الى روما موطن الأخلاق كما هي مقر الامبراطورية . فاذا ما اطمأن الى ما لقيه من استقبال مشجع لطيف ، عاود الزيارة في اليوم التالي ، وعندئذ يخيب أملة اذا ما اكتشف أن اسمه وشخصه وبلده قد أصبحت في ذوايا النسيان ، واذا ظلّ مشابرا على الزيارة ، اعتبر على مر الأيام واحدا من الاتباع ، وأذن له بأن يعفى في تودده العقيم لسيد شامخ الأنف لا يرعى جميلا ولا يمنع أحدا صداقته ، وقلما يتنازل بملاحظة وجوده . وعندما يقيم الأغنياء مأدبة رسمية شعبية ، وعندما يملون ولائمهم الخاصة في بذخ مفرط ضار ، فإن اختيار ضيوفهم يصبح موضع تشاور واهتمام . فهم قلما يفضلون من يتسمون بالتواضع والورع والعلم . ومن ثم فإن واضعي الاسماء ، وهم عادة من أولئك الذين تهركهم دوافع المصلحة ،

يتوافر لديهم من الحق ما يمكنهم من تزويد قسائم الدعوات بأسماء مضمورة لأحقر بنى الانسان . أما الرفاق المقربون العظماء والمترددون عليهم ، فهم الطفيليون الذين يمارسون فن الملق ، أنفع الفنون وأجداها ، ويهملون لكل كلمة يقولها ولي نعمتهم الخالد ، ولكل عمل يقوم به . وينظرون في طرب زائد الى أعمدته الرخامية وأرضيات غرفه المزركشة ، ويستدحون في حماس تلك الفخامة والرشاقة التي تعلم أن يعتبرها جزءا من فضله الشخصي . وإذا قدم على المائدة طير أو سنجاب (١) أو سمك يتميز بحجم غير عادي ، ينظر اليها الضيوف في اهتمام عجيب ، وحي . يميزون يتحققون به من وزنها الحقيقي ، وبينما يشتمز عقلاء الضيوف من تكرار هذا العمل الباطل الممل ، كان صاحب الوليمة يستدعي المسجلين لكي يثبتوا من واقع السجلات الصادقة صحة هذه الواقعة العجيبة . وثمة وسيلة أخرى لدخول بيوت العظماء ومجتمعاتهم ، وهي وسيلة مستمدة من الميسر ، وهو الذي يطلق عليه تأديبا اسم اللعب . والمشترون في هذه اللعبة تجمع بينهم رابطة صداقة ، أو قل رابطة تأمر ، قوية لا تنفصم . وامتلاك درجة عالية من المهارة في فن التردد (٢) Tesserarian وهو طريق مؤكد للثروة والشهرة ، وإذا حدث في حفل عشاء أن وضع أستاذ من أساتذة هذا العلم الرفيع في مكان دون مكان حاكم ولاية ، ظهر على سحنته العجب ، والحق اللذان يظن أن كاتو Cato شمر بهما عندما أبى الجمهور الانقلاب أن ينتخبه بريتورا ، أما تحصيل

(١) يضطرنى عدم وجود اسم انجليزي الى الاشتداد الى النوع المألوف المشترك من السنجاب وهو المسمى باللاتينية Gali وبالفرسية Lout وهو حيوان صغير يسكن الغابات ، ويظل ناشئا في الطقوس الباردة . وكان فن تربية وتسمين أعداد كبيرة من السنجاب يمارس في (دور) الرومان كنوع من الاقتصاد الريفي المريح . وقد ازداد الطلب عليها كثيرا لتفقيها على موائد الترف ، لأن الشاغلين لمناصب المراقبين كانوا يحرمونها ، ولقد قيل انها لا تزال موضع تقدير في روما الحديثة . وأن حكام كولونا مازالوا يرسلونها هدايا .

(٢) هذه اللعبة يمكن ترجمة اسمها الى الاسم المألوف « الطاولة » أو « الترد » . وكانت تسلية محببة لدى أكثر الرومان رزانة . وقد اشتهر (موكيوس سكافولا) Mucius Scavola الأكبر ، وكان محاميا ، بمهارته الزائدة في هذه اللعبة . وكان اسمها باللاتينية Ludius duodecim Scriptorum وهو اسم مشتق من الاثنى عشر خطا Scripta التي كانت تقسم اللوحة Alveolus الى اجزاء متساوية . وعلى هذه الاجزاء كان يلعب الجيش الأبيض والجيش الاسود ، يتألف من خمسة عشر رجلا ، ويحركون بالتبادل وفق قوانين اللعبة وفرس « الزهر » وقد تتبع الدكتور هايد Dr. Hyde تاريخ واتواع لعبة الترد (لفظ فارسي) من ايرلندا الى اليابان ، وأظهر في هذا الموضوع للناقد علما كلاسيكيا وشرقا غزيرا .

المعرفة فانه فلما يستهوى رغبة النبلاء الذين يفتنون متاعب الدراسة ويحتسرون منافعها ومزاياها . والكتب الوحيدة التى يتصفحونها ، هي « سحريات جوفدل » Satires of Juvenal والتواريخ الخرافية المملة التى كتبها ماريوس ماكسيموس . أما المكتبات التى ورثوها عن آبائهم ، فهى معزولة لا ترى نور النهار كالقبور الكثيرة الموحشة . غير أن أدوات المسرح الثمين ، كالنار ، والقيثارة المنصهرة ، والارغون ، فهى تصنع من أجلهم ، ولا تنقطع من قصور روما أنغام الموسيقى الصوتية وموسيقى الآلات . والصوت فى تلك القصور مفضل على الإدراك والفهم ، والبندبة بالجسم مفضلة على العناية بالعقل . ومن المبادئ السلبية المعترف بها أن أى شك تافه طفيف فى وجود مرض معد هو عذر قوى تاف يبرر الامتناع عن زيارة أحب الأصدقاء ، وحتى العندم الذين يوندون لذاتفسار اللائق عن صحة المرضى لا يسمح لهم بالعودة الى المنزل حتى يؤدوا شعائر النظير . ورغم ذلك فإن هذه الرقة المتسمة بالانانية والبعيدة عن الرجولة ، تنهاوى أحيانا أمام ما هو أقوى منها ، من عواطف الطبع والهوى ، فالأمل فى الكسب يدفع السناثور الغنى المصاب بداء الفرس الى الذهاب الى مكان بعيد كقرية سبولتو Spoleto وكل احساس بالكبريات والكرامة تكبته آمال الحصول على ميراث أو حتى وصية ميراث ، والمواطن الغنى الذى لم يعقب أطفالا ، هو أقوى رجل بين الرومان . أما فن الحصول على توقيع وصية ، والتعجيل بلمحة تنفيذها ، أحيانا ، فهو فن معروف كل المعرفة . وقد حدث فى المنزل الواحد ، ولكن فى غرف مختلفة ، أن رجلا وزوجته يسعى كل منهما سعيا حثيثا الى الاحتيال على الآخر ، فيستدعى كل منهما محاميه ، ويعلنان فى وقت واحد عن نواياهما المتبادلة ، وان كانت نوايا متناقضة . ولا شك فى أن المحنة التى تنشأ عن الترف المسرف ، وتعتبر عقابا له ، كثيرا ما تلجئ العظماء الى استخدام أحد الوسائل وأشدّها اذلالا . فاذا أرادوا الاقتراض ، لجأوا الى أسلوب التوسل الوضيع الذى يستخدمه العبيد فى المسرحيات الكوميديّة ، أما اذا أريد منهم السداد فأنهم يتخذون لأنفسهم مظهر الحساس التراجيدى الملكى الذى يلائم أحفاد هرقول . واذا تكررت المطالبة استعانوا على الفور بأحد الأذئاب المتعلقين ، فيوجه الى الدائن الوقح تهمة استخدام السم أو السحر ، ويندر فى هذه الحالة أن يخرج من السجن حتى يوقع ابراء بسداد الدين بأكمله . هذه الرذائل التى تحط من أخلاق الرومان ، تمتزج بخرافات صيبانية تصمم ادراكهم بالخزي والعار ، فهم يستمعون فى ثقة الى تنبؤات السحاليين الذين يدعون أن فى مقدورهم معرفة دلائل العظمة والرفاهية المقبلة داخل أحشاء الضحايا . وكثير منهم لا يجروؤن على الاستحمام أو تناول الطعام ، أو الظهور فى المجتمعات العامة حتى يرجعوا الى قواعد

التنجيم ، ويعرفوا موقع كوكب المشتري أو أوجه القمر • ومن العجيب بصورة خاصة أن هذه السفاجة الرخيصة • قد توجد أحيانا بين المشككين الكافرين الذين ينكرون في الحاد وجود القوة السماوية ، أو يشكون في وجودها •

شعب روما

المشاهد في المدن الآهلة التي تكون مركزا للتجارة والصناعة ، ان الطبقات الوسطى ، التي تكسب قوتها من مهارة أو عمل أيديها ، هي في المعتاد أكثر الطبقات انتاجا ، وأعظمها نفعا ، وبهذا المعنى تكون أكثر أجزاء المجتمع احتراماً • أما أبناء طبقة البلييان (العامة) في روما ، الذين كانوا يحتقرون مثل تلك الحرف المعقدة الحقيمة ، فقد وقعوا منذ أقدم العصور تحت وطأة الديون والربا ، وكان الفلاح يضطر في فترة أدائه للخدمة العسكرية ، أن يتخلى عن فلاحة مزرعته • أما اراضي إيطاليا التي كانت في الأصل مقسمة بين أسرات الملوك الأحرار المعوزين ، فقد اشتراها أو اغتصبها منهم النبلاء الجشعون تدريجيا ودون أن يحسبوا • وفي العصر الذي سبق سقوط الجمهورية قدر أن الفين فقط من المواطنين لهم أملاك خاصة يستقلون بها • ومع ذلك فطالما كان أفراد الشعب ينتخبون المرشحين لمناصب الدولة ، وقيادة الجيوش ، وحكم الولايات الغنية ، فإن شعورهم بالعزة والكرامة كان يخف من معن فقرهم الى حد ما • وكانوا يحصلون على حاجاتهم في المواسم بفضل سخاء المرشحين الطموحين ، الذين كانوا يتطلعون الى شراء أكثرية في قبائل روما الخمس والثلاثين ، أو في كتائبها المائة والثلاث والتسعين • غير أن هؤلاء العامة المسرفين ، عندما فرطوا دون حرص ، لا في استخدام قوتهم فحسب بل في توارثها أيضا ، تدهوروا ، تحت حكم القياصرة ، وأصبحوا شعبا فقيرا منكودا كان لابد ان ينقرض تماما في أجيال قليلة لو لم تضاف اليه بصورة مستمرة أعداد من الأرقاء المنقاة ، والغرباء الوافدين • ومنذ هادريان كان السكان الوطنيون الصرخاء يشكون بحق من أن العاصمة قد اجتذبت كل نقائص العالم وعادات أكثر الأمم تناقضا فهناك افراط الفالين ، ودهاء الاغريق وطيشهم ، وعناد المصريين واليهود ، وذلة الآسيويين ، ودعارة السوريين المختلة المنحلة ، كل هذه النقائص امتزجت في مختلف طبقاته الجماهير التي اتخذت من اسم « الرومان » الشامخ الزائف ما أكسبها الجراءة على احتقار رفاقهم من الرعايا ، بل واحتقار ملوكهم الذين كانوا يعيشون بعيدا عن نطاق المدينة الخالدة •

ومع ذلك فإن اسم تلك المدينة ظل يذكّر باحترام ، وكانت الاضطرابات الشاذة المتكررة التي يقوم بها سكانها لا تلقى عقاباً ، وبدلاً من أن يسحق خلفاء قسطنطين آخر آثار ذلك التحرر الجماهيري بالقوة العسكرية وقبضتها المتينة ، سادوا على سياسة أغسطس اللينة وعملوا على التخفيف من فقر شعب كبير العدد ، وشغل ركوده ركسته .

١ - فمن أجل راحة الدماء الكسالى تحول التوزيع الشهري للحبوب إلى راتب يومي من الخبز ، وبني عدد كبير من الأفران كان ينفق عليها من المصروفات العامة ، وفي الساعة المحددة كان كل مواطن بيده بطاقة ، يرتقى السلم المخصص للحى أو القسم الذى يعيش فيه ، ويأخذ نصيب أسرتة من الخبز ، رغيفاً يزن ثلاثة أرطال ، أما منحة أو بئس زهيد جداً .

٢ - كانت غابات إقليم لوكانيا تسمن قطعاناً كبيرة من الخنازير التى تقتات على نمار أشجار البلوط ، وأصبحت هذه الغابات مورداً وفيراً للحوم الرخيصة الصحية يقدمها الإقليم على سبيل الجزية . وخلال خمسة شهور من السنة كانت توزع على المواطنين الفقراء رواتب منتظمة من لحم الخنزير . وقدر الاستهلاك السنوى للعاصمة ، بعد أن انخفض كثيراً عما كان عليه من قبل ، بثلاثة ملايين وستمئة وثمانية وعشرين ألف رطل وفق ما يؤكد مرسوم فالنتينيان الثالث .

٣ - كان استخدام الزيت ، وفق العادات القديمة ، شيناً لا غنى عنه فى الإضاءة ، وفى الحمام ، وبلغ القدر الذى كان لازماً على أفريقيا أن تبعث به إلى روما كضريبة سنوية ثلاثة ملايين رطل ، وهو ما يقابل ثلاثمائة ألف من « الجالونات » الانجليزية .

٤ - كان اهتمام أغسطس بامتداد العاصمة بوفرة كافية من الحبوب لا يتعدى تلك المادة الضرورية لحياة الإنسان . وعندما جاز الناس بالشكوى من غلاء النخب وندرته أصدر المصلح الخطير بياناً يذكر فيه رعاياه بأنه لا يحق لاي إنسان أن يشكو من العطش لأن قنوات أجريبا Agrippa قد حملت إلى المدينة فيضاً من الماء الصحى الوفير ، غير أن هذا التعسف بطرقة لا شعورية ، ومع أن خطة الامبراطور أورليانوس لم تنفذ على أوسع مداها ، إلا أن النخب أصبح ميسوراً موفوراً ، وعهد بمخازن النخب العامة لموظف رفيع المقام ، وخصص جزء كبير من خمر إقليم كمبرانيا لسكان روما المحظوظين .

وكانت قنوات المياه الفخمة التي حق لأغسطس نفسه أن يشيد
بذكرها ، توصل الماء الى الحمامات التي أقيمت في كل جزء من أجزاء
المدينة بفخامة تتفق مع عظمة الامبراطورية . وكانت حمامات أنطونينوس
كاراكلا تفتح في أوقات محددة لأعضاء السناتو وعامه الناس دون
تمييز ، وتحتوي على ألف وستمائة مقعد من الرخام ، أما حمامات
دفلديانوس فقد قدرت مقاعدها بأكثر من ثلاثة آلاف . وكانت جدران
الغرف المرتفعة مغطاه بالفسيفساء العجيبة التي نحائي ريشة الرسم في
روعة التصميم وتنوع الألوان . فكان الجرائيت المصري يطعم نظميمة
جميلا برخام نوميديا الأخضر النفيس ، وكان الماء الساخن يتدفق بصورة
مستمرة في الأحواض الواسعة من خلال فتحات كثيرة واسعة مصنوعة
من الفضة السميكة ، وأن في مقدور أحقر فرد من أفراد الرومان أن
يشترى بعلة نحاسية صغيرة متعه يومية يستمتع فيها بمشاهد من مشاهد
العظمة والترف قد يشير غيره ملوك آسيا . ومن هذه القصور الفخمة كانت
تخرج جماعات من الدهماء القذرين في ثياب مهلهلة ، دون نعال ودون
عباءات ، تم يتسكعون أياما بأكملها في الشوارع أو في ساحة السوق
« الفورم » للتناقش وسماع الأخبار ، ويبعدون في المفارقة المسفة اقوات
زوجاتهم وأبنائهم الزهيدة ، ويقضون ساعات الليل في الحانات والمواخير
المعتمدة منغمسين في الملذات الحسية الفظة الداعرة .

غير أن أروع متعة للجمهور العاطل الكسول ، وأكثرها اثارة ،
كانت تعتمد على عروض الألعاب والمشاهد العامة . وكان الملوك المسيحيون
الأتقياء قلة أوقفوا المسارزات الوحشية بين المجالدين ، غير أن الشعب
الروماني ظل يعتبر (السيرك) مأواه ومعبد ومقر الجمهورية . وكان
الجمهور المتعرق يندفع في ساعة الفجر لحجز أماكنه ، وكان الكثيرون
يقضون الليل ساهرين مترقبين . وكان المتفرجين ، الذين يبلغ عددهم
أحيانا أربعمائة ألف ، يقضون اليوم من مسباحة الى مسائه غير عابئين
بالشمس أو المطر ، في حالة اهتمام شديد ، وقد تعلقت ابصارهم بانثيول
وقائس العربات ، واضطربت في عقولهم الآمال والمخاوف وهم يتوقعون
فوز الألوان (الفرق) التي يؤيدونها ، ويبعدو أن سعادة روما كانت
توقف على نتيجة سباق . وكان هذا الحماس الطائش يدفعهم الى الصياح
والتهليل كلما شاهدوا صيد الوحوش وشتى نماذج التمثيل المسرحي .
ولا شك في أن هذه التمثيليات في العواصم الحديثة جديدة بأن تعتبر
مدرسة طاهرة رفيعة لتربية الذوق ، بل ولغرس الفضيلة . غير أن آلية
التراجيديا والكوميديا لدى الرومان الذين قلما تطلعوا الى ما هو أكثر
من تقليد عبقرية أتيكا ، هذه الآلة لأذت بالصمت الكامل منذ سقوط
الجمهورية ، حلت مكانها ، دون جدارة ، الهزليات الداعرة ، والموسيقى

المختنفة ، والمهرجانات الرائعة . وكان الممثلون الصامتون ، الذين احتفظوا بشهرتهم منذ عهد أغسطس الى القرن السادس ، يصورون ، دون استخدام الألفاظ ، مختلف أساطير الآلهة والأبطال القدامى ، وكانت ابداعاتهم لفهم تسلب الفلاسفة وقارهم فى بعض الأحيان ، وشير على الدوام استحسان الناس وعجبهم . واحتشد فى مسارح روما الفسيحة الفخمة ثلاثة آلاف راقصة وثلاثة آلاف من المنشدين مع رؤساء فرق التريديد (الكورس) ، كل فرقة مع رئيسها . ولقد بلغ من حظوتهم لدى الشعب أنه فى وقت من أوقات العوز التى استلزمت إبعاد كل الغرباء عن المدينة ، أعفتمهم مزية الاسهام فى متع الشعب من الالتزام بقانون نفذ بصرامة ضد أساتذة الغنون الحرة .

ويقال ان الاجابالوس دفعه حب الاستطلاع الأحق الى محاولة معرفة عدد سكان روما من كمية أنسجة العناكب . وكان جديرا بالحكام العقلاء أن يتبعوا أسلوب بحث آخر تمشيا مع التفكير السليم ، وكان فى مقدورهم فى سهولة أن يجدوا حلا لمسألة كهذه على جانب كبير من الأهمية للحكومة الرومانية ، بقدر ما تثير اهتمام الأجيال التالية . فالمواليد والوفيات بين المواطنين كانت تسجل كما ينبغى ، ولو أن أحد الكتاب القدامى عنى بذكر مقدارها السنوى ، أو متوسطتها العام ، لكان فى مقدورنا الآن أن نستخرج احصاء مرضيا يهدم تأكيدات النقاد المبالغ فيها ، وقد يؤكد التخمينات المتواضعة المحتملة التى ذهب اليها الفلاسفة . وثمة بحوث توافر عليها اصحابها وجمعوا منها الحالات التالية ، وهى على قلتها ونقصها ، يمكن أن تلقى ضوءا على عدد سكان روما القديمة :

١ - عندما حاصر القوط عاصمة الامبراطورية أجرى الرياضى أمونيوس قياسا دقيقا لأسوار المدينة ، فوجدوها تبلغ واحدا وعشرين ميلا . ويجب ألا ننسى أن شكل المدينة كان يشبه الدائرة تقريبا ، وهو الشكل الهندسى الذى يشتمل على أوسع مساحة داخل أى محيط معين .

٢ - أما المهندس المعمارى فييتروفيوس Vitruvius الذى ذاعت شهرته فى عصر أغسطس ، والذى يعتبر شهادته فى هذه المسألة مرجعا له وزنه الخاص ، فإنه يلاحظ أن مساكن الشعب الرومانى الكثيرة العدد يمكن أن تمتد الى ما وراء حدود المدينة الضيقة ، وأن ضيق الأرض ، الذى يحتمل أنه كان راجعا الى طغيان الحداثق (والفيضات) على المدينة من كل جانب ، أوحى بذلك الاجراء الشائع وان كان اجراء متعبا ، وهو رفع المبنى الى أعلى بقدر كبير . غير أن تلك المباني كانت تشاد بطريقة عاجلة ولا تستخدم فيها مواد

كافية ، ومن ثم فإن ارتفاعها كثيرا ما سبب حوادث مميتة ، الأمر الذى جعل أغسطينس ونيرون يقرران مرة بعد الأخرى أن ارتفاع المباني الخاصة داخل أسوار روما ينبغي ألا يجاوز سبعين قدما من سطح الأرض .

٣ - أما جوفنال Juvenal ، فإنه يرى لحن المواطنين الفقراء ، ويبدو أنه مر بهذه المحنة نفسها ، ويقدم لهم النصيح المفيد بأن يتعدوا دون إبطاء عن دخان روما ، لأنه فى مقهورهم أنه يشتتوا فى مدن إيطاليا الصغيرة مسكننا بهيجا مريحا بنفس الثمن الذى يدفعونه سنويا مقابل مسكن مظلم وضيق . ويتضح من هذا أن إيجار المساكن كان مرتفعا الى حد المفالة ، وأن الأغنياء كانوا يشترون الأرض بثمان فاحش ، ويقيمون عليها القصور والحدائق ، غير أن جمهرة سكان روما كانوا يزدحمون فى مساحة ضيقة ، وأن مختلف الطوابق والغرف فى المنزل الواحد كانت مقسمة ، كما هى العادة الآن فى باريس والمدن الأخرى ، بين عدة أسر من العاصمة .

٤ - ذكر المجموع الكلى للمنازل القائمة فى مناطق المدينة الأربع عشرة بشكل دقيق فى الوصف الذى كتب عن روما فى عهد ثيودوسيوس ، وقد بلغ عددها ٤٨٢٨٢ . وقسمت الى نوعين (الدوماس Domus والانسسيولا Insulae) يتسملان كل بيوت العاجمة ، أيا كان قدرها وحالها ، من القصر الرخامي الذى تخصص فيه أمكنة كثيرة للمتعاق والعبيد ، الى المسكن المرتفع الضيق الذى سمح للشاعر كودروس وزوجته أن يستأجرا فيه غرفة وضيقة تحت قرميد السطح مباشرة . فاذا أخذنا بنفس المتوسط الذى وجد أنه ينطبق على باريس فى ظروف مماثلة ، وقدرنا تقديرا جرافيا أن المنزل ، أيا كان قدره ، يسكنه خمسة وعشرون شخصا ، فإننا نقدر عدد سكان روما على وجه التقريب بمليون ومائتى ألف ، وهو عدد لا يعتبر مبالغا فيه بالنسبة الى عاصمة الامبراطورية الضخمة ، وأن كان يربو على عدد سكان أعظم مدن أوروبا الحديثة .

حصار روما الأول

هكذا كانت حال روما تحت حكم أونوريوس ، عندما كان القوط يحاصرون المدينة أو قل يسدون عليها المنافذ ، وبفضل براعة أليك في تنظيم قواته الهائلة ، التى كانت تتلطف على حلول لحظة الهجوم ، استطاع أن يحيط بالأسوار ، ويسيطر على البوابات الاثنى عشرة ، ويقطع كل اتصال بالريف المجاور ، ويحرس فى نقطة كل الملاحاة فى نهر التيبر الذى

أن يحصل الرومان عن طريقه على أوفر المؤن وأكثرها ضماناً . وكانت
 أول الانفعالات التي أحس بها النبلاء والشعب ، هي انفعالات النهضة
 والحنق لأن بربريا حقيرا تجرأ على اهانة عاصمة الدنيا ، غير أن كبرياءهم
 هذه سرعان ما اذلتها المحنة ، وبدلاً من أن يوجهوا غيظهم البعيد عن الرجولة
 والشهامة الى العدو المتأهب للقتال وجهوه في حقارة الى ضحية بريئة
 عزلاء لا حول لها ولا قوة . ولقد كان جديراً بالرومان ان يحترموا في
 شخص سيرينا Serena ، ابنة شقيق نيودوسيوس ، وعمة الامبراطور
 الحاكم ، أو قبل أمه بالتبني ، غير أنهم كانوا يهتدون أرملة ستيلكو ،
 فصدقوا في هوى وتحيز قصة التشنيع التي اتهمتها بالتآمر السري
 الاجرامي مع اغتاج القوطي . وكان أعضاء السناو متأثرين بهذا الجنون
 العام نفسه ، أو أنهم كانوا يرهبون ، فأصدروا عليها حكماً بالموت ، دون
 أن يطلبوا دليلاً على جرمها . وهكذا شنت سيرينا بصورة مشينة مزري ،
 ودهش الجمهور المقتتن من أن هذا العمل الظالم القاسي لم يترتب عليه
 مباشرة تقهقر البرابرة وانقراض المدينة . ولقد عانت تلك المدينة البائسة
 شيئاً وشيئاً محنة الفاقة والعوز ، وحلت بها في النهاية كوارث المجاعة
 المظلمة . فانخفض المسموح به من الخبز من ثلاثة أربال يومياً الى نصف
 رطل ، ثم الى ثلث ، ثم انقطع ، وارتفع ثمن الحبوب بنسبة سريفة مفرطة .
 وأخذ المواطنون المعوزون ، الذين عجزوا عن شراء ضرورات الحياة ،
 يلبسون صدقة الأغنياء المقللة واحسانهم المزعزع ، ووجد رؤس الشعب
 ما يخففه فترة من الوقت بفضل الشفقة التي أظهرتها لائتا أرملة
 الامبراطور جراسيان . وكانت لائتا تقيم اذ ذاك في روما ، فخصصت
 للفقراء والمعوزين ذلك الدخل الكبير الذي كانت تتسلمه سنوياً من خلفاء
 زوجها المعترفين بفضلها . غير أن هذه الهبات الشخصية المؤقتة لم تكن
 كافية لتسكين جوع شعب كبير العدد ، واقتضت المجاعة المتزايدة القصور
 الرخامية التي كان يسكنها أعضاء السناو أنفسهم . وتبين أولئك الذين
 كانوا يعيشون في نعاء اليسر والترف ، رجالاً كانوا أو نساء ، أن مطالب
 الطبيعة يكفيها القليل ، وأخذوا يتفوقون ما لديهم من خزائن الذهب والفضة
 للحصول على القوت الضئيل الخشن الذي لو عرض عليهم من قبل ،
 لنبتوه في ازدراء واحتقار . فالطعام الذي تنفر منه الحواس أو يشتمز
 منه الخيال ، أكثر ما يكون النفور والاشمئزاز ، والأغذية الضارة بالجسم
 والمؤذية للصحة أكثر ما يكون الضرر والايذاء ، كل هذه الأشياء كانوا
 يلتمسونها بشغف ويتنازعونها بشراسة بفعل ثورة الجوع الذي استبد
 بهم . وسرى الشك المبهم في أن بعض المنكودين اليائسين كانوا يقتلون
 رفاقهم سرا ويأكلون جثثهم ، بل قيل ان الأمهات (وهذا هو الصراع
 الرهيب بين أقوى غريزتين غريستهما الطبيعة في صدر الانسان) أكلن

سُم أطفالهن بعد ذبحهن . وهلك آلاف من سكان روما في البيوت والشوارع بفعل نقص الغذاء ، ولما كانت المدافن العامة خارج الأسوار في قبضة العدو فإن الرائحة الكريهة المنبعثة من الجيف المتعفنة التي لم توار التراب ، لوثت الهواء ، وانتشرت الأمراض الوبائية في أعقاب المجاعة فضاغت من خطورتها . وبعث بلاط رافنا Ravenna مرة بعد الأخرى تأكيدات بأنه سوف يرسل غوثا سريعا فعلا ، وبهذا بعث القوة في عزائم الرومان الخائرة فترة من الوقت ، وعندما تملكهم اليأس في نهاية الأمر من أي عون بشري ، وجدوا في ذلك ما أغراهم على قبول ما عرض عليهم من خلاص تأتي به قوة خارقة للطبيعة . وتمكن بعض عرافي تسكانيا ، دهاء أو تعصبا ، من اغراء يومبيانوس حاكم المدينة ، وأوصوه أن في مقدورهم بقوة التعاويذ وتقديم الذبائح أن يستخلصوا البرق من السحاب ، ويوجهوا تلك التياران السماوية ضد معسكر البرابرة . ووصل هذا السر الخطير إلى انوسنت Innocent ، أسقف روما ، وقد اتهم خليفة القديس بطرس ، وربما كان ذلك على غير أساس ، بأنه فضل سلامة الدولة على صرامة العبادة المسيحية وجمودها . ولكن عندما أثبتت المسألة في مجلس السناتو ، وعندها قيل إن الشرط الأساسي هو أن تقدم تلك الذبائح في الكابيتول بأمر من المحاكم وفي حضورهم ، رفضت أكثرية ذلك المجلس الموقر أن تشترك في عمل يساوي إعادة الوثنية علنا ، أما خوفا من غضب الله أو من غضب الإمبراطور .

وكان آخر ملاذ للرومان هو أن يكون ملك القوط رحيمًا بهم أو على الأقل معتدلا في مطالبه ، وعين السناتو سفيرين للتفاوض مع العدو على أساس أن هذا المجلس يتولى سلطات الحكم العليا إذا حلت أزمة طارئة . وعهد بهذه المهمة الخطيرة إلى باسيلوس ، وهو سناتور من أصل أسباني ، وله مقام بارز في حكم الولايات ، وإلى جون John ، التربيون الأول لتوثيق العقود ، الذي كان أهلا للمهمة بحكم براعته في العمل وصداقته السابقة للملك القوط . وعندما مثلا بين يديه ، أعلنوا ، في أسلوب ربما كان أكثر تعاليا مما يتفق مع حالتهم الفقيرة ، أن الرومان مضمونون على الحفاظ على كرامتهم ، سواء في السلم أو في الحرب ، وأنه إذا أبى عليهم الأريك استسلاما عادلا مشرفا ، ففي مقبوره أن ينفخ في أبواقه ، ويستمد لغرض معركة ضد شعب كبير العدد ، متمرس على القتال مندفع بقوة اليأس . فرد عليهما البربري ردا مقتضيا قائلا : « كلما كان التبئ سديكا سهل حشه » . وكانت هذه الاستمارة الجافة مصحوبة بضحكة عالية مهينة تعبر عن احتقاره لتهديدات شعب لا يجيد القتال ، أفسده الترف قبل أن تضنيه المجاعة ثم تنازل بتجديد الفدية

التي يمكن أن يقبلها ثمنا لتفقهه عن أسوار روما - وكانت القدية كل ذهب المدينة وفضتها ، سواء أكانت ملكا للسناثو أم للأفراد ، وكل المنقولات الغالية الثمن ، وكل الأرقاء الذين يستطيعون أثبات انسابهم الى اسم « البرابرة » وتجراً وزيراً السناثو على سؤانه في لهجة التواضع والتوسل : « أيها الملك ! إذا كانت هذه هي مطالبك ، فما الذي تعزم أن تتبركه لنا ؟ » فأجاب الفاتح المتشامخ : « حياتكم » فاهتز كيانهما وانسحبا . ولكن قبل أن ينسحبا منحهما ملك القوط فترة قصيرة يتوقف فيها القتال ، وبذلك أفسح الوقت لمفاوضة أكثر اعتدالا . وزال العيوس الصارم من ملامح الأريك دون أن يدري ، وخفف كثيرا من فسوة شروطه ، ووافى في نهاية الأمر على رفع انحصار عن المدينة ، إذا ما دفعت على الفور خمسة آلاف رطل من الذهب ، وثلاثين ألف رطل من الفضة ، وأربعة آلاف رداء من الحرير ، وثلاثة آلاف قطعة من القماش الأحمر الجيد وثلاثة آلاف رطل من الفلفل (١) . غير أن الخزانة العامة كانت خاوية ، والاياجارات السنوية من الممتلكات الكبيرة في ايطاليا وانوليات مقطوعة بسبب كوارث الحرب ، والذهب والجواهر كان الناس قد بادلوها إبان المجاعة بأحط أنواع الغذاء ، وكميات الثروة السرية كانت لا تزال مخبأة لدى أصحابها البخلاء الجشعين ، ولم يبق الا بقايا بعض الأسلاب المقدسة يمكن أن تحول دون ذلك الحراب الذي يوشك أن يحل بالمدينة .

وبمجرد أن أشبع الرومان مطالب الأريك الجشعة ، سمح لهم الى حد ما بالتمتع بالسلم والرخاء ، ففتحت عدة أبواب في حذر ، ولم يقف القوط في طريق استيراد المؤن من الريف المجاور وعن طريق النهر ، ولجأت جماهير المواطنين الى السوق الحرة التي كانت تقام ثلاثة أيام في الضواحي . ومع أن التجار الذين تولوا هذه التجارة الربحية حصلوا على ربح كبير ، الا أن الحوانيت الكثيرة التي أقيمت في مخازن الحبوب العامة والخاصة جعلت تصوين المدينة في المستقبل أمرا مضمونا . وفي معسكر الأريك كان النظام مستقرا أكثر مما كان منتظرا ، وأثبت البربري المعامل احترامه لشرف المعاهدات حين أوقع العقاب في صرامة عادلة بفريق من القوط المتهورين أهان بعض مواطني الرومان في طريق أوسنيا

(١) كان الفلفل من أغلى العناصر التي تدخل في الطهي الروماني . وكان أحسن الأنواع يباع بخمسة عشر دينارا ، أو عشرة شلنات للرطل . وكان يشتري من الهند وما يزال شاطئه مالا يبار بالهند أكبر موطن له ، غير أن تقسم التجارة والملاحة كان من اثرهما أن تضاعفت الكمية وتقص الثمن .

Ostia . وبعد أن شجع الجيش بما أخذه من العاصمه ، تقدم في بطء داخل ولاية تسكانيا الجميلة الخصبة حيث قرر الأريك أن يقيم معسكره أثناء الشتاء ، وأصبح العلم القوطى ملاذا لأربعين ألف رجل من الأرقاء البرابرة تحلوا من قيودهم وتطلعو تحت امرة منقذهم العظيم ، الى الانتقام للنساء التي لحقتهن والعار الذي اصابهم من جراء عبوديتهم القاسية . وفي نفس ذلك الوقت تقريبا تلقى الأريك مددا أكثر تشريفا ، القوط والهون ، الذين قادهم أدولفوس (١) شقيق زوجته ، بعد دعوة ملحة منه ، من ضفاف الدانوب الى ضفاف التيبير . وشق هؤلاء طريقهم في شيء من الصعوبة وبعد تحمل شيء من الخسارة ، مختربين القوات الامبراطورية التي تفوقهم عددا . وهكذا نرى قائدا مظفرا يجمع بين جرأة البربري ودهاء ونظام قائد روماني على رأس مائة ألف من المقاتلين ، وأصبحت إيطاليا تنطق باسم الأريك القوى العظيم في حلق واجلال .

ويكفينا الآن بعد مرور أربعة عشر قرنا أن نقص المغامرات العسكرية التي قام بها غزاة روما ، دون أن نتقصى بواعث مسلكهم السياسي . وربما أحس الأريك . وسط ظفره الواضح ، بشيء من الضعف الخفي . وبشيء من القصور الداخلي . ومن الجائز أيضا أن ما أظهره من اعتدال كان يقصد به أن يخدع سذاجة وزراء اونوريوس ويزيل عنهم الشك . وأعلن ملك القوط مرارا وتكرارا أنه راغب في أن يعتبره الرومان صديقه المحب للسلم ، وبناء على طلبه الملح ، أوفد الرومان ثلاثة سفراء من السناتو الى بلاط رافنا لالتماس تبادل الرهائن وعقد المعاهدة ، غير أن المقترحات التي عبر عنها الأريك في وضوح أثناء المفاوضات كانت كفيفة باثارة الشك في إخلاصه ، اذ يبدو أنها لم تكن متفقة مع حالة الثراء والتفوق التي كان فيها . فقد كان البربري لا يزال يتطلع الى منصب القائد الأعلى لجيوش الغرب ، واشترط اعانة سنوية من الحبوب والمال ، واختار ولايات دلماشيا ونوريكوم وفنيسيا لتكون مقر مملكته الجديدة . وهي ولايات تتحكم في المواصلات الهامة بين إيطاليا والدانوب . وأظهر الأريك ميلا الى أنه مستعد في حالة رفض هذه الشروط ، الى التخلي عن مطالبه المالية ، بل والاكتفاء بامتلاك ولاية نوريكوم ، وهي بلاد منهكة فقيرة معرضة دائما لغارات برابرة الألمان . غير أن الوزير أولمبيوس بدد الأمل في السلام بعناده الضعيف ، أو بآرائه المخرفة ، ولم يستمع

(١) هذا الزعيم القوطي يسميه جورناندس وازيدور (أدولفوس) . ويسميه زوسيموس وأدروسسيوس (اتولفوس) ، ويسميه أولمبيودوروس (أدولفوس) . وقد استخدمت الاسم المشهور (أدولفوس) ، وهو الاسم الدارج بين أهل السويد . وهم أبناء أو أشقاء القوط القدامى .

الى احتجاجات السناتو المسيحية ، بل صرف سفراءهم تحت حراسة عسكرية ، أكثر عددا من أن تكون حاشية شرف ، وأضعف من أن تكون جيشا للدفاع . فصدرت الأوامر الى ستة آلاف من رجال دلماشيا ، وهم زهرة الجيوش الامبراطورية ، للسير من رافنا الى روما . عبر أرض مكشوفة يحتلها عشرات الآلاف من البرابرة الأقوياء . ونعرضت تلك الفرق الجريئة للخيانة ، وأحدق الأعداء بها ، فسقطت ضحية لحماقة وزير ، وهرب قائمها فالنز Valens مع مائة جندي من ساحة المعركة ، واضطر أحد السفراء الى شراء حريته بغدية قدرها ثلاثون ألف قطعة من الذهب بعد أن سقطت عنه حياية اتفاقون الدولي . ورغم ذلك فان الأريك لم يستنكر هذا العمل العدواني الضعيف ، بل جدد على الفور مقترحاته للسلام ، فأوفده السناتو الروماني وفدا ثانيا أكسبه وجود انوسنت أسقف المدينة وزنا ومكانة ، وسار الى بلاط رافنا تحرسه من أخطار الطريق فصيلة من جنود القوط .

وكان في استطاعة أوليمبيوس ان يستمر في تحديه لما أظهره الشعب من استياء صادق ، ذلك الشعب الذي اتهم أوليمبيوس جهارا بأنه خالق الكوارث العظام ، غير أن دسائس القصر السرية قوضت سلطته . ذلك أن الخصميين المقربين نقلوا مفاتيح الأمور في حكومة اونوريوس وفي الامبراطورية الى الوالى البريتوري جوفوريوس Jovius ، وهو موظف تافه الشأن لم يكفر بمزية الحب والود الشخصي عن أخطاء ادارته ونكباتها . أما المذنب أوليمبيوس ، فان نفيه ، أو فراده ، أبقاه ليشهد من تقلبات الحظ قدرا أكبر فذاق مغامرات حياة مضورة لا يستقر لها حال ، ثم استولى على السلطة مرة أخرى ، ثم انحدر الى وحدة العار ، ثم قطعت أذناه ، ومات في نهاية الأمر مضروبا بالسياط ، وكان موته الشائن مشهدا أزعج أصدقاء ستيلكو . وبعد زوال أوليمبيوس ، الذي كانت أخلاقه ملوثة بالتعصب الديني ، تخلص الوثنيون والهرطقة من ذلك الحرمان الجائر الذي أقصاهم عن وظائف الدولة . ذلك أن جنريد Gennerid الشجاع ، وهو جندي من أصل بريوي ظل متمسكا بعبادة أجداده واضطر الى التخلي عن حزامه العسكري ، هذا الجندي كثيرا ما أكد له الامبراطور نفسه أن القوانين لا تسرى على رجال من مركزه وقدره ، ورغم ذلك فقد رفض أى حل جزئي وثبت على موقفه المهيمن ، المشرف له ، حتى انتزع من الحكومة الرومانية وهي في مجنتها قرارا عاما يتمشى مع العدالة والانصاف وكان مسئلة في المنصب الهام الذي رقي أو أعيد اليه ، وهو منصب القائد العام لدلماشيا وبانونيا ونوريكوم وراشيا ، هذا المسبلك بدأ يميل الى الدولة نظامها وروحها . وسرعان ما اقتشلت قوائمه من حياة الكسل والفاقة ، وعودهم على المران العنيف ووفر لهم

الكثير من الغذاء ، وكثيرا ما كان سخاؤه الشخصى يدفعه الى منح جنوده المكافآت التى يأبساها عليهم بلاط رافنيا ، بدافع من البخل أو الفقر .

وخشى البرابرة المجاورون شجاعة جنريد وقوة شكيمته ، ومن ثم فقد أصبحت تلك الشجاعة أقوى حصن يحمى حدد الليريا ، كما أنه استطاع بحرصه واهتمامه أن يهزم الامبراطورية بعشرة آلاف من جنود الهون الذين وصلوا الى حدود ايطاليا ومعهم قافلة من المؤن ، وقطعان كبيرة من الخراف والثيران ، لا تكفى مسيرة جيش فحسب ، بل تكفى اقامة مستعمرة بأكملها . غير أن بلاط أونوريوس ومجالسه ظلت مشهدة للضعف والهوان ، ومرتبعا للفساد والفوضى ، وبتهريض من الوالى جوفوريوس ، قام الحرس بتمرد عنيف وطالبوا بزموس فائدين واثنين من رؤساء الخصيان . وتلقى القائدان وعدا غادرا بالأمان ، ثم قتلوا سرا على ظهر سفينة ، أما الخصيان ، فقد أرسلوا الى منفى هادى مأمون فى ميلان والقسطنطينية ، بفضل ما كان لهما من حظوة ، وتولى الخصى يوسيببوس منصب حاجب المخدع ، كما تولى البربرى ألوبيخ *Allobich* منصب رئيس الحرس . غير أن الفكرة المتبادلة بين هذين التسامحين كانت سببا فى هلاك الاثنين . ذلك أن رئيس الحرس أصدر أمرا وقعا بضرب حاجب المخدع بالعصى حتى مات على مرأى من الامبراطور المذهول ، وأعقب ذلك قتل رئيس الحرس وسبعة موكب عام ، وكان ذلك هو الظرف الوحيد فى حياة أونوريوس الذى أظهر فيه اضعف دلائل الشجاعة أو السخط . ولكن قبل أن يسقط يوسيببوس وألوبيخ كانا قد قاما بدورهما فى دمار الامبراطورية بمعارضتهما لعقد معاهدة كان جوفوريوس بدافع أنانى ، أو ربما بدافع اجرامى ، قد تفاوض بشأنها مع الأريك ، فى مقابلة شخصية تحت أسوار مدينة ريمنى ، فائناء غياب جوفوريوس اثر هذان الرجلان على الامبراطور بأن يظهر بمظهر التمسالى اللائق بكرامته التى لا تنتهى ، وهو مظهر لم يكن فى مقدوره أن يثبت عليه يحكم وضعه ويحكم أخلاقه . وفور هذا أرسل خطاب بتوقيع أونوريوس الى الحاكم البريتورى ، يمنحه اذنا دون قيد بالتصرف فى الأموال العامة ، ولكنه يرفض رفضا باتا أن يذل شرف روما العسكرية باجابة البربرى الى مطالبته المتشامخة . ونقل الخطاب فى غير فطنة الى الأريك نفسه . ولما كان القوطى ، خلال العملية كلها ، قد تصرف تصرفا لائقا معتدلا ، فقد عبر فى أعنف لغة وأشد ما غضبا عن احساسه الشديد بالاهانة التى وجهت الى شخصه وأمه بمثل تلك الوقاحة والقسوة . وسرعان ما توقف مؤتمر ريمنى ، وعندما عاد الحاكم جوفوريوس الى رافنا اضطرب الى

الأخذ بالآراء الحديثة السائدة فى البلاط ، بل وتشجيعها • وبناء على نصيحته والمثل الذى ضربه ، اضطر كبار موظفى الدولة والجيش الى أن يقسموا انهم لن يستمعوا الى أية شروط للمصلح تحت أية ظروف ، وأنهم سوف يواصلون حربا دائمة لا هوادة فيها ضد عدو الدولة • وكان من شأن هذا الارتباط المتهور أنه أقام حاجزا لا يمكن تخطيه أمام أية مقاضات مقبلة • ولقد سمع وزراء أونوريوس وهم يعلنون أنه لو كان الأمر قاصرا على أنهم أقسموا باسم الله فحسب ، لتوخوا السلامة العارية ، ووضعوا أرواحهم تحت رحمة السماء ، ولكنهم أقسموا برأس الامبراطور المقدس نفسه ، ووضعوا أيديهم فى اجلال وخشوع على ذلك المستقر العظيم للنبالة وانحكمة ، ومن ثم فإن حنتهم بالقسم سوف يمرضهم للمقاصص الدنيوى ، قصاص التدنيس والتمرد •

حصن روما الثانى

كان الامبراطور وبلاطه يستمتعون فى كبرياء غاضبة بمناعة مستنقعات رافنا وحصونها ، وتركوا روما ، دون دفاع تقريبا ، لغضب الاريك وسخطه • ومع ذلك فقد توخى الاريك ، أو اصطنع ، قدرا كبيرا من الاعتدال • فعندما تقدم بجيشه على طريق فلامينا ، كان يرسل تباعا أساقفة المدن الايطالية ليكرروا عروض الصلح ، وليستحلفوا الامبراطور أن ينقذ المدينة وسكانها من نار الأعداء وسيوف المتبربرين • ومع ذلك فقد أمكن تجنب هذه الكوارث الوشيكة الوقوع ، لا بفضل حكمة أونوريوس ، بل بفضل فطنة الملك القوطى أو انسانيته التى أوحى اليه أن يستخدم أسلوبا للغزو أخف وطأة ، وإن لم يكن أقل فعالية • فبدلا من مهاجمة العاصمة ، وجه جهوده بصورة ناجحة ضد مينائها أوستيا ، وهى عمل من أضخم وأروع الأعمال الرومانية • فلقد كان غذاء روما مقلقا ويتعرض بصورة دائمة لكثير من الحوادث أثناء الملاحة الشتوية ، وفى طريق مكشوف ، فأوحى هذا الى عبقرية القيصر الأول بفكرة نافعة نفذت فى عهد كلوديوس ، وهى فكرة بناء ميناء أوستيا ، فحواجز الأمواج الصناعية التى يتكون منها المنخل الضيق ، كانت تمتد الى مسافة كبيرة داخل البحر ، وتصد ثورة الأمواج تماما ، بينما تستطيع السفن أن ترسو داخل ثلاثة أحواض عميقة واسعة تمتد الى الفرع الشمالى من نهر التيبر • على بعد ميلين تقريبا من مستعمرة أوستيا

القديمة (١) . ونمت الميناء الرومانية شيئا فشيئا حتى أصبحت فى حجم مدينة أسقفية ، وكان يخزن فيها القمح الوارد من افريقيا فى مخازن مسيحة للحبوب لكى يستخدم فى تموين العاصمة . وما أن استولى الاريك على ذلك المكان الهام حتى طلب الى المدينة أن تستسلم ببعض اختيارها ، وعزز طلبه هذا بأن أعلن اعلانا قاطعا أن الرفض ، أو حتى التأخير ، سوف يتبسمه على الفور تدمير المستودعات التى تتوقف عليها حياة الشعب الرومانى . فاضطر السناتو الى أن يذل كبريائه خوفا من المجاعة ومن صخب ذلك الشعب ، واستجاب على غير مضض الى اقتراح يتضمن تنصيب امبراطور جديد على عرش الامبراطور الهزيل أونوريوس . ووقع اختيار القناص القوطى على حاكم المدينة أتالوس Attalus ليكون صاحب الرداء الأرجوانى . وتلا ذلك مباشرة أن أقر الملك الجديد ، هرفانا بالفضل ، تعيين حاكمه القوطى قائدا عاما لجيوش الغرب . ثم عين ادونفوس (شقيق زوجة الاريك) رئيسا للحجاب ، على أن يتولى حراسة شخص أتالوس ، وبدت الأمتان المتخاصمتان متحدتين ، تربطهما أوثق أواصر الصداقة والتعالف .

وفتحت أبواب المدينة على مصاريحها ، واتجه امبراطور الرومان الجديد فى موكب صاخب الى قصر أغسطس وتراجان ، تخف به القوات القوطية من كل جانب ، وبعد أن وزع أتالوس المناصب المدنية والعسكرية على أتباعه والمقربين اليه ، عقد اجتماعا لمجلس السناتو الذى فيه حديثا رسميا منمقا أكد فيه عزمه على إعادة عظمة الدولة ، وتسميته على أن يضم الى الامبراطورية ولايات مصر والشرق ، وهى الولايات التى كانت نعترف فيما مضى بسيادة روما . وكان من شأن تلك الوعود المبالغ فيها أنها نفتت فى صدر كل مواطن عاقل حبيب احتقارا لشخصية معتصب هزيل كان ارتقاؤه العرش أعرق جرح شائن أصاب الدولة من وقاحة البرابرة . غير أنه الجاهل ، فى طيشها المعتاد ، هزلت لتغير السادة ، وكان التلذذ الصام السائد اذ ذاك ملائما لمنافس أونوريوس . وتوقع

(١) كان مصبا نهر التيبر - The Ostia Tiberina - بمصبغة الثنى ، تملؤها الجزيرة المقدسة ، وهى مثلث متساوى الاضلاع ، يقدر طول كل ضلع بميلين وقد أقيمت مستعمرة أوستيا وراء فرع النهر الأيسر ، أو الجنوبي ، وأقيمت الميناء وراء فرع النهر الأيمن أو الشمالى وللأسافة بين بقاياهما أكثر من ميلين ، على خريطة سنجولانى Cingolani وفى عهد سترابون كانت رواسب نهر التيبر قد سدت مرفأ أوستيا ، ووسعت حجم الجزيرة المقدسة ، ولزادت المسافة كثيرا بين أوستيا والميناء . وتبين القنوات الجافة والمصببات الواسعة تغيرات النهر ومجبهودات البحر .

أبناء الطوائف الذين طلبتهم مراسيم الاضطهاد التي أصدرها أونوريوس ، شيئاً من العطف ، أو من التسامح على الأقل ، من حاكم نعلم في وطنه ، أيونيا ، معتقدات الوثنية وتلقى بعد ذلك شعار المعمودية المقدس على يد أسقف آريوسي . وكانت الفترة الأولى من عهد أتالوس جميلة مزدهرة ، فأرسل ضابطاً موثقاً به على رأس قوة ليست بالكبيرة لتحقيق خضوع أفريقيا ، ودان الجزء الأكبر من إيطاليا لارهاب القوات القوطية ، ورغم أن مدينة بولونيا أظهرت مقاومة عنيدة فعالة إلا أن أهل ميلان ، الذين ربما ضايقتهم تغيب أونوريوس ، وافقوا على من وقع عليه اختيار السناطو الروماني بأصوات الاستحسان . وقاد الأريك أميره الملكي ، على رأس جيش ضخم ، حتى أوصله إلى أبواب رافنا ، وهنا دخل المعسكر القوطي وقد رسمى يتألف من كبار وزراء أونوريوس وهم - جوفياس ، الحاكم البريتوري - فالنز ، قائد الفرسان والمشاة - يوتامبوس وزير الخزانة (الكوستور) - جويان ، كبير موثقي العقود . وصرح أعضاء هذا الوفد باسم مليكهم أنهم يوافقون على الاعتراف بالانتخاب الشرعي لمنافسه ، وعلى تقسيم ولايات إيطاليا والغرب بين الامبراطورين . غير أن مقترحاتهم رفضت بازدراء واحتقار ، وبشدة وطأة الرفض بما أظهره أتالوس من شفقة مهينة ، إذ تنازل ووعد بأن أونوريوس ، إذا تنحى عن العرش فوراً ، فسوف يسمح له بأن يقضى بقية حياته في منفى هادئ في إحدى الجزر النائية . وفي الحق أن موقف ابن ثيودوسيوس بدا يائساً في نظر أولئك الذين كانوا أعرف الناس بقوته وموارده ، حتى أن وزيره جوقيوسر ، وقائده فالنز ، تخليا بصورة مهينة عن قضية ولي نعمتهما الخاسرة ، وقدموا الولاء النادر لغريمه الأوفر حظاً . وأصبح أونوريوس يرهب الأعداء الخفيين الذين قد يترصدون له في العاصمة ، ويكمنون له في القصر ، وفي مخدعه . وكان هناك بعض السفن في مرفأ رافنا تستعد لنقل الملك المعتزل إلى بلاد ابن أخيه الطفل ، امبراطور الشرق .

غير أن هنالك عناية إلهية (هذا ، على الأقل ، هو رأى المؤرخ بروكوبيوس) ترقب الرعونة وترقب البراعة ، وليس ثمة جدال في أن أونوريوس قد أسلم أمره لتلك العناية الإلهية ، ففي اللحظة التي بلسخ فيها من اليأس درجة أعجزته عن اتخاذ أى قرار حكيم أو جرىء ، وجعلته يتدبر فِرارة شائناً مزرية ، في تلك اللحظة نزلت إلى البر في ميناء رافنا ، على غير انتظار وفي الوقت المناسب ، امدادات قوامها أربعة آلاف من قدامى الجنود المحنكين . وعهد أونوريوس إلى هؤلاء الغرياء الشجعان ، الذين لم تفسد ولاهم أحزاب البلاط الامبراطوري ، بحراسة أسوار المدينة وأبوابها ، ولم يمه يقلق مضجع الامبراطور أى خوف من خطر قريب داخل . ويضاف إلى ذلك أن الأنباء المواتية التي تلقاها أونوريوس

من افريقيا غيرت بصورة فجائية آراء الرجال ووضع الشئون العامة . ذلك أن القوات والضباط الذين كان آتالوس قد اوفدهم الى تلك الولاية لم يكن نصيبهم غير الهزيمة والقتل ، وكان الحماس المتقد في صدور هرفليان ، حاتم افريقيا ، كفيلا بالبقاء على ولائه ولاء شعبه . وارسل هذا الحاكم الامين الى أونوريوس مبعثا ضخما من المال دعم به ولاء الحرس الامبراطوري ، كما أن يقطته في الحيلولة دون تصدير القمح والزيت الى روما ، أثارت في تلك المدينة صخباً وتنفراً ، وظهر بين أسوارها شبح المجاعة . وترتب على فشل الحملة الافريقية أن أفراد فريق آتالوس بدعوا يتبادلون الاتهامات والسباب ، كما أن عقل حامية الأريك بدا ينصرف رويدا رويدا عن الاهتمام بأمر يفتر الى روح الزعامة والقيادة ، وتموزه سلسلة الخضوع والطاعة . فكانت أكثر الاجراءات رعونة وحمقا تتخذ دون علم الأريك أو على العكس مما كان ينصح به ، ثم ان اصرار السناتور على عدم السماح بأن تضم الحملة الافريقية عددا من القوط لا يزيد على خمسمائة جندي ، هذا الرفض من جانب أعضاء السناتور أظهر أنهم يرتابون في القوط ولا يأمنونهم ، وكان هذا المسلك من جانبهم بعيدا عن الشجاعة والنفطة . وثار سخط الملك القوطي من جراء الحيل الخبيثة التي اتصف بها جوفوريوس ، وهو الرجل الذي ارتفع الى مرتبة النبلاء ، ثم الشمس بعد ذلك عذرا لفدرة المزدوج ، فأعلن دون أن يستشعر خجلا أنه كان يتظاهر بالتخلي عن خدمة أونوريوس حتى يكون أكثر فعالية في القضاء على قضية المغتصب . وفي سهل فسيح بالقرب من مدينة ريمني . وعلى مشهد من جمهور لا يحصى من الرومان والبرابرة ، جرد الأريك الملك المنكود ، آتالوس ، من التاج والرداء الأرجواني ، وارسل شارات الملك هذه الى ابن ثيودوسيوس ، بمثابة عهد على الصلح والصدقة . أما الضباط الذين رجعوا الى أداء واجبهم ، فقد أعيدوا الى مناصبهم ، بل ان عفو الملك القوطي امتد الى من يتأخرون في التوبة . غير أن امبراطور الرومان الذليل آتالوس الذي كان راغبا في الحياة ، ولم يستشعر الخزي والعار ، فانه توسل الى الأريك أن يأذن له بالانضمام الى المعسكر القوطي ، والسير في ركاب بربري متشامخ متقلب المزاج .

حصار روما الثالث ونهبها

أزال اقضاء آتالوس عن منصبه العقبة الوحيدة الحقيقية في طريق فريقه الى روما ، ثم انضم الأريك حتى أصبح على بعد ثلاثة أميال من مدينة رافنا لكي يمارس الضغط على وزراء الامبراطور المترددين ، الذين سرعان

ما عادوا الى وقاحتهم برجوع الحظ اليهم . وثار سخطه وغضبه عندما علم أن زعيما منافسا ، وهو ساروس ، عدو ادولفوس الشخصى ، والخصم الوراثى لأسرة بالتى Balti قد استقبل فى القصر . وعلى الفور خرج ذلك اليربى المقدم ، ساروس من أبواب رافنا على رأس ثلاثائة من أتباعه ، وفاجأ عددا كبيرا من القوط وقتلهم ، ثم رجع الى المدينة ظافرا ، وسمح له بإهانة خصمه حيث استخدم عناديا يعذب على الملأ أن الجرم الذى ارتكبه الأريك قد أقصاه الى الأبد عن صداقة الامبراطور والتحالف معه . ودفعت روما بما حل بها من كوارث ثمن حماقة بلاط رافنا وجرمه . ذلك أن ملك القوط ، الذى لم يعد يخفى شهوته للنهب والانتقام ، ظهر تحت أسوار روما بعدة الحرب ، وتآهب السناتو للمقاومة المستميتة حتى يؤخر خراب البلاد ، حيث لم يكن هناك أى أمل فى النجدة . غير أنه لم يستطع أن يتقى المؤامرة الخفية التى قام بها الأرقاء والخدم الذين كانوا يؤيدون قضية العدو ، اما بسبب نشأتهم أو بدافع من مصلحتهم . ففى منتصف الليل فتحت بوابة سلاريا فى تكتم وصمت ، واستيقظ السكان على صوت هائل صادر من أبواب القوط . وهكذا نرى مدينة روما الامبراطورية ، التى أخضعت ذلك الجزء الكبير من بنى الانسان ورفعته الى المستوى الحضارى ، هكذا نراها بعد ألف ومائة وثلاث وستين سنة ، تستسلم الى قبائل الجرمان والسكوديين الغاضبة الداعرة .

وعندما اقتحم الأريك تلك المدينة المهورة ، أذاع تصريرا أظهر فيه أنه يحترم بعض الاحترام قوانين الانسانية والدين . فقد شجع قواته فى جرة على أن يأخذوا ما يكافىء شجاعتهم وأن يزدوا ثراءهم بأسلاب شعب غنى مخنث ، ولكنه نصحهم فى الوقت عينه ألا يمسوا المواطنين الذين لا يبدون مقاومة ، وأن يحترموا كتيستى القديس بطرس والقديس بولس على اعتبار أنها مصابدة مقدسة لا تمس . فى وسط فظائع تلك الثورة الليلية أظهر كثير من القوط المسيحيين حماس ارتدادهم الحديث الى هذا الدين . وقد ذكر بعض الكتاب الدينيين فى حماس أمثلة لورعهم غير العادى واعتداهم غير المألوف ، وربما أضفوا على ما ذكره شيئا من التتميق والتزويق (١) فبينما كان البرابرة يجوبون المدينة بحثا عن

(١) يشيد أرونيوس بورع القوط المسيحيين ، دون أن يبدو عليه أنه يدرك أن الجزء الأكبر منهم كانوا هراطقة أريوسيين . أما جورناندس وأزيدور ، وكنا من انصار القضية القوطية فاذنهما يكرران وينمقان هذه القصص . وقال أزيدور أن الأريك نفسه قد سمع وهو يقول أنه شن الحرب على الرومان ، لا على الرسل . ذلك أسلوب القرن السابع . وقبل ذلك بمائتى سنة نسب الفضل والشهرة الى المسيح ، لا الى الرسل .

الغنائم ، اقتحم أحد القوط الأقوياء منزلا متواضعا تقطنه عجوز عذراء كرسيت حياتها لخدمة المذبح ، وطلب منها فورا ، ولكن في لغة مهذبة أن تسلمه كل ما في حوزتها من ذهب وفضة ، وقد أدهشته مبادرتها الى اطلاعه على كنز رائع من الأطباق السميكة المصنوعة من أئمن المواد ، وبمهاراة فائقة ، ونظر البربري في عجب وابتهاج الى ذلك الكنز الثمين الذي أصبح في متناول يده ، حتى قطع عليه تفكيره تحذير جاد وجهته اليه العذراء قائلة : « هذه الاواني المقدسة تخص القديس بطرس ، واذا تجرات على مسها فسوف يتحمل ضميرك هذا الرجس » ، فامتلا الضابط القوطي رهبة واجلالا ، وأوفد رسولا لاختار الملك نبأ الكنز الذي اكتشفه ، وتلقى أمرا قاطعا من الأريك بأن ينقل كل الأطباق المقدسة والزخارف ، دون إبطاء ودون أن يصيبها تلف ، الى كنيسة الرسول . وسارت فصيلة كبيرة من القوط في نظام حربي ، مختركة الشوارع الرئيسية ، من نهاية تل كويرينال الى حي الفاتيكان البعيد ، لتحرس بأسلحتها الالامعة صفا طويلا من زملائهم الانتقياء وهم يحملون فوق رؤوسهم الاواني الذهبية والفضية المقدسة ، واختلطت صيحات البرابرة الحربية بصوت الترانيم الدينية . وسارع جمهور من المسيحيين من كل المنازل المجاورة للانضمام الى هذا المركب المليء بالمعظات ، وأتاح حسن الحظ لعدد كبير من اللاجئين الهاربين ، دون تمييز لسن أو مكانة أو طائفة ، أن يهربوا الى قدس الفاتيكان الآمن الكريم . وقد اعترف القديس أوغسطين أنه ألف كتابه القيم « مدينة الرب » لاثبيات أساليب العناية الالهية في تدمير العظمة الرومانية ، وهو يشيد في مرود خاص بهذا الانتصار المشهود الذي حققه المسيح ، ويقلل من شأن خصومه بتجديده لهم أن يذكروا أمثلة مشابهة لادينة اقتحمها أعداؤها ، واستطاعت آلهتها الخرافية القديمة أن تحمي أنفسها فيها ، أو تذود عن أنصارها المخدوعين .

وفي حالة السلب والنهب التي تعرضت لها روما ، كانت هناك أمثلة نادرة غير عادية لما أظهره البرابرة من فضيلة تستحق الاشادة بها . غير أن النطاق المقدس للفاتيكان وكنائس الرسل كان لا يستطيع أن يستقبل الا نسبة صغيرة جدا من الشعب الروماني : وثمة آلاف كثيرة من المحاربين ، وعلى الأخص أولئك الهون الذين خدموا تحت راية الأريك ، كانوا غرباء على اسم المسيح ، أو على الأقل غرباء على العقيدة المسيحية ، ولنا أن نقول، دون أي مساس بالمحبة أو الصدق ، أن تعاليم الانجيل قلما كان لها تأثير على القوط المسيحيين ، في ساعة الانطلاق الوحشي . بل ان أكثر الكتاب ميلا الى المبالغة في رحمة القوط وشفقتهم ، قد اعترفوا في صراحة بأن الرومان تعرضوا لمذبحة قاسية ، وأن شوارع المدينة امتلأت بجثث الموتى التي بقيت دون أن تدفن خلال حالة الفزع العامة وفي بعض

الأحياء كان يأس المواطنين يتحول الى ثورة ، وكلما كانت مقاومتهم تشير
 البرابرة ، كانت مذابح هؤلاء تمتد دون تمييز الى الضعفاء والأبرياء
 والعاجزين . ومارس أربعون ألفا من العبيد أعمال الانتقام الشخصى دون
 رحمة أو ندم وغسلوا سياط العار التى ذاقوها من قبل فى دماء الأسرات
 المذنبه الممقوتة . وتعرضت عفة سيدات روما وعذاراها لاساءات أفظح
 من الموت نفسه ، وقد اختار المؤرخ الدينى أوغسطين مثلا لعفة النساء
 ينال اعجاب الأجيال القادمة (١) . فقد حدث أن سيدة رومانية ذات جمال
 فريد وإيمان ارثوذكسى صحيح أثارت شهوات ملحة فى صدر شاب
 قوطى يعتنق الهرطقة الأريوسية ، على حد ملاحظة فطنة أبدتها سوزومن
 Sozomen . وعندما أثارت تأثيره بمقاومتها العنيدة ، استل سيفه وأصاب
 به عنقها إصابة طفيفة ، مدفوعا بغضب المحب الولهان . وظلت البطلة
 المجروحة تتحدى سخطه وتصده غرامه ، حتى كف القاصب عن مجهوداته
 المدينة الجسدى ، وقادها فى ايجلال الى قدس الفاتيكان ، وأعطى حراس
 الكنيسة ست قطع من الذهب على شرط اعادتها الى زوجها مصونة
 طاهرة . غير أن مثل هذه الأمثلة الدالة على الشجاعة والشهامة لم تكن
 كثيرة الحدوث ، والمعروف أن الجنود البهيميين أشبعوا شهواتهم الحسية
 دون أن يقيموا وزنا لرغبة أسيراتهم أو لواجباتهم ، وأثار جدل شكلى حول
 مسألة دقيقة تتعلق بهؤلاء الضحايا الرقيقات اللاتى رفضن فى اصرار
 أن يمس أحد طهرهن ، وهل فقدن لسوء حظهن تاج العفة المجيد . وثمة
 خسارات أخرى من نوع ماذى أكثر اذلالا يمكن أن يذهب بنا الظن الى
 أن كل البرابرة استطاعوا فى كل الأوقات أن يقترفوا هذه الاعتداءات
 الفرامية ، لأن اقتصار العدد الأكبر من نساء الرومان الى الشباب ،
 أو الجبال ، أو العفة ، قد حال دون تعرضهن لخطر الاعتداء . غير أن
 حب المال من الأهواء التى تثور فى كل الصدور ، ولا يستطيع اشباعها ،
 لأن امتلاك الثروة كغليل بأن يمكن الناس من الاستمتاع بكل شئ يبعث
 السرور فى نفوسهم ، كل حسب ذوقه وطباعه . ومن ثم فإن أولئك الذين
 تولوا تهيب روما وسلبيها ، كانوا يفضلون الذهب والمجوهرات ، وهى
 الأثمياء التى لها أكبر القيمة على صغر حجمها ووزنها ، ولكن بعد أن
 تمكن اللصوص الأكثر مهارة من أخذ هذه النفائس سهلة الحمل ، وجدت

(١) يشير أوغسطين الى أن بعض العذارى قتلن أنفسهن فعلا للامتناع عن الاغتصاب .
 ومع أنه يبدى إعجابه بروحهن ، إلا أنه يدين فيهن تلك الجراءة المتهورة ، بدافع من
 دراسته اللاهوتية ، وربما كان الاسقف الطيب هيبو سهل التصديق لهذا العمل للبطلية
 الانقوى أكثر مما ينبغي وصارما فى لومه أكثر مما يجب . والعذارى الاثنتا عشرة (لو
 كان لهن وجود بالمرة) اللاتى قتلن أنفسهن فى نهر الالب عندما اقتحمت مدينة
 مجنبرج تضاعف عددهن حتى بلغ ألفا ومائتين .

قصور روما فى قسوة وشراسة من أثائها الثمين الفخم . وكانت (دواليب) الأواني الضخمة ، وخزائن الملابس الحريرية والأرجوانية ، تكدس دون نظام فى العربات التى تسير وراء أى جيش قوطى . أما روائع الفن فقد عوملت معاملة خشنة ، أو دمرت تدميرا عابثا ، وصهرت تماثيل كثيرة للحصول على المواد الثمينة المصنوعة منها . وكثيرا ما حطمت أواني الزينة بضررها ببساطة فى عملية تقسيم الغنائم والأسلاب . وادى الحصول على النفائس والثروات الى تحريك نهم البرابرة وتكالبهم ، فاستخدموا التهديد ، والضرب ، والتعذيب لارغام سجنائهم على الاعتراف بالكنوز المخبأة . وكانوا يعتبرون ما يرونه من علائم الفخامة والغنى دليلا على امتلاك ثروة طائلة ، ويعزون مظهر الفقر الى البخل والتقتير . وكثيرا ما تحمل بعض البخلاء فى عناد واصرار أقصى أنواع العذاب قبل أن يبحروا بىمكان المقتنيات المحببة اليهم ، وكثيرا ما مات كثير من المنكوبين التعساء ضربا بالسياط لأنهم رفضوا اظهار كنوزهم الموهومة . أما مباني روما وبيوتها فقد نالها بعض الضرر من عنف القوط وشراستهم ، وإن كانت الأضرار قد بولخ فيها . فعند دخولهم من بوابة سالاريا اشعلوا النار فى المنازل المجاورة لتتبر لهم الطريق ولتحويل انتباه المواطنين . والتهمت النار التى اندلعت دون عائق وسط الارتباك الذى اعتور المدينة ليلا ، كثيرا من المباني الخاصة والعامة . وظلت أطلال قصر سالوست *Sallust* الى عهد جستنيان أثرا ضخما من آثار حريق القوط . غير أن مؤرخا معاصرا لاحظ أن النار قلما استطاعت أن تلتهم العروق الضخمة المصنوعة من النحاس السميك ، وأن قوة الانسان لم تكن كافية لتقويض أسس الصروح القديمة . وربما انطوى هذا التأكيد الورع على بعض الصدق ، وهو أن غضب السماء فصل بالمدينة ما لم يفعله غضب الأعداء ، وأن ساحة روما المتشامخة المليئة بتماثيل كثير من الآلهة والأبطال ، قد أصابها البروق فسوتها بالتراب .

ومهما كان عدد طبقة الفرسان أو عامة الناس ، الذين هلكوا فى مذبحه روما ، فمن المؤكد الموثوق به أن (سناثورا) واحدا فقط هو الذى هلك بيد الأعداء . غير أنه لم يكن من السهل حصر الأعداد الكبيرة من الناس الذين ذاقوا مرارة الأسر والنفى فجأة ، بعد أن كانوا يشغلون مناصب رفيعة ويعيشون فى بحبوحة من العيش . ولما كانت حاجة البرابرة الى المال أكثر منها الى الأرقاء فقد قرروا فدية معتدلة للأسراهم المعوزين ، وكثيرا ما كانت الفدية تدفع من احسان الأصدقاء أو صدقة الغرباء . وكان الأسرى الذين يباعون بصورة منتظمة فى السوق المفتوحة أو بمقود خاصة يستعيدون من الوجهة القانونية حريتهم الوطنية التى كان من

المستحيل على المواطن أن يفقدها أو يتنازل عنها . غير أن الأمر تكشف سريما عن أن اقرار حريتهم سوف يمرض أرواحهم للخطر وأن القوط ، ما لم يجدوا ما يغريهم على البيع ، قد يتجهون الى قتل أسراهم الذين لا نفع لهم . ومن ثم فقد أدخل على التشريع المدني قرار حكيم يقضى بإرغام الأسرى على خدمة أسيادهم فترة خمس سنوات حتى يوفوا بعملهم ثمن فدائهم . وكانت الأمم التي غزت الامبراطورية الرومانية قد دفعت أمامها الى داخل إيطاليا جماعات كبيرة من سكان الولايات في حالة جوع وھلع ، لا يخشون العبودية بقدر ما يخشون المجاعة ، وترتب على الكوارث التي حلت بإيطاليا وروما أن تشتت السكان ولجأوا الى أبعد الأماكن وأكثرها عزلة وأمانا . بينما كان فرسان القوط ينشرون الفزع والخراب على طول ساحل كيبانيا وتسكانيا ، كانت جزيرة اجيليوم الصغيرة ، التي يفصلها عن مرتفع أرجنتاريا قنال ضيق ، تصد محاولاتهم العدوانية أو تقلت منها ، وفي هذا المكان الذي يبعد عن روما بمثل هذه المسافة الصغيرة ، كانت هناك أعداد كبيرة من المواطنين تختفي آمنة في الغابات الكثيفة المنتشرة في هذه البقعة المنعزلة . وكان كثير من أبناء أسرات السناتو يملكون الكثير من الأملاك الموروثة في أفريقيا تشجعهم على اللجوء الى تلك الولاية المضيافة ، اذا كان لديهم من الوقت والقفظة ما يمكنهم من الهرب من الخراب الذي حل بديارهم ووطنهم . وكانت بروبا (١) Proba النبيلة الورعة ، أرملة الوالي بترونيوس ، أبرز هؤلاء اللاجئين والمعهم . وكانت قد بقيت بعد وفاة زوجها ، وهو أقوى رعايا روما ، على رأس أسرتها ، أسرة أنيكيوس ، وظلت تمهأ أبناءها الثلاثة تباعا بالإنفقات التي تتطلبها مناصب القنصل التي تولوها . وعندما حاصر القوط المدينة واستولوا عليها ، تحملت بروبا باستسلام مسيحي خساسة ثروتها المطائلة ، واستقلت سفينة صغيرة شاهدت منها السنة النيران تلتهم قصرها ، وهربت الى شاطئ أفريقيا بصحبة ابنتها لايتا ، وحفيدتها العذراء الشهيرة ديمتريا . وكان سخاؤها الوفير في توزيع غلات أملاكها أو ثمنها من الأمور التي أسهمت في تخفيف محن الأسر والنفي . غير أنه حتى أسرة بروبا نفسها لم تنج من ضراوة ظلم الكونت هرقليانوس ، الذي باع بصورة حقيرة دacre أنبل عذارى روما ليصبحن زوجات عاهرات

(١) لما كانت مغامرات السيدة بروبا وأسرتها متصلة بحياة سانت أوغسطين . فقد اهتم المؤرخ تلمونت بتصويرها . فيعد وصولهم الى أفريقيا بوقت قصير ، دخلت ديمتريا للدير ونذرت العفة ، واعتبر هذا الحدث ذا أهمية كبرى بالنسبة لروما وبالنسبة للمالم . وكتب لها كل كبار رجال الدين القديسين خطابات فهنئة . وما يزال الخطاب الذي أرسله لها جيروما باقيا ، وهو يشتمل على خليط من التمليلات غير المعقولة ، والتصرّحات الجريئة ، والحقائق العجيبة ، يتعلق بعضها بحصار روما ونهبها .

اتجار سوريا الملوئين شهوة وجشما . وتشتت اللاجئين الايطاليون في
الولايات ، وعلى طول الشواطئ المصرية والآسيوية ، حتى القسطنطينية
وورشليم وازدحمت قرية بيت لحم ، وهي المكان المنعزل الذي أقام فيه
سانت جيروم ومن ارتد من النساء ، بالمتسولين من الأسر اللامعة ، رجالا
ونساء ، كبارا وصغارا ، وكان هؤلاء يشيرون شفقة الناس الذين يذكرون
ما كانوا فيه من نعماء وثراء . وقد أصاب الذهول كل الامبراطورية ،
وملاتها الكارثة الرهيبة التي حلت بمدينة روما جزئا وفزعا . وكان من
شأن هذا التباين الواضح بين العظمة والخراب أنه جعل السذج من
الناس يوثقون لمصائب روما ، ملكة المدائن ، بل ويبالغون فيها . أما رجال
الدين ، الذين طبقوا على الأحداث القرية ما كان في النبوءة الشرقية من
استمارات سامية ، فقد كآء يفريهم أحيانا أن يخلطوا بين خراب العاصمة
الرومانية ، وفناء العالم .

وتتسم الطبيعة البشرية بأنها تميل ميلا قويا الى الحط من قيمة
ما للعصور الحاضرة من مزايا والى تضخيم مساوئها . ولكن عندما خفت
الانفعالات الأولى ، ووزنت الأضرار الفعلية بميزان الانصاف ، فإن
الحاصرين الأكثر دراية وفطنة اضطروا الى الاعتراف بأن روما ، في أول
عهدما ، أصيبت من الغالين بأضرار جوهرية أكثر من تلك التي ألحقها
بها القوط في عصر تدهورها ، ومن المؤكدة في ثقة أن الكمار الذي أحدثه
البرابرة الذين قادهم الأريك من ضفاف الدانوب كان أقل هولا من الأعمال
العدوانية التي قامت بها قوات شارل الخامس ، (١٥٠٠ - ١٥٥٨) وهو
الملك الكاثوليكي الذي لقب نفسه باسم امبراطور الرومان . فلقد جلا
القوط عن المدينة بعد ستة أيام ، غير أن روما ظلت أكثر من تسعة شهور
في حوزة أنصار الامبراطور شارل ، وتلوثت كل ساعة من الزمن بأعمال
اجرامية تتسم بالقسوة ، والشهوة والنهب . وكان سلطان الأريك كفيلا
بإقرار بعض النظام والاعتدال بين قواته القرسية التي اعترفت به قائدا
وملكا ، ولكن قائده جيوش شارل الخامس ، وهو من البوربون ، عندما
مات موتا مجيدا في مهاجمة أسوار مدينة روما ، زال كل ضابط للنظام
من جيشه الذي كان يتألف من ثلاث أمم مستقلة ، فكان فيه الايطاليون
والاسبان والجرمان ، فقد جمعت بين الجرائم البشوية التي تسود في
مجتمع مقلقل غير مستقر ، وبين الرذائل المصقولة التي تنشأ من سوء
استغلال الفن والترف . أما المغامرون المنحطون الذين حطموا كل شعور
بالوطنية والمعتقدات وهاجموا قصر الحبر الأعظم الروماني ، فهم
يستحقون أن نعتبرهم أكثر الايطاليين خلاعة واستهتارا . وفي العصر
نفسه كان الاسبان مصدر فزع للعالم القديم وللعالم الجديد . غير أن

شجاعتهم العالية كانت تلونها الفطرسه الكثيبة ، والجشع المتكالب ، والقسوة التي لا تعرف الرحمة . وكانوا لا يملون السعى الى الشهرة والثراء ، وأجادوا بالمران المتكرر أغرب وأشبه أساليب تمذيب أسراهم . وكثير من أهل قشتالة (الأسبان) الذين نهبوا روما كانوا على دراية بمحاكم التفتيش الدينية ، كما أن بعض المتطوعين ربما كانوا حديثي العودة من غزو المكسيك . أما الجرمان فكانوا أقل فسادا من الإيطاليين ، وأقل قسوة من الأسبان ، وكان المظهر الخشن ، بل والوحشي ، لهؤلاء المقاتلين الغرباء القادمين من وراء الجبال ، يخفى وراءه في كثير من الأحوال خلقا بسيطا رحيما . ولكنهم كانوا قد تشربوا ، في أول حماس ضد حركة الإصلاح الديني ، روح مارتن لوثر ومبادئه ، وكانت تسليتهم المفضلة أن يهاجموا أو يدمروا الأشياء التي كانت لها قدسيتها في عقيدة الكاثوليك وكانوا يضربون ، دون شفقة أو رحمة ، كراهية دينية لرجال الدين من كل مقام وكل مرتبة وهم الذين يشكلون جزءا كبيرا من سكان روما الحديثة وكانوا يتطلعون في حماسهم المتمصب الى تقويض عرش عدو المسيح فيطهرون بالدماء والنار أرجاس المدينة البابلية الروحية (١) .

تراجع القوط وموت الاريك

جلا القوط عن روما في اليوم السادس . وقد تكون الحكمة هي الباعث على تراجعهم غير أنه من المؤكد أن تراجعهم لم يكن نتيجة الخوف (٢) . وتقدم قائدهم الجريء على رأس جيش محمل بالأسلاب الثمينة والثقيلة على طول طريق أيبا The Appian way ، صوب ولايات إيطاليا الجنوبية ، مدمرا كل ما تجرا على اعتراض طريقه ، ومكتفيا ينهب الأقاليم التي لا تبدى مقاومة . وكانت مدينة كابوا عاصمة كمبانيا مدينة شامخة مترفة ، لها مقامها حتى في أيام تدهورها كثامن مدينة في الامبراطورية ، وقد توارى مصير تلك المدينة في زوايا النسيان ، بينما اشتهرت مدينة نولا Nola المجاورة في تلك المناسبة بقدرسية بولينوس الذي كان قنصلا ، ثم راهبا ، ثم أسقفا على التوالى . وعندما كان في الأربعين من عمره نبذ متعة الثروة والمجد ، والمجتمع والأدب ، ليعيش عيشة العزلة والتفكير . وشجعه تهليل رجال الدين له على ازدياد تقريب أصدقائه الديويين ، الذين نسبوا هذا العمل اليأس من جانبه

(١) الشبيهة في ترفها وفسادها بمدينة بابل القديمة - (الترجمة) .

(٢) يذهب سقراط ، دون أي لون من الصدق أو التعاطل ، أن الاريك هرب عندما علم بأن جيوش الامبراطورية الشرقية تجد في المسير لهاجمته .

الى خلل عقل أو جسمي . وقد حدد أقامته المتواضعة في إحدى ضواحي
نولا ، بدافع من تعلق قديم عاطفي بهذا المكان القريب من ضريح القديس
فيلكس St. Felix الذي أحاطه ولاء الناس بخمس كنائس كبيرة عامرة .
وقد خصص ما تبقى له من ثروة وإدراك لخدمة ذلك الشهيد المجيد ،
ولم ينقطع في أي يوم من أيام الاحتفال بعيده عن انشاد الترانيم الدينية
التي تشيد بذكره ، وأقام باسمه كنيسة سادسة تفوق الكنائس الخمس
الأخرى جمالا ورونقا ، زينها بصورة كثيرة عجيبة من تاريخ العهد القديم
والعهد الجديد . وبهذا الحماس المتواصل أصبح ذا حظوة لدى
القديس (١) . أو على الأقل لدى الناس ، وبعد عزلة دامت خمسة عشر
عاما اضطر القنصل الروماني الى قبول منصب أسقف نولا ، قبل أن يحلق
بها القوط يشهور قلائل . وأثناء الحصار كان من دواعي رضا بعض رجال
الدين أنهم شاهدوا في أحلامهم أو في رؤاهم صورة سماوية لراعيهم
المقدس . ولكن سرعان ما ثبت لهم من الأحداث أن القديس فيلكس كان
مفتقرا الى القوة أو الى الرغبة . لكي يحافظ على القطيع الذي كان راعيه
فيما مضى . ذلك أن مدينة نولا لم تقلت من الدمار العام . ولم يكن هناك
ما يحمي الأسقف الأسير الا ما عرف عنه من براءة وفقر . وانقضى أكثر
من أربع سنوات بين نجاح جيوش الأريك في غزو إيطاليا ، وبين تراجع
القوط الاختياري تحت قيادة خلفه أدولفوس . وخلال هذه الفترة كلها
كان لهم مطلق التصرف في حكم بلاد كانت في رأى الأقدمين تجمع بين
مختلف روائع الطبيعة وروائع الفن . وفي الحق أن الرخاء الذي حققته
إيطاليا في عهد الأنطونينيين The Antonines بدأ يزول شيئا فشيئا
بتدهور الامبراطورية . وضاعت ثمار فترة طويلة من السلم تحت قبضة
البرابرة القاسية الهمجية ، ولم يستطع هؤلاء البرابرة أنفسهم أن يتذوقوا
وسائل الترف ورفاهة الحياة التي أعدت لمتعة الإيطاليين المتسمين بالركة
والثقافة . ومع ذلك فإن كل جندي قوطي كان له الحق في نصيب كبير
من السلع الموفرة ، كالقمح والماشية ، والزيت والنبيد ، وكلها أشياء
كانت تجمع يوميا وتستهلك في المعسكر القوطي ، كما أن كبار المحاربين
كانوا يهاجمون (الفيلات) والحدائق التي كان يسكنها فيما مضى
لو كوللوس وشيخرون على شاطئ كمانيا الجميل . وكان أسراهم
الواجفون من أبناء وبنات أعضاء السناتو الروماني يقدمون في كؤوس كبيرة
من الذهب مرصعة بالأحجار النفيسة جرعات كبيرة من نبيذ فالرنيا الى
الظافرين المتشامخين ، بينما يمد هؤلاء أطرافهم الضخمة في ظلال أشجار

(١) قال بولينوس ذات مرة أنه يعتقد بأن سانت فيلكس كان يحبه لعل كما يحب
السيد كلبه الصغير .

الدلب التي روعى في تنسيقها أن تحجب أشعة الشمس المحرقة وتسمح بدفئها المنعش . وزاد من هذه البهجة في نفوسهم تذكرهم لما لاقوه من محن سابقة ، وكانت المقارنة بين هذه البلاد وبين بلادهم ، وهي تلال سكوديا الكثبية الجرداء ، وضفاف الدانوب والألب المتجمدة ، تضيف سحرا جديدا الى السعادة التي يستمدونها من المناخ الإيطالي .

وسواء أكان هدف الأاريك هو الشهرة أم الغزو أم الثراء ، فانه سعي الى ذلك الهدف بحماس لا يكل ، ولا تخمه شدة أو يشبعه نجاح . وما أن بلغ الطرف الأخير من إيطاليا حتى جذبه منظر مجاور هو منظر جزيرة صقلية الخصبة الهادئة . ولكن حتى امتلاك هذه الجزيرة لم يكن في نظره سوى خطوة متوسطة نحو الحملة الهامة التي كان يدبر لها فعلا ضد القارة الأفريقية . ولم يكن طول مضيق ريجيوم Rhegium ومضيق مسينا أكثر من اثني عشر ميلا ، وكان اتساعها في أضيق نقط العبور ميلا ونصف الميل تقريبا . أما وحوش البحر الخرافية ، وصخور سكيلا ، ودوامة كاربيديس ، فانها لا تخيف الا البحارة الجبناء الذين تعوزهم المهارة ، ولكن بمجرد أن ركبت البحر أول فرقة من القوط ، هبت عاصفة فجائية وأغرقت أو شتتت كثيرا من السفن . وهنا نالت من شجاعتهم مخاوف عنصر جديد ، وفشلت الخطة كلها بموت الأاريك السابق لأوانه ، بعد مرض لم يدم طويلا ، وحل محلته تلك الفترة المشثومة من فتوحاته . وكشف البرابرة عن طابعهم الوحشي في جنازة البطل الذي احتفلوا بشجاعته وتوفيقه بأصوات الأسى والحزن . ذلك أنهم سخروا جمهورا من الأسرى في تحويل مجرى نهر بيوسنتينوس ، وهو نهر صغير ترتطم مياهه بأسوار كنسنتيا Consentia ، وأقاموا الضريح الملكي في مجرى النهر الذي خلا من المياه ، وزينوه بأسلاب روما الرائمة وعلائم الانتصار عليها ، ثم أعادوا المياه الى مجراها الطبيعي . ولكي تظل البقعة التي دفن فيها جثمان الأاريك سرا لا يعرفه أحد مدى الدهر ، فقد ذبحوا بصورة وحشية جميع الأسرى الذين استخدموا في تنفيذ ذلك العمل .

بعد موت الأاريك أصبح أدولفوس ملكا للقوط ، وعقد صلحا مع الرومان ، ثم تزوج بلاكيديا Placidia ، أخت أونوريوس غير الشقيقة . وتوغل في أسبانيا لطرد الغزاة من قبائل الوندال والسويبي والالاني ، ولكنه وقع فريسة الغيابة وقتل . وخلفه واليا Waltha الذي استرد أسبانيا لأونوريوس ، وحصر الوندال في الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة . ثم وطد مركز القوط في أكويتين .

الفصل الثانى والثلاثون (٣٩٥ - ٤٦٠)

حكم أركادىوس • سانت جون كريسوستم « يوحنا الفم الذهبى » • موت أركادىوس وتولية ثيودوسيوس الأصغر •
إدارة بولكيريا • مغامرات يودوكيا •

حدد تقسيم العالم الرومانى بين ابنى ثيودوسيوس قيام الامبراطورية الشرقية بصورة نهائية ، وهى الامبراطورية التى عاشت ألف سنة وثمانى وخمسين ، منذ أن حكمها أركادىوس الى أن استولى الترك على القسطنطينية ، وهى فى حالة اضمحلال مستمر جاء قبل أوانه • واتخذ حاكم هذه الامبراطورية لنفسه لقب امبراطور الرومان ، واحتفظ به فى اصرار وعناد ، وهو لقب أجوف أصبح فى النهاية شيئا وهميا • وظلت التسمية الوراثية للامبراطور باسم قيصر وأغسطس تعلن أنه الخليفة الشرعى لأول رجل حكم أول أمة • ونافس قصر القسطنطينية فخامة القصر الفارسى ، وربما فاقه روعة ، وتشيد عظام سانت كريسوستم بما اتسم به عهد أركادىوس من ترف وعظمة ، ولكنها تدينه فى الوقت عينه • يقول الرجل : « يلبس الامبراطور على رأسه اكليلا أو تاجا من الذهب مرصعا بالأحجار النفيسة التى لا تقدر قيمتها • وهذه الحلى والأردية الأرجوانية مخصصة لشخصه المقدس دون غيره ، وملابسه الحريرية موشاة بصورة مذهبة تمثل الثنين • أما عرشه فمن الذهب السميك • وعندما يخرج على الملأ ، تحف به بطائنه وحرسه وحاشيته • وحرابهم ، ودروعهم وألجبة خيولهم وزخارفها فهى من الذهب أو لها مظهر الذهب ، ويتوسط دروعهم نقش بارز كبير رائع تحيط به نقوش اصغر حجما تمثل شكل عين الانسان • ويجر العربدة الملكية بغلان لونهما أبيض خالص ، ويتألق عليهما الذهب • أما العربدة نفسها فمن الذهب النقى السميك وهى تستحوذ على اعجاب النظارة وهم يشاهدون الستائر

الارجوانية ، والبساط الأبيض كالثلج ، وحجم الأحجار النفيسة ، وصفائح الذهب اللامعة التى يشع منها بريق مع حركة العربة . أما الصور الامبراطورية فهى بيضاء على أرضية زرقاء . ويبدو فيها الامبراطور جالسا على عرشه والى جانبه أسلحته وخيوله وحراسه ، وتحت قدميه أعداؤه القهرون فى أغلالهم » .

وأقام خلفاء قسطنطين بصورة دائمة فى المدينة الملكية التى شادها على الحدود بين أوروبا وآسيا . وكانوا فى ذلك المكان لا تصل اليهم تهديدات أعدائهم ، وربما لا تتناهى الى أسماعهم شكاوى شعبهم ، وكانوا مع هبوب كل ريح يتلقون منتجات كل مناخ ، يدفعها أصحابها جزية وأتاوة ، بينما ظلت قوة عاصمتهم المنبعا تتحدى محاولات البرابرة العدوانية عصرا بعد عصر . وامتدت أملاكهم من بحر الادرياتيک الى نهر السجلة . واحتوت حدود الامبراطورية مساحة تقطعها السفينة فى خمسة وعشرين يوما ، من اقليم سكوذيا المتطرف البرودة الى اقليم أثيوبيا الشديد الحرارة . وكانت البلدان الآهلة فى تلك الامبراطورية موطننا للفن والعلم ، والترف والثراء ، أما سكانها فقد أخذوا عن الاغريق لغتهم وعاداتهم ، ووصفوا أنفسهم ، فى شيء من مظهر الحقيقة ، بأنهم أكثر بنى الانسان استنارة وحضارة . وكانت الحكومة ملكية غير مقيدة ، أما اسم « الجمهورية الرومانية » الذى احتفظ زمنا طويلا بتراث ضعيف من الحرية ، فقد كان قاصرا على الولايات اللاتينية ، وكان حكام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بالطاعة الذليلة التى فرضوها على شعبهم ، ولم يدركوا أن هذا الخلق السلبى يضعف كل ملكة عقلية ويورثها الانحطاط . فالرعايا الذين استسلموا للأوامر المطلقة المستتبدة التى يصدرها مولاها أصبحوا بنفس القدر عاجزين عن حماية أرواحهم وثرواتهم من هجمات البرابرة ، أو وقاية عقولهم من فظائع الخرافة .

فى السنوات الخمس الأولى من حكم أركاديوس كانت الإدارة تحت سيطرة رئيس حجابيه ، الخصى يوتروبيوس المتسم بالقوة والجشع . ثم سقط يوتروبيوس بعد ثورة من القوط الشرقيين بزعامة تريجيلد Tribigild وجايناس ، وبتهريض من الامبراطورة يودوكسيا . ثم أخذت الثورة بعد ذلك .

القديس يوحنا كريسوستم

بعد أن مات نكتاريوس الكسول ، خليفة جريجورى نازيانزن ، حارت كنيسة القسطنطينية بين أطماع المتنافسين على المنصب ، الذين لم يتورعوا عن التماس أصوات الشعب أو أصوات صاحب الحضرة ، يوتربيوس ، بالذهب أو الملق . وفى هذه المناسبة يبدو أن يوتربيوس شذ عن مبادئه العادية ، ولم يتأثر حكمه السليم إلا بالمزايا السامية التى كان يتمتع بها رجل غريب عن البلاد . ذلك أنه فى رحلة قام بها حديثا الى الشرق أعجبت عظام رجل اسمه يوحنا قسيس أنطاكيا وأحد مواطنيها ، وكان اسمه يتميز بوصف « الفم الذهبى » - كريسوستم - فأرسل أمرا خاصا الى حاكم سوريا يستدعى هذا الرجل ، وبما أن شعب أنطاكيا قد لا يرضيه التخلي عن واعظه محبوب ، فقد نقل القسيس سرا وخفية فى عربة برید من أنطاكيا الى القسطنطينية ، وأقر البلاط ، ورجال الدين ، والشعب ، نقائيا وبالأجماع ، اختيار الوزير يوتربيوس ، وفاق الأسقف الجديد ، كديس وكخطيب ، كل ما كان ينتظره منه الشعب المتحمس . وقد ولد الفم الذهبى لأسرة نبيلة غنية فى عاصمة سوريا ، وبفضل رعاية أمه الحنون تلقى تعليمه على أيدي أبرع الأساتذة ، ودرس فن البلاغة والفصاحة فى مدرسة ليبيانيوس ، وسرعان ما اكتشف هذا السفسطامى الشهير مواهب تلميذه وأعترف فى صراحة وصدق بأن يوحنا كان جديرا بأن يخلفه لو أن المسيحيين لم يستولوا عليه . ودفعته تقواه سريعا الى تلقى سر المعمودية المقدس ، ونبذ مهنة القانون التى أكسبته شرفا وثراء ، ثم الى الانزال فى الصحراء المجاورة حيث قضى ست سنوات فى اخضاع شهوات الجسد بالتكفير الصارم . ثم اضطره ضعفه الى العودة الى مجتمع الناس . وتحت تأثير مليتيوس خصص مواهبه لخدمة الكنيسة . غير أن يوحنا ، وسط أمرته ، وعلى العرش الأسقفى بعد ذلك ، ظل مثابرا على ممارسة فضائل حياة النسك والرهبة . وبعد أن كان سلفه ينفقون الدخول الوافرة على مظاهر العظمة والترف ، حرص هو على توجيهها الى تأسيس المستشفيات ، وأصبحت الجماهير التى يعولها بصداقته تفضل الاستماع الى أحاديثه البليغة المفيدة على متع المسرح والسيرك . وظلت بلاغته موضع الإعجاب فى أنطاكيا والقسطنطينية قرابة العشرين عاما ، ودون الناس عظامه البليغة واحتفظوا بها فى حرص وعناية حتى بلغ عددها قرابة

الف من العظات والخطب ، الأمر الذى يمكن نقاد (١) العصور الثانية من تقدير ما تمتع به الفم الذهبى من مزية صادقة أصيلة ، وهم ينسبون بالاجماع الى الخطيب المسيحي تمكنه المطلق من اللغة الجزلة المنسابة ، والقدرة على اخفاء ما يريد اخفائه من مزايا الاشياء ، وهى قدرة استمدتها من معرفته بالבלابة والفلسفة ، ونسبوا اليه أيضا أن لديه معينة لا ينضب من الاستعارات والتشبيهات ، ومن الأفكار والتصويرات التى تمكنه من تنويع وتوضيح الموضوعات المألوفة ، وأنه يحذق فن إثارة المواطن لخدمة الفضيلة ، وكشف حماقة الرذيلة وخستها فى صدق وحماس كما لو كان يصورها تصويرا مسرحيا .

وترتب على الجهود التى بذلها أسقف القسطنطينية فى محيط رعيته أنها أثارت عليه نوعين من الأعداء ، ووجدت كلمتهما ضده شيئا فشيئا ، وهما رجال الدين الطموحون المتطلعون الذين حسدوه على نجاحه ، والمذنبون العنيدون الذين ساءهم تقيده وتأييده . وعندما كان صوت كريسوستم يجلجل من منبر كنيسة أيا صوفيا ضد انحلال المسيحيين ، كانت سهامه تطيش بين الجاهل دون أن تجرح أخلاق أى فرد أو حتى تترك أثرا عليها . عندما كان يوجه القول ضد ما اتصف به الأغنياء من رذائل خاصة ، كان الفقراء يجلدون فى اتهاماته عزاء عابرا ، غير أن الأغنياء المذنبين ظلوا متوارين وراء كثرة عددهم ، كما أنهم كانوا يجدون فى التأييد نوعا من التفخيم لأنه يتضمن الإشارة الى متعتهم وسمو قدرهم . ولكن عندما ارتفع انهرم صوب القمة ضائق حيزه حتى صار نقطة واحدة ، وأصبح للحكام ، والوزراء ، والنخعيان المقربين ، وسيدات البلاط (٢) والامبراطورة يودوكسيا نفسها ، نصيب أكبر من الجرم يقسمونه بين نسبة أقل من المجرمين . وكانت ضماثر هؤلاء المستمعين الى الأسقف تتوقع أن يكون تأنيبه موجها اليهم ، وتشهد بأنه ينطبق

(١) بما أنى أكاد أكون غريبا على العظات الكثيرة التى القاها فم الذهب ، فقد وضعت ثقتى فى نلقدين دينيين يعتبران أكثر النقاد حكمة واعتدالا وهما أرازموس ودوبائن Dupin غير أن تطرف الأول فى حبه للتقديم يفسد ذوقه الرفيع فى بعض الأحيان ، كما أن اعتبارات العرص لدى الثانى تقيد ادراكه السليم دائما .

(٢) كانت سيدات القسطنطينية يميزن أنفسهن ببداهتن أو صداقتهن للفم الذهبى . فكان هناك ثلاث أرامل نبيلات معروفات - مارسا ، كاستريكيا ، يوجرافيا ، يزعمن اضطهاد الأسقف . وكان من المستحيل عليهن أن يصفحن عن واعظ يتهمن باخفاء عمرهن وقبحهن بالملابس المزركشة . أما أوليمبيا ، فلم تقل عنهن حماسا ، ولكنها تحمست لقضية أكثر اتساما بالورع والقوى ، ومن ثم فقد نالت لقب القديسة .

عليهم ، واكسب النواظر انجريء نفسه حقا حظيرا هو التشهير بالدينه
وبالمذنب وتعريضهما لمقت الجمهور وكراهيته . ومن ثم فان السخط
الحفى الذى أحس به البلاط دفعه الى تشجيع التذمر السائد بين رجال
الدين والرهبان فى القسطنطينية ضد الأسقف الذى تعجل اصلاحهم
بحماسة المتقد . فلقد أدان الأسقف من فوق المنبر خادمت رجال الدين
اللاتى تسترن وراء اسم الخادمت أو الشقيقات وهيات ظروف دائمة
للخطيئة أو الفضيحة . واستحسن الأسقف احر الاستحسان اولئك
النساك الصامتين المنعزلين الذين اعتزلوا العالم ، ولكنه احتقر ، ووصم
بالمار ، الجمهور من الرهبان المتحلين الذين كثيرا ما يزجون شوارع
العاصمة مدفوعين بلذات أو المنفعة غير اللائقة ، ونعتهم بأنهم عار
على مهنتهم المقدسة . واضطر الأسقف الى أن يضيف الى صوت الاقناع
اجراءات العنف التى تخولها له سلطته ، ولم يكن حماسه فى ممارسة
سلطته القضائية الدينية خلوا دائما من الأهواء ، أو مسترشدا بالفطنة
والحكمة على طول الخط . وكان الفم الذهبى بطبيعته حاد (١) الطباع ،
ورغم أنه كان يعمل جامدا ، بمقتضى تعاليم الانجيل ، على أن يحب
أعداءه ، الا أنه انفس وتمادى فى كراهية أعداء الله والكنيسة ، وكانت
تعبيراته القارصة وقسمات وجهه المتجهمه تعبر بأكثر مما ينبغى عن
مشاعره وأحاسيسه . وظل متمسكا بعاداته السابقة فى تناول طعامه
منفردا مراعاة لبعض اعتبارات الصحة والتشفي ، وهذه العادة البعيدة
عن كرم الضيافة (٢) ، والتى نسبها أعداؤه الى الصلف والكبرياء ، كان
من شأنها على الأقل أن تغذى فيه مزاجه المكتئب غير الاجتماعى . وعلى
هذا النحو انقطع عن ذلك الاختلاط العادى الذى يسهل على المرء
تصريف الأمور والامام بها ، ولهذا وضع فى شماسه سراييون Serapion
ثقة لا يرقى اليها الشك ، ولما طبق معرفته النظرية بالطبيعة البشرية على

(١) وصف سورومن Sozomen ، وسقراط بصورة انحر ، أخلاق الفم الذهبى
بطريقة معتدلة غير متحيزة أغضبت من كانوا يعجبون بها دون قبح . وقد هاش
هذان المؤرخان فى العصر القالى عندما خلفت حدة الحزبية ، وتحلوا الى الكثيرين
ممن كانوا على اتصال وثيق بقضائل هذا القديس ونقائمه .

(٢) يدافع بالاديوس عن الأسقف بقاها جديا :

- ١ - غير لم يذق الخمر . ٢ - وكان ضعف معدته يستلزم طعاما خاصا
- ٣ - كثيرا ما كان ينشغل فى العمل أو الدراسة أو العبادة صائما حتى مقيب الشمس .
- ٤ - كان يكره الولائم الكبيرة بغير لها ويطبخها . ٥ - كان يوفر النفقات ويخصصها
للقراء . ٦ - كان يخشى ، فى عاصمة القسطنطينية ، الدعوات الحزبية وما يترتب
عليها من حسد ولوم .

أخلاق أتباعه أو أتباعه وكان أسقف القسطنطينية يدرك نفاق مقاصده ، وربما كان يشعر أيضا بسمو عبقريته ، ومن ثم فقد وسع النطاق الذي تمتد إليه سلطة القضاء الديني للمدينة الامبراطورية ، حتى يتسع مجال جهوده الدينية في خدمة رعاياه ، وذلك المسلك الذي عزاه اللانيوني الى دافع الطمع ، كان يبدو في نظره واجبا مقدسا لا غنى عنه . وفي رحلته الى الولايات الآسيوية عزل ثلاثة عشر أسقفًا من أساقفة ليديا وفريجيا ، وأعلن دون تبصر أن هناك فسادا عميقا متمثلا في التهلك ، والمتاجرة بالدين ، أصاب بعدواة الطائفة الأسقفية كلها (١) . فاذا كان هؤلاء الأساقفة أبرياء ، فإن تلك الادانة المتهورة الظالمة لابد أن تثير تنمرا يستند الى أساس مكين ، واذا كانوا مذنبين فإن شركاءهم العديدين في الذنب سوف يكتشفون سريعا أن سلامتهم الخاصة تتوقف على سقوط رئيس الأساقفة الذي دبروا أمرهم لتصويره في صورة طاغية الكنيسة الشرقية .

ودبر لهذه المؤامرة الدينية توفيلوس Theophilus ، أسقف الاسكندرية ، الذي تجلت نمار نهبه وسلبه في أعماله المظلمة . وكان بينه وبين الفم الذهبي بعض خلافات شخصية أذكت فيه نار الكراهية القومية ضد مدينة تتزايد عظمتها الى درجة أنزلته من المرتبة الثانية الى المرتبة الثالثة في العالم المسيحي . وتلبية لدعوة خاصة من الامبراطورة ذهب توفيلوس الى القسطنطينية ومعه عدد ضخم من البحارة المصريين لمواجهة أهل المدينة ، وحاشية من أتباعه الأساقفة لكي يحصل بأصواتهم على أغلبية في المجمع . وعقد المجمع في ضاحية خلقدونية Chalcedon الملقبة بأسم « البلوط » حيث كان روفينوس قد أقام كنيسة فخمة وديرا ضخما ، ودامت اجراءات المجلس أربعة عشر يوما واستغرقت أربع عشرة جلسة . واتهم أسقف وشماس رئيس أساقفة القسطنطينية ، غير أن المواد السبع والأربعين التي قلمهاها عنده كانت من التفاهة وبعد الاحتمال بحيث يمكن اعتبارها اطراء متصفا كاملا له . وقد استدعى الفم الذهبي أربع مرات متوالية ، ولكنه أبى أن ياتمن أعداء اللثودين على شخصه أو سمعته . وكان هؤلاء الأعداء من الحرص بحيث رفضوا بحث أية اتهامات معينة وأدانوا عصيانه وتمرده ، وأصدروا في عجلة قرارا بعزله . وفور ذلك طلب مجمع « البلوط » من الامبراطور أن يصادق على

(١) أعلن الفم الذهبي عن رايه الحر في أن نسبة الأساقفة الذين يمكن أن ينالوا خلاصهم صغيرة جدا اذا قيست بمن سوف يهلكون .

حكمهم ويأمر بتنفيذه ، وأوعزوا اليه في تساهل أن يوقع قصاصي الخيانة على الواعظ الجريء الذى سبب الامبراطورة يودوكسيا نفسها ونعتها باسم ايزابل Jezebel (١) . وقبض على رئيس الأساقفة في خشونة ، واقتاده أحد رسل الامبراطور خلال المدينة ، ثم أنزله الى البر بعد رحلة بحرية قصيرة الى القرب من مدخل البحر الأسود Euxine ، غير أنه استدعى من هناك بصورة مجيدة قبل انقضاء يومين .

وكانت الدهشة الاولى قد ألجمت أفواه أفراد شعبه الأمين فوفقوا من ذلك الحدث موقفا سلبيا . غير أنهم هبوا بعد ذلك في غضبية اجتماعية لا تقساوم . وتمكن توفيلوس من الهرب ، غير أن الجمع المختلط من الرهبان والبحارة المصريين ذبح دون رحمة في شوارع القسطنطينية . وحدث في ذلك الوقت زلزال جاء في أوانه دليلا على تدخل السماء ، واندفعت الجماهير المتمردة نحو أبواب القصر كالسيل الجارف ، وطنى الخوف أو تأنيب الضمير على الامبراطورة ، فألقت بنفسها تحت أقدام أركادايوس ، واعترفت بأن السلام لا يمكن شراؤه الا بإعادة الفم الذهبى . وكان البسفور مغطى بعدد لا يحصى من السفن ، وشواطئ أوروبا وآسيا مغمورة بالأضواء ، وسار هوكب رئيس الأساقفة من الميناء الى الكاتدرائية وسط تهليل الجمهور المنتصر الظافر ، ووافق الأسقف فى سهولة أكثر مما ينبغى على أن يعود الى ممارسة مهامه قبل أن يلغى الحكم الذى صدر ضده بسلطة مجمع كنسى آخر . وكان الفم الذهبى يجهل الخطر المهدق به ، أو لا يأبه به ، ومن ثم فقد اندفع فى حماسه ، وربما فى سخطه ، وهاجم فى خشونة وغلظة وذائل النساء ، وادان الوان التمجيد الدنيوية المندسة التى توجه الى تمثال الامبراطورة على مقربة من النطاق الذى توجد فيه كنيسة أيا صوفيا . وأغرى تهوره أعداءه على الهاب روح الكبرياء فى صدر يودوكسيا بأن أبلغوها ، أو اختلقوا لها الديباجة الشهيرة التى قالها الأسقف كمقدمة لاحدى عظاته ، « وثارت هيروديا مرة أخرى ، وعادت الرقص ، وطالبت ثانية برأس يوحنا » . وهى إشارة نابية كان من المستحيل عليها ، كملكة وكامرأة ، أن تصفع عنها . واستخدمت فترة هدنة غادرة قصيرة لتدير اجراءات أكثر فعالية فى تشويه سمعة الأسقف واهلاكه . فاجتمع مجلس كبير من أعيان الشرق ، وأوحى اليهم توفيلوس من بعيد بما يريد ، فأيدوا صحة الحكم

(١) زوجة الملك الاسرائيلى آخاب . التى اشتهرت بخبثها وقسوتها (العهد القديم - سفر الملوك الاول - اصحاح ٢١) - (للترجمة) .

السابق دون أن يبحثوا نصيبه من العدالة ، واستقدمت الى العاصمة فصيلة من القوات البربرية لقمع مشاعر الناس . وفي ليلة عيد الفصح قطع الجنود في غلظة سير الاحتفال الرسمي بالعمودية ، وأزعجوا طلاب العمودية العراة الوادعين ، وانتهموا بوجودهم الأسرار المهيبة للعبادة المسيحية . واحتل أرساكيوس كنيسة أيا صوفيا والعرش الأسقي ، وانسحب الكاثوليك الى حمامات القسطنطينية ثم الى الحقول حيث ظل الحراس والأساقفة والحكام يطاردونهم . ثم جاء اليوم المشئوم الذي نفى فيه الفم الذهبي للمرة الثانية والأخيرة . وتبين ذلك اليوم بحرق الكاتدرائية ، ومجلس السناتو والمباني المجاورة ، ونسبت هذه الكارثة ، دون دليل ولكن في شيء من الاحتمال ، الى اليأس الذي تملك الفريق المضطهد .

ولقد كان للشاعر والخطيب الروماني شيشرون بعض الفضل لأن نفيه الاختياري قد حفظ للدولة سلامها ، غير أن خضوع الفم الذهبي كان واجبا محتما على رجل مسيحي وفرد من الرعية . ولم تستمع الامبراطورة العنيدة الى توسلاته الذليلة بأن يسمح له بالاقامة في كيزيكوس *Cyzicus* أو نيقوميديا . وقررت أن يكون منفاه في مدينة كوكوسوس *Cucusus* بين سلاسل جبال طوروس في أرمينيا الصغرى . وكان هناك أهل خفي في أن الأصقاف سوف يهلك في تلك المسيرة التي تكتنفها المسحاب والأخطار طوال سبعين يوما في حرارة الصيف ، مهترقا ولايات آسيا الصغرى ، حيث يكون بصورة مستمرة تحت رحمة الهجمات العدوانية التي يقوم بها الايسوريون *Isaurians* . وعرضة لخطر أكبر هو غضب الرهبان وحقدهم . ورغم ذلك وصل الفم الذهبي سالما الى منفاه ، وكانت السنوات الثلاث التي قضها في كوكوسوس وفي مدينة أرابيسوس المجاورة آخر سنوات عمره وأعظمها مجدا . فقد أضفى غيابه واضطهاده قدسية على شخصه ، ولم يعد الناس يذكرون له أخطاء ادارته ، بل أصبح كل لسان يلهج بعقربته وفضيلته ، وتركزت أنظار العالم المسيحي في اهتمام واحترام على تلك البقعة الصحراوية بين جبال طوروس . وفي تلك العزلة اكتسب عقله المتقد قوة ونشاطا بفضل المحن التي تعرض لها ، وظل على اتصال قوى متكرر بأبعد الولايات ، يحض الطوائف المنفصلة المكونة من أنصاره المخلصين على التمسك بولائهم ، ويشجعهم على تدمير معابد فينيقية ، واستئصال الهرطقة من جزيرة قبرص ، وامتدت رعايته الدينية الى بعثات التبشير في فارس وسكوديا ، وأرسل مندوبيه لمفاوضة الحبر الروماني والامبراطور أونوريوس . وطالب في حراة أن تحال قضيته من المجمع

الجزئي الى المحكمة العليا اننى تتألف من مجلس حرم عام . وحل على هذا الرجل فى منقاه حرا طليقا . غير ان جسده الاسير تعرض لانتقام ظالميه الذين ظلموا يسيئون استغلال اسم أركاديوس وسلطانه . فأرسلوا أمرا يقضى بإبعاد الغم الذهبى على الفور الى أقصى صحراء بيتيوس ، ونفذ حراسه تلك التعليمات القاسية بكل أمانة ، وقبل أن يصل الإسقف الى شاطئ البحر الأسود وافاه القدر فى كومانا بإقليم بونتس Pontus وهو فى الستين من عمره . واعترف الجيل التالى ببراءته وفضله ، وربما أصبح رؤساء أساقفة الشرق يحرمون خجلا لأن أجدادهم كانوا أعداء الغم الذهبى ، واتجهوا شيئا فشيئا ، بفضل ما أبداه الحبر الرومانى من حزم ، نحو رد التشريف والتكريم إلى ذلك الاسم المبجل . وبناء على الالتماس التقى الذى قسه الناس ورجال الدين فى القسطنطينية نقلت رفاته ، بعد ثلاثين سنة من موته ، من قبرها المغمور الى المدينة الملكية . وتقدم الامبراطور ثيودوسيوس الأصغر لاستقبالها فى مدينة خلقدونية ، وادعى على نعش الأسقف متوسلا الى القديس الذى أمين وأسىء اليه ، باسم أبيه وأمه المذنبين أركاديوس ويودوكسيا - أن يمنحه العصف والغفران .

موت أركاديوس وارتقاء ثيودوسيوس الأصغر للعرش

ومع ذلك فان شكاً معقولا يساورنا فى أن أية وصية من ذنب ورائى يمكن أن تنتقل من أركاديوس الى خليفته . ذلك أن يودوكسيا كانت امرأة جميلة صغيرة السن ، منغمسة فى أهوائها وتحترق زوجها : وكان الكونت جون ، على أقل تقدير ، يحظى بثقة الامبراطورة ويتمتع بحظوة لديها ، حتى ان الناس كانوا يقولون انه الأب الحقيقى لثيودوسيوس الأصغر . ومع ذلك فان الزوج التقى اعتبر مولد ابنه حادثا موفقا ومشرفا أكثر ما يكون التوفيق والتشريف بالنسبة لشخصه ، وبالنسبة لأمته ، وللعالم الشرقى ، ومنع الطفل الملكى لقب قيصر ولقب أغسطس ، وكان هذا تكريما لم يسبق له مثيل . ولم تمر على ذلك أربع سنوات حتى ماتت يودوكسيا نتيجة اجهاض ، وهذا الموت السابق لأوانه خيب نبوءة أسقف مقدس حين تنبأ ، وبسط السرور الشامل بمولد الطفل ، أن الامبراطورة سوف تعيش لترى ابنها يحكم حكما طويلا موفقا . وهزل الكاثوليك لعدالة السماء التى انتقمت لاضطهاد القديس يوحنا الغم الذهبى ، وربما كان لامبراطور هو الشخص الوحيد الذى انتخب فى

إخلاص لخسارة يودوكسيا المتعالية الطموحة . وأحزنته هذه المجنة العائلية أكثر مما أحزنته الكوارث العامة التي أصابت الشرق - القارات الداعرة التي كان يقوم بها لصومى ايسسوريا من ينطس الى فلسطين دون أن ينالوا قصاصا من الحكومة التي رميت من أجل ذلك بالضعف ، والزلازل والجرائق ، والمجاعات وأسراب الجراد - وكلها كوارث نسبها الشعب المتفمر أيضا الى عجز ملك البلاد . وأخيرا ، وفى السنة الحادية والثلاثين من عمره ، وبعد حكم دام ثلاثة عشر عاما (اذا أسأنا الى كلمة الحكيم) وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوما ، مات أركاديوس فى قصر القسطنطينية . وليس فى مقدورنا أن نصور شخصيته ، حيث أن تلك الفترة الحافلة بالمواد التاريخية ، لا نستطيع أن نلاحظ فيها عملا واحدا يمكن أن ينسب بحق الى ابن ثيودوسيوس العظيم .

وفى الحق أن المؤرخ بروكوبيوس (١) ذكر أن عقل الامبراطور المحتضر قد أضاعه شعاع من الفطية الانسيائية ، أو الحكمة السماوية ، واستعرض أركاديوس فى تبصر وقلق حالة العجز التي كان فيها ابنه ثيودوسيوس الذى لم يتجاوز السابعة من عمره ، والفتن الخطيرة التي قد تقوم بها الأقلية ، وروح التطلع والطموح التي كان يتصف بها يزدرج Jezdegerd ، الملك الفارسى . وبدلا من أن يستميل ولاء أحد أفراد رعيته الطموحين بإشراكه فى السيادة العليا ، فقد ناشد شهامة ملك ومروته ، ووضع صولجان الشرق ، بمقتضى وصية رسمية ، فى يد يزدرج نفسه . وقبل الوصى الملكى هذه الأمانة الكريمة وأداها بإخلاص لا نظير له ، وأصبحت طفولة ثيودوسيوس تحت حماية جيوش فارس ومجالسها . هذه هى الرواية العجيبة التي رواها بروكوبيوس ، والتي لا ينكرها المؤرخ أجاثياس ، رغم أنه يخالفه فى حكمه ويتهم حكمة امبراطور مسيحي يبلغ به التهور درجة تجعله يسلم ابنه وممتلكاته الى منافس وثنى أجنبي لا يعلم مدى إخلاصه ، رغم أنه كان فى عمله هذا موقفا . ومن الجائز أن هذا الموضوع السياسى قد طرح للمناقشة أمام بلاط الامبراطور جستنيان بعد مائة وخمسين سنة من هذا التاريخ ، غير أن المؤرخ الحصيف لابد أن يأبى مناقشة حكمة الوصية التي كتبها أركاديوس حتى يتأكد من صحة هذه الرواية . ومادامت هذه المسألة لا نظير لها فى تاريخ العالم ، فإنه يحق لنا أن نتطلب إثباتها بدليل اجماعى

(١) مؤرخ بيزنطى فى القرن السادس بعد الميلاد - (الترجمة) .

قاطع من أشخاص كانوا معاصرين لما حدث . ولا بد أن ما فنى هذا الحادث من بدعه غريبة تثير شكوكنا ، قد لفتت اطار هؤلاء المعاصرين ، ومن ثم فإن صحتهم جميعا انما يهدم الرواية الباطلة التى ذاعت فى العصر التالى .

وبمقتضى قواعد الفقه الرومانى ، اذا جاز أن تطبق على الاملاك العامة مثلما تطبق على الملكية الخاصة ، كان من حق الامبراطور أونوريوس أن يصبح وصيا على ابن أخيه حتى يبلغ الرابعة عشرة من عمره على الأقل . غير أن ضعف أونوريوس ، والكوازث التى أصابت البلاد فى عهده ، لم تجعله أهلا للمطالبة بهذا الحق الطبيعى . وكان هناك انفصال مطلق بين الملكتين من حيث المصلحة ، وقطعية كاملة من حيث المودة ، الى درجة أن القسطنطينية كان يمكن أن تقبل الانصياع لأوامر البلاط الفارسى أكثر من قبولها الانصياع لأوامر البلاط الايطالى . وعندما يكون ضعف الحاكم مستترا وراء مظاهر الرجولة والحكمة ، فإن آتفه المقربين اليه قد ينازعونه سيادة القصر سرا ، ويصدرون الى الولايات الخاضعة له أوامر مولاهم الذى يوجهونه ويحتقرونه . غير أن وزراء الملك الطفل الذى لا يستطيع أن يشد أزرهم بتأييد من اسمه الملكى ، لابد أن يحصلوا على سلطة مستقلة ، ويمارسونها . ومن ثم فإن كبار رجال الدولة والجيش الذين تولوا مناصبهم قبل موت ارقادىوس كونوا أرسستقراطية كان يمكن أن توحى اليهم بفكرة جمهورية حرة . ومن حسن الحظ أن حكم الامبراطورية الشرقية ، غططلع به الوالى أنثيميوس الذى مكنته قدراته الممتازة من السيطرة الدائمة على عقول أنداده . وكانت سلامة الامبراطور الصغير دليلا على ما تحلى به أنثيميوس من جدارة ونزاهة ، كما أن حزمه الحصيف دعم قوة حكم الملك الطفل وأبقى على حسن سمعته . وفى ذلك الوقت كان هناك جيش ضخم من البرابرة تحت قيادة الدن Uldin معسكرا فى قلب اقليم تراقيا . ورفض الدن فى كبرياء كل شروط التسوية ، وأعلن الى السفراء الرومان ، مشيرا الى الشمس المشرقة ، أن مدار ذلك الكوكب وحده هو الذى ينتهى فتوحات الهون ، غير أن حلفاءه اقتنعوا فيما بينهم وبين أنفسهم بعبادة وزراء الامبراطور وسخائهم ، فدخلوا عنه . ومن ثم اضطر الدن الى اجتياز الدانوب مرة أخرى ، وأبديت تقريبا قبيلة سكبرى Scyri التى كانت تشكل مؤخرة الجيش ، وتشتمت عدة آلاف من الأسرى الذين سخروا فى زراعة حقول آميا . وفى وسط هذا الظفر العام أحيطت القسطنطينية بأسوار جديدة أكثر امتدادا ، وأعيدت

حصون مدن الليريا بنفس الاهتمام واليقظة ، وأعدت خطة حكيمه تهدف الى تأمين السيطرة على الدانوب في مدى سبع سنين ، ببناء أسطول دائم قوامه مائتان وخمسون سفينة مسلحة تتحكم في ذلك النهر .

حكم بولكيريا

غير أن الرومان كانوا قد اعتادوا فترة طويلة على وجود سلطة ملكيه ، بحيث أنهم سمحوا لأول فرد من أفراد الأسرة الامبراطورية أظهر شجاعه وحمه ، رغم انه كان من الاناث ، بأن يرتقى عرش ثيودوسيوس الشاغر . وهكذا تولت الملك اخته بولكيريا التي لم تكن تكبره بأكثر من عامين . وأطلق عليها وهي في السادسة لقب أوغسطا Augusta . ورغم أن الأهواء أو العساسات كانت تمكر شعبيتها أحيانا ، فقد ظلت تحكم الامبراطورية الشرقية قرابة الأربعين عاما ، طوال الفترة التي كان فيها أخوها قاصرا ، وبعد وفاته ، وذلك باسمها وباسم هاركليانوس الذي كان زوجها بالاسم فقط . وقد فضلت بولكيريا حياة العزوبة بدافع من الحكمة أو الدين ، ورغم بعض الاتهامات التي مست عفتها وطهرها ، فإن ذلك القرار الذي اتخذته وشاركتها فيه شقيقتها أركاديا ومارينا أشاد به العالم المسيحي كمجهود جليل للثقوى البطولية . وفي حضور رجال الدين والشعب نذر بنات أركاديوس الثلاث عفتن لله ، وكتب هذا الالتزام بالمهد المهيي على لوحة من الذهب والجواهر ، ثم قرأه العذاري الثلاث على الملأ في كنيسة القسطنطينية الكبرى . وتحول قصرهن الى دير ، وأصبح محظورا كل الحظر على كل الذكور اجتياز الأعتاب المقدسة - فيما عدا القساوسة الذين يهدون ضماثرهن ، وهم القديسون الذين نسوا الفرق بين الجنسين . وكونت بولكيريا ، وشقيقتها ، وحاشية منتقاة من العذاري المقربات مجتمعا دينيا : وبذ الجميع زهو الملابس وخيلاه ، وكثيرا ما كن يلجأن الى الصوم حتى عن طعامهن البسيط المعتدل ، وخصصن جزءا من الوقت للتطريز وأشغال الابرّة ، وكرسن عدة ساعات من الليل والنهار للصلوات والترايم . وجملت العذراء المسيحية تقواها وورعها بحماس الامبراطورة وسخاها . ويصف التاويخ الكنسى تلك الكنائس الفخمة التي شادتها بولكيريا من مالها في كل ولايات الشرق ، ومؤسسات البر التي أقامتها لمنفعة الفرياء والفقراء ، والمنح الوفيرة التي خصصتها بصورة دائمة لجميعيات الرهبنة ، والصرامة والنشاط اللذين اتسمت بهما جهودها في قمع بدع نسطور يوس . ويوتيكيوس . وكان المفروض أن مثل هذه الفضائل تنال حظوة خاصة

لدى الله ، ومن ثم فإن هذه الامبراطورة القديسة كان يتجلى لها فى الرؤيا أو عن طريق الوحى والالهام (١) ما يمكنها من معرفة الأماكن التى دفنت فيها جثث الشهداء ، والتنبؤ بأحداث المستقبل . ومع ذلك فإن تعبد بولكيريا لم يصرف اهتمامها الذى لا يكل ولا يتعب عن متابعة الأمور الدنيوية . ويبدو أنها كانت الوحيدة بين كل ذرية ثيودوسيوس ، التى ورثت عنهم قسما من قدراته وروحه الشهمة . وقد استغلت تمكنها من معرفة واستخدام اللغتين اليونانية-واللاتينية فى مناسبات التحدث والكتابة فى التستوث العامة . وكانت تزن مناقشاتها وزنا ناضجا ، وتتوخى الحسم والسرعة فى أعمالها ، وبينما كانت تدير عجلة الحكم-دوخ زهو-الوجلية ، كانت تنسب فى فطنة وحكمة الى ببقرية الامبراطور كل ما اتسم به عهده من عدو-طويل . ومع أن السنوات الأخيرة من حياته الهادئة شهدت جيوش أتيل-تدهم أوروبا ، الا أن الولايات الآسيوية الأكثر اتساعا ظلت تستمتع براحة عميقة دائمة . ولم يصل ثيودوسيوس الأصفر مطلقا الى حالة الضرورة الشائنة التى ترغمه على مجابهة وعقاب فرد من أفراد رعيته يثور عليه . وبما أننا لا نستطيع أن نشيد فى هذا الشأن بقوة حكم بولكيريا ، فلا بد لنا من بعض الاشادة بما اتسم به هذا الحكم من الاعتدال والازدهار .

واهتم العالم الرومانى اهتماما عميقا بتعليم مليكه ، فأعدت له فى حكمة دراسة منظمة وتدريب رتيب ، يشتملان على تدريبات الركوب العسكرية ، والرماية بالقوس ، ودراسات حرة فى القواعد والبلاغة والفلسفة . والتمس أبرع أساتذة الشرق فى تطلع وطموح أن يهد اليهم برعاية تلميذهم الملكى ، وسمح لعدد من الشبان النبلاء بدخول القصر لبيت روح الجهد والمناورة فيه عن طريق المناقشة بين الأصدقاء . واضطلعت بولكيريا وحدها بالمهمة الكبيرة ، مهمة تعليم أخيها فنون الحكم . غير أن تعاليمها قد تشجع على بعض الشك فى مدى كفايتها أو فى نقاء مقاصدها . فقد علمته أن يحتفظ بمسلك الجهد والجلالة ، وأن يسير ،

(١) رأت بولكيريا فى أحلام متكررة ما يدلها على المكان الذى دفنت فيه جثث الأربعين شهيدا . وكان المكان فى أول الأمر فى منطقة يقع فيها منزل وحديقة امرأة من القسطنطينية ، ثم أصبح ديرا لرهبان مقدونيين ، ثم كنيسة القديس طيموس الذى بناها سيزاريوس ، الذى كان قنصلا فى سنة ٣٩٧ م . واندثرت هربيا ذكرى تلك الجثث . ورغم الرغبات الصالحة التى يبدوها دكتور جودرت Dr. Jortin فليس من السهل تجربة بولكيريا من أنها كان لها نصيب هذا التنبؤ الدينى ، الذى لابد أنه حدث عندما كان عمرها أكثر من خمسة وثلاثين عاما .

ويمسك اريدته ، ويجلس على العرش ، بطريقة تتناسب مع ملك عظيم ،
 وأن يتورع عن الضحك ، وأن يصفي إلى المتحدث إليه في تنازل وتفضل ،
 وبعبارة موجزة ، علمته أن يمثل الطابع الخارجى لامبراطور روماني في
 رشاقة ووقار . غير أن ثيودوسيوس لم يتحرك أبدا لتحمل ثقل اسمه
 المتألق المرموق وعظمته ، وبدلا من أن يرتفع إلى محاكاة أجداده ، انحدر
 (إذا جاز لنا أن نجرؤ على قياس درجات العجز) إلى مستوى أدنى من
 مستوى ضعف والده وعنه . فقد ساعدت أركاديوس وأونوريوس تلك
 الرعاية الأبوية التي يوجهها نحو بنيه والد ينفذ دروسه بسلطانه وقبرته .
 غير أن الأمير التمس ، الذي يرتدى الحلة الملكية وهو في المهد صبيا لابه
 أن يظل غريبا على صوت الحق . ومن ثم فإن ابن أركاديوس حكم عليه
 بأن يقضى طفولته الدائمة محاطا بحاشية ذليلة من النساء والخصيان ،
 ولا شيء غير ذلك . وشغل فراغه الطويل الذي توفر له نتيجة إهماله
 للواجبات الأساسية التي تتصل بمنصبه الرفيع ، باللوان التسلية التافهة
 والدراسات غير المجدية . وكان الصيد هو النشاط الوحيد الذي يفره
 على تجاوز حدود القصر ، ولكنه ثابر أشد المثابرة على أعمال التصوير
 والنحت الآلية التي كان يمارسها أحيانا على ضوء مصباح في منتصف
 الليل . ونسخ الكتب الدينية بخط وشيق جميل جعل الامبراطور
 الروماني جديرا بالصفة الفريدة التي أطلقت عليه ، وهي « الخطاط
 البارح » ، ولما كان ثيودوسيوس محبوبا عن العالم يستار لا نفاذ منه ،
 فقد وضع ثقته في الأشخاص الذين أحبهم ، وأحب أولئك الذين درجوا
 على تسليته وتمالقه ، وهو الكسول قاعد الهمة . ولما كان من عادته
 ألا يمحس الأوراق التي تقدم إليه لتوقيعها باسمه الملكي ، فكثيرا
 ما نفذت باسمه أعمال ظالمة تتنافى مع خلقه ويمقتها أشد المقت . وكان
 الامبراطور نفسه عفيفا ، معتدلا سخيا ، رحيفا ، غير أن هذه الصفات
 - التي لا تستحق أن تسمى فضائل الا اذا دعمتها الشجاعة ونظمها
 الحكمة - قلما كان لها نفع أو فائدة ، بل لقد ثبت أنها أضرت بالناس
 في بعض الأحيان وكان عقله الذي أضاعه التعليم الملكي واقما تحت
 ضغط الخرافات التافهة الوضعية ، فانحط وتدهور . وكان يصوم
 وينشد الزمير ، ويصدق المعجزات والمبادئ التي غذى بها إيمانه
 بصورة مستمرة . وعبد ثيودوسيوس في ورع وخشوع من مات ومن
 كان حيا من قديسي الكنيسة الكاثوليكية . وحدث مرة أن راهبا وقحا
 أصدر ضد مليكه جرما كنسيا ، فرفض أن يتناول الطعام حتى يتنازل
 الراهب بشقاء الجرح الروحي الذي أصابه به .

مغامرات يودوكيا

ان قصة عذراء جميلة فاضلة ترتفع من حالتها المغمورة الى العرش الامبراطورى ، يمكن أن تعتبر رواية لا تصدق ، لو لم تكن هذه القصة قد ثبت صدقها فى زواج ثيودوسيوس . والقصة أن أثينيس *Athenais* الشهيرة علمها والدها الفيلسوف ليونتيوس ديانة اليونان وعلومهم . وكان للفيلسوف الأثينى رأى صائب فى معاصريه جعله يقسم ميراثه بين ابنه تاركا لابنتيه اثنا صغيرا قدره مائة قطعة من الذهب ، وكله ثقة قوية فى أن جمالها وسجاياها سوف تكون نصيبا يكفيها . وسرعان ما اضطرت الفتاة الى اللجوء الى القسطنطينية هربا من غيرة شقيقها وجسمها ، لتلقى بنفسها تحت أقدام بولكيريا . أملا فى عدالتها أو فى نوال حظوة لديها ، واستلمت الأميرة الحبيبة الى شكواها التى عبرت عنها فى لغة فصيحة بليغة ، وأسرت فى نفسها أن تصبح ابنة الفيلسوف ليونتيوس الزوجة المقبلة لامبراطور الشرق الذى بلغ اذ ذاك العشرين من عمره . وكان من السهل عليها أن تثير فضول شقيقها بالصورة الشائقة التى رسمتها لمفاتيح أثينيس : فعيانها نبلاوان واسعدان ، وأنفها دقيق متناسب ، وبشرتها شقراء ناصعة ، وخصائل شعرها فى لون الذهب ، وفوامها نحيل همشوق ومسلكها رشيق دقيق ، كما أنها تتمتع بادراك هذبة الدراسة وبفضيلة عركتها المحنة . واختبا ثيودوسيوس وراء ستر فى غرفة شقيقته التى سمحت له بمشاهدة العذراء الأثينية ، وسرعان ما أعلن الشاب الوديع عن حبه النقى الشريف واحتفل بالزواج الملكى وسط تهليل العاصمة والولايات . وكان من السهل اغواء أثينيس على التبرؤ من أخطاء الوثنية ، وأطلق عليها فى المعبودية الاسم المسيحي ، يودوكيا ، غير أن بولكيريا حرصت على عدم منحها لقب أوغسطا حتى أثبتت أنها غير عقيم ، وأنجبت بنتا تزوجت بعد خمسة عشر عاما من امبراطور الغرب . ثم استدعت يودوكيا شقيقها ، وأطاع الشقيقان فى شئ من القلق أمرها الامبراطورى . ولما كان من السهل عليها أن تصفح عن قسوتها التى عادت عليها بالحظ والتوفيق ، فقد أشبعت فى نفسها حب الشقيقة ، أو غرورها ، بترقيتهما الى منصب الفئصل والوالى . وفى وسط ترف القصر وأبهته ظلت تنسى تلك الفنون الذكية الأصيلة التى أسهمت فى عظمتها ، وكانت من الحكمة بحيث كرسن مواهبها لتكريم الدين وتكريم زوجها . فآلفت شرحا شعريا للكتب الثمانية الأولى من العهد القديم ، (التوراة) . ولنبوءات دانيال وذكريا ، وجمعت

مقتبسات من أشعار هوميروس ، وطبقت قصة سانت سيبيريانوس على حياة المسيح ومعجزاته ، وكتبت مديحا تشييد فيه بانتصارات ثيودوسيوس الفارسية . وقوبلت كتاباتها باستحسان أثناء عصرها الأذلاء المؤمنين بالخرافات ، ولم يوجه اليها النقد المتسممون بالصراحة وعدم التحيز ما يقلل من شأنها . ولم يفتر حب الامبراطور لزوجته بمرور الزمن وباستحواذه عليها ، وبعد أن زوجت يودوكيا ابنها سمح لها بأن تفي بنفور الشكر ، وتقوم برحلة حج مقدسة الى اورشليم . وقد تبدو مسيرتها الى الشرق غير متفقة مع روح التواضع المسيحي لأنها أحيطت بمظاهر الأبهة والعظمة . فقد جلست على عرش من الذهب والجواهر ، وألقت على السناقر في مدينة أنطاكيا خطابا بليغا ، أعلنت فيه عن عزمها الملكي على توسيع أسوار المدينة ، وتبرعت بمنحة قدرها مائتان من الجنيهات الذهبية لإعادة الحمامات العامة ، وقبيل التماثيل التي قررت أنطاكيا اهدامها لها عرفانا بجميلها . وفي الأرض المقدسة فاقمت صدقاتها ، والمؤسسات الدينية التي أمرت بها ، سخاء هيلانة العظيمة وأريحيته ، ومع أن هذا السخاء الزائد كان على حساب فقر الخزانة العامة ، إلا أنها وجدت متعة في شعورها بأنها سوف تعود الى القسطنطينية ومعها السلاسل التي قيد بها القديس بطرس ، وذراع القديس اسطفان اليمنى ، وصورة أصيلة للمذراء مريم رسمها القديس لوقا . غير أن هذا الحج المقدس كان النهاية المشئومة لأعجاد يودوكيا . فقد أغرتها العظمة الجوفاء التي تشبعت بها على التطلع في طموح الى حكم الامبراطورية الشرقية دون أن تهتم كثيرا بفضل بولكيريا عليها والتزاماتها نحوها ، فساد القصر الملكي نزاع بين المرأتين ، غير أن سمو مكانة شقيقة ثيودوسيوس كفل لها الغلبة في نهاية الأمر . وجاء اعدام بولينوس ، رئيس الديوان ، والعار الذي لحق بكيروس Cyrus حاكم الشرق البريتوري ، دليلا أقنع الناس بأن خطوة يودوكيا لا تكفى لحماية أخمص أصدقائها ، كما أن الجمال الخارق الذي اتصف به بولينوس شجع على انتشار اشاعة خفية بأن الذنب الذي اقترفه كان ذنب عاشق وصل الى قلب يودوكيا . وبمجرد أن أدركت الامبراطورة أنها خسرت محبة زوجها ثيودوسيوس الى غير رجعة ، التمسّت أن يأذن لها بالانسحاب الى اورشليم حيث تعيش في عزلة بعيدة . وأجيبته الى طلبها غير أن غيرة ثيودوسيوس ، أو روح الانتقام التي تملك بولكيريا تعقبها في هذا الانسحاب الأخير ، وكلف ساترنيينوس رئيس الحاشية أن يقتل اثنين من رجال الدين كانوا أقرب الأتباع اليها . وانتقمتهما لهما يودوكيا على الفور بقتل رئيس الحاشية . ويبدو أن الانفعالات النائرة الجامحة التي أظهرتها في هذه المناسبة المريبة بررت قسوة ثيودوسيوس عليها ، فجردت

الامبراطورة بصورة شائنة من أمجاد منصبها ، ولحقها العار في نظر العالم .
وربما كان ذلك ظلما . وقضيت يودوكيا بقية حياتها ، وقدرها ستة عشر
عاما تقريبا ، في المنفى والتعبد . وتقدم بها العمر ، ومات زوجها
ثيودوسيوس ، وحلت المحن بابنتها الوحيدة التي سيقته أسيرة من روما الى
قرطاجة ، واندمجت بولكيريا في مجتمع الرهبان المقدسين في فلسطين ،
كل أولئك دعم في عقلها النزعة الدينية . وبعد تجربة كاملة لتقلبات الحياة
البشرية ماتت ابنة الفيلسوف ليونتيوس في اورشليم في الساعة
والستين من عمرها ، وكانت تمترض وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة أنها
لم تتجاوز مطلقا حدود الطهر والصدقة .

قامت بعد ذلك حرب غير حاسمة ضد فارس ، وأدت هذه الحرب الى
سلام دام ثمانين عاما . وقسمت أرمينيا بين الفرس والرومان .

الفصل الثالث والثلاثون

(٤٣٩ - ٤٣١)

الوندال يغزون أفريقيا • القديس أوغسطين وحصار
مدينة هيبو • نهب مدينة قرطاجة • قصة النيام السبعة •

مات أونوريوس بمرض الاستسقاء في سنة ٤٢٣ • وخلفه في النهاية
فالنتينيان الثالث الذي كان في السادسة من عمره • وهو ابن جالا
بلاكيديا من القائد قسطنطيوس (الذي تزوجته بعد وفاة أدولفوس) ،
وابن عم ثيودوسيوس الأصغر • وحكمت بلاكيديا خمسة وعشرين عاما
باسم ابنها • وكانت جيوشها تحت قيادة ايتيوس وبونيفاس Boniface
اللذين يصفهما جيبون Gibbon بأنهما « آخر الرومان » • وبعد أن
تأمر ايتيوس على الحط من شأن بونيفاس في عين بلاكيديا ، اقترح
بونيفاس في تهور عقد محالفة مع الوندال في اسبانيا ، ودعاهم الى
استيطان افريقيا ، وقبل الملك الوندالي جنسريك Genseric هذه
السعوة التي ندم عليها بونيفاس بعد أن فات أوان الندم •

الوندال يغزون افريقيا

كان الاقليم الضيق الممتد على طول الساحل الافريقي مليئا بالآثار
الكثيرة التي تبرز الفن الروماني والمعظمة الرومانية ، وكان من الممكن
أن تقاس درجات التقدم والتحسين في هذه الآثار بمقدار بعدها عن مدينة
قرطاجة والبحر المتوسط • وان أي عقل مفكر يستطيع بشئ من التأمل
البسيط أن يكون فكرة واضحة عن خصب ذلك الاقليم وحالة الزراعة
فيه : فلقد كانت المنطقة أهلة بالسكان ، وكان هؤلاء السكان يحتفظون
بقدر وفير من المواد الغذائية لاستعمالهم الخاص ، ويصدرون سنويا ،
وخاصة من القمح ، كميات كبيرة وبصورة منتظمة حتى استحوطت افريقيا

اسم المخزن العام للحبوب بالنسبة لروما وللجنس الانساني . وفجأة وقعت الولايات اليانعة السبع ، من طنجة الى طرابلس ، فريسة لغزو الوندال . وكان هؤلاء الوندال يتسمون بروح ناثرة مدمرة ربما كانت موضع مبالغة بتأثير البغضاء العامة والغيرة الدينية والمخالة في التحمس . والحرب في اهورن اشكالتها انما تعني انتهاكا دائما للانسانية والعدالة ، لما حروب البرابرة الهمج فانما تلهبها روح القسوة وتجاهل القانون ، وهي الروح التي تقلق مجتمهم الهادي المنصرف الى شئونه ومسراته . وحشما وجد الوندال مقاومة فانهم قلما كانوا يرحسون ، بل كانوا ينتقمون لموت رفاقهم الشجعان بتدمير المدن التي قتلوا تحت أسوارها . وكانوا لا يقيمون وزنا للسن أو للجنس أو المقام ، بل يستخدمون كل أنواع الاهانة والتعذيب لينتزعوا من اسراهم ما يمكنهم من الوصول الى ثروتهم المخبأة . وكانت صرامة سياسة ملكهم جنسريك تبرر له ما ارتكبه مرارا وتكرارا من اعمال القتل والاعدام ، فلم يكن في مقدوره دائما أن يسيطر على شهواته أو شهوات أتباعه ، كما ازدادت كوارث الحرب بسبب تهور عرب شمال أفريقيا والتعصب الديني الذي اتسم به أتباع دوناتوس (١) . ولكنى لا أستطيع أن أقتنع بأنه كان من عادة الوندال أن يقتلوا أشجار الزيتون وغيرها من أشجار الفواكه الأخرى من بلد عقدوا النية على استيلائه كما أنى لا أستطيع أن أصدق أنه كان من خططهم الحربية العادية أن يذبحوا أعدادا كبيرة من اسراهم أمام أسوار المدينة التي يحاصرونها ، بهدف واحد هو تلويث الهواء وخلق الوباء ، لانهم لو فعلوا ذلك لكانوا أول الضحايا (٢) .

سالت أوغسطين

وحصار مدينة هيبو

كان الكونت بونيفاس يرى بعينه ذلك الخراب الذي سببه ، والذي لم يعد في مقدوره ايقاف تطوره السريع ، فيتمزق عقله الكريم ألما وعذابا . وبعد أن خسر معركة ضد الوندال انسحب الى مدينة هيبو الملكية Hippo Regia (أكبر مدن نوميديا) حيث حاصره على الفور عمرو كان يعتبره حصن أفريقيا الحقيقى وحاميها . وكانت هذه المستعمرة البحرية تقع على بعد مائتى ميل تقريبا الى الغرب من قرطاجنة ، وأطلق

(١) كان اسقفا لقرطاجنة في القرن الرابع . وكون أتباعه طائفة مسيحية في شمال افريقية سنة ٢١١ م ، اتسمت بالتمسك والتعصب - (الترجمة) .

(٢) توجد الشكاوى الأصلية من الدمار الذي حل بأفريقيا .

عنها من قبل اسم *Regius* لأنها كانت مقاما للملك نوميديا . وما تزال بعض بقايا التجارة والأزدحام بالسكان من شحات المدينة الحديثة المعروفة في أوروبا بالاسم المحرف بونا *Bona* . وما خفف من الجهود العسكرية المضنية التي كان يبذلها الكونت بونيفاس ، ومن تفكيره المشوب بالقلق ، تلك الأحاديث التي كان يتبادلها مع صديقه سانت أوغسطين ويوجد فيها راحة وعزاء ، إلى أن مات ذلك الأسقف ، نور الكنيسة الكاثوليكية ودعاتها ، في الشهر الثالث من الحصاد ، وكان إذ ذاك في السادسة والسبعين من عمره . وقد رحله الموت إذ أنقذه في رفق من الكوارث التي حلت ببلده فعلا ومن تلك التي كانت وشيكة الوقوع . ولقد تلوث شباب أوغسطين بالزنازل والأخطاء التي يعترف بها في صراحة ودون مواربة . غير أنه منذ أن اعتنق الديانة المسيحية إلى أن وافته منيته كان يتسم بأخلاق وعبادات نقية بسيطة خالية من الترف والمظاهر ، وكان أبرز فضائله حماسه المتقد ضد الهرطقة أيما كان لونها اتباع (١) « مانا » واتباع « دوناتوس » واتباع « بيلاجيوس » (٢) ، وقد شن على هؤلاء جميعا حربا مستمرة لا هوادة فيها . وعندما أحرق الوندال المدينة بعد بضعة شهور من موته ، كان من حسن الحظ أن النار لم تمتد إلى المكتبة ، فنجت من الحريق وكانت فيها كل كتاباته الضخمة التي تتألف من كتب أو بحوث مستقلة في مواضيع لاهوتية عددها مائتان واثنان وثلاثون ، إلى جانب عرض كامل لكتاب المزامير والإنجيل ، ومجلة غزيرة شاملة للرسائل والصلوات . ويقرر أكثر النقاد بعدا عن التحيز أن علمه السطحي كان قاصرا على اللغة اللاتينية (٣) ، وأن أسلوبه تشوبه

= (١) في خطاب من كابرديولوس ، أسقف قرطاجنة يعتذر عن حضور مجلس القيسوس .

(ب) في كتاب « حياة سانت أوغسطين » من تأليف صديقه وزميله بوسيديوس .

(ج) في كتاب « تاريخ الاضطهاد الوندالي » تأليف فيتنس *Victor Vitensis* والصورة الأخيرة ، التي رسمت بعد ستين سنة من الحادث ، إنما تعبر عن أهواء المؤلف وهوأمله أكثر من تعبيرها عن حقيق الحقائق .

(١) اتباع « مانا » (٢٧٦ م) الذي كان ينادى بأن كل شيء نشأ من الضوء والظلام . أو الخير والشر - (مذهب الماتوية) .

(٢) بيلاجوس *Pelagius* كان راهبا بريطانيا عاش في القرن الرابع الميلادي وهذه الطائفة تنكر الخطيئة الأصلية (الترجمة) .

(٣) كره سانت أوغسطين في باكورة شبابه دراسة اليونانية وأهملها ، ويعترف صراحة بأنه قرأ الأفلاطونيات في الترجمة اللاتينية ، ويظن بعض النقاد الحديثين أن جهله باليونانية أعجزه عن شرح الكتاب المقدس ، وكان شيشيريون وكرينتليان يتطلبان من أستاذ البلاغة أن يكون ملما بترك اللغة .

عادة البلاغة المفتعلة الزائفة ، رغم أن الانفعال كان يكسبه في بعض الأحيان قدرة على التعبير في أسلوب قوي منطوق . غير أنه كان ذا عقل قوي يتسع للكثير ، ويقرّع الحجة بالحجة . وكان له من الجرأة ما مكّنه من انغوص إلى أعماق الموضوعات الغامضة المبهمة ، كموضوع النعمة الإلهية ، وهل الإنسان مسير أو مخير وموضوع الخطيئة الأصلية . أما النظام المسيحي المصارم الذي رسم أطواره أو أعاد كيانه فقد قابلته الكنيسة اللاتينية بالأعراض سراً والاستحسان علانية (١) .

وطال حصار مدينة هيبو إلى أكثر من أربعة عشر شهراً بفضل براعة بونيفاس ، أو ربما كان ذلك نتيجة لجهل الوندال ، وظل البحر مفتوحاً أمام المدينة ، وعندما تضايقته موارد الإقليم المجاور بتأثير عملية النهب الهمجية ، جاع المحاصرون أنفسهم واضطروا إلى التخلي عن مفارقتهم . وكانت الوصاية على عرش الغرب تدرك ادراكاً عميقاً أهمية أفريقيا والخطر المحدق بها ، وألتمست بلاكيديا عون حليفها الشرقي ، فأبحر القائد أسبار من القسطنطينية على رأس جيش قوى عزز به جيش إيطاليا وأسطولها . وما أن توحدت قوات الإمبراطوريتين تحت قيادة بونيفاس حتى تقدم في جرأة لمقابلة الوندال ، ولكنه خسر معركته الثانية ضدهم ، وحددت هذه الخسارة مصير أفريقيا نهائياً . ثم دفعه اليأس إلى تمجّل ركوب البحر ، وسمح لأهل المدينة وأسراهم ومتاعهم أن يشغلوا على السفن مكان البحارة الذين قتل الوندال أكثرهم أو أخذوهم أسرى . أما الكونت بونيفاس الذي كانت سياجته القسائلة سبباً في الأضرار بحيويات الدولة ضرراً بليغاً ، فقد دخل قصر رافنا في شيء من القلق الذي سرعان ما أزالته ابتسامات بلاكيديا ، وقبل بامتنان رتبة نبيل روماني ومنصب القائد العام للجيش الروماني . ولكن لابد أنه كان يحمر

(١) قدست كنيسة روما سانت أوغسطين وتبرأت من كالفن . ومع ذلك فإن الفرق الحقيقي بين الرجلين لا يمكن رؤيته حتى تحت مجهر بيني ، ومن ثم فإن اتباع مولينا (Louis Molina) (١٥٢٥ - ١٦٠٠) يضطهرون بحكم ما للقدس من سلطة ، ويلحق العار اتباع جانسن Conelius Jansen (١٥٨٥ - ١٦٢٨) لأنهم يشبهون الهرطوقي . وفي الوقت عينه وقف أرمينيانوس البروتستانتي بمنأى عن النزاع وسخر من حيوة المتنازعين . ومن الجائز أن مفكراً أكثر استقلالا في الرأي ينقسم بدرع عندما يطالع تعليقاً كتبته أرمينيانوس على الرسالة إلى الرومان .

لويس مولينا : أسباني يسوعي يقرر : أن الإنسان مسير بمعنى أن الله يعرف مقدماً أنه حر الإرادة والتصرف .

كورنيليوس جانسن : أسقف كاثوليكي : ويمارض العقيدة الكاثوليكية التي تقول بحرية الإرادة . (الترجمة) .

خجلا عند رؤيته تلك الأوسمة التي ظهرت فيها صورته مقرونة بعلام النصر • وتملك الحق والفضيب نفس ايتيوس الفادرة المتعالية عندما افتضح خداعه وعلم بفضيب الامبراطورة علي شخصه والحظوة الكبيرة التي نالها غريمه لديها ، فعاد سريعا من بلاد الغاق الى ايطاليا ومعه حاشية ، أو جيش ، من أتباعه البرابرة • وبلغ من ضعف الحكومة أن القائدين حسما خصامهما الشخصي في معركة دموية • وانتصر بونيفاس . ولكنه أصيب في ذلك الصدام بجرح عميق من رمح خصمه ، ومات متأثرا به في مدى أيام قلائل ، ودفعته عواطفه المسيحية الكريمة وهو علي فراش الموت الى أن يلح علي زوجته ، وهي سيدة أسبانية ثرية ذات ميراث ، أن تقبل ايتيوس زوجا ثانيا لها ، غير أن ايتيوس لم يستطع أن يستمد أى نفع مباشر من ذلك الكرم الذي أظهره عدوه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فقد شاعت عدالة بلاكيديا أن تصمه بالتمرد والعصيان ، ورغم أنه حاول الدفاع عن بعض الحصون القائمة في أملاكه الموروثة ، إلا أن القوة الامبراطورية سرعان ما أرغمته علي الانسحاب الى بانونيا ، حيث لجأ الى خيام أتباعه المخلصين من الهون • وترتب علي هذا الخصام المتبادل بين الرجلين أن حرمت الدولة من خدمات ألمع أبطالها وأكثرهم شهرة •

نهب قرطاجة

ومن الطبيعي أن يكون متوقعا ، بعد تقهقر بونيفاس ، أن يحقق انوندال غزو أفريقيا دون مقاومة ، ودون إبطاء • ومع ذلك فقد انقضت ثمانية أعوام بين الجلاء عن مدينة هيبو وبين اخضاع مدينة قرطاجة • وفي منتصف تلك المدة عقد جنسريك ، وهو في أوج رفاحيته الواضحة ، معاهدة مع الامبراطور الغربي ، وافق بمقتضاها علي أن يظل الامبراطور محتفظا بولايات موريتانيا الثلاث دون أن يتعرض لأي ازعاج ، وسلم ابنه هنريك رهينة لضمان تنفيذ المعاهدة • وهذا الاعتدال الذي لا يمكن أن يعزى الى عدالة الفاتح لابد أن ينسب الى سياسته ، ذلك أن عرشه كان محاطا بأعداء في داخل البلاد يرمونه بوضاعة المنبت ، ويؤكدون أن أبناء أخيه جوندريك هم أصحاب الحق الشرعي • وقد قتلهم جنسريك مضحيا بهم في سبيل سلامته ، كما أمر بالقاء امهم ، أرملة الملك الراحل ، في نهر أمبساجا Ampsaga • غير أن التذمر العام انفجر في صورة مؤامرات كثيرة خطيرة ، ولابد أن الطاغية العسكري قد أراق من دماء الوندال علي يد الجلاد أكثر مما أراق في ساحة القتال • أما الاضطرابات الأفريقية

العنيفة التي كانت تؤيد هجومه ، فقد عارضت توطيد سلطته ، وظلت ثورات عرب شمال أفريقيا والجرمان ، والكاثوليك وأنباغ دوناتوس ، تزعم أو تهدد حكم الفاتح المقلقل بصورة مستمرة . وعندما تقدم نحو قرطاجة اضطر الى سحب قواته من الولايات الغربية ، وتعرض الشاطئ للهجمات البحرية التي قام بها رومان أسبانيا وإيطاليا . وفي قلب اقليم نوميديا ظلت مدينة سرتة Cirta الداخلية محافظة على استقلالها في اصرار وعناد . وتغلب جنسريك على هذه الصعاب شيئا فشيئا بشجاعته ومثابرته وقسوته ، واستخدم فنون السلم مرة وفنون الحرب مرة أخرى لاقامة سلكته الأفريقية ، ووقع مع قرطاجة معاهدة رسمية بأمل الحصول على بعض النفع من شروط استمرارها وما يترتب على خرقها . وتراخت يقظة أعدائه بفضل ما أظهره من صداقة كان يخفي وراءها سلكه العدوانى وأخيرا فاجأ الوندال قرطاجة بعد خمسمائة سنة وخمس وثمانين من تدمير المدينة والدولة على يد سكيبيو الأصغر .

كانت مدينة جديدة قد قامت على أنقاض قرطاجة القديمة وأطلق عليها اسم المستعمرة ، ومع أن قرطاجة كانت لا تدانى القسطنطينية في امتيازاتها الملكية ، أو الاسكندرية في تجارتهما أو أنطاكيا في روعتها وفخامتها ، إلا أنها كانت تحتل المرتبة الثانية في الغرب كروما المالم الأفريقى (اذا استخدمنا أسلوب المعاصرين لها) . وبدأت تلك العاصمة الغنية المترفة في صورة دولة مزدهرة وإن كانت تابعة ، فكان ينصب فيها ما تمتلكه الولايات الست من مهنوعات وأسلحة وأموال . وكان بها تنظيم لتسلسل المناصب المدنية تبدأ من المشرفين المالبين على شوارع المدينة وأحيائها ، وتندرج صعودا الى منصب الحاكم الأعلى الذي يلقب بلقب البروقنصل ويمثل بمقتضى ذلك القلب مكانة القنصل في روما القديمة ، وما كان له من تبجيل واحترام . وأنشئت المدارس ومساحات الرياضة لتعليم شباب أفريقيا ، وكانت الفنون الحرة وآداب السلوك والنحو ، والبلاغة ، والفلسفة تعلم للشعب باللغتين اليونانية واللاتينية . وكانت مباني قرطاجة فخبة ومتناسقة ، وزرعت في وسط العاصمة غابة ظليلة ، وكانت الميناء الجديدة ، وهي مرفأ فسيح أمين ، تستغل لخدمة المواطنين والغرباء ، كما كانت ألعاب السيرك والمسرح الرائعة تقدم للناس حتى في حضور البرابرة . ولم تكن سمعة أهل قرطاجة على مستوى سمعة بلدهم بل ظلت سبة الولاء البونيقي أى (الخيانة) Punic faith لاصقة بأخلاقهم الماكرة الغادرة ، وفساد سلوكهم بتأثير عادات التجارة وسوء استقلال الثراء والترف ، غير أن استقارهم المريب للربان وممارستهم الشائنة للشهوات غير الطبيعية هما الرجسان اللذان أثارا غضب سالفان

Salvian واعظ النصر (١) النعى . واصلاح ملك الوندال في قسوة من وذائل ذلك الشعب الشهواني الداعر ، وحول جنسريك تلك الحرية القديمة انبيله الصادقة التي كانت تتسم بها قرطاجة (هذه التعبيرات التي قالها فيكتور لا تخلو من القوة) ان مذلة شائنة . وبعد أن سمع لقوانه الفاجرة بأن تشبيح غضبها وجشعها ، وضع أسلوبا أكثر نظاما للنهب والظلم . فأصدر قانونا يحتم على الناس جميعا أن يسلموا الى ضباط الملك ، دون خداع ودون إبطاء ، كل ما لديهم من ذهب وفضة وجواهر وأثاث ثمين وكساء نفيس ، ويعاقب بالموت أو التعذيب دون رحمة أية محاولة لاختفاء أي جزء مما يمتلكون ، على أساس أن هذا العمل خيانة ضد الدولة . أما أراضي الولاية التابعة للبروقنصل وهي التي يتكون منها اقليم قرطاجة نفسه ، فقد قيسمت بدقة وقسمت على البرابرة ، واحتفظ الفاتح لنفسه بالملكية الخاصة لاقليم بيزاكيوم الخصب والأجزاء المجاورة له من نوميديا وجيتوليا .

ومن الطبيعي أن جنسريك كان يمقت أولئك الذين الحق بهم الضرر والأذى : وأصبح نبلاء قرطاجة وأعضاء السناتو عرضة لحقده وسخطه ، وكل من رفضوا الشروط الشائنة التي أبى عليهم شرفهم ودينهم قبولها ، أرغمهم ذلك الطاغية الأرى على الامتثال للنفي الدائم من البلاد . فامتلات روما وإيطاليا وولايات الشرق بجمهور المنفيين واللاجئين والأسرى الشرفاء الذين كانوا يثيرون شفقة الناس وعطفهم . وما تزال رسائل تيودورت Theodoret الكريمة تذكر اسمى كالستيان وماريا ، وتقص ما أصابهما من مصائب ومحن . وفي هذه الرسائل يرثي الأسقف السورى للكوارث التي حلت بكالستيان الذي كان أحد نبلاء قرطاجة وعضوا ثريا من أعضاء السناتو ، ثم ألبجته الحاجة الى التسول في بلد أجنبي هو وزوجه وأسرته وخدمته . غير أن الأسقف تيودورت يشيد باستسلام اللاجئ المسيحي ، وبخلق الفلسفي الذي مكنته ، تحت ضغط تلك الكوارث ، من الاستمتاع بسعادة حقيقية أكثر من تلك التي تجلبها الثروة والرفاهية في الظروف العادية . أما قصة ماريا ، ابنة يوديمون العظيم ، فهي قصة هجينة شائعة . فعندما نهبت قرطاجة اشتراها

(١) وهو يصرح بأن الذائل التي يتسم بها كل بلد قد تجمعت في بالوعة قرطاجة . وفي انغماس الأفريقيين في الرذيلة كانوا يشيدون بما لديهم من فضيلة الرجولة . وبأن الشهامة تقضى عليهم بقطع صلاتهم القذرة مع النساء . وتلوثت شوارع قرطاجة بالمتخلفين الذين كانوا يظهرون علانية في مطهر النساء وملبسون بأخلاقهن . وإذا ظهر أحد الرهبان في المدينة كانوا يشيعونه بالازدراء والسفرية .

من الوندال بعض تجار سوريا ، وباعوها بعد ذلك رقيقا فى بلادهم . وكانت لها وصيفة نقلت على السفينة نفسها وبيعت الى الأسرة نفسها ، وظلت تحترم سيدها التى أخنى عليها الدهر وأنزلها الى مستوى العبودية الذى شاركت فيه خادمتها . وتلقت ابنة يوديمون من وصيفتها بدافع المودة وعرفان الجميل تلك الخدمات العائلية التى كانت فيما مضى تتطلبها منها بحكم الخضوع والطاعة . وكشف هذا المسلك العجيب عن حقيقة ماريّا . وفى غيبة أسقف كيروس Cyrhus أعتقت من العبودية بفضل كرم بعض جنود الحامية ، ووفر لها سقاء ثيودورت معيشة كريمة ، فقضت عشرة شهور بين شماسات الكنيسة حتى وصل الى علمها على غير انتظار أن أباه ، الذى نجا من الخراب الذى حل بقرطاجة ، يشغل منصبا رفيعا فى إحدى الولايات الغربية . وعضدها الأسقف الورع ثيودورت فى لهفتها على أبيها ، فأرسل خطابا ما يزال موجودا الى أسقف ابيجة ، وهى مدينة بحرية فى إقليم قيليقيا . تزورها سفن الغرب كثيرا فى فترة سوقها السنوى ، وطلب الى زميله فى غيرة رجدية أن يعامل الفتاة فى رقة تليق بكرم محتدها ، وأن يعهد بها الى رعاية تجار مخلصين آمناء يعتبرون أنه يكفيهم كسبا أن يعيدوا ابنة الى ذراعى أبيها المنكوب بعد أن فقد كل أمل فى عودتها .

قصة النيام السبعة

ومن بين قصص التاريخ الدينى أرانى مسوقا الى انتقاء القصة الشهيرة ، قصة النيام السبعة الذين يتفق تاريخهم المزعوم مع عهد ثيودوسيوس الأصغر ، وغزو الوندال لأفريقيا . فعندما تعرض المسيحيون لاضطهاد الامبراطور ديكىوس اختبأ سبعة من النبلاء الشبان بمدينة افسوس داخل كهف فسيح غائر فى سفح جبل مجاور للمدينة . وهناك قضى عليهم الطاغية بالهلاك بأن أصدر أوامره بأن يفلق عليهم مدخل الكهف اغلاقا محكما بكومة من الأحجار الضخمة . وللحال راح الشبان فى سبات عميق طالته مدته بصورة معجزة الى مائة وسبع وثمانين سنة . دون أن تتأثر قوى الحياة فيهم . وفى نهاية تلك الفترة أراح عبيد أدوليوس ، الذى آل اليه ميراث الجبل ، تلك الأحجار الضخمة ليشيدوا بها بناء ريفيا ، ونفذ ضوء الشمس الى داخل الكهف ، فكان هذا ايذانا باستيقاظ النيام السبعة . وشعر هؤلاء النيام بالجوع بعد نوم طنوه ساعات قليلة ، فقرروا أن يعود واحد منهم سرا الى المدينة لشراء ما يحتاجون اليه من خبز ، ووقع اختيارهم على جامبليكوس . ولم يستطع الشاب (اذا جاز لنا أن نطلق عليه هذه التسمية) أن يتعرف على منظر

بلده المؤلف لديه ، وزادت دهشته عندما رأى صليبا كبيرا قائما في
ظفر على الباب الرئيسى لمدينة افسوس . وارتبك الخباز عندما شاهد
ملبسه الغريب وسمع لفته القديمة ، ثم قسم له جامبليكوس عملة عتيقة
من عهد ديكويوس على أنها العملة المتداولة في الامبراطورية ، وهنا ارتاب
الخباز في أن الشاب قد عثر على كنز خفي ، فساقه أمام القاضي . وترتب
على ما دار بين الرجلين من استفسارات أن وضحت القصة المذهلة ، وهي
أن قرنين من الزمان تقريبا قد انصرما منذ أن فر الشاب وأصدقائه من
غضب الطاغية الوثني . وسارع الى زيارة كهف النيام السبعة أسقف
افسوس ، والكهنة ، والحكام ، والشعب ، إل والامبراطور نيودوسيوس
نفسه ، كما يقال . وما أن منع هؤلاء السبعة بركتهم للحاضرين وقصوا
عليهم قصتهم حتى وافتهم المنية في سكون وهمو . ولا يمكن أن يكون
اليونان الحديثون هم الذين لفقوا هذه الأسطورة العجيبة بدافع من
السذاجة والتقوى ، لأن القصة المتواترة الصحيحة يمكن تتبعها الى
تاريخ انقضاء خمسين سنة على حدوث المعجزة المزعومة . فالأسقف
السوري جيمس من أهل ساروج ، الذي ولد بعد سنتين من موت
نيودوسيوس الأصغر ، خصص إحدى عطاياه المائتين والثلاثين للاشادة
بشبان افسوس . وقبل أن ننتهي القرن السادس كانت أسطورتهم قد
ترجمت من اللغة السريانية الى اللاتينية بفضل عناية جريجوري ، أسقف
مدينة تور . كما أن الطوائف الشرقية المعادية تحتفظ بذكرهم بالاحترام
نفسه ، وكذلك دونت أسماؤهم بصورة مشرفة في التقويم الروماني
والعبري والرومي . ولم تقتصر شهرتهم على العالم المسيحي وحده ،
بل ان هذه القصة الشائعة ، التي لابد أن النبي محمدا قد سمعها عندما
ذهب بقوافله الى أسواق سوريا ، قد نزلت في القرآن كوحى الهى (١) .
وأخذت الأمم التي تدين بالاسلام ، من البنغال الى أفريقيا ، قصة النيام
السبعة ونمقتها ، كما اكتشفت بعض آثار قصة ماثلة في الأطراف النائية
من أسكندريانة (٢) . وهذا الايمان السهل الذي عم العالم كله ، والذي
يعبر مثل هذا التعبير عن احساس الانسان ، يمكن أن يعزى الى ما تقسم

(١) وهنا يذكر جيبون ملخصا قصيرا لبعض ما جاء في قصة اهل الكهف كما وردت في القرآن الكريم .

(٢) يذكر بولس ، شماس اكويليا ، الذي عاش في نهاية القرن الثامن أن النيام
"سبعة الشماليين رقدوا تحت حفرة على شاطئ المحيط ، واحترم البرابرة رقادهم
الضليل . ثم عرفهم الرومان من ملابسهم ، ويطن الشماس أن العناية الالهية احتفظت بهم
ليكونوا رسلا في المستقبل لتلك البلاد غير المؤمنة .

به الأسطورة نفسها من ميزة أصيلة ، فنحن نتقدم من الشباب الى الشيخوخة دون أن نشعر ودون أن نلاحظ التغير التدريجي المستمر في أحوال البشر وشؤونهم . وحتى في تجربتنا التاريخية الأكثر اتساعا درج خيالنا على ربط الثورات والتغيرات المتباعدة كل البعد عن بعضها بعضا بسلسلة متصلة من الأسباب والنتائج . غير أنه اذا كان ممكنا أن نتلاشى في لحظة واحدة الفترة التي تقع بين عصرين مشهورين ، واذا كان مستطاعا أن نعرض العالم الجديد أمام عيني مشاهد صحا من نومه بعد فترة سبات مؤقت قدرها مائتان من السنين ولايزال محتفظا في ذهنه بصورة حية حديثة للعالم القديم ، فإن دهشته وأفكاره يمكن أن تصبح موضوعا شائقا لقصة خيالية فلسفية . وكانت فترة القرنين من الزمان التي انصرمت بين عهد الامبراطور ديكْيوس وعهد ثيودوسيوس الأصغر هي أصلح حقبة لمثل هذا المشهد . ففي هذه الفترة انتقل مقر الحكم من روما الى مدينة جديدة على ضفاف البسفور في تراقيا ، ونشأ نظام من العبودية الطيعة القائمة على الرسميات والتسكليات وضع حدا لسوء استغلال الروح العسكرية . وتعاقب على العرش الذي كان يجلس عليه ديكْيوس الظالم المتعسف ملوك من المسيحيين أصحاب المنهج الصحيح أطاحوا بالآلهة الخرافية القديمة وأصبح المتعبدون من أهل ذلك العصر يتلهفون على تمجيد قديسي الكنيسة الكاثوليكية وشهادتها على مذابح ديانا وهرقول ، وانفصمت وحدة الامبراطورية الرومانية ، وضاعت هيبتها وعظمتها في الغراب ، وتدفقت جيوش من البرابرة المجهولين من المناطق الشمالية المتجمدة ، وفرغوا حكمهم الظافر على أجمل أقاليم أوروبا وأفريقيا .

نهایة الإمبراطورية في الغرب

الفصل الخامس والثلاثون (٤٥١ - ٤٥٣)

أتيليا يغزو بلاد الغال وإيطاليا • تأسيس البندقية • موت
أتيليا ودمار امبراطوريته • مقتل ايتيوس وموت فالنتينيان
الثالث • أعراض الاضمحلال في الامبراطورية الرومانية
الغربية •

تلاحقت غزوات القوط والشعوب الممالة لهم ، وازدادت سرعتها
من جراء الضغط الذي مارسه قبائل الهون على مؤخرتهم وفي الفصل ٣٤
يصف جيبون اول ظهور أتيليا واستقرار القوط في بلاد المجر الحديثة •
وبين سنتي ٤٣٠ - ٤٤٠ غزا أتيليا بلاد الفرس ، وفي سنة ٤٤٦ ، بعد
ان اجتاح أوروبا حتى مدينة القسطنطينية ، عقد معاهدة مع الامبراطورية
الشرقية ، ومات ثيودوسيوس الأصغر في سنة ٤٥٠ وارتقت بعده اخته
بلكيريا عرش الامبراطورية الشرقية ، وبذلك أصبحت اول امرأة تحكم
الرومان • وسرعان ما تزوجت عضو السناتو ، ماركيان ، الذي أصبح هو
نفسه امبراطورا •

وفي الوقت عينه تاهب أتيليا ، ملك الهون ، لغزو بلاد الغال • وهناك
كان ثيودوريك ابن الاريك ، قد أصبح ملكا للقوط الغربيين بعد موت واليا
Wallia • اما ايتيوس الذي سبق له ان تحالف مع الهون ، فقد حقق
الآن تحالفا بين الرومان والقوط • وفي سنة ٤٥١ غزا أتيليا الغال وحاصر
مدينة أورليان وخف ايتيوس وثيودوريك لانقاذها •

أتيللا يغزو بلاد الغال

يمكن أن تعزى السهولة التي توغل بها أتيللا في قلب بلاد الغال الى سياسته الماكرة ، والى الذعر الذي سببته جيوشه ، فقد بيع في التخفيف من تصريحاته العلنية بما يعطيه من تأكيدات و ضمانات خاصة ، وكان يهدى الرومان والقوط تارة ويهددهم تارة أخرى . ولما كان بلاط رافنا وبلاط تولوز يرتاب كل منهما في نوايا الآخر ، فقد كانا يرقبان اقتراب عدوهما المشترك في خمول ودون اكترات . وكان ايتيوس هو الحارس الوحيد لسلامة البلاد ، غير أن القصر الامبراطوري ابتلى منذ وفاة بلاكيديا بحزب عرقل أحكم الاجراءات التي اتخذها ، وكان شباب ايطاليا يرتعدون اذا سمعوا أبواق الحرب ، أما البرابرة الذين كانوا يميلون الى مناصرة أهداف أتيللا بدافع من الخوف أو الحب ، فقد انتظروا وقوع الحرب في ايمان مذهب مزعزع . وعبر النيبيل الروماني جبال الألب على رأس بعض الفرق التي لا تكاد قوتها وعددها تجعلها جديرة باسم جيش ولكن عند وصوله الى مدينة آرل أو ليون أزعجته الأخبار التي بلغته من أن القوط الغربيين رفضوا الدفاع عن بلاد الغال وقرروا لقاء الفاتح القوى ، الذي يصرحون بازدرائه ، في أراضيهم الخاصة . فأوفد اليهم عضو السناتو أفيتوس ، الذي كان اذا ذاك معتزلا في ضيعته بمدينة أوفرن بعد أن مارس في شرف مناصبا رفيعا كحاكم بريتوري . وقبل أفيتوس القيام بهذه المهمة الخطيرة ، واداعا بكفاية ونجاح . فصور لثيودوريك أن الفاتح الطموح الذي تطلع الى السيطرة على العالم لا يمكن أن يقاومه الا تحالف اجماعي قوى بين الدول التي يسمى الى اضطهادها وتضييق الخناق عليها . وقد ألهمت فصاحة أفيتوس المتقنة صغور محاربي القوط عندما وصف لهم الأضرار التي الحقها الهون بأجنادهم ، وذكرهم بأن ثورة الهون المحققة لا تزال تلاحقهم من الدانوب الى سفوح جبال البرانس . واستحثتهم بشدة قائلا انه من واجب كل مسيحي أن ينقل كنائس الله وعظام القديسين من أن تدنسها أقدام الهون ، وانه من مصلحة كل فرد من المتبريرين استوطن بلاد الغال أن ينود عن الحقوق ومزارع الكروم التي زرعا لنفسه ضد الخراب المنتظر على يد الرعاة السكوديين . وخضع ثيودوريك لدليل الحق . واتخذ على الفور أشرف الاجراءات وأكثرها حكمة وفطنة ، وأعلن أنه حليف أمين للرومان ولايتيوس ، وأنه على استعداد لبذل حياته ومملكته في سبيل سلامة بلاد الغال التي يشتركون فيها جميعا . وكان القوط الغربيون اذ ذاك في عنفوان قوتهم وذروة شهرتهم ، ولبنوا في نشاط وسرور دعوة القتال .

فأعدوا أسلحتهم وخيولهم ، وتجمعوا تحت لواء مليكهم العجوز الذى عقد العزم مع أكبر أولاده ، توريسموند وثيودوريك ، أن يتولى بنفسه قيادة شعبه الشجاع كبير العدد ، وحدد المثل الذى ضربه القوط موقف كثير من القبائل أو الأمم التى كان يبدو أنها تتأرجح بين الهون والرومان . واستطاع النبيل ايتيوس بمثابرته التى لا تكل أن يجمع بالتدرج قوات الغال والجرمان . وكانت تلك القوات من قبل تسلم بأنها رعايا الدولة أو جنودها ، ولكنها الآن تطالب بالمكافأة على التطوع بالخدمة ، وبوضع الحلفاء المستقلين . وهى قوات اللاتى ، والأموريكان ، والبريون ، والسكسون ، وقبائل برجانديا وسرماشيا أو الألاى ، وقبائل ريبواريا ، والفرنجة الذين يتبعون ميروفيوس كملكهم الشرعى . وكان ذلك هو الجيش الخليل الذى قاده ايتيوس وثيودوريك ، وتقسّم فى مسيرة سريعة لانقاذ مدينة أورليان ولخوض معركة ضد جحافل أتىلا .

وعند اقتراب الجيوش من مدينة أورليان رفع ملك الهون عنها الحصار فوراً ، وأصدر أمره بالتقهقر لكن يستدعى مقدمة قواته التى كانت قد اقتحمت المدينة وأخذت تعمل فيها نهبا وسلبا . وكانت شجاعة أتىلا تسترشد بالحكمة والرؤية ، ولما امتد بصره الى النتائج المميتة التى قد تترتب على هزيمة فى قلب بلاد الغال ، اجتاز نهر السين ، وانتظر العدو فى سهول شالون التى يناسب سطحها الدين المنبسط حركات فرسانه السكوديين . غير أن طلائع الرومان وحلفاءهم استغلت هذا التقهقر الصاخب المضطرب ، وواصلت الضغط على القوات التى وضعها أتىلا فى المؤخرة ، واشتبكت معها أحيانا . وفى ظلام الليل وتشمع الطرق كانت الفرق المصادية تتصادم عن غير قصد . كما حدث بين الفرنجة وقوات الجيبداى Gijidae حيث قتل خمسة عشر ألفا من البرابرة ، وكان ذلك كله مقدمة لعمل حاسم عام . وتحيط حقول قطالونيا بمدينة شالون وتمتد حسب تقدير جورناندس القريبى ، الى مسافة مائة وخمسين ميلا فى طولها ، ومائة ميل فى عرضها ، فتغطى كل أنحاء الاقليم المسمى باقليم شيبانيا . وكان هذا السهل الفسيح يتميز بعدم استواء الأرض فى بعض الجهات ، وكان هناك مرتفع من المرتفعات يتحكم فى معسكر أتىلا ، وومن ثم فقد أدرك القائدان أهميته وتنازعا السيطرة عليه . وتمكن القائد الشاب الشجاع توريسموند من احتلال قمته أولا ، واندفع القوط نحو الهون بثقلهم الذى لا يقاوم ، وجاهد الهون فى صعود السفح المضاد ، وكان احتلال هذا الموقع الملائم يثبت فى كل من الجيشين وقوادهما طمأنينا كبيرا الى النصر . ودفع القلق أتىلا الى استشارة كهنته وعرافيه . وقيل انهم بعد فحص أحشاء الذبائح وكشط عظامها ، أعلنوا فى لغة مبهمه أنه

سوف يهزم ، وأن خصمه الرئيسي سوف يلتقي حتفه ، وقيل أيضا ان أتيليا ، يقبوله هذا المصير المتكافئ ، عبر كارها عن تقديره لتفوق وكفاية ايتيوس . غير أن اليأس غير العادى الذى كان يبدو أنه سيطر على الهون دفع أتيليا الى استخدام الوسيلة المألوفة لدى القادة القدامى ، وهيلقاء خطاب عسكري يبعث العزيمة والقوة فى نفوس قواته . وكانت لغته لغة ملك طالما حارب وانتصر على رأس قواته . فحضهم على تذكر أمجادهم السابقة ، والخطر المهدق بهم ، وآمال المستقبل التى تنتظرهم . وقال لهم ان الحظ نفسه الذى فتح صحراوات سكوديا ومستنقعاتها أمام شجاعتهم المجردة من السلاح ، والذى ألقى كثيرا من الأمم المحاربة تحت أقدامهم ، هذا الحظ نفسه قد احتفظ لهم بأفراح ذلك الميدان المشهود ليتوج بها انتصاراتهم . وصور لهم فى دعاء أن حذر أعدائهم ، وتحالفهم الوطيد ، ومزية المراكز التى يحتلونها ، ما هى الا نتيجة الخوف دون الحكمة . واستطرد يقول ان القوط الغربيين هم وحدهم الذين يشكلون قوة جيش العدو وعصبه ، وأكد لهم أن الهون فى مقدورهم أن يقهروا الرومان المنحلين الذين يدل تلاصق قواتهم على ما يساورهم من مخاوف ، والذين تموزهم القدرة على تحمل أخطار ومتاعب معركة تدوم يوما واحدا . ثم حرص ملك الهون على أن يبعث فيهم عقيدة القضاء والقدر التى تقوى فضيلة الحرب والقتال ، وأكد لهم أن المحاربين الذين ترعاهم السماء وتحميمهم ، سوف يكونون فى مأمن ومناعة وسط سهام العدو ، غير أن الالهات الثلاث المعصومات من الخطأ واللاتى يتحكمن فى حياة البشر ومصائرهم سوف يصبن ضحاياهن وان استكانوا الى سلام شائن .

وأضاف أتيليا قائلا :

« ولسوف أرمى بنفسى الرمح الأول ، أما ذلك المنكود الذى يأبى أن يخذو حظو مليكه فسوف يكون مصيره الى الموت المحقق » ، واشتملت روح البرابرة بوجود قائدهم الجرى ، وبسماح صوته ، وبالمثل الذى ضربه لهم ، واستجاب أتيليا للهفتهم على القتال ، وتأهب على الفور لخوض المعركة واحتل بنفسه المركز الوسط من خط القتال على رأس رجائه البواسل المخلصين . وفوق المنطقة الواسعة التى تشغلها حقول قطالونيا ، وقفت القوات التابعة لامبراطوريته على امتداد الجناحين ، فكانت هناك قوات الروجيان والهيربولي والثورينجيان والفرنجة وبرجانديا ، وتولى أرداريك ملك الجيداي قيادة الجناح الأيمن ، أما الأشقاء الثلاثة الشجعان الذين كانوا يحكمون القوط الشرقيين فقد تولوا قيادة الجناح الأيسر لمجابهة أقربائهم قبائل القوط الغربيين . أما تنظيم الحلفاء فقد سار وفق مبدأ مختلف . فوضع سانجيبان Sangiban ملك الألاتى الخائن فى مركز

الوسط حيث يمكن مراقبة حركاته مراقبة دقيقة وحيث يمكن معاقبته على الفور اذا بدرت منه خيانة . وتولى ايتيونس قيادة الجناح الأيسر ، وتولى ثيودوريك قيادة الجناح الأيمن ، بينما ظل توريسموند مسيطرا على المرتفعات التي يبدو أنها كانت تمتد الى جناح الجيش السكودى ، وربما الى مؤخرته . وهكذا اجتمعت كل الأمم من نهر الفولجا الى المحيط الأطلنطي فوق سهل شالون . غير أن كثيرا من هذه الأمم كانت تمزقها الحزبية ، والهجرات ، والغزو ، وكان وجود جيوش وأعلام متشابهة يهدد بعضها بعضا ، من الأشياء التي تعطي صورة لحرب أهلية .

إن النظام والتكتيك الحربى الذى كان يتبعه اليونان والرومان هو جزء ممتع من عاداتهم القومية . والدراسة الواعية للعمليات الحربية التي قام بها زينوفون ، أو قيصر ، أو فردريك ، كما يصفها هؤلاء العباقرة أنفسهم ، وهم الذين وضعوا خططها ونفذوها ، هذه الدراسة قد ترقى بفن ابادة الجنس البشرى (إذا كان هذا الترقى أمرا مرغوبا فيه) . غير أن معركة شالون (١) لا تثير العجب فينا الا بجسامتها ما حدث فيها . فقد كان التهور الأعمى الذى اتسم به البرابرة هو الذى حددها ، كما أن قصتها إنما وردت على لسان كتاب متحيزين حجبته مهنتهم المدنية أو الدينية عن الإلمام بالشئون الحربية . ومع ذلك ، فإن كاسيودورس قد تحدث فى ألفة مع كثير من محاربى القوط الذين اشتركوا فى تلك المعركة المشهودة ، وقله أخبروه « أنها كانت صداما وحشيا ، عنيدا ، دمويا ، متعدد الأشكال ، لا نظير له فى العصور الحاضرة أو الماضية » . وقد بلغ عدد القتلى مائة ألف وستة وستين ألفا ، وفى رواية أخرى ثلاثمائة ألف . وهذه المبالغات التي لا تصدق تدل على أن الحسارة كانت جسيمة فعلا ، وأنها تكفى لتبرير الملاحظة التي أبدتها أحد المؤرخين أن أجيالا بأكملها يمكن أن تفنى وتزول فى غضون ساعة واحدة نتيجة لجنون بعض الملوك . وبعد أن تبادل العدوان مرارا اطلاق القذائف ، وأظهر رماة السهام من السكوديين مهارة تفوق مهارة أعدائهم ، التحم فرسان الجيشين ومشاتهم التحاما عنيفا فى قتال مريع متلاصق . وكان الهون يقاتلون تحت نظر مليكهم فاخرقوا مركز الحلفاء الضعيف المزعزع ، وفصلوا ما بين جناحيهم ، ثم استداروا الى اليسار بحركة سريعة ووجهوا كل قوتهم ضد القوط الغربيين . وبينما كان ثيودوريك يسلك طريقه على جواده وسط الصفوف

(١) اخلا جيبون وآخرون من بعده لم تسمية المكان الذى عزم فيه اثيلا باسم شالون . وقد استقر الرأى الآن على أن هذه المعركة حدثت فى سهل موريسكا .

لتقوية عزيمة قواته ، أصيبت أصابة قاتلة بينهم رماه به نبيل من القوط الشرقيين اسمه أنداجيس ، وسقط على الفور من فوق ظهر جواده . وفي هذا الارتباك والاختلال الشامل وقع الملك الجزيح تحت أقدام فرسانه وزهقت روحه تحت سكتابك الخيول . وكان هذا الموت الخطير تفسيراً للنبوة المبهمة التي تنبأ بها العرافون . وابتهج أتيلاً لوثوقه من النصر ، غير أن توريسموند الشجاع اندفع فاقلاً من فوق التلال ، وحقق بقية النبوة . ذلك أن القوط الغربيين ، الذين ارتبكت صفوفهم نتيجة لفرار قوات الألمان أو عجزها ، أعادوا بالتدريج تنسيق أنفسهم لخوض المعركة ، وهزموا الهون هزيمة حاسمة ، مما اضطر أتيلاً إلى التقهقر . وكان أتيلاً قد عرض شخصه في ظهور الجندي القادى ، غير أن قوات الوسط الباسلة اندفعت إلى الأمام أكثر من بقية الصفوف ، ولم يلق هجوماً إلا سندا ضامفاً ، كما أن الجناحين كانا بغير حماية ، ولم ينقذ غزاة الألمان والسكوديين من الهزيمة الساحقة إلا اقتراب الليل . وانسحبت هذه القوات إلى داخل دائرة العربات التي كانت توضع مفسكرهم وتأهبت الفصائل التي نزلت عن خيولها للدفاع عن أنفسهم دفاعاً لم تكن أسلحتها ولا طباعها مهيأة له . وأصبحت النتيجة موضع الشك ، غير أن أتيلاً لجأ إلى وسيلة أخيرة شريفة ، فأمر بجمع سروج الخيل ورياشها النينة في كومة جنازية ، وقرر المتبربر عزيز النفس ، إذا اخترق العدو متاريسه ، أن يحرق تلك الكومة ويلقى بنفسه في النهب ، وبذلك يحرم أعداءه من المجد الذي كان يمكن أن يحصلوا عليه بقتله أو أسرهِ .

غير أن أعداءه قضوا الليل في مثل ذلك الارتباك والقلق ، وأغرت توريسموند شجاعته المنهورة على المضى في المطاردة حتى وجد نفسه فجأة ، مع قلة من أصحابائه ، وسط عربات السكوديين . وحدث قتال ليس مضطرب وقع في أثناءه من فوق ظهر جواده ، وكان لابد أن يهلك الأمير القوطي كما هلك والده لولا أن قوة شبابه وجراة رفاقه وحاسهم أنقذته من ذلك المركز الخطير . وعلى النحو نفسه ، ولكن على خط القتال الأيسر ، كان ايتيوس معزولاً عن حلفائه ، ولا يعلم شيئاً عن انتصارهم ، ويساوره القلق على مصيرهم ، فتقابل مع القوات المعادية المنتشرة فوق سهول شالون ، ولكنه أفلت منها ، وبلغ أخيراً معسكر القوط الذي لم يستطع تحصينه إلا بحاجز ضعيف من المتاريس حتى مطلع النهار . وسرعان ما أيقن القائد الإمبراطوري بهزيمة أتيلاً ، الذي كان لا يزال عديم الحركة داخل استحكاماته . وعندما استعرض المشهد العموى ، لاحظ في سرور خفى أن البرابرة هم الذين لحقت بهم الخسارة الرئيسية . ثم اكتشفت جثة ثيودوريك ، وهي مثخنة بالجروح الكريمة ، تحت كومة من القتلى ،

فناح الرجال على موت ملكهم ووالدهم ، غير أن عبراتهم اختلطت بالأناشيد والتهليل ، وأدوا شعائر الدفن أمام عروشهم المقهور ، ووسط صليل الأسلحة رفعوا ابنه الأكبر توريسموند فوق توس من قروشهم ، ونسبوا إليه الفضل الذي يستحقه فيما نالوه من مجد الظفر والنجاح . وقيل الملك الجديد أن يلتزم بالانتقام لموت والده كجزء مقدس من الميراث الذي ورثه عنه . غير أن القوط أنفسهم أدهشهم ما كان يبدو على عروش القوي من شراسة وعتاد وقال مؤرخهم أن أتिला كان أشبه بأسد رابض في عرينه يهدد صياديه بهياج مضاعف . أما الأمم والملوك الذين كان يمكن أن يتخلوا عنه في ساعة المحنة ، فقد شعروا بأن غضب ملكهم هو أكثر الأخطار قربا وحتمية . وظلت كل آلات موسيقاه العسكرية تدوى بأنغام صاخبة حماسية يتمثل فيها العزم والتحدى ، وعندما تقدمت القوات الأمامية لمهاجمتها أطرقتها قواته من كل جانب من جوانب استحكاماتها بوابل من السهام أهلكتها أو أوقفتها . ولهذا تقرر في مجلس جرمن عام أن يحاصر ملك الهون في معسكره ، وأن تقطع عنه المؤن ، حتى يضطر إلى قبول معاهدة مذلة أو قتال غير متكافئ . غير أن تلف البرابرة سرعان ما ازدري هذه الإجراءات البطيئة الحريصة ، كما أن نضج سياسة إيتيوس جعلته يخشى أن تخضع الدولة لصلف الأمة القوطية وقوتها ، بعد القضاء على الهون . واستخفم النبيل الروماني سلطته العليا وفكره الثاقب في تهدئة انفجالات الغضب التي كان ثيودوريك يعتبرها واجبا ، وصور له في ود مفتعل وصدق حقيقى ما يترتب على غيابه وتأخره من أخطار ، وأغرى توريسموند على أن يحبط ، بمودته السريعة ، خطط أشقائه الطموحة التي قد تهدف إلى الاستيلاء على عرش تولوز وخزائنه . وبعد رحيل القوط وانفصال الجيش المتحالف أذهل أتिला ذلك السكون الكائن الذى ساد سهول شالون ، وساوره الشك فى أن العدو يعد له خطة عدوانية ، وترتب على ذلك أنه قبض عدة أيام داخل نطاق عرباته ، ثم تقهر إلى ما وراء الراين ، وكان ذلك اعترافا بأن الامبراطورية الغربية قد تحقق لها النصر الأخير . وسار ميروفيوس وقواته من الفرنجة ، فى أثر العدو مع حرصهم على التخلف عنه مسافة معقولة ، وإعطائه فكرة ضخمة عن قوتهم بما كانوا يشعلون من نيران كثيرة أثناء الليل ، وطلوا يتبعونه حتى وصلوا إلى حدود ثورينجيا . وكانت قوات ثورينجيا تعمل فى جيش أتिला ، وعبرت فى تقفعا وعدوتها أراضى الفرنجة ، وربما أنها فى هذه الحرب بالذات مارست أعمال القسوة التى انتقم لها ابن كلوفيس Clovis بعد انقضاء ثمانين سنة . فقد ذبح رجالها رهائنهم وأمرأهم ، وعذبوا مائتين من العذارى الصغيرات فى ثورة عارمة لا ترحم ولا تلين ، ومزقت أجسادهن الخيول الجامحة ، أو سحقتهن عظامهن تحت عجلات العربات

الثقيلة ، وتركت أطرافهن على انطركات العامة فريسة للكلاب والنسور .
هكذا كان أجدادنا الهمج المتوحشون الذين تثير فضائلهم الخيالية في
بعض الأحيان أطراء الأجيال المتحضرة وحسدها !! .

غزو إيطاليا

لم يترتب على فشل حملة أتيتلا على بلاد الغال اضعاف روحه أو قواته
أو سمعته . ففي الربيع التالي عاود طلب يد الأميرة أونوريا وما ورثته من
أموال ، وللمرة الثانية قوبل طلبه بالرفض أو المراوغة ، فما كان من ذلك
العاشق الساخط الا أن يبادر على الفور الى القتال ، فعبر جبال الألب ،
وغزا إيطاليا ، وحاصر أكويلا . بجيش ضخم من البرابرة . وكان هؤلاء
البرابرة يفتقرون الى المهارة في أساليب تنفيذ حصار منظم ، لأن الحصار ،
حتى بين القدامى ، كان يتطلب بعض الالمم بالفنون الميكانيكية ، أو على
الأقل بعض التمرين عليها . غير أن أتيتلا استطاع أن يستخدم في تنفيذ
أشق الأعمال وأخطرها آلافا كثيرة من الأسرى وسكان الأقاليم الذين كان
يضحى بأرواحهم دون شفقة أو رحمة ، ومن ثم فقد استغل مهارة الصانع
الرومان في تدمير بلادهم ، واستخدم في مهاجمة أسوار أكويلا عددا
كبيرا من معدات الهدم ، والأبراج المتحركة ، وآلات قذف الأحجار والسهم
والنار (١) ، ولجأ ملك الهون أيضا الى استخدام الدوافع القوية ، دوافع
الأمل والخوف والمنافسة والمصلحة ، لتحطيم الحاجز الوحيد الذي كان
يعترض سبيل غزو إيطاليا . وكانت مدينة أكويلا في ذلك الوقت من
أغنى المدن البحرية على شاطئ الأدرياتيک ، ومن أكثرها سكانا وأعظمها
قوة . وكانت فيها قوات مساعدة من القوط الذين يبدو أنهم عملوا من
قبل تحت قيادة ملكين من أبناء جلدتهم ، وهما الأريك وأنتالا ، وبعثت
هذه القوات في المدينة روحها الجريئة الباسلة ، وكان مواطنو المدينة
لا يزالون يذكرون المقاومة المجيدة الظافرة التي أبدتها أجدادهم في وجه
بربري وحشي عنيد الحق العسار بجلال العرش الروماني . وانقضى على
حصار أكويلا ثلاثة شهور دون أن يحقق هدفا ، حتى اضطر أتيتلا بعد
نضوب مؤنه وتذمر قواته الى التخلي عن مفاخرته ، فأصدر أوامره الى

(١) في القرن الثالث عشر هاجم المغول أسوار مدن الصين بآلات كبيرة من صنع
المسلمين والمسيحيين الذين كانوا في خدمتهم . وكانت تلك الآلات تقذف أحجارا نزن
ما بين ١٥٠ . ٣٠٠ رطل . واستخدم المسيحيون في الدفاع عن بلادهم البارود ، والقنابل
قبل أن تعرفها أوروبا بأكثر من مائة سنة . غير أنه حتى تلك الأسلحة السماوية أو
الجهنمية لم تكن لحماية أمة هيابة .

قواته كارها بأن تحل خيامها فى صباح اليوم التالى وتبدأ تقهرها . ولكنه بينما كان يسير حول الأسوار على ظهر جواده ، وقفه تملكه الغضب والياس وانهمك فى التفكير ، شاهد طيرا من طيور اللقلق يتأهب لمغادرة عشه فى أحد الأبراج وللطيران مع صغاره الى الريف . فأمسك ، فى نفاذ بصيرة الرجل السياسى ، بتلك الواقعة التافهة التى قدمتها الصدفة لرجل يؤمن بالخرافات ، وقال فى صوت مرتفع طروب ان مثل ذلك الطير الأليف لا يمكن أن يتخلى عن مستقره القديم الا اذا كانت تلك الأبراج صائرة فى وقت قريب الى الخراب والعزلة . وبعث فيه هذا الفأل الحسن ثقة بالنصر ، فعاود حصار المدينة بهمة جديدة ، واستطاع أن يفتح ثغرة كبيرة فى ذلك الجزء من السور الذى طار منه اللقلق . واندفع الهون الى الهجوم فى ثورة عارمة لا تقاوم ، وحطموا المدينة تحطيمًا جعل من المتعذر على الجبل التالى أن يكشف أطلال أكويليا وخرائبها . وبعد ذلك العقاب الرهيب مضى أتيلًا فى تقدمه ، مارا بمدائن التينوم وكونكورديا وبادوا ، وحولها جميعا الى كومات من الأحجار والرماد . وكذلك تعرضت المدن الداخلية ، فيشنزا ، وفيرونا وبرجامو لأعمال القسوة والنهب التى قام بها الهون . أما ميلان وبافيا ، فقد خضعتا دون مقاومة لخسارة ثروتهما ، وهملتا للشغقة غير العادية التى عاملهما بها العدو ، والتى أنقذت المباني العامة والخاصة فى المدينة من الحريق ، وأبقت على حياة جماهير الأسرى . ولسنا نشق كثيرا فيما تناقلته الألسن عما جرى لمدينة كوموم أو تروين أو مودينا ، غير أن تلك الشائعات تتفق مع أدلة أكثر دقة ، وتثبت جميعها أن أتيلًا اجتاح سهول لمبارديا الحديثة الغنية التى يشطرها نهر البو ، وتحدّها جبال الألب والأبنين . وعندما استولى على القصر الملكى فى ميلان استشعر الدهشة والاساءة عندما رأى صورة تمثل القياصرة جلوسا على عروشهم ، والملوك السكوديين منبطحين تحت أقدامهم . وقد صب أتيلًا على ذلك الأثر الذى يمثل الفرور الرومانى انتقاما بريئا بارعا . ذلك أنه أمر أحد الرسامين أن يعكس الأشكال والأوضاع . فرسم الأباطرة على جسم الصورة نفسها وهم يتقدمون فى وضع التوسل والتضرع لافراغ أكياس ذهب الجزية المفروضة عليهم أمام عرش العامل السكودى . ولابد أن من شاهدوا تلك الصورة قد اعترفوا بصدق ذلك التغير ومناسبته للواقع ، وبما أغرتهم أن يطبقوا عليها فى تلك المناسبة الفريدة القصة الخرافية المعروفة ، قصة النزاع بين الأسد والانسان .

تأسيس فينسيا (البندقية)

هناك قول مأثور يتناسب مع ما اتصف به أتيلًا من صلف وحش ، وهو أن الأرض التى وطئها جواده ، لم ينبت فيها بعد ذلك عشب . غير

أن المدمر الهمجى وضع دون أن يقصد ، أساس جمهورية أحيث فى عصر
الانقطاع الأوروبي فى الصناعة التجارية وروحها • وكان الاسم الشهير ،
فينيسيا يطلق فيما مضى ، على ولاية كبيرة خصبة من ولايات إيطاليا ،
تمتد من حدود بونونيا الى نهر أدوا ، ومن نهر البو الى جبال الألب
الريشيانية والجوليانية • وقبل غارات البرابرة ازدهرت خمسون مدينة
فينيسية ، وكان يسودها السلام والرخاء ، واحتلت أكويليا أبرز مكان
بينها ، غير أن المجد القديم الذى كان لمدينة بادوا كان قائما على الزراعة
والصناعة ، وامتلك خمسمائة مواطن فيها ، من طبقة الفرسان ، أملاكها
تبلغ قيمتها فى أدق التقديرات مليوناً وسبعمائة ألف من الجنيهات •
وكثير من أسرات أكويليا ، وبادوا ، والمدن المجاورة ، وهى الأسرات التى
فرت من سيوف الهون ، وجدت ملاذاً آمناً ، وإن كان مغشوراً ، فى الجزر
المجاورة (١) • وفى طرف الخليج ، حيث تلبو أمواج المد والجزر فى بحر
الأدرياتيک صورة ضعيفة للمد والجزر المحيطى ، ويوجد ما يقرب من
مائة جزيرة صغيرة تفصلها عن القارة مياه ضحلة ، وتحميها من الأمواج
عدة ألسنه من الأرض تسمح بدخول السفن فى بعض القنوات الضيقة غير
المعروفة • وحتى منتصف القرن الخامس ظلت هذه البقاع النائية المنعزلة
دون زراعة ، وقليلة السكان ، ويكاد لا يكون لها اسم • غير أن اللاتين
البنادقة كونوا لأنفسهم شيئاً فشيئاً عادات وفنوناً وحكومة بفضل وضعهم
الجديد • وقد وصف كاسيونوروس حالة هؤلاء القوم بعد ذلك بسبعين
سنة فى رسالة يمكن اعتبارها أول وثيقة عن الجمهورية ويشبههم وزير
نيودوريك فى هذه الرسالة ، وبأسلوبه الحساسى الطريف ، يطير الماء
الذى بنت أعشاشها على صدر الأمواج • ومع أنه يسلم بأن ولايات البندقية
كانت فيما مضى تشتمل على كثير من الأسر النبيلة ، إلا أنه يلمح الى أنهم
الآن قد انفحدوا بفعل المحن والكوارث الى مستزى الفاقة الوضيعة • وكان
السك هو الغذاء المشترك لكل طبقة ، ويكاد يكون غذاء عاماً : وكان الملح
الوفير الذى يستخرجونه من البحر هو مورد ثرائهم الوحيد ، اذ كانوا
يبادلون تلك السلعة الجوهرية للحياة البشرية بعملة الذهب والفضة •
ونظراً لأن ذلك التشعب كان يقطن الأرض أو الماء سواء بسواء ، فسرعان
ما ألف هذا العنصر وذاك ، وبدأ يستجيب لمطالب الجشع بعد أن كان
قائماً بأشباع مطالب الحاجة • وكان سكان الجزر هؤلاء ، من جزيرة

(١) الثابت الآن أن البندقية نشأت خلال الغزوات المتأخرة التى قام بها اللبارد •
ومع ذلك فإنه مما لا شك فيه أن بعض الناس هربوا من اثيلا ولجأوا الى إقليم المستنقعات
ومن ثم فإن وصف جييون يمكن أن يكون مقبولا ، بهذا التحفظ •

جرادو Grado الى جزيرة كيوزا ، على صلة وثيقة بعضهم ببعض ، ونوغلوا في قلب ايطاليا ، عن طريق الملاحة النهرية وفي القنوات الداخلية وهو طريق مأمون وان كان شاقا ، وازدادت سفنهم عددا وحجما ، وزارت كل موانئ الخليج ، وتكونت لديهم منذ عهدهم الاول عادة التزاوج بين البندقية والبحر ، وهي العادة التي تحتفل بها المدينة سنويا . أما رسالة كاسيودوروس ، الوالى البريتورى ، سابقة الذكر ، فهي موجهة الى المدافعين عن حقوق الشعب Tribunes في الاقاليم الساحلية يحضهم فيها بلهجة السلطة الرقيقة على تقوية حماس مواطنيهم للخدمة العامة التي كانت في حاجة الى معونتهم في نقل كميات التبيد والزيت من ولاية أستريا الى مدينة رافنا الملكية . وكان المنصب المبهم الذى يشغله هؤلاء الحكام منصبا جرت عليه التقاليد ، ففي الجزر الاثنتى عشرة الرئيسية كان التربيونات أو القضاة ، اثنا عشر ، ينتخبون سنويا انتخابا شعبيا . ووجود جمهورية البندقية تحت حكم مملكة القوط الايطالية انما يثبت نفسه السجل الصادق الذى يدحض ادعاءها المتشامخ من أنها كانت تحتل باستقلال أصيل دائم .

وبعد أربعين سنة من السلم فوجئ الايطاليون الذين انقضى عليهم زمن طويل تخلوا فيه عن ممارسة القتال ، باقتراب بربرى قوى مخيف كانوا يمتقنونه كعدو لدينهم ولجمهوريتهم . وفي وسط هذا الفزع الشامل كان ايتيوس وحده هو الذى لم يملكه الخوف ، غير أنه كان من المستحيل عليه أن يحقق بمفرده ودون مساعدة أية مآثر عسكرية جديدة بشهرته السابقة . فقد رفض البرابرة ، الذين سبق لهم الدفاع عن بلاد الفال ، أن يبادروا الى انقاذ ايطاليا ، كما أن النجذات التي وعد بها الامبراطور الشرقي كانت بميالة ومشكوكا فيها . وبما أن ايتيوس ، على رأس قواته الوطنية ، كان لا يزال صامدا في الميدان ، يناوش آتيلا ويؤخر تقدمه ، فإنه لم يظهر بمظهر العظمة الحقيقية في أي وقت مضى أكثر من هذا الوقت الذى كان مسلكه فيه موضع التأييد من شعب جاهل جاحد للجميل . ولو أن عقل فالنتينيان كان قابلا للتأثر بأية أساسيس كريمة ، لاختار مثل هذا القائد مثلا يحذو حذوه ومرشدا يسترشده به ، غير أن حفيد ثيودوسيوس الوجل الهباب ، بدلا من المشاركة في الأخطار ، فر من صوت الحرب ، وكشف انسحابه السريع من رافنا الى روما ، من حصن منيع الى عاصمة مكشوفة ، عن أنه قد بيت النية على مغادرة ايطاليا بمجرد اقتراب الخطر من شخصه الامبراطورى ، غير أن هذا الاعتزال الشساق توقف بفضل روح الشك والتوانى التي تلازم عادة الآراء المتسمة بالجبن والتردد ، بل وتصحح اتجاهاتها الضلالة في بعض الأحيان . واتخذ

امبراطور الغرب مع مجلس السناتو وشعب روما قرارا أكثر نفعا وأعظم جدوى ، وهو ارسال وفد رسمى يسترحم أتيليا ويهدى من غضبه . وقبل أفيتوس أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة . وكان هذا الرجل يحتل أرفع مكانة فى مجلس السناتو الرومانى بفضل عراقة منبته وثرائه ، ووقار منصبه القنصلى وقدراته الشخصية ، وكثرة عدد أتباعه . وكان أفيتوس حسن الطلعة واسع الحيلة ، ومن ثم فقد كان جديرا بالتفاوض على مصلحة عامة أو خاصة . ورافقه فى هذه المهمة زميله تريجيتيوس **Trigetius** الذى مارس أعمال الوالى الاول البريتورى لاطاليا ، وقبل ليو ، أسقف روما ، أن يعرض حساباته للخطر فى سبيل سلامة رعيته ، وقد ظهرت عبقرية هذا الأسقف فى أوقات المحن العامة ، واستحق أن يسمى باسم « العظيم » بفضل تلك الغيرة الناجحة التى جاهد بها فى اقرار آرائه وتوكيده سلطته باسم العقيدة الأرثوذكسية والنظام الكنسى . ومثل سفراء الرومان أمام أتيليا فى خيمته ، وكان اذ ذاك معسكرا فى المكان الذى يتصل فيه نهر متكيوس البطىء المتعرج بأمواج بحيرة بيناكوس المرغية المزبدة ، حيث داس فرسانه السكوديون مزارع كاتوللوس وفرجيل . واستمع العاهل المتبربر الى الوفد الرومانى بانتباه مشجع ، بل وفى شيء من الاحترام ، واستطاع الوفد أن يشتري انقاذ ايطاليا بغدية ضخمة هى أن يزوجه من الأميرة أونوريا . وسهلت حالة جيش أتيليا عقد المعاهدة والاسراع بالتقهقر . ذلك أن الثراء الذى حققه الجنود والكسل الذى يعنه فيهم مناخ ايطاليا الدفىء كانا سببا فى هبوط روحهم العسكرية . فرعاة الشمال ، الذى كان غذاؤهم العادى يتألف من اللبن واللحم النيء انغمسوا دون حدود فى شرب النبيذ وأكل الغيز واللحوم المطهوه المتبلة ، فسرت بينهم الأمراض وانتقلت الى حد ما للأضرار التى ألحقوها بالاطاليين . وعندما أعلن أتيليا عن عزمه على توجيه جيوشه الظافرة الى أبواب روما ، حذره أصدقاؤه وأعداؤه سواء بسواء من مغبة هذا العمل قائلين ان الاريك من قبله لم يصر طويلا بعد غزوه للمدينة الخالصة . ورغم أن عقله كان فوق مستوى الأخطار الحقيقية ولا يأبسه لها ، إلا أن المخاوف الخيالية هاجمته ، ولم يستطع التخلص من تأثير الخرافات التى كثيرا ما كانت فى خدمة خطئه وأعماله . وكان لفصاحة الأسقف المؤثرة ، وطلعته المهيبة ، وأرديته الكهنوتية ، أثرها فى بعث الاحترام والاجلال فى نفس أتيليا نحو الأب الروحى للمسيحيين . ومن الاساطير الدينية النبيلة التى تناقلتها الألسن أن شبلى القديس بطرس والقديس بولس ظهرا للقائد البربرى وهدداه بالموت السريع اذا رفض رجاء خليفتهما أسقف روما . ولا شك فى أن سلامة روما تستحق توسط المخلوقات السماوية ، ولابد لنا من بعض

التجاوز عن هذه الأسطورة التي صورها رفايل بريشته ونحتها الجاردي بأزميله .

موت أتिला ودمار امبراطوريته

وقبل أن يجلو ملك الهون عن إيطاليا هدد بأن يعود إليها بصورة أشد هولاً وقسوة إذا لم تسلم الأميرة أونوريا إلى سفرائه في حدود الفترة المتفق عليها في المعاهدة . وخفف أتिला من قلقه العاطفي بأن أضاف إلى قائمة زوجاته فتاة جميلة اسمها الديكو ، واحتفل بزواجهما وسط مظاهر العظمة والأفراح البربرية في قصره الخشبي فيما وراء الدانوب . وتغلب الخمر والنوم على الملك فانسحب من الوليمة في وقت متأخر إلى فراش الزوجية . وظل أتباعه يحترمون ملذاته ، أو راحته ، طوال الجزء الأكبر من اليوم التالي ، حتى أثار الضمت غير العادي مخاوفهم وشكوكهم . وبعده أن حاولوا دون جدوى إيقاف أتिला بالصيحات العالية المتكررة ، اقتحموا المخدع الملكي ، هناك وجنوا الميوسس الواجفة جالسة إلى جوار الفراش ، وقد أخفت وجهها بنقابها ، وهي ترى للخطر المحيق بها وتندب موت الملك الذي وافته المنية خلال الليل . ذلك أن أحد شرايينه قد انفجر فجأة ، وبما أنه كان مستلقيا على ظهره ، فقد اختنق بفعل نزيف الدم الذي لم يستطع النفاذ من خياشيمه واندفع إلى رثتيه ومعدته . وقد عرض جثمانه بصورة مهيبة وسط السهل تحت مظلة حريرية ، وأخذت الكتائب المختارة من الهون تدور حوله دورات منتظمة وهي تنشد نشيدا جنائزيا لذكرى البطل ، الذي كان عظيما في حياته منيعا في موته ، والدا لشعبه . نعمة على أعدائه ، ومصدر فزع للعالم كله . وتمشي البرابرة مع عاداتهم الوطنية فقطعوا أجزاء من شعورهم وجرحوا وجوههم بجراح قبيحة المنظر ، وانتحبوا على زعيمهم الشجاع نحيبا يستحقه ، لا بدموع النساء ، بل بدماء المحاربين . ووضعت رفات أتिला داخل ثلاثة توابيت ، من الذهب ، ومن الفضة ، ومن الحديد ، ثم دفنت أثناء الليل سرا ، وألقيت في قبره أسلاب الشعوب التي قهرها . أما الأسرى الذين حفروا أرض القبر فقلعة ذبحوا بصورة وحشية ، وبدأ رجال الهون أنفسهم ، الذين غرقوا في مثل ذلك الحزن الشديد ، يأكلون ويشربون ويستمتعون بصورة منحلة مسفة حول قبر مليكهم الذي مات لتوه . وقيل في القسطنطينية أنه في الليلة السعيدة التي مات فيها أتिला . شاهد الامبراطور مارشيان في حلمه قوس أتिला محطبا ، وقد تدل هذه الرواية على أن خيال ذلك البربري الرهيب قلما كان يفارق عقل امبراطور الرومان .

وأكدت الثورة انتمى قوضت امبراطورية الهون بعد موت أتيليا شهرة ذلك الرجل ، لأن عبقريته وحدها هي التي كانت دعامة ذلك الكيان المفكك الضخم . وبعد موته تطلع أجراً زعماء القبائل الى منصب الملوك ، وأبى أقوى الملوك أن يعترفوا بشخص يفوقهم مركزاً ، أما الأبناء الكثيرون الذين أنجبهم الملك الراحل من مختلف الأمهات ، فقد انقسموا على أنفسهم وتنازعوا السيادة والسيطرة على شعوب ألمانيا وسكوديا كما لو كانوا يتنازعون ارثاً خاصاً . وأحس أردادريك الشجاع بعار ذلك الانقسام المزرى ، وتجلت له صورته ، ومن ثم فإن رعاية من قبائل الجيبدي المجاورة ، والقوط الشرقيين ، تحت قيادة ثلاثة أشقاء شجعان ، استحثوا خلفاءهم على تأييد حقوق الحرية والملكية . وحدث صدام دموي حاسم على ضفاف نهر نيتاد Netad في إقليم بانونيا ، تقابلت فيه ، أو تكاثفت ، رماح الجيبدي ، وسيوف القوط ، وسهام الهون ، ومشاة قبائل السوفي ، والأسلحة الخفيفة التي استخدمتها قبائل الهريولي ، والأسلحة الثقيلة التي جاءت بها قبائل الألاني . واقترب انتصار أردادريك بمقتل ثلاثين ألفاً من أعدائه . وفقد الاك Ellac ، أكبر أبناء أتيليا ، حياته وتاجه في معركة نيتاد المشهودة ، وكانت شجاعته البارعة قد رفعتة الى عرش قبيلة أكتيزير Actazires ، وهي شعب سكودى كان قد أخضعه ، ولا شك في أن والده ، الذي أحب ما اتصف به ابنه من صفات سامية ، كان يغبطه على موته ، لو أنه كان حياً . أما أخوه دنجيزيش Dengizich ، مع جيش من الهون كان لا يزال قوياً في القتال والتدمير ، فقد احتفظ بمواقعه أكثر من خمسة عشر عاماً على ضفاف الدانوب . أما قصر أتيليا وبلاد داكيا القديمة ، من جبال الكربات الى البحر الأسود ، فقد أصبحت مركز دولة جديدة أقامها أردادريك ، ملك الجيبدي . واحتل القوط الشرقيون بلاد بانونيا المقهورة من فينا الى سرميوم ، ووزعت الأرض في غير نظام على القبائل التي حافظت على حريتها الوطنية بمثل تلك الشجاعة ، حسب قوة كل منها . أما مملكة دنجيزيش فقد أحاط بها وضيق عليها عدد كبير من عبيد والده ، ولهذا انحصرت في دائرة عرباته ، ودفعته شجاعته اليائسة الى غزو الامبراطورية الشرقية ، ولكنه قتل في المعركة وعرضت رأسه بصورة شائنة في حلبة السباق ، فكانت مشهداً مرضياً لشعب القسطنطينية . وكان أتيليا يمتدح عن رغبة أو عن إيمان بالخرافات ، أن ارناك ، أصغر أولاده ، هو الذي قدر له أن يديم أمجاد بنى جنسه . وكانت أخلاق ذلك الأمير ، الذي حاول التخفيف من تهوؤ أخيه دنجيزيش ، أكثر ملائمة لحالة التدهور التي بلغها الهون ، ولهذا انسحب ارناك مع القبائل التابعة له ، الى قلب إقليم سكوديا الصغرى . وسرعان ما طغى

عليهم هناك سبيل من البرابرة الجدد الذين سلبوا نفس الطريق الذي اكتشفه أجدادهم من قبل . هؤلاء هم قبائل الجيوجين ، أو الآفار ، التي تقطن شواطئ المحيط ، حسبما يقول كتاب الاغريق ، والتي تغلبت على القبائل المجاورة . وأخيرا جاءت قبائل الايجور الشمالية من أقاليم سيبيريا الباردة التي تنتج أجود أنواع الفراء وانتشرت فوق أرجاء الصحراء حتى مداخل بوريسثنيز وقزوين ، وقضت في نهاية الأمر على امبراطورية الهون .

قتل ايتيوس وموت فالتينيان الثالث

كان يمكن لمثل هذا الحدث أن يسهم في سلامة الامبراطورية الشرقية تحت حكم ملك استطاع اكتساب صداقة البرابرة دون أن يفقد تقديرهم . غير أن الامبراطور فالتينيان امبراطور الغرب الضعيف المنحل ، الذي بلغ الخامسة والثلاثين دون أن يصل الى سن التعقل أو الشجاعة ، أساء استغلال هذا الأمان الواضح ، وقوض أسس عرشه بقتل النبيل ايتيوس . وكان الامبراطور ، بدافع غريزي من الحقد والحقد ، يكره ذلك الرجل الذي اشتهر بين الجميع كمصدر فزع للبرابرة وسند للدولة ، كما أن الخصي المقرب له ، هرغليوس ، أيقظ الامبراطور من حالة الخمول والعجز التي كان يمكن اخفاؤها عندما كانت أمه بلاكيديا على قيد الحياة (١) ، والتي كان يبررها بمرعاة التزامه البنوي نحوها . ولم يكن ايتيوس مجرد فرد من الرعية ، بل ارتفع الى مرتبة أسمى من ذلك ، بفضل شهرته ، وثرائه ومكانته ، وبفضل ذلك العدد الكبير من أتباعه البرابرة العسكريين ، ومواليه الأقوياء الذين شغلوا المناصب المدنية في الدولة ، وبفضل آمال ابنه جودنتيوس الذي كان مخطوبا ليودوكسيا ، ابنة الامبراطور . وتأثرت خطته الطموحة ، التي اتهم بها سرا ، مخاوف الامبراطور وسخطه . ويبدو أن ايتيوس نفسه كان يسلك سلوك التعالى والرعونة لشعوره بقدره ، وبخدماته ، وربما لشعوره بأنه برى- مما يقال عنه ، وقد أساء النبيل الى مليكه بتصريح عدائي ، ضخم الاساءة بأن أجبر

(١) ماتت بلاكيديا في روما في ٢٧ نوفمبر سنة ٤٥٠م . ودفنت في مدينة رافنا حيث ظل ضريحا قائما عصورا طويلة . وفي داخله جثمانها جالسا على مقعد من خشب السرو وقد كانت بلاكيديا موضع الكثير من إطراء رجال الدين أصحاب المذهب الصحيح . وقد أكد لها القديس بطرس كريسولوجوس أن غيرتها على عقيدة التثليث قد كوفئت عليها بثلاثة أطفال عظام .

الامبراطور على اقرار معاهدة توفيق وتحالف بقسم رسمي . وكذلك كان يصرح بشكوكه ويهمل في الحفاظ على سلامته ، ودفعته ثقته الباطلة في أن العدو الذي يحتقره لا يستطيع حتى أن يرتكب جرما متسما بالرجولة ، الى المغامرة بدخول القصر الامبراطوري في روما ، وكان ذلك تهورا من جانبه . وبينما كان يتعجل زواج ابنه في حماس مشوب بشيء من التطرف ، استل الامبراطور سيفه - وكان أول سيف يستله في حياته - وطعن به صدر القائد الذي أنقذ امبراطوريته : وتدافع خصيانه ورجال حاشيته في طموح لتقليد مولاهم ، وخر ايتيوس على الأرض صريعا أمام الملك ، وهو مشخن بمئات الجروح . وفي اللحظة عينها قتل بوثيوس Boethius ، الوالي البريتوري ، وقبل أن يعرف شيء عما حدث استمعى أهم أصدقاء النبيل الى القصر ، وقتل كل واحد منهم على حدة . أما ذلك العمل الرهيب القطيع فقد خففوا من وقعه بقولهم انه كان أمرا تحتمه العدالة والضرورة ، وأبلغه الامبراطور على الفور الى جنوده ، ورعيته ، وحلفائه . وأسفت الجماعات التي كانت عدوة لايثيوس ، أو لا تعرفه أسفا شديدا لذلك المصير غير اللائق ببطل . أما البرابرة الذين كانوا في خدمته ، فقد اصطنعوا اخفاء حزنهم وسخطهم ، وانقلب الاحتقاد العام الذي كانوا يشعرون به نحو فالنتينيان الى كراهية شاملة . غير أن مثل هذه الأحاسيس قلما تنفذ من أسوار القصر وتصل الى أسماع الملوك . ورغم ذلك فقد ارتبك الامبراطور عندما سأل أحد الرومان عن رأيه فيما حدث دون أن يتورع عن استجداء استحسانه له ، فأجاب في صدق واخلاص قائلا :

« انى أجهل يا مولاى ما كان لديك من دوافع واثارات ، غير انى أعرف شيئا واحدا ، وهو أنك تصرفت كرجل يقطع يده اليمنى بيده اليسرى » .

ويبدو أن الترف الذي كان سائدا في روما جذب الامبراطور اليها وجعله يكرر زيارته لها ويطيل المكث فيها ، وترتب على ذلك أنه أصبح موضع الاحتقار هناك أكثر من أى جزء آخر من بلاده . وثمة روح جمهورية بدأت تسرى في السناقو دون أن يحس بها أحد ، لأن حكومته الضعيفة أصبحت فى حاجة الى سنه من سلطة المجلس ، بل ومن موافقه . وأساء الى كبرياء المجلس مسلك الجلالة الذى كان يسلكه ملك وراثى ، كما أن ملذات فالنتينيان كانت مصدر قلق للأمراء النبيلة ، ونسبوا الى شرفها وسمعتها . ولم يكن منبث الامبراطورة يودوكسيا بأقل من منبث زوجها الامبراطور ، كما أن جمالها وحبها المطوف كانا يستحقان منه أن يبادلها حبا بحب ، غير أن ذلك الزوج المتقلب أطاح بهذا الحب فى غرامياته

الخفية غير الشرعية . وحدث أن بترونيوس مكسيموس ، وهو عضو غني
 من أعضاء السناتو من أسرة أنيكويس ، وشغل منصب القنصل مرتين ،
 كان له زوجة جميلة طاهرة . وقاومت هذه الزوجة غرام الامبراطور مقاومة
 عنيفة لم يكن لها من أثر سوى إثارة رغباته وشهواته ، فصمم على تحقيق
 تلك الرغبات بالحيلة أو القوة . وكان لعب القمار من رذائل البلاط .
 وحدث أن الامبراطور كسب من مكسيموس مبلغا كبيرا من المال ، اما بالحظ
 أو الحيلة ، فأخذ منه خاتمه بصورة غير لائقة ضمانا للدين . ثم أرسله
 مع رسول أمين الى زوجته ، ومعه أمر باسم زوجها أن تبادر على الفور الى
 مقابلة الامبراطورة يودوكسيا . ولم ترتب زوجة مكسيموس في الأمر .
 ونقلت في محبتها الى القصر الامبراطوري ، وقادها رسل العاشق المتلطف
 الى مخدع بعيد منفرد ، وهناك حطم الامبراطور قواعد الضيافة دون شفقه
 أو رحمة . وعندما غادت الى المنزل انهمرت دموعها ، وقصت على زوجها
 بلواها ، وأخذت تؤنبه تأنيبا مرا . اذ اعتبرته شريكا في ذلك العار الذي
 لحق بها . كل أولئك أثار في مكسيموس رغبة الانتقام العادل ، وضاعف
 تلك الرغبة ما كان يجول في نفسه من طمع في العرش . وكان من المعقول
 أن يتطلع الى ذلك المنصب الذي يشغله منافس مكروه محقر ، وذلك عن
 طريق انتخاب حر يجريه السناتو الروماني . واعتقد الامبراطور أن كل
 صدر بشري ، هو كصدره ، خلو من الصداقة وعرفان الجميل ، فقبل
 ضمن حراسه دون تبصر أو روية عددا من خدام ايتيوس وأتباعه ، وأمكن
 اغراء اثنين من هؤلاء ، وهما من الجنس البربري ، على تنفيذ واجب مقدس
 شريف هو قتل قاتل مولاهم ، وسرعان ما حانت فرصة مواتية أظهر فيها
 ما اتصفا به من شجاعة وجراة . فبينما كان الامبراطور يستمتع في
 ساحة « مارس » ببعض مشاهد الألعاب العسكرية ، هجما عليه بسيوفهما
 المسلولة ، وقتلا هرقليوس المذنب ، وطمعا الامبراطور في قلبه ، دون أقل
 مقاومة من حاشيته الكبيرة التي يبدو أنها فرحت لموت الطاغية . هكذا كان
 مصير فالنتينيان الثالث ، آخر امبراطور روماني من أسرة ثيودوسيوس .
 ولقد قلده هذا الامبراطور في صدق وأمانة ذلك الضعف الوراثي الذي
 اتسم به ابن عمه وعماه ، دون أن يرث صفات الرقة والنقاء والبراة التي
 تخفف من افتقار شخصياتهم الى الجراة والكفاية . ولم يكن مستطاعا أن
 يلتمس له العذر مثلما يلتمس لهم ، فقد كان كثير الأهواء خلوا من
 الفضائل ، بل ان ديانتته كانت موضع الشك ، ومع أنه لم ينحرف مطلقا
 الى سبيل الهرطقة ، الا أنه جلب الفضيحة والعار الى أتقياء المسيحيين
 بتعلقه بفنون السحر والكهانة الدنسة .

اعراض الاضمحلال في الامبراطورية الرومانية الغربية

كان من رأى عرافى الرومان منذ وقت بعيد يعود الى أيام شيشرون وفارو أن النسور الاثنى عشر التى رآها روميولوس انما تمثل القرون الاثنى عشر التى قدر لمدينته أن تنهار بعدها . وهذه النبوءة ، التى لم يأبه لها الناس فى عصر الازدهار والرخاء ، بعثت فيهم المخاوف الكثيرة عندما أوشك آخر هذه القرون أن ينصرم وسط مظاهر العار والشقاء . ولا بد للأجيال التالية من أن تعترف فى شىء من الدهشة أن التفسير الجائر لحدث عابر أو خرافى قد تحقق بصورة خطيرة، وذلك بانهيار الامبراطورية الغربية . غير أن انهيارها هذا كانت نبىء به نذر أكثر وضوحا من سرب النسور . ذلك أن الحكومة الرومانية كانت تبدو فى كل يوم أقل بأسا فى نظر أعدائها ، وأكثر طلبا وبعا للكراهية فى نظر رعاياها . فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم المحنة العامة ، وكلما زادت الضرورة الى الاقتصاد زاد الاسراف ، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم وألقوه على كواهل الناس ، بل وتحاولوا على حرمانهم من المتع البريئة التى قد تخفف من شقاوتهم فى بعض الأحيان . وعمدت الحكومة الى التحقيق والتفتيش ، ثم الى مصادرة بضائعهم وتعذيب أشخاصهم . كل أولئك أرغم رعايا فالنتينيان على تفضيل طغيان البرابرة الأكثر بساطة ، أو على الفرار الى الغابات والجبال، أو الى قبول وضع الخدم المرتزقة ، على خسته وحقارته . ووصل بهم الأمر الى جحود اسم « مواطن روماني » وكراهيته ، بعد أن كان فيما مضى محط أطماع العالم أجمع . وأصبحت ولايات أرموريكا فى بلاد الغال والجزء الأكبر من أسبانيا فى وضع مستقل مرتبطك نتيجة تحالف شعوب الباجودى Bagaudae ، أما وزراء الامبراطور فلم يكن فى وسعهم الا ملاحقة الثوار ، الذين خلقوهم ، باصدار قوانين الحرمان وارسال قوات عديدة الفعلية ، ولو أن جميع الغزاة البرابرة هلكوا فى ساعة واحدة ، فإن هلاكهم الكامل هذا ما كان فى مقدوره أن يعيد الى الامبراطورية الغربية كيانها . واذا كانت روما قد ظلت قائمة ، الا أنها ظلت قائمة على أنقاض الحرية والفضيلة والشرف .

الفصل السادس والثلاثون (٤٥٧ - ٤٩٠)

الامبراطور ماجوريان • « اواكر » ملك ايطاليا

رغم أن إقامة الهون في ايطاليا كانت مؤقتة ، إلا أن تلك المنظمة (الامبراطورية) الغربية قد أصبحت الآن مقلقة مزعجة تستعصي على الإصلاح • وفي غضون ثلاثة أشهر من موت فالنتينيان (٤٥٥) كان جنسريك (جيسريك) قد وصل بأسطوله إلى مصب نهر التيبر واجتاح روما • وشاهدت العشرون سنة التالية انهيار الغرب النهائي تحت حكم سلسلة من الأباطرة لم يكونوا أباطرة إلا بالاسم فقط • والتقطت الامبراطورية أنفاسها فترة من الوقت في العهد القصير الذي حكم فيه الامبراطور ماجوريان (٤٥٧ - ٤٦١) •

الامبراطور ماجوريان

يعتبر خليفة أفيتوس Avitus بمثابة اكتشاف سعيد لشخصية عظيمة بطولية تظهر ، كما يحدث أحيانا ، في عصر منحل لتدعيم شرف الجنس البشري • ولقد كان الامبراطور ماجوريان جديرا بأطراء معاصريه والأجيال التالية ، وهو أطراء عبر عنه تعبيرا قويا أحد المؤرخين المنقسمين بالفطنة والانصاف حيث قال : « انه كان رقيقا نحو رعيته ، مخيفا لأعدائه ، وقد فاق في كل الفضائل جميع أجداده الذين حكموا الرومان » • مثل هذه الشهادة تبرر على أقل تقدير ذلك الأطراء الذي كاله له الخطيب سكيذونيوس Sidonius ، ولنا أن نقبل ما قيل في هذا الشأن من أن هذا الخطيب الدليل ، رغم أنه كان لا يتردد في تملق أئمة الملوك بالحساس نفسه ، إلا أن ما كان يتحلى به الامبراطور من فضائل غير عادية ، جعله يحصر مديحه في تلك المناسبة داخل حدود الصدق • ولقد حصل ماجوريان على اسمه هذا من جده لأمه الذي كان في عهد ثيودوسيوس العظيم ، يتولى

قيادة قوات الحدود الليرية . وزوج ابنته الى والد ماجوريان الذي كان موظفا محترما يشرف على دخل بلاد الفال بمهارة ونزاهة ، ويفضل في شهامة صداقة ايتيوس على العروض المغرية التي عرضها عليه بلاط ملكي غادر مخادع . أما ابنه ، وهو الامبراطور المقبل ، فقد تعلم الجندية ، وأظهر منذ أن كان شابا صغيرا ، شجاعة فائقة ، وحكمة سابقة لأوانها ، وسخاء غير محدود رغم ثروته الضخيمة . وقد انضم تحت لواء ايتيوس ، وأسهم في نجاحه وشاركه مجده ، وفي بعض الأحيان كان يفوقه مجدا . وأخيرا أثار غيرة النبيل ، أو قل غيرة زوجته ، التي أرغمت على اعتزال الخدمة . وبعد موت ايتيوس ، أعيد ماجوريان الى الخدمة ، ومنع من صبا أعلى ، وكانت صلته الوثيقة بالكونت ركيمر Count Recimer هي الخطوة المباشرة التي مكنته من ارتقاء عرش الامبراطورية الغربية . ذلك أن أفيتوس تنازل عن العرش ، وأصبح المنصب شاغرا ، وحال أصل البربري الطموح ، ركيمر ، بينه وبين المنصب الامبراطوري ، ولكنه حكم ايطاليا تحت لقب « النبيل » ، وترك لصديقه المنصب البارز الهام ، منصب القائد الأعلى للفرسان والمشاة . وبعد انقضاء بضعة شهور ، وافق على الرغبة الاجتماعية التي أبدتها الرومان الذين اكتسب ماجوريان حظوة لديهم بانتصار حديث على قبائل الألمان ، وتقلد المنصب الامبراطوري في مدينة رافنا . وتشتمل الرسالة التي بعث بها السناتو على أحسن وصف لمركزه وأحاسيسه . قال ماجوريان :

« أيها الشيوخ ! لقد أصبحت امبراطورا باختياركم وبمشيئة الجيش الباسل . واني لأدعو الله العطوف أن يكون رائدي ، وأن يكمل بالنجاح والتوفيق آرائى وأعمالى في حكم البلاد ، حتى تعود بالنفع عليكم وعلى الصالح العام . ومن ناحيتى ، فانى لم أطلع الى الحكم ، بل خضعت له . ولو أنى رفضت تحمل عبء الأعمال التي فرضتها الدولة على شخصى بدافع من الجعود الأنانى الحقير ، لما وفيت بما على من التزامات المواطن ، ومن ثم فانى أسألكم أن تقدموا العون الى الحاكم الذى صنعتم ، وتشاركوا في الواجبات التى ألقيتم عليه ، وانا ألتجئ أن تحقق جهودنا المشتركة سعادة الامبراطورية التى قبلتها من أيديكم ، وتقوا بأن العدالة فى عهدنا سوف تسترد قوتها القديمة ، وبأن الفضيلة سوف لا تعتبر صفة بريئة فحسب ، بل سوف يكون لها جزاؤها . ويجب ألا يخشى الدسائس الا أصحابها ومخترقوها ، فلقد كنت كفرى من أفراد الرعية أدينها دائما ، أما الآن ، وقد أصبحت حاكما ، فانى سوف أعاقب عليها أشد العقاب . ولسوف نحرس ، بمؤازرة والدنا ، النبيل ركيمر ، على تنظيم كل الشؤون الحربية ، ونصل على سلامة الصالح الرومانى الذى

أنقذناه من أعدائه في خارج البلاد ودخلها . انكم الآن تعرفون مبادئ حكمي ، ولكم أن تثقوا في المحبة الخالصة ، والتأكيدات الصادقة التي يعبر عنها ملك كان فيما مضى رفيق حياتكم ، وشريكا في الأخطار التي تعرضتم لها ، ولا يزال يفخر باسم السناتور ، وبهذه ألا تندموا مطلقا على ذلك الحكم الذي أصدرتموه في صالحه . » وفي وسط أنقاض العالم الروماني ، أحيا ذلك الامبراطور لغة القانون والحرية القديمة ، التي ما كان الامبراطور تراجان لينبذها ، ولا بد أنه استمد هذه الأحاسيس الكريمة من قلبه هو ، لأن عادات عصره أو سيرة أجداده لم تكن من النوع الذي يوحى بمثل هذه الأحاسيس .

أما الأعمال الخاصة والعامة التي قام بها ماجوريان ، فإن ما نعرفه الإصلاح ممكننا وعمليا) . وكانت القواعد التي وضعها فيما يختص بمالية التفكير والتعبير ، فإنها تصور في صدق شخصية عاهل أحب شعبه وعطف على محنته ، ودرس أسباب تدهور الامبراطورية ، واستطاع تطبيق العلاج الحكيم الناجع على ما كان هناك من ارتباك عام (الى الحد الذي كان فيه الإصلاح ممكنا وعمليا) . وكانت القواعد التي وضعها فيما يختص بمالية البلاد تنبج في وضوح الى القضاء على أشد المنقصات وطأة ، أو التخفيف منها على الأقل .

١ - فبئذ الساعة الأولى من حكمه كان حريصا (واني هنا أترجم كلماته نفسها) على إنقاذ ثروات الولايات من الضرائب والضرائب الإضافية المتراكمة التي أثقلت كاهلها . وتحقيقا لهذا الهدف منحها عفوا شاملا ، تجاوز بمقتضاه تجاوزا نهائيا مطلقا عن كل متأخرات الجزية وكل الديون التي قد يطلبها الموظفون الماليون من الناس ، في أية صورة من الصور . وهذا التجاوز الحكيم عن الحقوق العقيمة المتعبة التي لا فائدة منها حسنت مصادر الدخل العام ونقته من الشوائب . كما أن الفرد من الرعية أصبح في مقدوره الآن أن ينتظر الى الماضي دون يأس ويعمل من أجل نفسه ومن أجل بلاده في أمل وامتنان .

٢ - وفي تقدير الضرائب وجمعها أعاد ماجوريان السلطة الشرعية العادية التي كانت لحكام الولايات ، وأبطل اللجان فوق العادية التي كانت تعمل باسم الامبراطور نفسه أو باسم الولاة البيروين ، وذلك لأن الموظفين المقربين الذين حصلوا على مثل تلك الصلاحيات الشاذة كانوا يتسمون بالحق في مسلكهم وبالتعسف في طلباتهم ، وكانوا يظهرون احتقارهم للمحاكم الصغيرة . ويبدون سخطهم وتذمرهم اذا لم تزد أجورهم وأرباحهم عن ضعف المبلغ الذي يتنازلون بدفعه الى الخزنة . وثمة مثل واحد لا يترازمه يجاوز حد التصديق لو لم يؤكد المشرع نفسه،

ذلك أنهم كانوا يحتمون أن يكون الدفع كله بالذهب ، ولكنهم كانوا يرفضون عملة الامبراطورية المتداولة ، ولا يقبلون الا العملات القديمة المضروبة باسم فوستينا Faustina أو الأنطونيين The Antonines ومن لم يمتلك مثل هذه العملات العجيبة كان يلجأ الى مساومتهم والرضوخ لطلباتهم الجشعة ، أو أنه اذا نجح في البحث عن تلك العملات فان المبلغ المفروض عليه كان يتضاعف تبعاً لوزن العملة القديمة وقيمتها .

٣ - يقول الامبراطور : « ان المجالس البلدية ، وهي مجالس السناتو الصغرى (كما كانت تسمى بحق فيما مضى) جديرة بأن تعتبر قلب المدن وعصب الدولة ، ومع ذلك فقد انحط الآن شأنها نتيجة ظلم الحكام وجشع الجباة ، الى درجة أن كثيراً من أعضائها نبذوا مناصبهم وبلادهم ولجأوا الى العزلة في أماكن بعيدة مغمورة » . وهو يحضهم بل ويرغمهم على العودة الى مدنها ، ولكنه يقضى على المنقصات التي أرغمتهم على التخلي عن ممارسة مهامهم في المجالس البلدية . فأصدر اليهم توجيهاته بالعودة الى مباشرة أعمالهم في جباية الخراج تحت سلطة حكام الولايات ، ولكن ، بدلا من أن يكونوا مسئولين عن كل المبالغ المقررة على اقليمهم ، أصبحوا مطالبين فقط بتقديم كشف حساب منتظم بين المدفوعات التي يتسلمونها فعلا ، والمتأخرين في سداد ديونهم للخزانة العامة .

٤ - غير أن ماجوريان لم يغب عنه أن هذه الهيئات كانت تميل أكثر مما ينبغي الى أن تقتصر لما لاقتنه من ظلم وعسف ، ومن ثم فقد أعاد منصب « حماة المدن » الذي كان منصبا له غائده فيما مضى . واخذ يحض الناس على أن ينتخبوا في اجتماع كامل حر ، بعض ذوي الصحافة والنزاهة الذين تتوفر لديهم الجراءة على تأكيد حقوقهم والتعبير عن متاعبهم وشكاواهم ، وحماية الفقراء من طغيان الأغنياء ، وإبلاغ الامبراطور عن الانحرافات التي ترتكب باسمه وبضمنان من سلطته .

وان المشاهد الذي يلقي نظرة حزينة على أطلال روما القديمة انما يميل الى اتهام ذكرى القوط والوندال ، ويرميهم بارتكاب أضرار وآثام لم يكن لديهم من الوقت والقدرة ما يسمح لهم بارتكابها ، بل ربما لم تتوفر لديهم الرغبة في اقترافها . فعاصفة الحرب قد تطيح ببعض الأبراج وتلقي بها الى الأرض ، غير أن الدمار الذي قوض أسس تلك الصروح الضخمة كان يسير في ببطء وصمت خلال عشرة قرون . ومن ثم فان الامبراطور ماجوريان ، بما اتصف به من لباقة وهمة ، تصدى الى دوافع المصلحة التي كانت تعمل عملها دون خجل ودون ضابط أو قيد ، وأوقفها عند حدها في صرامة وشدة . وكان تدهور المدينة قد أضعف بالتدريج من قيمة المنشآت العامة ، فالسيرك والملاهي كانت تثير رغبات الناس

ولكنها قلما كانت تشبهها : والمعابد التي نجت من حماس المسيحيين لم يعد بها آلهة أو متعبدون ، وجماهير الرومان القليلة العدد اختفت في متسع الحمامات والأروقة ، أما المكتبات ودور القضاء الفخمة فقد أصبحت عديمة النفع لجيل كسول قلما كان يزعم راحته بالدرس أو العمل . والآثار التي كانت تمثل العظمة القنصلية أو الامبراطورية ، لم يعد لها احترامها كمظهر لمجد العاصمة الخالد ، بل أصبح الناس يقدرونها على أساس أنها مواد بناء لا تكلفهم من المال والجهد مثلما تكلفهم المواد التي يجلبونها من المحاجر البعيدة ، ومن ثم فإنهم كانوا يقدمون التماسات منيعة مصطنعة إلى الحكام المتساهلين يذكرّون فيها حاجتهم إلى الطوب والأحجار اللازمة لبعض الخدمات الضرورية ، وأدى ذلك إلى أن شوهت بصورة خسنة أجمل المباني التي يتجلى فيها فن المعمار لأجراء إصلاحات تافهة أو مفتعلة ، وأصبح الرومان المنحلون يحولون تلك الأسلاب إلى منقعتهم الخاصة ، ويهدمون بأيديهم المدنسة جهود أجدادهم . وكثيرا ما تألم ماجوريان للخراب الذي أصاب المدينة ، ولهذا استخدم علاجاً صارماً لمكافحة هذا الشر المستفحل ، فجعل من حق الملك والسيانو دون غيرهما النظر في الحالات الاستثنائية التي قد تبرر هدم بناء قديم ، وفرض غرامة قدرها خمسون جنيتها ذهبياً (ألفان من الجنيهات الاسترلينية) على كل حاكم يوافق على منح هذا الترخيص الفاضح غير القانوني ، وهدد بمعاقبة موظفي الحكام بالجلد وقطع أيديهم إذا هم أذعنوا لأوامرهم الإجرامية . ويبدو أن الامبراطور المشرع في هذه الحالة الأخيرة نسي التناسب بين الذنب والعقوبة ، غير أن هذه الغيرة من جانبه كان الباعث عليها مبدأ كريم ، لأنه كان مهتما بحماية آثار تلك العصور التي كان يود لو أنه عمّاش فيها ، ويستحق أن يكون كذلك . ورأى الامبراطور أنه من مصلحته أن يزيد عدد رعاياه ، وأن من واجبه أن يصون فرائض الزوجية ، غير أن الوسائل التي اتخذها لتحقيق هذه الغايات النافعة إنما تتسم بالغموض وربما بالشنفوذ . فقد حرم على العذارى التقيات اللاتي نذرن عذرتهم للمسيح أن يتربهن قبل بلوغ الأربعين من العمر ، كما أرغم الأرمال اللاتي لم يبلغن هذا العمر أن يتزوجن مرة ثانية في مدى خمس سنوات ، والا آلت نصف ثروتهن إلى أقرب أقرباتهن أو إلى الدولة . وكذلك أدان الزواج غير المتكافئ أو ألفاء ، ورأى أن عقوبة المصادرة والنفي لا تتناسب مع جريمة الزنى ، لهذا أعلن في صراحة ووضوح أنه إذا عاد مرتكب هذه الجريمة إلى إيطاليا أصبح قتله جائزا دون أن يعاقب القاتل .

وبينما كان الامبراطور ماجوريان يعمل دائماً على استرجاع سعادة الرومان وفضيلتهم جابه جيوش جنسريك ، وهو أقوى أعداء الرومان

بحكم شخصيته ومركزه . ذلك أن أسطولا من الوندال والمغاربة رسا عند مصب نهر لريس Liris أو جاريلىانو ، غير أن القوات الامبراطورية فاجأت أشتات المتبربرين وهاجمتهم وهم مثقلون بأسلاب كيبانيا ، ثم طاردتهم واشبعتهم ذبعا وقتيلا حتى ركبوا سفنهم ، وكان قائدهم ، وهو زوج شقيقة الملك ، من بين القتلى . ومثل هذه اليقظة انما تدل على طابع العهد الجديد ، غير أن اشد اليقظة واكثر القوات عددا لم تكن كافية لحماية شواطئ إيطاليا الطويلة من كوارث حرب بحرية ، كما أن الرأى العام فرض على عبقرية ماجوريان مهمة أكثر نبلا ومشقة . ذلك أن روما توقعت منه وحده اعصادة أفريقيا ، وكانت الخطة التى وضعها لمهاجمة الوندال فى مواطنهم الجديدة نتيجة سياسة جريئة حكيمة . ولو أن الامبراطور الباسل استطاع أن ينقث روحه هو فى شباب إيطاليا ، ولو أنه استطاع أن يعيد الى ساحة القتال مظاهر البطولة الجديرة بالرجال ، والتى كان يتفوق فيها على أئداده ، لو أنه فعل ذلك كله لكان فى مقدوره أن يسير للملاقاة جنسريك على رأس جيش « رومانى » ، وقد كان يمكن أن يتقبل الجيل المساعد مثل هذا الاصلاح الذى يتناول الأخلاق الوطنية ، غير أنه من سوء حظ الحكام الذين يعملون جاهدين على تدعيم مملكة متدهورة أنهم ، فى سبيل الحصول على ميزة عاجلة أو درء خطر محقق بهم ، يضطرون الى اتخاذ أشد الاجراءات ضررا ، بل والى مضاعفتها . ذلك أن ماجوريان ، شأنه شأن أضعف أسلافه ، اضطر الى الأخذ بوسيلة شمسائه هى احلال قواته بربرية احتياطية مكان رعاياه الذين أعوزتهم صفات المحاربين ، وتجلت قدراته الفارقة ، وما اتسم به من قوة ومهارة فى استخدامه لأداة خطيرة يمكن أن تترد الى اليد التى تقبض عليها . والى جانب الحلفاء الذين كانوا فى خدمة الامبراطورية فعلا ، فإن ما اشتهر به الامبراطور من سخاء وشجاعة جذب اليه أمم اللانوب ، والبوريسثينز ، وربما أمم التانيز . فاجتمع فى سهول ليجوريا آلاف كثيرة من أشجع رعايا أتباعه - جماعات الجبيدى ، القوط الشرقيون ، الروجيان ، البرجنديون ، السوفي ، الألاى ، وكانت قوتهم الهائلة تتوازن مع ما بينهم من عداوات متبادلة . وعبروا الألب فى شتاء شديد البرودة ، وكان الامبراطور يقود الطريق على قدميه وهو فى كامل عدته الحربية ، يسير عمق الجليد أو الثلج بعصاه الطويلة ، ويشجع السكوديين الذين يشكون من شدة البرد ، ويبعث فيهم البشر بما يؤكده لهم من أنهم سوف يستمتعون بحرارة أفريقيا . وكان مواطنو مدينة ليون قد وجدوا لديهم من الجراءة ما جعلهم يفلتون أبواب المدينة ، ولكنهم سرعان ما اضطروا الى التماس رحمة ماجوريان وكان الامبراطور عند حسن ظنهم -

ثم قهر ثيودوريك في ساحة القتال ، وقبل أن يكون صديقا وحليفا لملك
وجده جديرا بأن ينضم الى جيوشه ، وأعاد توحيد الجزء الأكبر من بلاد
الغال وأسبانيا . وقد تحقق هذا الاتحاد النافع ، وإن كان اتحادا مزعزا ،
بفضل الاقتناع وبحكم القوة ، أما قبائل الباجودي ، التي كانت قد نجت
من ظلم اليهود السابقة ، أو قاومته ، فقد أظهرت استعدادها للوثوق في
فضائل ماجوريان . وكان معسكره مليشا بحلفاء من البرابرة ، وعرشه
مستندا الى غيرة شعب يحبه . غير أنه أدرك استحالة غزو أفريقيا دون
قوة بحرية . ففي الحرب البونية الأولى بذلت الدولة جهدا جهيدا وذاب
لا يصدق حتى استطاعت ، بعد ستين يوما من أول ضربة فأس في أشجار
الغابات ، أن تبني أسطولا قوامه مائة وستون سفينة تغلى ظهر الماء .
واستطاع ماجوريان في ظروف أقل ملامة بكثير أن يضارع قسما الرومان
روحا ومثابرة . فقطعت أشجار جبال الأبنين ، وعادت الى العمل ترسانات
ومصانع رافنا وميسينوم ، وتنافست إيطاليا وبلاد الغال على التبرع
بسفن من أجل هذه الخدمة العامة . وبهذا استطاع ماجوريان أن يبني
أسطولا امبراطوريا قوامه ثلاثمائة سفينة كبيرة ، وعدد مناسب من
الناقلات والسفن الصغيرة ، تجمعت كلها في ميناء قرطاجنة الأسباني
الواسع الأمين . وبمض ماجوريان بطلعته الجريئة الباسلة روح الثقة
بالنصر في قواته ، وإذا كان لنا أن نصدق المؤرخ بروكوبيوس ، فإن
شجاعته دفعته في بعض الأحيان الى تجاوز حدود الحرص والحكمة .
ذلك أن اهتمامه الكبير بأن يرى بعينه حالة الوندال جعله يغامر بزيارة
قرطاجنة ، منتحلا شخصية سفيره ، بعد أن صبح شعره . وقد اغتم
جنسريك بعد أن اكتشف أنه يستقبل امبراطور الرومان وتركه ينصرف .
ولنا ألا نصدق هذه القصة غير المحتملة ، ولكنها قصة ما كان الناس
ليتصوروها الا لأنها قصة في حياة بطل .

وكان جنسريك على علم كاف بعقوبة خصمه وخطئه دون حاجة
الى مقابلة شخصية ومن ثم فقد مارس فنون الخداع والمماطلة التي درج
عليها ، ولكنه لم يصب نجاحا ، وأخذت طلبات الصلح التي تقدم بها
تزداد في كل ساعة خضوعا ، وربما أصبحت أكثر صدقا ، غير أن
ماجوريان الذي لا يثنى ولا يلين ، كان قد أخذ بالمبدأ القديم القائل
بأن روما لا يمكن أن تنعم بالأمان طالما بقيت قرطاجنة في حالة عداء لها .
وكان ملك الوندال لا يثق في شجاعة أبناء وطنه الذين أضعف قوتهم
تurf البلاد الجنوبية ، ويشك في إخلاص الشعب الذي قهره وبنى كان

يمتقته كطاغية آرى ، كما أن المجهود اليانس الذى قام به لتحويل موريتانيا الى صحراء لم يستطع به أن يعرقل عمليات الامبراطور الرومانى الذى كان فى مقدوره أن ينزل قواته فى أى جزء من أجزاء الشاطئ الأفريقى . غير أن جنسريك نجا من هلاك قريب محقق بفضل خيانة بعض الرجال الأقوياء من رعايا ماجوريان الذين ملأهم نجاح مولاهم خوفا وحسدا ، فأسروا اليه بأنبياء خصمه ماجوريان وأرشدوه الى مواقع أسطوله ، وبذلك تمكن من مفاجأة الأسطول الذى كان رابضا فى خليج قرطاجنة دون حراسة ، وأغرق أو حرق كثيرا من السفن أو استولى عليها ، وبهذا تحطمت استمدادات ثلاث سنوات فى يوم واحد . وبعد هذا الحدث أظهر مسلك الخصمين أنهما فوق مستوى حظهما ، فالوندى لم تنتفخ أوداجه بفضل هذا النصر العاير الطارىء ، بل جدد على الفور التماسات الصلح ، كما أن امبراطور الغرب ، الذى كان فى مقدوره وضع الخطط العظيمة وتحمل أثقال الفشل ، وافق على عقد معاهدة ، أو قل إيقاف القتال ، وكله ثقة فى أنه قبل أن يستطيع إعادة بناء أسطوله لابد أنه سوف يجد من الاثارات ما يبرر حربا ثانية . وعاد ماجوريان الى إيطاليا لتنفيذ جهوده فى سبيل رفاهية الشعب وسعادته . وبما أنه كان يشعر بنزاهته ، فقد ظل فترة طويلة لا يدرى شيئا عن المؤامرة الخفية التى هددت حياته وعرشه . ثم ان محنة قرطاجنة الحديثة لوئت ذلك المجهود الذى بهر عيون الجماهير ، وحنقت كل فئات الموظفين المدنيين والعسكريين تقريبا على الامبراطور المصلح لأنهم جميعا كانوا يحصلون على بعض النفع من المساوىء التى كان يحاول القضاء عليها ، كما أن النبيل ركيمر أثار عواطف البرابرة المتقلبة المزعزعة ضد ملك كان يقدره ويكن له الكراهية . ولم تستطع فضائل ماجوريان أن تحميه من الفتنة العارمة التى اندلعت فى المسسكر القريب من تروتونا عند سفح جبال الألب . فاضطر الى التخلي عن العرش ، وبعد خمسة أيام من ذلك ذاع أنه مات بمرض الدوسنتاريا ، ودغنت وفاته فى قبر متواضع أصبح موضع احترام الأجيال التالية واعترافها بالجميل . ولا شك فى أن أخلاق ماجوريان الخاصة كانت توحى بالحب والاحترام . فقد كان القدح والنميمة الخبيثة يثيران سخطه ، وإذا كان هو موضع القدح ، نظر اليه فى احتقار وازدراء . ولكنه كان بذود عن حرية النكتة والنقد الطريف ، وفى الساعات التى كان يقضيها دون كلفة فى مجتمع أصدقائه المقربين ، كان يشبع تذوقه للفكاهة دون أن يحط من جلال مقامه .

وبين سنتي ٤٦١ ، ٤٧١ حكم ريكيمر إيطاليا فعلا إن لم يكن اسما .
وفي سنة ٤٧١ ، بعد أن اختلف مع الامبراطور انثيموس نهب روما ،
ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلا . وفي سنة ٤٧٦ أصبح رومولوس
اوغستولوس آخر الأباطرة . ويرتبط التاريخ التقليدي لانتهاء الامبراطورية
الغربية بهذا الاسم الذي اشتهر بمقتضى الصيغة « وبين سنتي ٤٧٦ ،
٤٩٠ اقام ادواكر Odoacar مملكة قوطية في إيطاليا ، وكان من الناحية
الاسمية نائبا عن الامبراطور في القسطنطينية » .

ادواكر : ملك إيطاليا

كان ادواكر اول متبربر تولي الملك في إيطاليا ، وحكم شعبا أتيح له
يوما أن يؤكد تفوقه بحق على بقية الجنس الانساني . وما تزال المذلة التي
لحقت بالرومان تثير فينا الشفقة والاحترام ، فنرى في قلوبنا لما أحسنت به
ذريتهم من حزن وسخط . غير أن كوارث إيطاليا قهرت بالتدريج احساسهم
الشامخ بالحري والمجد . وفي عصر القوة الرومانية خضعت الولايات
لجيوش الدولة كما خضع المواطنون لقوانينها ، حتى اذا ما أطاحت النزاعات
الأهلية بتلك القوانين ، أصبحت المدينة والولايات ملكا ذليلا لطاغية .
كما زالت بفعل الزمن وبحكم القوة أشكال الدستور التي خفقت من
عبوديتهم الذليلة أو أخفتها . وأصبح الايطاليون يضيقون تارة بوجود الملوك
الذين يكرهونهم ويحتقرونهم ، ويأسفون تارة أخرى لعدم وجودهم .
وتوالت عليهم خمسة قرون انصبت عليهم فيها مختلف شرور الإياحية
العسكرية ، والاستبداد المتقلب والظلم المحكم ، وفي الفترة نفسها ظهر
المتبريرون بعد أن كانوا مغمورين محتقرين ، ودخل مقاتلو ألمانيا وسكوديا
ولايات الامبراطورية خدما للرومان في أول الأمر ، ثم حلفاء ، ثم كانوا
في نهاية المطاف سادة لأولئك الذين أصبحوا في حماهم أو موضع اهانتهم .
وكبت الخوف كراهية الشعب الذي وصل به الأمر الى احترام شجاعة
وجلال الرؤساء العسكريين الذين أغدقت عليهم أمجاد الامبراطورية .
وظل مصير روما يعتمد فترة طويلة على سيوف أولئك الغرياء الأقوياء .
وجاء ريكيمر القاسي العنيد الذي وطئ بقدميه أنقاض إيطاليا ، ومارس
سلطة الملك دون أن يتخذ لنفسه لقبه ، وأصبح الرومان الصابرون ،
بصورة غير محسوسة على استعداد للاعتراف بملكية ادواكر وخلفائه
المتبريرين .

ولم يكن ملك إيطاليا غير جدير بالمكانة السامية التي ارتفع اليها
بشجاعته وحظه ، فقد تهذبت أخلاقه الشرسة بعد أن اعتاد التحلث الى

الناس ، واحترام نظم رعاياه . بل وآراءهم المبتسرة رغم انه كان غازيا ومتهربا . وبعد فترة سبع سنوات أعاد أدواكر منصب قنصل العرب . ومن ناحيته هو فقد رفض ، تواضعا أو كبرياء ، ذلك المنصب الذى كان أباطرة الشرق لا يزالون يقبلونه . غير أن هذا المنصب الرفيع شغله على التوالى أحد عشر عضوا من ألمع أعضاء السناتو وازدانت القائمة بذلك الاسم المحترم ، اسم باسيلوس الذى أكسبته فضائله صداقة عينه سيدونيوس وثناه للعبر عن امتنانه وشكره . ونقلت قوانين الأباطرة بحزم وصرامة ، وظل الوالى البريتورى وصغار موظفيه يمارسون الادارة المدنية فى إيطاليا . ووكل أدواكر لحكام الرومان تلك المهمة الجائرة انحقوة . مهمة جمع الايراد العام ، ولكنه احتفظ لنفسه بميزة التساهل مع الشعب ومد آجال الدفع . ولقد نشأ أدواكر ، شأنه شأن بقية المتبربرين ، على الهرطقة الآريوسية ، غير أنه احترام الرهبان والشخصيات الكنسية ، ويدل صمت الكاثوليك على ما كانوا يتمتعون به من تسامح . وقد استلزم سلام المدينة أن يتوسط واليه باسيلوس فى اختيار حبر روماني . كما أن المرسوم الذى حظر به على رجال الدين تحويل أراضيهم الى غيرهم كان يهدف أساسا الى نفع الشعب . وأصبحت إيطاليا فى حنى الرجل الذى غزاها ، واحترم حدودها برابرة الغال والمانييا الذين ظلوا فترة طويلة يستهينون بسلالة ثيودوسيوس الضعيفة . وقد عبر أدواكر البحر الأدرياتي لمعاينة قتلة الامبراطور نيبوس Nepos ، وللاستيلاء على ولاية دلاشيا البحرية ، كما عبر جبال الألب لاتقاذ آثار غوريكوم من الملك فافا Fava ، أو فيليثيوس ، ملك الروميان ، الذى كان مقيما فيما وراء الدانوب . وهزم هذا الملك فى ساحة القتال وأخذ أسيرا ، ونقلت الى إيطاليا جالية كبيرة العدد من الأسرى والرعايا حيث استقرت هناك ، وهكذا لرى روما ، بعد فترة طويلة من الهزيمة والعار ، تدعى لنفسها النصر الذى حازه سيدها المتبربر .

ورغم حرص أدواكر ونجاحه فان مملكته كان يبدو عليها مظهر الشقاء والخراب . فمنذ عهد تيبيريوس بدأت الزراعة تتدهور ، وكانت هناك شكوى صادقة من أن حياة الشعب الروماني أصبحت تحت رحمة ما تأتى به الرياح والأمواج . وفى عصر انقسام الامبراطورية واضمحلالها امتنع ورود محاصيل مصر وأفريقيا التى كانت تدفع كجزية للامبراطورية ، وتناقص عدد السكان بصورة مستمرة مع تناقص سبل العيش ، ونضبت موارد البلاد بتأثير الخسائر الفادحة التى نجمت عن الحروب والمجاعات والأوبئة . ولقد رثى القديس أمبروز للخراب الذى حل باقليم أهل بالسكان كان يزدان فيما مضى بمدن مزدهرة ، مدن بولونا ومودينا وريجيمو

وبلاكتنيا . كما ان البابا جيلاسيوس ، الذي كان أحد رعايا أدواكر ، يؤكد ، في كثير من المبالغة ، أن الجنس الانساني لأن ينقرض في أميليا وتسكانا (الولايات المجاورة . أما دهباء روما ، الذين كانوا يعيشون على احسانات مولاهم . فقد هلكوا أو اختفوا بمجرد أن توقف سخاؤه ، ثم ان تدهور الفنون دفع بالصناع المجددين الى البطالة والعوز ، واصبح أعضاء السنانو ، الذين ربما تحملوا في صبر ما حل ببلادهم من خراب ، يرثون لفقدان ثروتهم الخاصة وما كانوا فيه من ترف . فقد انتزع منهم ثلث أملاكهم الغنية لكي ينتفع بها الغزاة ، وكانت هذه الضياع الواسعة هي العامل الأصيل في خراب ايطاليا . وضاعفت الاهانات من أثر الأضرار التي لحقت بهم ، وكان احساسهم بالالام الفعلية يزداد حدة بفعل الخوف من شرور أدهي وأمر . وكلما اقتطعت منهم أراض جديدة لجماعات جديدة من المتبريرين ، كان كل عضو من السنانو يخشى أن تمقد أيدي مخططي الأرض المتعسفين الى دأره التي يحبها ، أو الى مزرعته التي تعود عليه بأكبر النفع . وكان أقل الناس تعاسة هم أولئك الذين خضعوا صامتين للقوة التي استحالت عليهم مقاومتها . ولما كانوا راغبين في الحياة ، فقد شعروا بالامتنان للطاغية الذي لم يمس أرواحهم ، وبما أنه المتحكم المطلق في ثرواتهم ، فان الجزء الذي تركه لهم يجب عليهم أن يتقبلوه كمنحة خالصة منه جاد عليهم بها طواعية واختيارا . وقد خفت حكمة أدواكر وانسانيته من محنة ايطاليا لأنه ألزم نفسه ، كثر ما حصل عليه من رفعة ، أن يشبع مطالب جمهور دأمر عابت . وكثيرا ما عزلهم هؤلاء أو قتلوه ، كما أن مختلف عصابات المرتزقة من الايطاليين ، التي انضم بعضها الى بعض تحت لواء قائده منتخب ، كانت تطالب بحق أكبر في الحرية والسلب والنهب . ولا عجب أن ملكية تفتقر الى الوحدة الوطنية والحق الوراثي قد سارعت الى الهلاك ، وبعد حكم دام أربعة عشر عاما غلب أدواكر على أمره ، وقهرته عبقرية ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، وهو ملك تفوق في فنون الحرب والحكم ، وأعاد للبلاد عصرا من السلم والرخاء ، وما يزال اسمه يثير انتباه الجنس الانساني ويستحق اهتمامه .

الفصل السابع والثلاثون (٢٠٥ - ٤٥١)

نشأة الرهبان • أسباب نمو الرهبنة السريعية • القديسين
سيميون « العمود » (١) • تحول المتبريرين إلى المسيحية •

ان العلاقة التي لا تنفصم بين الأمور الدنيوية والأمر الدينية قد
أرغمتني وشجعتني على شرح نمو المسيحية ، والاضطرابات التي تعرضت
لها ، وانقساماتها ، وانتصاراتها النهائية ، ثم الفساد التدريجي الذي
اعتورها • وقد قصدت أن أوجه تباين حدثين دينيين لهما طلاوتهما في
دراسة الطبيعة الانسانية ، وأهميتهما في اضطهاد الامبراطورية الرومانية
وسقوطها - ١ - نظام حيلة الرهبنة - ٢ - تحول المتبريرين الشماليين
إلى المسيحية •

١ - أدى السلام والرخاء إلى وجود نوعين مختلفين من المسيحيين ،
هم العاديون والمتقشفون ، وكانت ممارسة الديانة ممارسة طليقة مفتقرة
إلى الكمال ترضى ضباط الكثرين ، فالأمير أو الحاكم ، والجندي أو التاجر ،
كانوا جميعا يوفقون بين حماسهم المتقد وعقيدتهم الثابتة ودين ممارسة
مهنهم ، والسعي وراء مصلحتهم واشباع أهوائهم ، غير أن المتقشفين الذين
أطاعوا تعاليم الانجيل الصارمة واساموا تطبيقها ، امتلأت قلوبهم بالحمايس
المتيف الذي يمثل الانسان في صورة المجرم ويمثل الله في صورة
الطاغية • فنبذوا في جدية شواغل العصر وملذاته ، وترفعوا عن شرب
الخمر وأكل اللحم والزواج ، وعذبوا أجسادهم ، وكبحوا مشاعر الحب في
نفوسهم ، وتقبلوا حياة الفاقة ، ثمنا للسعادة الأبدية • وفي عهد قسطنطين
فر المتقشفون من العالم الفاسد المنحل إلى العزلة الدائمة أو المجتمع الديني •

(١) (٢٩٠ - ٤٥٩ م) ويقال انه عاش ثلاثين سنة فوق عمود (الترجمة) •

وعلى متوالي المسيحيين الأوائل في اورشليم ، تخلوا عن استخدام أو امتلاك متاع الدنيا وكونوا جماعات منظمة تتألف من اصحاب الميول الواحدة ، رجالا أو نساء ، واتخذوا لانفسهم أسماء النساك والرهبان والزهادين ، تعبيرا عن عزلتهم في صحراء طبيعية أو صحراء من صنعهم . وسرعان ما اكتسبوا احترام العالم الذي نبذوا واحتقروا . وأصبحت هذه الفلسفة السماوية الالهية موضع اعظم الاستحسان ، لأنها نأقت ، دون عون من العلم أو العقل ، تلك الفضائل التي حققتها مدارس الفكر الاغريقية بالتأمل المضمي . وفي الحق أن الرهبان أصبحوا ينافسون الرواقيين في احتقار الثراء والألم والموت ، وأعادوا في نظامهم المنظم بالدلة صمت الفيثاغوريين وخضوعهم ، واحتقروا في ثبات الكلبيين Cynics وحزمهم كل صور المجتمع المدني وقواعده السلوكية . غير أن انصار هذه الفلسفة السماوية تطلعوا الى تقليد نموذج أنقى وأكثر كمالا ، فحلوا حذو الأنبياء الذين انسحبوا الى الصحراء ، واسترجعوا حياة التمدد والتأمل التي وضع أساسها الامينيون Essinians (١) في فلسطين ومصر :

وقد شاهد العالم الروماني پليني Pliny في دهشة قوما يعيشون في عزلة بين أشجار النخيل الى القرب من البحر الميت ، وكانوا لا يمتلكون مالا ، ويكتفون دون زواج لأن كثيرون من الطالبين والساخطين على الحياة كانوا ينضمون اليهم طوعية بصوة مستمرة .

وكانت مصر ، الأم القلود للخرافة ، هي التي ضربت للعالم أول مثل لحياة الرهبنة . وانا لنسمع عن رجل اسمه أنطونيوس ، وهو غناب أمي من أنحاء طيبة الدنيا ، وزع أملاكه الموروثة وعجز أسرته ووطنه ، ونفذ كفارة الرهبنة في تعصب أصيل جرى . ذلك أنه بعد أن قضى فترة طويلة شاقة في إعداد نفسه للرهبنة بين القبور ، وفي بسرج خرب ههجوم ، تفلقل في جرة داخل الصحراء في رحلة ثلاثة أيام الى الشرق من نهر النيل ، حتى اكتشف بقعة منعزلة يثوفر فيها الظل والماء ، واستقر أخيرا فوق جبل قلزم الى القرب من البحر الأحمر ، حيث ما يزال هناك دير قديم يحمل اسم القديس وذكره . ولحقه المسيحيون الى الصحراء في تمديد عجيب وعندها كان يضطر الى الظهور أمام الناس في الاسكندرية ، كان يدغم شهرته في عصالة ووقار ، واكتسب صداقة اثناسيوس الذي رآقت له عقيدته ، ومن عجب أن هذا الفلاح المصري اعتذر في احترام عن دعوة موقرة

(١) طائفة دينية صغيرة بين اليهود القدامى كان أفرادها يعيشون في تكلف وعزلة ، ويقتسمون فيما بينهم كل شيء = (الفرجة) .

أرسلها إليه الامبراطور قسطنطين . وشاهد هذا البطريرك الشيخ (لأن أنطونيوس بلغ الخامسة بعد المائة من عمره) سلالة كثيرة العدد من أولئك الذين نشأوا على هديه وساروا على المثل الذي ضربه لهم . وتضاعف عدد الصوامع الزاخرة بالرهبان بسرعة كبيرة فوق رمال ليبيا . وعلى صخور طيبة ، وفي مدن وادي النيل . وإلى الجنوب من الاسكندرية استوطن خمسة آلاف من النساك جبل أنطرون Nitria والصحراء المجاورة . وما يزال في مقدور الجائل أن يطالع خرائب خمسين ديرا أقامها تلاميذ أنطونيوس في تلك التربة الجرداء . وفي طيبة العليا استقر باخوميوس والف وأربعمائه من الأخوة في جزيرة تابين Tabenne المهجورة . وأسس هذا الراهب المقدس على التوالي تسعة أديرة للرجال وديرا للنساء ، وفي بعض الأحيان كان يجتمع في عيد الفصح خمسون الفا من رجال الدين الذين يتبعون قواعد نظامه الملائكي ، كما أن مدينة أكسيريوخوس Oxyrhynchus الضخمة الآهلة بالسكان ، وهي مركز الأرثوذكسية المسيحية ، خصصت معابدها ، ومبانيها العامة ، بل واستحكاماتها ، لأغراض البر والتمبذ ، وقد قدر الأسقف ، الذي كان يحظ في اثنتي عشرة كنيسة ، عدد الراهبات والرهبان بعشرة آلاف من النساء وعشرين الفا من الرجال . وكان المصريون يخفرون بهذه الثورة العجيبة ، ويحدوهم الأمل ، بل ويمتقدون أن عدد الراهبان كان مساويا لبقية السكان ، وقد تردد الاعتقاد ذلك القول الذي كان ينطبق فيما مضى على الحيوانات المقدسة في البلد نفسه ، وهو أن مصر بلد من الأسهل فيه أن تجد لها من أن تجد رجلا .

وأدخل انناسيوس فكرة الرهبنة وممارستها في روما ، حيث فتح تلاميذه أنطونيوس مدرسة لهذه الفلسفة الجديدة ، حين رافقوا مطرانهم إلى أعتاب الفاتيكان المقدسة . وأثار المظهر الهمجى الغريب لهؤلاء المصريين في أول الأمر قزع الناس واحتقارهم ، ولكنه دفعهم في النهاية إلى استحسانه والتحمس لتقليده ، وحول أعضاء السناتور ، والسيدات الثريات بنوع خاص ، قصورهم و (فلاتهم) إلى بيوت دينية ، وتضاءلت المؤسسات الصغيرة ، مؤسسة العذارى السميت (١) ، إلى جانب الأديرة الكثيرة التي أقيمت على أطلال المعابد القديمة وفي وسط ساحة روما .

(١) هستا Vesta ربة الأمرة الطاهرة عند قدماء الرومان والعذارى الست

في العناية الرومانية القديمة . كن مكرسات للالهة هستا .

وثمة شباب سورى اسمه هيلاريون (١) تحمس للمثل الذى ضربه أنطونيوس ، فأقسام له مأوى موحشا على شاطئ دمل بين البحر وأحد المستنقعات على بعد سبعة أميال من مدينة غزة ، وأشاعت هذه الكفارة الصارمة التى تأبر عليها ذلك الرجل القديس ثمانى وأربعين سنة ، حماسا مائلا ، فكان كلما ذهب لزيارة الأديرة الكثيرة فى فلسطين سار وراءه ألفان أو ثلاثة آلاف من الزهاد ، وكذلك اكتسب باسيليوس شهرة خالدة فى تاريخ الرهبنة الشرقية . فقد تذوق عقله علم آئينا وبلاغتها ، وكان طموحه أكثر من أن يشبعه منصب رئيس أساقفة (٢) قيصرية ، فانسحب الى بنطس حيث عاش فى عزلة موحشة ، وفى فترة من الوقت رأى من المناسب أن يسن القوانين للمستعمرات الروحية التى نشرها بكثرة على طول شاطئ البحر الأسود ، وفى الغرب كان هناك مارتى ، أسقف مدينة تور ، وهو جندى ، وناسك ، وأسقف ، وقديس ، وهو الذى أسس أديرة الغال ، وعندما مات شيعه الى قبره ألفان من تلاميذه ، ولهذا ترى مؤرخه الفصيح يتحدى صحراوات طيبة أن تجود ببطل فى مثل فضيلته رغم أن مناخها أكثر ملاءمة ، ولم يكن تطور الرهبان أقل سرعة أو شمولا من تطور المسيحية نفسها ، قامتلات كل ولاية ، من ولايات الامبراطورية ، بل وكل مدينة على الأقل ، بجماهيرهم المتزايدة ، ووقع اختيار الزهاد على الجزائر الكثيبة الجرداء المتناثرة فى البحر التسكانى ، من جزيرة لونس Lerins الى جزيرة ليبارى Lipari لتكون موطن منفاهم الاختيارى . وكان هناك اتصال دائم سهل بين ولايات العالم الرومانى عن طريق البحر وعن طريق البر ، وتدل حياة هيلاريون على السهولة التى استطاع بها ناسك فقير من فلسطين أن يعبر مصر ، ويركب البحر الى صقلية ، ويفر الى أبروس ، ويستقر أخيرا فى جزيرة قبرص (٣) :

(١) انظر كتاب « حياة هيلاريون » The Life of Hilarion تأليف سانت جيروم . وكذلك يقص نفس المؤلف قصص بول وهيلاريون وماخوس فى طلاوة عجيبه والعيب الوحيد فى هذه المقالات هو أنها تفكر الى الصندق والبداة .

(٢) انظر « حياته » والمحاولات الثلاث ، تأليف سلبكيوس ساويرس Sulpicius Severus الذى يؤكد أن بلغمى الكتب فى رهبما كانوا حققيطين لأن كتابه الشهير كان يباع بسهولة وسرعة .

(٣) عندما أبحر هيلاريون من باريوتونيوم الى راس باخينوس عرض أن يقدم نسخة من الانجيل أجرا للرحلة .

وهناك راهب من بلاد الغال اسمه بوستوميان Pothmian زار مصر ووجد سفينة تجارية ذاهبة من الاسكندرية الى مرسيليا ، وأكمل الرحلة فى ثلاثين يوما .
 وأثناسيوس الذى وجه كتابه « حياة القديس أنطونيوس » الى الرهبان الاجانب ، اضطر الى الاسراع فى تأليف الكتاب حتى يتم قبل ابحار السفن .

وقد اعتنق المسيحيون اللاتين أنظمة روما الدينية ، كما أن الخباج الذين زاروا أورشليم كانوا ينقلون النموذج الصادق لحياة الرهبنة الى أبرد أرجاء الأرض . وانتشر تلاميذ أنطونيوس فيما وراء الدناو ، فذهبوا الى امبراطورية أثيوبيا المسيحية ، كما أن دير بانكور في مقاطعة فلنتشر Flintshire الذي كان يضم أكثر من ألفين من الاخوة ، نسر مستعمرة كبيرة المعد بين متبرري أيرلندة ، وكذلك أشعت جزيرة أيونا ، إحدى جزائر ألهرديدز ، وهي جزيرة زرعها الرهبان الأيرلنديون . أشعت هذه الجزيرة في الأرجاء الشمالية شعاعا مبهما من العلم والخرافة .

أسباب سرعة تطور الرهبنة

هؤلاء التمسسا الذين اعتزلوا الحياة الاجتماعية كانوا مدقوعين الى حياة الرهبنة بدافع من العبقرية الخرافية ، وهي عبقرية مبهمة لا تخبو نالوها ، وكان عزمهم المشترك يستند الى المثل الذي ضربه ملايين من الجنسين ، من كل عمر ، ومن كل مرتبة ، وكان كل مهتد من الداخلين الى رحاب الدير مقتنعا بأنه عبر الطريق الشائك الوعر الى السعادة الأبدية (١) . غير أن فعل هذه الدوافع الدينية كان يحدثه بصورة مختلفة خلق الناس ووضعهم ، فالعقل قد يقهر أثرها ، والعاطفة قد توقف ذلك الأثر ، غير أن هذه الدوافع الدينية كان لها الأثر على ضعاف العقول من النساء والأطفال ، وكانت قوتها تزداد بفعل ندم على خطيئة خفية أو محنة طارئة ، ومن الجائز أنها كانت تستمد بعض العون من بعض الاعتبارات الدنيوية ، كاعتبارات الضرر أو المصلحة . وكان من الطبيعي أن يسود الاعتقاد بأن الرهبان الأنقياء المتواضعين ، الذين نبذوا العالم لكي يعملوا على خلاص أنفسهم ، هم أجدر الناس بأن يتولوا حكم المسيحيين حكما روحيا . وكان التماسك ينتزع من صومعته على غير رغبة منه ويوضع على العرش الأسقفى ومط تهليل الناس : وكانت أديرة مصر وبلاد الغال والشرق موردا منتظما متصلا يجي منه القديسون والأصاقة ، وسرعان ما اكتشفت الإطعام ذلك الطريق السرى الذى يؤدى الى الحصول على الثروة والوصول الى المناصب . ومن ثم فإن الرهبان ذوى الصيت الذائع ، الذى ارتبطت سمعتهم بشهرة طائفتهم ونجاحها ، عملوا جاهدين على

(١) خصص كريستوستم ثلاثة كتب لاطراء حياة الرهبنة والنفاع عنها . وقد شجبه المثل الذى ضرب فى قصة ذلك نوح على أن يدمى أن المختارين وحدهم (الرهبان) هم الذين يمكن أن ينالوا الخلاص . وفى كتب أخرى أصبح أكثر تسامحا ، وشبه الرهبان بالخص والقم والنجوم وفى مقارفته الطويلة بين الملك والراهب ، يفرغ (وهذا بعيد عن الانصاف) أن الملك سوف يلقى ثوابا أقل . وعظاما أهد .

مضاعفة عدد أتباعهم الأسرى ، فكانوا يلبسون أنفسهم وسط الأسر النبيلة الغنية ، ويستخفون فنون اللق والافراء القيمة لجنبه أولئك المهتمين الذين يمكن أن يغفقوا على مهنة الرهبنة من ثرائهم ويضيفوا عليها من مكائهم . وكان الولد الساخط يولود على فقدان ابن ربما كان ابنه الوحيد ، كما كانت العذراء الساذجة يضلها الفرور ويدفعها الى خرق قوانين الطبيعة ، وكذلك كانت السيدة الثرية تتطلع الى الكمال الوهمي حين تبني ميزات الحياة المائتية . وعلى هذا النحو أذعنن الأرملة المرموقة بولا الى اغراء جيروم (١) وفصلته ، واستمالها أن تصيح ابتها يوستوخيوم Eustochium عروس الله (٢) ، فكرست ابتها هذه للرهبنة . وغادرت بولا روما ، تاركة ابنها الوليد ، بناء على مشورة مرشدها الروحي ، وذهبت في صحبته الى قرية بيت لحم المقدسة ، وهناك أسست مستشفى وأربعة أديرة ، وحصلت ، باحساناتها وكفارتها ، على مكانة رفيعة مرموقة في الكنيسة الكاثوليكية . ولا شك في أن هذه القلة النادرة من أمثال هؤلاء التائبين ضربوا مثلاً لصرهم ، وكانوا عنواناً لمجده وعظمتهم ، غير أن الأديرة كانت مليئة بجمهور من الدهماء المضمورين الفقراء ، الذين كانوا يربحون في أدبرتهم أكثر بكثير مما ضيعوا في دنياهم . فالفلاحون ، والعبيد ، والصناع كانوا يهربون من الفاقة والازدحام الى مهنة شريفة يخفف من محنتها الظاهرة حكم العادة ، واستحسان الناس ، والتراخي الخفي في النظام (٣) . كما أن رعايا روما الذين تعرضت ثرواتهم وأشخاصهم لخراج باهظ غير متكافئ كانوا يهربون من ظلم الحكومة الامبراطورية . أما الشبان الجبناء فقد كانوا يفضلون كفاة حياة الرهبنة على أخطار الحياة العسكرية . وكذلك كان سكان الولايات

(١) يتحدث جيروم في كتبه حديثاً طويلاً عن سيداته القليات - والبحث الخاص الذي سماه « رثاء بولا » (Epitaph of Paula) يعتبر منها يتسم بالغلاة . وفي المقدمة زعم يدعو الى المسخوية .

وفيها يقول :

« لو أن كل أطرافي تحولت الى السنة ، وكل أعضاء جسمي أصبح لها صوت انساني ، لا استطعت أن .. » الى آخره .

(٢) تلبس الراهبة خاتماً في اصبع يدها اليمنى . ثم ينقل الى يدها اليسرى في انتقال ديني ويعتبر هذا رمزا الى أنها تبتذلت الزواج النثوي وأصبحت عروس الله بمعنى أنها قدرت حياتها للرهبنة - (الترجمة) .

(٣) هناك راهب من اخوة الدومنيكان كان يعيش في مدينة قانس في نير خاص بهؤلاء الاخوة وسرعان ما أدرك انه لم تكن هناك عبادة ليلية تزهج راحتهم ، « مع أنهم لم يفسوا دق الاجراس لدعوة الشعب الى التعلم والتهذيب » .

من كل مرتبة ، هم الذين تملكهم الذعر ، وصعدوا الى الفرار امام المتبريرين .
كان كل هؤلاء يجدون في الاديرة مأوى وغذاء ، وهكذا غصت هذه الأماكن
الدينية المقدسة بفرق كاملة من هؤلاء الناس ، وأصبحت الأداة التي أنقذت
الأفراد من محنتهم سببا من الأساليب التي أوهنت قوة الامبراطورية
وحطت من ثباتها وعزمها .

وكانت مهنة الرهبنة عند الأقباط عملا اختياريا من أعمال العبادة ،
وكان الراهب المتقلب في حماسة الدين مهنيا بانتقام الله الأبدي اذا
تخلى عن عبادته ، غير أن أبواب الدير كانت تظل مفتوحة للندم والتوبة .
ومن ثم فإن الرهبان ، الذين كان ضميرهم يستبد قوة من عقولهم
أو عواطفهم ، كان في مقدورهم التحلل من الرهبنة والمودة الى وضع
المواطنين والعلمانيين ، بل ان الراهبات ، عرائس المسيح ، كان في
مقدورهن العدول عن الرهبنة وتقبل الغرامات المشروعة من محب دنيوى .
غير أن الفضائح ، وازدياد الخرافة ، أوجت بوجوب فرض قيود أشد تلائم
الحال ، فكان الرجل الذي يعد للرهبنة يوضع تحت التجربة فترة كافية ،
ثم يدعم ولاه بأن ينذر نفسه فلرا رسميا أبديا ، وكانت قوانين الكنيسة
والدولة تقر ارتباطه الذي لا رجعة فيه . فاذا حرب واحد من هؤلاء ،
اقتضى أثره ، واعتقل ، وأعيد الى سجنه الدائم . كما أن تدخل الحاكم في
مثل هذه الحالات قضى على الحرية والميزة اللتين كانتا من قبل تخففا
بعض الشيء من العبودية الدليلة التي اتسم بها نظام الرهبنة . وكانت
أعمال الراهب ، وكلماته ، وحتى أفكاره ، تحددها قواعد صارمة ،
أو يحددها رئيس متقلب المزاج ، واذا ارتكب آتفه الذنوب عوقب بالتشهير
المشين ، أو الحبس أو الصيام غير العادى ، أو الجلد القاسى . أما الصبيان ،
أو التضجر ، أو الماطلة ، فإنها كانت تعتبر في عداد الخطايا الرهيبة
المقوطة (١) . وكان الخضوع الأصمى لأوامر رئيس الدير ، مهما بلغت
بعيدة عن الصواب ، أو حتى اجرامية ، فإنها كانت المبدأ الأعلى ، والفضيلة
الأولى للرهبان المصريين ، وكثيرا ما كانوا يتعرضون لأشد الاختبارات حتى
يتدربوا على الصبر ، ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يتلقون توجيهها بإزالة

(١) كانت قاعدة كوليبانوس Columbanus . السائدة في الغرب ، تقضى بتوقيف
عقوبة مائة جلدة كعقاص للذنوب الكثافة . وقبل عصر شارلمان كان رؤساء الأديرة
يقطعون أطراف الرهبان ويفلقون هياكلهم ، وهي عقوبة أقل قسوة بكثير من السجن
أو القبور المشيدة تحت سطح الأرض ، والتي ابتكرت بعد ذلك .

انظر مقالا رائعا كتبه مابيلون Mabillon الذى يبدو انه في هذا الشأن كان يكتب
بحرصى من عبقورية الإنسانية وجزاء مجهوده هذا استطاع أن التماسح في دمنعة فاننوم
Vandôme المقسة .

صخرة ضخمة ، أو بالمشابرة على رى عصا يابسة مفروسة فى الأرض لمدة ثلاث سنوات حتى يخضر عودها وتزدهر وتصير شجرة ، أو بصور آتون من النار ، أو بقذف طفلهم فى بركة عميقة • وثمة كثير من القديسين ، أو المجانين ، خلعت أسباؤهم فى قصص الرهبنة بفضل ما اظهروه من طاعة تتسم بالجرأة والتهور • ولا شك فى أن عبادات التصديق والخضوع هذه قد عطمت حرية العقل وهى منبع كل احساس كريم عاقل ، وكان الراهب اذا ما اكتسب رذائل العبيد ، ينعن فى ورع الى عقيدة طاغيته الدينى وأهوائه • ومن ثم فإن جمهورا كبيرا من المتعصبين الذين لا يعرفون الخوف ، أو التعلل ، أو الانسانية ، طغى على سلام الكنيسة الشرقية ، واعتزفت القوات الامبراطورية ، دون خجل ، أنها كانت لا تخشى مقابلة أشد المتبربرين ضراوة مثلما تخشى هؤلاء الناس •

وكثيرا ما كانت الحرافة تشكل الأردية الغربية التى يلبسها الرهبان • وتكسبها قدسية ، غير أن شنوذهم الواضح كان مبعثه فى بعض الأحيان تمسكهم جميعا وبصورة واحدة بنموذج بدائى بسيط أصبح فى نظر كافة الناس مثارا للسخرية بفعل التطورات التى اعتورت طراز الملابس • وانك لترى الأب بنديكت ، مؤسس الرهبنة البندكتية (١) ، ينبذ فى صراحة كل فكرة عن حرية الراهب فى اختيار ملبسه • أو ميزة ذلك الملابس ، ويحض تلاميذه فى جدية على ارتداء الملابس العادية المريحة التى يلبسها أهل البلاد التى يقطنونها • وكانت عبادات الرهبان الأقدمين فى الملابس تختلف باختلاف المناخ وطريقة المعيشة ، فكان لا يهمهم أن يرتدوا جلود الأغنام التى يلبسها فلاخو مصر ، أو الميعة التى يرتديها فلاسفة الاغريق • وفى مصر كانوا يستخدمون الكتان لأنه رخيص الثمن ومصنوع فى البلاد ، ولكنهم فى الغرب كانوا يتبنون مثل هذه البسلة الغالية التى تعتبر ترفا أجنبيا • وكان من عادة الرهبان أن يقصوا شعورهم أو يحلقوها • ويفعلوا رموسهم ووجوههم حتى لا يشاهدوا أشياء عدسية • أما أقدامهم وأرجلهم فكانت عارية الا فى برد الشتاء القارس ، وكانوا يتكاثرون على عصى طويلة تشد من خطواتهم البطيئة الضعيفة • وكان منظر الزاهد الأصول مفرغا نابيا ، وكل احساس منفر للانسان كان يعتبر ملبولا لدى الله ، كما أن المبدأ اللائكى فى جزيرة تابن Tabenne كان يدين عادة غسيل الأطراف بالماء ومسحها بالزيت • وكان الرهبان

(١) رهبنة القديس بنديكت St. Benedict (٤٨٠ - ٥٤٢ م) التى اسمها فى مونت

كاسينو - (الترجمة)

المختوشون يفرشون الأرض على حشيرة خشنة أو حرام خشن . ويستخذون حزمة من أوراق النجيل يجلسون عليها نظاراً ، ويسندون إليها رؤوسهم ليلة . أما صوامعهم فقد كانت أكوخاً منخفضة ضيقة من آتفه المواد ، وموزعة في الشوارع بصورة منتظمة تشكل في مجموعها قرية كثيرة السكان تقسم داخل السور المشترك كنيسة ، ومستشفى ، وربما مكتبة ، وبعض المرافق الضرورية ، وحديقة ، ونافذة أو مستودعاً لغناء العذب . وكان كل ثلاثين أو أربعين من الأخوة يؤولون أشرة لها نظامها وعقداتها المستقل . أما الأديرة الكبيرة في مصر فقد كانت تتألف من ثلاثين أو أربعين أسرة .

والمتعة والذنب لفظان مترادفان في لغة الرهبان ، وقد اكتشفوا بالتجربة أن الغذاء القليل والصيامات الصارمة هي إحدى وقاية تحمي الإنسان من شهوات الجسد البدنية . ولم تكن قواعد الصيام ، التي فرضوها إلا ماوسوخت ، فأكثروا من نوع واحد : فكان الاحتفال المرح بعيد العصوة يفوض عن الحقيقة غير العادى الذي يمارسونه في الصيام الكبير . غير أن هناك الأديرة الجديدة تراخى شيئاً فشيئاً ، ولم يمتنع رهبان بلاد الشام الشرهون أن يخلدوا قسيلة الضجر والاعتدال التي اتسم بها رهبان مصر . فلتلاميذ أنطونيوس وبخوهموس كانوا يلقون بوجبة يومية (١) قوامها اثنتا عشرة أوقية من الخبز يسمونها على أكلتين بتبطينين ، اثنتان بعد الظهر والثانية في المساء ، وكان يعتبر قسلاً ، بل واجباً ، أن يعطى الراهب عن الخضروات المستوفى التي تقدم في قاعة الأكل . غير أن رئيس الدير كان في بعض الأحيان يظهر كرمه قائماً ويجود عليهم بالكماليات كالخبز ، والفاكهة (والسلاطة) وأسماك النيل العذرية المملحة . وبالتكرير ذات كمية أسماك البحر أو التهر المسموح بها للرهبان أو التي يجوز السماح بها ، غير أن أكل اللحم ظل فترة طويلة قسوراً على المرضى والمسافرين وعندما مناد أكل اللحم بالتكريم في أديرة أوروبا الأكل ضارمة ، سمح ، بلعم الطيور البرية أو الأليف فقط ، كان لحمها أكل دسناً من لحم حيوانات الحقل الكبيرة ، فبال من تمييز عجيب ! ، وكان الماء هو الشراب النقي البريء لدى البدائيين ،

(١) انظر كتاب (The Slate of the Prisons in Engalnd and Wales) تأليف مستر هوارد Mr. Howard - صحيفة ٤٠ - حيث يقول :

« أولئك الذين يشربون الماء لطف ، دون أية غرائل غفيرة ، يجب أن يعرف لهم رطل ونصف من الخبز يوميا » .

ولهذا فإن مؤسس الرهبنة المنهكتية جازن عليها انيطليز انبراهم العصر الى القنازل عن نصيب رومي من النبيذ قدبره خصف التر ، وكلفت كروم ايطاليكا تيسر عليه منح هذا القدر من النبيذ . وعندما عبر غلامينه الظافرون جبال الالب ونهر الراين وبحر البلطيق كانوا يطليون بدلا من النبيذ قدرا مناسباً من البيرة أو خمر عصير التفاح .

وكان طالب الرهبنة المتطلع الى فضيلة الفقر التي يحض عليها الانجيل ، ينبغي ، بمجرد انضمامه الى جماعة رهبان منظمة ، فكرة امتلاك أى شيء يختص به أو ينفرد به (١) دون غيره . بل انه كان لا يستخدم لفظ الامتلاك نفسه . وكان الاخوة يعتمدون على عملهم اليومي ، فالعمل في شربعتهم واجب يحضون عليه بكل قوة ، على اعتبار أنه كفارة وتدريب وعلى أساس أنه أكرم وسيلة للحصول على غذائهم اليومي . وكانوا يزرعون بأيديهم تلك الحدائق والحقول التي كثيرا ما كانوا يستخلصونها بجهدهم من الضبابات والمستنقعات . وكان الرهبان يؤدون طوعية كل الحرف العديدة التي لابد منها للحصول على الملابس والمأوى والأواني وكانت دراسات الرهبنة ، في أكثر الأحوال ، لا تعجل على تبليدهم بحسب الخرافة ، بل تزيدها دكرنا ومع ذلك فإن ما اتسم به بعض علماء النساك من الجسامي أو حب المعرفة والامتطلاع هو الذي هرب العلوم الدينية ، بل والعلوم الدنيوية ، ولابد للأجيال التالية من أن تعترف بحسب شبرك وامتنان بأن أعلام هؤلاء الرهبان هي التي دأبت دون ككل أو جمل على حفظ آثار اليونان والرومان ، وضاعفتها . غير أن الرهبان الذين لم يرتفع عنهم الى هذا المستوى ، وخاصة في مصر ، كانوا ينعنون ، بأعمال صامتا يؤدونها وهم جالسون ، فيصنعون النعال الخشبية ، أو السلال والحصائر من أوراق النخيل المضفورة وكان الفائض لديهم مما يستخدمونه في الأغراض المحلية ، يسد عن طريق التجارة حاجات المجتمع ، وكلفت سفن ثابن Tabenne وأديرة طبية الأخرى تسير في النيل شمالا حتى الاسكندرية . وفي الأسواق المسيحية كان من الجائز أن ترتفع القيمة الاسمية للمصنوعات بفضل قدسية صانعيها .

(١) أمثال تعبيرات « كتابي » ، « رداي » ، « حذاي » لم تكن محظورة بهذا القدر بين رهبان الغرب ، وكانت قاعدة كوليانوس تقضي بجلدهم ست جلادات
ويبدو أن المؤلف الساخر لكتاب Ordre Monastique ، وهو الذي يسخر من رقة الأديرة الحديثة ، يبدو أنه لا يدري شيئا عن سخط الرهبان القديسين .

غير أن الرهبان تخلوا رويدا عن ضرورة العمل اليدوي ، وكان الراهب الذي يؤهل للرهبة يستمال الى منع ثروته للقديسين الذين اعتزم ان يقضى بقية حياته في مجتمعهم ، وسمح له التساهل الضار من جانب القوانين بأن يتسلم أية مواد تؤول اليه في المستقبل عن طريق الوصية أو الميراث ، ثم يخصصها لهؤلاء القديسين ، وعلى هذا النحو قدمت ميلانيا طبعا من الفضة وزنه ثلاثمائة رطل ، كما اقترضت يولا دينارا كبيرا للتخفيف عن الرهبان الذين كانوا موضع حبا ، وعلى ذلك تفضل الرهبان بمنح صلواتهم وكفارتهم للخاطئين الثريتين السخيتين (١) . وضاعف مرور الزمن بصورة مستمرة من أملاك الأديرة المعروفة . أما أحداث الزمن فقلما أنقصتها : وانتشرت هذه الأديرة في القرى والمدن المجاورة ، وقد لاحظ المؤرخ الكافر زوسيموس Zosimos أن الرهبان المسيحيين ، خلعة للفقراء ، قد هبطوا بجزء كبير من الناس الى حالة التسول . ومع ذلك فانهم طالما كانوا محتفظين بغيرتهم الأولى ، فقد اعتبروا أنفسهم حفظة أخيارا أمناء على الصدقات التي يؤمنون عليها غير أن الرخاء أفسد نظامهم ، فاتخذوا لأنفسهم بالتدريج مظهر الكبرياء الذي يبعثه الثراء ، وفي نهاية الأمر افسسوا في ترف السعة وبحبوحة العيش . وقد تكون فخلمة العبادة الدينية ، والدوافع النبيلة التي دفعتهم الى بناء مساكن قوية متينة لمجتمعهم الخالد ، قد تكون كل هذه الأشياء مبررا لبئسهم العام ، غير أن كل عصر من عصور الكنيسة قد اتهم إباحية الرهبان المنحلين الذين لم يعودوا يذكرون الهدف من نظام الرهبة ، بل انغمسوا في ملذات الدنيا الحسية الباطلة التي كانوا نبذوها ، وأساءوا بصورة فاضحة استخدام الثروات التي حصل عليها مؤسسو الرهبة بفضائلهم القوية الصارمة (٢) . ومن الجائز أن تراجعهم الطبيعي عن مثل هذه الفضيلة المؤلمة الخطيرة وانحدارهم الى الرذائل البشرية العادية ، من الجائز ألا يثير ذلك كثيرا من الحزن والسخط في عقل الفيلسوف .

(١) أرادت ميلانيا أن تحدد قيمة هديتها ، فاجابها الراهب بامبو Bambo اجابة رائعة قائلا :

« اتسحين هذه الهدية لي أم لله ؟ فإذا كانت لله فإن الذي يطلق الجبال في ميزان ليس لي حاجة الى أن أخبره عن وزن هذا الطبق » .

(٢) سمعت في مكان ما أو قرأت في كتاب ما عن الاعترافات الصريحة التي أدلى بها رئيس دير لرهبان البنيديكت . وهو يقول :

(لك نذرت الفقر ، وكسبت من وراء تلك حانة ألف « كرون » سنويا . ونذرت الطاعة ، وارتفعت بفضلها الى مكانة حاكم سيد) .
ولقد نسيت مكسبه من وراء نذره العفة .

وكان الرهبان البدائيون يقضون حياتهم في التوبة والعزلة ، لا ترعجهم مختلف الأعمال التي تشغل وقت العقلاء الكادحين من بني البشر ، والتي تكسب ملكاتهم مرانا وتدريبا . وكلما كان يؤذن لهم بمجاوزة نطاق الدير ، كان يسمح لزميلين بالخروج ، على أن يكون الواحد منهما حارسا على زميله ورقيبا على أعماله بدافع من الفيرة المتبادلة ، وبعد عودتهما كان يفرض عليهما أن يتناسيا ، أو على الأقل يكتما في صدريهما ، كل ما شاهداه أو سمعاه في العالم . وإذا زار الدير غرباء من معتنقي العقيدة الأرثوذكسية (الصحيحة) كان الرهبان يكرمون وفادتهم في بيت مستقل ، غير أن أحاديثهم الخطيرة كانت تحصر في نطاق نخبة مختارة من الرهبان كبار السن ذوي الحكمة والاخلاص . وكان الراهب المستبعد لا يسمح له باستقبال أصدقاء أو أقارب الا في حضور هؤلاء الكبار ، فإذا صدم شعور أخت رقيقة ، أو والد عجوز باصراره على رفض كلمة معهم أو نظرة اليهم ، كان ذلك من جانبه عملا يستحق عليه عظيم التقدير . وكان الرهبان أنفسهم يقضون حياتهم دون اتصالات شخصية ، وبين جمهور جيعته الصدفة ، وأصبح حبس السجن نفسه ، بحكم الاضطراب أو الهوى . وليس لدى الرهبان المتنسكين كثير من الأفكار أو الأحاسيس ينقلونه الى غيرهم ، كما أن رئيس الدير هو الذي يمنحهم تصريحاً خاصاً يحدد فيه وقت زيارتهم للعبادة وفترة دوامها ، وهم يتساولون طعاهم صامتين ، ويفطون رؤوسهم بحيث لا يشاهد بعضهم بعضا . والدراسة هي الملاذ الوحيد للإنسان في عزلته ، غير أن الصانع والفلاحين الذين امتلأت بهم مجتمعات الأديرة لم يتلقوا من التعليم ما يهيئهم أو يؤهلهم لأية دراسات حرة . ومن الجائز أنهم كانوا يلجأون الى العمل ، غير أن غرورهم بكالهم الروحي كان يفريهم على احتقار ممارسة العمل اليدوي ، وبدهى أن العمل الذي لا يهواه صاحبه لابد أن يكون عملا ضعيفا فائرا .

وكانوا يقضون النهار في صوامعهم ، ويستقلون ، حسب إيمانهم وغيرتهم ، في صلوات يتلونها بصوت مسرور ، أو في صلوات صامتا . ثم يجتمعون في المساء ، ويستيقظون في الليل للعبادة العامة التي يقضيها الدير ، والتي تحدد لحظتها الدقيقة نجوم الليل التي قلما تعجبها السحب في سماء مصر الصاكية . وكنت تسمع صوت نغير أو بوق يدعو الى الصلاة ، ويخرق سكون الصحراء مرتين كل ليلة . وحتى النوم وهو آخر ملاذ للبؤساء التمساء ، كان يقاس ويحسب في صرامة ، وكانت ساعات الفراغ التي يقضيها الراهب تمر في بقاء دون عمل أو متعة . لهذا كان قبل انتهاء كل نهار يتهم الشمس مرارا وتكرارا بالتلكؤ الذي يثير الملل . وفي هذه

الحالة المتعبة الوجهة كانت المخافة تطلوذ أولئك البؤساء المتعلقين بها ، وتعذبهم ، وراحة الببال التي ذهبوا الى الدير ينشدونها كانت تزعجها فكرة التوبة المتأخرة ، والشكوك الدنسة ، والشبهوات الأثيمة . ولأنهم كانوا يعتبرون كل دافع طبيعي خطيئة لا تقتصر ، فقد كانوا يرتعدون دواما على حافة حاوية ملتعبة لا تحذر لها - وفي بعض الأحيان كاذبة الجنون أو الموت ينقذ هؤلاء الضحايا البائسين من كفاحهم المؤلم ضد المرض واليأس . فخلال في القرن السادس مستشفى في اورشليم لعدد صغير من أولئك التائبين الزاهدين الذين عقدوا صوابهم . وقبل أن يصل هؤلاء الرهبان الى هذه الحالة القصوى من الجنون الأكيد كانت تقرأ لهم رؤى شكلت مادة غزيرة في تاريخ ما وراء الطبيعة . وكانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن الهواء الذي يستنشقه مملوء بأشباح الأعداء غير المنظورة ، وبشياطين لا يحصى لها عدد ، وكلها تتحين كل فرصة ، وتبدو على كل شكل ، لتخيف أو فضلا عن ذلك لتقري ما لديهم من فضيلة تفقر الى الحماية والصون . وكانت أوهام التعصب المضطرب تخدع خيالهم ، بل وتضل حواسهم ، ولا شك في أن الناسك الذي يطفى النوم اللاإرادي على صلواته التي يتلوها في منتصف الليل ، من السهل أن يخلط بين أشباح الفزع وبين أطياف الفرح التي شغلت أحلام نومه وأحلام يقظته .

سانت سيميون « العمود »

كان الرهبان ينقسمون الى طائفتين ، رهبان الكاينوبيت Caenobite الذين يعيشون تحت نظام مشترك رتيب ، والرهبان الزهاد Anachorets الذين يمارسون العبادة الصارمة المتزمتة في عزلة عن الناس وبطريقتهم الخاصة . وكان المتطرفون في تقواهم ، أو في طموحهم ، من الاخوة الروحانيين ، ينبذون الدير كما نبذوا العالم . وكانت أديرة مصر وفلسطين وسوريا المتفالية في حماسها الديني محاطة بدائرة بعيدة من صوامع منعزلة يعيش فيها الرهبان ، ويمارسون فيها كفارة مبالغ فيها بدافع من المنافسة والرغبة في نوال التقدير والاستحسان ، وكانوا يحملون من الصليبان والقيود ما ينوعون تحت أثقاله الأثيمة ، ويحيطون أعناقهم وأطرافهم الهزيلة الضامرة بالعقود ، والأساور ، ولقفازات ، ودروع الأرجل المصنوعة من الحديد السميك ، وطرحوا عين أجسادهم في احتقار كل ملابس يضايقهم ولا يحتاجون إليه . فاذا ما تجرد بعض القديسين

الهمج من ملائسهم ، رجالا أو نساء ، واصبحت أجسادهم العارية لا يسترها شيء سوى شعورهم ، صاروا موضع الإعجاب . وكانوا يتطلعون الى الهبوط بأنفسهم الى الحالة البدائية البائسة التي لا يسكاد يمتاز فيها الحيوان الانساني عن اقاربه من الحيوانات الأخرى ، وقد اشتق أبناء طائفة الزهاد Anachorets الكثرة العدد اسمهم هذا من العادة الوضيعة التي درجوا عليها ، وهي أنهم كانوا يشاركون قطعان الماشية في أكل حشائش الأرض في حقول العراق . وكثيرا ما اغتصبوا جحور بعض الحيوانات الضارية التي أرادوا التشبه بها ، ودفنوا أنفسهم في بعض الكهوف المظلمة التي نحتها الفن ، أو نحتها الطبيعة في الصخر ، وما تزال محاجر الرخام في طيبة تحمل آثار كفارتهم . وكان المفروض أن أكثر النساك كمالاتهم أولئك الذين يقضون أياما كثيرة دون طعام ، وليالي كثيرة دون نوم ، وسنوات كثيرة دون التحدث الى أحد . ويالمجد ذلك «الرجل» (واني هنا أسئ الى ذلك الاسم) الذي كان يبتدع صومعة ذات طراز عجيب يتعرض فيها لقسوة الطقس في مختلف الفصول ، أو يتخذ لنفسه جلسة تحقق الغرض نفسه !

ومن بين أبطال حياة الرهبنة هؤلاء ، راهب اسمه سيميون (العمود) خلد اسمه وعبقريته بابتكار عجيب فريد ، هو كفارة هوائية . فعندما كان هذا الشاب السوري في الثالثة عشرة من عمره ترك مهنة الرعي . وقذف بنفسه في دير من هذه الأديرة الصارمة . وبعد أن قضى فترة طويلة مؤلة في الاعداد للرهبنة ، أنقذ فيها مرارا من الانتحار نتيجة ممارسته ورعه وتقواه ، استقر فوق جبل يقع على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا الى الشرق من أنطاكية . وهناك قبع داخل (مندره) أو دائرة من الأحجار ، وربط نفسه بقيد ثقيل . وبعد ذلك ارتقى عمودا كان في الأصل يرتفع تسعة أقدام عن الأرض ، ثم رفعه على السنين قدما . وفي هذا الوضع المرتفع الأخير تحمل الزاهد السوري حرارة ثلاثين صيفا وبرد ثلاثين شتاء . وتعلم بالتعود والمران أن يظل في هذا الوضع الخطير دون أن يشعر بخوف أو دوار ، وأن يتخذ مختلف أوضاع التعبد واحدا بعد الآخر . فكان في بعض الأحيان يقوم بالصلاة منتصب القامة ، باسطا ذراعيه على شكل صليب ، غير أن الطريقة المألوفة لديه أكثر ما يكون هي أنه كان يشنى جذعه النحيل من جبهته الى قدميه مرات ومرات يمل حصرها المشاهد بعد أن يجاوز الألف عدا . وقد أصيب من جراء ذلك بقرحة في فخذه (١) قصرت هذه الحياة السماوية ، ولكنها لم تزعجها ، وأخيرا مات

(١) يجب ألا تخفى خرافة قديمة تصف أصل هذه القرحة . فقد قيل ان الشيطان اتخذ صورة ملاك ودعا للنزول في عربة من نار كما فعل النبي ايليا . وبادر القنيس الى رفع قمه ، فانتهز الشيطان هذه اللحظة وصب عقابه على الراهب المغرور .

ذلك الناسك الصبور دون أن ينزل من فوق عموده . ولو أن حاكما دفعه مزاجه الى توقيع هذه الألوان من العذاب لرمى بالطغيان ، غير أنه ليس في مقدور أية طاغية أن يفرض على ضحايا قسوته حياة طويلة بائسة يعيشونها كارهين مرغمين . ولابد أن هذا التعذيب الاختياري القاتل قد قضى شيئا فشيئا على حساسية العقل والجسم . ولا يمكن أن يدعى أحد أن المتعصبين الذين يعذبون أنفسهم بهذه الصورة يحسون بأي حب قوى لغيرهم من بني الانسان . وفي الحق أن الرهبان ، في كل الصور وفي كل البلدان ، قد اتسموا بطباع قاسية لا تحس ولا تتأثر ، كما أن جفاهم وعدم اكترائهم بأي شيء ، وهو الذي قلما تخففه صداقة شخصية ، انما يزيد التهابا بفعل الكراهية الدينية . وقد تحكم حساسهم الذي لا يعرف شفقة أو رحمة في المهمة المقدسة التي كانت تقوم بها محاكم التفتيش الرومانية الكاثوليكية .

وكان قديسو الأديرة ، الذين لا يحتقرهم ويرثي لهم الا رجل فيلسوف ، كان هؤلاء موضع احترام بل وتقديس الحاكم والشعب . فتمة جماهير متلاحقة من حجاج بلاد الغال والهند كانت تقدم التحية للعمود المقدس الذي جلس عليه سيميون ، وقبائل العرب المشاركة كانت تتنازع بالسلاح شرف بركته ، وملوك بلاد العرب وبلاد الفرس كانوا يعترفون في امتنان بفضيلته الخارقة ، كما كان ثيودوسيوس الأصغر يستشير الناسك الملائكي في أهم شئون الكنيسة والدولة . وقد نقلت رفات هذا الناسك من جبل تليسيسا Telenissa في موكب مهيب يتألف من البطريرك ، والقائد الأعلى للشرق ، وستة أساقفة ، وواحد وعشرين ترببونا ، وستة آلاف جندي ، وأصبحت عظامه موضع تجيل أنطاكية على أساس أنها حليتها المجيدة ودرعها الواقى الذي لا ينال منه أحد . وتضاءلت شهرة الرسل والشهداء شيئا فشيئا الى جانب هؤلاء الزهاد الذين أحبهم الناس . وخر العالم المسيحي ساجدا أمام أضرحتهم ، وزادت المعجزات المنسوبة الى رفاتهم ، في عددها وطول مدتها على الأقل ، عن تلك الأعمال البطولية التي حققوها أثناء حياتهم . غير أن اخوتهم من الرهبان أصحاب المصلحة أظهروا في مكبر ودهماء أنهم يصدقون قصتهم الذهبية ، وبذلك أضفوا عليها رونقا وجبالا ، وكان من السهل عليهم أن يقتنعوا أبناء ذلك العصر من السذج المصدقين بأن أئفة تقلب في مزاج راعب مصرى أو سورى كان كفيلا بأن يوقف قوانين الكون الأبدية . وقد درج أحباب السماء هؤلاء على شفاء الأمراض المتأصلة بلحسة ، أو كلمة ، أو رسالة من بعيد ، وعلى طرد أكثر الأرواح الشريرة عنادا من النفوس أو الأجسام التي تسكنها . وكانوا يرقدون في ألفة الى جانب سباع الصحراء وحياتها ، أو يسيطرون عليها بأوامرهم العالية ، ويبعثون

الخضرة فى جذوع الأشجار اليابسة ، ويجعلون الحديد يطفو على سطح الماء ، ويصبرون النيل على ظهور التماسيح ، وينعشون أنفسهم فى أتون ملتهب . وهذه القصص المتسمة بالغلاة والمبالغة ، والتي يبدو فيها خيال الشعر ، دون عبقريته أثرت تأثيرا خطيرا فى إيمان المسيحيين وأخلاقهم . وأفسد تصديقها ملكات العقل وحقر من شأنها . كما أفسدت هى نفسها شواهد التاريخ . وأطفأت الخرافة شيئا فشيئا نور الفلسفة والعلم . وكان كل نوع من أنواع العبادة الدينية التى مارسها هؤلاء القديسون ، وكل مذهب غامض من المذاهب التى يؤمنون بها ، يلقي تأييدا ويستمد قوة من الرؤى السماوية ، كما أن كل فضائل الرجولة سحقها حكم الرهبان المتسم بالذلة والجبن والضعفة . وإذا كان فى مقدورنا أن نقيس الفرق بين كتابات شيشرون الفلسفية ونصص ثيودورت المقدسة ، وبين شخصية كاتو وشخصية سيميون ، استطعنا أن نقدر الثورة المشهودة التى حدثت فى الامبراطورية الرومانية خلال فترة قدرها خمسمائة عام .

٢ - تميز نمو المسيحية بنصرين مجيدين حاسمين : نصر على المتعلمين المترفين من مواطنى الامبراطورية الرومانية ، ونصر على شجعان المتبربرين من أبناء سكوديا وجرمانيا الذين قوضوا الامبراطورية واعتنقوا ديانة الرومان . وكان القوط أول هؤلاء المهتدين الهمج . ويرجع الفضل فى اعتناق هذه الأمة للمسيحية الى مواطن أو على الأقل الى فرد من أفراد الرعية ، جدير بأنه يوضح فى مصاف مبتكرى الفنون النافعة الذين أصبحوا أهلا لأن يذكرهم الخلف ، ويلهج بفضلهم وقد حدث أن عصابت القوط التى اجتاحت آسيا فى عصر جالينوس Galienus ، أسرت عددا كبيرا من سكان الولايات الرومانية ، كان من بينهم كثير من المسيحيين ، وعدد من رجال الكنيسة وأصبح كل هؤلاء مبشرين من غير قصد ، وتفرقوا كأرقاء فى قرى منطقة داكيا (١) Dacia ، وعملوا تباعا على خلاص ساداتهم ، وانتشرت بالتدريج بذور العقيدة الانجيلية التى غرسوها ، وقبل أن ينصرم قرن من الزمان تحقق هذا العمل التقى نتيجة مجهودات يولفيلاس Ulphilas الذى كان أجداده قد انتقلوا الى ما وراء الدانوب من بلدة صغيرة فى إقليم كبادوكيا .

واكتسب يولفيلاس ، أسقف القوط ورسولهم ، محبة أفراد شعبه واحترامهم بفضل حياته المستقيمة الطاهرة وغيته التى لا يعترىها الرهن ، فقبلوا فى ثقة أكيدة مبادئ الحق والفضيلة التى كان يمارسها ويعظ

(١) تشغلها الآن على وجه التقريب رومانيا وبسارابيا - (المراجعة)

بها . وقام بمهمة شاقة هي ترجمة الكتاب المقدس الى لغتهم الوطنية وهي لهجة من لهجات اللغة الجرمانية أو التيوتونية ، غير أنه أعمل في حصة ترجمة « أسفار الملوك الأربعة » ، لأنها قد تهيج روح المتبريرين المتسممة بالشراسة والضراوة . وكانت ألفاظ الجنود والرعاة جافة معيبة ولا تصلح لنقل أية أفكار روحية ، فاتجهت عبقرية يولفيلاس الى تهذيبها وترخيمها ، ومن ثم فانه قبل أن يصوغ ترجمته اضطر الى تكوين حروف هجاء جديدة مكونة من أربعة وعشرين حرفا ابتكر أربعة منها للتعبير عن الأصوات الخاصة التي لم تكن معروفة في النطق اليوناني واللاتيني . غير أن ازدهار الكنيسة القوطية سرعان ما ابتلى بالحرب والنزاع الداخلي ، وانقسم الزعماء من حيث الدين ومن حيث المصلحة . فاهتدى فريتجرن *Fritgern* صديق الرومان على يد يولفيلاس ، بينما ازدرى أثناريك *Atharic* نير الامبراطورية ، ونير الانجيل على السواء وانسار اضطهادا امتحن به ايمان المتحولين الجدد الى المسيحية ، فسير في طرقات المعسكر عربية تحمل صورة لا شكل لها للاله ثور *Thor* أو للاله وودن *Woden* ، وسط موكب مهيب فاذا ما أبى المتحدون عبادة اله أجدادهم أحرقهم على الفور وأحرق معهم أسراتهم وخيامهم . أما يولفيلاس ، فان أخلاقه أكسبته تقدير البلاط الشرقي ، وذهب هناك مرتين دسولا للسلام ، يدافع عن قضية القوط المنكوبين الذين التمسوا حماية الامبراطور فالنز *Valens* وأطلق على هذا الرائد الروحي اسم دوسى ، لأنه قاد شعبه عبر مياه الدانوب العميقة الى أرض الميعاد . وتعلق الرعاة الأتقياء بشخصه ، وانصاعوا لصوته ، ووافقوا على الاستقرار عند سفوح جبال ميزيا *Maesian Mountains* ، في اقليم كثير الأشجار والمراعى يكفي فطمانهم ، ويمكنهم من شراء القمح والنبذ من الولايات الأكثر غنى . وتكاثر هؤلاء المتبريرون المسالمون في ظل السلام والمسيحية .

أما اخوتهم الأكثر غلظة من القوط الغربيين العتاة فقلد اعتنقوا جنميا ديانة الرومان الذين كانوا على اتصال دائم بهم عن طريق الحرب أو الصداقة أو الغزو . وفي مسيرتهم الطويلة الظافرة من الدانوب الى المحيط الأطلنطي حولوا حلفاءهم الى المسيحية ، ونشروا التعليم بين الجيل الصاعد ، وكان الولاء السائد في معسكر الأاريك ، أو في بلاط تولوز ، مثلا يتعلم منه قصر الامبراطور في روما ، وقصر القسطنطينية أو يشعرا بالخرى والعار . وخلال الفترة نفسها اعتنق المسيحية كل المتبريرين تقريبا من الدين أقاموا ممالكهم على أنقاض الامبراطورية الغربية - البرجنديون في بلاد الغال ، السويفي في أسبانيا ، الوندال في أفريقيا ، القوط الشرقيون في باوليا ، ومختلف عصابات المرتزقة التي رفعت

أدواكر الى عرشى ايطاليا . أما الفرنجة والسكسون فقد ظلوا متمسكين
 بأخطاء الوثنية ، غير أن الفرنجة استولوا على ملكه الغال بخضوعهم للمثل
 الذى ضربه كلوفيس Clovis ، كما أن غزاة السكسون الذين فتحوا
 بريطانيا تحولوا عن خرافاتهم الهمجية بفضل مبشرى روما . وقد أبدى
 هؤلاء البرابرة المهتدون حماسا متقدما موقفا فى نشر العقيدة المسيحية ،
 فملوك ميروفنجيان Merovingian kings وخلفاؤهم ، شارلمان
 والملوك الذين يحملون اسم « اتو » The Othos ، سنوا من القوانين
 وأحرزوا من الانتصارات ما وسع نطاق الصليب . وخرج من انجلترا رسول
 الألمان ، وانتشر نور الانجيل شيئا فشيئا من اقليم نهر الراين الى أمم
 نهر الألب والفستيو لا وبحر البلطيق .

وليس فى مقدورنا أن نتحقق فى سهولة من مختلف الدوافع التى
 أثرت فى أحاسيس المتبربرين الذين تحولوا الى المسيحية . فلقد كانوا
 فى أكثر الأحيان يستجيبون لانفعالاتهم وللصدف التى تقابلهم ، فيثأثرون
 بحلم ، أو فال ، أو قصه معجزة ، أو مثل ضربه كاهن أو بطل ، أو مفاتن
 زوجة مؤمنة ، وفوق كل شيء بما ينالون من توفيق نتيجة صلاة أو نذر
 لاله المسيحيين فى ساعة خطر . وقد زال بالتدريج ما غرسه فيه تربيته
 من تعصب قديم بفضل تعودهم على الاختلاط الكثير بالمجتمع ، ووجدت
 تعاليم الانجيل الأخلاقية من فضائل الرهبان المفرطة ما يصونها ويحميها ،
 كما أن الايمان الدينى الروحى كان يؤيده ما للذخائر الدينية من قوة
 منظورة ، وما للعبادة الدينية من عظمة وأبهة . غير أن المبشرين الذين
 جاهدوا فى تحويل الكفار الى المسيحية كانوا يستخدمون فى بعض الأحيان
 أسلوب اقتناع بارع اقترحه أسقف سكسونى على أحد رجال الدين
 المعروفين . قال ذلك المجادل الحصيف :

« تقبل كل ما يلذ لهم تأكيدهم عن التسلسل المادى الخرافى لأنساب
 الهتهم وآلهتهم الذين تناسلوا بعضهم من بعض . ومن هذا المبدأ يمكنك
 أن تستنتج أن هؤلاء الآلهة من طبيعة ناقصة وتسم بالضعف البشرى ،
 أى ثبوت مولدهم وامكان فنائهم . وسلمهم فى أى زمان ، وبأية وسيلة ،
 وجد أكبر الآلهة أو الالهات عمرا ؟ وما الذى بعث على وجودهم ؟ وهل
 لا يزالون يلدون ، أو أنهم توقفوا عن التناسل ؟ وإذا كانوا قد توقفوا عن
 التناسل ، فسل خصومك أن يعلنوا السبب فى هذا التغير العجيب ، وإذا
 كانوا لا يزالون يلدون ، فإن عدد الآلهة سوف يكون غير محدود ، وهل
 إذا عبدنا دون تبصر الها عاجزا ، ألا نخاطر بإثارة سخط اله غير أعظم
 منه مكانة ؟ ثم هذه السموات والأرض المنظورة ، أى نظام الكون كله ، وهو

شيء يستطيع العقل ادراكه ، هل هو مخلوق أو أزلى ؟ فإذا كان مخلوقا ، فكيف أو أين وجد الآلهة أنفسهم قبل الخليقة ؟ وإذا كان أزليا ، فكيف يدعى هؤلاء الآلهة أنهم حكموا عالما مستقلا كان موجودا من قبل ؟ ادفع بهذه الحجج في هدوء واعتدال . وتطرق في فترات مناسبة الى صدق الإلهام المسيحي وجماله ، وحاول أن تشعر الكفار بالخجل دون أن تثير غضبهم .

غير أن هذا التفكير الميتافيزيقي ، الذي ربما كان أدق من أن يصل اليه ادراك متبربري جرمانيا ، استمد قوة من السلطة ورضاء الناس . وهما أكثر وزنا وأقوى أثرا . فميزة الازدهار الدنيوي لم تعد في جانب القضية الوثنية ، بل انتقلت الى خدمة المسيحية ، والرومان أنفسهم ، وهم أقوى أمم الأرض وأكثرها استنارة ، قد لبذوا خرافتهم القديمة ، وإذا كان الدمار الذي أصاب امبراطوريتهم يبدو كأنه اتهام موجه الى فعالية الدين الجديد ، فإن هذه الوصمة قد عوضها تحول القوط الظافرين الى المسيحية . أما البرابرة الشجعان الموفقون الذين أخضعوا ولايات الغرب فقد استوعبوا الدرس نفسه واتعظوا به وعكسوه على غيرهم . وقبل عصر شارلمان كانت أمم أوروبا المسيحية تنبأى بأنها تمتلك وحدها المناخ المعتدل ، والأراضي الخصبة التي تنتج القمح والنبذ والزيت ، بينما انحصر الوثنيون الهمج مع أصنامهم المأجزة في أطراف الأرض ، في مناطق الشمال المظلمة المتجمدة .

وقد فتحت المسيحية للمتبربرين أبواب السماء وأحدثت تغيرا هاما في حالتهم الأخلاقية والسياسية ، وتعلموا في الوقت عينه استخدام الحروف ، وهو شيء أساسي بالنسبة لدين دونت مبادئه في كتاب مقدس . وبينما كانوا يدرسون الحقيقة الالهية ، كانت مداركهم تتسع دون أن يحسوا باتساع نظراتهم الى التاريخ والطبيعة والفنون والمجتمع . ولا بد أن ترجمة الكتاب المقدس الى لغتهم الوطنية ، الأمر الذي يسر تحولهم الى المسيحية ، قد أثارت شغف رجال الدين منهم بقراءة النص الأصلي ، وتفهم الطقوس المقدسة ، وتمحيص سلسلة التقاليد الكنسية في كتابات آباء الكنيسة . وكانت هذه النعم الروحية مدونة باللغتين اللاتينية واليونانية اللتين انطوت فيهما آثار العلم القديم ، كما أن المؤلفات الخالدة التي كتبها فرجيل وشيشرون وليفي ، والتي أصبحت في متناول البرابرة المسيحيين ، حافظت على وجود اتصال صامت بين عهد أغسطس وبين عصور كلوفيس وشارلمان ، وذكرت الناس بوجود حالة سابقة أكثر كمالا ، وشجعتهم على التنافس . وظلت شعلة العلم ، بصورة خفية ، متقدة متوهجة تبعث الدفء

فى عصر النضج الذى بلغه العالم الغربى ، وتلقى عليه ضوء الاستنارة والثقافة . وعندما كانت المسيحية فى أكثر حالاتها فسادا كان فى مقدور البرابرة أن يتعلموا العدالة من القانون ، ويأخذوا الرحمة من الانجيل . وإذا كانت معرفتهم بواجبهم غير كافية لهداية أعمالهم وضبط عواطفهم وأهوائهم ، فانهم فى بعض الأحيان كانوا يجدون رادعا من ضميرهم ، وكثيرا ما كان الندم عقابهم . غير أن سلطة الدين المباشرة كانت أقل فعالية من تناول القربان المقدس الذى ألف بين قلوب المسيحيين فى صداقة روحية . وقد أسهم تأثير هذه الأحاسيس فى ضمان ولائهم للرومان أو للتحالف معهم ، وفى التخفيف من أهوال الحرب ، وفى تلطيف حدة الغزو وصلفه ، وفى الإبقاء على احترام دائم لاسم روما ونظمها ، إبان سقوط الامبراطورية وفى أيام الوثنية كان كهنة بلاد الفال وجرمانيا يحكمون الشعب ، ويسيطرون على قضاء الولاة والحكام ، وبالمثل حول المهتدون الفيورون قدرا مماثلا ، أو قدرا أكبر ، من الخضوع الخاشع لأخبار العقيدة المسيحية وكانت شخصية الأساقفة المقدسة تلقى سنداً من ممتلكاتهم الدنيوية ، فحصلوا على مقام كريم فى المجالس التشريعية للجنود والمدنيين ، وكان من مصلحتهم ، ومن واجبهم على السواء ، أن يخفوا بالنصح الهادئ من خراوة روح البرابرة . وكانت العلاقة الدائمة بين رجال الدين اللاتين ، وزيارات الحج الكثيرة لروما وأورشليم ، وتزايد سلطة البابوات ، كل أولئك دعم وحدة الجمهورية المسيحية ، وأنتج بالتدريج تماثلا فى العادات وشريعة مشتركة بين الأمم المستقلة ، بل والمتنازعة ، فى أوروبا الحديثة ، الأمر الذى جعلها متميزة عن بقية الجنس الانسانى .

✱ 4

4

0

الفصل الثامن والثلاثون

(٤٧٦)

سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب • ملاحظات عامة

بين عامى ٤٧٦ م و ٤٩٦ م استطاع كلوفيس ، ملك الفرنجة ان يقيم سلطته فى بلاد الغال ، واعتنق المسيحية • وبعد غزوات آكوينتين وبرجانديا اسست مملكة فرنسية فى بلاد الغال • وبعد ان طرد القوط الغربيون من بلاد الغال فتحوا اسبانيا • واستقر السكسون فى بريطانيا من سنة ٤٥٥ الى سنة ٥٨٢ •

سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب

لقد اتممت الآن الرواية الشساعة التى تقص تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، منذ عصرها الموفق فى أيام تراجان والأنطونيين الى أن أفل نجمها تماما فى الغرب ، بعد خمسة قرون تقريبا من عهد المسيح • وفى ذلك الوقت التمس كان هناك كفاح مرير فى بريطانيا بين السكسون والوطنيين على امتلاك البلاد : وقسمت بلاد الغال واسبانيا بين مملكتى الفرنجة والقوط الغربيين القويتين ، وبين المملكتين التابعتين - مملكة السويفى ومملكة البرجنديين • وتعرضت أفريقيا لقسوة اضطهاد الوندال ، ولهجمات العرب العانية : أما روما وايطاليا ، حتى ضفاف الدانوب ، فقد دهمها جيش من المرتزقة البرابرة المنتمين بالظفيان الهمجى ، ثم جاء بعدهم تيودوريك القوطى الشرقى • وناء رعايا الامبراطورية ، الذين استحقوا بنوع أخص اسم الرومان وامتيازاتهم بفضل استخدام اللغة اللاتينية ، ناء هؤلاء جميعا تحت نير الغزو الأجنبى ولحقهم عاره ، واقامت أمم المانيا الظافرة نظاما جديدا من العادات والحكم فى البلدان الغربية من أوروبا • واصبحت عظمة روما ممثلة تمثيلا واهيا

فى اشخاص ملوك القسطنطينية - وهم انخلفاء المزعزعون الضعفاء
للإمبراطور أغسطس . ومع ذلك فقد ظلوا يحكمون الشرق ، من الدانوب
الى نهر النيل ونهر دجلة . ثم قوضت جيوش جستينيان مملكة القوط فى
إيطاليا ومملكة الوندال فى أفريقيا ، وما يزال فى مقدورنا أن نستمد من
تاريخ الإباطرة اليونان سلسلة طويلة من الدروس النافعة والثورات
الساقة .

ملاحظات عامة على سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب

بعد أن تحولت بلاد اليونان الى ولاية رومانية كان اليونان ينسبون
انتصارات روما الى حظ تلك الدولة ، لا الى ميزة فيها . فالآلهة المتقلبة ،
التي توزع أفضالها وتستردها بصورة عمياء ، قد ارتضت الآن أن تتخلى
عن جناحيها ، وتهبط من دنيها وتوطد عرشها القوى الثابت على ضفاف
نهر التيبير (تلك كانت لغة الملوك الحاقدين) . غير أن يونانيا أكثر حكمة
كتب يروح فلسفته تاريخاً مشهوداً للعصر الذى عاش فيه ، وحرم فيه أبناء
وطنه من هذا الجزء الباطل المضلل بأن عرض أمام أبصارهم الأسس
العمية التي قامت عليها عظمة روما . فذكر أن اخلاص المواطنين بعضهم
لبعض ، وللدولة ، كان يدعمه التمسك بالدين ، وكان الشرف
والفضيلة مبدأ الدولة ، والمواطنون الطموحون كانوا يعملون جاهدين لكي
يكونوا أهلاً لأعجاب عصر عظيم مهيب . كما أن حماس شبان الرومان كان
يشتمل ويتحول الى منافسة قوية كلما شاهدوا الصور الوطنية التي تمثل
أجدادهم . وانتهى الكفاح المعتدل بين طبقة النبلاء وطبقة العامة الى اقرار
نوازن دستوري راسخ متكافئ يوحّد بين حرية المجالس الشعبية ، وبين
حكمة السناتو ، وبين السلطات التنفيذية التي يتمتع بها حاكم ملكي .
وعندما كان القنصل يرفع علم الدولة كان كل مواطن يلزم نفسه ، بمقتضى
قسم ارتبط به ، بأن يمتشق الحسام دفاعاً عن قضية بلاده الى أن يتم
الواجب المقدس بأداء خدمة عسكرية قدرها عشر سنوات . وكان من شأن
هذا النظام الحكيم أن تدفقت الأجيال الصاعدة من الجنود والمدنيين الى
ساحة القتال ، وتزايد عددهم بمن انضم اليهم من ولايات إيطاليا المقاتلة
الكثيرة السكان ، التي قاومت الرومان مقاومة يأسلة ، ثم أذعنّت لشجاعتهم
وقبلت التحالف معهم . وهذا المؤرخ الحكيم ، الذى نفث القوة فى صدر
سكيبيو الأصغر ، وشاهد سقوط قرطاجة ودمارها ، هو الذى وصف نظام
الرومان العسكري ، وحشودهم ، وأسلحتهم ، وتدريباتهم ، وامثالهم ،
ومسيراتهم ، ومعسكراتهم ، وفيلقهم الجبار الذى لا يقهر الذى تفوق فى

قوته العاتية على الفيلق المقدوني الذي اشتهر في عهد فيليب والاسكندر .
ومن أنظمة السلم والحرب هذه عرف المؤرخ بوليبيوس Polibius روح الشعب الروماني وسر نجاحه ، فهو شعب لا يعرف الخوف ولا يطيق الراحة والسكون . ولقد رسم الرومان خطة طموحة للغزو كان من الممكن أن يجعلها تأمر الجنس البشري عليهم في الوقت المناسب ، غير أنهم حاولوها وحققوها ، كما أن انتهاكهم الدائم للعدالة كان يلقي سندا من فضائلهم السياسية ، فضائل الحكمة والشجاعة . ومع أن جيوش الرومان كانت تخسر المعركة أحيانا ، إلا أنها كانت تكسب الحرب دائما ، ولهذا تقدمت بخطوات سريعة حتى بلغت نهر الفرات ، ونهر الدانوب ونهر النيل ، والمحيط ، وحطمت ملكية روما الاستبدادية على التوالي تلك التماثيل الذهبية والفضية والنحاسية التي كانت تمثل الأمم وملوكها .

ولا شك في أن نمو مدينة اتسع نطاقها حتى أصبحت امبراطورية ، هو شيء يستحق تفكير عقل فلسفي ، على أساس أنه معجزة فريدة في نوعها . غير أن تدهور روما واضمحلالها هو نتيجة طبيعية حتمية لعظمة جانبها الاعتدال ، فالرفاهية أنضجت مبدأ الاضمحلال ، وعوامل الدمار تضاعفت بامتداد الغزو ، وبمجرد أن أزال الزمن أو الحظ والصدفة ما كان هناك من دعائم مصطنعة ، انهار الكيان الضخم تحت وطأة ثقله هو نفسه . وقصة انهيار هذه الامبراطورية بسيطة واضحة ، وأخرى بنا أن نتساءل عن السبب في بقاء الامبراطورية الرومانية تلك المدة الطويلة بدلا من أن نتساءل عن سبب سقوطها . ذلك أن الجيوش الظافرة ، التي اكتسبت في حروبها النائية ردائل الغرباء والمرترقة ، طفت في أول الأمر على حرية الدولة ، ثم حطمت بعد ذلك جلال الملك وعظمته . كما أن الباطرة ، رغبة منهم في تأمين أشخاصهم والحفاظ على السلام العام ، أصبحوا أداة حقيرة في افساد النظام الذي أكسبهم مهابة لدى الدولة صاحبة السيادة ولدى عيوشهم سواء بسواء . وتراخت قوة الحكومة العسكرية ، وتفككت في نهاية الأمر نتيجة النظم المتحيزة التي وضعها قسطنطين ، ثم طوى على العالم الروماني طوفان من البرابرة .

وكثيرا ما نسب تدهور روما الى نقل مقر الامبراطورية ، غير أن هذا التاريخ اظهر لنا أن سلطات الحكم قد قسمت أكثر من أن تكون قد نقلت ، فعرش القسطنطينية اقيم في الشرق بينما كان الغرب تحت سلطان اباطرة يقيمون في ايطاليا ولهم ميراث متكافئ من الجيوش والولايات . وهذه البدعة الخطيرة أضعفت قوة حكم مزدوج ، وأهاجت ردائله . وتضاعفت بذلك أدوات نظام ظالم مستبد ، وقامت بين خلفاء ثيودوسيوس المنحلين منافسة باطلة على الترف لا على الجدارة . وإذا كانت المحنة الشديدة تتوى

فضيلة شعب حر وتوحيدها ، فانها تنفت المراتة فى أحزاب مملكة تسير
الى الاضمحلال . ومن ثم فان أخصاء أركاديوس وأونوريوس المتخاصمين
المتنازعين غدروا بالدولة لدى أعدائها المشتركين ، وأصبح بلاط بيزنطة
ينظر فى غير اهتمام ، وربما فى غيبة وسرور ، الى العار الذى أصاب
روما ، وإلى المحن التى حلت بإيطاليا ، وإلى فقدان الغرب ، وفى العهود
التالية أعيد التحالف بين الامبراطوريتين ، غير أن معونة الرومان الشرقيين
كانت بطيئة ، ومشكوكا فيها ، وعديمة الجدوى ، واتسعت هوة الخلاف
القومى بين اليونان واللاتين بفعل الاختلاف الدائم فى اللغة والعادات
والمصالح ، بل وفى الديانة نفسها . غير أن هذا الحدث الكبير الأثر
(سقوط الغرب) أثبت بعض الشيء صدق حكم قسطنطين ، ذلك أن
مدينته المنيعه صمدت ، خلال فترة طويلة من الاضمحلال ، جيوش المتبربرين
الظافرة ، وصانعت ثروة آسيا ، وسيطرت ، فى السلم وفى الحرب على
المضايق الهامة التى تصل البحر الأسود بالبحر المتوسط . وهكذا كان
تأسيس القسطنطينية عاملا رئيسيا أسهم فى المحافظة على الشرق ، أكثر
من أن يسهم فى سقوط الغرب .

ولما كانت سعادة الحياة الآخرة هى الهدف العظيم للدين ، فقد
لا ندهش أو نخجل اذا سمعنا أن دخول المسيحية ، أو على الأقل اساءة
استغلالها ، كان لها بعض الأثر فى تدهور الامبراطورية الرومانية
وسقوطها . فرجال الدين نجحوا فى تعليم مبادئ الضيق والاستكانة ،
وفضائل المجتمع الايجابية كانت تقابل بالتثبيط ، وآخر بقايا الروح
العسكرية دفنت فى الأديرة ، وخصص جزء كبير من الثروة العامة والخاصة
لمطالب الصدقة والعبادة المظهرية ، وبمشرت رواتب الجنود على الجماهير
العديمة النفع من الجنسين ، وهى الجماهير التى لم يكن فى مقدورها
الا الدفاع عن مزايا التقشف والعبادة . وأشعل الايمان ، والغيرة وحسب
الاستطلاع ، وعواطف الحياة الدنيا من حقد وطمع ، أشعلت كل هذه
الاشياء نار النزاع اللاهوتى ، والكنيسة ، بل والدولة ، التهمتها الأحزاب
الدينية التى كانت تتصارع فيما بينها صراعا لا تخبو ناره مطلقا ، ويصل
فى بعض الأحيان الى درجة القسوة والعنف . وتحول اهتمام الأباطرة من
المسكرات الى المجالس الكنسية ، وناء العالم الرومانى تحت نير نوع
جديد من الطغيان ، وأصبحت الطوائف المضطهدة عدوا خفيا لبلادها .
ومع ذلك فان روح الحزبية مهما كان ضررها أو سخطها ، هى مبدأ للوحدة
ومبدأ للتفرقة سواء بسواء . فالأساقفة غرسوا من فوق ألف وثمانمائة
منبر واجب الخضوع السلبي لحاكم شرعى أرثوذكسى ، وحافظت
اجتماعاتهم الكثيرة واتصالاتهم الدائمة على ارتباط الكنائس البعيدة
وائتلافها ، كما أن التحالف الروحى بين الكاثوليك زاد من قوة ما فى

الانجيل من تحض على الخير . وقد سلم جيل متخنت ذليل ، فى ورع وتقوى ، بحياة الكسل المتسم بالقدسية التى كان يحياها الرهبان ، ولكن ، لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر الى العزلة بقصد التعبد لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلي عن علم الدولة ، مدفوعين فى ذلك بدافع أكثر دناءة وحقارة ، والتعاليم الدينية يمكن أن تطاع فى يسر وسهولة اذا أجازت الميول الطبيعية للمتعلمين بها ، واكسبتها قدسية ، غير أن النفوذ الخالص الاصيل للمسيحية يمكن أن نتبعه فى تأثيرها اثناجع على المهتدين من برايرة الشمال ، وان يكن هذا التأثير ناقصا . واذا كان تحول قسطنطين الى المسيحية قد عجل باضمحلال الامبراطورية الرومانية ، فان ديانتها الظاهرة كسرت حدة سقوطها ، وحفظت من شراسة طابع الغزاة .

وهذه الثورة الرهيبة يمكن أن يستفاد منها بصورة مجدية فى تعليم العصر الحاضر . فمن واجب الرجل المحب لوطنه أن يفضل مصلحه وطنه المطلقة ومجدها المطلق ، وأن ينمى هذه المصلحة ، وذلك المجد ، غير أن الفيلسوف من حقه أن يوسع نظره ، وأن يعتبر أوروبا دولة واحدة كبيرة وصل مختلف سكانها تقريبا الى مستوى واحد من الأدب والرقى ولسوف يستمر توازن القوى فى حالة تذبذب ، وسوف ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى رفاهية مملكتنا أو الممالك المجاورة ، غير أن هذه الأحداث الجزئية لا يمكن أن تضير ضيرا أساسيا ما نحن فيه من سعادة عمامة ، أو تسمى الى نظام الفنون ، والقوانين والعادات الذى يميز الأوروبيين ومستعمراتهم عن بقية الجنس الانسانى بهذه الصورة النافعة . ان الأمم الهمجية فى العالم هى العدو المشترك للمجتمع المتحضر ، ومن حقنا أن نتساءل فى شئ من الفضول الممتزج بالقلق ، ما اذا كانت أوروبا لا تزال مهددة بتكرار تلك الكوارث التى ناءت تحت ثقلها جيوش روما ونظمها . ولعل هذه الأفكار نفسها توضح لنا سقوط تلك الامبراطورية العاتية ، وتفسر الأسباب المرجحة التى أدت الى طمانينتنا الحالية وأعتنا الحاضر .

١ - وكان الرومان يجهلون مدى الخطر المحقق بهم ، وعدد أعدائهم . ف فيما وراء الدانوب والراين كانت البلدان الشمالية من أوروبا وآسيا أهلة بعدد لا يحصى من قبائل الرعاة والصيادين تنسم جميعها بالفقر ، والنهم ، والمشاعبة ، والشجاعة فى القتال ، والتحرق الى تهب ثمار العمل . وسرى فى العالم المتبربر حافز سريع الى الحرب ، واهتز السلم فى بلاد الغال وإيطاليا بفعل الثورات البعيدة المتدلمة فى الصين . ذلك أن قبائل الهون التى فرت أمام عدو طافر منتصر ، وجهت مبرعا صوب الغرب ، وتضخم سيلها بما انضم الى تلك القبائل شيئا فشيئا من

أسرى وحلفاء . كما أن القبائل الهاربة التي استسلمت للهون اتخذت
 بسورها روح الغزو . وترتب على ذلك أن طابورا لا نهاية له من المتبربرين
 أناخ على الامبراطورية الرومانية بثقل متراكم متجمع ، وعندما كانت
 مقدمته تنهزم وتهلك كان الفراغ يملأ على الفور بسيل جديد من المهاجمين .
 ولم تعد الآن مثل هذه الهجرات المهيبة تأتي من الشمال ، وتعتبر فترة
 الهدوء والراحة الطويلة ، التي نسبت الى نقص عدد السكان ، نتيجة
 سعيه لتقسيم الغنوم والزراعة فبعد أن كانت ألمانيا بلدا يضم قرى بدائية
 مبعثرة هنا وهناك بين غاباتها ومستنقعاتها ، أصبحت الآن مشتتة على
 ألفين وثلاثمائة مدينة مسورة . وكذلك قامت على التوالي ممالك الدنمارك
 والسويد وبولندا المسيحية ، ومع تجار الهانسا *Hanse* (١) وفريسان
 التيوتون مستعمراتهم على طول ساحل البلطيق حتى خليج فنلندا .
 وأصبحت روسيا الآن ، من خليج فنلندا الى المحيط الشرقي ، امبراطورية
 لها طابع القوة والتحضر . وظهر المحراث ، والمغزل ومصنع الحديد على
 ضفاف أنهار فولجا وأوبى ولينا . ولقنت أقصى قبائل التتار درسا في
 الخوف والطاعة . وقد انكمش الآن عهد البربرية المنطلقة في حين ضيق ،
 ولم يعد في مقدور قبائل الكلموك والأوزبك والتي تكاد قواتها تعد ، لم يعد
 في مقدورها أن تثير مخاوف دولة أوروبا العظيمة . غير أن هذا الأمن
 الواضح يجب ألا يغرينا على أن ننسى أن أعداء جددا قد يجيئون وأخطارا
 مجهولة قد تنشأ من شعب مغمور لا نكاد نبتين مكانه على خريطة العالم ،
 فالعرب، الذين نشروا فتوحاتهم من الهند الى أسبانيا ، كانوا قبل ذلك قوما
 خاملين يعيشون في فقر وذلة حتى لغت فيهم النبي محمد روح الحماس .

٢ - ولقد كانت امبراطورية روما صرحا راسخا بفضل ائتلاف
 أعضائها ائتلافا فريدا كاملا . فالأمم الخاضعة لها تخلت عن الأمل ، بل
 وعن الرغبة في الاستقلال ، وأخذت طابع المواطنين الرومان ، والولايات
 التابعة لها انتزعتها المتبربرون ، وهي كارهة ، من قلب وطنها الأم . غير
 أن روما اشتهرت هذه الوحدة على حساب فقدان الحرية الوطنية والروح
 العسكرية ، وأصبحت الولايات المستعبدة خلوا من الحياة ومن الحركة
 تنشده سلامتها على أيدي القوات المرتزقة والحكام الذين يتلقون التوجيه
 من أوامر بلاط ملكي بعيد . وأصبحت سعادة مائة مليون من البشر تعتمد
 على الميزة الشخصية التي يتصف بها شخص أو اثنان ، ربما كانا من
 الأطفال ، أفسد عقليهما الترف ، والسلطة المستبدة ، ونوع التعليم .
 وأصبحت الامبراطورية بأعق الجروح عندما كان أبناء ثيودوسيوس

(١) مجموعة من المدن التجارية الألمانية - (الترجمة) .

وأحقاده تحت الوصاية ، وبعد أن بدا على هؤلاء الملوك العاجزين أنهم بلغوا سن الرجولة ، تخلوا عن الكنيسة للأساقفة وتخلوا عن الدولة للخصيان ، وتركوا الولايات للمتجربين . وتنقسم أوروبا الآن إلى اثنتى عشرة دولة قوية ، وإن تكن غير متكافئة ، وثلاث دول تؤلف مجموعته محترمة من الكومنولث ، وعدد من الدول المستقلة المختلفة الأصغر من هؤلاء . وتضاعفت فرص المواهب الملكية والوزارية تبعاً لعدد حكامها ، على الأقل ، فقد يحكم شخص مثل جوليان ، أو سميراميس فى الشمال ، بينما ينال أشخاص من شاكلة أركاديوس وأونوريوس على عروش الجنوب . وحده تأثير الخوف والعار معا من مساوىء الطغيان ، وحقت الجمهوريات نظاماً واستقراراً ، وتشربت الملكيات مبادئ الحرية ، أو على الأقل ، مبادئ الاعتدال ، واتسمت أشبه الدساتير بقصا بشئ من الاحساس بالشرف والعدالة بتأثير اتجاهات الحياة العامة فى هذه العصور . وفى السلم أدت المنافسة بين كثير من المتنافسين النشطاء إلى زيادة سرعة تقدم المعرفة والصناعة ، وفى الحرب أصبحت الصراعات التى تنشعب بين القوى الأوروبية من النوع المعتدل غير الحاسم . وإذا برز الآن فاتح هيجى من صحراوات التتار ، وجب عليه أن يقهر مراراً وتكراراً فلاحي روسيا الأقوياء ، وجيوش ألمانيا العديدة ، ونبلاء فرنسا الأمجاد ، وأحرار بريطانيا الشجعان ، الذين يتضافرون على الدفاع المشترك فى أنفسهم . وإذا حدث أن تمكن المتبربرون الظافرون من تخريب البلدان واستعبادها حتى شاطئ المحيط الأطلنطى ، فإن عشرة آلاف سفينة تستطيع أن تنقل بقايا المجتمع المتحضر بعيداً عن متناول أيديهم ، وتستطيع أوروبا أن تحيا وتزدهر فى العالم الأمريكى ، الذى امتلأ فعلاً بمستعمراتها ونظمها (١) .

٣ - إن البرد ، والفقر ، وحيوة الخطر والتعب تميز قوة البرابرة وشجاعتهم . وقد طفوا فى كل عصر على أمم الصين والهند وفارس المتسمة بالأدب والدعة ، والتى أهملت ، وما تزال تهمل معادلة قدراتها الطبيعية هذه بحيل الفن العسكرى . والمعروف أن الدول العسكرية القديمة ، اليونان ومقدونيا وروما ، قد علمت جيلاً من الجنود ، ودربت أجسامهم ، وهذبت شجاعتهم ، وضاعفت قوتهم بمناورات حربية منتظمة ، وحولت الحديد الذى كانت تملكه إلى أسلحة قوية نافعة . غير أن هذا التفوق

(١) تشتمل أمريكا الآن على ما يقرب من ستة ملايين من دم وأصل أوروبى ، ويزداد عددهم بصورة مستمرة ، على الأقل فى الشمال . ومهما كانت تغييرات وضعهم السياسى ، فلا بد لهم من الحفاظ على عادات أوروبا ، وأنه لن دواعى سرورنا أن اللغة الانجليزية من المحتمل أن تنتشر فى قارة شامعة أهلة بالسكان .

تدهور بصورة غير محسوسة مع تدهور قوانينها وأخلاقها ، وترتب على السياسة الضعيفة التي انتهجها قسطنطين وخلفاؤه أن تعلم المرتزقة المتبربرون كيف يوجهون شجاعتهم البدائية الى تدمير الامبراطورية ، وزودتهم تلك السياسة الضعيفة بسلاح حققوا به ذلك الهدف . وقد تغير الفن العسكري بفضل اختراع البارود ، الذي يمكن الانسان من السيطرة على اقوى عاملين فى الطبيعة ، الهواء والنار . واستغلت العلوم الرياضية ، والكيمياء ، والميكانيكا ، وفن البناء ، لخدمة الحرب واصبحت الاطراف المتخصصة يواجه بعضها بعضا بأعظم أساليب الهجوم والدفاع احكاما . وقد يلاحظ المؤرخون فى غضب وسخط أن استتعدادات الحصار تكفى لتأسيس مستعمرة وازدهارها . ولكن يجب ألا يضايقنا أن يكون تدمير مدينة عملا كثير التكاليف شديد الصعوبة . أو أن الشعب العامل المجهد ينبغي أن تصونه تلك الفنون التي تعمل على فناء الصفة العسكرية وتظل باقية بعد ذلك . وفى الوقت الحاضر تشكل المدافع والحصون حاجزا منيعا ضد خيول التتار ، واصبحت أوروبا آمنة من أية غارات يشنها المتبربرون فى المستقبل ، لأنهم قبل أن يستطيعوا الغزو يجب أن يتخلوا عن هيجيتهم ، وسوف يكون تقدمهم التسفيريحى فى علم الحرب مقترنا دائما ، كما هي الحال فى روسيا ، بتقدم متناسب فى فنون السلم والسياسة المدنية . يجب أن يكونوا هم أنفسهم أهلا لمكانة يحتلونها بين الأمم المتحضرة التي يخضعونها .

وإذا وجد أحد أن هذه الأفكار موضع شك وتنطوى على مغالطة ، فانه لا يزال هناك مصدر أكثر تواضعا نستمد منه راحة وأملا . فاكشافات الملاحين القدماء والحديثين ، والتاريخ أو التراث الوطنى لأكثر الأمم استنارة ، تصور لنا الانسان الهيجى عارى الجسم والعقل معا ، ويفتقر الى اللغة (١) . ومن هذه الحالة الوضيعة التي ربما كانت هي الحالة البدائية الشاملة ، ارتفع الانسان تدريجيا الى مستوى السيطرة على الحيوان ، وتخصيب الارض وعبور المحيطات ، وقياس السماء . ولقد كان تقدمه فى تحسين وتدريب مواهبه الجسمية والعقلية تقدما متنوعا غير منتظم ، بطيئا كل البطء فى مبدأ الأمر ، ويزداد درجة بدرجة بسرعة مضاعفة .

(١) انه لا امر يسير . وإن يكن ميلا ، أن تستخرج المراجع التي كتبها الشعراء ، والفلاسفة والمؤرخون . . ومن ثم قاضى أقتنع بالرجوع الى ما كتبه ديودوروس سكيولوس مما يعتبر دليلا حاسما أصيلا . واکلة الاسماء الذين كانوا فى عصرهم يجوبون سواحل البحر الاحمر ، لا يمكن مقارنتهم الا بالوطنيين فى بلاد هولندا الجديدة . وما يزال فى مقدور الخيالى ، وربما العقل ، أن يفترض وجود حالة طبيعية مطلقة اقل بكثير من مستوى هؤلاء الهيج الذين كان لهم بعض الفنون ، ويملكون بعض الأدوات .

ومرت عصور من الصعود المجهد تلتها لحظة انهيار سريع ، وشاهدت كل بقاع الأرض تقلبات بين الضوء والظلام ، غير أن تجربة أربعة آلاف سنة ينبغي أن تفسح آمالنا وتقلل مخاوفنا ، وليس في مقدورنا أن نحدد مدى الرقى الذى يصبو اليه النوع الانسانى فى تقدمه نحو الكمال ، غير أننا نستطيع أن نقرر فى اطمئنان أنه ليس هناك شعب من الشعوب يمكن أن يرتد الى حالته الهمجية الأولى . والتقدم الذى يصور المجتمع يمكن أن ينظر اليه من ثلاثة جوانب :

١ - فالشاعر أو الفيلسوف يصور عصره وبلاده بمجهودات عقل واحد بمفرده . غير أن هذه القدرات المتمايزة التى يمتلكها العقل أو الخيال هي انتاج نادر وذاتى ، ولا شك فى أن عبقرية هوميروس أو شيشرون أو نيوتن لا تلقى مثل ما تلقاه من اعجاب لو كان فى مقدور ارادة حاكم أو دروس معلم أن تخلقها .

٢ - ان فوائد القانون والسياسة والتجارة والصناعة ، والفنون والعلوم هي أكثر ثباتا ودواما ، وقد يؤهل التعليم والنظام كثيرا من الأفراد لتنمية مصلحة المجتمع كل فى مركزه ووظيفته ، غير أن هذا النظام العام هو نتيجة المهارة والعمل ، وقد يضمحل الجهاز المعقد بفعل الزمن ، او يضار بتأثير العنف .

٣ - ومن حسن حظ الجنس البشرى أن الفنون الأكثر نفعا ، او على الأقل ، الأكثر ضرورة ، يمكن اداؤها دون حاجة الى مواهب ممتازة ، او الى الخضوع لتنظيم قومى ، دون كفايات فرد ، أو تضاعف كثرة من الناس . فكل قرية ، وكل أسرة ، وكل فرد ، كل من هؤلاء يجب أن يمتلك قدرة ورغبة تمكثانه من المداومة على استخدام النار والمعادن ، وعلى تنمية الحيوانات الأليفة والانتفاع بها ، وعلى استخدام وسائل الصيد البرى والبحرى ، وعلى الامام بأوليات الملاحة ، وعلى زراعة القمح والحبوب الغذائية الأخرى بطريقة عادية ، وعلى ممارسة الحرف الآلية ممارسة بسيطة . فالعبقرية الشخصية قد تهلك ، والصناعة العامة قد تنقرض ، غير أن تلك النباتات القوية تعيش بعد العاصفة ، وتضرب بجذور دائمة فى أقل أنواع التربة ملائمة لها . ولقد غطت سحابة من الجهل عصور أغسطس وتراجان الرائعة ، وقوض المتبريرون قوانين روما وقصورها ، غير أن المنجل ، الذى اخترعه أله الزراعة الرومانى « زحل » ، أو الذى أصبح رمزا له ، ظل يستخدم سنويا فى جنى محاصيل إيطاليا ، ولم تتجدد

أبدا تلك الولايم البشرية التى كان يقيمها الستريجون (١) Laestrigons
على شاطئ كيمانيا *

ومنذ أول اكتشاف للفنون ، نشرت الحروب ، والتجارة ،
والحماس الدينى هذه النعم التى لا تقدر قيمتها ، بين الهمج فى الدنيا
القديمة والدنيا الجديدة ، وتوالى انتشارها بحيث أصبحت أشياء لا تزول •
ومن ثم ينبغي علينا أن نرتضى هذه النتيجة السعيدة ، وهى أن كل عصر من
عصور الدنيا قد ضاعف وما يزال يضاعف ثروة الجنس البشرى الحقيقية ،
وسعادته ، ومعرفته ، وربما فضيلته (٢) •

(١) جنس من أكلة لحوم البشر الردة قابلهم أوديسيوس - (الترجمة) •

(٢) كثيرا ما تلوث فضل الاستكشاف بالخشع ، والقسوة ، والتعصب ، كما أن
الاتصال الذى حدث بين الأمم قد ترقب عليه انتقال المرض والتحيز • وهناك شذوذ
عديم عن هذه القاعدة يعود الى ما يتصف به عصرنا هذا ويلبنا هذه من غسيلة .
فالرحلات الخمس الكبيرة التى تمت بأمر من صاحب الجلالة الحالى ، كان الياعث عليها
حبه الخالص الكرويم للعلم وللجنس البشرى • وهذا الملك ، الذى يوزع احساناته بما يلائم
مختلف مراحل المجتمع ، أمس فى عاصمته مدرسة للرسم ، وأدخل فى جزائر البحر
الجنوبى تلك الخضروات والحيوانات الأكثر نفعا للحياة الانسانية •

دولت کے اِطالیّا

الفصل التاسع والثلاثون

(٤٩٤ - ٥٢٦)

حكم ثيودوريك القوطي الشرقي • رخاء روما وإيطاليا •
أريوسية ثيودوريك • قتل بويثيوس • موت ثيودوريك

غزا ثيودوريك إيطاليا بموافقة زينون ، امبراطور الشرق ، وهزم
أدواكر ، وقتل أدواكر في سنة ٤٩٣ • وفي السنة نفسها ارتقى عرش
القسطنطينية اناستاسيوس خلفا لزينون • وحكم ثيودوريك مملكة قوطية
في إيطاليا ، من ٤٩٤ الى ٥٢٦ م •

عهد ثيودوريك

نشر انتصار ثيودوريك بين متبربري الغرب حالة ذعر عامة ،
ولكن بمجرد أن ظهر لهم أنه قنع بالغزو وأصبح راغبا في السلام ،
تحول الذعر الى احترام ، وأذعنوا الى وساطة قوية استخدمت لتحقيق
أحسن الأهداف ، وهي تسوية نزاعاتهم وتهذيب عاداتهم • وعندما
ذهب السفراء الوافدون من أبعد بلدان أوروبا الى رافنا ، أعجبوا بحمته ،
وفخامته ، وأدبه ، وإذا كان في بعض الأحيان قد قبل العبيد أو الأسلحة ،
أو الخيول البيضاء أو الحيوانات الغريبة ، فإن الهدايا مزولة ، أو ساعة
مائية ، أو موسيقارا ، كان يوجه نظر ملوك بلاد الغال أنفسهم الى تفوق
رعاياه الإيطاليين في الفن والصناعة • وكانت أسرة ثيودوريك تتألف من
زوجة وابنتين ، وأخت ، وابنة أخت وقد ألفت مصاهراته العائلية بين
أسرته وبين ملوك الفرنجة والبرجنديين ، والقوط الغربيين ، والوندال
والثورنجيين ، وأسهمت في المحافظة على اتساق ، أو على الأقل ، توازن

دولة الغرب الكبرى • ومن الصعب أن نتتبع ، في غابات ألمانيا وبولندا المظلمة ، هجرات شعب الهيريولى ، وهو شعب شديد المراس كان يزدرى استخدام الدرع ، ويحكم على النساء الأرامل بالموت اذا مات أزواجهن ، وعلى الآباء الطاعنين في السن ألا يعيشوا بعد أن تضمحل صحتهم • وقد التمس ملك هؤلاء المقاتلين الهمج صداقة ثيودوريك ، وورعه هذا الى مرتبة ابنه بمقتضى الطقوس البربرية الخاصة بالتبني العسكري ، وجاء أهل استونيا أو ليفونيا من شواطئ بحر البلطيق يضعون هداياهم من العنبر الوطنى تحت أقدام ملك دفعتهم شهرته الى القيام برحلة مجهولة خطيرة قطعوا فيها ألفا وخمسمائة ميل • وكان ثيودوريك على اتصال ودى متكرر بالبلد الذي اشتقت منه الأمة القوطية أصلها ، فكان الايطاليون يلبسون فراء السمور الثمينة الواردة من بلاد السويد ، كما أن أحد ملوك هذه البلاد ، وجد فى قصر رافنا ملاذا كريما ، بعد أن اعتزل العرش راغبا أو مكرها • وقد كان هذا الملك يحكم قبيلة من القبائل الثلاث عشرة الكثيرة العدد التى كانت تزرع جزءا صغيرا من جزيرة أو شبه جزيرة اسكنديناوة الكبرى التى كان يطلق عليها فى بعض الأحيان اسم غامض هو تول Thule • وكان هذا الاقليم الشمالى مسكونا حتى خط العرض الثامن والستين ، أو انه اكتشف منه الجزء المحسود بهذا الخط ، حيث يستمتع سكان الدائرة القطبية بظهور الشمس ، فى كل انقلاب صيفى ، فترة قدرها أربعون يوما ، ويفقدونها فترة مماثلة فى كل انقلاب شتوى • وكان الليل الطويل الذى تضيئ فيه الشمس أو تموت ، فصلا حزينا يسوده الكرب والقلق ، الى أن يكتشف الرسل ، الذين أوفدوا الى قمم الجبال ، ظهور أول خيوط الضوء ، ويعلمون الى السهول السفلى عيد بعث الشمس من جديد •

وكانت حياة ثيودوريك مثالا نادرا جديرا بالثناء لرجل متبربر وضع سيفه فى غمده وهو فى زهوة النصر وعنفوان العمر • وقد كرس ثلاثا وثلاثين سنة لواجبات الحكم المدنى ، ومع أنه كان فى بعض الأحيان يخوض الحروب ، الا أن تلك الحروب كانت سرعان ما تنتهى بفضل مسلك ضباطه ، ونظام قواته ، وجيوش حلفائه ، بل وبفضل الخوف الذى كان يبعثه اسمه • وأخضع ، تحت حكومة قوية منظمة ، بلدانا عديمة النفع هى ريتيا ، ونوريكوم ، ودلماشيا ، وبانونيا ، من منبع الدنواب واقليم بافاريا الى المملكة الصغيرة التى أقامتها قبائل جبيدى على أنقاض سرميوم • وكان من الحكمة بحيث لا يستطيع مطمئنا أن ياتمن هؤلاء الجيران الضعفاء المشاغبين على بلاد تعتبر حصنا لايطالها ، كما أن عدله كان يتطلب منه أن يسترد اللدائن التى وقعت تحت نيرهم ، كجزء من

مملكته أو ميراث والده . واثارت عظمة ذلك الخادم الذي نمت بالخيانة لأنه كان ناجحاً مظفراً ، غير الامبراطور أناستاسيوس ونشبت بينهما حرب على حدود داكيا لأن الملك القوطى أظلم بحمايته شخصاً من سلالة أتिला ، فى غمرة من تقلبات الأحوال الانسانية . وتقدم سابيان ، وهو قائد مشهور بكفائته ، وبكفاية أبيه ، على رأس عشرة آلاف جندى من الرومان ووزع المؤن والأسلحة التى ملأت صفا طويلاً من العربات على أشد القبائل البلغارية مراساً . غير أن القوات الشرقية هزمت فى حقول مارجوس على أيدى القوط والهنون الأقل منها عدداً ، وهلكت زهرة الجيوش الرومانية ، بل وأملها ، هلاكاً لا يعوض . وقد نفت ثيودوريك فى قوائمه الطافرة روح الاعتدال ، مما جعلهم لا يمسون أسلاب العدو الكثيرة الملقاة تحت أقدامهم ، طالما أن قائدهم لم يصدر لهم إشارة بنهبها . واستشاط بلاط بيزنطة غضباً ، فأرسل مائتى سفينة وثمانية آلاف رجل لنهب الاقليم الساحلى فى كالابريا وأبوليا ، فهاجموا مدينة تارنتم القديمة ، وعوقوا الزراعة والتجارة فى ذلك البلد النعس ، ثم أبحروا راجعين الى الدردنيل ، فخوذين بانتصار القرصنة الذى أحرزوه على شعب كانوا لا يزالون يدعون اعتباره من اخوتهم الرومان . ومن الجائز أن نشاط ثيودوريك جعلهم يبادرون الى الانسحاب ، فقد حصى إيطاليا بأسطول يتألف من ألف سفينة خفيفة بناها بسرعة لا تصدق ، وسرعان ما توفىء على اعتداله الحازم بعقد صلح شريف قوى . ولقد حافظ ثيودوريك بيد قوية على توازن الغرب ، حتى انهار ذلك التوازن فى نهاية الأمر من جراء أطماع كلوفيس Clovis ورغم أنه عجز عن مساعدة قريبه المتهور المنكود ، ملك القوط الغربيين ، الا أنه أنقذ البقية الباقية من أسرته وشعبه ، وكسر شكيمة الفرنجة وهم منتصرون . ولست أرغب فى اطالة قصة الأحداث الحربية هذه أو تكرارها ، وهى أقل الأحداث فى عهد ثيودوريك ، وسوف أقنع بأن أضيف الى ما قلت انه حمى قبائل الألمان ، وعاقب البرجنديين عقاباً شديداً على غارة شنوها ، وغزا آرل ومرسيليا فأقام بذلك اتصالاً حراً مع القوط الغربيين ، الذين احترموه وبجلوه على اعتبار أنه حامى وطنهم ، والوصى على حفيده ، ابن الأريك الطفل . وبهذه الشخصية المبجلة ، أعاد ملك إيطاليا ولاية الغالين البريتورية ، وأصلح بعض مساوىء الحكم المدنى فى أسبانيا . وقبل جزية سنوية وخضوعاً ظاهرياً من حاكمها العسكرى ، الذى رفض فى حكمة أن يأمن على نفسه بالذهاب الى قصر راقنا . واستقرت السيادة القوطية من صقلية الى الدانوب ، ومن سرميوم أو بلجراد الى المحيط الأطلنطى ، واعترف اليونان أنفسهم بأن ثيودوريك حكم أجمل جزء فى الامبراطورية الغربية .

وكان من الجائز أن يديم اتحاد القوط والرومان سمادة ايطاليا العابرة عصسورا طويلة ، وكان من المحتمل أن يترتب على المنافسة المتبادلة بين فضائل هذين الشعبين بحث جديد لامة هي أولى الامم ، ولشعب جديد من الرعايا الاحرار . غير ان حكم ثيودوريك ان مفتقرا الى الصفة السامية ، صفة قيادة مثل هذه الثورة أو تأييدها . فقد أعوزت هذا الرجل عبقرية المشرع ، أو الفرص المتاحة له ، وبينما سمح للقوط أن يستمتعوا بالحرية الفظة ، فانه قلد في ذلة نظم ، بل ومساوىء ، الكيان السياسى الذى أقامه قسطنطين وخلفاؤه . وقد دفعه احترامه الرقيق لميول روما ، تلك الميول التى قاربت على التلاشى ، الى نبذ اسم الامبراطور ، وتاجه ، وردائه الأرجوانى . غير أنه اتخذ لنفسه ، تحت لقب الملك الوراثى ، كل الامتيازات الامبراطورية من حيث جواهرها وتماثيلها . فكانت رسائله الى العرش الشرقى تتسم بالاحترام والغموض ، وكان يبجل فيها بأسلوب فخم ذلك الاتساق القائم بين الدولتين ، ويشيد بحكومته هو على أنها صورة كاملة لامبراطورية واحدة موحدة ، ويدعى لنفسه ، أكثر من جميع ملوك الأرض ، تلك الرفعة نفسها التى أجازها فى تواضع لشخص أناستاسيوس أو لمقامه . وكان التحالف بين الشرق والغرب يعلن سنويا باختيار قنصلين اختيارا اجماعيا . غير أنه يبدو أن المرشح الايطالى ، الذى كان يعينه ثيودوريك ، كان يحصل على تصديق رسمى من عامل القسطنطينية . وكان القصر القوطى فى رافنا يمسك صورة بلاط ثيودوسيوس أو فالنتينيان . فالوائى البريتورى . ووالى روما ، والكوستر ، ورئيس الديوان ، وأمناء الأموال العامة والمروثة الذين صورت بلاغة كاسيدوروس مهامهم فى ألوان براق ، كل هؤلاء ظلوا يعملون كوزراء للدولة . أما مهمة الاشراف على العدالة والايرادات ، وهى مهمة دون المهام السابقة ، فقد كان يتولاها سبعة قناصل ، وثلاثة مشرفين (١) ، وخمسة رؤساء يحكمون أقاليم ايطاليا الخمسة عشر بمقتضى المبادئ ، بل والشكليات ، الخاصة بالقضاء الرومانى . وترتب على بطل الاجراءات القانونية اضعاف عتب الغزاة أو تجنبه ، واقتصرت الادارة المدنية ، بمناصبها وأرباحها ، على الايطاليين . وظل الناس يحتفظون بملبسهم ولفقتهم ، وبقوانينهم وعاداتهم ، وبحريتهم الشخصية ، وبثلاثى أملاكهم من الأرض . وفيما مضى كان هدف الامبراطور أغسطس أن يخفى دخول النظام الملكى ، وكذلك كانت سياسة ثيودوريك هى ستر حكم رجل متبربر .

(١) Corrector وهو المشرف على الحقوق المدنية . كانت وظيفته تعادل وظيفة والى البريتورى .

ومع أن رعاياه كانوا يستيقظون في بعض الأحيان من حلمهم اللذيذ ، حسب وجود حكومة رومانية ، إلا أنهم كانوا يستمدون راحة أكثر من أخلاق من قوطي يمتلك قدرة نافذة تمكنه من معرفة مصلحته الشخصية والمصلحة العامة ، كما يمتلك الحزم الذي يؤهله لتحقيق هاتين المصلحتين . وكان ثيودوريك يتميز بما يمتلكه من فضائل ، ويحب ما يفترق إليه من مواهب . ورفع ليبريوس إلى منصب الوالي البيروثري نظير إخلاصه الثابت للقضية أدواكر التمسكة . أما كاسيدوروس وبويثيوس ، وزيراً ثيودوريك ، فقد أضغيا على عهده ، رونق عبقريتهما وعلمهما . وكان كاسيدوروس أكثر حكمة أو أحسن حظاً من زميله ، فاستطاع الحفاظ على مكانته دون أن يخسر الخطوة الملكية ، وبعد أن استمتع بأمجاد الدنيا ثلاثين عاماً ، نعم بفترة مماثلة من الراحة في عزلة كرسها للتعب والدرس في سكويلاس Squillace .

رخاء روما وإيطاليا

كان من واجب الملك القوطي ومصلحته ، باعتباره سيد إيطاليا ، أن يحرص في نفوس الشعب والسناتو مشاعر الحب نحوه . فاجتنب نبلاء روما بما أغدقه عليهم من صفات رنانة ومناصب رسمية ، كذلك التي كان يتمتع بها أجدادهم بصورة أقرب إلى العدالة ، نظراً لما توفر لهم من جدارة وسلطة . واستمتع أفراد الشعب ، دون خوف أو خطر ، بنعم العاصمة الثلاث . وهي النظام ، والرخاء ، والملاهي العامة ، غير أن أعدادهم تناقصت تناقصاً ملحوظاً رغم هذا السكرم ، ومع ذلك فإن أبوليا ، وكالابريا ، وصقلية كانت تبعث بخراج القمح المفروض عليها إلى مخازن الحنطة في روما ، ووزع نصيب من الخبز واللحم على المواطنين المعوزين ، وكانت كل رعاية تخصص للعناية بصحتهم تعتبر رعاية كريهة . وكانت الألعاب العامة ، التي قد يمتدحها سفير يوناني ، مجاملة وتادبا ، صورة باهتة ضعيفة لروعة مثيلاتها في عهد القياصرة . غير أن فنون الموسيقى ، والرياضة ، والتمثيل الصامت ، لم تذهب كلية إلى زوايا النسيان . وظلت الوحوش الأفريقية الضارية تطلق في مدرجات الألعاب في مواجهة الصيادين لتدريبهم على الشجاعة والبراعة . وكان الملك القوطي المتسامح يتحمل في صبر ، أو يكبح في رقة ، فرق المجالدين الزرقاء والخضراء ، التي كثيراً ما ملأت ساحة اللعب بالصخب والضوضاء ، بل وخضبتها بالدماء . وزار ثيودوريك في السنة السابعة من حكمه الهادي، العاصمة القديمة للدنيا ، وخرج

أعضاء السيناتو والشعب في موكب مهيب لتحية تراجان ثان ، وفالنطينيان جديد . وعزز ثيودوريك هذه الشخصية بان أكد في خطاب لم يتهيب أن يلقبه أمام الجماهير ويكتبه على لوحة من النحاس ، أن حكمته تتوخى العدالة وتحكم بمقتضى القانون ، وفي هذا الاحتفال العظيم أطلقت روما آخر شعاع من أشعة مجدها المتدهور المضحل ، ولم يكن في وسع أحد القديسين ، وقد شاهد ذلك المنظر العظيم ، الا أن يأمل في خياله الورع الا يكون هناك ما هو أفخم من ذلك الا الروعة السماوية لأورشليم الجديدة . وأقام الملك القوطى في روما ستة شهور أثار فيها شهرته ، وشخصيته ، ومسلكه المذهب الكريم ، اعجاب الرومان ، وكان هو أيضا يتأمل ، بالقدر نفسه من العجب والدهشة ، تلك الآثار الباقية من عظمتهم القديمة ، وارتقى مرتفع الكابيتول في خطوات الفاتح ، واعترف في صراحة أنه كان يشاهد كل يوم ، وفي عجب جديد ، ساحة روما Forum التي أقامها تراجان ، وعموده الشاهق .

وبدا مسرح يومى ، حتى في تدهوره ، كجبل شامخ جوفته صناعة الانسان وصقلته ، وكان في تقديره المقتدر الى الدقة أن مدرج الالعب الضخم ، الذى بناه تيتوس Titus لا بد أنه استنزف نهرا من الذهب . وكانت تصب في المدينة سقايات للمياه عليها أربع عشرة فتحة كل جزء منها بالمياه العذبة الفزيرة ، ومن بينها سقاية كلوديان التي كانت تنبع على ثمانية وثلاثين ميلا من جبال سابين ، ثم تنساب فوق منحدر سهل مستمر يتركز على أقواس صلبة حتى تهبط على تل أفنتين Aventine Hill أما القباء الطويلة الفسيفسائية ، التي شيدت لتصرف المياه العامة ، فقد احتفظت بصلابتها الأصلية بعد اثني عشر قرنا من الزمن . وظلت تلك القنوات الجوفية من الأشياء التي تفضل عجائب روما البادية للعيان ، وقد اتهم ملوك القوط ظلما وعدوانا بتخريب الآثار القديمة ، غير أنهم في واقع الأمر كانوا يحرصون على المحافظة على آثار الزمة التي أخضعوها ، فقد صيغت المراسيم الملكية بحيث تمنع المواطنين أنفسهم من اساءة استعمالها ، أو اهمالها ، أو نهبها . وخصص للاصلاحات العادية اللازمة للأسنوار والمباني العامة مهندس معمارى خبير ، ومبلغ سنوى قدره مائتان من الأبطال الذهبية ، وخمسة وعشرون ألف قطعة من القرميد ، وعائد الجمارك من ميناء لوكرين . وامتدت العناية نفسها الى التماثيل المعدنية أو الرخامية التي تمثل الانسان والحيوان . فكان تماثالا الجوادين المقامين عند مدخل قصر الكويرينال واللذان أكسياه اسما حديثا ، ووضع اعجاب البرابرة ، كما أعبدت تماثيل القبلية النحاسية التي كانت قائمة في طريق ساكرا

Via Sacra . وكان تمثال العجل الذي نحته ميرون (١) **Myron** يندع الماشية عندما كانت تساق في ساحة سوق السلم . وعين ضابط لحماية هذه الأعمال الفنية التي كان ثيودوريك يعتبرها أنبل حلية تزدان بها مملكته .

وجرى ثيودوريك على عادة آخر الإباطرة ، ففضل الإقامة في قصر رافنا ، حيث زرع بيديه بستانا ، وكلما كان المتبريرون يهدون سلام مملكته (لأنها لم تغز قط) ، كان ينتقل بلاطه الملكي الى فيرونا على الحدود الشمالية ، وما تزال صورة قصره مرسومة على عملة باقية الى الآن ، وتمثل أقدم وأصدق طراز للفن المعاصر القوطي .

وهاتان العاصمتان بالإضافة الى بافيا ، وسبوليتو ، ونابولي ، وبقية المدن الإيطالية ، زينت في عهد الكنائس ، والحمامات ، والأروقة ، والقصور وكلها زينات نافعة أو رائعة ، غير أن سعادة أفراد الرعية كانت أكثر وأصدق ظهورا ، في انهماكهم في العمل والترف معا ، وفي سرعة زيادة الثروة القومية ، والجرأة على الاستمتاع بها ، فقد ظل أعضاء السناتو يهرعون في الشتاء من ظلال التيبر ويرانست الى الشمس الدقيئة ، والينابيع الصحية في مدينة بايه **Baiae** ، وكانت (فلاتهم) القائمة على حواجز حجرية صلبة ، تبرز في خليج نابولي ، وتشرف على مختلف مناظر السماء والأرض والماء . وعلى الجانب الشرقي من بحر الادرياتيک أقيمت كمبانيا الجديدة في ولاية استريا الجميلة اليانعة التي كان يصلها بقصر رافنا طريق ملاحى سهل طوله مائة ميل ، وكانت منتجات لوكانيا والولايات المجاورة يتبادلها الناس الى جوار نافورة ماركيليا ، في سوق مزدهمة تخصص سنويا للتجارة ، والمرح ، والخرافة ، وفي مدينة كوموم **Comum** المنعزلة ، التي أقام فيها العالم الروماني بليني **Pliny** فيما مضى ، وأضفى عليها من عبقريته الرقيقة ، كان لا يزال هناك غدير شفاف طوله أكثر من ستين ميلا يعكس ماؤه منظر المقاعد الريفية التي أحاطت بحافة بحيرة لاريا . وكانت منحدرات التلال المدرجة مغطاة بمزارع الزيتون ، والكروم وأشجار البلوط ، وازدهرت الزراعة في ظل السلام والهدوء ، وتضاعف عدد الفلاحين بعد أن اقتدى

(١) نحات يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد - (الترجمة) .

الأسرى (١) . واكتشفت في عناية مناجم الحديد في دالماشيا ، ومنجم الذهب في بروثيوم ، كما جففت مستنقعات بومبتين ، ومستنقعات سبوليتو ، وتولى زراعتها أناس على حسابهم الخاص يتوقف ربحهم البعيد على استمرار الرخاء العام . وعندما كان الانتاج يقل في بعض الفصول ، كانت تتخذ احتياطات غير مؤكدة النتائج ، كفتح حوانيت للقمح وتحديد الأسعار ، وحظر التصدير ، وكلها تثبت على الأقل أن الدولة تعمل للخير .

غير أن ما أنتجه الشعب المجد العامل من تربة البلاد الصالحة أوجد في البلاد وفرة غير عادية بحيث كان جالون النبيذ يباع في إيطاليا أحيانا بأقل من ثلاثة فاردينج (أصغر عملة إنجليزية وتعادل ربع (الينس)) ، والريع من القمح بما يقرب من خمسة شلنات ونصف ، ولا شك في أن بلدا يملك مثل هذه الأشياء الكثيرة الثمينة التي تصلح للتبادل ، سرعان ما اجتذب إليه تجار العالم ، وكانت روح ثيودوريك الكريمة المتحررة تشجع تلك التجارة النافعة وأعيد ، بل زيد ، الاتصال البحر بين الولايات عن طريق البر والبحر ، وكانت أبواب المدينة تظل مفتوحة نهارا وليلا ، وشاع هناك القول بأن في مقدور الانسيان أن يترك وهو آمن كنيسة من الذهب في الحقول ، وفي هذا القول تعبير عن شعور السكان بالأمن والطمأنينة .

أريوسية ثيودوريك

لا شك في أن اختلاف الديانة صار دائما بما هنالك من اتساق وانسجام بين الحاكم والشعب ، وكثيرا ما يقضى على ذلك الانسجام ، ولقد نشأ الفاتح القوطي على عقيدة أريوس ، بينما كانت إيطاليا تدين بعقيدة نيقيا ، غير أن ايمان ثيودوريك لم تلوثه الفيرة والحساس ، وكان متمسكا بهرطقة آبائه دون أن يتبدل الى وزن الحجج الدقيقة الخاصة بالميتافيزيقا اللاهوتية ، وقد قنع بتسامحه الشخصي مع أبناء الطائفة الأريوسية ، واعتقد بصدق أنه خارس العبادة العامة ، وربما كان احترامه الظاهري لعقيدة خرافية يحترقها من الأمور التي غزت في عقله شيئا من عدم الاكتراث المفيد الذي هو من شيم السياسة أو الفلاسفة ، وقد اعترف

(١) خلاص القديس ابيفانيوس St. Epifanius من أهل بافيا . بالصلوات أو القدية ، ستمائة من الأسرى من البرحنديين في ليون وصافوى ، ومثل هذه الأعمال هي أحسن المعجزات .

الكاثوليك في بلاده ، ربما على غير رغبة منهم ، بأن الهدوء يظل كنيسيتهم ، وكان رجال الدين منهم يلقون الحفاوة والتكريم في قصر تيودوريك ، بقدر مقامهم وجدارتهم . وكان الملك يجعل قدسية الأحياء عندهم ، مثل سيزاريوس أسقف أول الأوثوكسي ، وابيغانيوس أسقف يافيا ، وقدم قربانا لائقا على قبر القديس بطرس ، دون أن يهتم بالاستفسار عن عقيدة ذلك الرسول ، وسمح للمقربين اليه من القوط ، حتى أمة ، بأن يحتفظوا بعقيدة أثناسيوس أو يعتنقوها ، ولم يحدث في عهد الطويل أن كاثوليكيا إيطاليا واحدا تحول الى دين الفاتح ، طوعية أو كرها ، وازدادت القوة الروحية بين الشعب ، وبين المتبررين أنفسهم ، بفضل عظيمة العبادة الدينية ونظامها ، وتعلم الحكام أن يجمعوا الحصانات العادلة التي كانت لرجال الكنيسة وممتلكاتها ، وكان الأساقفة يعقدون مجالسهم الكنسية ورؤساء الأساقفة يمارسون سلطتهم القضائية ، كما أن امتيازات أماكن العبادة ظلت كما هي أو خففت وفق روح الفقه الروماني . وإلى جانب أن تيودوريك كان حاميا للكنيسة ، فإنه أصبح صاحب السيادة الشرعية عليها ، وبفضل ادارته الحازمة استعادت الكنيسة أو اكتسبت بعض الامتيازات المفيدة التي كان أباطرة الغرب الضعفاء قد أهملوها . ولم يغب عنه ما كان هنالك من مكانة وأهمية للحبر الروماني الذي أطلق عليه الآن الاسم المجل « البابا » ولا شك في أن السلام أو الاضطراب في إيطاليا قد يتوقف على أخلاق أسقف ثرى له مكانته بين الناس ، أسقف له مثل هذا السلطان العظيم في السماء وفي الأرض ، أسقف أعلن مجلس كنسي كبير العدد أنه طاهر من كل خطيئة ، ومعلى من كل حكم ، وعندما حدث تنازع على كرسي القديس بطرس بين سيمباخوس ولورانس ، دعاها الملك الأرووسي الى المثل أمام محكمته ، وهناك أقر انتخاب المرشح الأعظم جدارة أو الأكثر طاعة ، وفي نهاية حياته ، وفي لحظة غيرة وسخط ، منح الرومان من الاختيار ، بأن عين بابا في قصر رافنا ، وبهذا كبح في لين ورقى خطر الانقسام وما يقترب به من صراعات حادة ، وكان آخر قانون أصدره السناتو يهدف ، اذا أمكن ، الى القضاء على ما كان يعتور الانتخابات البابوية من فساد الرشوة المريب .

لقد أطلت الحديث في سرور عن الحالة السعيدة التي حظيت بها إيطاليا ، غير أن خيالنا يجب ألا يذهب بنا سريعا الى الاعتقاد بأن الفوز القوطي قد حقق في البلاد عصر الشده الذهبى ، عصر جنس من الناس

لا تشوبهم رذيلة ، ولا يشعرون بشقاء ، فالمنظر الجميل كانت تزحف عليه السحب في بعض الأحيان ، وحكمة ثيودوريك كانت تنخدع ، وسلطته كانت تقاوم ، كما أن سنوات عمره الأخيرة لوئتها كراهية الشعب ، ولطخه دم النبلاء ، ولقد اغرنه العجربة التي تملكته في يادى الأمر فور انتصاره ، على حرمان فريق أدواكر كله من حقوق المجتمع المدنية ، بل ومن حقوقه الطبيعية ، ولو أنه جانبه التوفيق ، وفرض ضريبة بعد كوارث الحرب لقضى على الزراعة الناشئة في اقليم ليجوريا ، ولو أنه استولى استيلاء صارما على القمح المخصص لاغاثه الشعب لضاعف بذلك من محنة اقليم كامبانيا ، غير أن هذه المشروعات الخطيرة حالت دون اتمامها قدرة وفصاحة ايبفانيوس وبويتوس اللذين نجحا في الدفاع عن قضية الشعب في حضرة ثيودوريك نفسه . ولكن اذا كانت أذن الملك مفتوحة لاستقبال صوت الحق ، فليس من المستطاع دائما أن يكون هناك قديس وفيلسوف الى جوار آذان الملوك . فكثيرا ما أسى استغلال المقام ، أو الوظيفة ، أو المحطوة ، من جراء خداع الايطاليين وعنف القوط ، وتجلي جشع ابن شقيق الملك علانية ، ففي مبدأ الأمر اغتصب أملاك جيرانه التسكانيين ظلما وعدوانا ، ثم أعيدت اليهم بعد ذلك . وكان هناك في قلب ايطاليا مائتا ألف من المتبريرين الذين كانوا يعتبرون مصدر خوف وفزع ، حتى بالنسبة لسيدهم ، وتحمل هؤلاء على مضض قيود الأمن والنظام ، وكانوا يسببون الاضطراب دائما بمشيتهم العسكرية ، ويكافأون عليها في بعض الأحيان ، وعندما كان من الخطورة أن يماقبوا على نزوات ضراوتهم التي جبلوا عليها بلادهم ، كان من الحكمة أن يتفاضى عنها . وعندما تساهل ثيودوريك وتجاوز عن ثلثي الخراج الذي كانت تدفعه ليجوريا ، تنازل بايضاح مصاعب موقفه ، وأبدى أسفه للأعباء الثقيلة الحتمية التي فرضها على رعاياه من أجل الدفاع عنهم . ولم يكن مستطاعا أبدا أن يرضى هؤلاء الرعايا الجاحدون من صميم قلوبهم عن أصل الفاتح القوطي أو عن ديانتته ، أو حتى عن فضائله ، فنسوا الكوارث الماضية ، وزاد هتاؤهم الحال من حدة احساسهم بما هنالك من إساءات أو بما يظنون أنه إساءة .

وحتى التسامح الدينى الذى كانت اشاعته في العالم المسيحي فخرا ومجدا لثيودوريك كان شيئا يؤلم حماس الايطاليين للمعتقد الصحيح ويسىء إليه . ولقد احترموا برطقة القوط المستندة الى قوة السلاح ، غير أنهم وجهوا غضبهم الدينى وهم آمنون نحو اليهود العزل الأغنياء

الذين كانوا قد استقروا في نابولي وروما ورافنا وميلان وجنوة سعيا وراء
المنفعة التجارية وتحت حماية القوانين فتعرضت أشخاصهم لللاهانة ،
وممتلكاتهم للنهب • ومقابلهم للحريق ، على أيدي سكان رافنا وروما
الناشرين الذين أشعلت النار في صدورهم ادعاءات أكثر ما يكون استهتارا
أو نظرفا ، ولا شك في أن الحكومة لو أنها أصلت هذا الاضطراب
لاستحقت أن تصاب به ، ومن ثم فقد أجرى على الفور تحقيق قانوني ،
ولما كان مثيرو الشغب قد تواروا وسط الجمهور ، فقد حكم على
المجتمع كله بأن يصلحوا الأضرار التي وقعت ، أما المتعصبون للدين ،
الذين رفضوا الاسهام في دفع التعويضات ، فقد جلدوا في الشوارع
بيد الجلاذ • وأثار هذا العمل البسيط العادل نائرة الكاثوليك الذين
هللوا لما اتصف به هؤلاء القساوسة المقدسون من فضيلة وسبر ،
فارتفعت الأصوات من فوق ثلاثمائة منبر تأسف لاضطهاد الكنيسة ،
وإذا كانت كنيسة القديس اسطفان قد هدمت بأمر من نيودوريك ،
فمن المحتمل أنه حدث في ذلك المكان المقدس معجزة تسمى الى اسمه
ومكانته • وقد اكتشف ملك إيطاليا في نهاية حياة مجيدة أنه أثار كراهية
شعب عمل جاهدا على تحقيق سعادته ، فامتلات نفسه بالام السخط
والغيرة ، ومرارة الحب المجهود ، وعمه الفاتح القوطي الى تجريد أبناء
إيطاليا الجبناء من أسلحتهم ، وحظر كل للأسلحة التي يمكن أن
تستخدم في العلوان ، فيما عدا مطواة صغيرة ينتفع بها في الشئون
المنزلية ، وقد اتهم منقذ روما بالتآمر مع أحط المخبرين على حياة أعضاء
السناتو ، الذين اشتبه في أنهم على اتصال سرى خائن مع البلاط
البيزنطي ، وبعد موت أناستاسيوس كان تاج الامبراطور قد وضع
على رأس رجل عجوز ضعيف ، غير أن سلطات الحكم اضطلع بها ابن
شقيقه جستينيان ، الذي كان اذ ذاك يفكر فعلا في استئصال الهرطقة
وغزو إيطاليا وأفريقيا • فأصدر في القسطنطينية قانونا صارما يهدف الى
اخضاع الآريوسيين الى سلطة الكنيسة ، والا تعرضوا للعقاب ، وأثار هذا
القانون ، سخط نيودوريك الذي كان يطالب لآخوته المنكوبين في الشرق
بنفس التسامح الذي منحه هو تلك المدة الطويلة لكاثوليك بلاده ، فأصدر
أمرا حازما صريحا الى الحبر الروماني بأن يرحل الى القسطنطينية مع أربعة
من أعضاء السناتو اللامعين ، في مهمة كان يخشى فشلها أو نجاحها سواء
بسواء • وقد استقبل أول بابا يزور تلك المدينة باحترام فريد ، غير أن
مليكه نيودوريك ، استشعر من ذلك غيرة دفعت الى عقابه على ما اعتبره
جرما • ومن الطبيعي أن الرفض الصريح القاطع ، أو الملتوى ، الذي جاء
من البلاط البيزنطي كان مبررا لاجراء انتقامي يساويه ، ويثير اجراء أوسع

خطا ، ومن ثم فقد أعد في إيطاليا أمر عال يقضى بحظر ممارسة العبادة الكاثوليكية بعد يوم معين ، وهكذا أدى تعصب رعايا ثيودوريك ، وتعصب أعدائه الى دفع أكثر الملوك تسامحا الى حافة الاضطهاد ، وطالت حياة ثيودوريك أكثر مما ينبغي لأن العمر امتد به حتى أذان فضيلة بويثيوس وسيماخوس .

اعدام بويثيوس

كان عضو السناتو بويثيوس آخر روماني يستطيع كاتو Cato أو نلي Tully أن يعترف به رجلا من بنى وطنه ، ولقد نشأ هذا الرجل طفلا يتيما ورث أملاك أسرة أنيكيا وأمجادها ، وكان اسم هذه الأسرة يفاخر به ملوك وأباطرة ذلك العصر ، وكان لقب مانليوس Manlius يؤكد انحدره الحقيقي أو الخرافي من سلالة قناصل وحكام بأمهرم ، استطاعوا صد الغاليين عن الكايتول ، وضحو بأبنائهم من أجل اقرار النظام في الدولة ، وعندما كان بويثيوس في ريعان شبابه لم تكن دراسات روما قد أهملت تماما ، اذ ما يزال هناك الآن مؤلف من مؤلفات الشاعر الروماني فرجيل صححته يد أحد قناصل ذلك العهد - كما أن أساتذة النحو والبلاغة Rhetoric وعلم الفقه ظلوا محتفظين بامتيازاتهم ومعاشاتهم بفضل سخاء القوط وكرمهم . غير أن تمكنه من اللغة اللاتينية لم يكن كافيا لاشباع فضوله المتقد ، ويقال انه قضى ثمانية عشر عاما من الدراسة الجادة في مدارس أثينا لقي فيها عوناً من حماس بروكليوس Proclus وتلاميذه ، ومن علمهم ومثابرتهم . ومن حسن الحظ أن عقل تلميذهم الروماني وتقواه لم يصابا بعدوى القموض والسحر التي لوئت أدغال « الأكاديمية » ، غير أن بويثيوس تشرب روح الأموات والأحياء من أساتذته وقلد أسلوبهم ، أولئك الأساتذة الذين حاولوا التوفيق بين قوة روح أرسطو ودقتها ، وبين التأمل الورع ، والخيال الرائع اللذين اتسم بهما أفلاطون ، وبعد عودته الى روما وزواجه من ابنة صديقه النبيل سيماخوس ، ظل يواصل الدراسات نفسها في قصر من العاج والرخام ، وغذى الكنيسة بدفاعه العميق عن العقيدة الأرثوذكسية الصحيحة ضد هرطقات آريوس ويوتيكيس ونسطور ، وفسرت الوحدة الكاثوليكية أو عرضت في بحث كتبه ثلاثة أشخاص مختلفين وإن كانوا جميعا من المؤمنين بعقيدة وحدة الجوهر ، دون أن يكون هناك أى ضغط عليهم نحو ذلك الاتجاه ، ومن أجل منفعة قرائه اللاتينيين استخدم عبقريته في تعليم المبادئ الأولى لفنون اليونان وعلومهم ، ولقد ترجم وشرح هذا السناتور الروماني بقلم

لا يعرف الكلل هندسة أفليدس ، وموسيقى فيثاغورس ، وحساب
نيقوماخوس ، وميكانيكا أرشميدس ، وفلك ، ولاهوت أفلاطون ، ومنطق
أرسطو مع تعليق بورفيرى . وكان هو وحده يعتبر كلها ، لوصف عجائب
الفن ، كالمزولة ، أو الساعة المائية ، أو الدائرة التي تمثل حركات
الكواكب ، ومن هذه الأفكار الغامضة نزل بويثيوس ، أو ببيارة أصدق
ارتفع الى الواجبات الاجتماعية المتعلقة بالحياة العامة والخاصة ، فأغاث
المعوزين بسخائه ، واستغل فصاحته ، التي قد يشبهها الممثلون بصوت
ديموستين أو شيشرون ، في تأييد قضية الانسانية وطهارة الذيل .
ولقد أحس الملك الحصيف بهذه الفضائل البارزة وكافأه عليهما .
فأضفى على مكانته ما يجعلها ، بمنحه لقب القنصل و لقب النبيل ، واستغل
مواهبه استغلالا نافعا في المنصب الهام الذي أسنده اليه ، وهو منصب
رئيس الديوان . ورغم تكافؤ حقوق الشرق والغرب ، فقد عين ولداه ،
وجما في مستهل القنص ، قنصلين في سنة واحدة ، وفي ذلك اليوم
المشهود الذي توليا فيه ذلك المنصب تقدما في موكب مهيب من قصرهما
الى ساحة روما وسط قهليل السناتو والشعب ، وكان واليهما ، قنصل
روما الأصلي ، فرحا يفيض بالبشر ، وبعد أن ألقى خطابا أطرى فيه مولاه
الملك الكريم وزع هبات الظفر والنصر في ساحة العباب (السيرك) ،
وربما جاز اختيار بويثيوس سعيدا موفقا اذ وافته الشهرة والثروة ونال
المناصب العامة ، وعقد الصداقات الخاصة واستطاع تنمية العلم ، وأحس
بما فيه من فضيلة ، ربما جاز اعتباره سعيدا ، لو أن هذه الصفة المزعجة ،
صفة السعادة ، يمكن أن تصدق على انسان قبل الفترة الأخيرة من حياته .

ولقد كان بويثيوس جوادا بماله ضئينا بوقته ، ولم يتأثر بسفريات
الطبع العادية ، وهي التعطش الى الذهب والمنصب . وربما كان بعض
الفضل في ذلك راجعا الى أنه قد أكد تأكيدا قويا أنه مرغى على طباعة
المعلم الجليل أفلاطون الذي يحتم على كل مواطن فاضل أن ينقذ الدولة
من أن تفتصبها الرذيلة والجهالة ، وكانت ذكرى بلاده تبهت النزاهة
في مسلكه العام ، وقد استخدم سلطته في كبح كبرياء موظفي الملك
واستبدادهم ، كما أن فصاحته أنقذت يوليانوس من أوغاد القصر ،
ونقد كان يرئى دائما لمحنة سكان الولايات ، وكثيرا ما أغاثهم منها ،
لأن ثروات هؤلاء الناس قد استنزفها النهب العام والخاص ، وكان بويثيوس
وحده هو الذي يملك من الشجاعة ما يمكنه من مقاومة طغيان البرابرة
الذي ضاعفه الغزو وأثاره الجشع ، وأصبح التجاوز عنه موضع شكواه .
وفي هذه النزعات الشريفة كانت روحه تعلقو على اعتبارات الخطر ، وربما
اعتبارات الفتنة والحرق ، وقد نتعلم من المثل الذي ضربه كاتو أن

الشخصية التي تتسم بالفضيلة النقية الصلبة هي أكثر الشخصيات قابلية لأن يفضلها التحيز ، ويثيرها الحساس ، ولأن تخلط بين العداوات الشخصية وبين العدالة العامة ، ولا بد أن تليد أفلاطون قد بالغ في عجز الطبيعة البشرية ونقائص المجتمع . وكان أرق شكل لمملكة قوطية ، وحتى ثقل الولاء وعرفان الجميل ، لا بد أن هذا وذلك كانا من الأمور التي لا تتحملها روح وطني روماني حرة ، غير أن حظوة بويثيوس وولاء تدهورا بنفس النسبة التي تدهورت بها رفاهية الشعب ، وفرض الملك على رئيس ديوانه زميلا ناقها يقتسم معه سلطته ويتحكم فيها . وفي الفترة المظلمة الأخيرة من عهد ثيودوريك شاعر بويثيوس في غضب وسخط أنه أصبح عبدا ، ولكن لما كان سيده لا يملك إلا سلطانا على حياته ، فقد وقف ، دون سلاح ودون وجل ، في مواجهة بربري غاضب أصبح يعتقد أن سلامة السناتو لا تتفق مع سلامة شخصه . وقد اتهم عضو السناتو البينوس ، وحكم عليه فعلا ، بناء على الظن بأنه ، كما قيل ، كان « يأمل » في أن تحصل روما على حريتها ، وفي هذا الشأن قال الخطيب بويثيوس : « اذا كان البينوس مجرما ، فاني وأعضاء السناتو نعتبر مذنبين لأننا اقترفنا الذنب نفسه . واذا كنا بريئين ، فان من حق البينوس أيضا أن تحمي القوانين » .

وهذه الرغبة البسيطة العقيمة في نعمة مستحيلة التحقيق كان من الممكن ألا تصبح موضع مؤاخذه هذه القوانين ، غير أن هذه القوانين نفسها كان لا بد أن تكون أقل تسامحا مع الاعتراف المتسم بالتهور الذي صرح به بويثيوس ، وهو أنه لو كان قد عرف بوجود مؤامرة لما أطلع الطاغية عليها . وسرعان ما اعتبر بويثيوس ، محامي البينوس ، شريكا في الخطر المحيق بعميله ، وربما اعتبر شريكا في ذنبه . فوضع توقيعاهما (اللذان أنكرهما ودفعا بأنهما مزوران) على الخطاب الأصلي الذي يدعو الامبراطور الى انقاذ ايطاليا من القوط ، وجيء بثلاثة شهود من أصحاب المراكز المحترمة ، وربما من أصحاب السمعة السيئة ، فشهدوا بصحة الخطط الخائنة التي وضعها النبيل الروماني . ومع ذلك فمن الواجب أن نفترض برادته لأن ثيودوريك حرمة من الوسيلة التي يستطيع بها تبرير موقفه وسجنه في برج بافيا ، بينما كان السناتو ، على مسافة خمسمائة ميل ، يصدر حكما بالصادرة والموت على ألع أعضائه وأعظمهم قدرا ، وبمقتضى أوامر البرابرة دمج ما كان يتصف به الفيلسوف

من علم غامض بأنه سحر وانتهاك للقدسات (١) . وهكذا أدان أعضاء السناتو أنفسهم بأصوات مرتجفة تعلق بويثيوس بالسيناتو تعلقا يتسم بالورع والامتنال ، على أنه عمل إجرامي ، واستحق نكرانهم للجحيل تلك الرغبة أو النبوة التي عبر عنها بويثيوس بقوله أن أحدا من بعده لن يرمى باقتراف الذنب نفسه .

وخلال الفترة التي كان فيها بويثيوس منقلا بالأغلال في برج باغيا وينتظر في كل لحظة حكم الموت أو ضربته ، ألف كتاب « عزاء الفلسفة » *Consolation of Philosophy* وهو سفر جليل جدير بأن يجد فيه أفلاطون أو تلي Tully متعة في أوقات فراغهما ، غير أن هيجية العصر الذي كتب فيه ، والوضع الذي كان فيه مؤلفه يجعلانه سفرا لا يدانيه في ميزته كتاب آخر . وقد استرشد فيه بالهداية السماوية التي طالما ابتهل إليها طويلا في روما وأثينا ، والتي هبطت عليه الآن لتضيء له سجنه ، وتبعث فيه شجاعته ، وتسمح جروحه بيلبسها الشافي . وقد علمته أن يقارن بين رفاهيته الطويلة السابقة ومحنته الحالية ، وأن ينتظر من تقلبات الحظ آمالا جديدة . وكان العقل قد هداه إلى أن هباتها لا تثبت على حال ، وأقنعت التجربة بقيمها الصحيحة ، فهو قد استمتع بها في براعة ، وعليه الآن أن يودعها غير آسف عليها ، وأن يحتقر في هدوء ما يضمره له أعداؤه من ضغينة عاجزة ، فهم قد تركوا له السعادة إذ تركوا له القسيلة . وقد خلق بويثيوس في أجواز السماء باحثا عن الخير الأسمى ، واكتشف المناهات الميتافيزيقية لموضوع الحظ والقدر ، وموضوع الجبرية والاختيار ، وموضوع الزمن والأبدية ، وحاول بصورة كريهة أن يوفق بين صفات الكمال التي يتسم بها الإلهة وبين ما يبدو على حكمه المادي والمعنوي من اضطراب . ولا شك في أن مثل هذه الموضوعات المغرية ، سواء آكانت واضحة ، أم غامضة ، أم مبهمة فإنها عديمة الجدوى في التغلب على مشاعر الطبيعة البشرية . غير أن المجهود الفكري قد يصرف صاحبه عن الإحساس بالمنحمة ، ومن ثم فإن ذلك الرجل الحكيم ، بويثيوس ، الذي استطاع في براعة أن يجمع في مؤلف واحد مختلف نقائس الفلسفة ، والشعر ، والبلاغة لابد أنه امتلك ذلك الهدوء المتسم بالشجاعة الذي اتجه إلى البحث عنه . وأخيرا أنهى رحل الموت حالة الانتظار التي كان فيها ، وهي أسوأ الشرور والبلايا ،

(١) حدث تحقيق شديد في جريمة السحر . وكان المعتقد أن كثيرا من المسحرة تمكنهم الهرب من سجونهم بأن أصابوا حراسهم بالجنون . وأنى أفضل استعمال لفظ (السكر) بدلا من لفظ الجنون ، أي أنهم كانوا كانوا يسقونهم حتى يضلوا ثم يهربون .

فنفثوا فيه ، وربما تجاوزوا ، أمر ثيودوريك المتنافي للانسانية . ذلك أنهم طلقوا عنقه بحبل متين ، وضيقوه عليه حتى برزت عيناه من مقلتيهما ، وربما أبعوا نحره بعض الشفقة عندما ساموه عذابا أقل ، وضربوه بالهراوات حتى تلفظ أنفاسه . غير أن عبقريته بقيت بعد موته ترسل شعاعا من المعرفة على أطلال عصور العالم اللاتيني . وترجم أعظم ملوك الانجليز كتابات هذا الفيلسوف ، ونقل ثالث امبراطور يسمى باسم أونو Qtho عظام القديس الكاثوليكي الى مقبرة أكثر تكريما واحتراما ، ذلك القديس الذي حصل من مضطهديه الآريوسيين على أمجاد الاستشهاد وشهرة المعجزات (١) . وفي الساعات الأخيرة من حياة بويثيوس وجد بعض العزاء في أن ولديه ، وزوجه ، ووالد زوجه ، سيماخوس المحترم المجل كانوا في خير وأمان . غير أن حزن سيماخوس لم يتسم بالحكمة ، وربما كان خلوا من الاسترام ، فقد اجتريا على اظهار حزنه على موت صديق أصيب ، وتجاوز على طلب الانتقام له ، فجروه مقيدا بالسلاسل من روما الى قصر رافنا ، ولم تهدأ مخاوف ثيودوريك وربيته الا بسم ذلك الشيخ البريء عضو السيناتو .

موت ثيودوريك

سوف تميل الانسانية الى تشجيع أية قصة تشهد بحكم الضمير وندم الملوك ، وليس يخاف على الفيلسفة أن قوة الخيال المضطرب وضعف الجسم المعتل كفيلا في بعض الأحيان يخلق أفطع الأشباح وأكثرها جيولا . وبعد حياة فاضلة مجيدة أصبح ثيودوريك ثلاث في طريقه الى القبر وسط العار والاثم ، تدل عقله مقارنة حاضره بماضيه وترجع نفسه بحق أهوال المستقبل غير المنظورة . ويعكس أنه في أممية من الأمميات كان يتناول عشاءه على مائدته الملكية ، حيث قدمت اليه رأس سمكة كبيرة ، فما كان منه الا أن قال متعجبا انه يشاهد سمكة سيماخوس الغاضبة المتجهمة ، ويرى عينيه تلمعان بالغضب والانتقام ، وفعه مسلحا بأسنان

(١) للبأ العالم سلفستر الثاني ، معلم أوثر الثالث ، هو الذي ألف ما كتب على مقبرته الجديدة ، وهذا البابا وصفه جهل ذلك العصر بأنه ساحر ، شأنه في ذلك شأن بويثيوس نفسه . ولا شك في أن الشهيد الكاثوليكي أبدى الكثير من التهور ، غير أن سيده اعرفها قد لاحظت في قصة مماثلة « أن الشوط في هذا المقام ليس كبير الأهمية ، فالخطوة الأولى هي التي لها وزنها » (مدام دي نان Madame du Deffand ، وكانت تتحدث عن المعجزة للمائلة التي فعلها القديس دنيس St. Denis - د.م.ل) .

جادة طويلة تهدد باقتراسه . فانسحب الملك على الفور الى غرفته ، وبينما كان راقدا على فراشه يهزه الألم والمذاب هوا عنيقا ، ويشعر بقشعريرة تحت ثقل من الأعطية ، قال لطبيبهِ البيديوس Elpidius انه نادم نلما عميقا على قتل بويثيوس وسيماخوس . ثم اشتدت وطأة المرض عليه ، وبعد أن أصيب بمرض الدوسنتاريا ثلاثة أيام ، وافته منيته في قصر رافنا ، في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، أو في السنة السابعة والثلاثين . اذا حسبنا حكمه ابتداء من غزوه ليطاليا . وعندما ضمر باقتراب أجله قسم أمواله وولاياته بين حفيديه ، وجعل نهر الرون حدا مشتركا بينهما . فأعاد أمالاريك الى عرش أسبانيا ، وأوصى بإيطاليا وكل فتوحات القوط الشرقيين الى أثالاريك ، الذي لم يزد عمره على عشرة أعوام . ولكنه كان طفلا معززا على اعتبار أنه آخر ذكر في سلالة أسرة أمالي من Amali من زواج قصير الأمد بين أمه أمالاسوندا ولاجيء ملكي من الأسرة نفسها . وفي حضرة الملك المحتضر أقسم رؤساء القوط والحكام الإيطاليون بسين الولاء والاخلاص للأمير الصغير ولأمه الوصية عليه ، وتلقوا ، في اللحظة الرهيبة نفسها آخر نصيحة نافعة أسداها لهم ، وهي أن يحافظوا على القوانين ، وأن يحبوا مجلس السناتو وشعب روما ، وأن يتعهدوا بالاحترام اللائق صداقة الامبراطور . وقد أقامت له ابنته أمالاسوندا تمثالا في مكان بارز يشرف على مدينة رافنا ، والميناء ، والشاطئ المجاور . وهناك كنيسة دائرية الشكل قطرها ثلاثون قدما . متوجة بقبة نحتت من قطعة جرانيتية واحدة ، وفي وسطها أربعة أعمدة تحمل اناء من حجر السماقي بداخله عظام الملك القوطي ، وتحيط به تماثيل نحاسية للثلاثي عشر رسولا . ومن الجائز أن روحه ، بعد أن كفرت عن ذنوبها ، قد سمح لها بأن تختلط بأرواح الأبرار من بني الانسان ، لولا أن ناسكا إيطاليا شاهد رؤيا على هلاك ثيودوريك الذي ألقيت زوجته بأيدي رسل الانتقام الالهى في بركان ليبارى ، وهو واحد من أفواه عالم الشياطين والأرواح الشريرة .

[illegible]

1998, 1999, 2000, 2001, 2002, 2003, 2004, 2005, 2006, 2007, 2008, 2009, 2010, 2011, 2012, 2013, 2014, 2015, 2016, 2017, 2018, 2019, 2020, 2021, 2022, 2023, 2024, 2025, 2026, 2027, 2028, 2029, 2030, 2031, 2032, 2033, 2034, 2035, 2036, 2037, 2038, 2039, 2040, 2041, 2042, 2043, 2044, 2045, 2046, 2047, 2048, 2049, 2050, 2051, 2052, 2053, 2054, 2055, 2056, 2057, 2058, 2059, 2060, 2061, 2062, 2063, 2064, 2065, 2066, 2067, 2068, 2069, 2070, 2071, 2072, 2073, 2074, 2075, 2076, 2077, 2078, 2079, 2080, 2081, 2082, 2083, 2084, 2085, 2086, 2087, 2088, 2089, 2090, 2091, 2092, 2093, 2094, 2095, 2096, 2097, 2098, 2099, 2100, 2101, 2102, 2103, 2104, 2105, 2106, 2107, 2108, 2109, 2110, 2111, 2112, 2113, 2114, 2115, 2116, 2117, 2118, 2119, 2120, 2121, 2122, 2123, 2124, 2125, 2126, 2127, 2128, 2129, 2130, 2131, 2132, 2133, 2134, 2135, 2136, 2137, 2138, 2139, 2140, 2141, 2142, 2143, 2144, 2145, 2146, 2147, 2148, 2149, 2150, 2151, 2152, 2153, 2154, 2155, 2156, 2157, 2158, 2159, 2160, 2161, 2162, 2163, 2164, 2165, 2166, 2167, 2168, 2169, 2170, 2171, 2172, 2173, 2174, 2175, 2176, 2177, 2178, 2179, 2180, 2181, 2182, 2183, 2184, 2185, 2186, 2187, 2188, 2189, 2190, 2191, 2192, 2193, 2194, 2195, 2196, 2197, 2198, 2199, 2200, 2201, 2202, 2203, 2204, 2205, 2206, 2207, 2208, 2209, 2210, 2211, 2212, 2213, 2214, 2215, 2216, 2217, 2218, 2219, 2220, 2221, 2222, 2223, 2224, 2225, 2226, 2227, 2228, 2229, 2230, 2231, 2232, 2233, 2234, 2235, 2236, 2237, 2238, 2239, 2240, 2241, 2242, 2243, 2244, 2245, 2246, 2247, 2248, 2249, 2250, 2251, 2252, 2253, 2254, 2255, 2256, 2257, 2258, 2259, 2260, 2261, 2262, 2263, 2264, 2265, 2266, 2267, 2268, 2269, 2270, 2271, 2272, 2273, 2274, 2275, 2276, 2277, 2278, 2279, 2280, 2281, 2282, 2283, 2284, 2285, 2286, 2287, 2288, 2289, 2290, 2291, 2292, 2293, 2294, 2295, 2296, 2297, 2298, 2299, 2300, 2301, 2302, 2303, 2304, 2305, 2306, 2307, 2308, 2309, 2310, 2311, 2312, 2313, 2314, 2315, 2316, 2317, 2318, 2319, 2320, 2321, 2322, 2323, 2324, 2325, 2326, 2327, 2328, 2329, 2330, 2331, 2332, 2333, 2334, 2335, 2336, 2337, 2338, 2339, 2340, 2341, 2342, 2343, 2344, 2345, 2346, 2347, 2348, 2349, 2350, 2351, 2352, 2353, 2354, 2355, 2356, 2357, 2358, 2359, 2360, 2361, 2362, 2363, 2364, 2365, 2366, 2367, 2368, 2369, 2370, 2371, 2372, 2373, 2374, 2375, 2376, 2377, 2378, 2379, 2380, 2381, 2382, 2383, 2384, 2385, 2386, 2387, 2388, 2389, 2390, 2391, 2392, 2393, 2394, 2395, 2396, 2397, 2398, 2399, 2400, 2401, 2402, 2403, 2404, 2405, 2406, 2407, 2408, 2409, 2410, 2411, 2412, 2413, 2414, 2415, 2416, 2417, 2418, 2419, 2420, 2421, 2422, 2423, 2424, 2425, 2426, 2427, 2428, 2429, 2430, 2431, 2432, 2433, 2434, 2435, 2436, 2437, 2438, 2439, 2440, 2441, 2442, 2443, 2444, 2445, 2446, 2447, 2448, 2449, 2450, 2451, 2452, 2453, 2454, 2455, 2456, 2457, 2458, 2459, 2460, 2461, 2462, 2463, 2464, 2465, 2466, 2467, 2468, 2469, 2470, 2471, 2472, 2473, 2474, 2475, 2476, 2477, 2478, 2479, 2480, 2481, 2482, 2483, 2484, 2485, 2486, 2487, 2488, 2489, 2490, 2491, 2492, 2493, 2494, 2495, 2496, 2497, 2498, 2499, 2500, 2501, 2502, 2503, 2504, 2505, 2506, 2507, 2508, 2509, 2510, 2511, 2512, 2513, 2514, 2515, 2516, 2517, 2518, 2519, 2520, 2521, 2522, 2523, 2524, 2525, 2526, 2527, 2528, 2529, 2530, 2531, 2532, 2533, 2534, 2535, 2536, 2537, 2538, 2539, 2540, 2541, 2542, 2543, 2544, 2545, 2546, 2547, 2548, 2549, 2550, 2551, 2552, 2553, 2554, 2555, 2556, 2557, 2558, 2559, 2560, 2561, 2562, 2563, 2564, 2565, 2566, 2567, 2568, 2569, 2570, 2571, 2572, 2573, 2574, 2575, 2576, 2577, 2578, 2579, 2580, 2581, 2582, 2583, 2584, 2585, 2586, 2587, 2588, 2589, 2590, 2591, 2592, 2593, 2594, 2595, 2596, 2597, 2598, 2599, 2600, 2601, 2602, 2603, 2604, 2605, 2606, 2607, 2608, 2609, 2610, 2611, 2612, 2613, 2614, 2615, 2616, 2617, 2618, 2619, 2620, 2621, 2622, 2623, 2624, 2625, 2626, 2627, 2628, 2629, 2630, 2631, 2632, 2633, 2634, 2635, 2636, 2637, 2638, 2639, 2640, 2641, 2642, 2643, 2644, 2645, 2646, 2647, 2648, 2649, 2650, 2651, 2652, 2653, 2654, 2655, 2656, 2657, 2658, 2659, 2660, 2661, 2662, 2663, 2664, 2665, 2666, 2667, 2668, 2669, 2670, 2671, 2672, 2673, 2674, 2675, 2676, 2677, 2678, 2679, 26

الفضل الأربعون (٥٢٧ - ٥٦٥)

جنگم جستنيان • الامبراطورة تيودورا • شقبت نيقية • استيلا
الحريز من الصين • كنيسة اياصوفيا • القضاء على مدارس
الينا وعلى خليفة القنصل الروماني •

ولد الامبراطور جستنيان بالقرب من اطلال ساردنيا (مدينة صوفيا
الجديدة) ، في عرق وضيع مهور من المتبريرين الذين كانوا يقطنون
رقعة موحشة منعزلة أطلق عليها تباعا اسم داردانيا ثم داكيا ثم بلغاريا .
وقد دبر أمر اعتلائه العرش معه جوستين الذي اتسم بروح المغامرة ، والذي
حجر ، مع اثنين مع القلايين من القرية نفسها ، حرفة أكثر نفا من فلاح
الأرض أو الرعي ، بغية الانخراط في سلك الجندية وخرج هؤلاء الشبان
الثلاثة - جوستين ورفيقاه - ومعهم قدر يسير من الزاد سيرا على الأقدام .
متبعين الطريق العام إلى القسطنطينية ، وسرعان ما انخرطوا في حرس
الامبراطور ليو Leo • بفضل قوتهم وقوامهم • وتماقب على الفلاح
الذي اهتم له الجطل عهدان أصاب فيهما قروة ومجدا ، وأقلت من بعض
الأخطار التي كانت تهدد حياته ، مما نسب فيما بعد إلى الملك الحارسي
الذي يرعى مصير المليك ! وقد أبلى جوستين بلاء حسنا لفترة طويلة في
حروب ايزوريا Isauria (قسم من ولاية غلاطية الرومانية في آسيا
الصغرى) وفي حروب فارس ، وربما كان من الجائز ألا تخلط هذه الخدمة
الطويلة الجيلة اسم جوستين من الأكتاف في زوايا النشيان ، ولكننا
كانت كفيفة بتدرجه في سلك المناصب العسكرية ، فقد ارتقى ، في معنى
محتسين عاما ، من وظيفة تربيون إلى كونت ، وإلى منصب القائد ، ثم حظي
بمهرية السنانو ، ثم تولى قيادة الحرس الذين انتقلوا لأمره بولطسطة

رئيسا لهم في الأزمة الخطيرة التي أطاحت بحياة امبراطور أنسطاسيوس ، واستبعد عن العرش ذوو قرياء الأقوياء الذين كان هو - أي الامبراطور - قد رفعهم وأغدق عليهم الفنى والثراء ، حيث كان الخصى أمانتيوس - صاحب الأمر والنهى فى القصر - قد عقد العزم سرا على أن يخص بالثأج أكثر ضائعه خنوعا وخضوعا . وضمائنا لأصوات فرق الحرس وضع تحت تصرف قائدهم أموالا طائلة ليشتري بها رضاهم . ولكن جوستين خيانة منه وغدرا ، استخلم هذه الأسانيد القوية لمصلحته هو نفسه ، ولما لم يجرؤ أى منافس على الظهور فى الميدان ، فقد فاز فلاح داكيا - جوستين - بالحنه الامبراطورية حيث نال بالاجماع رضا الجنود الذين عرفوا فيه الشجاعة ودمائة الخلق ، ورضا رجال الدين والشعب الذين آمنوا بأنه أرتوذكسى مستقيم ، ورضا أهل الولايات الذين خضعوا خضوعا أعمى مطلقا لارادة العاصمة . ومن ثم ارتقى جوستين الأكبر - وهكذا يسمونه تمييزا له عن امبراطور آخر من نفس الأسرة يحمل نفس الاسم - ارتقى العرش البيزنطى وهو فى سن الثامنة والسنين . ولو أنه ترك وشائه ليتصرف بحسب ما فى نفسه ، لتعرض رعاياه فى كل لحظة طوال سنى حكمه التسع لمضبة سوء اختيارهم . وكان جهل جوستين يماثل جهل الامبراطور ثيودوريك . وانه لأمر مشهود جدير بالذكر أنه عاش فى عصر لم يكن خلوا من نور العلم ، هاهنا امبراطوران معاصران الواحد منهما للآخر (أحدهما فى الشرق والثانى فى الغرب) لم يضيبا من التعليم حتى حروف الهجاء ، على أن جوستين كان أقل ذكاء من ملك القوط بكثير ، فان خبرته بوصفه جنديا لم تكن تؤهله لتولى زمام الحكم فى الامبراطورية ، ورغم ما أوتى من بسالة شخصية ، فانه كان يعرف قدر ضعفه ، وطبيعى أن يقترب هذا بالشك وسوء الظن والهواجس السياسية ، ولكن وزير المالية بروكلوس Broclos نهض بالمهام الرسمية للدولة فى يقظة وإخلاص وتبني الامبراطور الهرم ابن أخيه ، جستينيان ، بما أوتى من مواهب وطموح ، وهو شاب متطلع استنفذه عمه عن برائن العزلة الوحشة فى داكيا ، وتلقى تعليمه فى القسطنطينية بوصفه وريثا لثروة الامبراطور الخاصة ، ثم للامبراطورية الشرقية فى النهاية .

ولما اغتنصبت أموال الخصى أمانتيوس على هذا النحو ، كان لزاما أن يقضوا على حياته كذلك . وما كان أيسرها من مهمة ، عن طريق اتهمائه بمؤامرة حقيقية أو ملفقة ، وقيل للقضاة استكمالا لخيوط الجريمة ، انه كان منغمسا فى الهرطقة المانوية (ديانة فارسية قديمة) . ومن ثم قطعت رأس أمانتيوس ، وعوقب بالموت أو النفى ثلاثة من رفاقه ، ممن كانت لهم الصدارة بين خدم القصر ، أما مرشحهم المنكود للعرش فقد التى به فى

غياض جب سخي ، ووجم بالحجارة ، ثم قذف به ، بشكل معين مزد ، الى البحر ليكون له في اعماقه مقبرة بدلا من أن يوارى على الأرض قبرا . ولكن انهيار فيتاليان - الذي كان مرشحا للمحلة الامبراطورية - كان عملا شقيا واشد خطرا . ذلك أن هذا الرئيس القوطي - فيتاليان - كسب لنفسه شعبية في الحرب التي شنها في جراتا وبسالة ايمپاتسيوس ، دفاعا عن العقيدة الارثوذكسية ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة لتلاصق معاهدته ، وظل فيتاليان على مقربة من القسطنطينية ، على رأس جيش قوي ظافر من المشيربرين . واستدرج تحت اغراء الاطمئنان الواهن الى اليهود والايمن حتى تخلى عن موقعه الحظي ، واسلم نفسه الى أحضان طائفة . كان أهلها ، وبخاصة حزب أصحاب الحلل الزرقاء فيها ، قد أثرت خواطرهم ضده في دهاء ، يتذكروهم حتى بخصوصيتهم الدينية التي تتسم بالتقى ، ورضى الامبراطور وابن أخيه (جوستين وجستينيان) بوصفهم المناضل المخلص الجدير بالنضال عن الكنيسة والدولة . وأسبغا على صديقيهما الصفى - امتنافا وعرفانا منهما - لقب القنصل والقائد ، ولكن فيتاليان ، في الشهر السابع من توليه منصب القنصل ، أثنى بسبع عشرة طعنة في المادية الملكية ، واتهم جستينيان ، الذي آل اليه كل الغنم ، بقتل أخ رومي كان هو (جستينيان) قد عاهده منذ عهد قريب على الاشتراك في الأسرار المسيحية . وارتقى جستينيان - ولو لم يزعم أن له في مجال الخدمة العسكرية أي نشاط - بعد سقوط غريمه ، الى منصب القائد الأعلى لجيوش الشرق التي كان من واجبه أن يقودها الى ميدان القتال ضد العدو العام . ولكن كان من الجائز أن يفقد جستينيان ، في سعيه وراء الشهرة والمجد ، سيطرته الحالية على عمه الذي كان يزوج تحت وطأة الشيخوخة والضعف ، وبدلا من أن يحظى بتقدير مواطنيه ومدحهم عن طريق غنائم الحرب مع سكيثيا أو فارس ، عمد المحارب الحصيف الى الفوز برضا هؤلاء المواطنين وحبه في الكنائس والملاعب وفي مجلس السناتو في القسطنطينية . وتعلق الكاثوليك بابن أخ جوستين الذي سلك بين هرطقة النساطرة وهرطقة اليوتيجيين (١) طريقا ضيقا ينحصر في ارثوذكسية قاسية متعصبة وفي الأيام الأولى من الحكم الجديد ألهم

(١) نسطوريوس Nesotrius أحد مطارنة القسطنطينية في القرن الخامس ، وكان يقول بأن للمسيح طبيعة جسدية وأخرى الهية ، وأنهما طبيعتان متبيزتان لا تتحدان . أما يوتيجيس Eutyches فكان أحد مشايخ الكنيسة ، وقد عارض مذهب النساطرة بشدة ، وقال باستناد الطبيعتين ، ودمج مجمع أفسسوس ٤٣١ هذين للذهبي وكتباهما بالهرطقة - (الترجمة) .

جستينيانو وأرضي حباير الشعب ازاء ذكرى الامبراطور المتوفى ، وبعد شقائق دام اوجيبا وثلاثين سنة ، حل الوثام محل الخصام بين الحبر والرومانى المزهو الفاضل ، وبين الامبراطور ، وراحت بين اللاتين أبناء سلالة تفيض يذكر الإجلال المقرون بالتقوى والورع الذم يكنه الامبراطور للمقام والرسول . وملئت كنائس الشرق بأساقفة كاثوليك وقفوا أنفسهم على رعاية مصلحته ، وكسب سخاؤه رجال الدين والرحبان لجانبه ، اما الشعب فقد لقرن أن يصل من أجل حاكمه الجديد ، حاكم المستقبل ، أمل العقيدة الحقّة ودعامتها وسندها . وتجلت عظمة جستينيان فى بهاء احتفالاته وحشائده العامة وسنائها الفائقة ، وهذا امر لا يقل فى أعين الجماهير قدسية وأهمية عن مذهب نيقيا أو خلقدونية ، فقد قدوت نفقات الاحتفال بتقليد مرتبة القنصل يمانتين وثمانين الف قطعة ذهبية ، وظهر على الملعب خي وحش مما عثرونه أسودا وثلاثون فهدا ، وأنهم على الفائزين فى سباق العربات فى السبوك بعدد كبير من الخيل المطومة بوصفها هدية استثنائية ويكتما أزعج أهل القسطنطينية ، واستحققت رشتا الملوك الأجانب ، تأجر جستينيان على توثيق روابط الصداقة مع السناتو ، فإن هنا الاسم الفوق « السناتو » كان ليط بدو ، يؤهل أعضائه للتصديق عن شهور الألف ، وتخطيم ارتقاء العرش الامبراطورى ، وكان ضعف أنسطاسيوس فيه هنا لتسلطه العكوبة أن تضغط على مجرد شكل الأرستقراطية أو جوهها ، وسار ذراة القلعة العسكريين الذين ظلوا بمرتبة السناتو حراستهم المحليون ، وهم عشتية من الجنود القدامى المحنكين كاتبة أسلحتهم أو حبيباتهم تقرر فى صناعة الشفيع والخصب معبر تاج المشرق . وبذلك الحال الدولة فى عتراق فى سبيل المصنوع على أصوات شيوخ السناتو ، وتقليد الى الامبراطور جوستين وغتهم الاجتماعية فى أن يرتضى جستينيان شريكا له فى السيادة الامبراطورية ، ولكن هذا المطلب الذى كان من الواضح أنه نذير باقتراب نهايته لم يلق قبولا لدى الامبراطور الهرم المحمود الراغب فى استعادة سلطة كان عاجزا عن ممارستها . ومن ثم فإن جوستين الذى كان يعض على الحلة الامبراطورية بالنواجذ ، أشسار على أعضائه السناتو ، طالما كان الانتخاب عملية مريضة ، بأن يتخيروا مرشحا أكبر سنا (من جستينيان) وعلى الرغم من هذا اللوم والتأنيب ، تقدم السناتو فاضفى على جستينيان اللقب الملكى Nobilissimus ، وصدق لهم (جوستين) على هذا القرار بوحى من حبه لابن أخيه أو تخوفه منه . وتطلب اليرال الذى أصابه عقله وجسمه نتيجة جروح استعصى برؤه فى غلغله ، أن يكون الى جانبه وعلى أو قيم يعاونه ، ومن ثم استدعى جوستين البطريرك وشيوخ السناتو ، وفى عتريتهم وضع التاج ، فى وقار وهيبة ،

على رأس ابن أخيه ، الذى شخص من القصر الى الملعب حيث صيحات الشعب المدوية مهتلة ومرحبة . ولم تطل حياة جوستين بعد ذلك الا نحو أربعة أشهر ولكنه اعتبر منذ اللحظة التى تم فيها هذا الاختفال ميثاقا على نظر الامبراطورية التى اعترفت بجستينيان الحاكم الشرعى للشرق ، وهو فى التاسعة والأربعين من عمره .

وحكم جستينيان الامبراطورية الرومانية ، من ارتقائه العرش الى وفاته - ثمانية وثلاثين عاما وسبعة شهور وثلاثة عشر يوما - ولقد روى بروكوبيوس Procopius (سكرتير القائد البيزنطى المشهور بليساريوس - القرن السادس) ، روى على حدى وبراعة أحداث حكم جستينيان ، تلك الأحداث التى تثير أشد فضولنا والتباهنا ، لكثرة عددها وتنوعها وأهميتها ، وبروكوبيوس كاتب بليغ زفقه بيبانه التناصع الى عضوية السناو ثم الى منصب والى القسطنطينية وتبعا لظروف التعلب بين الجراة والاقدام أو الاتكناش والمذلة ، وبين المحبة والعطف أو الخزي والعار نجد بروكوبيوس قد دون تاريخ العصر الذى عاش فيه متقلبا كذلك بين المدح والاطراء أو التذخ والهجاء ، وإن الكتب الثمانية التى تناولت الحروب مع الفرس والقوط والقوط - والتي استكملها أجاثياس Agathias فى كتبه الخمسة (تاريخ جستينيان) - تقول ان هذه الكتب الثمانية ليستحق تقديرنا بوصفها تقليدا شامكا موقفا لكتاب اثينا ، أو على الأقل للكتاب الآسيويين ، ككتاب اليونان القديمة . وقد جمع الحقائق التى أوردها فى تاريخه هذا عن تجربته الشخصية ومن مناقضاته الحرة بوصفه رجلا عسكريا ، ورجل دولة وسياسة ، وسائحا ، وكان طموحا ، وكثيرا ما حقق طموحه فى أن يرقى بأسلوبه حتى يكون جديرا بأن يوصف بالقوة والرشاقة . أما تأملاته وآراؤه - وبوجه أخص فى الخطب والأحداث - تلك التى كثيرا ما يشتها فى كتبه ، فانها تزخر بمعين لا ينضب من المعلومات السياسية ، ويبدو أن بروكوبيوس المؤرخ الذى كان مسوقا بأمله العريض فى ادخال البهجة والسرور على الأجيال القادمة وتزويدها بالمعرفة - يبدو أنه نظر بعين الزراية والاحتقار الى أهواء الشعب والى ملق البلاط . وكان معاصرو بروكوبيوس يقرءون كتاباته ويمتدحونها . ولكن على الرغم من أنه وضعها مع الاجلال والاحترام تحت أقدام العرش ، فانه اثناء على البطل الذى يزرى دوما بمجد مليكه الخامل ويبرزه ، هذا الثناء لابد أنه قد جرح كبرياء جستينيان . وأذلت الآمال والمخاوف عنق التابع الذليل - بروكوبيوس - وأخضعت فيه شعوره الواعى بالاستقلال والحرية ، ومن ثم بذل الجهد ، سعيا وراء الحصول على الصفح وحسن الجزاء فى كتبه الستة عن « المنجزات الامبراطورية » ، وكان قد اختار

فى حلق ومهارة موضوعا يبدو فيه رداء الجلال والفخار ، يمكنه فيه أن
يوجد بأعلى صوته عبقرية الأمير وعظمته وورعه ، وهو أمير تفوق - كفاتح
ومشروع ، على تيموستوكليس وكورش فى شمانلهما الصبيانية . وربما دفع
اليأس بالمادح المتعلق الى الانتقام الخفى المستتر ، وربما عادت أول بادرة
للعطف والرضا الى اغرائه الى اخماد أو اخفاء وصمة هوت بكورش الرومان
(جستنيان) الى طاغية مبقوت محترق ، مثل فيها ، بشكل رهيب ، كل من
الإمبراطور وقرينته تيودورا فى صورة شيطان على هيئة انسان ، يعلمان
على تدمير الجنس البشرى (١) . ولابد ، دون ريب ، أن يلوث مثل هذا
التناقض الحقيق سمعة بروكوبيوس وينتقص من الثقة فيه ، ولكن على الرغم
من أن الفرصة قد تهيأت لينفث سموم حقه وخبئه ، فإن القصص ، البقية
الباقية من كتابه وما تضمنته حتى من أشد الحقائق عارا وفضيحة - تلك
التي أشار هو الى بعضها إشارة خفيفة فى تاريخه العام - نقول ان هذه
البقية الباقية قد أكدتها الشواهد الداخلية أو الآثار الصادقة الناطقة
لهذا العصر . ومن هذه المواد المتنوعة ساعمد الآن الى وصف عهد جستنيان
الذى سوف يشغل حيزا كبيرا هو جدير به . وسأعرض فى هذا الفصل
لملك الشرق - وسأعالج فى الفصول الثلاثة التالية موضوع حروب
جستنيان التى انتهت بفوز أفريقيا وإيطاليا ، وسوف أتبع انتصارات
بلساريوس ونارسيس دون اخفاء ما اقترن بها من زهو وغرور أو من
اغفال فضائل الأعداء ، أبطال الفرس والمقوط . وتضم هذه الفصول كذلك
نقطة الإمبراطور وجوانبه اللاهوتية ، والمشادات والمذاهب التى لا تزال تقسم
الكنيسة الشرقية الى طوائف وشيع ، وأصلاح القانون الرومانى الذى
نطبقه أو نتظر اليه أمم أوروبا الحديثة بعين الاحترام والاحلال (٢) .

الإمبراطورة تيودورا

كان أول عمل قام به جستنيان فى ممارسة السلطة العليا ، هو أنه
اقتسم هذه السلطة مع المرأة التى أحبها ، ألا وهى تيودورا الشهيرة ،

(١) يلمان بروكوبيوس وأصدقائه عن تصديقهم لبعض القصص الشيطانية : جستنيان
يحش ، مثله فى ذلك مثل ديميتيان بالضبط - شياطين متانسون يطردون عشاق
تيودورا من حقدتها - التنبؤ بزواجها من شيطان كبير - أحد الرهبان رأى ملك الجن
مكان جستنيان على العرش - وقع نظر الغدوم الذين كانوا يرقبون الأمور ، على وجهه
لا تبدو فيه أية ملامح ، وعلى جسمه بلا رأس .. الخ .

(٢) يلاحظ ان المختصر الذى بين أيدينا والذى نقلناه الى العربية حذف الفصلين

التي لا يمكن أن تقابل ارتقاءها الشاذ الى العرش بالاستحسان والتهيل ،
على أنه انتصار لفضيطة المرأة . وفي عهد انسطاسيوس كان حزب
« القمصان الخضراء » يقوم على رعاية الحيوانات المتوحشة ، وقد وكل أمرها
الى اكاكيوس Acacius وهو عبد من مواطني جزيرة قبرص اشتق لقبه
من مهنته « سيد الدببة » وبعد موته ورغم نشاط أرملته التي كانت قد
أعدت بالفعل زوجها لها وخلفا للفقيد الراحل ، أسندت هذه الوظيفة المشرفة
الى مرشح آخر ، وكان اكاكيوس قد خلف وراءه ثلاث بنات من كوميتو .
تيودورا ، انسطاسيا ، لم تتجاوز كبرهن آنذاك السابعة من العمر . وفي
أحد الاحتفالات المنهية دفعت الأم المكروبة الحانقة بكريماتهن اليتيمات
الثلاث الى وسط المسرح في زى الضارعات المتوسلات ، فقابلهن أصحاب
الحلل الخضراء بالازدراء والاحتقار ، على حين استشعر حزب الحلل الزرقاء
نحوهن الشدة والرافة ، وكان لهذا التباين أثره العميق في نفس تيودورا .
حتى لقد أحسست به بعد ذلك بزمان طويل في ادارة الامبراطورية . وترعرعت
الأخوات الثلاث وازددن فتنة وجمالا ، فانصرفن بالتتابع الى العسل في
الحفلات العامة والخاصة لادخال البهجة والسرور على شعب بيزنطة ، وكانت
تيودورا تظهر على المسرح بعد اختها كوميتو ، في ملابس عبد رقيق ، حاملة
على رأسها كرسيها صغيرا ، ثم أجيئ لها بعد ذلك أن تظهر بمفردها لتعرض
مواهبها الخاصة ، ولم تكن ترقص أو تغنى أو تعزف على الناي ، بل
انحصرت مهارتها في فنون التمثيل الهزلي ، وبرعت في انتحال شخصية
اليهلول أو البهلوان ، وكلما انفخت أوداج المثلة وشكت في صسوت
واشارات مضحكة من الضربات التي كانت تكال لها ، ضجج مسرح
القسطنطينية بأسره بالضحك ودوى بالتصفيق الاستحسان وبات جمال
تيودورا أكثر فأكثر موضوع اطراء وثناء مقرونين بالملق ، ومصدر بهجة
واغتباط شديدين ، وكانت قسمت وجهها رقيقة منتظمة ، كما كانت
بشرتها ، رغم شحوبها نوعا ، مشربة بلون طبيعي ، وكانت عينها
المتللتان حيوية تنم على الفور عن أي احساس يعتلج في نفسها . وتجلت
في خفة حركتها مفاتن جسمها الصغير الرشيق معا . وربما قال الحب
أو الملح ان التصوير والشعر عاجزان عن وصف جسمها الذي لا يبارى
في روعته ، ولو أنه انتقص من قدره سهولة عرضه نهبا لأعين الجمهور ،
وفسقت به كل رغبة فاجرة . وكانت مفاتها لقمة سائفة مباحة لخليط
من المواطنين والغرباء من كل مرتبة وكل مهنة . وكثيرا ما طرد من مخدعها
المحظي الذي هو أشد قوة وأكثر مالا ، العاشق السعيد الحظ الذي كانت
قد وعدته قبلا بليلة ممتعة . وكان يفتحي عن طريقها ويتفادى لقاءها كل
من يرغب في تجنب الفضيحة أو الإغراء . ولم يخجل المؤرخ الساحر المتكلم

من أن يصف المشاهد العارية التي لم تخلل تيودورا من عرضها على المسرح . وكانت بعد أن تستنفذ كل أفاني اللذة الشهوانية ، كثيرا ما تتذمر أشد ما يكون التذمر من بخل « الطبيعة » ، ولكن يجدر أن تغفل تذمراتها وملذاتها وأفانيها في لغة مهذبة . وبعد أن سيطرت لبعض الوقت على عرش المرح في العاصمة كما باتت باحتقارها لها ، تعازلت بمصاحبة إيكبولس Ecebolis أحد عواظي صور ، الذي كان قد عهد إليه بحكومة المدن الخمس في أفريقية . ولكن هذا الائتلاف كان عابرا سريع الزوال ، وسرعان ما نبذ إيكبولس هذه الخيلة الكثيرة النفقة الخائنة . واشتدت بها الضائقة والكرب في الاسكندرية ، وفي طريق عودتها الشاقة إلى العاصمة ، انجذبت واستمتعت كل مدينة في الشرق بالقبرصية الجميلة التي برر مزايها انحدارها من سلالة فينوس القريضة . وكانت في علاقات تيودورا العاصفة وتحولاتها البغيضة وقاية لها من الخطر الذي كانت تخشاه ، ومع ذلك فقد صارت أما مرة واحدة ، وواحدة فقط . وبعد أنقذ الوالد طفله وعلمه في بلاد العرب ، وأطلع به ، وهو على فراش الموت ، على أنه ابن امبراطورة . وأمرع الشاب الذي لم يتطرق إليه الفكر من فوره إلى قصر القسطنطينية ، وقد امتلأت نفسه بالأمال الكبار ، وأدخل إلى أمه ، ولما لم تقع عليه العين قط بعد ذلك ، حتى بعد موت تيودورا ، فقد استخفت الوحشة الشائنة بأنها دفنت ، بالقضاء على حياته ، سرا يسى ، إلى شنائنها الامبراطورية أيضا أسامة .

وفي يوم من أيام فقرها وسوء سمعتها رأت تيودورا فيما يرى العالم ، أو سور لها الوهم ، شبعا محس إليها مؤكدا نيا سارا ، هو أنه مقدر لها أن تكون قرينة ملك قوى ، ووعيا منها بما ينتظرها من عظمة وجلال عانت من إفلاجونيا إلى القسطنطينية ، واصطنعت ، وكأنها مثقلة بارعة ، شخصية أكثر حكمة ولياقة . واستعانته هل سد عوزها بعمل محمود . وهو غزل الصوف ، وتظاهرت بحياة العفة والعزلة في دار صغيرة حولتها فيما بعد إلى مبدع فخم ضخم ، وسرعان ما اجتذب جمالها مع شيء من الدهاء ، أو بعض الصدقة - النبيل جستنيان وسحره ، ورسخ في قلبه ، وكان جستنيان يملك آنذاك ناصية السلطة المطلقة باسم عمه (جوستين) وربما ساقط تيودورا من جانبها شيئا من الدلال لتزيد من قيمة متاع كثيرا ما كانت قه أباخته أسرافا وبدارا لأجل بني البشر ، أو قل انها في البداية بالتمتع المقرون بالخمر ، وأخيرا بالمغريات الجسدية . ربما أشعلت النار وأهاجت الرغبات في قلب عاشق كان يحكم طبيعته أو ولعه ، يلزم السهر ويقنع بالقليل من الغذاء . ولما خمدت فيه جذوة إنشوة التي اضطربت بين ضلوعه أول الأمر ظلت تيودورا قادرة على

الاحتفاظ بنفسى سيطرتها على عقله ، بفضل ما توافر لها من مميزات أكثر ثباتا ، تمثلت فى رقة طبعها وحسن ادراكها ، وكان يلد له ، ان يرمع من قدر الحبيبة التى تعلق بها ويغدى عليها الثروة ، فتدفقت كنوز الشرق تحت قدميها ، واستقر رأى ابن أخ جوستين ، وربما كان ذلك نتيجة لوساوسه الدينية ، على أن يسبغ على خليلته الصفة المقدسة المشروعة ، وهى صفة الزوجية - ولكن قوانين روما كانت تحرم صراحة زواج عضو السناتور من أية امرأة حط من قدرها أصلها الوضع أو عملها فى المسرح . وأبت الامبراطورة لزيبيكينا Lupicina (أو يويميا lupemia) - وهى متبربرة ذات آداب رفيعة خشنة ، ولكن لا مأخذ على حسن شمائلها - أبت أن تتخذ من عاهرة زوجة لابن أخى زوجها وحتى فجيلانشيا Vigilantia والدة جستنيان ، المتسكة بالخرافات ، أزوجت أشده الخيفة ، رغم اقرارها بذكاء تيودورا وجمالها ، من أن يكدر طيش تيودورا وعجبها بنفسها تقوى ابنها وسعادته ، ولكن مثابرة جستنيان التى لا تلين أزالت كل هذه العقبات ، فقد ترقب ، فى صير ، وفاة الامبراطورة ، واحتفر دموع أمه التى سرعان ما انهارت تحت وطأة أحزانها وكروبها ، وسن باسم جوستين قانونا أبطل التشريع الجامد القديم ، وكما جاء فى المرسوم بالنص : فتح باب التوبة النصوح أمام النسوة التعميسات اللاتى دنسن أنفسهن على المسرح ، وأجيز لهن عقد النقران المشروع على أبرز الشخصيات الرومانية . وما أن جاء المرسوم بهذا التسامح حتى تم فى أعقابها على الفور الزواج المهيى بين جستنيان وتيودورا ، وعلا قدرها يوما بعد يوم بارتفاع شأن عشيقها ، وحالما أضفى جوسين على ابن أخيه الحلة الامبراطورية ، أسرع بطريك القسطنطينية يضحج التاج على رأسى امبراطور الشرق وامبراطورته . ولكن الأعباد المألوفة التى كانت الآداب الرومانية الجامدة تجيزها لزوجات الأمراء ، لم تستطع أن ترضى طموح تيودورا أو تشبع غرام جستنيان وولعه . فقد أجلسها على العرش بوصفها شريكا متكافئا مستقلا فى السيادة على الامبراطورية . وفرض على حكام الولايات تادية يمين الولاء لجستنيان وتيودورا معا . وغرت دينا الشرق راكعة أمام عبقرية ابنة أكايوس وحظها . ذلك أن العاهرة التى دنست مسرح القسطنطينية أمام جمهور لا يحصى من النظارة ، احتفى بها الآن ، بوصفها ملكة ، وفى نفس المدينة ، القضاة والحكام العظام ، والأساقفة الأرثوذكس والقواد الظافرون والملوك الأسارى (١) .

(١) « وإذا ما رقت مدارج السلطة ، فإن الناس لن يمودوا يرون أصلها الوضع » .
لولا نظرة واريون Werberton الناقدة . لما قدر لى أن أرى فى هذه الصورة العامة
للارذيلة المنتصرة أى تلميح لى تيودورا .

ان الذين يؤمنون بأن فقدان العفة يفسد عقل المرأة افسادا تاما ،
انما يصفون في لهفة الى بواعث الحسد الخاص أو السخط العام التي
أنكرت أو تنكرت لفضائل تيودورا ، وبالغت في رذائلها ودمغت في قسوة
الخطايا التي ارتكبتها الفاجرة الشابة طوعا أو كرها . وكثيرا ما تجنبت
بدافع من الخزي أو الازدراء ، ولاء الجماهير الدليل ، وهربت من ضوء
العاصمة الكريه وقضت الجزء الأكبر من العام في القصور والحدائق التي
أقيمت بشكل يهيج على شاطئ بحر مرمرية والبسفور وخصصت ساعات
الفراغ للعناية بجمالها ، عناية مقرونة بالحكمة والشكر ، ولاستكمال
أسباب الترف في الحمام والمائدة ، وللنوم الطويل في المساء والصباح ،
وامتلأت أجنحتها الخاصة في القصور بالنسوة والخصيان المقربين ائدين
رعت مصالحهم وأهواءهم على حساب العدالة ، أما كبار الشخصيات في
الدولة فكانت تزدهم بهم غرفة الانتظار ، حتى اذا أذن لهم أخيرا وبعد
انتظار ممل ، في الدخول وتقبيل قدمي تيودورا ، عانوا - وفق ما يطيب
لها - من الفطرساة الصامتة في الامبراطورة ، أو من الطيش الفاجر في
المحنة الهزلية . وربما أمكن التماس العذر لها في الشره الفظيع في جمع
ثروة كثيرة ، لحشيتها من موت زوجها ، حيث لن يبقى لها بعده إلا الدمار
أو العرش ، وهما أمران لا ثالث لهما . وربما أثار الخوف والطمع معا غضب
تيودورا على قائدين أعلا في نزع وتهور ، في أثناء مرض الامبراطور
انهما غير مستعدين لأن يبغيا عن العاصمة بديلا . ولكن لومها على القسوة ،
وهي أمر تعافه حتى رذائلها الناعمة ترك على ذكرى تيودورا وصمة
لا تمحى . وكان جواسيسها العديدون يراقبون ، ويبلغون في حماس بالغ
عن أى عمل أو أية نظرة تمس سيدهم الامبراطورة بأذى . فزج بمن
يتهمونهم أيا كانوا في غيايب سجونها الخاصة التي لا يمكن أن تصل اليها
يد العدالة ، وأشيع أن الطاغية المرأة كانت تشهد بنفسها تعذيبهم بالخازوق
أو السياط دون أن تحس بصوت الضراعة أو تستشعر الرحمة . وهلك
بعض ضحاياها المتكودين في أعماق هذه السجون غير الصحية ، على حين
أبيع لآخرين ، بعد فقدان أطرافهم أو عقولهم أو ثرواتهم بالخروج الى
الحياة ، شراهد حية على انتقامها ، الذي امتد عادة الى أطفال من كانت قد
ارتابت فيهم أو آذتهم . وكان عضو السيناتو أو الأسقف الذي تنطق
تيودورا بالحكم عليه بالاعدام أو النفي ، يسلم الى رسول موثوق فيه ،
تستشير هي همته ونشاطه بتهديد يجرى به لسانها : « أقسم بالحي الذي
لا يموت ، ليسلخن جلدك عن لحبك اذا أخفقت في تنفيذ أوامري » .

واذا لم تكن عقيدة تيودورا مصطبغة بأية هرطقة ، لكفر تعبدها
المثالي ، في رأى معاصريها ، عن الغرور والجشع والقسوة ، واذا استخدمت

تفوذها للتخفيف من بطش الامبراطور الذى لا يحتمل ، فان الجيل الحاضر سيرجع بعض الفصل في هذا لديها ، ويلتمس بعض التسامح في أخطائها الخطيرة . لقد أطلق اسم تيودورا بنفس القدر من التكريم والشرف على كل المؤسسات التي أقامها جستنيان على التقوى والاحسان ، وترجع أعظم مؤسسة للبر والخير في عهده الى عطف الامبراطورة على بنات جنسها اللاتي قد يهن العزل ، واللاتي أغرين أو اضطررن الى ممارسة مهنة الدعارة ، وحول قصر على الشاطئ ، الاسيوى للبسفور الى دير فخيم فسيح ، وخصص معاش سخي لخمسمائة من النسوة جمعن من شوارع ومواخير القسطنطينية . وفي هذا الملجأ الأمين المقدس عكفن على العزلة الدائمة ، وصاع يأس بعض من القين بأنفسهن رأسا الى البحر وسط عرفان التائبات النادمات اللاتي انتشلتهم المحسنة الكريمة من وحدة الخطيئة والبؤس . ولقد أشاد جستنيان نفسه بتبصر تيودورا وفطنتها بل ان قوانينه لتنسب الى النصائح الحكيمة لزوجته الموقرة التي تقبلها بوصفها منحة من عبد الله . وتجلت بساطها وسط هياج الشعب وفزع البلاط . وارتكزت طهارة تيودورا منذ اللحظة التي اقترنت فيها بجستنيان ، على صمت أعضائها الألداء ، وعلى الرغم من أن ابنة آكاكيوس ربما أدركت من الحب غاية المني ، فانها تستحق شيئا من المديح والاعجاب بقوة عزيمتها التي مكنتها من أن تضحى باللفة والعادة في سبيل شعور أقوى بالواجب أو بالمصلحة . ولم تستطع رغبات تيودورا ولا صلواتها وتضرعاتها أن تحقق لها نعمة ولد شرعى ، وقد أودعت الثرى ابنة كانت البصرة الوحيدة لزواجها ورغم هذه الخيبة التي منيت بها ، ظل حكمها ثابتا مطلقا ، واحتفظت بفضل دهائها أو أهليتها ، بتعلق جستنيان بها وحبها لها . وكانت خلافتهما اظهريه تقع دوما وقوع الصاعقة على رجال الحاشية الذين اعتقدوا أنها خلافت جادة ، وربما كانت صحتها قد تأثرت بفجورها أيام شبابها ، ولكنها كانت ضعيفة دائما ، وقد نصحتها أطباؤها باستعمال الحمامات الدافئة في بيثيا (في اليونان) . وصحب الامبراطورة في هذه الرحلة الوالى البريتورى وكبير الصرافين ، وعند من الكونتات النبلاء كما سار في ركابها موكب فخيم من أربعة آلاف من الخدم والأتباع . وأصلحت الطرق العامة كلما اقترب مقدها ، وأقيم قصر لاستقبالها ، وعند مرورها في بيثيا أغدقت صدقات سخية على الكنائس والأديرة والمستشفيات ، لعلها ترفع أكف الضراعة الى السماء حتى تسترد الامبراطورة صحتها ، وفي السنة الرابعة والعشرين من زواجها ، الثانية بعد العشرين من حكمها حطمها السرطان وأذنت شمس حياتها بمغيب ، وحزن لهذه الخسارة الفادحة التي لا تعوض ، زوجها الذى كان في مقدوره أن يتخير أنبل وأظهر عذراء في الشرق ، بدلا من داعرة المسرح الفاجرة .

يمكن أن يلحظ في ألعاب الأقدمين خلاف جوهرى ، فقد كان أبرز الاغريق لاعبين على حين كان الرومان مجرد متفرجين . وكان ميدان الألعاب الأولمبية مفتوحا أمام الثراء والجدارة والطموح ، ولو استطاع المتبارون أن يعتمدوا على مهارتهم الشخصية ونشاطهم الخاص ، لجاز أن يتبعوا خطوات ديوميدي ومنلاوس (١) Diomede and Menelaus ويقودوا جيادهم في السباق السريع . وكان يرخص لعشر أو عشرين أو أربعين عربة في البدء دفعة واحدة وكان اكليل الفار جزء الفائز ، كما كانت تحلد شهرته وشهرة بلده الألحان الفنائية التي كانت أبقي على الزمن من الآثار النحاسية والرخامية . ولكن ربما تورع خجلا أى عضو في السناتو ، أو أى مواطن يعتز بكرامته عن أن يعرض نفسه أو جياده في الملعب الشعبي في روما . وكانت الألعاب تعرض على حساب الدولة أو الحكام أو الأباطرة وتركت أجنة الخيل في أيدي جماعة من الأتباع الأذلاء ، فإذا جاوزت أرباح سائق العربة المحظوظ أحيانا أرباح المحامي ، فيجب أن تعتبر تلك الأرباح اسرافا وتبذيرا من الشعب وأجرا عاليا لمهنة شائنة حقيرة . وكان السباق في بداية نشأته مباراة بين عربتين تميز أحد سائقيهما بحلة بيضاء ، والثاني بأخرى حمراء ، وأدخل فيما بعد لوانان إضافيان هما الأخضر الفاتح والأزرق الداكن وكان السباق يتكرر خمسا وعشرين مرة وتشترك فيه مائة عربة في اليوم الواحد ، زيادة في أبهة المسرح الشعبي . وسرعان ما اكتسب الفرقاء الأربعة وجودا مشروعا ذا أصل غامض ، وكانت الألوان الأربعة مأخوذة من مختلف مظاهر الطبيعة على مدار فصول السنة الأربعة : الأحمر القاني من الصيف ، بياض الثلج الناصع من الشتاء ، زرقة الظلال انكثيفة من الخريف ، ثم الأخضر الزاهى السهب من الربيع . وثمة تأويل آخر لاختيار هذه الألوان ، وهو تفسير يرجع العناصر على الألوان ، وقيل أن النزاع بين الأخضر والأزرق يحكى التباين بين عنصرى التراب والماء . فاتخذوا من فوز « الأخضر » بشيرا « بستة خضراء » أى بوفرة المحصول واستبشروا من غلبة الأزرق بجولات موفقة آمنة في البحر . على أن العداء بين الفلاحين والبحارة كان نوعا ما أقل حمقا من التحمس الأعمى الذى كان يبدية أفراد الشعب الرومانى الذين وهبوا حياتهم وأموالهم ، كل للون الذى تحيز له . وكان الأمراء الذين أوتوا أكبر قدر من الحكمة والتعقل

(١) في الأساطير اليونانية - ديوميدي محارب اشترك في حصار طروادة ، ساعد أوليسسوس في صرقة تمثال أثينا . ومنلاوس أحد ملوك اسبرطة ، آخر أجاممنون .

يسخرون من مثل هذا الخرق ويتفاخسون عنه ، ولكن عمد كل من الفريقين : الأخضر والأزرق ، الى أن يتخذ في الملعب الشعبي أسماء كاليجولا ، نيرون ، فيتليموس ، فيروس ، كودوس ، كراكلا ، الاجابالوس ، وكثيرا ما تردوا على اسطبلاتهم ، وأطروا محبيهم واعتدوا على خصومهم ، واستحقوا تقدير الجماهير بالتقليد الطبيعي أو المصطنع لسلوكهم وظل الصراع الدعوى الصاخب يكرر صفو الابتهاج العام حتى آخر عهد روما بهذه المشاهد والاحتفالات ، وتدخل ثيودوريك بسلطانه ، بدافع من العدالة أو التعلق والحب ، لحماية الفريق الأخضر من عنف أحد القناصل وأحد الأشراف ، كانا منحايزين ، في وح زائد ، الى الفريق الأزرق في الملعب الشعبي .

واقبست القسطنطينية حماقات روما ، ولو أنها لم تقبس فضائلها ، ومن ثم نرى أن نفس الفرقاء أو الأحزاب التي أهاجت الملعب في روما ، الهبت في مزيد من العنف المضاعف مضمار السباق في القسطنطينية . وكانت الغيرة الدينية ، في عصر أنسطاسيوس تشير جنون الشعب ، وكان من نتيجة هذا الخبل والحنق أن الفريق الأخضر - الذي كان يحفى الحجارة والخناجر خيانة وغدرا في سلال الفاكهة قتل في أثناء احتفال مهيب ثلاثة آلاف من خصومه « الزرق » . وانتشر هذا الوباء من العاصمة الى ولايات الشرق ومدنه ، وانبثق من هذا التمييز باللونين في مجال الألعاب الرياضية حزبان قويان متناجزان هما أركان الحكومة الضعيفة . والحق أن الانقسامات الشعبية القاتبة على أخطر الميول أو المزايم الدينية قلما بلغت حدة هذا التمزق العنيف الطائش الذي هدد وشائج الود في الأسرات وفرق بين الأصدقاء وبين الاخوة . وأغرى النساء ، رغم ندرة وجودهن في الملعب الشعبي ، بأن تميل كل منهن مع هوى عشيقها ، أو تعارضى ميول زوجها ، وضرب بكل قانون وضعى أو سماوى عرض الحائط ، وطالما أحرز هذا الفريق أو ذاك قصب السبق ، لم يلق مشايعوه بالا لاية ضائقة خاصة أو كارثة عامة . وسادت في أنطاكية والقسطنطينية فوضى الديمقراطية دون ما يصاحبها من روح الحرية ، وبات التأييد الحزبى ضرورة لازمة لكل طلاب الوظائف المدنية أو الكنسية . وقبيل ان ثمة علاقة خفية بين أسرة أنسطاسيوس أو طائفته وبين الحزب الأخضر ، وان الحزب الأزرق كان متحازا انحيازا متحمسا الى جانب الارثوذكسية وجانب جستينيان . راعى هذا الحزب الأزرق ، وأن هذا الراعى الشكور كان ، لأكثر من خمسة أعوام ، وراء كل الاضطرابات التي أثارها حزب أفزعت القصر والسنانو وكل عواصم الشرق ، مشاغباته في كل مناسبة ، وانطلاقا من هذا العطف الملكى طغى الفريق الأزرق وتوقحوا ، وتصنعوا اشاعة الرعب والارهاب ، بزى بربرى - شعر الهون الطويل وأكمامهم

المزمومة الضيقة وثيابهم الفضفاضة ، ومشية متعالية وصوت جهوري طنان . وكانوا نهارا يخفون الخناجر ذوات الحدين ، أما فى الليل فقد تسلحوا وتكتلوا فى جراءة ، فى عصابات كثيرة مستعدة لكل أعمال العنف والسلب والنهب ، وكان لصوص الليل هؤلاء يسلبون وكثيرا ما يذبحون أعداءهم من الفريق الأخضر ، بل حتى المواطنين المسالمين الأبرياء ، حتى لقد بات من الخطر ارتداء الأزوار أو الأحزمة الذهبية ، أو الظهور ليلا فى شوارع عاصمة هادئة . ولقد عمدت روح جريئة ، فى مأمن من العقاب والحسبان ، الى انتهاك حرمة الدور الخاصة ، واستخدمت الحرائق لتسهيل سطو هؤلاء المشاغبين المحزبين أو اخفاء جرائمهم ولم يكن ثمة مكان فى مأمن من هذه الغارات . وكم أسرف هؤلاء المشاغبون فى سفك دماء الأبرياء . وكم لوثوا الكنائس والمباني بأعمال القتل ، وكم كانوا يفاخرون بمهارتهم فى اصابة الفريسة بجرح مميت بطعنة خنجر واحدة . واختار شباب القسطنطينية المنحل « حزب الحلة الزرقاء » وأخرس صوت القانون ، وانحلت روابط المجتمع ، واضطر الدائنون الى التخلي عن وثائق ديونهم ، والقضاة الى نقض احكامهم ، والسادة الى تحرير عبيدهم ، والآباء الى الاستجابة لتبذير أبنائهم ، وهتك الخدم أعراض كرام السيدات ، وانتزع الأولاد الذين يتسمون بالجمال من بين أذرع آبائهم . واغتصبت الزوجات أمام أزواجهن الا اذا آثرن الموت طواعية واختيارا ، أما الفريق الأخضر ، الذين اضطهدهم أعداؤهم وتخلي عنهم الحكام ، فقد دفع بهم ياسهم الى التزام خطة الدفاع ، أو ربما قتل نفس بنفس ، وانقض هؤلاء المشردون التعساء الذين هربوا الى الغابات والكهوف انقضوا بلا رحمة على المجتمع الذى لفظهم أما من بقى منهم بعد الصراع فقد أعدم ، وأصبح رجال القضاء الذين أوتوا من الشجاعة ما أمكن معه معاقبة المجرمين ، والتصدى لسطو الفريق الأزرق - نقول أصبحوا هدفا للغيرة الطائشة من جانب هذا الفريق : فأوى والى القسطنطينية الى القبر المقدس هربا ، وضرب أحد كوثات الشرق بالسياط ، وشنق حاكم قيليقيا ، بأمر من تيودورا ، على قبر سفاحين أدانها بقتل سائسه . وبالاعتداء الجريء عليه هو نفسه لمحاولة قتله . وربما أغرق الانسان الطموح بتأسيس عظمته على ركيزة من مثل هذه القوضى الشاملة . ولكن من مصلحة الملك ومن واجبه أن يحفظ للقانون سيادته وهيبته . وأعلن جستنيان فى مرسومه الاول الفى كثيرا ما كرره ، وأحيانا نفذه ، عن عزمه على حماية الأبرياء ومحاسبة المجرمين ، من كل طائفة ومن كل « لون » . على أن ميزان العدالة ظل يرجح كفة الفريق الأزرق ، بفضل حب الامبراطور الدين وبحكم عادته وبفعل مخاوفه ، وخمدت فيه روح الانصاف ، بعد صراع ظاهرى ، دون

تردد أو امتعاض ، أمام أهواء تيودورا التي لا تنثنى ولا تلين ، فإن الامبراطورة لم تنس أو تغفر قط ما كان يلحق بالمملكة الهزلية من أذى وإساءة . وعند ارتقاء جوستين الصغير الى العرش ، أدان اعلان التزام العدالة الصارمة القائمة على المساواة ، بطريق غير مباشر ، تحيز العهد السابق ، حيث جاء فيه : « أيها الزرق : ان جستينيان وه مات . أيها الخضر : انه ما يزال حيا ! » .

وكادت انكراهية المتبادلة والمصالحة العارضة المؤقتة بين الفريقين ، ان تثيرا في القسطنطينية فتنة هوجاء تحيلها الى خراب يباب (١) . واحتفل جستينيان . في السنة الخامسة من حكمه ، بمنتصف يناير ، وكانت صيحات السخط من جانب الخضر تعكر صفو الألعاب دون انقطاع . واحتفظ الامبراطور بمهاجته الساكنة الى القسوط الثاني والعشرين ، وأخيرا نفذ صبره . وانطلق بصوت عال ، وفي عبارات متقطعة ، في أغرب حوار جرى يوما بين ملك ورعاياه . وكانت شكاياتهم في البداية تنسم بالاحترام والاعتدال والتواضع ، فاتهموا الوزراء التابعين بالظلم والجور ، ودعوا للامبراطور بطول العمر والنصر . فانفجر جستينيان متعجبا : « اصبروا وأنصتوا أيها اللاثمون الوقحاء ! أخرسوا ألسنتكم أيها اليهود ، أيها السامريون ، أيها المانويون ! » وظل الخضر يحاولون أن يستندروا عطفه : « نحن فقراء ، نحن أبرياء ، لقد أودينا في أموالنا وفي أنفسنا ، اننا لا نجرؤ على السير في الطرقات اننا مضطهدون بسبب اسمنا ولوننا . اننا نستعذب الموت ، أيها الامبراطور ، ولكن بأمر منكم وفي سبيلكم ! » ولكن تكرار عبارات التأنيب المتسمة بالتحيز والانفعال حطت في أعينهم (الخضر) من قهر الامبراطور في حلته الأرجوانية ، فأعلنوا تخليهم عن ولائهم لأمير لا يرعى قواعد العدالة مع شعبه ، وأبدوا أسفهم وحزنهم لأن أباه كان قد ولد ، ودمع ابنه بهذه الألقاب الشائنة المخزية : قاتل جحش - طاغية كذاب . فصرخ الامبراطور الحائق : « هل تستهينون بحياتكم ! » عند ذلك نهض الزرق من مقاعدهم والدم يغلي في عروقهم ، ودوت صيحاتهم العدائية مثل قصف الرعد في المضمار ، ولكن أعداءهم الذين تجنبوا النزال غير المتكافئ نشروا الرعب واليأس

(١) كان السبب الحقيقي لمشاغبات نيقا هو الاستياء والسخط نتيجة ابتزاز الأموال بفعل إدارة جستينيان الخافلة المهمة ولم يوضح جييون هذه الناحية ، كما انه لم يفتن الى أن حزبي الملعب الشعبي هما في الحقيقة الأبرشيئان القديمتان الذابلتان في المدينة ومن ثم بقينا - الى حد ما - الواسطة الدستورية للاتصال بين الشعب والامبراطور - د.م.لو .

فى شوارع القسطنطينية ، وفى تلك الآونة الحرجة المليئة بالخطر ، سبق
 سبعة من القتلة الأرذال ، ممن أصدر عليهم الوالى حكمه بالاعدام ، للطواف
 بهم فى شوارع المدينة ، ونقلوا آخر المطاف الى ساحة التنفيذ فى ضاحية
 بيرا ، حيث قطعت رموس أربعة منهم على الفور ، وشنق الخامس ، وما أن
 بدى بشنق الاثنين الباقين حتى انقطع الحبل ، وسقطا على الارض دون
 أن يغارقا الحياة ، وصفق الجمهور لافلاتهما ، ونقلهما الرهبان الذين
 جاءوا من دير سانت كرونون المجاور . فى قارب الى محراب انكنسية .
 ولما كان أحد هذين المجرمين من أصحاب الحلة الزرقاء ، والثانى من أصحاب
 الحلة الخضراء . فقد أهاجت حفيظة الفريقين قسوة ظالمهم أو جحود
 راعيهم ، وعقدت بينهما هدنة قصيرة حتى تمكنا من انقاذ السجينين
 وارضاء شهوة الانتقام . وأحرق على الفور قصر الوالى الذى تصدى لتيار
 الشعب ، وقتل موظفوه وأفراد حرسه ، وفتحت أبواب السجون عنوة ،
 وأعيدت الحرية لأولئك الذين يحسنون استخدامها فى التخريب والتدمير ،
 وأرسلت قوة من الجيش لمساعدة الحاكم المدنى ، فالتحمت معها حشود
 مسلحة كانت أعددها وبسالتها فى ازدياد مستمر . وعمد رجال الهيرولى
 وهم أكثر من استخدمتهم الامبراطورية من المتبربرين وحشية - الى ايفاع
 القساوسة على الأرض وتركزت مخلفاتهم على الأرض فى طيش ونزق لتمنع
 التلاحم السموى وتفصل بين الفريقين ، بدافع التقوى والغيرة الدينية .
 وزاد انتهاك الحرمات على هذا النحو من الشعب وتفاقم السخط والهياج ،
 وتحمس الشعب فى الدفاع عن حرمة الدين ، وأمطرت النسوة من الأسطح
 والنوافذ رموس الجند بوابل من الحجارة ، فقتل الجند البيوت بالمواد
 المحترقة ، وغطت النيران التى أشعلها المواطنون والغرباء فى كل مكان
 وجه المدينة بلا رقيب أو حسيب . وامتدت الحرائق الى كنيسة آيا صوفيا
 وحمامات زيوكسيبوس Zeuxippus والى جزء من القصر ، من أول مدخل
 له حتى مذبح الاله مارس ، والى الرواق الطويل الممتد من القصر الى
 ساحة قسطنطين ، كما التهمت النيران مستشفى كبيرا بمن كان فيه من
 المرضى . ودمر كثير من الكنائس والمباني الضخمة ، وذاب قدر كبير من
 الذهب والفضة بفعل النيران أو تبدد . ولجأ المواطنون العقلاء والأغنياء ،
 هربا من مناظر الفزع والضيق هذه ، عبر البسفور ، الى الشاطئ
 الآسيوى ، وفى خمسة أيام تركت القسطنطينية خاوية على عروشها ،
 للفريقين ، وكانت كلمة السر عندهما « نيقا » ، أى « أسحق » ومن ثم
 أطلق هذا اللفظ على الشعب المشهود - وطالما ساد الخصام بين الفريقين ،
 فقد بدا أن الزرق وهم المنتصرون الغالبون ، والخضر وهم القانطون
 الجزوعون ، كانوا ينظرون بنفس الاستهتار الى الخل فى الدولة . واتفقا
 على أن يهاجما الادارة الفاسدة فى العدل والخزانة - ومن ثم وجه الاتهام

علنا الى الوزيرين المسئولين : تريبونيان الدهامية ، وجون الكبادوكي الجشع ، باعتبارهما سبب هذا البؤس العام . وكان من الجائز ألا يلقي أحد بالاً لتذمر الشعب وقت الهدوء ، ولكن التذمر لقي الآن أذانا ضاغية حين كانت المدينة تشتعل ، فعزل على الفور وزير المالية والوالي ، وشغل مكان كل منهما بعضو من السناتو لم يرق الشك الى نزاهته . وبعد الاذعان العام ، شخص جستنيان الى مضمار السباق ليعترف هو نفسه بأخطائه ، ولتقبل قدم رعاياه الشاكركين العارفين لفضله ، ولكنهم لم يشقوا في توكيداته ، رغم أنه أقسم بها على الكتاب المقدس . وأزعج ارنياهم الامبراطور فانسحب على عجل الى الحصن المكين في القصر ، ونسبت حدة الشعب الآن الى مؤامرة خفية حاك الطمع والطموح خيوطها ، وثار الظن بأن هؤلاء المتمردين ، وبوجه أخص الفريق الأخضر ، يزودهم بالمال والسلاح هيباشيوس Hypatius وبومبي ، وهما نبيسلان لم يستطيعا قط أن يتناسيا بشرف ، أو يتذكرا في أمان أنهما ابنا أخ الامبراطور أنسطاسيوس . وكان الامبراطور متقلب الاطوار في معاملتهما ، فارتضت دعوته وطيشه بأن يوليها ثقتة تارة ، ويفضح أمرهما تارة أخرى ، ثم يصفح عنهما بعد ذلك . . . ومن ثم كان يبدو أنهما خادمان مخلصان للعرش ، واحتجزا طيلة أيام الفتنة الخمسة كرهينتين ذواتي شأن ، حتى غلبت مخاوف جستنيان آخر الأمر على رزائته فتصور هذين الأخوين جاسوسين ان لم يكونا قاتلين ، فأمرهما في جفاء وعنف بمغادرة القصر . وبعد محاولة عقيمة للاقناع بأن الامتثال لهذا الأمر ربما أدى الى خيانة لا تكون لهما فيها ارادة ، عاد الأخوان الى دارهما . وفي صباح اليوم السادس أحاط الشعب بأحدهما وهو هيباشيوس وأمسكوا به ، ورغم ما أبدى من مقاومة صادقة ورغم دموع زوجته وتوسلاتها نقلوا أميرهم المحبوب - أي هيباشيوس - الى ساحة قسطنطين ، وبدلاً من التاج وضعوا على رأسه طوقاً ثميناً . ولو أن الفاصب الذي دافع فيما بعد عن فضل تمهله كان قد استمع الى مشورة السناتو ، واستثار حية الجماهير المحتشدة ، فنقول لو أنه فعل ذلك لكان من الجائز أن تضيق محاولتهم العنيدة الأولى الخناق على غريمه الذي يرتجف فرقا ، أو تبعده . وكان القصر البيزنطي يتصل بالبحر اتصالاً مباشراً ، ورست القوارب على أهبة الاستعداد أمام الحديقة ، واستقر الرأي سرا بالفعل على انتقال الامبراطور وأسرتة وأمواله الى ملجأ آمن بعيداً عن العاصمة .

وكان مآل جستنيان الى الدمار والضياع ، لو لم تتخل القاهرة التي انتشلها من وهدة المسرح عن الجبن المركب في بنات جنسها وعن فضائلهن على حد سواء ، ذلك أن تيودورا وحدها وسست مجلس شهوده القائد

بليساريوس ، أظهرت روح البطولة ، كما استطاعت هي وحدها كذلك دون أن ترهب ما يمكن أن يصب عليها الامبراطور من نعمة فيما بعد - أن تخلص الامبراطور من الخطر الداهم ومن مخاوفه العقيمة ، وصاحت بجستنيان شريكة حياته : « اذا كان الهرب هو الوسيلة الوحيدة للنجاة ، فاني أربأ بنفسي أن أهرب ، وإن الموت مال كل حي ، وما ولدنا الا لموت ، ولا يجوز لمن تولوا الملك أن يبقوا على قيد الحياة بعد فقدان ملكهم ومنزلتهم الرفيعة ، واني لأدعو الله ألا يمد في أجلى ، ولو يوما واحدا بدون تاجي وحلى الامبراطورية ، والا أرى النور في اللحظة التي لا يمود الشعب فيها يدعوني بالملكة . واذا اعتزمت الهرب فان لديك ثروة وكنوزا ، وإن لديك سفنا ، ولكن تدبر ، حتى لا تعرضك رغبتك في الحياة الى الانزواء في منفى كئيب أو الى ميتة شائنة . أما أنا فلسوف ألتزم الحكمة القديمة القائلة بأن العرش مئوى كريم » . وبعث ثبات المرأة في الامبراطور من جديد روح الشجاعة ليتروى ويعمل . وسرعان ما تستبين الشجاعة وسيلة التحايل على أشد موقف يأسا وقنوطا . فلقد كان من أيسر الأمور وأكثرها حسما أن تستنار من جديد حفيظة الحزين (الزرق والخضر) ، فقد عرت الدهشة الزرق لخطيئتهم وحماقتهم في أن يستفزههم شيء يسير من الأذى الى أن يتآمروا مع أعدائهم ضد امبراطور محسن كريم خير ، فنادوا من جديد بجستنيان ملكا ، وترك فريق الحلة الخضراء ، مع امبراطورهم المحدث وحدهم في ميدان السباق . وكان الحرس رجالا غير موثوق باخلاصهم وأمانتهم ، ولكن قوات الجيش التي استعان بها جستنيان تألفت من ثلاثة آلاف جندي محنك كانوا قد تدربوا على البسالة والنظام في حروب فارس والليريا . فانقسمت هذه القوات الى قسمين تحت قيادة بليساريوس ومندوس ، وشق كل منهما طريقه عنوة من القصر ، عبر الدروب الضيقة والنيران الخاملة والأبنية المتداعية ، حتى أطبقا في لحظة واحدة على المدخلين المتقابلين لميدان السباق ، وما كان في مقدور الحشد المضطرب الذي تولاه الفرع أن يتصدى في تلك اللحظة الحرجة لهجوم مركز منظم من جانبي الملعب . وأبدى الزرق أقصى الحمية وأشد البأس تعبيرا عن ندمهم ، حتى لقد بلغ عدد القتلى في تلك الملحمة العاتية الصاخبة في ذاك اليوم أكثر من ثلاثة آلاف واقتلع هيباشيوس عن عرشه ، واقتيد مع أخيه بومبي حتى خرا تحت قدمي جستنيان يرجوان الرفق والرحمة ، ولكن جرمهم كان صارخا ، وكانت براءتهم موضع شك ، وحالت شدة فزع جستنيان دون غفران الذنب . وفي صباح اليوم التالي أعدم الجنود خفية ابني انسطاسيوس مع ثمانية عشر آخرين من أبرز شركائهم في الجريمة من الأشراف والقناصل ، وألقيت جثثهم في البحر ، وهدمت قصورهم وصودرت أموالهم . أما ميدان السباق نفسه فقد قضى

عليه بالصمت الحزين لعدة سنين ، فلما أعيدت الألعاب عادت الاضطرابات سيرتها الأولى ، وظل الفريقان الأزرق والأخضر يسيثان الى حكم جستنيان ، ويكدران هدوء الامبراطورية الشرقية .

استيراد الحرير من الصين

ظلت هذه الامبراطورية الشرقية ، بعد استيلاء المتبربرين على روما ، على صلة بالأهم التي كانت قبل غزتها فيما وراء الأدرياتيك حتى حدود أثيوبيا وفارس . فقد بسط جستنيان حكمه على أربع وستين ولاية وتسعمائة وخمس وثلاثين مدينة ، وجادت الطبيعة على ممتلكاته بمزايا التربة والموقع والمناخ . وكان فن الانسان يخطو دائما مدارج الرقي على طول ساحل البحر المتوسط وضياف النيل من طروادة القديمة الى طيبة في مصر . وقد أنقذت خيرات مصر الوفيرة المشهودة ابراهيم وقومه ، وكان لا يزال في مقدور هذا الوادي الصغير الأهل بالسكان أن يصدر في كل عام خمسة وستين ألف طن من القمح الى القسطنطينية . وكانت صيدا تزود عاصمة جستنيان بمصنوعاتها التي خلدت أشعار هوميروس ذكرها قبل ذلك بخمسة عشر قرنا ، وبدلا من أن تضعف قوة الأرض سنة بعد سنة باستنبات ألفى محصول ، كانت تجدها وتنعشها الفلاحة الماهرة والأسمدة الفنية والراحة الموسمية ، وكانت الحيوانات تتكاثر بغير حدود . كما تكاثرت ، بفضل عناية الأجيال المتعاقبة ، المزارع والمباني وأدوات العمل والثرف التي كانت أبقي على الزمن من حياة الانسان . وحفظت التقاليد ممارسة الفنون المتواضعة وعملت التجربة والمران على تبسيطها ، وكان تقسيم العمل وسهولة التبادل سببا في إثراء المجتمع ، فعملت آلاف من أيدي الصناعات النشيطة على تهيئة المسكن والملبس والغذاء ، لكل روماني ، وجدير بالذكر أن اختراع النول والمفرل نسب الى الآلهة . على أنه في كل عصر ، وجدت منتجات حيوانية أو نباتية ، مثل الشعر والجلد والصوف ، والكتان والقطن ، وأخيرا الحرير ، وصنعت تصنيعا بارعا لستر جسم الانسان أو تزيينه . وصبغت هذه كلها بخليط من الألوان الثابتة ، واستخدمت الفرشاة بنجاح في تحسين نتائج الأنوال ، وكان لكل انسان مطلق الحرية - تبعاً لذوقه وزيه - في اختيار هذه الألوان التي تحكى جمال الطبيعة ، الا أن الأرجواني القاتم الذي استنبطه الفينيقيون من بعض المحار كان وقفا على شخص الامبراطور المقدس وقصره ، وكانت عقوبة الخيانة تنزل بالرعايا الطامعين الذين تجاسروا على سلب العرش امتيازاه الخاص .

ولست فى حاجة الى ايضاح أن الحرير (١) فى الأصل عبارة عن
أفرازات من غدد يرقة وأنه ينسج حولها مقبرة ذهبية (شرنقة) تخرج
منها بعد ذلك فراشة • وكان دود القز الذى يتغذى على أوراق كالتوت
الأبيض ، محصورا ، حتى أيام جستنيان ، فى الصين وكانت أشجار
الصنوبر والبلوط والدردار معروفة فى غابات آسيا وأوروبا ، ولما كانت
تربية الدود على أوراقها ، أكثر مشقة وإنتاجها أقل ضمنا ، فقد أهملت
بصفة عامة ، اللهم الا فى جزيرة كيوس الصغيرة قرب شاطئ آيسكا
« اليونان » ، وكان يؤخذ منها نسيج رقيق • وظلت هذه الصناعة
الكيوسية التى اخترعتها امرأة لاستعمال النساء موضع إعجاب الشرق
وروما ، لفترة طويلة • ومهما أثارت ملابس الميدين والأشوريين من
شكوك ، فإن فرجيل هو أقدم كاتب ذكر صراحة الصوف الناعم الذى
يستخرج من أشجار التبت أو الصين ، وصحح هذا الخطأ انطيمى - الذى
كان أقل غرابة من الحقيقة - شيئا قشينا - بمعرفة الحشرة الثمينة التى
كانت أول من ابتدع البلذخ الذى رفلت فيه الأمم ، وكم استهجن أكثر
الرومان تمسكا بأهداب الوقار والرزانة هذا اللون الظريف النادر من
الترف ، أيام تيبيريوس ، كما هاجم ، بلينى فى أسلوب متكلف ولو أنه
عنيف ، هذا الشره فى الكسب الذى دفع الإنسان الى إرنياذ أقصى أركان
المعمورة سعيا وراء هدف سيئ ، فانهم انما يعرضون للأنظار هذه الثياب
التى هى أقرب شيء الى العرى ، والتى تكشف عن أجسام من يرتديها ،
وربما أرضى الرداء الذى يكشف عن مفاتن الجسم ولون البشرة - أرضى
الغرور أو حرك الشهوة • وكان النسوة الفينيقيات أحيانا يخلطن هذه
المنسوجات الحريرية المحبوكة التى سبق صبغها فى الصين ، فكان هذا
السندس الثمين يمزج بنسيج أقل حبكا من خيوط الكتان ، وكان استخدام
الحرير النقى أو المخلوط لمائتى عام بعد عصر بلينى - وقفا على النساء ،
حتى ألف المواطنون فى روما والولايات أن يتشبهوا ، دون أن يحسوا ،
بالامبراطور الأجابالوس الذى لوث بتخنثه كرامته بوصفه امبراطورا
ورجلا معا • وشكا أوريليان من أن الرطل من الحرير كان يباع فى روما
بائنتى عشرة أوقية من الذهب ، ولكن العرض ازداد بازدياد الطلب عليه ،

(١) تحتل دودة القز مكانا مرموقا فى تاريخ الحشرات (وهو أشد غرابة من مؤلف
أوفيد فى التطور) ويمكن تشبيه دودة الحرير فى جزيرة كيوس - كما وصفها بلينى ،
بنوع مشابه لها فى الصين • ولكن دود القز عندنا وكذلك أوراق القوت الأبيض لم تكن
معروفة لدى ثيوفراستوس ولا بلينى • (خلط جييون بين كيوس Ceos وكون Cos
وكان أرسطو أول كاتب اغريقى ذكر الحرير ، يحتل أن الحرير الخام كان يؤتى به من
آسيا الى كوس حيث يصنع هناك • د.م • لو) •

فهبط السعر نتيجة كثرة العرض ، وإذا كانت الظروف الطارئة أو الاحتكار قد رفعت أحيانا هذا السعر حتى عن الحد الذي ذكره أوريليان ، فقد اضطرت الصناعات في صور وبيروت أحيانا نتيجة لهذه الأسباب نفسها إلى الاكتفاء بجزء من بسعة أجزاء من هذه القيمة الباهظة . واجه التفكير إلى أنه من الضروري سن قانون للتمييز بين ثياب المشين الهزليين واردة شيوخ السناتو ، وكان رعايا جستينيان هم الذين يستهلكون الجزء الأكبر من الحرير المستورد من منشئته الأصلي . وكانوا لا يزالون يسمون كل المعرقة نوعا من اصناف البحر المتوسط يطلق عليه « دودة قر البحر » . وإن الصوف أو الشعر الناعم الذي نلتصق به هذه الصدف أو المحارة بالصخر ، يصنع اليوم لمجرد أنه تحفة طريفة ، ولكنه لا يستخدم ، وكان الامبراطور الروماني يقدم مثل هذا الثوب المصنوع من مثل هذه المادة القريبة الفريدة هدية إلى حكام أرمينية .

وكانت هذه التجارة أو السلعة الغالية القيمة ، رغم أنها تشغل حيزا صغيرا ، تفي بنفقات النقل البري . وكانت القوافل تحترق قلب آسيا من بحر الصين إلى شواطئ البحر في سوريا في مائتين وثلاثة وأربعين يوما ، وكان الرومان يحصلون على الحرير من التجار الفرس الذين ترددوا على أسواق أرمينيا ونصيبين ، ولكن هذه التجارة التي كانت تنسم في أوقات السلم بالجشع والحد ، اضطربت أحوالها أيما اضطراب بسبب الحروب الطويلة التي كانت تنشب بين الملوك المتصارعين . وربما جاز للملك العظيم أن يعد في ذهنه وفخار إقليم أوزبكستان (عاصمته سمرقند) ، بل حتى الصين ، بين ولايات امبراطوريته ولكن نهر سيحون كان يحده منكمه الحقيقي ، ولكن اتصاله للثمر النافع بأهالي أوزبكستان ، فيما وراء النهر كان يتوقف على رضا الفاتحين الغزاة - وهم الهون البيض والترك ، الذين تعاقبوا على حكم هذا الشعب النشيط ، شعب أوزبكستان . ولكن أشد ألوان الحكم وحشية وهمجية لم تستطع أن تقضى على الزراعة والتجارة في إقليم اشتهر بأنه أحد بساتين آسيا الأربعة . وكان موقع مدينتي سمرقند وبخارى صالحا لتبادل مختلف منتجات هذا الإقليم . واشترى تجار هاتين المدينتين من الصينيين (١) الحرير الخام أو المصنوع ،

(١) خلط الاعجاب الأعمى عند الجزويت ، بين الحقب لتاريخ الصين . ولكن ميز بينها مع قدر أكبر من الدقة ، مسيو دي جين *M. de Guignes* الذي اكتشف تدرج الحقائق في الحوليات ، وامتداد الملكية حتى العصر المسيحي . . . ودرس بعين فاحصة علاقات الصين مع أمم المغرب ، ولذا أن هذه العلاقات يسيرة طارئة فاحصة . ولم يغفل الرومان أي شك في أن للصين امبراطورية ، لا تقل شأنا عن امبراطوريتهم .

ونقلوه الى فارس ، لاستخدامه في الامبراطورية الرومانية وكانت عاصمة الصين المختالة تيهيا وعجبا ترحب بقوافل ازبكستان على انها بعتات ذليئة ضارعة وانددة من ممالك تابعة ، فاذا رجعت القوافل سالمة آمنة كان جزاء المغامرة الجريئة كسبا وفيرا الى حد الافراط . وما كان من الميسور أن يقطع الطريق الوعر المحفوف بالمخاطر من سمرقند الى المدينة الصينية الأولى في ولاية شنسي في ستين أو ثمانين أو مائة يوم . حتى اذا عبرت نهر سيحون ، أصبحت في عرض الصحراء وسط القبائل الرحل ، الا اذا تصدت لهم الجيوش والحاميات التي اعتبرت كل مواطن وكل سائح هدفا سائفا لأبشع أنواع السلب والنهب . وكانت قوافل الحرير - هربا من وجه لصومس التتار وطفاعة الفرس ، ترتاد طريقا أكثر اتجاها الى الجنوب ، فكانوا يقطعون جبال التبت ويجتازون نهر الكنج أو السند ، وينتظرون متلهفين في ثغور جوزيرات ومالابار ، وصول السفن التي تقف اليها سنويا من الغرب (١) . ولكنهم كانوا يجدون مخاطر الصحراء أيسر احتمالا من العناء والجوع وضيق الوقت ، وقل أن كانت المغامرة تتكرر . وان الأوربي الوحيد الذي اجتاز هذا الطريق غير المطروق ليزهو ويحمد لنفسه متابرتة ووصوله بعد تسعة أشهر من مغادرتة بكن إلى دلتا نهر السند . على أن البحر على أية حال ، كان مفتوحا أمام الجميع للملاحة الحرة . وكانت ولايات الصين . ابتداء من هذا النهر العظيم الى مدار السرطان - قد أخضعها وعمل على تحضيرها أباطرة الشمال ، كما كانت زاخرة ، حوالي العصر المسيحي ، بالمدن والسكان وأشجار التوت وما يعيش عليها من حشرات ثمينة . ولو أن الصينيين الى جانب معرفتهم للبوصلة أوتوا عبقرية اليونان والفينيقيين وذكاهم ، فلربما امتدت كشوفهم الى نصف الكرة الجنوبي . وليس في مقدوري أن أدرس ، ولست ميالا الى أن أصدق ، رحلاتهم البعيدة الى الخليج الفارسي (الخليج العربي) أو رأس الرجاء الصالح . ومن الجائز أن الأسلاف كانوا يعدلون العناصر الحالية في جهودهم ومدى نجاحهم ، وأن مجال نشاطهم البحري امتد من جزر اليابان الى مضائق ملقا ، أو أعمدة هرقل الشرق اذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير . وكانوا يبحرون ، دون أن تغيب أنظارهم عن الأرض ، على طول الساحل الى نهاية مرتفعات آخن ، التي كان يقصد اليها سنويا عشر أو اثنتا عشرة سفينة محملة بمنتجات الصين ومصنوعاتها ، بل حتى ومهرة الصناع فيها . وقليل ما أشير الى جزيرة سومطرة وشبه الجزيرة المقابلة

(١) يمكن الرجوع - فيما يختص بالطرق بين الصين وبين فارس والهند - في سير هاكلويت Hackluyt وتيفنوت Thevenot . وقد اكتشف أحد الحكام الانجليز في البنغال مؤخرا طريقا عبر التبت .

لها على أنهما موطن الذهب والفضة ، وقد توضح المدن التجارية التي ورد ذكرها في جغرافية بطليموس أن هذه الثروة لم تكن تستخرج من المناجم وحدها . وبلغ طول الطريق المباشر بين سومطرة وسيلان نحو ثلثمائة فرسخ ، وكان الملاحون الصينيون والهنود يسترشدون بتحركات الطيور واتجاهات الرياح الموسمية ، وكانوا يعبرون المحيط عيورا آمنا في مواكب مربعة الشكل احكم وثاق أجزائها بواسطة حبال متينة اتخذت من أشجار جوز الهند ، بدلا من الحديد ، وكانت جزيرة سيلان (أو سرنديب أو تايرويانا) موزعة بين أميرين متناجرين سيطر أحدهما على الجبال والفيلة والعقيق البراق واستمتع الثاني بالثروة التي هي أكثر ثباتا ، وهي الصناعة المحلية والتجارة الخارجية وميناء ترينكمالي Trinquemale الضخمة التي كانت تستقبل وتودع أساطيل تجارة الشرق والغرب . وفي هذه الجزيرة الكريمة المضيايف - وهي تبعد نفس المسافة عن أى بلد من بلاد تجار الحرير الصينيين (كما قدروا هم) كان هؤلاء التجار الذين جمعوا في رحلاتهم الصبر والقرنفل وجوزة الطيب وخشب الصندل يحتفظون بعلاقات طيبة ، فان رعايا الملك العظيم مجدوا - بلا منازع - قوته وعظمته ، أما الفرد الروماني الذي كان ينتقص من غرور هؤلاء الرعايا بالموازنة بين العملة النافذة لهذا الملك العظيم وبين عملة الامبراطور أنسطاسيوس الذهبية ، فقد أبحر الى سيلان على سفينة أثيوبية بوصفه راكبا عاديا .

ولما بات من العسير الاستغناء عن الحرير ، فقد أبصر الامبراطور جستنيان بعين القلق والاهتمام أن الفرس احتكروا في البر والبحر هذا المعين الذي لا ينضب ، وأن أمة الأعداء الوثنيين تستنزف باستمرار ثروة رعاياه ، وكان من الجائز أن تسترد حكومة يقظة جادة تجارة مصر والملاحة في البحر الأحمر ، وكانت قد انحطت هذه وتلك في الوقت الذي ازدهرت فيه الامبراطورية ، وأن تبحر القوارب الرومانية ، لشراء الحرير ، الى موانئ سيلان وملقا ، بل حتى الى موانئ الصين . ولكن جستنيان لجأ الى وسيلة أكثر تواضعا ، تلك هي أنه استعان بحلفائه المسيحيين الأحباش سكان اثيوبيا ، الذين كانوا قد أصابوا مؤخرا شيئا من فنون الملاحة وروح التجارة ، ووضعوا أيديهم على نجر أدوليس Adulis ، الذي كان لا يزال يزدان بالأنصاب التذكارية لأحد الغزاة اليونان . وشق هؤلاء الأحباش طريقهم على طول الساحل الأفريقي الى خط الاستواء بحثا عن الذهب والزمرد والعلطور ، ولكنهم ، في حكمة وتعقل ، تجنبوا منافسة غير متكافئة لابد أن يحول فيها الفرس المجاورون بينهم وبين أسواق الهند . واستسلم الامبراطور لليأس وخيبة الأمل ، حتى تحققت رغبته

نتيجة حادث مفاجيء غير متوقع ، فقد بشر أحد الأساقفة بالانجيل في الهند ورعى أمور مسيحيي القديس توماس على ساحل مالابار المشهور بالفلفل ، وشيدت كنيسة في سيلان ، وتبعت الارساليات التبشيرية طريق التجارة الى أطراف آسيا . وأقام راهبان فارسيان لمدة طويلة في الصين ، وربما كانت اقامتهما في المدينة الملكية نانكين ، وكانت مقر ملك انصرف الى العقيدة الأجنبية . واستقبل بالفعل لهذا الغرض بعثة من جزيرة سيلان . وقد تطلعت ابصارهما وسط مشاغبهما الدينيه الى الشياپ التي يرتديها الصينيون عامة ، والآلاف من ديدان القز التي تربي على الأشجار أو في البيوت وتلك عملية كانت تعتبر من أعمال الملذات . وسرعان ما اتضح للراهبين أن نقل هذه الحشرة القصيرة الاجل أمر غير عملي ، ولكن البويضات يمكن أن تنسل ويتكاثر نتائجها في بلد بعيد ، وكان للديانة أو للمصلحة على الراهبين الفارسيين سلطان أقوى من حبهما لوطنهما ، فوصلا بعد رحلة طويلة الى القسطنطينية ، وأظهرا الامبراطور على مشروعهما ، فشجعهما جستنيان بما أغنى عليهما من هدايا ثمينة ووعود سخية . ومن الغريب انه بدأ للمؤرخين الدين دونوا تاريخ هذا الأمير ، أن حملة في سفح جبال القوناز أجدر بسرد اخبارها في تفصيل دقيق ، من جهود تلك البعثات التجارية ، التي عادت الى الصين ، وخذعت شعب الصين الحقوق فأخفت بويضات دودة القز في قصبات مجوفة ، وعادوا ظافرين بضائم الشرق ، وأمكن تحت اشرافهم فقس البويضات في الوقت المناسب بفعل الحرارة الصناعية نتيجة لحفظ البويضات تحت التراب ، وغذيت الديدان بورق التوت ، فعاشت وقامت بعملها في مناخ أجنبي . وحافظوا على عدد كاف من الفراشات ابقاء على النوع ، وغرست أشجار التوت لتوفير الغذاء للأجيال الصاعدة من دود القز . وعملت التجربة واعمال الفكر على تصحيح أي خطأ يقع في المحاولة الجديدة واعترف مبعوثو أذربكستان فيما بعد أن الرومان لم يقلوا شأنا عن أهل الصين في تربية الحشرات وصنع الحرير الذي تفوقت فيه صناعة أوروبا الحديثة عن الصين والقسطنطينية مما . اني لست غافلا عن مزايا هذا الترف الناعم ، ولكنني أتأمل فيما بيني وبين نفسي في شيء من الحسرة والألم : لو أن مستوردي الحرير أدخلوا في الطباعة الذي كان الصينيون يمارسونه بالفعل وقتذاك لأمكن تخليد مسرحيات ميناندر Menander ومؤلفات ليفي Livy في طبعات القرن السادس ١٩! ولكن من الجائز كذلك أن تعمل نظرة أوسع الى الكرة الأرضية على النهوض بالعلوم النظرية ، ولكن الجغرافية المسيحية كانت تستمد بحكم الضرورة من نصوص الأسفار المقدسة كما كانت دراسة الطبيعة دلالة لا تقضى فيها ولا ابرام على قلب لم يعمر بالايمان ، ولقد حصرت العقيدة المسيحية الصحيحة

(الأرثوذكسية) العالم المسكون فى منطقة معتدلة واحدة ، وصورت الأرض على شكل مستطيل ، يمكن اختراقه طولا فى أربعمائة يوم ، وعرضا فى مائتى يوم . يحوطه البحر ، ويقطيه غشاء القبة الزرقاء الثابت ..

كنيسة ايا صوفيا

لقد شاد جستنيان ما شاد من مبان بدماء الشعب وأمواله ، ولكن هذه العمارة كانت تنبئ فى ظاهرها عن رخاء الامبراطورية ، وتجلت فيها بالفعل مهارة مهندسيها ، ولقد نشأت تحت رعاية الأباطرة نظريات وتطبيقات الفنون التى تعتمد على العلوم الرياضية والقوة الميكانيكية ، وكان كل من بروكلوس Proclus وأنثيميوس Anthemius ينازع أرشميدس شهرته ومكانته العلمية . ولو أن رواة أذكيا بارعين دونوا أو رووا ما شاهدوا من آيات فنهما ، لزادت الآن تأملات الفلاسفة بدلا من إثارة شكوكهم . لقد سادت خرافة بأن الأسطول الرومانى تحول الى رماد فى ميناء سيراكوز بفعل عدسات أرشميدس الحارقة . كما أكدوا أن بروكلوس استخدم وسيلة شبيهة بهذه لتدمير قوارب القوط فى ميناء القسطنطينية ، ولحماية الامبراطور المحسن أنسطاسيوس ضد محاولة فيتاليان الجريئة . فقبل انه قد ثبت على أسوار المدينة آلة فيها مرآة سداسية الأضلاع من النحاس المصقول ، مع ألواح كثيرة أخرى مضلعة صغيرة تتلقى وتعكس أشعة شمس الظهيرة . ومنها صوب لهب مدمر لمسافة امتدت الى مائتى قدم . ولقد دُزعزع من قيمة هاتين الحقيقتين الفريديتين صمت أصدق المؤرخين عنهما . ولم تستخدم العدسات الحارقة قط فى الدفاع عن أى موقع أو مهاجمته ، على أن التجارب المدهشة التى قام بها أحد العلماء الفرنسيين أوضحت امكان وجود مثل هذه المرآة . فاذا كان الأمر كذلك فانى أكثر ميلا الى نسبة هذا العمل الى كبار الرياضيين القدامى ، منى الى ارجاع قيمة هذه الرواية الى خيال عظيم لراهب أو سفسطائى . وجاء فى رواية أخرى أن بروكلوس استخدم الكبريت فى تدمير أسطول القوط . وان لفظ الكبريت فى التفكير الحديث ليرتبط فوراً بالاشتباه فى البارود . وقد ذاع أمر هذا الاشتباه بفعل الفنون الخفية التى ابتدعها تلميذه أنتيميوس . ولهذا قصة نوجزها فيما يلى . أنجب أحد المواطنين بمدينة ترالس Tralles فى آسيا خمسة أولاد ، تميز كل منهم فى مهنته الخاصة بالمقدرة والتوفيق . فبرر أوليمبيوس فى اللسام بالفقه الرومانى وتطبيقه . وأصبح ديوسكورس

Dioscōrus والاسكندر طبيبين عالمين ، ووقف أولهما مهارته وعلمه على خدمة مواطنيه ، على حين سعى الأخ الثانى ، وهو الأكثر طموحا ، وراء الثروة والشهرة فى روما . ووصلت شهرة مترودوروس عالم النحو ، وأنثيموس العالم الرياضى الهندسى ، الى أسماع الامبراطور جستنيان الذى دعاهما الى القسطنطينية ، على حين عكف أولهما على تنشئة الأجيال الصاعدة فى مدارس البلاغة ، ملأ الثانى أرجاء العاصمة والولايات بآثار أبقى على الزمن أبديتها فنه ، وكان زينون قد تغلب يوما بفصاحته على جاره أنتسيوس فى مشادة تافهة وقعت بينهما بشأن جدران أو نوافذ داريهما المتجاورتين ، ولكن العالم الميكانيكى (أنتسيوس) قهر الخطيب المفوه زينون بدوره ، بحيله وخطله الخبيثة غير المؤذية التى صورها جهل أجاثيوس - مؤرخ عصر جستنيان - تصورا غامضا لا غناء فيه .

ذلك أن أنتسيوس أعد بضعة أوعية أو مراجل ماء غطى كلا منها بقاع عريض لأنبوبة من الجلد تفتى بطرف ضيق ، وتمتد فى تفتن بارع ، الى براطيم أو دعائم سقوف المباني المجاورة ، وكان تحت هذه المراجل نار متقدة ، وسار الماء المغلى فى الأنابيب ، فاهتزت أركان البيت بفعل الهواء المضغوط ، وربما تولى العجب سكانه المرتعدين فرقا من أن المدينة لم تطفن الى الزلزال الذى أحسوا هم به . وفى مرة أخرى ، بينما كان زينون وأصدقائه جالسين الى المائدة ، خطف أبصارهم ضوء شديد لا يحتمل توجه فى أعينهم من مرايا أنتيموس الماكسة ، كما ذهبلوا من الصوت الذى أحدثه بعض جزيئات معينة دقيقة رافانة ، وأعلن الخطيب (زينون) الى السنان ، فى لغة مؤثرة أن أى انسان فان ، لابد أن يستسلم لعدو استطاع أن يهز الأرض بصولجان نبتيون (اله البحر) ، وأن يثير رعد وبرق جوف Jove نفسه (هو جوبيتر اله الحرب) .

لقد ألهم عبقرية أنتيموس وزميله أيزيدور الملطى (من مالطة مدينة يونانية قديمة فى غرب آسيا الصغرى) واستغلها أمير انحط تذوقه للفنون الى هوى خبيث باهظ النفقة . لقد بسط المهندسون المقربون مشروعاتهم ومصاعبهم أمام أعين جستنيان ، واعترفوا فى حصافة وقطنة الى أى حد تفوق على تأملاتهم المضنية وأبحاثهم المهرقة ما تفيض به قريحة الامبراطور من معارف بدهية أو الهام سماوى ، وهو الامبراطور الذى اتجه اتجاها مباشرا الى خير شعبه ومجد عصره وخلص نفسه .

وكانت الكنيسة الرئيسية التى خصصها مؤسس القسطنطينية للقديسة صوفيا أو « الحكمة الخالدة » قد دمرتها النيران مرتين : مرة بعد نفى جون كريسستوم ، ومرة فى أثناء شغب نيقا بين الحزبين الأزرق والأخضر . وما أن هدا الشغب حتى حزن جمهور المسيحيين لتهورهم

الديني ، وكان من الجائز أن يفتبطوا بهذه الكارثة لو أنهم تنبأوا بعظمة الكنيسة الجديدة التي أخذ جستنيان وزوجه على عاتقه في غيرة ونشاط اقامتها ، وكان قد انقضى على تدميرها أربعون يوما فقط . فازيلت الانقاض ، ووضع تصميم للبناء على مساحة أوسع اقتضت الحصول على موافقة بعض ملاك الأرض ، الذين حصلوا على أكثر الشروط سخاء . نتيجة لما سيطر على الامبراطور من رغبة ملحة ورغبة شديدة . ووضع أنتميوس المشروع ، ووجه بدكائه وعبقريته جهود عشرة آلاف عامل ، لم يتأخر تسديد أجورهم في عملة من الفضة البخالصة عن مساء كل يوم من أيام العمل قط ، وكان الامبراطور نفسه ، مرتديا سروالا من الكتان . يرقب كل يوم تقدمهم السريع ، ويشجعهم على الجهد في العمل برفع الكلفة بينهم وبينه وبغيرته وبمكافآته . وافتتح البطريرك كنيسة آيا صوفيا الجديدة بعد خمس سنين وأحد عشر شهرا وعشرة أيام من وضع حجر الأساس فيها . ووسط الاحتفال المهيّب ، قال جستنيان متعجبا في زهو يتسم بالتقى والورع : « المجد لله الذي قدر أني جدير بانجاز هذا العمل العظيم . . لقد جاوزت فيه قدرة سليمان وتوقعت عليه » . ولكن زلزالا دمر الجانب الشرقي من القبة أودى بزهو سليمان الرومان وغروره ، قبل أن ينفضى على البناء عشرون عاما . فأعيدت للكنيسة فخامتها ورواؤها . بفضل مثابرة الأمير نفسه ، وفي السنة السادسة والثلاثين من حكمه احتفل جستنيان للمرة الثانية بتدشين معبد ما يزال - بعد مرور اثني عشر قرنا - أثرا عظيما شاهدا على عظمته ، وقلد سلاطين الأتراك عمارة آيا صوفيا التي تحولت الى المسجد الرئيسي في المدينة ، وما يزال هذا الموقع الجليل يثير أشد إعجاب اليونانيين كما يثير حب استطلاع أكثر تفعلا في نفوس السائحين الأوروبيين . وقد يبعث الخيبة في نفس المشاهد ما يرى من منظر شاذ لأنصاف قباب وسقوف منحدره ، فالواجهة الغربية - أي المدخل الرئيسي - خال من البساطة والعظمة ، ولقد فاقت عدة كنائس لاتينية هذا المبنى كثيرا في نسب أبعاده ومساحاته . ولكن المهندس الذي شاد لأول مرة هذه القبة الصاعدة في الهواء الى علو شاهق يستحق الثناء والمدح من أجل تصميمه الجريء وتنفيذه البارع . لقد بنيت قبة آيا صوفيا التي ينفذ اليها الضوء من أربع وعشرين نافذة بانحناء بسيط ، بحيث أن عمقها يبلغ سدس محيطها فقط . ويبلغ هذا القطر نحو مائة وخمسة عشر قدما . أما جزؤها الاوسط الشاهق الذي حل فيه الهلال محل الصليب ، فانه يرتفع عموديا الى نحو مائة وثمانين قدما فوق الأرضية . أما الدائرة التي تحيط بالقبة فانها تستند استنادا خفيفا على أربعة عقود متينة ، تدعمها أربع ركائز (خوازيق) قوية صماء ، يزيد من متانتها ، في الجهتين الشمالية والجنوبية أربعة أعمدة من الجرانيت

المصرى • ويحتل صليب منقوش في شكل رباعي شكل المبنى : عرضه بالمقبة مائتان وثلاثة وأربعون قدما ، أما أقصى الطول فيبلغ مائتين وتسعة وستين قدما : من المذبح الى الأبواب التسعة الغربية التي تفتح على المدخل ومن هنا الى الرواق الخارجى • وكان هذا الرواق مأوى متواضعا للتائبين الذين جاءوا يكفرون عن خطاياهم أما حرم الكنيسة فكان يعج بجمهور المؤمنين • وفى شئ من الفطنة والحكمة أفرد لكل من الجنسين مكان خاص به ، وخصصت الشرفات العليا والسفلى لمن أراد من النساء الخلوة للتعب • ووراء الأعمدة الضخمة الشمالية والجنوبية كان هناك جلق (درابزين) وضع فى نهاية طرفيه كرسى البطريرك وعرش الامبراطور ، وكان هذا الدرابزين يفصل بين حرم الكنيسة وبين فرقة الترانيم ، ومن هذا المكان حتى الدرجات التى توصل الى المذبح كان يجلس رجال الدين والمرتلون • أما المذبح نفسه ، وتلك لفظة الفتحا اسماع المسيحيين بطريقة غير ملحوظة ، فكان يقع فى فتحة فى الجهة الشرقية ، وكان مبنيا على شكل نصف دائرة بطريقة فنية بارعة ، وكان قدس الأقداس يتصل ، عن طريق عدة أبواب ، بجدران المقتنيات والملابس المقدسة والتعميد ، وبعبارة موجزة كانت هذه الأبنية المتلاصقة وقفا على جلال العبادة أو الاستعمال الخاص للقساوسة ، وأوحت الكوارث الغابرة الى جستنيان بفكرة صائبة استقر رأيه على الأخذ بها ، تلك هى ألا تدخل الأخشاب الى العمارة الجديدة الا لصنع الأبواب فحسب ، أما اختيار مواد البناء الأخرى فكان رهنا بما تقتضيه أجزاء المبنى من متانة أو خفة أو فخامة ورواء • وكانت الركائز (الخوازيق) الضخمة التى تحمل المقبة مصبوبة من كتل كبيرة من الحجر الصوان مشدودة بأطواق من الحديد ، منحوتة فى أشكال مربعة أو مستطيلة ، مثبتة تثبيتا محكما بمزيج من الرصاص والجير الحى • وكان يقلل من ثقل المقبة خفة المادة التى بنيت منها : وهى الحجر الخفاف الذى يطفو على الماء ، أو الطوب الذى جىء به من جزيرة رودس ، وهو نوع لا يصل ثقله لأكثر من خمس ثقل النوع العادى وكان المبنى كله مشيدا من الطوب ، ولكن كسيت هذه المادة الأساسية بطبقة من الرخام • وإن هذه الصورة الجميلة الفاخرة المزركشة - صورة أيا صوفيا من الداخل ، والمقبة الكبرى والقبتين النصفيتين الكبيرتين والمقاب السمت النصفية الصغرى ، والأسوار والأعمدة المائة والأرضية - تسر الناظرين حتى من المتبريرين •

ويعدد شاعر شاهد كنيسة أيا صوفيا فى بهائها الأول - يعدد ما رأى من الألوان والظلال ، والأجزاء المكسوة بالرخام وحجر اليشب والفسيفساء فى مجموعات تتكون من عشر قطع أو اثنتى عشرة قطعه

منها ، مما جادت به الطبيعة فى سخاء وتنوع • وبدأ فيها التناسق والتباين وكأنهما من ابتداع ريشة مصور ماهر • وازدانت الكنيسة ، - وهى رمز غلبة المسيحيين - بأخر ما غنموا من الوثنيين من اسلاب • ولقد قطع الجزء الأكبر من هذه الأحجار من محاجر آسيا الصغرى وبلاد اليونان وجزرها ، ومصر وأفريقية والغال • وقدمت سيدة رومانية وردة ثمانية أعمدة من الفسيفساء كان أوريليان قد وضعها فى « معبد الشمس » • وأهدى حكام أفيسوس المتحمسون الطموحون ثمانية أخرى من الرخام الأخضر ، وكانت هذه وتلك موضع إعجاب لحجبها وجمالها ، ولكن أى فن من فنون العمارة لابد أن يتفر من تيجانها الغريبة الشكل • وصنعت - صناعة عجيبة - مجموعة من الزخارف والرسوم من « الموزايك » وتعارضت مع خرافة اليونان ، بشكل خطير ، صور المسيح والعذراء والقديسين والملائكة ، تلك الصور التى أزالها الأتراك نتيجة لتعصبهم وكان نصيب كل صورة من هذه الصور من الأحجار الكريمة يتفق مع قدر قدسيتهما ، فأصبحت هذه قشورا رقيقة ، وأصبحت تلك قطعاً ضخمة من تلك الأحجار الكريمة • وكان حاجز فرقة المرتلين وتيجان الأعمدة وزخارف الأبواب والشرقات ، مصنوعة من البرونز المذهب • وكان بريق القبة يبهز الأبصار • وكان فى المحراب ما زنته أربعون ألف رطل من الفضة ، أما الأواني المقدسة وملابس الكهنة فكانت من الذهب الخالص الموشى بألوان الجواهر • وقبل أن يرتفع مبنى الكنيسة من الأرض قدر ذراعين ، كان قد أتفق بالفعل خمسة وأربعون ألفاً ومائتا جنيه ، أما جملة التكاليف فقد بلغت ثلاثمائة وعشرين ألف جنيه ولكل قارئ ، تبعاً لدرجة تصديقه ، أن يقدر هذه القيمة بالذهب أو الفضة ولكنها لا تقل بحال من الأحوال عن مليون من الجنيهات الاسترلينية (١) • وربما كان المعبد الفخم شاهد صدق على ذوق الأمة وديانتها ، وربما ذهببت الغيرة بالمتحمس لدينه - إذا دخل قبة آيا صوفيا ، الى حد القول بأن هذه القبة مقر الله أو أنها من صنع يديه ، ولكن ما أتفه هذا الفن ، وما أهون هذا الجهد ، إذا قيسا بخلق أحقر حشرة تزحف على سطح هذه الكنيسة !! •

وقد يجدي الوصف الدقيق لهذه العبارة - آيا صوفيا - التى أضفى عليها الزمن مجداً وجلالاً ليكون شاهد صدق على ما لا يحصى

(١) جاء فى صحيفة ٢٢٥ - المجلد الرابع - من كتاب تاريخ المعالم الذى نشرته وزارة التعليم العالى بالقاهرة ، فى مقال الأستاذ جريس عن القسطنطينية وعصر جستنيان ، أن أحد المؤرخين ذكر أن تكاليف بناء كنيسة آيا صوفيا وثمان الأثاث بلغت رقماً لا يصنقه العقل وهو ١٤ مليوناً من الجنيهات الانجليزية - (الترجمة) •

من الأبنية التي شادها جستنيان في العاصمة والولايات ، على مقياس أصغر وأساس أقل متانة ، وليبرز العلاقة بينها ، فقد أقام تمجيدها للمسيح والعذراء والقديسين ، في القسطنطينية وضواحيها الغربية خمسا وعشرين كنيسة ، زينت معظمها بالرخام والذهب واختيرت مواقعها اختيارا حسنا في حي أهل بالسكان أو غابة لطيفة ، أو قريبا من شاطئ البحر ، أو على مرتفع من الأرض يشرف على أوروبا وآسيا . ويبدو أن كنيسة « الرسل المقدسين » ، في القسطنطينية ، وكنيسة القديس جون في أفيسوس قد صممتا على نفس الطراز ، فقد ارتفعت قبابهما تحكى قبة أيا صوفيا ، ولكن المذبح في كل منهما وضع بشكل أكثر احكاما تحت الجزء الأوسط من قبة . في نقطة اتصال أربعة من الأروقة الفخمة . ومثلت الصليب اليوناني بصورة أدق ، وربما اعتزت عذراء اورشليم بالمعبد الذي نذره الامبراطور لاسمها في بقعة غير ملائمة الى أبعد حد لا من حيث سعة المكان ، ولا من حيث المواد التي يجب توافرها للمهندس ، وقد هيئت لها الموقع بتعليق جزء من واد سحيق الى ارتفاع الجبل ، ونحتت الأحجار من محجر مجاور في أشكال منتظمة ، ووضع كل منها على عربة يجرها أربعون من أقوى الثيران ، ووسعت الطرقات لمروء مثل هذه الأثقال الضخمة . وزود أرز لبنان الكنيسة بما يلزمها من أخشاب واكتشف في الوقت المناسب محجر للرخام الأحمر ، فأخذت منه الأعمدة الجميلة ، وقيل ان العمودين اللذين يحملان الرواق الخارجى ، هما أضخم ما في العالم من أعمدة . وإذا كان الامبراطور قد أغدق بسخاء مقرون بالوزع خيرات وكرمه على الأراضي المقدسة ، وإذا كان العقل لا يقر الأديرة التي بناها الامبراطور أو جدد بناءها لكل من الجنسين ، فان حب الخير أو البر ليتجلى في الآبار التي حفرها والمستشفيات التي أنشأها للتخفيف من ويلات الحجاج . وإذا كان الشقاق الدينى في مصر قد حجب عنها كرم الامبراطور وسخاءه ، فقد بذلت بعض المعونات في سوريا وأفريقية لعلاج آثار الكوارث والزلازل ، وحق لقرطاجة وأنطاكية أن تمجدا اسم الامبراطور المحسن الكريم الذي مد اليهما يد المساعدة . وكان الأمر يصل الى تشييد معبد لكل قديس في سجل القديسين ، وكادت كل مدينة في الامبراطورية تكون قد حظيت بالمرافق الثابتة من قناطر ومستشفيات وخزانات للمياه . ولكن الامبراطور أبى عليه سخاؤه الحازم الحكيم أن يهيئ لرعاياه مجال الانغماس في الترف الشعبي المألوف . ترف الحمامات والمسارح والملاهي . وبينما جهد جستنيان وكده في توفير الخدمات العامة للشعب ، نجد أنه لم يهمل العناية بمكانته وتوفير أسباب الراحة والعظمة لشخصه . فان قصر بيزنطة الذي كان قد دمره الحريق ، جدد بناؤه مع مزيد من الفخامة والروعة ، وقد يكون من الميسور تكوين فكرة عن المبنى بأسره

من المنخل أو البهو الذي أطلق عليه « النحاسي » نسبة إلى جدرانها
أبو سقفه . وكان له قبة كبيرة ذات شكل رباعي تقوم على أعمدة ضخمة ،
وكانت الأرضية والحوائط مكسوة برخام متعدد الألوان ، مثل اللون
الزمردي الأخضر الوارد من لوكونيا ، أو الأحمر القاني ، أو الأبيض الوارد
من فريجيا ، مجزعة كلها بعروق في لون خضرة البحر . وكانت نقوش
الموزاييك في القبة وعلى الجوانب تحتل الانتصارات الرومانية في أفريقيا
وإيطاليا . وأعد قصر جيروم الفخم وحدائقه الواقعة على الشاطئ الآسيوي
لبحر مرمرة على بعد مسافة قصيرة من خلقدونية شرقا - أعد ليكون مقرا
صيفيا لجستينيان ، وبصفة أخص للامبراطورة تيودورا . وكم أظن
شعراء العصر في وصف الانسجام النادر المثال بين الطبيعة والفن ،
وحوريات الأحراش ، والنافورات والأمواج ، ومع ذلك كانت حشود
الأتباع الذين جاءوا في ركاب البلاط تشكو من عدم توفر وسائل الراحة
في الأماكن التي أعدت لاقامتهم ، كما أن الحوريات كثيرا ما نولها القزع
من « بورفيريا الشهر Porphyria » وهو حوت عرضه عشرة أذرع
وطوله ثلاثون ذراعا ، يقال أنه ارتطم بالشاطئ عند مصب نهر سانجارس
Sangaris بعد أن نشر الرعب والقزع في بحار القسطنطينية أكثر من
نصف قرن من الزمان .

القضاء على مدارس أثينا

قضى جستينيان على مدارس أثينا وعلى وظيفة القنصل في روما ،
وكم أخرجت هذه وتلك للعالم من حكماء وأبطال ! ولا بد من القول بأنهما
كانتا قد عبطتا منذ زمن طويل دون مكانتهما الرفيعة الأولى ، ولكن لا بد
كذلك من القاء بعض اللوم بحق على الأمير الذي دمر بيديه تلك البقايا
أو المعالم المجيدة ، نتيجة لجشعه وحقه .

احتضنت أثينا بعد انتصاراتها على الفرس ، فلسفة أيونيا وبلاغة
صقلية ، وأصبحت هذه الدراسة تركة لمدينة لم يتجاوز عدد سكانها
ثلاثين ألفا من الرجال ، تركزت فيهم على مدى جيل واحد عبقرية العصور
والملايين . وأنا لنزداد إحساسا بعظمة الطبيعة البشرية إذا تذكرنا أن
إسوقراط *Isocrates* كان زميل أفلاطون وزينوفون ، وأنه عاون ،
وربما مع المؤرخ ثيوكديديس ، في العروض الأولى لرواية سوفوكليس
« أوديب » ورواية « يوريبيديس » : إيفيجينيا *Iphigenia* . وأن تلميذه
أسكينز *Aeschines* وديموستين تنازعا قصب السبق في مضمار الوطنية
في حضرة أرسطو أستاذ ثيوفراتوس *Theophrastus* الذي علم في

مدارس أثينا مع مؤسسي المذهبين الرواقي والأبيقوري . ونعمت أثينا في عصر شبابها البريء بمزايا تعليمهما المحل الذي كان ينتقل دون ما حقد أو حسد الى المدن المتنافسة . واستمع الى دروس ثيوفراطوس آلاف من التلاميذ ، ولا بد أن مدارس البيان والبلاغة كانت أكثر اكتظاظا من مدارس الفلسفة ، فنشرت الأجيال المتعاقبة من التلاميذ شهرة معلمهم ، الى آخر ما وصلت اليه لغة الافريق واسمهم من حدود ، واتسعت هذه الحدود نتيجة لانتصارات الاسكندر ، فعاشت فنون أثينا بعد زوال حريتها وانقضاء ملكها . وكثيرا ما حج أهل المستعمرات اليونانية التي أنشأها المقدونيون في مصر ، وهنا وهناك في آسيا - نقول حج هؤلاء ، في رحلات طويلة ، ليعبدوا ربات البلاغة والآداب والفنون في معبدهن المفضل الواقع على ضفاف نهر اليسوس *Iliacus* . واصفى الغزاة اللاتين الى تعاليم رعاياهم واسراهم . وسجل اسم كل من شيشرون وهوراس في مدارس أثينا ، وبعد أن استقرت الامبراطورية الرومانية بات مواطنو ايطاليا وافريقيا وبريطانيا يتبادلون الحديث مع أقرانهم طلبة الشرق في حدائق الاكاديمية (الجامعة) . ان دراسات الفلسفة والبلاغة لتلتزم كل الالتئام مع دولة شعبية تشجع حرية البحث ولا تستسلم الا لقوة الاقناع . وكان فن الكلام في جمهوريات اليونان وروما أداة قوية للوطنية والطموح . وأنجبت مدارس البلاغة مجموعة من رجال السياسة ومن المشرعين . فلما قضى على حرية المناقشة ، عمد الخطيب الذي يشتغل بالمهنة الشريفة ، مهنة المحاماة ، الى الدفاع عن قضية البراءة والعدالة . وربما أساء استغلال مواهبه في عملية تلذز ربحا أكثر ، هي كيل المديح والاطراء . وبقيت نفس التعاليم توجي الى السفسطائي بخطاباته المؤثرة المليئة بزخرف القول ، والى المؤرخ بكتاباتاته التاريخية التي تتسم بحسنات أبسط وأكثر عفة . ان المذاهب التي أعلنت أنها تكشف عن طبيعة الله والانسان والكون أثارت فضول دارس الفلسفة ، وان الأمر هنا ليختلف باختلاف المزاج العقلي لكل دارس ، فلربما تشكك مع المتشككين ، أو استقر رأيه مع الرواقيين ، أو سسما بتأملاته مع أفلاطون ، أو جادل جدالا مضنيا مع أرسطو ، وكانت المذاهب المتعارضة المتعالية قد وضعت للسعادة الروحية والكمال الروحي مستوى لا يمكن بلوغه ، ولكن السباق كان رائعا نافعا . فقد تعلم تلاميذ زينون ، بل حتى تلاميذ ابيقور أن يجدوا وأن يكابدوا ، ولم يكن موت بترونيوس أقل أثرا من موت سينيكا في اذلال أحد الطغاة باكتشاف عجزه . وما كان من الميسور حصر نور العلم بين جدران أثينا . ذلك أن كتابها المنطقي النظير كانوا يخاطبون الجنس البشري بأسره . ورحل المعلمون الباقون على قيد الحياة الى ايطاليا وآسيا . واختصت بيروت ، في عصر متأخر ، بدراسة القانون ، كما أنشئت دراسة الطبيعة

دلالة لا تنقض فيها ولا ابرام على قلب لم يصبر بالايمان ، والفلسفة في
أتیکا بقيت محتفظة بسمو مكانتها وتلوق شهرتها منذ حروب البلوبونيز
الى عهد جستينيان ، ولقد تمتعت أثينا ، رغم وقوعها في واد غير ذى زرع ،
بطيب الهواء وسهولة المواصلات البحرية ، وآثار الفن القديم ، وقلما
كدرت مهام التجارة والحكومة صفو هذه الخلوة المقدسة ، وتميز كل
الأثينيين بالذكاء المتوقد ، ونقاوة الذوق واللغة ، والآداب الاجتماعية ،
وبآثار من الشهامة على الأقل لدى الحديث ، مما كان يعرف به أجدادهم ،
وقامت في ضواحي المدينة أكاديمية الأفلاطونيين ، ومدرسة (ليسيوم)
المشائين ، وحلقة الرواقيين ، وحلقة الأبيقوريين ، وكانت كلها مكسورة
بالأشجار مزدانة بالتماثيل ، ولم يكن الفلاسفة يقبضون في أديرة ،
بل كانوا يلقون تعاليمهم ودروسهم متنقلين في هذه المسالك الفسيحة
البهيجة ، في ساعات مخصصة لرياضة العقل والجسم معا ، وعاشت
عبقرية المؤسسين الأولين في هذه الأماكن الوقورة ، وخلق التطلع الى
خلافة أساتذة البشرى بين الطامحين فيها منافسة غريمة شريفة ، ولكن
الرأى الحر للمعجب المستنير هو الذي كان يحدد أو يقرر أهلية المرشحين
للفوز بهذه الخلافة ، اذا خلا مكان ، وكان التلاميذ يأجرون أساتذتهم
الأثينيين ، تبعا لحاجات الطرفين وقدراتهما ، ويبدو أن هذا الأجر كان
يتراوح بين *Mina* (أى ما يعادل نحو ثلاثة جنيها انجليزية و *Talent*
أى نحو عشرين جنيها انجليزية) ، وتقاضى ايسوقراط الذى كان يسخر
من جيشه السفسطاين نحو ثلاثين جنيها من كل تلميذ من تلاميذه المائة
في مدرسة البلاغة ، ولا ريب في أن الأجر عن العمل عادل ومشرف ، ولكن
ايسوقراط نفسه ذرف الدمع عندما تسلم أول أجر أو راتب ، وربما
احمرت وجنتا الرواقى خجلا حين كان يستأجر ليعظ الناس في احتقار
المال والثراء ، وكم شعرت بالأسى والأسف عندما تبينت أن أرسطو
أو أفلاطون انحطوا عن المثل الذى ضربه سقراط ، حيث كانا يبيعان المعرفة
بالذهب ، ولكن القوانين ووصايا الأصدقاء المتوفين كانت تبجح وقف
بعض الأراضى والدور على كراسى الفلسفة في أثينا ، وأوصى ابيقور
لتلاميذه بالبساتين التى كان قد اشتراها بشائين تالنت أى بنحو مائتين
وخمسين جنيها ، مع مبلغ من المال كاف لاعاشتهم معيشة مقتصدة ،
ولحفلاتهم الشهرية ، أما تركة أفلاطون فكانت تدر ايجارا سنويا زاد
في مدى ثمانية قرون من ثلاث قطع الى ألف قطعة ذهبية ، ولقد رعى
أحكام الأباطرة الرومان وأفاضلهم مدارس أثينا وحافظوا عليها ، وكانت
المكتبة التى أسسها هادريان قائمة في رواق مزدان بصور وتماثيل وسقف
من المرمر ، على مائة عمود من رخام فريجيا ، واقتضت أريحية الانطونيين
وكرمهم تخصيص مرتبات عامة ، وكان كل أستاذ في السياسة والبلاغة ،

أو في مدرسة أفلاطون أو في مدرسة المشائين ، أو الرواقين للفلسفة ، يتقاضى راتباً سنوياً قدره عشرة آلاف دراهمة ، أى أكثر من ثلاثمائة جنيه استرلينى . وبعد موت ماركوس ألتيت الامتيازات والمنح السخية المخصصة للملك العلم والمعرفة ، ثم أعيدت وأنقصت ثم زيدت . ولكن قد نجد لهذه المنحة الملكية أثراً باقياً فى عهد خلفاء قسطنطين . ولكن التحكم فى اختيار ، وإن شئت فى فرض مرشح غير أهل للاستاذية ، ربما كان مدعاة لأسف فلاسفة أثينا وحزبهم على أيام الإستقلال مع الفقر والفاقة . وتجدر الإشارة هنا الى أن الأباطرة الأنطونيين كانوا يولون مدارس الفلسفة الأربع على اختلاف مذاهبها عطفهم دون تحيز الى فئة دون فئة ، حيث اعتبروها نافعة ، أو على الأقل بريئة ، على قدر سواء . وكان ينظر الى سقراط فى غابر الأيام على أنه مجدد وفخار ، وسبة لبلده . ولقد آذت دروس أبيقور الأولى أذان الأثينيين بدرجة غريبة ، الى حد أنهم ، بعد أن نفوه هو ومعارضيه ، استكتوا المناقشات العقيمة التى كانت تدور حول طبيعة الآلهة . ولكنهم فى السنة التالية تذكروا القرار الذى تعجلوا اتخاذه ، وأعادوا لمدارس الفكر حريتها ، وأقنعتهم خبرة الزمن بأن الطابع الخلقى للفلاسفة لا يتأثر بتعارض تأملاتهم فى المسائل اللاهوتية .

وكانت حروب القوط وأسلحتهم أقل خطراً على مدارس أثينا من اقرار دين جديد عطل رجاله استخدام العقل والمنطق ، وقضوا فى كل مسألة بحكم من أحكام العقيدة ، وتوعدوا كل كافر متشكك بعذاب النار وسوء المصير . وكم سيطروا من مجلدات حشوها بالجدل المضنى ، وشهروا فيها بضعف عقول الحكماء القدامى وفساد قلوبهم ، وجرحوا طبيعتهم البشرية وحرموا روح البحث الفلسفى ، وهو أمر بغيض بالنسبة لعقيدة المؤمن المتواضع أو على الأقل لطبعه ومزاجه . وأسرف الأفلاطونيون المحدثون ، الذين كان من الجائز أن يخجل أفلاطون نفسه من الاعتراف بهم ، نقول أسرفوا فى خلط نظرية أفلاطون السامية بممارسة الخرافة والسحر ، وبقوا وحدهم وسط العالم ، المسيحي ، وهم يطوون صدورهم على حقد دفين على رجال الكنيسة والمولة اللتين كان بطشهما لا يزال مسلطاً فوق رؤوسهم ، وبعد مضي قرن من الزمان على عصر جوليان رخص لبروكلوس فى شغل كرسي الفلسفة بالأكاديمية ، وبلغ من نشاطه وجده أنه كثيراً ما كان يلقي خمسة دروس ويدبج سبعمائة سطر فى اليوم الواحد . وارتاد ذهنه الخصيب أعوص قضايا الأخلاق والميتافيزيقا ، وتجاسر على إثارة ثمانى عشرة حجة ضد نظرية خلق العالم فى المسيحية . ولكنه كان فى أوقات المراساة يناجى شخصياً « بان ، وأسكولابيوس ،

ومينرفا « (من آلهة اليونان) الذين تلقى أسرارهم خفية ، والذين عبد تماثيلهم المحطمة ، مع اقتناع مخلص بأن الفيلسوف الذي هو أحد مواطني الكون يجب أن يكون كاهنا لكل معبوداته وآلهته . وقد أذن كسوف الشمس بدنو أجله . وأن « سيرة حياته » مع تلميذه ايزيدور - وقد دونها اثنان من أغزر تلاميذهما علما - لتكشف عن صورة محزنة كئيبة للطفولة الثانية التي يتحدو اليها العقل الانساني . ولكن السلسلة الذهبية - كما كان يلد للناس تسميتها - لخلفاء أفلاطون (في مدرسته) استمرت أربعة وأربعين عاما ، من بعد وفاة بروكلوس الى وقت صدور مرسوم جستنيان الذي قضى على مدارس أثينا بالصمت البليغ الى الأبد ، وأهاج حزن البقية الباقية من أنصار علم الاغريق وخرافتهم ، وأثار استيائهم ، فاستقر رأى سبعة من الفلاسفة الأصدقاء - هم ديوجين Diogenes وهرمياس Hermias ، يولاليوس Eulalius ، برسكيان Priscian ، دماسكيوس Damascius ، ايزيدور Isidore ، وسمبليكيوس Simplicius ، الذين خرجوا على دين مليكهم - استقر رأيهم على اللجوء الى بلد آخر سعيا وراء الحرية التي أنكرها عليهم وطنهم . وكانوا قد سمعوا وصدقوا في سذاجة أن جمهورية أفلاطون قد تحققت في حواء الفرس الاستبدادية المطلقة ، وأن ملكا محبا لوطنه قد تولى مقاليد الحكم في أمة هي أسعد الأمم وأكثرها فضيلة ، وسرعان ما عرثهم الدهشة اذ تبينوا بصورة طبيعية أن فارس لم تكن تشذ عن سائر بلاد المعمورة ، وأن خسرو الذي انتحل اسم الفيلسوف كان ملكا مغرورا قاسيا شرها ، وأن طائفة الكهنة هناك كان يسيطر عليها التعصب وروح التزمت ، وأن النبلاء كانوا غلاظا متعطرسين ، ورجال البلاط أذلاء أدنياء ، والقضاة ظالمين جائرين ، فأفلت المجرمون أحيانا ، وعانى الأبرياء من الظلم كثيرا . وأدى اليأس وخيبة الأمل بهؤلاء الفلاسفة الى اغفال الفضائل الحقيقية عند الفرس وأذى شعورهم أكثر كثيرا مما يقتضى مقام مهنتهم ما رأوا من تعدد الزوجات والخيليات ، وزواج المتعة ، وعادة تعريض جثث الموتى المكلاّب والطيور الجارحة بدلا من موارثها التراب أو حرقها ، وتجلى ندمهم في عودتهم السريعة الى أرض الوطن حيث أعلنوا بصوت عال أنهم انما يؤثرون أن يموتوا على حدود الامبراطورية ، على أن يتمرغوا في ثروة المتبربرين وعطفهم . ومهما يكن من أمر فقد جنوا من رحلتهم هذه فائدة تلقى المع الضوء على شخصية خسرو ، فقد طلب اعفاء الحكماء السبعة الذين زاروا بلاط فارس من العقوبات التي فرضها قانون جستنيان ضد رعاياه الوثنيين . ونص على هذه الميزة بصراحة في بند من بنود معاهدة الصلح التي أشرف على تنفيذها وسيط قوي يقظ . وأمضى سمبليكيوس ورفاقه بقية حياتهم هادئين مقمورين . ولما لم يتركوا وراءهم تلاميذ ، فانهم

يختمون الثبت الطويل للفلاسفة الاغريق الذين يمكن تمجيدهم بحق ، بوصفهم رغم نقائصهم ، أعقل وأفضل معاصريهم . وما تزال كتابات سمبليكيوس باقية . وذهبت هباء تبعا لروح العصر ، تعليقاته الطبيعية والميتافيزيقية على أرسطو ، ولكن تفسيره الأخلاقي لفلسفة إبكتيتوس Epictetus احتفظ به في مكتبات العالم بوصفه تراثا قديما يستخدم بشكل بارع لتوجيه الارادة وتنقية القلب ، وتثبيت العقل عن طريق الثقة الحقيقية بطبيعة الله وطبيعة الانسان .

القضية على وظيفة

القنصل الروماني

أقام بروتيي الأكبر صرح الحرية وأنشأ وظيفة القنصل في روما ، في نفس الوقت الذي ابتدع فيه فيشاغورس اسم الفيلسوف لأول مرة تقريبا . يورد في الكتاب الذي بين أيدينا بين الحين والحين ، ذكر تطورات وظيفة القنصل التي يمكن تتبعها في أضواء مختلفة : من حقيقة مادية ملموسة ، إلى ظل من الحقيقة ، إلى مجرد لقب أجوف . . . وكان الشعب يختار حكام الجمهورية الأولين ليبارسوا في السناتو وفي المعسكر سلطات السلم والحرب التي انتقلت فيها بعد إلى الأباطرة ، ولقد نظر الرومان والمتبريرون أمدا طويلا بعين الإجلال والتقدير إلى التقليد الذي توارثوه ، ألا وهو هذه الوظيفة . وإن أحد المؤرخين القوط ليمتدح قنصلية نيودوريك بوصفها ذروة المجد والعظمة الديويتين . وإن ملك إيطاليا نفسه ليقدم التهنئة إلى أولئك الذين يسعدهم الحظ مع كل عام جديد ليكونوا قناصل ، ينعمون بأبهة العرش دون همومه . وبعد ألف من الأعوام عتي ملكا روما والقسطنطينية في كل منهما قنصلا ، لا شيء إلا مجرد تحديد بدء العام ، وإقامة مهرجان يشهده الشعب ولكن تفقات هذا المهرجان الذي تطلع فيه المؤسسون والمفرورون إلى أن يبرزوا أسلافهم ، لفزت دون أن يحسبوا إلى ثمانين ألف جنيه . وبذد أعقل شيوخ السناتو هذا الشرف العقيم الذي انطوى على دمار محقق لأسراتهم . ولابد أن أنسب إلى هذا الاحجام والنفور كثرة توقف المهرجان بتنصيب القناصل في آخر عهود القنصلية . وكان أسلاف جستنيان يساعون من الأموال العامة في المحافظة على كرامة المرشحين الذين هم أقل يسرا وثراء . ولكن جشع هذا الأمير أدى به إلى إثارة طريقة أقل نفقة وعناء للحصول على المشورة والتنظيم ، وأصدر مرسوما قصر فيه الاحتفالات على سبعة فقط : لسباق الخيل والمربات ولللألعاب الرياضية ، وللموسيقى المسرحية وتمثيلياته المضحكة ، ولصيد الوحوش الكاسرة : واستبدلت في حكمة القطع القضية بالميداليات الذهبية التي كانت دائما تثير الشغب ونشوة

الخمر عندما تنثرها اليد السخية فى سرف بالغ على الجمهور ، ورغم هذه الاحتياطات ، ورغم المثل الذى كان يضربه هو نفسه ، فقد بطل تنصيب القناصل نهائيا فى السنة الثالثة عشرة من حكم جستنيان الذى ربما أدرجتم نزع الاستبداد فيه بالقضاء قضاء صامتا على لقب ذكر الرومان بحريتهم القديمة . ولكن الذكرى السنوية لتنصيب القناصل ظلت حية فى أذهان الشعب ، وكانوا يتعجلون عودتهم فى لهف زائد ، وكم أثنوا على كرم الأمراء المتعاقبين الذين افترضوا أنهم فى أول سنى حكمهم سيعيدون هذه الوظيفة ، ولكن انقضت بعد موت جستنيان ثلاثة قرون قبل أن يستطاع بحكم القانون إلغاء هذه الوظيفة المهجورة التى كان قد قضى عليها . واستبدلت الطريقة المعيبة ، طريقة تمييز كل سنة باسم أحد الحكام ، بنظام آخر معين ، وذلك باتخاذ تاريخ عصر ثابت . فحدد الاغريق التاريخ ببدء الخليفة - كما جاء فى الترجمة اليونانية - للعهد القديم - ، أما اللاتين ، منذ عصر شارلمان ، فقد بدأ حسابهم لزمانهم من مولد المسيح .



هناك ، الى جانب ايجاد عصر جستنيان ، حدثان خطيران سيئان : اولهما تذييره الاقتصادى ، وثانيهما عجزه من الناحيتين اللاهوتية والسياسية عن التوفيق بين الولايات الشرقية والغربية . وكانت زوجته القديرة تيودورا يعقوبية المذهب (تعتقد ان للمسيح طبيعة واحدة) وبعد وفاتها فى ٥٤٨ حاول جستنيان أن يسترضى العناصر اليعقوبية . ولو انه افلح فى ذلك لكان من الجائز أن يحتفظ بولاء الولايات الشرقية ، ولكن المذهب اليعقوبى كان فى الواقع قريبا من العقيدة الاسلامية ، الى حد انه كان من السهل بل ومن المحترم معا ، أن تلتشق وتسقط هذه الولايات الشرقية ، عند ظهور الاسلام .

ويصف جيبون فى الفصل الحادى والأربعين فتوحات جستنيان (٥٢٣ - ٥٤٠) . وسيطر جستنيان بفعل قائديه بليساريوس ونارسيس على الجبهة الشرقية ، واسترد من الوندال افريقية وجزءا من اسبانيا . وأعاد البحر المتوسط بحيرة رومانية مرة أخرى . وقضى بليساريوس على حكم القوط الشرقيين فى ايطاليا ، واسترد روما ، وافلح فى مقاومة الحصار الذى ضربه عليها القوط ، ومن ثم استطاع محاصرة رافنا والاستيلاء عليها .

وفى الفصل الثانى والأربعين يروى جيبون قصة نشوء الملباودين ، وظهور السلاف والشعوب التركية .

الفصل الثالث والأربعون

(٥٤٦ - ٥٩٤)

آخر انتصارات بليساريوس وموته • أخلاق جستنيان وموته • المذنبات والزلازل والطاعون خلال حكم جستنيان

ثار القوط بقيادة توتيلا واستولوا على روما في سنة ٥٤٦ • واستعادها بليساريوس ولكنها أخلت مرة ثانية بعد استنعاثه • وفي سنة ٥٥٢ هزم الخصى نارسيس توتيلا ، وحرر روما • وبعد ذلك هزم خليفة توتيلا ، تياس ، آخر ملوك القوط ، وسحق غزوة قام بها الفرنجة والألمان • وجلس على عرش ملوك القوط نواب رافنا ، وهم ممثلو امبراطور القسطنطينية • وأصبح نارسيس نفسه أول نائب ، وحكم مملكة إيطاليا كلها أكثر من خمسة عشر عاما •

آخر انتصارات

بليساريوس وموته

بودى أن أصدق ، ولكننى لا أجرؤ على التأكيد ، بأن بليساريوس اغتبط فى إخلاصه لانتصار نارسيس ، غير أن شعوره بمآثره هو نفسه ربما علمه أن يقدر ، دون شعور بالغيرة ، جدارة منافسه ، وتوجت راحة المحارب العجوز بانتصار آخر أنقذ الامبراطور والعاصمة • وكان المتبربرون الذين يرتادون سنويا ولايات أوربا ، لا تثبط من عزائمهم بعض الهزائم العابرة ، بقدر ما كان يثيرهم الأمل المزدوج فى النهب ، وفى المنح والاعانات • وفى الشتاء الثانى والثلاثين من عهد جستنيان كان الدانوب مغطى بطبقة سميكة من الجليد ، وقاد زابرجان فرسان البلغار وانضم تحت لوائه جمهور خليط من الصقالية • وعبر الزعيم الشرس ، دون مقاومة ، النهر والجبال ، ونشر قواته فوق مقدونيا وتراقيا •

وتقدم على رأس ما لا يزيد عن سبعة آلاف من الفرسان ضوب سلسلة الأسوار الطويلة التي كان يجب أن تحمي اقليم القسطنطينية . غير أن ما بينيه الانسان لا يجلى نفعا أمام هجمات الطبيعة : فقد حدث زلزال قبل ذلك بفترة وجيزة خلخل أساس الأسوار ، كما أن قوات الامبراطورية كانت مشغولة على الحدود البعيدة لاطاليا ، وأفريقيا وفارس . وكانت فرق المشاة السبع التي يتألف منها الحرس ، أو القوات الاهلية ، قد زيد عددها الى خمسة آلاف وخمسة رجل ، وكان مركزهم العادي في مدن آسيا الهادئة . غير أن أماكن الأرمن الشجعان شغلها بصورة غير محسوسة مواطنون من الكسائي الذين اشتروا اعفاء من واجبات الحياة المدنية دون أن يتعرضوا لأخطار الخدمة العسكرية . وقلة من أمثال هؤلاء الجنود كان يمكن اغراؤها على تجاوز أبواب المدينة في هجومهم ، كما أنه كان مستحيلا أن يستمال أحد منهم الى البقاء في الميدان الا اذا أعوزته القوة والسرعة للهرب من البلغار . وكانت الأخبار التي نقلها اللاجئين تبالغ في أعداد العدو وفي قسوته وضراوته ، ذلك العدو الذي اعتدى على العذارى المقدسات ، وترك الأطفال الرضع للكلاب والطيور الجارحة . وامتلات المدينة بجمهور من سكان الريف يلتمسون الغذاء والحماية ، فزاد ذلك من حالة الذعر السائدة فيها . ونصب زابرخان خيامه على مسافة عشرين ميلا ، على ضفاف نهر صغير يحيط بميلانتياس ثم نصب بعد ذلك في بحر مرمره . وكان جستنيان يرتعد خوفا ، وأولئك الذين لم يروا الامبراطور الا في شيخوخته سرهم أن يعتقدوا أنه قد فقد نشاط شبابه وقوته ، وأمر الامبراطور بنقل الأواني الذهبية والفضية من الكنائس القائمة في مدينة القسطنطينية بل وفي ضواحيها . واصطف النظارة الواجبون الى جوار الاستحكامات ، وازدحم الباب الذهبي بالقواد والتربيونات التافهين ، وشارك السنائو شعب المدينة في متاعبه ومخاوفه .

غير أن عيون الملك والشعب اتجهت في ذلك الوقت نحو جندي محنك ضعيف الجسم اضطره الخطر الداهم الى ارتداء الدرع الذي كان يلبسه عندما دخل قرطاجة ودافع عن روما . وجمعت على وجه السرعة جياد الملك ، وجياد المواطنين ، بل وجياد السيرك ، وأشاع اسم بليساريوس المنافسة بين الكبار والصغار ، وأقيم أول معسكر له على مرأى من العدو ظافر منتصر . وبفضل فطنته ، ومجهود الأصدقاء من الفلاحين استطاع أن يحفر خندقا ويقيم سورا ضمن بهما الأمان والراحة خلال الليل ، وأشعلت النيران ، وأثيرت سحب من الغبار ، بصورة يتجلى فيها الدهاء ، لكي يضخم من قوته في نظر العدو ، وانتقل جنوده من

حالة اليأس والقنوط الى حالة الجراءة والمبسالة وبينما ارتفعت اصوات
عشرة آلاف رجل تطلب خوض المعركة ، اخفى بليساريوس ما كان ينور
يخلده من أنه ، عندما تعين ساعة الاختبار ، ينبغي أن يعتمد على عزم
ثلاثمائة من قدامى الجنود المحنكين . وفي صبيحة اليوم التالي تلقى
فرسان البلغار للهجوم ، غير أنهم سمعوا صيحات عدد كبير من الجنود
وشاهدوا أسلحة مقدمة الجيش ونظائرها ، وهاجمهم من الجناحين كمينان
ظهرتا من الغابات فسقطت طلائعهم على أيدي البطل المجوز وجنود حرسه ،
وأصبحت سرعة دورائهم عديمة الأثر أمام هجوم الرومان المتلاحق وسرعة
مطاردهم ، وفي هذه العملية لم يفقد البلغار الا أربعمائة من الفرسان
(اذ كان فرارهم غاية في السرعة) ، غير أن القسطنطينية نجت من
الخطر ، وشعر زابرجان بسطوة خصمه وطول بابه ، فانسحب الى مسافة
بعيدة تدل على احترامه له . غير أن أصدقائه كانوا كثيرى العدد فى
مجالس الامبراطور ، وامتلئ بليساريوس كارها لأحكام الحقد وأوامر
جستينيان التى منعه من تحقيق خلاص بلاده . وعند عودته الى المدينة ،
كان الناس لا يزالون يحسون بالخطر المحقق بهم ، فقابلوا ظفرو بأصوات
الفرح وعرقان الجميل واعتبر ذلك جريمة اقترفها القائد المنتصر . وعندما
دخل القصر وجد رجال الحاشية صامتين ، وبعد أن عانقه الامبراطور
عناقا فاترا لا أثر فيه للشكر وعرقان الجميل ، سمح له بالانصراف
لينضم الى صفوف الأرقاء . غير أن عظمة بليساريوس كانت عظيمة الأثر
على عقول الناس الى درجة أن جستينيان ، وهو فى السابعة والسبعين
من عمره وجد من الشجاعة ما دفعه الى قطع مسافة تقرب من أربعين ميلا
من العاصمة ليشاهد بنفسه استرجاع السور الطويل الذى كان يخشى
العاصمة . وأضاع البلغار ذلك الصيف فى سهول تراقيا ، ولكنهم
أصبحوا نزاعين الى الصلح بسبب فشل محاولاتهم المتهورة فى اليونان
وكرسوثيسوس . وتلقوا تهديدا بقتل أسراهم ، فسارعوا بدفع فدية
ضخمة ، وعجل برحيل زابرجان ذلك النبا الذى بلغه من أن سفنا
مزدوجة المقدمة قد بنيت فى نهر الدانوب لاغراض طريقه . وسرعان
ما نسي الناس الخطر ، وثار على أسنتهم سؤال تافه عما اذا كان ملكهم
قد كان أكثر حكمة أو ضعفا فى تصرفه نحو بليساريوس ، وأصبح ذلك
السؤال مصدر تسلية المدينة الخاملة .

وبعد انقضاء سنتين على آخر انتصار أحرزه بليساريوس ، عاد
الامبراطور من رحلة الى تراقيا قضائها فى الاستشفاء ، أو العبادة . وكان
جستينيان يعاني من ألم فى رأسه ، وأيد دخوله المدينة سرا اشاعة
موته . وقبل أن تعين الساعة الثالثة من اليوم نهب الخبز من حوانيت

الخبازين وأغلقت المنازل ، وناعب لل مواطن ، بدافع من الفزع أو الأمل ،
 لا ينتظر من شغب وشيك الوفوع . ودعى أعضاء السناتو أنفسهم
 للاجتماع في الساعة التاسعة وهم في حالة خوف وريبة ، وتبقى الوالى
 أوامرهم بزيارة كل حى في المدينة لكي يعلنوا للناس جميعا ما يوضح
 ان الامبراطور بخير وقد استرد صحته . وبهذا هدا الهياج ، غير أن كل
 الاحداث كانت تنم عن عجز الحكومة ، وعن اتجاه الناس الى الشغب ،
 وكانت هناك بين الحراس نزعة الى التمرد كلما تغيرت تكتاتهم ، أو توقف
 دفع رواتبهم . وهيات كوارث الحرائق والزلازل الكثيرة فرص الاضطراب ،
 وتفاقمت النزاعات بين الفرق الزرقاء والفرق الخضراء ، وبين الأرثوذكس
 والهراطقة ، فتحولت الى معارك دموية ، واحمر وجه جستنيان خجلا من
 نفسه ومن رعاياه في حضرة السفير الفارسي . وترتب على مفالة الامبراطور
 في العفو وتمسكه في العقوبة أن اشتد ضيق الناس وتبرمهم بطول حكمه ،
 فحيكت ضده مؤامرة في القصر ، وما لم تكن مخدوعين باسمى ماركيللوس
 وسرجيوس ، فان أكثر أعضاء الحاشية فضيلة ، وأشدهم استهتارا ،
 كانوا شركاء في المخططات نفسها . وكانوا قد حددوا ساعة التنفيذ ،
 وسمحت لهم مراكزهم بحضور الوليمة الملكية ، ووضعوا عبيدهم السود
 في بهو القصر وفي الأروقة لإعلان موت الطاغية ولائحة فتنه في العاصمة .
 غير أن رعونة أحد الشركاء في المؤامرة أنقذت الفترة البائسة المتبقية من
 أيام جستنيان . فافتضح أمر المتآمرين ، وضبطوا بخناجر مخبأة تحت
 أرديتهم . فانتحر ماركيللوس ، وانتزع سرجيوس من المكان المقدس الذي
 لجأ اليه ، فما كان منه ، بدافع من الندم ، أو بأمل في النجاة ، إلا أن
 اتهم ضابطين من رجال بليساريوس ، وأرغمهما التعذيب على الاعتراف
 بأنهما تصرفا بمقتضى تعليمات سيدهم . وسوف لا تتسرع الأجيال المقبلة
 في الاعتقاد بأن بطلا ، ازدرى وهو في ريعان شبابه وعنفوان حياته أجمل
 عروض الطمع والانتقام ، يمكن أن ينحدر الى قتل مليكه الذي لم يكن يتوقع
 أن يعيش بعده طويلا . وكان أتباع بليساريوس يتلهفون على الفرار ،
 غير أن الفرار كان لا بد أن تؤيده ثورة ، ولم يكن بليساريوس طامعا في
 طول أجل أو نوال مجد ، فذهب أمام المجلس ساخطا حانقا أكثر منه هيابا
 وجلا . وكان الامبراطور قد حكم عليه مقدما ، بعد أن خدم بلاده أربعين
 عاما ، واكتسب هذا العمل الظالم قدسية بفضل حضور البطريك وبفضل
 سلطته الدينية . وتكرم الامبراطور بالعفو عن حياة بليساريوس ، غير أن
 ثروته صودرت ، وظل هو نفسه سجيناً تحت الحراسة في قصره من
 شهر ديسمبر الى شهر يولية . وأخيرا ثبتت براءته وأعيدت اليه حريته
 وأمجاداه ، غير أن الحزن والحنق ربما عجلا بموته ، ففارق الحياة بعد

ثمانية شهور من اطلاق سراحه . ولن يموت باسم بليساريوس أبدي الدهر ، ولكنه بدلا من أن يشيع الى قبره ، وتقام له النصب والتماثيل ، بصورة تليق بذكراه ، فأننى لم أقرأ عنه الا أن خزانته التى اشتملت على أسلاب القوط والوندال قد صادرها الامبراطور بعد موته مباشرة ، وخصص جزءا مناسب منها لأرملته أنتونيـنا Antonina ، ولما كانت أنتونيـنا قد فعلت فى حياتها الكثير مما تندم عليه ، فقد خصصت بقية حياتها و ثروتها لتأسيس دير . هذه هى القصة البسيطة الصادقة لسقوط بليساريوس ، وجحود جستنيان . أما القصة التى تقول بأنه فقد بصره ، واضطره حقد أعدائه عليه الى التسول قائلا : « أحسنوا الى القائد بليساريوس » ، فهى قصة ظهرت فى عصور متأخرة ، ولقيت من يصدقها ، أو يحبذها ، كمثل عجيب لصروف الحظ وتقلباته .

أخلاق جستنيان وموته

إذا كان الامبراطور قد استطاع أن يفتبط لموت بليساريوس فانه لم ينعم بهذه المنحة الدنيئة الا ثمانية شهور فقط ، وهى الفترة الأخيرة من حكم دام ثمانية وثلاثين عاما ، ومن حياة طالت ثلاثا وثمانين سنة . وانه لمن الصعب أن نتتبع أخلاق ملك لم يكن أبرز الأشياء فى العصور التى عاش فيها ، غير أننا نستطيع أن نتقبل اعترافات عدو له على أنها أصدق دليل على فضائله . ويقال فى خبث انه يشبه التمثال النصفى للامبراطور دوميتيان مع الاعتراف ، رغم ذلك ، بأنه كان ذا جسم متناسب ، وبشرة وردية اللون ، وسحنة سمحة يرتاح لها النظر . وكان الامبراطور يفتح بابه للناس ، صبوراً على الانصاف ، مهذباً وبشوشاً فى الحديث ، قادراً على التحكم فى الانفعالات الحادة التى تضطرم اضطراماً مدمراً فى صدر حاكم مستبد .

وقد لاه المؤرخ بروكوبيوس على قسوته الهائلة المتعمدة ، وهو لوم يعتبر اطراء لطباعه ، غير أن حكماً أكثر صراحة يستطيع ، فيما يختص بالمؤامرات التى حيكت ضد شخصه و سباطانه ، أن يوافق على عدالته ، أو يعجب برقته وشفقته . وكان ممتازاً فى الفضيلتين الشخصيتين ، فضيلة العفة وفضيلة الاعتدال ، غير أن الحب المنزه عن الأغراض للجمال كان يمكن أن يكون أهون ضرراً من حنوه الزوجى على تيودورا ، ولم يكن تحكمه فى غذائه الضعيف راجعاً الى حكمة الفيلسوف بل الى خرافة الراهب . وكان مقلداً فى الأكل ولا يقضى فيه وقتاً طويلاً ، وفى فترات

الصوم الرسمية كان يقنع بالما والخصروات ، وكان من القوة والحماس .
 بحيث أنه كثيرا ما كان يقضى يومين ، وليالي كثيرة دون أن يذوق طعاما .
 ولم يكن تحكمه في نومه أقل صرامة من تحكمه في طعامه ، فقد كان
 لا يستريح الا ساعة واحدة ، ثم يستقيظ جسده على نداء روحه ،
 ولشد ما كان يبعث أمناء القصر عندما يرونها سائرا أو متكيا على الدراسة
 حتى يلوح ضوء الصباح . ولقد أطل هذا الوضع القلق ما كان يخصه
 من وقت لتحصيل المعرفة وإنجاز الأعمال ، وربما استحق بصورة جدية
 ذلك اللوم الذي وجه إليه من أن تلك اليقظة الدقيقة البعيدة عن الصواب
 قد سببت ارتباكا في النظام العام لإدارته . وكان الامبراطور يدعي لنفسه
 اللام التام بالموسيقى وفن المصار ، وبالشعر والفلسفة ، وبالقانون
 واللاهوت . وإذا كان قد أحقق في التوفيق بين الطوائف المسيحية ، فإن
 تنقيحه للقانون الروماني يعتبر اثرا نبيلًا يدل على همته وجده . وكان في
 حكم الامبراطورية أقل حكمة ، أو أقل نجاحا . فقد كان المصير منكودا ،
 والشعب مظلوما ومتدمرا ، وزوجته تيودورا تسمى استخدام سلطتها ،
 كما أنه ابتلى بوزراء سيئين الصقوا بحكمه الخزي والعار ، ومن ثم فإن
 جستنيان لم يكن محبوبا في حياته ، ولم يأسف عليه أحد عند موته .
 وكان حب الشهرة عميق الجذور في نفسه ، ولكنه تدلى إلى الطمع الرخيص
 في الألقاب ، والمظاهر الشرفية ، والأطراء الذي يكيله له معاصروه . ومع
 أنه كان يصل جاهدا على نيل إعجاب الرومان الا أنه خسر تقديريهم
 ومحبتهم . وقد وضع في جرة خلة الحروب الأفريقية والإيطالية ،
 ونفذهما في بسالة وشجاعة . ومكنته بصيرته النافذة من اكتشاف
 مواهب بليسايريوس في ميدان الحرب ، ومواهب نارسيس في رحاب
 القصر . غير أن أسماء قواده الثنافرين طغت على اسمه ، وما يزال اسم
 بليسايريوس حيا يوجه النقد المرير إلى ما اتسم به مليكه من حسد وجحود .
 والناس ينزعون نزوعا جزئيا إلى الإشادة بعبقريه فاتح يوجه رعاياه إلى
 ممارسة القتال ويقودهم في الميدان ، غير أن شخصيتي فيليب الثاني
 وجستنيان تقسمان بذلك الطمع الذي يفتبط بالحرب ولكنه يأبى أن
 يخوض المعركة . ومع ذلك فهناك تمثال ضخم من البرونز يمثل
 الامبراطور على ظهر جواده متاهبا للاقادة الفرس في ثياب أخيليليس (١)
 وعدته . وفي الميدان الكبير أمام كنيسة أيا صوفيا رفع هذا الأثر على عمود

نحاسى وقاعدة حجرية ترتفع سبع درجات ، وأزال جشع جستنيان وغروره من المكان نفسه عمود تيودوسيوسى ، الذى كان يزن سبعة آلاف وإربصائة رطل من الفضة . ولقد كان الملوك الذين جاءوا بعده أكثر انصافا لذكراه ، أو أكثر تفاضيا عنها ، ففي بدء القرن الرابع عشر أصلح أندرونيكوس الأكبر تمثاله الراكب وجعله . فلما سقطت الامبراطورية صهره الترك الظافرون وحولوه الى مدافع .

المذنبات

سوف أختتم هذا الفصل بذكر المذنبات ، والزلازل ، والطاعون ، وكلها أشياء نكب بها عصر جستنيان أو كانت منارا لدهشته .

ففى السنة الخامسة من عهده ، وفى شهر سبتمبر ، شوهد مذنب فى الجانب الغربى من السماء طوال عشرين يوما ، وكان يرسل أشعته صوب الشمال . وبعد ذلك بثمانية أعوام ، وبينما كانت الشمس فى مدار الجدى ، ظهر مذنب آخر يسير فى مجموعة السهم . وكان حجه يزداد شيئا فشيئا ، وكانت رأسه فى الشرق وذنبه فى الغرب ، وظل مرثيا أكثر من أربعين يوما . وتوقعت الأمم ، التى تولتها الدهشة لرؤية هذه المذنبات ، قيام الحروب ووقوع الكوارث نتيجة لتأثيرها الضار المؤذى ، وكثيرا ما تحققت هذه التوقعات . وأخفى الفلكيون جهلهم بطبيعة هذه النجوم المتوهجة المشتعلة ، التى تظاهروا بتصويرها على أنها شهب الهواء الطافية ، وقلة من بينهم أخذت بالفكرة البسيطة التى قال بها سينيكا والكلدانيون من أن هذه المذنبات لا تعدو أن تكون كواكب أطول بقاء وأكثر شذوذا فى حركتها . ولقد حقق الزمن والعلم ظنون الحكيم الرومانى وتنبؤاته ، فالمنظار المقرب فتح عوالم جديدة أمام أبصار علماء الفلك ، وفى الفترة القصيرة ، التى يصفها التاريخ وتذكرها الأساطير ، تكرر ظهور مذنب واحد بعينه فى جو الأرض فى سبع دورات متساوية استغرقت كل منها خمسمائة وخمسا وسبعين سنة وكان أول ظهور له قبل العهد المسيحى بألف وسبعمائة وسبع وستين سنة ، فى عهد أوجيجيز Ogyges أقدم شخصيات التاريخ اليونانى . وهو يفسر الرواية التى ورد ذكرها فى كتابات العالم والمؤلف الرومانى فارو Varro ، وهى أنه فى عهده تغير لون كوكب الزهرة ، وحجه ، وشكله ، ومداره ، وهذه معجزة لم يكن لها نظير فى المصور السابقة أو اللاحقة وكان ظهوره للمرة الثانية فى

سنة ألف وثلاث وتسعين ، وقد أشير إليه إشارة غامضة في أسطورة الكثريرا Electra ، وهي النجم السابع مع نجوم مجموعة بلياذز Pleiades (١) التي قل عددها الى ستة نجوم منذ حرب طروادة . وتذكر تلك الأسطورة أن تلك الحورية الكثريرا ، زوجة داودانوس ، لم تطق رؤية السمار الذي حل بيلادها فتخلت عن رقصات شقيقاتها الأخريات من النجوم ، وفرت من منطقة البروج الى القطب الشمالى ، وأطلق عليها اسم المذنب لأن خصلات شعرها كانت محلولة . أما المرة الثالثة التى ظهر فيها فقد انتهت فى سنة ستمائة وثمانى عشرة ، وهو تاريخ يتفق تماما مع ظهور المذنب الضخم الذى ذكرته المتنبة سيبيل Sibyl ، والعالم بلينى ، وقد ظهر فى بلاد الغرب قبل عهد كورش بجيلين . وكان ظهوره الرابع قبل ميلاد المسيح بأربع وأربعين سنة ، وتعتبر هذه المرة أروع وأهم مرات ظهوره ، فبعد موت قيصر ظهر نجم طويل المذنب رآته روما والشعوب الأخرى أثناء الألعاب التى أمر بعرضها أوكتافيانوس الصغير ، تكريما لفينوس وتكريما لعمه . وكان هناك رأى شائع يقول بأن ذلك النجم حمل الى السماء روح الدكتاتور الإلهية ، ولقى هذا الرأى قبولا وقسمية لدى سياسى تقي ورج ، بينما كانت خرافته السرية تعزو ظهور المذنب الى عظمة عصره . أما ظهوره الخامس فقد سبق القول بأنه كان فى السنة الخامسة من عهد جستنيان ، وهى التى تتفق مع السنة الخمسمائة والاحدى والثلاثين من العهد المسيحى . ومما هو جدير بالذكر أن المذنب ، فى هذه المرة كما فى المرات السابقة ، قد أعقبه اصفرار الشمس بصورة واضحة ، ولو أن هذه الظاهرة حدثت فى هذه المرة بعد فترة أطول . ثم عاد المذنب للظهور مرة سادسة فى سنة ألف ومائة وست وسجلته توارىخ أوروبا والصين ، وفى الحماس الأول الذى اقتنوا بالحروب الصليبية ربما توهم المسيحيون والمسلمون أن تلك الظاهرة تنذر بهلاك الكفار ، ولهؤلاء عذر متكافئ فيما ذهبوا إليه . أما الظاهرة السابعة ، وهى التى حدثت فى عام ألف وستمائة وثمانين ، فقد شاهدها أبصار عصر مستنير . وبددت فلسفة العالم بايل Bayle ذلك التحامل الذى نطقه ملتون فى شعره منذ عهد قريب حيث قال إن المذنب « ينفت الوباء والحرب من شعره المخيف » . وقد راقب فلامستيد وكاسينى مداره فى السماء بمهارة رائمة ، كما بحث برنوللى وليونى وهالى قوانين

(١) "Pleiades" : بنات أطلس السبع اللاتي تحولن الى نجوم كما تحكى الأسطورة اليونانية . - وهى مجموعة من النجوم فى برج طودوس ، مكونة من ستة نجوم يمكن رؤيتها بالعين المجردة .

دورانه : وعندها يظهر للمرة الثامنة في سنة الفين وثلاثمائة وخمسين ربما استطاع فليكون في عاصمة مقبلة في بيداء سيبيريا أو أمريكا أن يحققوا تقديرات هؤلاء العلماء .

الزلازل

ان اقتراب مذنب من الكرة الأرضية التي نسكنها قد يصيبها بضرر أو يدمرها ، غير أن التغيرات التي تعتور سطحها ، كانت حتى الآن نتيجة لفعل البراكين والزلازل . وقد تدل طبيعة التربة على البلدان التي هي أكثر تعرضا لهذه الاهتزازات لأنها اهتزازات تنشأ بفعل النيران المتأججة في باطن الأرض ، وهذه النيران إنما تشتمل من اتحاد الحديد والكبريت وما يترتب على ذلك من تغير كيميائي يحدث فورانا . غير أن أوقات حدوثها ونتائجها يبدو أنها تدق على المعرفة الانسانية . ولا شك في أن الفيلسوف يتورع في حكمه عن التنبؤ بالزلازل حتى يكون قد أحصى قطرات الماء التي تتسرب الى المعدن الملتهب ، وقاس الكهوف التي تضاعف انفجار الهواء المحبوس بمقاومتها . ويبين التاريخ تلك الفترات التي ندرت أو كثرت فيها هذه الأحداث المشتومة المفجعة دون تحديد الأسباب ، ويلاحظ أن هذه الحمى الأرضية هاجت بعنف غير عادي خلال عهد جستنيان . فقد تكررت حدوث الزلازل كل سنة ، وطالت مدتها الى درجة أن القسطنطينية اهتزت أكثر من أربعين يوما ، كما اتسع مداها الى درجة أن الهزة انتقلت الى كل أرجاء الأرض ، أو على الأقل الى كل أرجاء الامبراطورية الرومانية وشعر الناس بحركة دافعة أو هزات شديدة ، وانثشت في سطح الأرض فجوات هائلة ، وقذفت في الهواء أجسام ضخمة ثقيلة ، وتقدمت مياه البحر ثم انحصرت على التوالي الى ها وراء حدودها العادية ، وانتزع جبل من جبال لبنان وقذف في أمواج البحر حيث أصبح رصيفا يحمي ميناء بوتريس الجديدة في فينيقيا . والضربة التي تزعزع ثلا من التراب حفرة التمل قد تسحق آلاف الحشرات ، غير أنه ، اقراا للحق ، ينبغي علينا أن نعرف بأن الانسان قد سعى الى حمله بظلمة ، وعمل جاهدا على تدمير نفسه بنفسه . ذلك أن تاسيس المدن الكبيرة ، التي تضم كل منها أمة بأسرها داخل أسوارها ، تكاد تحقق رغبة كاليجولا Caligola في ألا يكون للشعب الروماني الا عنق واحد حتى يقطعه بضربة واحدة . ويقال ان مائتين وخمسين ألف شخص هلكوا في زلزال أنطاكية التي ازدادت جماهير سكانها بمن وفد اليها من الغرباء لحضور الاحتفال بعيد الصعود . وكانت خسارة بيروت أقل عددا ولكنها أعظم قيمة . ذلك أن هذه المدينة الواقعة

على شاطئ فينيقيا ، كانت شهيرة بدراسة القساؤون المدني التي كانت
أضمن طريق الى الثراء والرفعة ، وكانت مدارس بيروت خاصة بشيبي
العصر الصاعد ، وقد أهلك الزلازل كثيرا من الشبان الذين كان يمكن أن
يعيشوا حتى يصبحوا حماة بلادهم أو عدتها في ردع أعدائها . وفي هذه
الكوارث يعتبر المهندس المعماري عدو الجنس الانساني ، ذلك أن عشية
الرجل الهلجي ، أو خيمة الأعرابي ، يمكن أن تنهار دون أن تؤذي ساكنها ،
ولا شك في أن سكان بيروت كان لهم الحق في الاستهزاء بحماقة غزاتهم
الأسبان ، الذين كلفوا أنفسهم الكثير من المال والجهد لإقامة قبورهم .
فقد انهارت الجدران الرخامية في قصور النبلاء على رؤسهم ، ودفن شعب
بأكمله تحت أنقاض المباني العامة والخاصة ، واشتعلت الحرائق وانتشرت
بفعل النيران اللازمة لحياة مدينة كبيرة ولصناعاتها . وبدلا من أن يتبادل
السكان ألوان العطف التي قد تربح المتكويين وتعينهم ، فقد تعرضوا
بصورة مروعة الى الرذائل والأهواء التي تحررت من خوف العقاب ، ونهبت
المنازل المتهاوية بأيدي المخامرين الذين تملكهم الجشع الجري . والانتقام
يتحين لحظته ويختار ضحيته ، وكثيرا ما ابتلعت الأرض أولئك الذين
ارتكبوا أعمال الاغتتيال والنهب بينما كانوا يرتكبون جرائمهم . وقد
أضفت الخرافة على الخطر القائم أهوالا غير مرئية ، وإذا كان طيف الموت
في بعض الأحيان يتضائل أمام فضيلة الأفراد أو توبتهم ، فإن الشجب
الخائف المرتدع بقوة أكثر الى توقع نهاية العالم ، أو الى أن يسترحم
بالخضوع الذليل لها منتقما .

الطاعون

وصفت انيوليا ومصر في كل عصر بأنهما المصدر والمنبت الأصلي
للطاعون وفي الجو الرطب الحار الخافق ، تتولد هذه الحمى الأفريقية
من تعفن المواد الحيوانية ، وخاصة أسراب الجراد التي لا يقل أذاها
للإنسان في موتها عنه في حياتها . وهذا المرض المميت الذي امتنرف
سكان الأرض في عهد جستنيان وخلفائه ، ظهر أول ما ظهر في مدينة
بيولوزيوم بين المستنقع السربوني ومجرى النيل الشرقي . ومن هناك
سار في اتجاهين ، فانتشر صوب الشرق في سوريا وفارس وجزائر
الهند ، واتجه صوب الغرب على طول ساحل أفريقيا ثم الى قارة
أوروبا . وفي ربيع السنة التالية زار الوباء مدينة القسطنطينية خلال
ثلاثة أو أربعة شهور . وقد راقب المؤرخ بروكوبيوس ببصيرة الطبيب
سير الوباء وأعراضه ، منافسا في ذلك مهارة ثيوكديدس واجتهاده في
وصف طاعون أثينا . وكان النذير بالمعدوى في بعض الأحيان هو تلك

الاطياف التي يراها خيال معطل ، وسرعان ما ينتاب الضحية اليأس بمجرد ان تسمع وعيد الشسبح الخفي وتشعر يوطاة ضرباته . غير ان آثرية الناس ، سواء كانوا في عراشهم ، أم في الطرقات ، أم في اعماهم العادية ، كانوا يقاؤون بحمى خفيفة لا يصاحبها أى تغير فى النبض أو فى اللون مما يعتبر علامة على اقتراب الخطر . وفى نفس اليوم ، أو فى اليوم الثانى ، أو فى اليوم الذى يليه يتمثل المرض فى تورم اللد ، وخاصة غدد أصل الفخذ ، وتحت الابط ، وتحت الأذن ، وعندما كانت تفتح هذه الأورام كان يوجد بها مادة سوداء فى حجم حبة العدس تسمى فحما Coals . فإذا انتفخت هذه الأورام وتقيحت كما ينبغي ، أنقذ المريض بفضل هذا النوع من الافراز الطبيعى للمصديد الوبيل ، ولكنها اذا ظلت صلبة وجافة ، أصيب المريض بتسسم سريع ، وانتهت حياته عادة فى اليوم الخامس . وكثيرا ما كانت أجسام المرضى تغطي باليئور أو السعال السوداء ، وهى أعراض الموت المباشر . وفى حالة الأجسام الضعيفة التى لا تستطيع تفجير الأورام ، كان المريض يصاب بفى دهمى يتبعه تسسم الأمعاء . وكان الطاعون بوجه عام مميتا للحوامل ، ومع ذلك فقد حدث أن استخرج جنين حى من بطن أمه الميتة ، كما عاشت ثلاث نساء بعد اصابة أجنتهن بالطاعون . وكان سن الشباب أخطر وقت يصاب فيه الانسان بهذا المرض ، كما أن الاناث كن أقل قابلية للاصابة من الذكور . غير أن المرض هاجم الناس دون تمييز ، وكان له ضحاياه من كل مرتبة وكل مهنة ، وكثير من هؤلاء الذين نجوا منه فذلوا القدرة على الكلام ، دون أن يامنوا عودة المرض . وكان أطباء القسطنطينية يتسمون بالغيرة والبراعة ، غير أن فنهم أعياء تنوع أعراض المرض وحدته العنيدة ، فقد كان العلاج الواحد يحدث نتائج متناقضة ، كما أن النتيجة المتقلبة كانت تخيب تنبؤهم بحياة المريض أو موته . واختل فى ذلك الوقت نظام الدفن وحق الأموات فى قبورهم ، وأولئك الذين تركوا دون خدم أو أصدقاء ظلت جثثهم ملقاة فى الطرقات ، أو فى منازلهم المقفرة المهجورة ، وخول أحد الحكام سلطة جمع أكوام الجثث المختلطة ، ونقلها بالبر أو البحر ، ثم مواراتها فى حفر عميقة بعيدا عن حدود المدينة . وأحس أقسى الناس قلوبا وأكثرهم رذيلة بالخطر المحدق بهم ، وبالمحنة العامة التى تنتظرهم ، فأيقظ ذلك كله بعض الندم فى نفوسهم ، حتى اذا ما رجعت اليهم الثقة بالصحة ، عادوا الى أهوائهم وعاداتهم ، غير أن الفلسفة ينبغي أن تزدري الملاحظة التى أبداهها بروكوبوس من أن حياة أمثال هؤلاء الناس كان يصونها الحظ أو العناية الالهية . فقد نسي ذلك المؤرخ ، أو ربما ذكر فى دخيلة نفسه ، أن الطاعون أصاب شخصى جستينيان

نفسه ، غير أن عذائه الضعيف ، شأنه في ذلك شأن سقراط ، ربما كان سببا أشرف وأكثر معقولية مما ذكره بروكوبيوس لتعليل شفائه (١) من المرض . وخلال مرضه كان الذعر العام يتجلى في عادات الناس ، وترتب على تراخيمهم وقنوطهم أن أصيبت عاصمة الشرق بفاقة عامة وندرة في المواد الغذائية .

والعدوى هي العرض الملازم لوباء الطاعون ، وهو مرض ينتقل عن طريق التنفس من الشخص المصاب إلى رثتي من يقترب منه وإلى معدته . ومع أن الفلاسفة يعلمون ذلك ويرتعدون خوفا ، إلا أنه من العجيب أن وجود هذا الخطر الحقيقي كان ينكره شعب يميل أكثر ما يكون الميل إلى توهم أهوال باطله خيالية (٢) . غير أن مواطني بروكوبيوس قد اقتنعوا ، نتيجة تجربة قصيرة جزئية ، بأن العدوى لا يمكن أن تنتقل بالمخالطة ، مهما كانت قريبة ، وهذا الاقتناع كان يدعم مشابرة الأصدقاء أو الأطباء على العناية بالمرضى ، الذين كان الحرص القاسي كفيلا بأن يقضى عليهم بالعزلة واليأس . غير أن هذا الاطمئنان القاتل ، شأنه شأن إيمان الترك بالقضاء والقدر ، لابد أنه ساعد على انتشار العدوى ، كما أن تلك الاجتياحات الصحية ، التي يرجع إليها الفضل في نجاة أوروبا ، لم تكن معروفة لدى حكومة جستنيان . فلم توضع أية قيود على حرية الانتقال الكثير بين الولايات الرومانية . ومن بلاد فارس إلى فرنسا كان هناك اختلاط بين الشعوب عن طريق الحرب والهجرات فسرت بينها العدوى ، وكانت الرائحة الوبائية تكمن عدة سنوات في (بالة) من القطن ، ثم تنتقل عن طريق هذه التجارة الخادعة إلى أبعد المناطق . وقد وضع بروكوبيوس طريقة انتشار العدوى في ملاحظة أبدعها ، حيث قال أنها كانت تنتشر دائما من شاطئ البحر إلى الأقاليم الداخلية ، وأصيبت بهذا الوباء تباعا أكثر الجزائر والجبال عزلة ، كما أن الأماكن ، التي نجت من حدة الوباء في دورته الأولى ، كانت هي وحدها التي أصيبت بالعدوى في السنة

(١) هكذا اتفق الاعتدال الفيلسوف سقراط من طاعون أثينا . ويمثل الدكتور ميد Dr. Mead نداء الأديرة بأنها كانت معزلة عن غيرها ، وبأن القاطنين فيها كانوا مغلين في طعامهم .

(٢) أثبت الدكتور ميد أن الطاعون مرض معد بالرجوع ليوكميديديس ، ولوكرشيوس ، وأرسطو ، وجالين ، ومن التجربة العادية . وهو يدحض الرأي المضاد الذي قاله الأطباء الفرنسيون الذين زاروا مرسيليا في عام ١٧٢٠ . ومع ذلك فإن هؤلاء الأطباء كانوا نظارة حديدين مستعيرين شاهدوا المرض وهو يقضى في شهور قليلة على ٥٠.٠٠٠ من سكان مدينة لا تشتمل الآن على أكثر من ٩٠.٠٠٠ نسمة ، رغم رخائها وازدهار تجارتها .

التالية . وربما ساعدت الرياح على نشر هذا السم الخفى ، ولكن اذا لم يكن الجو مهياً من قبل لاستقباله ، فانه سرعان ما كان يتلاشى فى الأجواء الباردة أو المعتدلة . ولقد تلوث الهواء الى درجة أن الوباء الذى حدث فى السنة الخامسة عشرة من حكم جستنيان لم يتوقف أو يخف نتيجة أى اختلاف فى الفصول . وبمرور الزمن خفت وطأته الأولى وتشتتت ، وأخذ المرض يتراخى مرة وينشط مرة أخرى ، غير أن الناس لم يستردوا صحتهم ، والهواء لم يعد الى سابق نقائه وطيبه الا بعد انصرام فترة موبوءة قدرها اثنان وخمسون عاماً . وليس لدينا الآن من الحقائق ما يبين أعداد من هلكوا فى هذا الفناء الشاذ غير العادى حتى عن طريق الجدس والتخمين ، وكل ما أمكننى الوصول اليه هو أن عدد الوفيات فى مدينة القسطنطينية ، خلال فترة ثلاثة شهور ، بلغ فى أول الأمر خمسة آلاف شخص يومياً ، ثم ارتفع الرقم الى عشرة آلاف ، وأن مدناً كثيرة فى الشرق أصبحت خاوية من أهلها وأن المحاصيل وغلة الكرم ذبلت على الأرض فى عدة أقاليم من إيطاليا ، وقله نكب رعايا جستنيان بنقم ثلاث ، هى الحرب ، والوباء ، والمجاعة ، ولحق بمعهد العار المتمثل فى نقص ملحوظ فى الجنس الانسانى ، لم يعوض أبداً فى بعض أجمل بلدان الكرة الأرضية .

★★★

كان تقنين التشريع الرومانى أعظم ما أنجز فى عهد جستنيان . وقد وصف ذلك جيبون فى الفصل الرابع والأربعين ، المحلوف هنا .

الفصل الخامس والأربعون (٥٩٠ - ٥٩٤)

شقاء روما قرب نهاية القرن السادس • بابوية جريجورى العظيم •

بين سنتي ٥٦٨ و ٥٧٠ ، وبعد موت نارسيس ، غزا اللومبارد بقيادة
الابوين الجزء الأكبر من إيطاليا • وظلت إيطاليا خلال مائتي عام مقسمة
بين مملكة اللومبارد ، وولاية رافنا التابعة لبيزنطة •

يصف جييون فى الفصل السادس والأربعين نهاية اسرة جستنيان
وبدء الاسرة المالكة الجديدة ، اسرة هرقلوس •

شقاء روما فى نهاية القرن السادس

وسط جيوش اللومبارد ، وتحت الحكم المطلق لليونان ، تعود مرة
ثانية الى بحث مصير روما ، التى كانت قد وصلت قرب نهاية القرن
السادس الى اقصى فترات بؤسها وشقتها • فبعد أن انتقل منها مقر
الامبراطورية ، وتوالت خسارة الولايات ، استنفدت موارد الثراء العام
والخاص : وجردت من أوراقها وفروعها تلك الشجرة الوارفة الشامخة
التى استظلت فى ظلها أمم العالم ، وذوى على الأرض ذلك الجذع الذى جفت
عصارته • ولم يعد أصحاب الزعامة والسلطان ، ورسل الظفر والنصر ،
يلتقون فى طريق آبيا أو طريق فلامينيا ، وكثيرا ما كان الناس يشعرون
باقتراب أعدائهم اللومبارد ، الذى أصبح مصدر خوفهم وفزعهم بصورة
مستمرة • وفى مقدور سكان عاصمة قوية آمنة ، ممن يرتادون حدائق
الريف المجاور دون أن يسموهم القلق ، أن يتمثلوا فى خيالهم صورة
باهتة لمحنة الرومان وشقاتهم • فقد كانوا يفتحون أبوابهم أو يفلقونها

بيد مرتجفة ، ويشاهدون من فوق الأسوار السنة النيران المنبعثة من منازلهم ، ويسمعون عويل اخوتهم وهم يقيدون أزواجا أزواجا كالكلاب ، ويساقون الى الاسترقاق بعيدا فيما وراء البحار والجبال . ولا شك في أن مثل هذه المخاوف المستمرة كفيلة بالقضاء على متع الحياة الريفية وتعويق أعمالها وجهودها ، وسرعان ما تدهور الريف الذي يحيط بمدينة روما ، وتحول الى فلاة مقفرة ، تعرت أرضها ، وتلوث ماؤها ، وفسد هواؤها . ولم يعد الطمع وحس الاستطلاع يجذب الأمم الى عاصمة الدنيا ، ولكن ، اذا اتجهت الى ذلك المكان خطوات أجنبى مرتحل ، بحكم الضرورة أو بمحض الصدفة ، فانه كان يتأمل في فزع ورهبة ما آلت اليه حال مدينة خاوية منعزلة ، وربما ثار في نفسه سؤال ، أين السناتو ، وأين الشعب ؟ وقد حدث أن انهزم المطر في أحد الفصول ، ففاض نهر التيبر على ضفتيه ، واندفع بقوة عارمة الى وديان التلال السبعة ، وانتشر مرض وبائي من ركود مياه الفيضان ، وسرت عدواه بصورة سريعة أسفرت عن موت ثمانين شخصا في ساعة واحدة ، وسط موكب رهيب يستمطر رحمة السماء . والمجتمع الذي يشجع الزواج وتكثر فيه الصناعة يستطيع بسرعة أن يعوض الخسارة العابرة التي تصيب سكانه نتيجة وباء أو حرب . غير أن الجزء الأكبر من أهل روما كان مقضيا عليه بالفاقة وحياة العزوبة دون ما أمل في التخلص منهما ، ومن ثم فإن تناقص السكان كان ظاهرة مستمرة ملموسة ربما دفعت المتحمسين المتشائمين الى توقع انقراض الجنس البشري في وقت قريب . ومع ذلك فإن عدد السكان ظل متجاوزا حد الكفاف ، وكان الناس يحصلون على طعامهم بصورة مزعزعة مقلقة من محاصيل صقلية ومصر ، وكانت كثرة المجاعات وتكرارها دليلا على إهمال الامبراطور لشئون ولاية بعيدة . وتعرضت أبنية روما ومساكنها لنفس الخراب والاضمحلال ، وتهاوت الصروح البالية بسهولة من جراء الفيضانات والعواصف والزلازل ، واغتبط الرهبان ، الذين كانوا يشغلون أحسن الأماكن ، لانتصارهم الحقيق على أطلال اليهود القديمة . ومن المعتقد بوجه عام أن البابا جريجوري الأول هاجم معابد المدينة وحطم تماثيلها ، وأن مكتبة نل بالاتين Palatine تحولت بأمر هذا الهمجي الى رماد ، وأن تعصبه الأحق الخبيث كان يستهدف بوجه خاص مؤلفات المؤرخ الروماني ليفي . وتدل كتابات جريجوري نفسه على كراهيته العنيدة لآثار العبقريّة القديمة ، فهو يسدد أعنف النقد الى العلم الديوي الذي كان يمتاز به أسقف قام بتعليم فن النحو ، ودرس شعراء اللاتين ، ونطق بالصوت نفسه تسابيح جويبتير وتسابيح المسيح . غير أن الدليل على ثورة غضبه الممصرة هو دليل قريب العهد ومشكوك فيه ، فمعبد السلام ومسرح مركيللوس قد تهدما شيئا فشيئا بفعل الزمن ومرور الوقت ،

ولو أنه أصدر حظرا رسميا على مؤلفات فرجيل وليفي ، لأدى ذلك الى زيادة نسخ تلك المؤلفات في البلدان الخاضعة لهذا الدكتاتور الديني .

بابوية جريجورى العظيم

كان يمكن أن يمحي اسم روما من الأرض ، شأنه في ذلك شأن طيبة وبابل وقرطاجه ، لو لم تبعت فيها الحياة عقيدة حيوية جوهرية أعادت لها مجدها وسلطانها . فقد تناقل الناس رواية غامضة تقول بأن معلمين يهوديين ، أحدهما صانع خيام وثانيهما صائد سمك ، كانا في سابق العهد قد أعلما في ساحة (سيرك) نيرون ، وبعد نهاية خمسمائة سنة أصبحت عظامهما الحقيقية أو المزعومة موضع التقديس والعبادة ، على أساس أن هذه العظام هي حصن روما المسيحية كتمثال الهة الحكمة التي حمت طروادة . وذهب حجاج الشرق والغرب لزيارة العتبة المقدسة ، غير أن الضريحين المقدسين اللذين رقدت فيهما عظام الرسولين كانت تحرسهما المعجزات والمخاوف الغريبة ، ولم يكن في استطاعة الكاثوليك الانتهاء أن يفتربوا من قبلة عبادتهم هذه دون أن يتولاهم الوجع والجزع . وكان لمس جسد القديسين مميّتا ، ومشاهدتهما خطيرة ، وأولئك الذين تجرأوا على ازعاج راحة الضريح ، مدفوعين الى ذلك بأطهر الدوافع وأنقاها ، كانت ترعبهم الأشباح ، أو يعاقبون بالموت الفجائي . وقد رغبت امبراطورة في أن تحرم الرومان من كنزهم المقدس ، وهو رأس القديس بولس ، غير أن ذلك الطلب غير المعقول قوبل برفض مقترن بأشد المقت والكرهية ، وأكد البابا ، ومن المحتمل أنه كان صادقا في ذلك التأكيد ، أن قطعة قماش من الأقمشة المقدسة التي غطي بها جسد القديس ، أو برادة من قيوده الحديدية ، التي كان الحصول عليها سهلا في بعض الأحيان ، ومستحيلا في أحيان أخرى ، كانت تمتلك بنفس القدر خاصية اتيان المعجزات . غير أن قدرة الرسولين وفضيلتهما احتوتهما صدور خلفائهما بقوة حياة ، وشغل كرسي القديس بطرس في عهد هوريس ، نائب الامبراطور ، أول وأعظم البابوات الذين أطلق عليهم اسم جريجورى . وكان جده فليكس قد شغل هو نفسه كرسي البابوية ، ولما كان الأساقفة متلزمين بقانون العزوبة ، فلا بد أن رسالته قد سبقها موت زوجته وكان أبوه جورديان وأمه سيلفيا أنبل أسرة من أسر السنااتو ، وأكثر أبناء كنيسة روما ورعا وتقوى . وكان أقاربه من الاناث في عداد القديسات والعذارى ، وقد رسمت له صورة عائلية مع والده ووالدته تبرع بها لدير القديس أندراوس ، وظلت موجودة قرابة الثلاثمائة عام . وان تصميم هذه الصورة وتلوينها ليبدل دلالة صادقة على أن فن الرسم غرسه الايطاليون

فى القرن السادس • غير أن ذوقهم وعلمهم لا يرسم فى الأذهان إلا أسوأ الصور ، لأن رسائل جريجورى ، وعظاته ، ومحاوراته إنما هى من عمل رجل لم يكن فى لودعيته تاليا لآى من معاصريه • وقد رفعه أصله وقدراته الى منصب والى المدينة ، وكان يتمتع بميزة احتقار أبهة هذه الدنيا وزهوها • وقد خصص ميراثه الكبير لتأسيس سبعة أديرة ، كان أحدها فى روما وممتة فى صقلية ، وكانت رغبة جريجورى هى أن يظل مجهولا فى هذه الدنيا ، وألا يحظى بالمجد إلا فى الآخرة • غير أن ورعه ، وربما كان ورعا صادقا مخلصا ، سلك الطريق الذى كان يمكن أن يختاره سياسى ماهر طموح • ذلك أن مواهبه ، والفخامة التى كانت تصاحب رياضاته الروحية جعلته عزيزا على الكنيسة ناعما لها ، وكان فى عظاته يفرس فى الناس دائما أن الطاعة الثابتة هى الواجب الأول للراهب • ومنذ أن أصبح جريجورى سياسيا أرسل للإقامة فى البلاط البيزنطى ، حيث كان قاصدا رسوليا للحبر الرسولى ، واتخذ لنفسه فى جرة ، باسم القديس بطرس ، أسلوب صاحب المكانة المستقلة ، الأمر الذى كان يمكن أن يعتبر عملا إجراميا لو اتبعه أبرز العلمانيين • ثم عاد الى روما وقد زادت شهرته عن جدارة واستحقاق ، وبعد أن مارس فضائل الرهبنة فترة قصيرة أخذ من الدير الى العرش البابوى باجماع أصوات رجال الدين ، والسناو ، والشعب • وكان هو وحده الذى قاوم ، أو تظاهر بمقاومة ، هذه الرفعة ، والتمس فى خضوع من موريس ، نائب الامبراطور ، أن يتفضل برفض اختيار الرومان ، فلم يكن لذلك من أثر الا أنه أضفى على شخصيته رفعة ومجدا فى أعين الامبراطور والشعب • وعندما صدر الأمر بالخطير التمس جريجورى عون بعض أصدقائه التجار ، وطلب منهم أن ينقلوه فى سلة من سلالهم الى ما وراء أبواب روما ، وأخفى نفسه بضعة أيام بين الغابات والجبال حتى اكتشف مأواه ، وقيل ان نورا سماويا هو الذى دل عليه •

وقد دامت بابوية جريجورى العظيم ثلاث عشرة سنة وستة شهور وعشرة أيام ، وكانت تلك الفترة من أعظم الفترات البناءة فى تاريخ الكنيسة • وكانت فضائله ، بل وحتى أخطاؤه ، خليطا عجيبا من البساطة مع الدهاء ، والكبرياء مع التواضع ، وقوة الإدراك مع الخرافة ، وكان كل أولئك يتلاءم تلاؤما موفقا مع مركزه ومع طابع العصر الذى عاش فيه • وقد أدان فى منافسه ، بطريك القسطنطينية ، ذلك اللقب المتعارض مع المسيحية الذى كان يحمله ، وهو لقب الأسقف العام ، الذى كان خليفة القديس بطرس أعلى من أن يعترف له به وأضعف من أن يتخذه لنفسه ، واقتصرت سلطته الكنسية على صفته الثلاثية ، أسقف روما ، ورئيس أساقفة إيطاليا ، ورسول الغرب ••• وكثيرا ما كان يرتقى المنبر ، ويشعل

يفصاحته المفجة ، وإن تكن فصاحة شجوية ، عواطف سامعية المتجانسة
 وكان يفسر كلام أنبياء اليهود ويطبقه ، ويوجه عقول الشعب الذى أضنته
 الكوارث القائمة الى آمال العالم غير المنظور ومخاوفه ، وحدد فى وصاياه ،
 وبالمثل الذى ضربه ، الطقوس الدينية الرومانية ، وتوزيع الأبرشيات ،
 وتاريخ الأعياد ، ونظام المواكب ، وخدمة القساوسة والشمامسة ، وتنوع
 الأودية الكهنوتية وتغيرها . وكان الى آخر أيام حياته يخدم القديس
 الكنسى الذى كان يدوم أكثر من ثلاث ساعات ، واحتفظ الترتيل الجريجورى
 بالموسيقى الصوتية والآلات الموسيقية المستخدمة فى المسرح ، وحاولت
 أصوات المتبريرين الخشنة محاكاة ألحان المدرسة الرومانية العذبة ، وقد
 عنمته التجربة فعالية هذه الشعائر المقدسة المهيبة فى تخفيف محنة عامة
 الناس ، وفى تثبيت إيمانهم ، وتلطيف حدة طباعهم ، وصرفهم عن حماسهم
 الأحق ، وتساهل فى التجاوز عن نزعتهم الى تشجيع حكم الكهنوت
 والخرافة . واعترف أساقفة إيطاليا المجاورة بالحبر الرومانى مطرانا
 خاصا لهم ، بل إن وجود الكراسى الأسقفية ، واتحادها ، وتبديلها ، أصبح
 هو صاحب التصرف المطلق فى تقريرها ، كما أن تدخلاته الناجحة فى
 ولايات اليونان وإسبانيا وبلاد الغال ربما أيدت ما كان للبابوات الذين
 جاءوا بعده من مطلب أكثر سموا . وقد تدخل لمنع مساوىء الانتخابات
 الشعبية ، وحافظ بغيرته ورعايته على نقاء العقيدة والنظام ، ودأب هذا
 الراعى الرسول على مراقبة نظام الرعاة التابعين له وعقيدتهم . وفى عهده
 انضم الآريوسيون فى إيطاليا وإسبانيا الى الكنيسة الكاثوليكية ، وكان
 غزوه الدينى لبريطانيا أعظم تشريفا لاسمه من المجد الذى ناله اسم قيصر
 بفتح تلك البلاد . فبدلا من الفرق الست التى بعثها قيصر ، أرسل هو الى
 تلك الجزيرة أربعين راهبا ، وأسف ذلك الحبر لأن واجباته الصارمة منعت
 من المشاركة فى أخطار حربهم الروحية . وفى أقل من سنتين استطاع أن
 يعلن لرئيس أساقفة الاسكندرية أنهم عمدوا ملك كنت وعشرة آلاف من
 الأنجلوسكسونيين ، وأن بعثات التبشير الرومانية ، شأنها شأن بعثات
 الكنيسة الأولى ، لم يكن لديها من الأسلحة الا قوتها الروحية الخارقة .
 وكانت سداجة جريجورى أو قطنته تنزع دائما الى تأكيد حقائق الدين بأدلة
 الأشباح ، والمعجزات وبعث الموتى ، وقد اعترفت الأجيال التالية لذكراه
 بنفس الفضل الذى أقره هو لفضيلة جيله أو الجيل الذى سبقه . ولقد
 كانت الأمجاد السماوية تمنح فى سخاء بسلطة البابوات ، غير أن جريجورى
 هو آخر شخص من أبناء طبقتهم تجرأوا على تدوين اسمه فى قائمة
 القديسين .

وقد نشأت السلطة الزمنية لهؤلاء البابوات من كوارث تلك الأيام ،
 واضطر الأساقفة الرومان ، الذين أغرقوا أوروبا وآسيا فى الدمار ، الى

أن يحكموا كخدم للصدقة والسلام ١٠ - وقد سبق أن لاحظنا أن كنيسة روما كان لها ممتلكات في إيطاليا وصقلية ، وفي الولايات الأكثر بعدا ، وقد حصل وكلاؤهما ، الذين كانوا عادة من مساعدي الشماسية ، على سلطة القضاء المدني ، بل والجنائي ، على مستأجريهم ومزارعيهم . وقد أدار خليفة القديس بطرس ممتلكاته الموروثة بخلق المالك اليقظ المعتدل ، وكانت رسائله مليئة بالاشعارات النافعة الى تجنب القضايا الكيدية أو المشكوك فيها ، وإلى المحافظة على سلامة انكيل والميزان ، وإلى التجاوز عن كل تأخير معقول ، وإلى تخفيض الخراج المفروض على العبيد العاملين في أراضي الكنيسة الذين اشتروا حق الزواج بدفع غرامة مقرر ، وكانت غلة أو منتجات هذه الممتلكات تنقل إلى مصب نهر التيبر تحت مسئولية البابا وعلى حسابه . أما في استخدام الثروة ، فقد كان يتصرف كخدام أمين للكنيسة وللفقراء ، وكان يستخدم في سد حاجاتهم تلك الموارد التي لا ينضب معينها والتي كان يحصل عليها بالتقشف وبالانظام . وقد بقي حساب إيراداته ومصروفاته الضخم في كاتدرائية لاتران أكثر من ثلاثئة عام كنموذج للاقتصاد المسيحي . وفي الأعياد الأربعة الكبيرة كان يقسم الأموال ربع السنوية المخصصة لها ، على الكهنة ، وخدمة الأديرة ، والكنائس ، والمقابر ، وبيوت البر والصدقة ، ومستشفيات روما ، وبقية الأبرشيات . في أول يوم من كل شهر كان يوزع على الفقراء ، حسبما يتفق مع الفصل ، نصيبهم المقرر من القمح والنبيد ، والحب ، والخضروات ، والزيت ، والسمك ، والملون الطازجة ، والملابس ، والمال . وكانت خزائنه تفتح بصورة مستمرة لتسد باسمه المطالب غير العادية التي يتقدم بها أصحاب الحاجة وذوو الجدارة . وإذا تبين محنة عاجلة أصابت المرضى أو العاجزين ، أو الغرباء الحجاج ، فإن كرمه اليومي ، وفي كل ساعة من ساعات اليوم ، كان كفيلا بتخفيف هذه المحنة وإغاثة أصحابها . ولم يكن لطيب لهذا الحبر أن يتناول أكلة بسيطة إلا إذا أرسل أطباقا من مائدته الخاصة إلى من يستحقون حنانه وشفقته . وكان يؤس ذلك العصر قد ألجا نبلاء روما ونبيلاتهما إلى قبول احسان الكنيسة دون خجل ، وكان هناك ثلاثة آلاف عذراء يتلقين طعامهن وكساءهن من يد هذا المحسن الكريم ، كما أن كثيرا من أساقفة إيطاليا فروا من المتبربرين إلى عتبة الفاتيكان المضيافة . ويحق لجريجورى أن يلقب بوالد بلاده ، وكان ضميره شديد الحساسية إلى درجة أن موت متمول في شوارع المدينة كان كفيلا بأن يدفعه إلى حرمان نفسه أياما كثيرة من ممارسة مهامه الكهنوتية ٢٠ - وقد كان من أثر المصائب التي حلت بروما أن تورط الراعي الرسولي في قضايا السلام والحرب ، وربما كان موضع شكه هو نفسه ما إذا كان الورع أو الطمع هو الذي شجعه على الحلول مكانه ملكه المتغيب . وأيقظ

جريجورى الامبراطور من سيئات طويل ، وكشف ذنب نائبه أو عجزه ، وذنب أو عجز الوزراء التابعين له ، وشكا للامبراطور من أن قدامى الجنود كانوا يسحبون من روما للدفاع عن سبوليتو ، وشجع الايطاليين على حراسة مدنها وهياكلهم ، وتفضل ، فى أزمة الخطر ، بتعيين التربيونات وتوجيه عمليات القوات الاقليمية . غير أن روحه العسكرية كان يصدها تورعه الدينى والانسانى ، ومن قبيل ذلك أن فرض الجزية ، رغم أن العائد منها كان يستخدم فى الحرب الايطالية ، الا أنه أدان ذلك جهارا بأنه شيء ظالم مقوت ، وفى الوقت عينه كان ، رغم المراسيم الامبراطورية ، يحمى الجنود الجبناء الأتقياء الذين هجروا الحياة العسكرية ولجأوا إلى حياة الرهبنة . وإذا جاز لنا أن نصدق التصريحات التى أدلى بها ، فقد كان من اليسير عليه أن يقضى على اللبارد باستغلال نزاعاتهم الحزبية الداخلية ، دون أن يترك لهم ملكا ، أو دوقا ، أو (كونت) يتخذ تلك الأمة التعسة من انتقام أعدائها . وبوصف كونه أسقفا مسيحيا ، فقد كان يفنسل الخدمات النافعة التى تحقق السلام ، ومن ثم فقد توسع لاصداد تمرد الجيوش ، غير أنه كان متنبها لحيل اليونان ولاهواء اللبارد بدرجة منعه من أن يرتبط بوعد مقدس لضمان احترام الفريقين للهدنة . وقد خاب أمله فى تحقيق معاهدة عامة دائمة ، ولهذا تجرأ على انقاذ بلاده دون موافقة الامبةاطور أو نائبه . ولقد كان سيف العدو مسلطا على روما ، فاستطاع الحبر ، الذى استحوذ على احترام الهراطقة والمتبريرين أن يتجنبه بفصاحته الهادئة الرقيقة ، وبمواهبه اللاتقة . وقابل البلاط البيزنطى هذه الصفات الحميدة ، التى تحلى بها جريجورى ، باللوم والاساءة ، غير أن هذا الحبر وجد فى تعلق شعبه به وفى اعترافه بفضله ، أنبل ما يجرى عليه المواطن ، وأعظم حق لملك على رعيته .

★★★

يصف جيون فى الفصل السادس والأربعين نهاية أسرة جستنيان وبدء الأسرة المالكة الجديدة ، أسرة هرقلئوس .

وشاهدت نهاية أسرة جستنيان أولا تحت حكم موديس (٥٨٢ - ٦٠٢) ، ثم تحت حكم فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠) ، تطوّر الأمر من حالة الضعف المتناهى إلى حالة الفوضى المطلقة تقريبا ، وهى حالة اقترنت بها الغزوات الأجنبية والتفكك الداخلى .

وفى عهد هرقلئوس (٦١٠ - ٦٤٢) نهب الفرس اورشليم خلال حرب طويلة ، ثم غزوا مصر ، وكادوا يستولون على القسطنطينية بمعاونة

الآفار • إلا أن هرقلْيوس سحق قوة الفرس الى الأبد في سنة ٢٦٨ ، كما
صد السلاف في البلقان •

وفي الفصل ١٧ يناقش جيون النظريات التي لا تنتهي الخاصة
بالتجسد ، ويبين أن السر في ذلك يكمن في الفرق بين عقيدة نيقيا وعقيدة
اليقويين التي تقول بأن للمسيح طبيعة واحدة • واستهوت هذه العقيدة
الأخيرة شعوب الولايات الشرقية الذين اقروا بأن المسيح هو إله متجسد
وإن جسمه ذو شكل بشري ، غير أن طبيعته كانت طبيعة واحدة إلهية •

الفصل السابع والأربعون (٤١٢ - ٥٦٥)

تاريخ عقيدة التجسد • الأبيونيون والغنوصيون •
النظريات المضادة التي قال بها كرينثوس وأبوليناريس ،
وكيرلس ، ونسطور ومجالس افيسوس الكنسية الأولى • هرطقة
يوطاخْيوس ومجلس افيسوس الثاني • مجلس خلقدونية •
قانون التوفيق الذي وضعه زينون • لاهوت جستنيان •

بعد القضاء على الوثنية ، كان يمكن للمسيحيين أن يستمتعوا
بانتصارهم الوحيد في هدوء وتقوى • غير أن مبدأ الفرقة كان حيا في
صدورهم ، وكان تحمسهم لكشف طبيعة مؤسس دينهم أكثر من قلقهم على
ممارسة شرائعه • وقد سبق لي القول بأن النزاعات التي دارت حول التثليث
قد أعقبتها النزاعات حول التجسد • وكانت تلك الخصومات شائنة
للكنيسة وضارة بالدولة سواء بسواء ، بل إن نشأتها كانت أكثر دقة
وغموضا ، وآثارها أكثر دواما • وفي نيتي أن أضمن هذا الفصل الحالي
تاريخ حرب دينية دامت مائتين وخمسين عاما وأن أصور الانشقاق الكنسي
والسياسي للطوائف الشرقية ، وأن أمهد لوصف صراعاتهم الصاخبة
أو الدموية ببحث متواضع في عقائد الكنيسة الأولى •

الأبيونيون

١ - إن الاحترام المشكور لكرامة المهتدين الأوائل يؤيد الاعتقاد ،
والأمل ، والرغبة ، في أن الأبيونيين ، أو على الأقل النصارى ، لا يتميزون
الابمشاربتهن العنيدة على ممارسة الشعائر الموسوية • وقد اختفت كنائسهم ،
وطبست كتبهم ، غير أن الحرية الثقافية التي تمتعوا بها ربما أجازت القول
بأنه كان لهم بعض الايمان ، كما أن عقيدتهم اللينة الناشئة كان يمكن

أن تتشكل تشكلا منوعا بفضل الغيرة أو الفطنة التي دامت ثلاثمائة سنة . ومع ذلك فإن أكرم نقد وأسخاه لابد من أن ينكر على أبناء هذه الطوائف أية معرفة بالوهمية المسيح الخالصة الصحيحة . فقد تعلموا في مدرسة النبوة اليهودية والتعصب اليهودي ، ولم يتعلموا أبدا أن يسموا بأمالهم إلى ما هو أكبر من مسيح بشرى دنيوى . وإذا كان لديهم من الشجاعة ما جعلهم يحيون ملكهم عندما ظهر في رداء العامة ، فإن مداركهم البليدة لم تستطع تمييز الهمم ، الذى دأب على إخفاء شخصيته السماوية تحت اسم وشخصية رجل من البشر (١) . وكان رفاق يسوع الناصرى المقربون إليه يتحدثون مع صديقهم وابن وطنهم الذى كان يبدو أنه من نفس الجنس البشرى الذى ينتمون إليه فى كل الأعمال المتعلقة بالحياة العقلية والحيوانية . وتميز تطوره من الطفولة إلى الشباب والرجولة بزيادة منتظمة فى قوامه وحكمته ، وبعد أن نال عقله وجسمه آلاما مبرحة مات على الصليب . ولقد عاش ومات لخدمة بنى البشر ، غير أن سقراط من قبله عاش ومات مثله من أجل قضية الدين والعدالة ، ورغم أن سقراط من قبله قد يحتقر الفضائل الوديمة المتواضعة التى تحلى بها يسوع ، فإن الدموع التى ذرفها على صديقه وبطلاده يمكن أن تعتبر أنقى وأخلص دليل على إنسانيته . ولم تكن معجزات الانجيل موضع دهشة شعب آمن إيمانا جريئا بمعجزات الشريعة الموسوية الأكثر روعة ، فأنبياء العصور القديمة شفوا المرضى ، وأحيوا الموتى ، وشطروا البحر ، وأوقفوا سير الشمس ، وصعدوا إلى السماء فى عربة نارية ، كما أن أسلوب العبرانيين المجازى ربما نسب إلى اسم قديس وشهيد لقبا اضافيا هو لقب ابن الله .

غير أن عقيدة النصارى والأبوينيين غير الكاملة يكاد يلاحظ فيها تمييز بين الهراطقة الذين خلطوا ولادة المسيح بنظام الطبيعة العادى ، وبين المنشقين الأقل ذنبا الذين بعجلا طهر أمه وعذريتها ، واستبعدوا أن يكون قد مسها بشر . وكان انكار الطائفة الأولى لهذه الظاهرة تؤيده الظروف الملموسة التى أحاطت بمولده ، والزواج الشرعى الذى حدث بين والديه الشهيرين ، يوسف ومريم ، وحقه الوراثى فى مملكة داود وميراث يهوذا . غير أن التاريخ السرى الصحيح قد سجل فى عدة نسخ من الانجيل بناء على أقوال القديس متى ، واحتفظ بها أبناء هذه الطوائف مدة طويلة باللغة العبرية الأصلية باعتبارها الدلائل الوحيدة على إيمانهم . ولقد زالت الريب الطبيعية التى ساورت زوج مريم الذى كان يشهر بطهارته وعفته بفضل

(١) يضطر كريسوستوم وأثناسيوس إلى الاعتراف بأن الوهمية المسيح قلما وردت على لسانه أو على لسان حوارييه .

التأكيد الذي أوحى إليه (في حلم) أن زوجته حبلت من الروح القدس ، وبما أن هذه المعجزة البعيدة الماثلية لم يكن مستطاعا أن تقع تحت ملاحظة المؤرخ الشخصية ، فلا بد أنه استمع الى نفس الصوت الذي قال للنبي أشعيا ان عذراء سوف تحمل في المستقبل . ولا شك في أن ابن عذراء يولد من الروح القدس بطريقة لا يمكن وصفها ، كان مخلوقا لا مثيل أو شبيه له ، يسمو عن أبناء آدم في كل صفة من صفات العقل والجسم ، ومنذ دخول الفلسفة اليونانية أو الكلدانية اقتنع اليهود بأن للأرواح وجودا سابقا . كما اقتنعوا بتناسخها وخلودها . وأن الله تعالى قد شاءت إرادته أن تظل هذه الأرواح حبيسة في سجونها الدنيوية لتكفر عن ذنوبها وخطاياها التي ارتكبتها في حياة سابقة . غير أن درجات النقاء والفساد تكاد لا تحصى ولا تعد . ومن الانصاف أن نفترض أن أسمى روح من بين الأرواح البشرية ، وأكثر فضيلة ، هي التي نفخت في خلف مريم والروح القدس ، وأن نزوله من السماء كان بمحض اختياره ، وأن الهدف من رسالته كان تطهير ذنوب العالم لا ذنوبه هو . وعند رجوعه الى موطنه في السموات تلقى الثواب الأعظم على خضوعه ، وهو مملكة المسيح الخالدة الى الأبد ، التي كان الأنبياء قد تنبأوا بها في شيء من الغموض ، وصوروها في صورة حسية يتمثل فيها السلام ، والفز ، والسيطرة .

واستطاعت قدرة الله على كل شيء أن توسع مواهب المسيح البشرية الى مدى مكانته السماوية ، وفي لفة الأقدمين ، لم ينحصر لقب الله انحصارا شديدا في الآب الأول ، وحق لرسوله الذي لا شبيه له وهو ابنه الوحيد ، أن يطلب الى العالم الأدنى ، دون غطيرة أو زهو ، أن يقدم له العبادة الدينية ، وأن تكن عبادة ثانوية .

الغنوصيون

٢ - نبت بنور الايمان رويدا رويدا في التربة الصخرية الجاحدة لبلاد اليهودية Judea ، ثم انتقلت في كامل نضجها الى أجواء الأميين الأكثر هناء وصفاء ، وكان الغريباء عن المسيحية من سكان روما وآسيا ، الذين لم تقع ابصارهم قط على المسيح وهو في دور رجولته ، أكثر نزوعا الى الايمان بالوهميته . وكان المشرك والفيلسوف ، واليوناني والمتبربر ، قد درجوا ، سواء بسواء على تصور سلسلة لا نهاية لها وتعاقب طويل ، من ملائكة ، أو أرواح ، أو آلهة ، أو قوى منبعثة من الآلهة أو انبشاقات منبعثة من عرش النور . ولم يكن بالشيء الغريب ، أو الذي لا يصدق ، أن أول هذه القوى ، وهو اللوجوس ، كلمة الله الذي هو من نفس جوهر الآب ، ينزل الى الأرض ليخلص أبناء البشر من الرذيلة والخطيئة ،

وليرشدكم الى طرق الحياة والخلود . غير أن العقيدة البسائية عن أبدية المادة والفساد الكامن فيها . أصابت بعدواها كنائس المشرق الأولى ، فقد رفض الكثيرون من بين المهتدين الأميين أن يؤمنوا بأن روحا سماوية ، وجزءا لا يتجزأ من الجوهر الأول ، قد اتحد اتحادا شخصيا مع كتلة من الجسد المدنس الملوث ، وفي غمرة حماسهم لاثوهمية المسيح أنكروا بشريته بدافع من الورع والتقوى وبينما كان دمه لا يزال حديث العهد على جبل الجلجثة الذي صلب عليه المسيح ابتدعت طائفة الدوكيت (١) Docetes (أى طائفة الخياليين) وهي طائفة متمسكة كبيرة العدد من الاسيويين ، عقيدة الوهم التي انتشرت بعد ذلك على أيدي أتباع ماركيون (٢) ، وأتباع ماني (٣) ، وطوائف الهرطقة الغنوصية الأخرى . وقد أنكروا جميعا صحة الأناجيل وصدقها فيما يختص بروايتها لحمل مريم ، ومولد المسيح ، والثلاثين سنة التي سبقت ممارسته لرسالته . وقالوا ان المسيح ظهر أول ما ظهر على ضفاف نهر الاردن في صورة الرجولة الكاملة ، ولكنها كانت صورة فقط دون أن تكون مادة ، وشكلا بشريا خلقته يد الله التقادر على كل شيء ليقبله قدرات الانسان وأعماله ، ليفرض وهما دائما على حواس اصدقائه وأعدائه . وكانت الأصوات الواضحة تتذبذب على أذان تلاميذه ، غير أن الصورة التي انطبعت على أبصارهم استطاعت أن تتملص من الدليل الأقوى وهو دليل اللمس ، وتمتعوا بوجود ابن الله بروحه لا بجسده . وضاع غضب اليهود دون جدوى ضد طيف لا يتأثر ولا يتألم ، وتمثلت المشاهد الفاضحة المتعلقة بالأم المسيح وموته ، وقيامته وصعوده ، على مسرح اورشليم لمصلحة بنى البشر . وإذا قيل ان مثل هذا التقليد الكامل ، والخداع المستمر لم يكن لا ثقا برب الحق ، فإن الدوكيت وافقوا الكثيرين من اخوانهم الأرثوذكس على تبرير هذا الزيف الصالح الورع . وفي عقيدة الغنوصيين ، يعتبر يهوه Jehovah ، اله اسرائيل ، وخالق هذا العالم الأدنى ، روحا متوردة ، أو على الأقل جاهلة ، وقد نزل ابن الله الى الأرض للقضاء على هيكله وشريعته ، ولكي يحقق هذه الغاية السليمة . نقل الى شخصه في براعة نبوة مسيح دنيوى والأمل الذي كان معقودا عليه .

(١) طائفة من الهرطقة في القرن الثاني الميلادى أنكرت بشرية المسيح . وقالت ان جسده كان مجرد صورة ، وأنه عاش وتآلم في الظاهر فقط .
 (٢) ماركيون من أهل سينوب . مات في سنة ١٦٥ م .
 (٣) ماني من أهل اكباتانا (٢١٥ - ٢٧٦ م) . وكان يقول بأن كل شيء انبثق من النور والظلام ، أو الخير والشر .

وثمة واحد من أنخبث مجادلي مدرسة ماني أشبار في الهاج الى
 ما هنالك من خطر ومجافاة لليساقة في الاعتقاد بأن اله المسيحيين خرج
 من رحم امرأة في شكل جنين بشرى بعد انقضاء تسعة شهور ، فأصاب هذا
 المجادل خصومه بفزع منبعت من ورعهم وتقواهم ، فدفعهم ذلك الى انكار
 أية ظروف حسية تتعلق بالحمل والولادة ، والى التأكيد بأن اله اخترق
 مريم كما يخترق شعاع من أشعة الشمس لوحا من الزجاج . وأن بكارتها
 ظلت كما كانت حتى في اللحظة التي أصبحت فيها أم المسيح . غير أن
 هذا التسليم المتدفع من جانبهم شجع طائفة الهوكيت على اتخاذ موقف
 أكثر ملاينة ورقة ، فقالوا ان المسيح لم يكن طيفا ، بل انه كان مغطى
 بجسم لا يتأثر بشيء ولا يعترية الفساد . وفي الحق أن المسيح ، في رأى
 العقيدة الأرثوذكسية الأكثر صحة ، قد اكتسب هذه الصفة منذ بعثه ،
 ولا بد أنه كان يتصف بها دائما ، ما دام أنها استطاعت أن تخترق كثافة
 المادة الوسيطة دون أن تلقى مقاومة أو تسبب ضررا . وبما أن جسم
 المسيح هذا كان خلوا من أهم خصائص الجسد ، فمن الممكن أن يستثنى
 من صفات الجسد وعمله . فالجنين الذي استطاع أن يتطور من نقطة غير
 مرئية الى حالة النضج المكتمل ، والطفل الذي استطاع النمو حتى بلغ قوام
 الرجولة الكاملة دون أن يستمد أى غذاء من المواد العادية ، يمكن أن يبقى
 حيا دون أن يعوض عن شيء يفقده يوميا بمادة خارجية يتناولها كل يوم .
 وقد استطاع يسوع أن يشترك في وجبات تلاميذه دون أن يشعر بمغشش
 أو جوع ، ولم يتلوث ظهره العذرى مطلقا بأرجاس الشهوة الحسية .
 وهذا الجسم المفرد في تكوينه انما يثير سؤالا عن الكيفية التي شكل بها
 في الأصل وعن المادة التي صنع منها ، وهنا يفاجأ لاهوتنا الأكثر صحة
 بجواب لم يكن مستغربا على الفنوصيين ، وهو أن الشكل والمادة هما من
 الجوهر الالهى . وفكرة الروح النقية الخالصة المطلقة هي فكرة جذبتها
 الفلسفة الحديثة ، فالجوهر اللامادى الذي نسبه الأقدمون الى النفوس
 البشرية ، والمخلوقات السماوية ، بل والى الله نفسه ، لا يستبعد فكرة
 القضاء الممتد ، وقنع خيالهم بأن الهواء أو النار ، أو الأثير ، طبيعة غامضة
 أكثر كمالا بما لا يقاس من خشونة العالم المادى . وإذا حددنا مكان الله
 فلا بد من أن نصف شكله ، وتصور تجربتنا وربما غرورنا ، قدرات العقل
 والفضيلة وهى متمثلة فى كيان بشرى . وقد استطاع الكثيرون من أولئك
 الذين صوروا اله فى صورة الانسان ، والذين كثر عددهم بين رهبان
 مصر وكاثوليك أفريقيا ، أن يجيئوا بالقول الصريح الذى ورد فى الانجيل
 من أن الانسان صنع على صورة خالقه . وقد تخلى سيرابيون الميجل ، وهو
 من قديسى صحراء النطرون ، عن تحيزه العزيز عليه ، وهو يذرف الدمع

كالطفل على تغييره التمس لمعتقده ، ذلك التغيير سلبه ربه ، وترك عقله دون شئ مرئى يؤمن به ويعبده .

النظريات المضادة التى قال بها كرينثوس وابوللينارس

٣ - هكذا كانت الخيالات السريعة العابرة التى تراءت لطائفة الدوكيت . وهناك فرض أكثر قربا الى الحقيقة ، وإن كان أقل بساطة من تلك الخيالات ، ابتدعه كرينثوس (١) الآسيوى ، والذي تجاسر على معارضة آخر الحواريين ، وقد عاش ذلك الرجل على تخوم عالم اليهود والأميين ، وعمل جاحدا على التوفيق بين الأيونيين والغنوصيين ، فاعترف لمسيحهم نفسه بأن الانسان والاله قد اتحدا فى شخصه اتحادا خارقا للطبيعة ، وقد اعتنق هذه العقيدة الغامضة بعد أن دخلت عليها تحسينات خيالية كثيرة ، كاربوكراتس ، وباسيليدس ، وفالتين ، وهم هرطقة المدرسة المصرية . وكان يسوع الناصرى فى نظرهم مجرد بشر ، وابنا شرعيا ليوسف ومريم ، ولكنه كان أفضل أبناء الجنس البشرى وأكثرهم حكمة ، وقد وقع عليه الاختيار ليكون أداة صالحة تعيد عبادة الاله الحقيقى الاسمى على الأرض . وعندما تعمد فى الأردن ، نزل المسيح ، وهو أول قوة منبعثة من الله ، وابن الله نفسه ، على يسوع فى شكل حمامة ، لكن يستقر فى عقله ويوجه أعماله خلال الفترة المحدد لأداء رسالته . وعندما سلم المسيح الانسان الى أيدي اليهود تخلى المسيح الاله ، وهو كائن خالد لا يتأثر بشئ ، عن جسمه الانسانى الأرضى ، وعاد الى عالم الأرواح . غير أننا لابد أن نتساءل فى قوة عن مبلغ العدالة والكرم فى هذا التخلي ، كما أن المصير الذى لقيه شهيد برى دفعه رفيقه الالهى الى العمل فى بادئ الأمر ، ثم تخلى عنه فى نهاية المطاف ، هذا المصير أثار رؤساء الدينيين وسخطهم . وأسكت ثمرهم ، بصورة مختلفة ، أبناء الطوائف التى اعتنقت وعدلت المذهب المزوج الذى وضعه كرينثوس . وقالوا ان يسوع ، عندما ثبت بالمسامير على الصليب ، منح عقله وجسمه قدرة معجزة على عدم

(١) تقابل القديس يوحنا وكرينثوس مصادفة فى حمام عام بمدينة افسسوس . غير أن الحوارى يوحنا هرب من الهرطوقى كرينثوس لثلا ينهار عليهما البناء ، وهذه القصة السخيفة ، التى نبذها دكتور مدلتون ، يقصها رغم ذلك ايريناوس مستشهدا بما قاله بوليكارب Polycarp ، وربما كانت هذه القصة ملائمة لعصر كرينثوس والمكان الذى وجد فيه .

التأثر جعلته لا يحس بالآلام الظاهرة ، وأكدوا أن هذه الآلام المؤقتة ، مع أنها آلام حقيقية ، سوف يثاب عليها ثوابا كثيرا بحكم زمني قدره ألف عام خصص للمسيح في مملكة اورشليم الجديدة ، ولحقوا الى أنه اذا كان قد تألم وتعذب ، فإنه استحق العذاب ، وأن الطبيعة الانسانية لا يمكن أن تنال الكمال المطلق ، وأن الصليب والألم قد يكفرون عن الذنوب العريضة التي ارتكبها ابن يوسف قبل انجاهه الغامض مع ابن الله .

٤ - كل اولئك الذين يؤمنون بلامادية الروح ، وهي عقيدة جميلة نبيلة ، لابد أن يعترفوا ، من تجربتهم الحالية بأن اتحاد العقل والمادة شيء يندق على الفهم . واتحاد من هذا النوع لا يتعارض مع المواهب العقلية الأكثر سموا ، بل مع أسس المواهب العقلية ، وتجسد قوة منبعثة من الله أو من ملك من كبار الملائكة ، وهو الذي يصير أكثر الأرواح المخلوقة كمالات ، لا يتضمن أى تناقض أكيد . وفي عصر الحرية الدينية الذي قرره مجلس نيقيا الكنسي ، كانت كرامة المسيح تقاس بمقياس الحكم الخاص بناء على قانون الانجيل المطلق ، أو العقل ، أو العرف والتقليد . ولكنه عندما نوطدت الوهية الخالصة الحقيقية على أنقاض الآريوسية ، اهتز ايمان الكاثوليك على حافة هاوية حيث كان النكوص مستحيلا ، والبقاء خطيرا ، والسقوط مخيفا مريعا . وازدادت متاعب عقيدتهم الكثيرة من جراء سمو طابع لاهوتهم . وترددوا في القول بأن الله نفسه ، وهو الاقنوم الثاني من بين ثلاثة أقانيم متساوية ومتحدة في الجوهر ، ظهر في الجسد ، وأن كائنا يوجد في كل مكان من الكون قد انحصر في رحم مريم ، وأن بقاءه الخالد الأبدى كان يقاس بأيام وشهور وسنين من الوجود الانساني ، وأن القادر على كل شيء جلد بالسوط وصلب ، وأن جوهره الذي لا ينفذ اليه الألم شعر بالآلم والمغاب وأن علمه بكل شيء لم يكن خلوا من الجهل ، وأن منبع الحياة والخلود مات على جبل الجلجثة . وهذه النتائج المزعجة ثبتتها ببساطة صفاقة ابولليناريس ، أسقف لاوديكية (اللاذقية) ، واحد أئمة الكنيسة . وكان ابن أحد علماء النحوي ، وبرع في كل علوم اليونان ، وخصص لخدمة الدين في تواضع ، فصاحته ولودعيته وفلسفته التي برزت في مؤلفاته . وكان صديقا لاثناسيوس جديرا بصداقته ، وخصما لجولييان جديرا بخصومته . وصارع أتباع آريوس والمشركين في جراحة وبسالة ، ومع أنه اصطنع صرامة التبدليل الهندسي ، إلا أن تعليقاته أظهرت تشربه بروح الانجيل في حرفيتها ومجازاتها . وثمة سر غامض ظل مفتقرا الى الوضوح في عقيدة الشعب استطاع ابولليناريس بمنابرته العنيدة أن يحلده في صيغة فنية ، فكان أول من صرح بالكلمات المشهودة : « ان للمسيح طبيعة متجسدة واحدة » ، وهي كلمات ما تزال ترددها أصوات

صاحبة عدائية في كنائس آسيا ومصر وأثيوبيا ونادى بأن اللاهوت اتحد أو امتزج بجسم بشري ، وأن اللوجوس ، وهو الحكمة الأبدية ، حل في الجسد مكان النفس البشرية وقام بوظيفتها . ورغم ذلك فإن أبولليناريس ، شأنه شأن الطبيب الذي انزعج لتهوره هو نفسه ، قد سمح وهو يتمتع ببعض عبارات الاعتذار والتفسير الخافتة . فسلم بالتمييز القديم الذي قال به فلاسفة اليونان بين نفس الانسان العاقلة ونفسه الحساسة حتى يستطيع تخصيص اللوجوس للوظائف العقلية ، واستخدام الصفة البشرية الأدنى مرتبة في أعمال الحياة الحيوانية الأقل قيمة . وأقر بما أقر به أبناء طائفة الدوكيت المتدلون من تبجيل لمريم على اعتبار أنها الأم الروحية ، لا الجسدية للمسيح ، الذي جاء جسده من السماء وكان جسما لا يتأثر بشيء ولا يعترية الفساد ، أو أن جسده استوعب في جوهر الاله أو تحول اليه . وقد لقيت عقيدة أبولليناريس مقاومة عنيفة من رجال اللاهوت الآسيويين والسوريين ، الذين شرفت مدارسهم بأسماء باسيلي ، وجريجورى ، وكريسوستوم ، وتلطخت بأسماء ديودوروس ، وتيودور ونسطور . غير أن شخص أسقف لاوديكية العجوز ، وأخلاقه ، ومكانته ، ظلت مصنونة طاهرة ، أما منافسوه ، فيما أننا لا نستطيع أن نرميهم بضعف التسامح ، فربما أدهشتهم طرافة الحجة وجدتها ، وكانوا غير واثقين من الحكم الأخير الذي سوف تصدره الكنيسة الكاثوليكية . وأخيرا جاء حكمها في صالحهم ، وأديننت هرطقة أبولليناريس ، وحظرت القوانين الرومانية اجتماعات تلاميذه المتفرقة . غير أن مبادئه ظلت مأخوذا بها سرا في أديرة مصر ، وشعر أعداؤه بكراهية توفيلوس وكيرلس ، وهما اللذان توليا منصب بطريرك الاسكندرية ، واحدا بعد الآخر .

٥ - وهكذا نبذ الاببونيون الحقراء ، وأبناء طائفة الدوكيت الخياليون ، ونسيهم الناس ، أما الكاثوليك فقد دفعهم الحماس الحديث ضد أخطاء أبولليناريس الى الموافقة الظاهرة على عقيدة الطبيعة المزدوجة التي قال بها كرينتوس . ولكن بدلا من أن يكون هناك اتفاق مؤقت عرضي ، فانهم أقروا ، ونحن مازلنا نقر ، عقيدة الاتحاد المادى ، الوثيق ، والدائم الى الأبد ، بين الاله الكامل والانسان الكامل ، بين الأبنوم الثانى من الأقانيم الثلاثة ، وبين نفس عاقلة وجسم بشرى . وفى بدء القرن الخامس كانت عقيدة وحدة الطبيعتين هي العقيدة السائدة للكنيسة . واعترفت كل الأطراف بأن طريقة وجودهما المشترك لا يمكن أن تصورهما أفكارنا أو تعبر عنها لغتنا . غير أن خلافا سريا مستمعا نشب بين أولئك الذين كانوا يشعرون بأشد الخوف من مزج ألوهية المسيح ببشريته ، وبين أولئك الذين كانوا يخافون أكثر الخوف من فصلهما . وقد دفع

الجنون الدينى كلا من الفريقين الى الهرب بسرعة مشثومة من الخطا الذى وقع فيه الفريق الآخر والذى يرى أنه يفتك أشد الفتك بالحقيقة والخلاص . وكان القائلون بالمزج والقائلون بالفصل حريصين على حماية عقيدتهم وغيورين على الدفاع عنها ، وإلى ابتداء تلك الصيغ اللفظية ، والاصطلاحات الرمزية المعبرة عن العقيدة ، التى لا تحتل إلا أقل قدر من الشك واللبس . وأغرامهم فقر الأفكار واللغة على البحث فى مجال الفن والطبيعة عن كل تشبيه ممكن ، وكان كل تشبيه من هذه التشبيهات يضلل خيالهم فى تفسير غموض لا يمكن أن يقارن بشئ آخر ، وتحت مجهر الجدل تضخم الغدة فتصيح وحشا هائلا ، ومن ثم فقد برع كل فريق فى تضخيم النتائج الباطلة أو الملحدة التى أفكن انتزاعها من مبادئ خصومه . ولكى يهرب كل فريق من الآخر ضلوا جميعا طريقهم فى أدغال مظلمة متوهة ، حتى فاجأتهم أشباح كرينتوس وأبولليناريس المخيفة ، وقد وقف هذان الرجلان يذودان عن القضايا المضادة من المتاهة اللاهوتية . وما أن شاهما الضوء الخافت المنبعث من العقل والهرطقة حتى تولاهم الفزع ، وعادوا أدراجهم ، واكتفتهم مرة ثانية ظلمة الأرثوذكس الحالية . ولكى يطهروا أنفسهم من ذنب الخطأ الملعون ، أو يتخلصوا من اللوم عليه ، أنكروا النتائج التى وصلوا إليها ، وفسروا مبادئهم ، والتمسوا العذر لحياقتهم ، ورددوا بالاجماع أصوات الوفاق والايمان . ورغم ذلك فقد كانت هناك شرارة خفية لا تزال مختبئة بين جمرات الخصومة ، فأشعلتها سريما أنفاس التحيز والهوى حتى غدت لهيبا عاتيا ، وهزت النزاعات الشفوية التى احتدمت بين البطوائف الشرقية أعمدة الكنيسة والدولة .

كيرلس ، ونسطور ، ومجانس افيسوس الكنسية الأولى

اشتهر اسم كيرلس السكندري فى قصة الجدل الدينى ، ويعتبر لقب « القديس » الذى لقب به دليلا على أن آراءه وفريقه كتبت لهم الغلبة فى نهاية الأمر . وقد تشرب فى منزل عمه ، رئيس الأساقفة توفيلوس ، دروس الغيرة والسيطرة الأرثوذكسية ، وقضى خمس سنوات من شبابه بصورة مجدية فى أديرة صحراء النطرون المجاورة حيث انكب على الدراسات الدينية بحماس لا يعرف الكلل ، وتحت توجيه الأب سيرابيون ، حتى انه فى لياة واحدة قضاه ساهرا استوعب الأناجيل الأربعة ، والرسائل الكاثوليكية ، والرسالة الى الرومان . وكان يمتع أوريجن Origen ، غير أن كتابات كليمان وديونيسيوس ، وأثناسيوس ، وباسيلي ، كانت لا تفارقه ، وحقق الجدل ، نظرية وممارسة ، وبذلك أليت

إيمانه ، ولج ذكاؤه . ونثر في صومعته كتب اللاهوت العريضة التي ترك عليها الزمن آثاره ، وأمعن فكره في قراءة كتب القصص الرمزي والميتافيزيكا التي ما تزال بقاياها محفوظة في سبع مجلدات مطولة ، ترقد في هدوءه الى جوار مثيلاتها . وكان كيرلس يؤدي الصلاة والصيام خلال اقامته في الصحراء ، غير أن أفكاره (وهذا تقرير من صديق له) ظلت عالقة بالدنيا ، وعندما استدعاه توفيلوس الى جلبة المدن والمجامع الدينية بادر الناسك الطموح الى استجابة تلك الدعوة . وشجعه عليه على تقلد منصب واعظ الشعب ، ونال في ذلك الميدان صيتا وشهرة . وازدان المنبر بشخصه الفخم المهيّب ، ودوى صوته العذب الرخيم في أرجاء الكاتدرائية ، وكان اصداقاؤه يجلسون هنا وهناك ليكونوا في مقدمة المصفيق من بين المجتمعين ، أو لتأييد التهليل والتصفيق لهم . ودون الكتبة مذكرات سريعة لأحاديثه ومواظله التي يمكن مقارنتها ، من حيث أثرها لا من حيث أسلوبها ، بتلك التي كان يلقيها خطبائه أثينا . وقد اشتهرت بموت توفيلوس آمال ابن أخيه وتحققت ، وانقسم رجال الدين في الاسكندرية حول المرشح لذلك المنصب ، وأيد الجنود وقائدهم مطالب رئيس الشمامسة ، غير أن الجماهير التي لا تقاوم انتصرت لقضية كيرلس المحبب اليهم ، واستخدمت في ذلك التأييد أصواتها وأيديها ، وبعد فترة قدرها تسع وثلاثون سنة جلس كيرلس على عرش اثناسيوس .

ولامت هذه المكافاة اطماع كيرلس . وكان بطريرك الاسكندرية ، كما أصبح يلقب الآن ، قد استغل بعده عن البلاط الامبراطوري ، ورئاسته لعاصمة ضخمة ، فاجتصب شيئا فشيئا مكانة حاكم مدني وسلطته ، وتصرف ببعض ارادته في صدقات المدينة العامة والخاصة ، وكان صوته يلهم مشاعر الجماهير أو يهدئها ، كما أن أتباعه المتعصبين الكثيري العدد من البارابولاني (١) ، الذين ألفوا في عملهم اليومي مشاهد الموت ، كانوا يطيعون أوامر طاعة عمياء ، وكانت السلطة الزمنية التي تمتع بها هؤلاء الاحبار المسيحيون تخيف ولاية مضر أو تثير غضبهم ، واشتد حماس كيرلس الى اضطهاد الهرطقة ، ووفق في بدء عهده الى التنكيل بأتباع نوفاشيانوس ، وهم أكثر أبناء الطوائف البراءة وبملاء عن الأذى . وبدا تحريم عبادتهم في نظره عملا عادلا جديرا بالثناء ، فصادر أوانيهم المقدسة دون أن يخشى ذنب تدليس الأماكن الدينية . أما اليهود ، الذين تضاعف عددهم الى اربعمائة ألفا ، فقد كان التسامح معهم ، بل وامتيازاتهم ، أمرا كفلته قوانين

(١) نحلانيون كانوا يساعدون رجال الدين في الكنائس الشرقية في الاشراف على

المرضى .

القياصرة والبطالة ، وإقامة طويلة قدرها سبعمائة سنة ، منذ تأسيس الاسكندرية . غير أن البطريك ، دون أى حكم قانونى ، ودون أى تفويض ملكى ، قاد جمهورا متمردا مثيرا للفتنة فى فجر أحد الأيام لهاجة معايدهم . وعجز اليهود عن المقاومة وهم عزل لم يأخذوا بالامر عدته ، فهضمت أماكن عبادتهم وسويت بالأرض ، وبعد أن كافأ المحارب الأسقى أفراد قواته بأن سمح لهم بنهب بضائع اليهود ، طرد من المدينة من تبقى من أبناء الشعب الكافر . وربما برر هذا العمل بأنهم كانوا مسفين فى النراء ، وبكراهيتهم الميثة للمسيحيين الذين سفكوا دمهم منذ عهد قريب فى اضطراب خبيث كان مدبرا ، أو حدث مصادفة . وكانت مثل هذه الجرائم التى ارتكبتها كيرلس تستحق لوم الحاكم وتقريعه ، غير أنه فى هذا الاضطراب العنيف ، الذى اختلط فيه الحابل بالنابل ، ضاع البرى مع المذنب ، وأصاب الفقر مدينة الاسكندرية بفقدانها جالية ثرية مجدة . وتعرض كيرلس من جراء حماسه هذا الى قصاص القانون الجولياني ، غير أن الحكومة الضعفية والعصر المتسم بالخرافة جعلاه فى مأمن من العقاب ، بل وضمن له المدح والإطراء . وقد شككا أورستيس ، حاكم مصر ، غير أن شكواه العادلة لم تقابل من وزراء ثيودوسيوس الا بالنسيان السريع ، ولكن الأسقف وضع تلك الشكاوى فى أصاقل ذاكرته ، ومع أنه تظاهر بالصفع عن الوالى الا أنه ظل يضمر له المقت والكراهية . فعندما كانت عربته تخترق الشوارع هاجمها فريق مكون من خمسمائة راهب من رهبان صحراء النطرون ، فهرب حراسه أمام وحوش الصحراء هؤلاء ، وقوبلت احتجاجاته بأنه مسيحي وكاثوليكي بسيل من الأحجار ، فسالت الدماء من وجهه ، وسارع مواطنو الاسكندرية المخلصون إلى تجذته ، واستطاع أن يشبع عدالته وانتقامه على الفور ضد الراهب الذى جرحه ، ووقع أمونيوس قتيلًا بعضى الجلاد . فما كان من كيرلس الا أن أمر برفع جثته من الأرض ، ونقلها فى موكب مهيب الى الكاتدرائية ، ثم غير اسمه الى توماسيوس « المنهل » ، وزين قبره بنصب الاستشهاد ، ثم ارتقى البطريك منبر الكاتدرائية ليشهد بشهادة راهب ثائر وقاتل . وكانت مثل هذه الامجاد كفيفة بدفع المؤمنين الى القتال والموت تحت أعلام القديس ، وسرعان ما شجع الناس على التضحية بعذراء اعتنقت ديانة اليونان ونالت صداقة أورستيس ، أو قل ان هذه التضحية صادفت منه قبولا . ذلك أنه كانت هناك فتاة اسمها هيباشيا Hypatia ، ابنة العالم الرياضى ثيون Theon وقد حذقت دراسات أيبها ، وشرحت بتعليقاتها اللوغية هندسة أبولونيوس وديوفانتوس ، وكانت تدرس علانية ، فى أثينا والاسكندرية ، فلسفة أفلاطون وأرسطو . ورغم أن هذه العذراء المتواضعة كانت بارعة الجمال ، ناضجة الحكمة ، الا أنها رفضت عشاقها

وعلمت تلاميذها ، وتلف أشهر الناس مقاما وجدارة على زيادة تلك
الفيلسوفة ، وكان كيرلس يشاهد بين الحقد والحسد ذلك الرجل الفخم
من الجياد والعبيد الذين اصطفوا على باب أكاديميتها . وسرت أشاعة بين
المسيحيين تقول بأن ابنة ثيون هي العقبة الوحيدة في طريق التوفيق بين
الوالى ورئيس الأساقفة ، وفي يوم مشنوم من فصل الصيف الكبير المقدس ،
انترعت هيپاشيا من عربتها ، وجردت من ملابسها ، وجذبت الى الكنيسة
حيث ذبحت كالشاة بيد قارى الصلوات ، بطرس ، وفريق من المتعصبين
المتوحشين قساة القلوب . ثم انتزع لحمها من عظامها بقشور المحار ،
والقيت اطرافها المرتعدة في لهيب النار . وأوقف البطريرك سير التحقيق
والعقاب العادل بالهدايا المناسبة ؛ غير أن قتل هيپاشيا وحسم أخلاق كيرلس
السكندرى وديانته بوصمة ناز لا تزول ولا تمحى .

ومن الجائز أن تكفر الخرافة عن دم عذراء بصورة أكثر رقة من
تكفيرها عن نفي قديس ، وكان كيرلس ، فيما مضى قد صحب عمه الى مجمع
« البيلوط » الجائز الظالم . وعندما أعيدت ذكرى كريستوسستم وحظيت
بالتقديس ، ظل ابن شقيق توفيلوس ، على رأس حزب منقرض ، متمسكا
بعدالة الحكم الذى كان قد صدر ضده ، ولم يذعن لرغبة العالم الكاثوليكي
الا بعد مباحلة متعبة ومقاومة عنيدة . ولم تكن عداوته لأخبار بيزنطة نزوة
من نزوات الهوى ، بل احساسا بالصلحة ، فكان يغبطهم على مركزهم
السعيد فى أضواء البلاط الامبراطورى ، وكان يخشى أطباعهم الحديثة
التي جاءت على عواصم أوربا وآسيا ، وغزت ولايات أنطاكيا والامكندرية ،
وجعلتهم يتطلعون الى أن تكون حدود الامبراطورية مقياسا لاتساع مجالهم
الاسقفى . وتوقفت عداوات البطارقة الشرقيين بفضل الاعتدال الطويل
الأمم الذى أظهره أنيكوس ، المختصم الرقيق لعرش كريستوسستم . غير
أن كيرلس استيقظ فى نهاية الأمر بتأثير الرفع التى نالها منافس أجدر
بتقدمه وبكراهيته . ذلك أنه بعد عهد قصير تولى فيه سيسينيوس
أسقفية القسطنطينية ، هدأت ثائرة أحزاب رجال الدين والشعب بعد أن
وقع اختيار الامبراطور فى هذه المناسبة على رجل غريب ليكون أسقفا ، وقد
دفعه الى هذا الاختيار ذبوع شهرته وما اتصف به من فضل وجدارة . ذلك
الرجل هو نسطور ، من أهل جرمانيكيا وأحد رهبان أنطاكيا ، وقد زكته
لهذا المنصب خشونة حياته وقصاحة عقائده الدينية ، غير أن أول عظة
ألقاها أمام الامبراطور الروع ثيودوسيوس نبئت عن احساسه الخاد الذى
لا يتراعى ولا يصبر . وقد قال فى تلك العظة : « أعطنى الأرض أينما
القيصر ! وقد ظهرت من الهراطقة ، ونوف أعطيك فى مقابل ذلك مملكة
انساء . استاصل معى شاة الهراطقة ، وسوف أقضى معك على الفرس » .

وفي اليوم الخامس . وكان المعاهدة قد وقعت ، اكتشف بطريك القسطنطينية اجتماعا دينيا سريا لاتباع آريوس ، فهاجمهم ، ولكنهم فضلوا الموت على الخضوع ، وأشعلوا النار بدافع اليأس في مكان الاجتماع ، وسرعان ما امتدت النار الى المنازل المجاورة . وخيم على انتصار نسطور اسم « خالق الفتن » . ولقد فرضت قوته الأسقفية على جانبي الدردنيل تعليمات صارمة مشددة تتعلق بالعقيدة والنظام - وكان أي خطأ في الترتيب التاريخي فيما يختص بعيد القيامة يعاقب عليه مرتكبه على اعتبار أنه جريمة ضد الكنيسة والفولة . وقد ظهرت مدن ليديا وكاريا ، وساردس وميليتوس بسماء « الكوارتودسيمان » Quartodecimans (١)، المتشبهين (الذين احتفلوا بعيد القيامة في اليوم الرابع عشر من شهر نيسان) . وقد اشتمل مرسوم الامبراطور ، أو قل مرسوم البطريك ، على ثلاث وعشرين درجة وتسمية لذنوب الهرطقة وعقابه . غير أن مسيف الاضطهاد الذي استخدمه نسطور يمثل هذه الوحشية سرعان ما ارتد الى صدره ، وكانت الديانة هي العذر الظاهري الذي ادعاه الأسقف لتبرير هذه الحرب الدينية ، غير أن الطمع هو الذي كان الدافع الحقيقي لتلك الحرب ، كما قرر أحد رجال الدين الصالحين في ذلك العصر .

وقد تعلم نسطور في مدرسة الفكر السورية أن يمقت عقيدة امتزاج الطبيعتين ، وأن يفرق بدقة بين بشرية سيده المسيح وبين ألوهية الرب يسوع . وكان يبجل ويقدر العذراء المباركة على أنها أم المسيح ، غير أنه كان يستاء لسماع اللقب الحديث الطائش ، أم الله ، الذي أطلق عليها بصورة غير محسوسة منذ بدء النزاع الآريوسي . ومن فوق القسطنطينية ، أخذ أحد أصدقاء البطريك ، ثم البطريك نفسه ، يهاجم في عظاته المرة بعد الأخرى استعمال ، أو أساءة استعمال كلمة أم الله التي لم يعرفها الخواريون ، ولم تقرها الكنيسة ، وهي كلمة تزعم المتخوفين ، وتضلل البسطاء ، ويتسلل بها الكفار ، وتبرر تسلسل النسب القديم الى اولمبيوس ، بطريق التشابه الظاهري . وكان نسطور ، في لحظاته الأكثر هدوءا ، يعترف بأن هذه الكلمة يمكن النسامع فيها أو التجاوز عنها باتحاد الطبيعتين الالهية والبشرية واختلاط لفظيهما ، غير أنه التناقض في هذا الأمر كان يثيره ويدفعه الى التنصل من عبادة وليد حديث ، واله طفل ، والى أخذ تشبيهاته غير المناسبة من المشاركات المدنية ومشاركات الزواج

(١) أولئك الذين كانوا يحتفلون بعيد القيامة في الرابع عشر من شهر نيسان دون اعتبار ليوم الأسبوع . وكانت الكنائس الغربية تحتفل به في يوم الأحد الثال لليوم الرابع عشر بمقتضى قرار مجمع نيقيا (٣٢٥ م) - (الترجمة) .

التي تحدث في الحياة ، والى وصف رجولة المسيح بأنها رداء الوهيته ، وأداتها ، ومظلتها . وقد اهتزت لهذه الأصوات الكافرة أعمدة الكنيسة ، وانغمس منافسوه الفاسشلون في سخطهم الدينى أو الشخصى ، واستاء قساوسة بيزنطة فى دخيلة أنفسهم من تطفل رجل غريب عنهم ، ولقى كل ما كان خرافة أو حمقا تأييد الرهبان وحمايتهم ، وانصرف اهتمام الشعب الى مجد سيدتهم العذراء . وكانت عظات رئيس الأساقفة والطقوس الدينية أمام المذبح ، تقابل بالصخب المنير للفتنة ، كما أن محافل دينية مختلفة نبذت سلطته وعقيدته ، وكانت كل ريح تنشر حول الامبراطورية أوراق النزاع والخصومة ، وترددت أصدااء صوت المتخاصمين المتجادلين على ذلك المنسرح الصاخب فى صوامع رهبان فلسطين ومصر . وكان من واجب كيرلس أن يثقف حماس رهبانه العديدين وينير جهلهم . وكان فى مدرسة الاسكندرية قد تشرب عقيدة تجسد طبيعة واحدة واعتنقها ، ومن ثم فإن خليفة أثناسيوس استلهم كبريائه وطموحه عندما هب للقتال ضد أريوس آخر ، هو أعظم قوة وأشد اجراما من أريوس نفسه ، وهو نسطور المتربع على العرش الثانى للحكم الكنسى . وبعد مراسلة قصيرة أخفى فيها الأسقفان المتنافسان كراهيتهما فى لغة الاحترام والمحبة الجوفاء ، وكشف بطريرك الاسكندرية للحاكم والشعب ، وللشرق والغرب ، عن الأخطاء الملحونة التى ارتكبها الجبر البيزنطى . وقد تلقى من الشرق ، وخاصة من أنطاكيا ، نصائح مبهمة تدعو الى التسامح والصمت وجهت الى الطرفين المتنازعين مع أنها تميل الى جانب قضية نسطور . غير أن الفاتيكان فتح ذراعيه لمرسل مصر ، وأرضى النداء غرور البابا الرومانى سلسطين ، Celestine كما أن الترجمة المفرغة التى قام بها أحد الرهبان جددت عقيدة البابا ، وكان هو والقساوسة اللاتين يجهلون لغة اليونان وفنونهم ولاهوتهم . فرأس سلسطين مجما إيطاليا ، وبحث حقائق القضية ، ووافق على عقيدة كيرلس ، وأدان شخص نسطور ومشاعره ، وأنزل الهرطوقى من منصبه الأسقفى ، ومنحه مهلة عشرة أيام للتوبة وسحب أقواله ، وخول لعدوه تنفيذ هذا الحكم الطائش غير القانونى . غير أن بطريرك الاسكندرية ، مع أنه أطلق رعود اله ، الا أنه كشف عن أخطاء انسان وأهوائه ، وما تزال لعناته الاثنتا عشرة تعذب الأرقاء الأرثوذكس الذين يقدسون ذكرى قديس دون أن يخسروا ولاءهم لمجمع خلقدونية . وهذه التأكيدات الجريئة مخضبة بالوان هرطقة أبولليناريس التى لا تمحى ، غير أن المعتقدات الخطيرة ، وربما الصادقة ، التى قال بها نسطور قد أرضت رجال لاهوت العصور الحالية الأكثر حكمة والأقل تحيزا .

غير أنه لا الامبراطور ولا أسقف الشرق كانا على استعداد لطاعة أمر كاهن إيطالي ، وأصبح المطلوب بالاجتماع أن يجتمع مجلس كنسي للكنيسة الكاثوليكية ، أو قل الكنيسة اليونانية ، على أساس أن ذلك هو العلاج الوحيد لتهدئة هذا النزاع الكنسي ، أو للفصل فيه . ووقع الاختيار على مدينة أفيسوس لتكون مكانا للاجتماع لسهولة الوصول إليها بالبحر وبالبز ، كما حدد يوم عيد العنصرة موعدا له . وأرسلت دعوات الحضور لكل عاصمة ، وعين حرس لحماية الآباء والاحاطة بهم إلى أن يفصلوا في أسرار السماء وعقيدة الأرض . وجاء نسطور كقاض ، لا كجرم ، وكان يعتمد على مكانة أساقفته ووزنهم أكثر من اعتماده على عددهم ، وكان عبيد الأشراف ، الذين أحضرهم معهم من حيايات زيوكسيبوس ، مزودين بالأسلحة وعلى استعداد لأية خدمة يؤدونها إيذاء لغيرهم أو دفاعا عن أنفسهم . غير أن خصمه كيرلس كان أقوى منه في الأسلحة التي تصيب الجسد والروح ، وقد رفض الانصياع لأمر الاستدعاء الملكي في حرفيته ، أو على الأقل في معناه ، وجاء إلى المدينة متبوعا بخمسين أسقفا مصريا ينتظرون من إيلاء بطريركهم الهام الروح القدس . وكان كيرلس قد عقد تحالفا وثيقا مع ممنون ، أسقف أفيسوس ، واستطاع هذا الرجل ، وهو رئيس أساقفة آسيا صاحب السلطة المطلقة ، أن يضمن إلى جانبه ثلاثين أو أربعين من أصوات الأساقفة ، وتدفق إلى المدينة جمهور من الفلاحين بالإضافة إلى عبيد الكنيسة ، لكي يؤيدوا ، بالصخب وبالضرب ، جدلا ميتافيزيقيا ، وأكد الناس في حماس مجده العذراء التي رقدت جثمانها داخل أسوار أفيسوس (١) وكان الأسطول الذي أقل كيرلس من الاسكندرية محملا بنفائس مصر ، وأنزل منه عددا كبيرا من البحارة ، والعبيد والمتعصبين ، الذين جندوا تحت راية القديس مرقس وأم الله . وأشاع هذا النظام العسكري رهبة وخوفا في نفوس آباء الكنيسة ، بل وفي نفوس الحراس ، أما خصوم كيرلس ومريم فقد أمينوا في الطرقات ، أو هددوا في بيوتهم ، وتضاعف عدد أنصار كيرلس كل يوم بفضل فصاحته وسخائه ، وسرعان ما قلب الأسقف المصري أنه يضمن حضور مائتي أسقف وأصواتهم ، غير أن مؤلف اللعنات الاثنتي عشرة أدرك مقدما معارضة يوحنا أسقف أنطاكية ، وكان يحصب حسابها ويخشها . وكان ذلك الأسقف يتقدم في بطة من عاصمة الشرق البعيدة ومعه حاشية صغيرة

(١) كان مسيحيو القرون الأربعة الأولى يجهلون موت مريم ودفنها . ويؤكد المجمع الرواية المتعلقة بمدينة أفيسوس ، ومع ذلك فقد طغى عليها ادعاء اورشليم ، كما أن ضريحها الفاخر ، كما رأه الحجاج ، أوجد قصة بنتها وصعودها إلى السماء ، وهي القصة التي اعترفت بها الكنائس اليونانية واللاتينية .

محترمة من المطارنة ورجال الدين . وفقد صبر كيرلس لهذا التأخير الذي وصفه بأنه تأخير متعمد يستحق اللوم ، فما كان منه الا أن أعلن افتتاح المجلس بعد ستة عشر يوما من عيد العنصرة . أما نسطور ، الذي اعتمد على قرب وصول أصدقائه الشرقيين ، فقد أصر كما سبق أن أصر سلفه كريسوستوم على اغفال قضاء خصومه ، وعصيان استبدعائهم . ولكنهم عجلوا بمحاكمته ، وجلس متهمه على منصة الحكم . وقد دافع عن نسطور ثمانية وستون أسقفا ، واثنيان وعشرون من رتبة المطارنة ، باعتراض متواضع معتدل ، فاستبعدوا عن مجالس اخوانهم . وطلب حاكم المدينة ، كانديان ، باسم الامبراطور ، تأجيل المجلس أربعة أيام ، فطرد ذلك الحاكم الديني من اجتماع رجال الدين بصورة تتمثل فيها الاهانة والاساءة . واستغرقت كل هذه العملية الخطيرة يوما واحدا من أيام الصيف ، وأدلى الأساقفة بأرائهم المستقلة ، غير أن تماثل أسلوبهم دل على وقوعهم تحت تأثير أو سطوة سيداتهم بشراء دليل علني يستند الى أعمالهم وتوقعاتهم . وقد أقرروا جميعا ودون أن يسمع صوت واحد بأن رسائل كيرلس تتضمن عقيدة نيقيا ومذهب آباء الكنيسة ، أما المقتطفات المفرضة التي أخذت من خطابات نسطور وخطبه ، فقد قوطعت بالشتم واللعنات ، وجردها الهرطوقي من منصبه الأسقفي والكنسي . وكتب عن هذا الحكم في خبث وحقد أنه حكم على يهوذا الجديد (الذي أسلم المسيح الى أعدائه اليهود) ، وعلق الحكم على الجدران وأعلن في طرقات أفسسوس . وعندما خرج الأساقفة المجهدون المكثرون من كنيسة أم الله ، حياهم الناس بوصف كونهم أبطال المذراء ، واحتفلوا بانتصارها بأضواء الأنوار ، وأنشاد الترانيم ، والصخب والضجيج طوال الليل .

وفي اليوم الخامس اكفهر جو ذلك النصر بوصول أساقفة الشرق وبما اظهره من غضب وسخط . وقبل أن يستريح يوحنا ، أسقف أنطاكية ، من وعشاء السفر ، استقبل في غرفته بالفندق الوزير الامبراطوري كانديان الذي قص عليه ما بذله عبثا من مجهودات لمنع الأسقف المصري من القيام بذلك العمل المتسم بالعنف والعجلة ، أو لالغاء ما حدث . وبنفس العجلة والعنف اجتمع المجلس الشرقي المكون من خمسين أسقفا ، وجرده كيرلس وممنون من مقامهما الأسقفي ، وحكم على اللعنات الاثنى عشرة بأنها السب الزعاف الذي نفثته هرطقة أبوليتاريس ، ووصف الأسقف السكندري بأنه وحش ولد وتعلم لكي يدمر الكنيسة . ويقضى عليها . وكان عرشه بعيدا ولا يمكن الوصول اليه ، فقرر أعضاء المجلس الشرقي على الفور أن يمنحوا رعية أفسسوس بركة راع مخلص أمين . غير أن ممنون استطاع بيقظته أن يوصد الكنائس في وجوههم ،

ودفع بحامية قوية الى داخل الكاتدرائية وتقدمت القوات بقيادة كانديان
لهاجمتها ، واستطاعت أن تهزم الحرس الامامى وتقتل افراده ، غير أن
المكان كان منيئا لا ينال ، فانسحب المحاصرون ، وتبعتهم حامية الكاتدرائية
بهجوم قوى فقدوا فيه جيادهم وأصيب كثير من الجنود بجروح خطيرة من
الهرات والاحجار . وهكذا لوثت أفيسوس ، مدينة العذراء ، بالهياج
والصخب ، وبالفتنة والدماء . وقذف كل من المجمعين خصمه باللعنات
وقرارات الحرم الكنسى ، ووقع بلاط ثيودوسيوس فى حيرة وارتابك من
جرا الروايات المتعارضة المتناقضة التى نقلتها الأحزاب السورية والمصرية .
وحاول الامبراطور ، خلال فترة عصيبة حافلة بالجهود قدرها ثلاثة أشهر ،
أن يسوى هذا النزاع اللاهوتى ، واستخدم فى ذلك كل وسيلة الا الوسيلة
الأكثر فعالية ، وهى الاحتقار وعدم الاكتراث . وحاول عزل الزعماء
أو تخويلهم باصدار حكم مشترك بالتبرئة أو الادانة ، ومنح ممثليه فى
أفيسوس سلطة كبيرة ، وقوة عسكرية كافية ، واستدعى من كل فريق
قمانية مندوبين منتقنين لحضور مؤتمر حر صادق صريح يعقد الى جوار
العاصمة بعيدا عن عدوى الجنون الشعبى . غير أن الشرقيين رفضوا
الاذعان ، كما أن الكاثوليك ، اعتزازا بعددهم ، وبحلفاتهم اللاتين ، رفضوا
كل شروط الاتحاد أو التسامح . وهنا نفذ صبر ثيودوسيوس ، فأمر
غاضبا بانهاء تلك الضجة الأسقفية التى انتحلت منذ ثلاثة عشر قرنا طابع
المجمع المسكونى الثالث . وقال الملك التقى : « فليشهد الله على أنى لم أكن
حالق هذا الشعب » . وهو الذى يعلم من المذهب ويوقع به القصاص .
فعودوا الى ولاياتكم ، وانا الندعو الله أن يجعل من فضائلكم الخاصة ما يعوض
عن الضرر والعار الذى أحدثه اجتماعكم » . وقد عادوا الى ولاياتهم ، غير
أن الأهواء نفسها التى ألهمت مجلس أفيسوس انتشرت فى العالم الشرقى .
وبعد ثلاث حملات عنيدة متكافئة ، تنازل يوحنا الأنطاكي وكيرلس
السكندرى بالتعانق وشرح الموقف . غير أن هذه العودة الظاهرية الى الاتحاد
لا بد أنها كانت وليدة الحزم أكثر من أن تكون وليدة التمثل والادراك
التسليم ، ولا بد أنها جاءت نتيجة شعور الطرفين بالاعياء والملل ، أكثر من
أن تكون نتيجة لمحبة المسيحية التى شعر بها البطريركان .

وكان الخبر البيزنطى قد أوغر صدر الامبراطور ضد أخلاق منافسه
المصرى ومسلكه . فأرسل اليه مع أمر الاستدعاء رسالة تهديد وقدح
اتهم فيها بأنه قانع فضولى صفيق ، أزعج بساطة الايمان ، وانتهك
سلام الكنيسة والدولة ، وأرسل خطابات مأكرة منفصلة الى زوجة
ثيودوسيوس وأخته ، طلبا منه بأن هناك فرقة فى الأسرة الامبراطورية ،
أو محاولا بذلك بذر بذور تلك الفرقة . وكان كيرلس بأمر صارم من

ملكه ، قد عاد الى اقيسوس حيث قوبل من الحاكم بالمقاومة والتهديد ، ثم حوصر هناك لمصلحة نسطور والأساقفة الشرقيين ، الذين جمعوا قوات ليديا وإيونيا لقمع حاشية البطريك المتعصبة المخلة بالنظام . غير أنه لم ينتظر إذن الامبراطور ، بل فر من حراسه ، وركب البحر على عجل تاركا المجلس المعيب ، وعاد الى معقلة الأسقفى حيث الأمان والاستقلال .

غير أن رسلة الدهاة الماكريين ، فى البلاط الامبراطورى وفى المدينة ، نجحوا فى تهدئة سخط الامبراطور وكسب حظوته . وكان ابن أركاديوس الضعيف يقع تحت تأثير زوجه وأخته مرة ، ويخضع لحصيان القصر ونسائه مرة أخرى . وكانت الخرافة والأطماع هى الاهول الغالبة على الجميع ، أما زعماء الأرثوذكس فقد حاولوا جاهدين اوهاب الزوجة والأخت ، وارضاء الحصيان والنساء . وكانت القسطنطينية وضواحيها تحمل طابع القدسية بما فيها من أديرة كثيرة ، وكان الرهبان جلاشوس ويوتيكيوس قد كرما حماسهما وولاءهما لقضية كيرلس ، وعبادة مريم ، ووحدة المسيح . وعند أول لحظة فى حياتهما الرهبانية لم يختلطا بالدنيا ، أو يضعا أقدامهما على أرض المدينة الدنسة . غير أنهما شعرا فى تلك الفترة الرهيبة التى أحرق فيها الخطر بالكنيسة بأن هناك واجبا أسمى من العهد الذى قطعاه على نفسيهما وأكثر الحاحا ، فتقدما من الدير الى القصر على رأس مسيرة طويلة من الرهبان والنسك يحملون الشموع المشتعلة فى أيديهم ، ويتشدون الصلوات لأم الله . وبعث هذا المشهد العجيب غير العادى إيمانا وحماسا فى صدور الشعب ، وامتنع الملك الواجب المرتعد الى صلوات وتضرعات القديسين الذين صرحوا فى جرأة بأن أحدا من الناس لن يأمر فى الخلاص الا اذا أعلن الولاء لشخص خليفة اثناسيوس الأرثوذكسى ، واعتنق عقيدته . وفى الوقت عينه نثر الذهب فى كل طريق يؤدى الى العرش ، فقدمت الرشوة الى رجال البلاط ونسائه ، كل واحد منهم حسب قوته وجشعه ، وأطلقت على هذه الرشوة أسماء مهذبة ، فقبل أنها اكراميات ومنح مباركة . غير أن طلباتهم التى لم تقف عند حد استنزفت معابد القسطنطينية والاسكندرية ، ولم تستطع سلطة البطريك أن تسكت التذمر الصادق الذى أبداه رجال الدين من أنهم قد اقترضوا ستين ألفا من الجنيهات للانفاق على هذا الفساد الشائن المعيب . وكانت بولكيريا التى أراحت أخاها من أعباء الامبراطورية ، أقوى عند الأرثوذكسية وبلغ التحالف بين رعود المحج وهمسات البلاط درجة من التفوق ضمنت لكيرلس الظفر والنجاح ما دام قد استطاع أن يعزل خصيا ويضع مكانه خصيا آخر يرضى عنه ثيودوسيوس . غير أن الأسقف المصرى لم يستطع أن يفاخر بنصر مجيد حاسم ، ذلك أن الامبراطور تمسك ، فى ثبات غير

مألف ، بما سبق أن وعد به من حماية لبراهمة الأساقفة الشرقيين ، وكان من أثر ذلك أن خفف كيرلس من لعناته ، واعترف في غموض واحجام بأن للمسيح طبيعة مزدوجة ، قبل أن يسمح له بأشباع انتقامه ضد النمس المنكود ، نسطور .

وقبل انتهاء المجمع أصبح الأسقف المتهور العنيد ، نسطور ، يواجه اضطهاد كيرلس ونميمة البلاط ، دون أن يلتقي الا تأييدا ضعيفا من أصدقائه الشرقيين ، ودفعه احساس بالخوف أو السخط الى التظاهر ، قبل فوات الوقت ، بأنه يبني نوال مجد التنحي عن منصبه ، وأجيب على الفور الى رغبته ، أو على الأقل الى رجائه ، ورحل مكرما عن أفيسوس الى دير القديم في أنطاكية ، وبعد فترة قصيرة ، نصب خليفته ، ماكسيميان وبروكليوس ، أسقفين شرعيين للقسطنطينية ، غير أن البطريك الذي جرد من رتبته لم يستطع أن يعود في صمت صومعته الى براة حياة الرهبنة وأمانها . فقد أسف على ماضيه ، وتذمر من حاضره ، وكان له الحق في أن يخشى مستقبله . وفصل الأساقفة الشرقيون قضيتهم عن اسمه المكروه ، واحدا بعد الآخر ، ونقص ، يوما بعد يوم ، عدد المنشقين الذين كانوا يحترمونه ويرون فيه راعي العقيدة الذي نذر نفسه لها . وبعد أن أقام أربع سنوات في أنطاكية خط ثيودوسيوس بيده مرسوما يضع نسطور في مرتبة الساحر سيمون ، ويحظر آراءه ويحرم أتباعه من حماية القانون ، ويحكم على كتاباته بالحرق ، ويقرر نفيه الى البطراء في بلاد العرب ، ثم في نهاية الأمر الى واحة في الصحراء الليبية . وظل الرجل المنفي معزولا عن الكنيسة والدنيا ، تطارده سورة التعصب الأعشى والحرب التي شنت عليه . واقتحمت عليه سجنه المنعزل قبيلة مرتحلة من البليميين أي النوبيين ، وعند انسحابهم أطلقوا سراح عدد من الأسرى الذين لا قيمة لهم ، غير أن نسطور ، ما كاد يصل الى ضفاف النيل ، حتى تمنى لو أنه هرب من مدينة رومانية أرثوذكسية الى عبودية الهمج ، وهي عبودية أهون وأقل قسوة ، واعتبر هربه جرما جديدا يعاقب عليه ، وأثار عليه البطريك سلطات مصر المدنية والدينية ، فأخذ الحكام والجنود والرهبان يعذبون ، بدافع من التقوى ، عدو المسيح وعدو القديس كيرلس . وتعرض الهرطوقي الى الدفع والجذب من مصر الى حدود أثيوبيا حتى تحطم جسمه الذي نالت منه الشيخوخة ، بفعل المحن والحوادث التي تعرض لها في هذه الرحلات المتكررة . ورغم ذلك ظل عقله مستقلا ثابتا ، ولقيت خطابات الرعوية احترام رئيس مدينة طيبة ، واعتمد به العبر بعد أن مات طاغية الاسكندرية الكاثوليكي . وبعد فترة نفى دامت ستة عشر عاما ، كان من

الجائز أن يعيده مجمع خلقدونية الى مناصب الكنيسة ، أو على الأقل الى أخوتها ، غير أن موته منعه من تلبية دعوتهم الكريمة ، كما أن المرض الذى أصيب به قد يجيز قبول الرواية المشينة التى تقول بأن لسانه الذى نطق بالكفر ، كان غذاء لديدان الأرض . ودفن نسطور فى مدينة من مدن مصر العليا اسمها خميس ، أو بانوبوليس ، أو أخميم ، غير أن ما أضمره له اليعقوبيون من حقد لا تخبو ناره جعلهم يثابرون عسورا طويلة على قذف قبره بالأحجار ، وعلى ترويع الرواية الحقاء التى تقول بأن ذلك القبر لم تروه أقطار السماء مطلقا ، وهى التى تنزل على الأبرار والأشرار سواء بسواء . وقد تذرف البشرية دمعة على مصير نسطور ، غير أن العدالة ينبغي أن تقول أنه عانى الاضطهاد الذى أجازته وسامه الناس .

هرطقة يوتيكيوس ومجلس أفسسوس الثانى

مات الأسقف الإسكندري ، بعد عهد دام اثنتين وثلاثين سنة ، وترك الكاثوليك يتمادون فى رعونة الحماس وسوء استغلال النصر ، ونادى رجال الدين فى قوة بعقيدة الطبيعة الواحدة المتجسدة ، وذلك فى كنائس مصر وأديرة الشرق . وحث قدسية كيرلس عقيدة أبوليناريوس البدائية ، وأطلق اسم يوتيكيوس ، صديق كيرلس المحترم ، على الطائفة التى عارضت أشد المعارضة هرطقة نسطور السورية . وكان منافسه يوتيكيوس رئيسا لدير يضم ثلاثمائة راهب ، غير أن آراء ذلك الناسك البسيط الأمى كان يمكن أن تتلاشى فى الصومعة التى رقد فيها أكثر من سبعين سنة لو أن حنق الحبر البيزنطى ، فلافيان ، أو نزقه ، لم يدفعه الى عرض تلك الفضيحة أمام أبصار العالم المسيحى . وذلك أنه عقد على الفور مجمعه المحلى ، وتلوثت تصرفات الأعضاء بالصخب والخدع الماكرة ، وأوقع بالهرطوقى الشيخ فيما يشبه الاعتراف بأن المسيح لم يستمد جسده من مادة العذراء مريم . وقد رفع يوتيكيوس هذا القرار المعرض الى مجلس عام ، وأيد قضيته تأييدا قويا ابنه فى المعمودية كريسافوس ، الذى كانت له السيطرة على حصيان القصر ، وشريكه ديوسكوروس الذى كان قد ورث عرش كيرلس ، ابن شقيق توفيلدوس ، كما ورث عقيدته ، ومواهبه ، ورذائله . وتضمن الأمر الخاص الذى أصدره ثيودوسيوس بمعد مجلس أفسسوس الثانى أن يتألف المجلس بصورة حكيمه عادة من عشرة مطارنة وعشرة أساقفة من

كل من الأبرشيات الست للإمبراطورية الشرقية . وبفضل بعض الاستثناءات التي دعت إليها المحاباة أو الجدارة ازداد عدد المجلس الى مائة وخمسة وثلاثين عضوا ، ودعى برسوماس السورى الى الجلوس والتصويت مع خلفاء الخواريين بوصف كونه رئيس الرهبان وممثلهم غير أن استبداد بطريرك الاسكندري سيطر مرة ثانية على حرية النقاش ، واستخدمت نفس الأسلحة الروحية والمادية المأخوذة من ترسانات مصر ، وخدم الجنود الأسيويون القدامى ، وهم فرقة من رماة السهام ، تحت أوامر ديوسكوروس ، كما أن الرهبان الأشد بأسا ، الذين لا يعرفون التعقل أو الرحمة ، حاصروا ابواب الكاتدرائية ، وقبل آباء الكنيسة عقيدة كيرلس ، بل ولعناته ، بأصوات عامة لا ضابط لها ولا كايح لجماحها ، وأدينوا بصورة رسمية هرطقة الطبيعة. ممثلة في أشخاص الأساقفة الشرقيين وكتاباتهم . وعبرت هذه الكلمات عن الرغبات الكريمة التي أبداهم مجلس كنسى مسيحي : « ان من يشطرون المسيح ليستحقون أن يشطروا بالسيف ، وتقطع أجسادهم قطعا قطعاً ويحرقوا أحياء » . وأقر المجلس دون تردد قدسية يوتيكيوس وبراءته . غير أن الأساقفة وخاصة أساقفة تراقيا وآسيا ، لم يرغبوا في عزل بطريركهم بسبب استخدامه ، أو حتى سوء استخدامه ، لقضاائه الشرعي . فما كان منهم الا أن قبلوا أقدام ديوسكوروس وهو واقف على كرسي عرشه وقد بدا عليه مظهر التهديد ، واستحلفوه أن يغفر ذنوب أخيه ، ويحترم مكانته ، فقال الطاغية الصارم : « أتريدون إثارة فتنة وتمرد ؟ أين الضباط ؟ » وعند هذه الكلمات اقتحم الكنيسة جمهور ثائر من الرهبان والجنود يحملون الهراوات والسيوف والقيود ، واختبأ الأساقفة الواجفون وراء المذبح ، أو تحت المقاعد ، ولما كانوا مفتقرين الى حماس الاستشهاد ، فقد وقعوا تباعا على أوراقي بيضاء ملئت فيما بعد ، بإدانة الحبر البيزنطي . وسلم فلافيانز على الفور الى الوحوش الضارية التي غصت بهم هذه الساحة الروحية . ودفعهم صوت برسوماس والمثل الذي ضربه ، الى الانتقام للآساءات التي وجهت الى المسيح . ويقال ان بطريرك الاسكندرية أهان أخاه أسقف القسطنطينية ، وصنعه ، وركله ، ووطنه بأقدامه . ومن المؤكد أن الأسقف الضحية مات في اليوم الثالث متأثرا بالجروح والكدمات التي أصيب بها في أفينوس ، قبل أن يصل الى منفاه . وقد استحق المجلس الكنسى الثانى أن يوصم بأنه عصابة من اللصوص والقتلة ، وأن أولئك الذين اتهموا ديوسكوروس بالغوا في تضخيم عنفه وقسوته ليخففوا من جبن مسلحهم وتذبذبه

مجلس خلقونية الكنسى

هكذا سادت عقيدة مصر ، غير أن الفريق المهزوم لقى سنداً من البابا نفسه الذى واجه دون خوف غضب أتيليا وجنيريك العدوانى • وكان لاهوت البابا ليو ، الذى ضمنه رسالته الشهيرة عن سر التجسد ، موضع اجمال مجمع أفيسوس ، وأهينت سلطته وسلطة الكنيسة اللاتينية فى أشخاص مبعوثيه ، الذين فروا من الميودية والموت ليقتصوا القصة المحزنة لطفيان ديوسكوروس أسقف الاسكندرية واستشهاد فلافيان • وقد ألقى مجمعه الاقليمى الاجراءات غير القانونية التى اتخذت فى أفيسوس ، ولكن لما كانت هذه الخطوة نفسها غير قانونية ، فقد طلب عقد مجلس عام فى ولايات إيطاليا الحرة التى تدين بالمذهب الصحيح • وكان الأسقف الرومانى لا يخشى خطراً وهو يتحدث ويعمل من فوق عرشه المستقل على اعتبار أنه هامة المسيحيين • وكتبت أوامره فى ذلة وخضوع بلاكيديا ، (ابنة ثيودوسيوس الأول) ، وابنها فالنتينيان اللذان ناشدا زملاءهما فى الشرق أن يعيدوا للكنيسة هدوها ووحدتها • غير أن العظمة الجوفاء التى اتسمت بها الملكية الشرقية هى أيضاً حركتها يد الخصى بمهارة مماثلة ، واستطاع ثيودوسيوس أن يعلن ، دون تردد ، أن الكنيسة هادئة وظاهرة فعلا ، وأن القضاى العادل الذى ناله نسطور قد أطفأ النار التى اندلعت أخيراً • ومن الجائز أن اليونان كان يمكن أن يتم ادخالهم فى هرطقة القائلين بالطبيعة انواحدة لو أن جواد الامبراطور لم يتعثر به ويسقط الامبراطور من فوق طهره ، وكان ذلك من حسن حظ اليونان ، فمات الامبراطور ، وخلفته اخته الأرثوذكسية بلكيريا ، ومعها زوجها الذى كان زوجاً بالاسم فقط • وأحرق كريسافوس ، وألحق العار بديوسكوروس ، وأعيد المنفيون الى وطنهم ، ووقع الأساقفة الشرقيون رسالة البابا ليو • غير أن البابا خاب أمله فى مشروعه الذى كان يعتز به ، وهو عقد مجلس لاتينى • وازدرى أن يرأس المجمع اليونانى الذى انعقد على عجل بمدينة نيقيا فى بيسينيا ، وطلب مبعوثوه بلهجة قاطعة حاسمة حضور الامبراطور ، ونقل الآباء المجهدون الى خلقونية تحت أبصار ماركيان وسناتو القسطنطينية مباشرة • وعلى مسيرة ربع ميل من بوسفور تراقيا ، كانت كنيسة القديسة يوفيميا Euphemia مشيدة على قمة منحدر متدرج شاهق ، واشتهر مبناها الثلاثى بأنه معجزة من معجزات الفن ، وكان منظر الأرض والبحر الذى لا تصل العين الى نهايته كفيلاً بأن يسمو بعقل رجل الدين الى تأمل خالق الكون • واصطف بنظام فى صحن تلك الكنيسة ستمائة وثلاثون من الأساقفة ، غير أن بطاركة الشرق وقفوا خلف مبعوثى البابا ، وكان ثالث

هؤلاء المبعوثين قسيسا عاديا ، وخصص مكان الشرف لمشرين من العلماء ممن هم في مرتبة القناصل وأعضاء السناتو . ووضع الانجيل في مكان متوسط بارز ، غير أن مبنى البابا والامبراطور ، الذين رأسوا الجلسات الثلاث عشرة التي عقدها مجلس خلقونية ، جددوا قانون الايمان ، وأخرس توسطهم الجزئي تلك الصيحات واللعنات الهوجاء التي تحط من الوقار الأسقفى . غير أن الاتهام الرسمي الذي وجهه مبعوثو البابا الى ديوسكوروس أرغمه على النزول من عرشه الى مستوى مجرم أدين بالفعل في نظر قضاته . أما الشرقيون ، وهم أقل عدواة لنسطور منهم لكيرلس . فقد قبلوا أن ياتيهم الخلاص على أيدي الرومان ، وثار غضب تراقيا وبنطس وآسيا لقتل الأسقف فلافيان ، أما البطارقة الجدد للقسطنطينية وأنطاكية فقد وطلدوا مراكزهم بالتضحية بولي نعمتهم . وكان أساقفة فلسطين ومقدونيا واليونان يؤيدون عقيدة كيرلس ، غير أن زعماءهم ، في مواجهة المجمع وفي حرارة المعركة ، اتجهوا من الجناح الأيمن الى الجناح الأيسر ، تتبعهم حاشيتهم الخاضعة المتقادة ، وحققوا انتصار ذلك الفريق بهذه الخيانة التي جاءت في وقتها المناسب . أما مساعدو الأساقفة السبعة عشر الذين أبحروا من الاسكندرية ، فقد أمكن اغراء أربعة منهم على التخلي عن ولائهم ، وارتضى الثلاثة عشر على الأرض يلتصقون رحمة المجلس بالدموع والتأوهات قائمين في حزن انهم اذا أذعنوا ، فسوف يذبحهم الشعب الحائق عند عودتهم الى مصر . وسمح أشركاء ديوسكوروس بالتوبة المتأخرة للتكفير عن ذنوبهم أو أخطائهم ، غير أن آثامهم تراكت فوق رأسه ، ولم يطلب هو العفو أو يأمل فيه . وضاع اعتدال أولئك الذين التمسوا عفوا عاما وسط صيحة النصر والانتقام السائدة . ولانقاذ سمعة أنصاره السابقين ، أذاع خصومه في مهارة بعض اساءات شخصية اقترفها ، كقرار الحرمان الطائش غير القانوني الذي أصدره ضد البابا ، ورفضه المتسم بالعصيان والتمرد (عندما كان مسجوناً) تنفيذ المثول أمام المجلس . وجرى بشهود لاثبات الحقائق الخاصة التي تدل على كبريائه وجشعه وقسوته ، واستمع آباء الكنيسة في دمت وكراهية الى أن صدقات الكنيسة كانت تنفق في سخاء على الرافصات ، وأن قصره وحمامه ، كانا مفتوحين لعاهرات الاسكندرية ، وأن العاهرة يانصوفيا ، أو ايرين كانت تكرم علانية كخليلة البطريك .

من أجل هذه الذنوب الشائنة عزل المجمع ديوسكوروس ونفاه الامبراطور ، غير أن نقاء عقيدته أعلن في حضور آباء الكنيسة وبموافقتهم الضمنية . ودفعهم الحرص الى التسليم ، دون التصريح ، بهرطقة يوتيكيس ، الذي لم يستدع للحضور أمام محكمتهم ، وجلسوا في صمت

وخجل عندما رمى أحد اليعقوبيين (أنصار الطبيعة الواحدة) كتابا من
 تأليف كيرلس تحت أقدامهم ، وتحداهم أن يلعنوا في شخصه عقيدة
 القديس . . وإذا نحن قرأنا بامعان قوانين خلقدونية كما سجلها الفريق
 الأرثوذكسي ، فسوف نجد أن أكثرية كبيرة من الأساقفة كانوا يؤمنون
 بوحدة المسيح البسيطة ، أما التسليم المبهم بأنه « كان مكونا » من
 طبيعتين ، أو أنه « تكون » من طبيعتين ، فقد يعنى بالنسبة لهاتين الطبيعتين
 وجودا سابقا . أو امتزاجا لاحقا ، أو وجود فترة خطيرة بين الجبل بالإنسان
 وبين صعود الآله . وكان اللاهوت الروماني أكثر قطعية ودقة ، واستخدم
 العبارة التي نفرت منها أسماح المصريين أشد التفور ، وهي أن المسيح كان
 موجودا « في » طبيعتين ، وهذه النقطة الخطيرة (التي ينبغي أن تصيها
 الذاكرة أكثر من أن يعيها الإدراك) كادت أن تخلق شقاقا بين الأساقفة
 الكاثوليك . وكانوا قد وقعوا رسالة البابا ليو الحادي عشر ، واحترام ، وربما في
 صدق وإخلاص ، غير أنهم اعترضوا في مناقشتين متعاقبتين بأنه ليس من
 الأمور المجدية أو القانونية أن يجاوزوا الخطوط المقدسة التي تقررت في
 نيقيا ، والقسطنطينية وأفيسوس ، طبقا لقانون الكتاب المقدس وللتراث .
 وفي نهاية الأمر أذعنوا لالاحاح سادتهم وإصرارهم ، غير أن قرارهم الثابت
 المنزه عن الخطأ ، بعد أن صودق عليه بأصوات حازمة وهتافات حارة ،
 هدم في الجلسة التالية نتيجة معارضة مبعوثي البابا وأصدقائهم الشرقيين .
 وذهبت أدرج الرياح أصوات جمهور من الأساقفة كانت تردد بصورة
 جماعية : « أن تعريف آباء الكنيسة هو تعريف صحيح لا يقبل التغير ! وقد
 انكشف الآن أمر الهرطقة ! اللعنة على النساطرة ! فليغادروا المجمع !
 فليعودوا إلى روما » . وقد وقف مبعوثو البابا موقف التهديد ، وتشدد
 الامبراطور ، فتألفت لجنة من ثمانية عشر أسقفا قامت بوضع قرار جديد
 فرض على المجتمعين وهم كارهون . وبأسم المجلس العام الرابع أعلن إلى
 العالم الكاثوليكي أن المسيح كان في اقنوم واحد ، ولكنه في طبيعتين .
 وهكذا رسم خط غير مرئي بين هرطقة أبولليناريوس وإيمان القديس كيرلس ،
 وأصبح الطريق إلى الجنة ، وهو طريق دقيق كحد السيف ، مبعثا فوق
 الهاوية بفضل براعة الفنان واللاهوتي . ولقد ظلت أوروبا خلال عشرة قرون
 من الجهل والعبودية تتلقى آراءها الدينية من وحي الفاتيكان ، وظل
 المذهب نفسه ، الذي طلاه صدى القدم ، يجد له مكانا في عقيدة المصلحين
 دون جدل أو مناقشة ، رغم أنهم نبذوا سيطرة الحبر الروماني . ولا يزال
 مجمع خلقدونية منتصرا في كنائس البروتستانت ، غير أن ثورة الجدل
 بدأت حداثتها ، وأصبح أكثر المسيحيين ورعا وتقوى يجهلون في الوقت
 الحاضر معتقدتهم الخاصي فيما يتعلق بسر التجسد ، أو لا يكثرثون به .

ولقد كان موقف اليونان والمصريين في عهدى ليو وماركيان مختلفا عن ذلك أختلافا كبيرا ونفذ هذان الامبراطوران الدينيان بقوة السلاح وبالمراسيم ما كانا يعتبرانه رمزا لايمانهما ، وأعلن خمسمائة من الأساقفة ، بدافع من الضمير أو الشرف ، أن قرارات مجمع خلقدونية يمكن تأييدها من الناحية الشرعية ، بل وبالمساء . ولاحظ الكاثوليك في رضا أن ذلك للمجمع نفسه كان موضع كراهية النساطرة واليعقوبيين على السواء ، غير أن النساطرة كانوا أقل غضبا ، أو أقل قوة ، ووقع الشرق في حيرة وارتباك بسبب الحماس العنيد الدموى الذى اتسم به اليعقوبيون (المتشيعون للطبيعة الواحدة) . واحتل أورشليم جيش من الرهبان الذين ارتكبوا ، باسم الطبيعة الواحدة المتجسدة ، جرائم النهب والحرق ، والقتل ، وتلوث قبر المسيح بالدم ، ووضعت أبواب المدينة الصاخبة الثائرة تحت الحراسة ضد قوات الامبراطور . وبعد أن لحق المار بديوسكوروس وأبعد عن البلاد ، ظل المصريون يأسفون على أبيهم الروحى ، ويمقتون خليفته الذى اغتصب مركزه ، والذى جاء به أباء خلقدونية . وكان عرش ذلك المعتصب ، بروتيروس Proterius ، مستندا الى حرس قوامه ألفان من الجنود ، وقد شن حربا دامت خمس سنوات ضد شعب الاسكندرية ، وبعد أن وصلهم أول نبأ عن موت ماركيان ، أصبح ذلك الرجل ضحية حماسهم . ففى اليوم الثالث قبل عيد القيامة حاصر البطريك فى الكاتدرائية ، وقتل فى مكان العماد ، وألقيت جثته الممزقة فى النار ، وترك رمادها تذروه الرياح ، وقيل ان هذا العمل أوحى به طيف أحد الملائكة . وخلفه فى منصبه وفى آرائه راهب طهوج اسمه تيموتاوس القبط ، واشعلت نار هذا المعتصب القاتل من الجانبين بفعل مبدأ الثأر وممارسته . وذبح عدة آلاف من الناس فى متابعة ذلك الخلاف الميثافيزيقى ، وحرم المسيحيون من كل مرتبة من متع الحياة الاجتماعية الكثيرة ، ومن البركات الخفية التى تأتيهم من المصودية ، ومن تناول القربان المقدس . ومن الجائز أن تخفى أسطورة جامعة البخايل ترددت فى تلك العصور ، صورة رمزية لهؤلاء المتعصبين الذين عذبوا أنفسهم وعذب، بعضهم بعضا . وفى هذا الشأن قال أحد الأساقفة الوقورين: « فى عهد قنصلية فينانتئوس وكلر تملك شعب الاسكندرية وشعب مصر كلها جنون عجيب شيطاني ، فالكبار والصغار ، والأرقاء والأحرار ، والرهبان والكهنة ، وسكان البلاد الوطنيون الذين غارضوا مجمع خلقدونية ، كل هؤلاء فقدوا عقلهم وقدرتهم على التعبير ، وأخذوا ينبحون كالكلاب ، ويمزقون اللحم من أيديهم وأذرعهم بأنيابهم هم أنفسهم . »

قانون التوفيق الذى وضعه زينون

وفى نهاية الأمر أسفرت الاضطرابات التى دامت ثلاثين عاما عن القانون الشهير الذى وضعه الامبراطور زينون ووقعه فى عهده وفى عهد أنستاسيوس كل أساقفة المشرق بعد أن حددوا بعقوبة التجريد والنفي إذا رفضوا أو انتهكوا ذلك القانون الأساسى المقيد . وقد يتسم رجال الدين أو يمجرون لغرور رجل علمانى يحدد قواعد الايمان ، غير أن ذلك الرجل ، إذا كان قد طأطأ رأسه وقبل المهمة المذلة ، فإن عقله كان أقل تلوثا بالهوى أو المصلحة وسلطة الحاكم لا يمكن الاحتفاظ بها الا بموافقة الشعب .

ولقد بدأ زينون فى قصة التاريخ الكنسى فى صورة أقل ما يكون مدعاة للاحتقار ، وليس فى مقدورى أن أثبت أن أى ذنب من ذنوب مانى أو يوتيكيوس فى القول الكريم الذى قاله أناستاسيوس انه لم يكن جديرا بامبراطور أن يضطهد عباد المسيح أو مواطنى روما . ولقد اغتبط المصريون كل الاغتياب لقانون زينون ، ومع ذلك فإن عيون رجال اللاهوت المتسمين بالغيرة ، بل وبالتحيز ، لم تكتشف فى هذا القانون أقل عيب ، وهو يمثل بصورة دقيقة ايمان الكاثوليك فيما يختص بالتجسد دون أن يقر أو ينبذ الألفاظ أو المبادئ الخاصة التى استخدمتها الطوائف المادية . وقد وجه لئنة رسمية الى تسطور ويوتيكيوس ، والى كل الهراطقة الذين قالوا بانسطار المسيح ، أو بامتزاجه ، أو بأنه طيف وخيال . وأكد فى احترام العقيدة الخالصة التى وضعها القديس كيرلس ، وعقيدة نيقيا ، والقسطنطينية . وأفيسوس ، دون أن يضع تعريفا لكلمة « الطبيعة » من حيث المدد أو القيمة . وبدلا من أن يبدى قانون زينون احترامه للمجلس الرابع ، فإنه تجاهل هذا الموضوع بأن وجه اللوم والنقد الى كل المذاهب المعارضة . إذا كانت أمثال هذه المذاهب قد قيل بها فى خلقهونية أو فى أى مكان آخر . وبفضل هذا التعبير الغامض المبهم كان يمكن لأنصار المجلس الأخير وأعدائه أن يتحلقوا ويتعاقوا عناقا صامتا . ولقد أقر أكثر المسيحيين فطنة هذا النوع من التسامح ، غير أن عقلهم كان ضعيفا ويموزع الثبات ، واعتبر خضوعهم ذلة وجبنا فى نظر اخوتهم المتسمين بالجرأة والحماس المتقد . وكان من العسير ، أن يقف المرء على الحياد الدقيق ، فى موضوع شغل أفكار الناس وأحاديثهم ، فأى كتاب ، أو عظة ، أو صلاة ، كانت كفيلا باشغال نار الخصومة من جديد ، وكثيرا ما كانت أواخر الأخوة تنقسم ثم تلتئم من جراء العداوة الشخصية بين الأساقفة . وامتلات الفجوة التى كانت قائمة بين آراء تسطور وآراء يوتيكيوس بألوان كثيرة من الآراء والتعابير ، وفى مقدور المرء أن يجد عند طرفى السلم اللاهوتى طائفة

مصر المفتقرة الى الزعامة ، وأحبار روما ، تحلوهم جميعا شجاعة متكافئة .
وان كانت قوتهم غير متعادلة . ولقد انفصلت طائفة مصر هذه ، وهي دون
ملك أو أسقف ، أكثر من ثلاثمائة سنة عن بطاركة الاسكندرية الذين قبلوا
مذهب القسطنطينية دون أن ينتزعوا اداة رسمية لمجمع خلقدونية .
وبالمثل انصبت لعنة البابوات على بطاركة القسطنطينية لأنهم قبلوا مذهب
الاسكندرية دون موافقة رسمية من المجمع نفسه . وترتب على استبدادهم
التعدي ان أصيبت كنائس اليونان الأرثوذكسية المتطرفة بهذه العدوى
الروحية ، وأنكر هؤلاء البابوات على تلك الكنائس صلاحية قربانها المقدس .
أو ساورهم الشك في صلاحيته ، وأناروا الشقاق بين الشرق والغرب
فترة قدرها خمس وثلاثون سنة ، حتى محوا في نهاية الأمر ذكر أربعة
من أحبار بيزنطة الذين كانوا قد تجاسروا على معارضة سيادة القديس
بطرس . وقبل ذلك العهد ، كانت الهدنة المزعجة بين القسطنطينية قد
انتهكها الأحبار المتنافسون مدفوعين بالحماس الديني . وقد أيد
عقدونيوس ، الذي اتهم بالهرطقة النسطورية ، مجمع خلقدونية ، رغم
وجوده في المنفى ورغم العار الذي لصق به ، وفي الوقت عينه كان خليفة
نيرلس على استعداد لشراء انهيار ذلك المجمع برشوة قدرها ألفان من
الجنينيات الذهبية .

وفي حى تلك العصور كان معنى مقطع لفظي ، أو قل صورة ذلك
المقطع ، كافيا لازعاج سلم الامبراطورية بأكملها . فعبارة « قدوس ،
قدوس ، هو رب الجنود ، Trisigion هي في نظر اليونان نفس التسبيح
الذي تكرر الملائكة والشاروبيم أمام عرش الله ، وهي التي تجلت بصورة
معجزة لكنيسة القسطنطينية في منتصف القرن الخامس . وسرعان
ما أضاف اليها ورع أنطاكية عبارة : « الذي صلب من أجلنا ! » ، وهذا
الابتهاال المعبر عن الشكر ، للمسيح وحده ، أو للتالوث كله ، قد تبرره
قواعد اللاهوت ، واستخدمه شيئا فشيئا كاثوليك الشرق والغرب . غير أن
أسقفا يعقوبيا كان من قبل قد تخيل ذلك التسبيح ورفضت في أول الأمر
هبة ذلك العدو على اعتبار أنها كفر مريع خطير ، وكادت تلك البدعة
المثائشة تكلف الامبراطور أناستاسيوس عرشه وحياته . وكان أهل
القسطنطينية يفتخرون الى آية مبادئ رشيدة للحرية ، ولكنهم كانوا
يعتبرون لون رداء من أردية السباق ، أو مسحة طقس غامضة من الطقوس
الدينية في المدارس ، سببا مشروعا للتمرد . وحدث في الكاتدرائية أن
رتل ذلك التسبيح بهذه الاضافة المبقوثة وبدونها ، فرقتان متعارضتان .
وعندما بحث أصواتهم لجأوا الى حجج أقوى ، هي العصى والأحجار .
وعاقب الامبراطور المعتدين ، وحماهم البطريرك ، ومن ثم فان ذلك الشجار

الخطير عرض تاج الملك وتاج الأسقفية للخطر ، وامتلات الطرقات على الفور
 بجماهير عديدة من الرجال والنساء والأطفال ، وسارت على رأسهم فرق
 من الرهبان في صفوف منظمة وهم يضربون ويصيحون : « أيها المسيحيون !
 هذا هو يوم الاستشهاد ، يجب ألا نتخلى عن أيينا الروحي ، اللبنة على
 الطاغية الذي يدين بمقيدة ماني ، فانه غير جدير بالحكم » . تلك كانت
 صيحة الكاثوليك ، واستعدت سفن أناستاسيوس بمجاذيفها أمام القصر
 حتى عفا البطريك عن مليكه النائب ، وأسكت شغب أمواج الجمهور
 الهائج . وسرعان ما صدر الأمر بنفى مقدونيوس ، وبذلك أوقف
 انتصاره . غير أن حماس رعيته ثار ثانية للسؤال نفسه : « هل صلب
 أحد الأقباط الثلاثة ؟ » وفي هذه المناسبة الخطيرة أوقفت وحطمت
 القسطنطينية الزرقاء والخضراء ما كان هناك من خلاف بينها ، وحطمت
 السلطات المدنية والعسكرية في حضورهم ، ووضعت مفاتيح المدينة ،
 وأعمال الحراس في ساحة قسطنطين ، وهي مركز المؤمنين الرئيسي
 ومعسكرهم . وانشغل هؤلاء المؤمنون ليلاً ونهاراً في انشاد الترانيم لمجد
 ربهم ، أو في سرقة أتباع مليكهم وقتلهم ، ورفعت على حرية طويلة رأس
 الراسب الذي اكتسب حظوة الملك ، وهو الراسب الذي أطلق عليه اسم
 صديق عدو الثالوث الأقدس . وقذفت مباني الهراقة بجذوات النار التي
 نشرت الحرائق في تلك المباني وفي مباني الأرثوذكس سواء بسواء
 ودرن تمييز . وحطمت تماثيل الإمبراطور ، أما الإمبراطور نفسه فقد
 اختبأ في إحدى الضواحي ثلاثة أيام حتى وافته الشجاعة لالتماس رحمة
 رعاياه . وأظهر أناستاسيوس على المنصة الملكية في ساحة السيرك ، وهو
 مجرد من تاجه ، وفي وضع السائل المتوسل . وأنشده الكاثوليك أمام
 وجه دعاهم الأصلي الصحيح ، وهللوا للعرض الذي أعلنه على لسان
 المنادي ، بأنه سوف يتنحى عن العرش . واستمعوا إلى العظة التي تقول
 بأنه ما دام الشعب كله لا يستطيع أن يحكم ، فلا بد من أن يتفق مقدما
 على اختيار الملك ، ورحب الناس بدم وزيرين مكروهين لم يتردد مولاها
 في الحكم عليهما بأن يكونا فريسة الأسود . وهذه الفتى العنيفة العابرة
 لقيت ما يشجعها في ظفر فيتاليان الذي نصب نفسه نصيراً للعقيدة
 الكاثوليكية يؤيده جيش من الهون والبلغار الذين كان أغلبهم من الوثنيين .
 وهذه الثورة الدينية أقفرت تراقيا من سكانها ، وحاصر القسطنطينية ،
 وأباد خمسة وستين ألفاً من زملائه المسيحيين حتى حصل على وعد بإعادة
 الأساقفة وأرضاء البابا وإقرار مجلس خلقدونية . كما اضطر أناستاسيوس
 وهو على فراش الموت إلى أن يوقع وهو كاره معاهدة أرثوذكسية ، نفذها من
 بعده عمه جستينيان بصورة أكثر أمانة وإخلاصاً . تلك كانت قصة أوز
 الحروب الدينية التي شنها تلاميذ رب السلام ، وباسم رب السلام .

لاهوت جستنيان

لقد سبق أن عالجتنا شخصية جستنيان في نواح مختلفة بوصفه ، ملكا ، وفاتحا ، ومشروعا • ولا يزال باقيا علينا أن نراه رجلا من رجال اللاهوت ، ولا شك في أنه من المآخذ التي ليست في صالحه أن لاهوته كان يشكل سمة بارزة من سمات صورته • ولقد عطف هذا الملك على رعاياه في احترامهم الخرافي للأحياء والأموات من القديسين ، وجاءت مجموعة قوانينه Code ، ويوجه أخص اضافاته القانونية الجديدة Novels تؤكد امتيازات رجال الدين وتوسعها ، وفي كل نزاع بين راهب وعلواني ، كان ذلك القاضي المفضى يقرر أن الحق والبراعة والعدالة في جانب الكنيسة دائما • وكان الامبراطور في عبادته العامة دعويا ومثلا يحتذى ، وتمثلت في صلواته ، وصياماته وسهره الليالي للتعب ، الثوبة الصارمة التي يتسم بها الراهب ، وداعب خياله الأمل في أن يكون ذا الهام شخصي ، أو الاعتقاد بأنه كذلك • وكان قد ضمن لنفسه رعاية العذراء والقديس ميخائيل ، أحد كبار الملائكة ، ونسب شفاه من مرض خطير الى العون المعجز الذي تلقاه من الشهيدين المقدسين كوزماس وديميان • وزينت العاصمة وولايات الشرق بآثار ديانتها ، ومع أن الجزء الأكبر من هذه الصروح الباهظة التكاليف يمكن أن ينسب الى ذوقه أو زهوه ، إلا أن حماس ذلك المهندس المعماري الملكي ربما دفعه اليه احساس أصيل بالحب والامتنان نحو أولياء نعمته غير المرئيين • وكان لقب « الملك التقى » ، من بين القاب العظيمة الامبراطورية ، هو اللقب الذي تطرب له أذنه أجمل الطرب • وكان الشغل الشاغل في حياته أن يشجع مصلحة الكنيسة الدنيوية والروحية ، وكثيرا ما ضحي بواجبه كوالد لبلاده في سبيل واجبه كحامي حامي الايمان • ولافتت نزعات ذلك العصر خلقه ومداركه ، ولا بد أن أساتذة اللاهوت كانوا يسخرون في دخيلة أنفسهم من مثابرة رجل غريب عن ذلك المجال على تنمية فنهم وأعماله فنه • ولقد قال متأمر جرى لشركائه : « ماذا تخشون من طاغيتكم الذي أعماه التحمس لعقيدته ؟ انه يسهر الليالي بأكملها في مخدعه وهو أعزل ، يناقش أصحاب اللهى البيضاء ، ويقلب صفحات المجلدات الدينية » • وتجلت ثمار هذه الدراسات البلية في كثير من المؤتمرات حيث كان جستنيان يتالق كاشد المجادلين دهاء وأعلام صوتا ، وفي كثير من العظات التي أعلنت للامبراطورية لاهوت الملك تحب اسم المراسيم والرسائل • وبينما كان المتبريرون يغزون ولايات الامبراطورية ، وتسير فرقهم الظافرة تحت أعلام بليساريوس ونارسييس ، كان خليفة تراجان ، الذي لم يره الجنود في معسكرهم ،

يقنع بالنصر والظفر على رأس مجمع ديني . ولو أن جستينيان دعا الى ملك المجمع مشاهدا عاقلا منصفاً ، لعلم ان الخصومة الدينية وليدة الزهو والحماقة . وأن الورع الحقيقي يعبر عنه الصمت والخضوع أصلى بصير . وأن الإنسان الذي يجهل طبيعته هو نفسه ، يجب ألا يتجراً على تحليل طبيعة الله ، وأنه يكفيننا أن ندرك أن القوة والبر هما الصفتان الكاملتان اللتان يتصف بهما الرب .

ولم يكن التسامح من فضائل ذلك العصر ، كما أن العفو من الثوار قلما كان من فضائل الملوك . غير أن الملك ، اذا ما انحدر الى ظالم الشراسة وضيق الأفق الذي يتسم به الجادل ، أصبح من السهل أن يستثار الى التعويض عن قصور الحجة بإظهار قوته الكاملة ، وأن يعاقب دون شفقة أو رحمة معارضيهِ المفتقرين الى الابصار الذين يتعمدون اخلاق عيونهم حتى لا يروا ضوء الدليل والبرهان . ولقد كان عهد جستينيان مشهداً واحداً للاضطهاد . وإن اتخذ هذا الاضطهاد أشكالاً مختلفة ، ويبدو أنه بز أسلافه المترخين المتوانين في ابتداع القوانين وفي صرامة تنفيذها على السواء . وقد أهل جميع الهراطقة فترة قصيرة قدرها ثلاثة شهور للارثوذكس والا كان مصيرهم النفي ، وإذا كان قد ظل متغاضياً عن بقائهم المزعزع في البلاد ، فقد حرّمهم ظلمه ونيره ، لأن مزايا المجتمع فحسب ، بل من حقوقهم الطبيعية كشر وكسيحيين ، وهي حقوق مشتركة للجميع . وفي نهاية أربعائة سنة كان أتباع مونتانيوس من أهل فريجية لا يزالون ينفثون حماس الكمال والنهضة الجامع الذي غلّهم به رسلهم الناطقون بالروح القدس ، ذكروا وأثاثوا . وعند اقتراب المساومة والجنود الكاثوليك رحب هؤلاء الناس في سرور بالموت والاستشهاد ، وحرق مبنى جميعتهم الدينية وهلك المجتمعون في النار ، غير أن هؤلاء المتمصبين البدائيين ظلوا قائمين دون أن يندثروا بعد ثلاثئة سنة من موت طاغيثهم . وكانت كنيسة الأريوسيين في القسطنطينية . تحت حماية الحلفاء القوط ، وقد واجهت قسوة القوانين دون اكتراث أو مبالاة ، وكان قساوستهم يضادعون أعضاء السناتوق في ثرائهم وفخامتهم ، واستولت يد جستينيان الجشعة على ما كان في الكنيسة من ذهب وفضة ، ولعله اعتبره بمثابة أسلاب الولايات وغنائم المتبريرين ، وكانت هناك بقية من الوثنيين لا يزالون متوارين عن الأنظار ، ويعيش بعضهم في أحسن الأوضاع الانسانية ، بينما يعيش البعض الآخر في أخصنها وأبسطها ، وقد أثار هؤلاء الوثنيون سخط المسيحيين الذين ربما كانوا غير راغبين في أن يكون هناك أي شهود من الغرباء على خلافاتهم ونزاعاتهم الداخلية . ومن ثم فقد عين أسقف ليكون محققاً يتحرى شئون

العقيدة ، وسمهان ما اكتشفت عنه اليقظة ، في البلاط وفي المدينة ،
 أولئك الحكام ، ورجال القانون ، والأطباء ، والسفيسطانيين الذين ما زالوا
 يعتنقون خرافة اليونان . وقد طلب اليهم في قسوة وجفاء أن يختاروا دون
 إبطاء بين غضب الههم جوبيتر وبين غضب جستينيان ، وقيل لهم إن
 كراهيتهم للانجيل لم يعد ممكنا أنه تتوارى وراء قناع فاضح من الإلحاد
 وعدم الاكتراث . وربما كان النبيل فوتيوس هو وحده الذي عقد العزم
 على أن يعيش ويعتق كما عاش آباؤه وأجداده من قبل ، فحرر نفسه بضربة
 خنجر ، وترك لطاغيته عزاء تافها وضيقا هو عرض جثة اللاجيء الضارح
 بصورة شائعة بعد أن فقد صاحبها حياته . أما أخوانه الأكثر ضعفا ، فقد
 خضعوا للمليكم الديوى وأدوا شعائر المصودية ، وجاهدوا في حماس خارق
 نحو ربة الوثنية أو التكفير عن ذنبها . وكان البلد الذي نشأ فيه
 هو بروس ، والذي كان مسرحا لحرب تواجان ، لا يزال يحتفظ بآخر
 جذوات أساطيره ، وبفضل عناية الأسقف نفسه ، أمكن اكتشاف سبعين ألفا
 من الوثنيين ، وتم تحويلهم إلى المسيحية ، في ولايات آسيا وفرنچيا ،
 وليديا ، وكاريا ، وبنيت للمعتدين الجدد ست وتسعون كنيسة زودها
 سخاء جستينيان بلباس الكهنة التيلية ، وبالأنجيل والطقوس الدينية ،
 وبالآواني الذهبية والفضية . أما اليهود ، الذين كانوا قد جردوا من
 امتيازاتهم شيئا فشيئا ، فقد وقعوا تحت وطأة قانون مزعج أرغمهم على
 الاحتفال بعيد الفصح في نفس اليوم الذي يحتفل فيه المسيحيون بهذا
 العيد . وكان لهم الحق في أن يجازوا بالشكرى على أساس اقوى ، وهو
 أن الكاثوليك أنفسهم لم يوافقوا على التقييدات العقلية التي أتت بها
 مليكم ، وأجل أهل الفلسفة بنبذهم الكبير أسبوعا بأكمله بعد
 اليوم الذي قررته السلطات ، وكان من فواجع سرورهم أن يظلوا صائمين
 سبعة أيام ، بينما كان اللحم يعرض للبيع بأمر الأمبراطور . أما السامريون
 الفلسطينيين ، فقد كانوا جنسا خليطا ، وطائفة غامضة ، ينبذهم الوثنيون
 بوصف كونهم من اليهود ، وينبذهم اليهود باعتبارهم من الوثنيين ،
 وينبذهم الكاثوليك على أساس أنهم من الوثنيين . وكان فرعهم من الصليب
 ومقتهم له قد زرع من قبل فوق جبلهم المقدس ، جبل جرزيم ، غير أن
 اضطهاد جستينيان لم يتيح لهم خيارا إلا المصودية أو الثورة ، فاختاروا
 لأنفسهم الثورة ، وهبوا للقتال تحت راية زعيم يأس مستميت ، وثأروا
 للأذى الذي لحق بهم بالاعتداء على أرواح شعب أعزل ، وعلىمتلكاته
 ومعابده . وفي نهاية الأمر أخضعتهم قوات الشرق النظامية ، وذبح منهم
 عشرون ألفا ، وباع منهم العرب عددا مائلا إلى كفار فارس والهند ، وكفرت
 بقية تلك الأمة التعمسة المنكودة عن جريمة الخيانة بنخبة النفاق . وقدر

أن مائة ألف من رعايا الرومان هلكوا في الحرب السامرية التي حولت الولاية التي كانت من قبل ولاية مزدهرة منتجة الى يبداء قاحلة يتصاعد منها الدخان غير أن جزيرة القتل في عقيدة جستينيان كانت لا تنطبق على ذبح الكفار ، ومن ثم فقد عمل جاهدا وبدافع من التقوى على اقرار وحدة العقيدة المسيحية باستخدام النار والسيف .

وكان من الواجب عليه ، على الأقل ، وهو يشعر بهذه الأحاسيس ، أن يلتزم الحق دائما . وفي السنوات الأولى من حكمه أعلن عن غيرته على الأرثوذكسية بوصف كونه تلميذها وراعيها . وقرّبه على الوفاق الذي تم بين اليونان واللاتين أن أصبحت رسالة القديس ليو عقيدة الامبراطور ، وتعرض أتباع نسطور وأتباع يوتيكيس لاضطهاد ذى حدين ، من جانب اليونان ومن جانب اللاتين ، وأقر قانون مشرع كاثوليكي تلك المجامع الدينية الأربعة التي عقدت في نيقيا ، والقسطنطينية ، وافيسوس ، وخلقيدونية . ولكن بينما حاول جستينيان أن يحافظ على وحدة العقيدة والعبادة ، كانت زوجته تيودورا ، التي لم تتعارض رذائلها مع تعبدها ، قد استنمعت الى معلمين من اليعقوبيين ، وافتتحت أولئك الذين كانوا يناصبون الكنيسة العداء سرا أو علانية ، وتضاعف عددهم بفضل الابتسامة الكريمة التي علت وجه مولاتهم . وتمزقت العاصمة ، والقصر وفراش الزوجية بفعل الخلاف الروحي . ومع ذلك فإن صدق الزوجين الملكيين كان أمرا مشكوكا فيه الى درجة أن خلافهم الظاهري نسبة الكثيرون الى تحالف سرى خبيث ضد ديانة الشعب وسعادته . وهذه الروح الماكرة الماروغة انما يتسم بها اتساما عميقا ذلك النزاع الشهير الذي نشب حول « الفصول الثلاثة » ، وهو نزاع ملأ من المجلدات أكثر مما يستحق أن يملأ من سطور . وكانت قد انقضت اذ ذاك ثلاثمائة سنة منذ أن أكل العود جشمان أوريجن (١) Origen ، وأصبحت روحه ، التي آمن بأنها كانت كائنة من قبل ، في يد خالقها ، غير أن كتاباته كان رهبان فلسطين يطالعونها في شغف ، واكتشفت عين جستينيان النافذة في هذه الكتابات عشرة أخطاء ميتافيزيقية ، وقرر رجال الدين أن ذلك الأستاذ البدائي لابد أن يكون في نار جهنم الأبدية التي تجرأ على انكارها ، وهو هناك في صحبة أفلاطون وفيثاغورس ، وتحت ستار هذه السابقة صوبت ضربة غادرة الى مجلس خلقيدونية . وكان آباء الكنيسة قد استمعوا دون ملل الى أطراء أهل موبسوستيا Mobsuestia وكان عدلهم أو تسامحهم قد أعاد

(١) كاتب وفيلسوف يوناني واحد آباء الكنيسة - عاش بين سنتي ١٨٥ - ٢٥٤ م .

تيودورت أسقف كرخا ، وإيباس أسقف أذا سبا (الرها) الى أخوية الكنيسة ، غير أن شخصيات هؤلاء الأساقفة كانت ملوثة بصيب الهرطقة ، فالأول كان أستاذاً لنسطور ، والاثنان الآخران كانا من أصلقائه ، ووجه الاتهام تحت عنوان « الفصول الثلاثة » الى فقرات كتبها وكانت موضعاً لأقوى الشكوك والريب ، ولابد أن أدانة ذكراهم قد أخرجت شرف مجمع ديني كان العالم الكاثوليكي يذكر اسمه باحترام صادق أو مصطنع ، وهؤلاء الأساقفة ، سواء أكانوا أبرياء أم مذنبين ، اذا كانت أشخاصهم قد تلاشت في سبات الموت ، فلم يكن المحتمل أن توقظهم تلك الضجة التي أثيرت فوق قبرهم بعد انقضاء مائة سنة . واذا كانوا بين أياب الشيطان ، فإن يد البشر لن تستطيع زيادة آلامهم وعذابهم أو تخفيفها ، واذا كانوا ينعمون بثواب التقوى في صحبة القديسين والملائكة ، فلا بد أنهم ابتسموا لذلك الهياج التافه الباطل الذي تملك الحشرات اللاهوتية التي ما زالت تزحف على سطح الأرض . وكان امبراطور الرومان في طبيعة هذه الحشرات ، فصبوب لئغته ، ونفت رسمه ، وربما فعل ذلك دون أن يتبين البواعث الحقيقية لزواجه تيودورا وحزبها الديني . ولم يعد هؤلاء الضحايا في متناول سلطته ، ولم تستطع مراسيمه بأسلوبها المتقد أن تفعل شيئاً أكثر من أن تعلن هلاك هؤلاء الأساقفة ، وتدعو رجال الدين في الشرق الى الاشتراك في صبب اللعنات عليهم . وقد استجاب الشرق في شيء من التردد ، لصوت مليكه ، وعقد في القسطنطينية مجلس عام خامس يضم ثلاثة بطاركة ومائة وخمسة وستين أسقفاً ، وأعلن ذلك المجلس أن مؤلفي « الفصول الثلاثة » والمدافعين عنها قد فصلوا من أخوية القديسين ، وأسلمهم رسمياً الى ملك الظلام . غير أن الكنائس اللاتينية كانت أكثر غيرة على شرف ليو وشرف مجمع خلقيدونية ، ولو أنها قاتلت كما قاتلت دائماً تحت راية روما ، لكان من الجائز أن يسود رأيها في قيمة العقل والانسانية . غير أن رئيسها كان سجيناً في أيدي العدو ، وكان عرش القديس بطرس قد ألحق به العار فيجلبوس الذي كان يتاجر في الرتب الكهنوتية ، ثم خاضه في جبن واستكاثة حين أذعن بعد كفاح طويل متقلب الى استبداد جستينيان وسفسة اليونان ، وأثار ارتداده عن العقيدة سقط الثلاثين ، ولم يقبل الا اثنان من الأساقفة أن يضعوا أيديهم على رأس شماسه وخليفته بيلاجيوس . غير أن مثابرة البابوات نقلت الى خصومهم بصورة غير محسوسة اسم المنشقين . أما كنائس الليريا وأفريقيا وإيطاليا فقد كانت تنوء تحت ضغط السلطات المدنية والدينية ، ولم يخل الأمر من الاستعانة بشيء من القوة العسكرية ، وتسخ المتبربرون البعيدون عقيدة الفاتيكان ، وفي مدى قرن واحد تلاشى الانشقاق الذي حدث من جراء

• القبول الثلاثة ، في زكن مظلم من ولاية فينيسيا ، غير أن التذمر الديني الذي شمر به الايطاليون كان قد شجع بالفعل غزوات اللمبارد ، ودرج الرومان أنفسهم على الارتياح في عقيدة ملاعيتهم البيزنطية ، وعلى كراهية حكومتهم .

ولم يكن جستينيان ثابتا ولا مستقرا على حال له عملية تحديد آرائه المتغيرة وآراء رعيته . وكان في شبابه يستأه لأقل انحراف عن الخط الأرثوذكسي . ولكنه في شيخوخته تجاوز حد الهرطقة المعتدلة ، وأساء الى اليعقوبيين والى الكاثوليك على السواء باعلانه أن جسد المسيح كان غير قابل للفساد . وأن رجولته لم تخضع مطلقا لأية حاجات أو علل من تلك التي ورثتها أجسادنا الفانية . وقد أعلن هذا الرأي الخيالي في مراسيمه الأخيرة . وفي لحظة رحيله المناسب عن هذا العالم ، كان رجال الدين قد رفضوا التوقيع بموافقتهم على آرائه ، وكان الملك على استعداد للقيام بأعمال الاضطهاد ، وأصر الشعب على تحميل الاضطهاد أو المقاومة ، وتوجه أسقف من تريف Treves بخطاب الى عاهل الشرق في لغة السلطان والمحبة . وكان الأسقف إذ ذاك بعيدا عن تناول سلطة الملك ، فقال : « أيها الامبراطور الخليل جستينيان ، تذكر معبوديتك وعقيدتك ، ولا تلوث شيخوختك بالهرطقة . أرجع آباء الكنيسة من منافعهم ، وأنقذ أتباعك من الهلاك . انك لا يمكن أن تجعل أن ايطاليا وبلاد الفال وأسيانيا وأفريقيا ، قد أصبحت ترثي لتسقطك وتلعن اسمك . فإذا لم تحطم ما ناديت به دون ابطاء ، وإذا لم تطلق الصوت عاليا وتقول ، لقد أخطأت ، لقد أذنبت ، اللمنة على نسطور ويونيكيس ، فانك لتلقى بروجك الى السنة النار التي سوف يحترقان فيها الى الأبد » ، غير أنه مات دون أن يآبه بشيء . واستعادت الكنيسة بموته هدوءها بعض الشيء ، وتميزت عهود خلفائه الأربعة ، جستين ، وتيبيريوس ، وموريس ، وفوكاس ، بأن تاريخ الشرق الديني قد خلا من ذكرهم ، وكان ذلك شيئا نادر الحدوث ، وإن كان من حسن حظهم .

★★★

حاول هرقل أن يسترضي اليعقوبيين بعقيدة المشيئة الواحدة ، وهي القائلة بأن المسيح كانت له مشيئة واحدة ، غير أن انتصاره ولاهوته الدبلوماسي جاء متأخرين إذ كانت الفتوحات العربية وشيكة الوقوع .

في الفصل الثامن والأربعين ، وهو المجلد ، هنا ، لخص جيرون خطة الجزين الصغرى الآخرين من كتابه ، وأعطى بياناً بالتعاقب الامبراطوري في أربع أسر وتيسية من هرقل (٦١٠ - ٦٦٤) الى غزو اللاتين للقسطنطينية في ١٢٠٤ ، والجدول الآتي يعطى محله :

أسرة هرقلوس

٦١٠ - ٧١٧ م

هزم هرقل الفرس ووقف أول وقفه ضد الإسلام . وترتب على هزيمته في سنة ٦٣٦ على ضفاف اليرموك أن خسرت الإمبراطورية سوريا . وسقطت أورشليم في سنة ٦٣٨ ، والإسكندرية في ٦٤٧ (انظر الفصل الحادي والخمسين) .

وفي سنة ٦٧٩ عبر البلغار الدانوب ، وكان الجزء الأخير من عهد أسرة هرقل فترة انحلال .

أسرة الأيسوريين ٧١٧ - ٨٦٧ م - معطمو التماثيل الدينية

استطاع ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ - ٧٤٠) ، أن يجهض هجوما كبيرا قام به العرب على القسطنطينية .

وفي سنة ٧٥٤ أدان المجمع المسكوني السابع المنعقد في القسطنطينية عبادة التماثيل الدينية وأعادت الإمبراطورة إيرين (٧٩٧ - ٨٠٢) مؤقتا استخدام التماثيل . وأقرت هذا الأمر الإمبراطورة تيودورا في ٨٤٣ م (انظر الفصل التاسع والأربعين) .

وقد تنحو النزاعات التي دارت حول التماثيل الى اخفاء حقيقة عامة وهي أن معطمي التماثيل منحوا الإمبراطورية تنظيما مدنيًا وعسكريا جديدا ، وحاولوا تكييف القانون الروماني حسب الحاجات القائمة ، وتحرير السلطة المدنية من نفوذ الرهبان .

وانتهت الأسرة الأيسورية بقتل ليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠) . وجاء بعده عهد أسرة فريجيا القصير (٨٢٠ - ٨٦٧) .

أسرة الملقونيين

٨٦٧ - ١٠٥٧ م

أسس هذه الأسرة باسيل الأول (٨٦٧ - ٨٦٨) . وكان من بين خلفه قسطنطين السابع بورفиро جينيتوس (٩١٢ - ٩٥٩) ، وزوج أمه رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ - ٩٤٤) ويوحنا الأول زيمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٠) الذي أنجب ثلاث بنات ، يودوكسيا الراهبة ، وتيودورا وزوي Zoe . وسيطرت المتاعب الشخصية والسياسية للسيدةتين الأخيرتين على المشهد الإمبراطوري حتى موت تيودورا في ١٠٥٦ . وبقيت

هذه الأسرة سنة أخرى تحت حكم ميخائيل ستراتيوتيكوس الذي عينته تيودورا .

وخلال هذه الفترة ظهر تعارض سياسي جديد في أوروبا بين الإمبراطور والبطريرك في الشرق من ناحية ، وبين الإمبراطور والبابا في الغرب من ناحية أخرى . وخلق الشقاق بين الكنائس ، وأصبح الشقاق نهائيا في سنة ١٠٥٤ . وأصبحت الأمم السلافية أهم من أمم الغرب من الناحية السياحية بالنسبة للإمبراطورية الرومانية .

وفي القرنين التاسع والعاشر استعادت الإمبراطورية بعض سلطتها وأملاتها . واستحدثت قسطنطين السابع إصلاحات في القانون ، ونهضة فكرية (انظر الفصل ٥٣) . واسترد نقفور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩) ، ويوحنا زيمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦) ولايتي سوريا والعراق من المسلمين . وحطم ياسيل الثاني بولجارو كتنوس : أي ذابح البلغار ، سلطة السلاف . وبعد موته تدهورت للمرة الثانية قوة الإمبراطورية ، واضمحلت رخاؤها .

الأسرة الكمينية

(١٠٥٧ - ١٢٠٤ م)

تنحى عن العرش اسحق الأول كمينيوس (١٠٥٧ - ١٠٥٩) ، وتلت ذلك فترة عصيبة منكوبة تميزت بانتصار الترك السلاجقة في منزيكرت في سنة ١٠٧١ ، وكان ذلك مقدمة لفقدان آسيا الصغرى كلها (انظر الفصل السابع والخمسين) . وأسس ابن شقيقه اسحق أسرة مالكة في سنة ١٠٨١ . وبدأ عصرا من الإصلاح . وفي ذلك الوقت اتجه الشرق نحو الغرب ، وتبين الغرب من نواح مختلفة أن هناك فوائد يمكن الحصول عليها من الشرق . وفي سنة ١٠٩٥ بدأت الحرب الصليبية الأولى . وأصيبت الإمبراطورية بضرر قاتل في سنة ١٢٠٤ عندما أسفرت الحرب الصليبية الكمينية الرابعة عن الاستيلاء على القسطنطينية ونهبها ، والقضاء على الأسرة المالكة (انظر الفصل الستين) .

الفصل التاسع والأربعون

(٧٢٦ - ٨١٤)

عبادة الصور والتماثيل • ليو محطم التماثيل • ثورة
إيطاليا • علاقات بين وشارلمان بالبابوات • إعادة التماثيل
والصور في الشرق • انفصال البابوات النهائي عن
الامبراطورية الشرقية • عهد شارلمان وأخلاقه • حكم شارل
الرابع ومقارنته بأغسطس •

في العلاقة بين الكنيسة والدولة اعتبرت الكنيسة تابعة للدولة
فقط ، ومتصلة بها وهذه قاعدة مفيدة ، لو أنها روعيت في واقع الحال
مراعاة دقيقة كما راعيتها في القصة التاريخية ، ولقد تصدت أن أترك
لعلماء اللاهوت الشفوفين بالمعرفة والتأمل موضوع فلسفة الغنوصيين
الشرقية ، والموضوع المحاط بالغموض الشديد المتعلق بالقدرية والنعمة ،
والتحول العجيب للقربان المقدس من الرمز الى مادة جسم المسيح • غير
أنى استعرضت في جد وسرور موضوعات التاريخ الدينى التى كان لها
أثرها الملموس فى انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، وموضوعات
انتشار المسيحية ، وتكوين الكنيسة الكاثوليكية ، ودمار الوثنية ،
والطوائف التى نشأت من المجادلات والنزاعات النامضة المتعلقة بالتثليث
والنجسد • وفى مقدورنا بحق أن نضع فى مصاف هذه الموضوعات وعلى
رأسها ، عبادة التماثيل والصور الدينية ، التى ثار حولها جدل عنيف
فى القرنين الثامن والتاسع ، لأن هذا الموضوع الذى تمثلت فيه الخرافة
الشعبية قد أسفر عن ثورة فى إيطاليا ، واستحوذ البابوات على سلطة
زمنية ، وعودة الامبراطورية الرومانية فى الغرب •

ولقد كان المسيحيون الأولون يفتنون أشد الفتنة استخدام التماثيل
والصور الدينية وإساءة استخدامها ، وقد ترجع هذه الكراهية الى أنهم

كانوا من نسل اليهود ، والى عداوتهم لليونان . وكانت الشريعة الموسوية قد حرمت بشدة وصرامة كل ما يمثل الله ، ورسخت هذه السنة رسوخا قويا ثابتا في ميادى الشعب المختار وفي تصرفاته وفعاله . ووجه المحاجون والمجادلون المسيحيون ذكاهم الى مناهضة الوثنيين الحمقى الذين كانوا يحنون روعهم امام ما تصنعه ايديهم ، وهى التماثيل النحاسية والرخامية التى ، لو انها اوتيت الفهم والحركة ، لكان الأخرى أن تثير قاعدتها الافتتان بالقدره الخلاقة التى اتسم بها صناعها الفنان . ومن الجائز أن بعض المتحولين الحديثين الى المسيحية من أمثال الغنوصيين ، وهم الذين لم يكن إيمانهم كاملا ، كانوا يتوجون تماثيل المسيح والقديس بولس بالكرامات الدنيوية التى أضفوها على تماثيل أرسطو وفيناغورس . غير أن ديانة الكاثوليك العامة كانت بسيطة وروحية على وتيرة واحدة ، وورد أول ذكر لاستخدام الصور فى النقد الذى أصدره مجلس الليبريس الكنسى بعد ثلاثمائة سنة من العهد المسيحى . وفى عهد خلفاء قسطنطين ، حين كانت الكنيسة تتمتع بالهدوء والرخاء والظفر ، تفضل الأساقفة الأكثر حكمة بالتجاوز عن خرافة واضحة فى سبيل منفعة الجمهور ، وبعد أن اندثرت الوثنية لم يعد يكبلهم الخوف من خرافة معقونة مماثلة . وتمثلت أول عبادة للرموز فى تمجيد الصليب وبقايا القديسين ، وتصور الناس أن القديسين والشهداء الذين يطلبون شفاعتهم كانوا يجلسون الى يمين الله . غير أن الكرامات والأفضال الخيرة ، الخلاقة للطبيعة فى كثير من الأحيان ، والتى كانوا يعتقدون أنها تنهمر حول أضرحتهم ، كانت تبرز بصورة أكيدة مسلك الحجاج الاتقياء الذين كانوا يزورون تلك الآثار الخالية من الحياة ، ولمسونها ، ويقبلونها ، على اعتبار أنها آثار فضائلهم وألهمهم . غير أن الأثر التذكارى الأهم من جمجمة الواحل صاحب الكرامات هو وجود صورة صادقة لشخصه وملاحظه من خلق فى الرسنسم أو التحت ، وأمثال هذه الصور ، التى تتفق مع المضامير البشرية وتلائمها ، كانت فى كل عصر من العصور موضع الفرح والاعزاز بفضل حبة المحبة الفردية أو الاجلال العام . ولقد كانت تماثيل أباطرة الرومان موزع التكريم المدنى ، بل والدني ، غير أن تماثيل الحكماء وأبطال الوطن كانت تمنح احتراما أقل زهواً ولكنه أكثر اخلاصا وصدقا ، وهذه الفضائل الدنيوية ، أو قل هذه الذنوب الرائعة ، تلاشت الى جانب أولئك المقدسين من الناس الذين ماتوا من قبل فى سبيل الملوك السماوى الدائم . وفى بادى الأمر جرت تجربة عبادة الصور والتماثيل فى حرص وتورع ، واتجه استخدام الصور المقدسة فى شئ من الحكمة الى تهذيب الجهلة ، وإيقاظ ذوى الايمان الفاتر ، واشباع تحيز المهتدين الوثنيين . ثم تطور الأمر تطورا بطيئا ،

وان يكن حتميا ، فانتقلت أمجاد الأصل الى الصورة ، وانته فثقياء
المسيحيين يقيمون الصلاة أمام القديس ، وتسير الى الكنيسة الكاثوليكية
شعائر الوثنية المتمثلة في المراكب ، وإيقاع الشموع ، وحرق البخور ،
وصوت الحقل أو التقوى أمام دليل قوى جليبه به الرؤى
والعجرات وسرى الاعتقاد بأن الصور التي تتكلم ، وتتحرك ، وتنفذ
الهم ، لابد أن تكون قد وهبت قوة الهية ، ويمكن اعتبارها موصفا صحيحا
للعلاقة الدينية - ولا شك في أن أجرا قلم قد يرتفع ويهتز لفضة تملكه
التهور وحاول أن يرسم الروح اللانهاية غير المحدودة وهي الأب الأزل
الأبدى الذي يسرى في الحقون كله ويحافظ عليه ، غير أن العقل البشري
سيطر عليه الخرافة إستباح لنفسه في سهولة أن يصور الملائكة
ويصنعهم ، وفوق كل شيء صورة ابن الله ، في التشكيل البشري الذي تنالوا
بأنفاده ، ولقد كان الانحياز الهلاني من الثالث منطلي بوجه بشري حقيقي ،
غير أن ذلك الجسد صعد الى السمسة ، ولولا أن أعين تلاميذه شاهدته
شبهه ، لتلاشت عبادة المسيح الروحية أمام بقايا القديسين المنظورة
وصنوبرهم ، وكان من اللازم والتناسب أن يحدث مثل ذلك التجاوز
فيما يتعلق بالعمراء مريم ، إذ كان القبر الذي دفنت فيه مجهولا ، وصنق
اليونان واللاتين أن روحها وجسدها صعدا الى السماء ، ورسخ استخدام
التمائيل والصور ، بل وعبادتها ، قبل نهاية القرن السادس ، وكان الخيال
الخصيب الذي تمتع به اليونان والآسيويون يتقبلها ويرحب بها ،
وازدان البائثيون والفاثيكان برموز خرافة جديدة ، غير أن المتبريرين
الخشنيين ورجال الدين الآريوسيين في الغرب قبلوا بفثور تلك الخرافة التي
تشبه عبادة الأوثان ، أما خيال اليونان المسيحيين وضميرهم فقد نفرا من
التمائيل الضخمة الصارخة المصنوعة من النحاس أو الرخام ، وكان في
رأيهم أن طلاء هادئا من الألوان يعتبر أسهلها للسكاة أكثر لياقة وأقل
إذاء للنظر .

وتوقف ميزة الصورة وأثرها على مشابقتها للأصل ، غير أن
المسيحيين الأولين كانوا يجهلون الملامع الأصلية للصادقة لابن الله ، وأمه ،
وحواريه ، ومن الأرجح أن تمثال المسيح في مدينة بانياس Panias
بفلسطين كان تمثالا لثقة أو مخلص دنيسوى ، وقد نبذ الفنوصيون
وأدينوا هم وتمائيلهم الدنسة ، ولم يجد خيال الفنانين المسيحيين
ما يسترشد به الا أن يقلد بطريقة سرية بعض النماذج الوثنية ، ثم تكونت
خرافة جديدة على أساس شعبي من قصة سوربة تحكى أمر الرسالة التي

أرسلها المسيح الى أبجاروس Abgaros (١) ، وهي قصة ذاع خبرها في أيام يوسيبوس (٢) ، وتخل عنها أنصارها الحديثون على غير رغبة منهم . وقد سجل أسقف قيصرية هذه الرسالة ، ومن العجب العجيب أنه نسي صورة المسيح - وهي انطباعة كاملة لوجهه على قطعة من القماش ، أشبع بها المسيح إيمان ذلك الملكى الغريب الذى كان قد استنجد بقدرته على الشفاء ، وعرض مدينة أذاسا القوية لتحميه من حقد اليهود . وتفسير جهل الكنيسة الأولى بهذا الموضوع هو أن الصورة ظلت حبيسة فترة طويلة من الوقت فى فجوة باحدى الجدران ، وبعد أن نسيبت هناك خمسمائة سنة أخرجها أحد الأساقفة الحكماء ، وبدأ يعبدها أبناء تلك الصور . وأول ماثرة لتلك الصورة ، بل وأعظم ماثرها مجدا ، هي أنها أنقذت المدينة من جيوش كسرى أنوشروان ، وسرعان ما لقيت الاحترام والتبجيل على اعتبار أنها ضمان للوعد الالهى بأن أذاسا لن يستولى عليها عدو أجنبى مطلقا . ومع أن النص الذى أورده المؤرخ بروكوبيوس ينسب انقاذ المدينة مرتين الى ثراء وشجاعة مواطنيها الذين اشتروا تقييد الملك الفارسى ، وحصلوا هجمات جيوشه ، الا أن المؤرخ الدنيس كان يجهل الشهادة التى اضطر الى الادلاء بها فى التاريخ الدينى الذى ألفه أيفاجريوس (٣) . وهي أن تمثال البلاديوم Palladium (٤) كان مكشوبا فوق الحصن ، وأن الماء الذى نثر على الوجه المقدس ألهب حماس المحاصرين داخل المدينة بدلا من أن يطفئه . وبعد هذه الكرامة الجليلة بقيت صورة أذاسا موضع الاحترام وعرفان الجليل ، وإذا كان أهل أرمينيا قد نبذوا الأسطورة ، الا أن اليونان الذين هم أكثر تصديقا عبدوا الصورة التى لم تكن من صنع بشر ، بل من خلق الأصل الالهى مباشرة . وهناك نشيد يزنطى يبين أسلوبه والمشاعر التى يعبر عنها الى أى مدى كانت عبادة هؤلاء الناس بعيدة عن الوثنية المفاضحة . يقول النشيد : « كيف نستطيع بعيوننا البشرية الفانية أن نتأمل هذه الصورة التى لا يجرؤ جنود السماء أن يشاهدوا بهاها الالهى ؟ انه « هو » الساكن فى السماء قد تنازل اليوم بزيارتنا عن طريق صورته

(١) أحد ملوك ميزوبوتاميا (العراق الآن) .

(٢) أسقف قيصرية (٢٦٠ - ٣٤٠ م) .

(٣) مؤرخ الكنيسة (٥٣٦ - ٦٠٠) . وكان مستشارا قانونيا لجريجورى بطريرك أنطاكية . ودافع عنه فى القسطنطينية ضد اتهم الموجهة اليه . وله كتاب اسمه التاريخ الكنسى فى ستة مجلدات .

(٤) تمثال باللاس Pallas Athena الذى قيل ان بقاءه كان ضمانا لآمان طروادة . وكان موجودا فى كثير من المدن الأخرى .

المقدسة ، انه « هو » الجالس على عرش الملائكة قد زارنا اليوم بصورة رسمها الآب بيده الطاهرة وشكلها بطريقة لا يمكن وصفها ، وهي صورة نقدها ونعبدتها في خوف ومحبة » . وقبل نهاية القرن السادس انتشرت في معسكرات الامبراطورية الشرقية ومدنها تلك الصور التي لم ترسبها يد بشرية (وقد عبرت اللغة اليونانية عن هذه العبارة بكلمة واحدة) ، وفي ساعة الخطر أو الغضب والهياج ، كان وجودها المقدس ينمش الأمل في صدور الفرق الرومانية ، أو يذكى شجاعنها . أو يهدئ من ثورتها وغضبها . وكانت أكثر هذه الصور من صنع ريشة البشر ، ولم يكن في مقدور صانعها أن يزعم إلا أنها تحمل للأصل شيئا ثانويا ، ولهذا لم يكن الاسم الذي يطلق عليها مناسباً . غير أنه كانت هناك صور أخرى جاءت من مصدر أسمي وأعلى ، واستمدت شبيهاً من اتصال مباشر بالأصل ، ووهبت من أجل ذلك قدرة معجزة مثمرة . وكانت أكثر هذه الصور طموحا تتطلع الى الارتقاء في محاكاتها لصور أذاً من شبه الابن لأبيه الى شبه الأخ لأخيه . وهذا شأن صورة المنديل في روما ، أو أسبانيا ، أو اورشليم ، وهو المنديل الذي مسح به المسيح عسقه الدموي وهو في ذروة الله ، ثم أعطاه للقديسة فيرونিকা . وانتقلت هذه السابقة المثمرة الى العذراء مريم ، والى القديسين والشهداء . ففي كنيسة ديوسبوليس بفلسطين ، نقش ملامح أم الله نقشا عميقا على عمود من الرخام . وازدان الشرق والغرب بصور من ريشة القديس لوقا ، وهذا الحواري الانجيلي ، الذي ربما كان طبيبا ، اضطر الى ممارسة مهنة الرسم ، التي كانت مهنة دنسة مهقوتة في نظر المسيحيين الأولين . ومن الجائز أن يبحث تمثال جوبيتر القائم على جبل أولمبوس والذي خلقه شمر هوميروس ونحته المثال فيدياس ، روح الورع والتعبد في عقلية فلسفية فترة من الوقت ، غير أن تلك الصور الكاثوليكية رسمها فنانون من الرهبان بطريقة لا تأثير لها وتدل على أشد الانحطاط في الذوق والعبقرية (١) .

« ليو » معظم التماثيل

نسربت عبادة الصور والتماثيل الدينية الى الكنيسة شيئا فشيئا وبطريقة غير محسومة . وكانت كل خطوة صغيرة تبهج العقل المؤمن بالخرافات لأنها تمنحه العزاء والبرء من الذنوب . ولكن في بدء القرن

(١) « ان أشكالك المنيبة تكاد تبرز من القماش ، وهي لا تقل عن التماثيل في رداءها » . هكذا ألقى قسيس يوناني ، في جهل أو تمصب ، صورا قدمها له الرسام تيتيان ، وكان القسيس قد طلبها منه ثم رفض قبولها .

الثامن ، حين كان سوء استخدام تلك الصور والتماثيل قد بلغ ذروته ،
 ايقظ اليونان الأكثر تهيبا خوفهم من أنهم ، تحت سيطرة المسيحية ، قد
 اعدوا ديانة آباءهم وأجدادهم وسبعوا في حزن وملل وصمم بالوثنيين -
 وعلى تهمة وجهها اليهم بصورة مستمرة اليهود والمسلمون الذين استمدوا
 من شريعة موسى ومن القرآن كراهية دائمة للتماثيل المنحوتة ولكل عبادة
 لغير الله . ومن الجائز أن عبودية اليهود كبحث حسابهم وأضعفت
 سلطانهم ، غير أنه المسلمين الطافرين ، الذين حكموا دمشق وهددوا
 القسطنطينية ، ألحقوا في ميزان التآبيب والتفريع وزنا ثقيلا متراكما ،
 هو وزن الحق والنصر . وكانت مدن سوريا وفلسطين ومصر محصنة
 بصور وتماثيل المسيح ، وأمه ، وقديسيه ، وعلنت كل مدينة نفسها
 بالأمل في دفاع معجز أو بأنها وعدت بذلك الدفاع . وفي غضون عشر
 سنوات استغراتها فتوحات العرب السريعة ، أخضعوا تلك المدن وتقبلوا
 على تلك التماثيل ، وكان في رأيهم أن رب الجنود قد أصدر حكما فاصلا بين
 عبادة هذه الأوثان الصماء الخالية من الحياة وبين أزدانها واحتقارها .
 وقاومت مدينة أذاسا فترة من الوقت هجمات الفرس ، غير أن المدينة
 المختارة ، عروسي المسيح ، أصابها الدمار المشترك ، وأصبحت صورته
 الالهية السيرة في أيدي الذين لا يؤمنون به وشاهدوا على انتصارهم . وبعد
 استمرقاق دام ثلاثمائة سنة أعيد تمشال البلاديوم إلى القسطنطينية المتعبدة
 نظير قديسة قدوسها اثنا عشر ألف جنبيه عن الفضة وإطلاق سراح مائتين من
 المسلمين ، وعقد هدنة دائمة لاقليم أذاسا . وفي هذه الفترة التي سادت بها
 المحنة وحفظ عليها الخوف والفرح استخدم الرهبان فصاحتهم في الدفاع
 عن الصور والتماثيل ، وحاولوا أن يحبطوا أن خطيشة الجزء الأكبر من
 الشرقيين والشقاق الذي حدث بينهم قد أفقدتهم عطف هذه الرموز الثينة
 وقضى على قيسنها وميزتها . غير أن هؤلاء الرهبان بددوا الآن يجابهون
 تدمير الكثير من بسطاء المسيحيين أو عقلائهم الذين استشهدوا بالتصوي ،
 والحقائق ، وبما كان يجري في العصور الأولى وكانوا في دخيلة أنفسهم
 يرغبون في اصلاح الكنيسة . وبما أن عبادة الصور والتماثيل لم تكن قد
 أقرتها أية قوانين عامة أو وضعسية ، لهذا كان نموها في الامبراطورية
 الشرقية بظننا أو سريعا تبعا لاختلاف الناس والعادات ، ودرجة الرقي
 المحلي ، وأخلاق وشخصيات الأساقفة . ومن ثم فإن تلك العبادة الرائجة
 كانت موضع الترحيب في العاصمة التي اتسمت بالرعونة والطيش ،
 وشجعته العبقرية المبدعة التي اتصف بها رجال الدين البيزنطيون .
 أما أقاليم آسيا البدائية النائية فقد كانت غريبة على تلك البدعة من الترف
 المقدس . ولقد احتفظت جماعات كثيرة من الفنوصيين والآريوسيين بعد
 تحولها إلى المسيحية بتلك العبادة البسيطة التي سبقت انفصالهم ، وظل

اهل أرمينيا ، وهم أشجع رعايا روما ، لا يطبقون رؤية الصور والتماثيل حتى القرن الثاني عشر * وظلت هذه الطوائف المختلفة من الناس تحتزن معينا من الكراهية لها والتحيز ضدها ، وكانت تلك الكراهية قليلة الاثر والأهمية في قري الأناضول وتراقيا ، ولكنها ربما كانت في أغلب الأحيان تؤثر في مستقبل الجندي ، أو الأسقف أو النخعي .

وكان الامبراطور ليو الثالث أسعد هؤلاء المغارين خطا ، وهو الذي جاء من جبال أيسوريا ليرتقى عرش الشرق ، وكان يجهل الادب الديني واللاهوتي ، غير أن تعليمه ، وعقله ، وربما اتصاله باليهود والعرب ، كل أولئك بعث في الفلاح المسكري كراهية الصور والتماثيل ، وكان يعتقد أن واجب الملك يحتم عليه أن يفرض على رعيته ما يحمله ضميمه . غير أنه في بدء عهد غير مستقر ، وخلال عشر سنوات من الكدح والمخطر ، خضع لحقارة النفاق ، وانحنى أمام الأصنام التي احتقرها ، وأرضى البحر الروماني بأن كان يجهر سنويا بأرتوذوكسيته وغيخته الدينية . وعندما بدأ اصلاح الديانة كانت خطواته الأولى معتدلة وحريصة ، فجمع مجلسا كبيرا من الأساقفة والسنانو ، وأصدر بموافقتهم قانونا يقضي بنقل كل الصور والتماثيل من المحراب والمذبح الى مكان مرتفع في الكنيسة ، حيث تستطيع الأيصار رؤيتها ، وحيث تكون يمتثلون عن خرافة الشعب . غير أنه كان مستحيلا من هذا الجانب أو ذاك كبيت الحافز السريع ، وإن يكن جافزا متعارضا ، وهو حافز التقديس من ناحية ، والكراهية من الناحية الأخرى ، فالصور المقدسة ظلت في ذلك الوضع المرتفع ثماني أنصبابها وتشنه الطاغية ، وقد ثار هو نفسه لتلك المقاومة ولهذا الاتهام العنيف ، وأتهمه حزبه بأنه لم يقم بواجبه كاملا ، وألح عليه بأن يحذف جذو الملك اليهودي الذي لم يتورع عن تحطيم الشعبان النحاسي الذي كان في الهيكل . فأصدر مرسوما ثانيا حرم فيه وجود الصور الدينية واستبدالها بسواء . وعلى هذا ظهرت كنائس القسطنطينية والولايات من الوئسية ، وأزيلت صور المسيح ، والمذءاء ، والقديسين ، أو طليت جدران المبني بطريقة رقيقة من الطلاء . ولقد لقيت طائفة محطى الصور سندا وتأييدا من ستة أباطرة يحكمون بأمرهم ويفيضون حسابا ، واشتبك الشرق والغرب في صراع صاخب دام مائة وعشرين عاما . وكانت خطة ليو الأيسوري أن يصدر حكما يدين فيه الصور على أن يكون ذلك الحكم جزءا من العقيدة ، ويقتضى سلطة مجلس عام ، غير أن دعوة مثل هذا المجلس كانت من نصيب ابنه قسطنطين (١) . ورغم أن التعصب الديني الظاهر قد وسم ذلك المجلس

(١) هو قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) .

بأنه اجتماع يضم الحمقى والملاحدين ، الا أن القرارات المفروضة المبتورة التي أصدرها هؤلاء الناس إنما تحمل الكثير من علائم التعقل والتقوى . وقد أسفرت مناقشات وقرارات كثير من المجالس الكنسية في الولايات عن دعوة مجلس عام عقد في ضواحي القسطنطينية ، وتألف من عدد محترم من أساقفة أوروبا والأناضول بلغ ثلاثمائة وثمانية وثلاثين أسقفا ، لأن بطارقة أنطاكية والاسكندرية كانوا عبيد الخليفة ، كما أن الحبر الروماني كان قد أبعد كنائس إيطاليا والغرب عن الاتصال باليونان . واحتل ذلك المجمع التمييزي مرتبة المجلس العام السابع واتخذ سلطاته ، ومع ذلك فإن هذا الاسم نفسه كان بمثابة اعتراف بالمجالس الستة السابقة ، التي عملت جاهدة على بناء صرح العقيدة الكاثوليكية . وبعد مناقشات خطيرة دامت ستة أشهر أصدر هؤلاء الأساقفة قرارا إجماعيا حمل توقيعاتهم ، وهو يقضي بأن كل الرموز المرئية ، الا في القريان المقدس ، تعتبر الحادا أو هرطقة ، وبأن عبادة الصور هو افساد للمسيحية وتجديد للوثنية ، وبأن الذين يرفضون تسليم الأشياء التي تعبدوها خرافتهم الخاصة ، إنما يقتربون جريرة عصيان سلطة الكنيسة وسلطة الامبراطور . وهلل الأساقفة في أصوات عالية مخلصة ، وأشدادوا بفضايا قاديهم ومخلصهم الدنيوي ، ووكلوا الى غيرته وعدالته تنفيذ أحكامهم الروحية . وفي مجلس القسطنطينية ، كما في المجالس السابقة ، كانت ارادة الملك هي سنة الايمان الأسقفى ، غير أني ، فيما يختص بتلك المناسبة ، أميل الى الشك في أن أكثرية كبيرة من الأساقفة ، قد ضحوا بضمايرهم الباطنة مدفوعين بالأمل أو الخوف . وكان المسيحيون في الفترة المظلمة الطويلة التي سادت فيها الخرافة قد ابتعدوا كثيرا عن بساطة الانجيل ، ولم يكن من السهل عليهم أن يتبينوا الدليل ، ويعودوا ادراجهم خارجين من متعطفات تلك المتاهة . وامتزجت عبادة الصور امتزاجا كاملا ، على الأقل في خيال أصحاب الورع ، والتقوى ، بالصليب ، والعذراء ، والقديسين وآثارهم ، وغطت الأرض المقدسة سحابة من المعجزات والرؤى ، وتخذرت أعصاب العقل ، وحب الاستطلاع والميل الى الشك بعادات الطاعة والتصديق . وقد اتهم قسطنطين نفسه بأنه أجاز باذن ملكي الشك في أسرار الكاثوليك ، او انكارها ، أو السخرية منها ، غير أن تلك الأسرار كانت راسخة في عقيدة أساقفته العامة ، ولم يكن في مقدور أجرا محطى الصور والتماثيل الدينية أن يهاجم آثار العبادة العامة الا وهو يشعر بالقزع والرهبة في دخيلة نفسه ، تلك الصور والتماثيل التي كرسست لمجد سادته السماويين . وفي حركة الإصلاح التي قامت في القرن السادس عشر كانت الحرية والمعرفة قد وسعت مواهب الانسان ومداركه ، وطفى التعتش الى التجديد

عل احترام القديم ، واستطاعت حيوية أوروبا أن تحتقر تلك الانسحاب
والأطباء التي كانت تزعج ضيق اليونان المتسم بالذلة والمرض .

ولا يمكن أن تتكشف فضيحة قرطبة مخجلة إلا إذا أعلنها للناس
صوت النفي الديني ، غير أن أكثر الناس جهلا يستطيعون رؤية تدليس
آلهم المروية وسقوطها ، كما أنه أقلهم حسا لابد أن يشعروا بذلك .
وقد وجه ليو أول هجماته العدائية الى تمثال مرتفع للمسيح في مدخل
القصر وفوق بابيه ، وأعد سلما للقيام بهذا الهجوم ، غير أن جمهورا من
المتحمسين والنساء طوحوا به في عنف وقسوة ، وشاهد هؤلاء الناس في
نشوة دينية زبانية التدينس وهم يسقطون من ذلك الارتفاع ويرتلون
بالأرض ، واستشهد هؤلاء المجرمون الذين استحقوا قصاصي القتل
والثورة ، وأساءوا بذلك الى أمجاد الشهداء القدامى . وقام الناس بالكثير
من الهياج والشغب في القسطنطينية وفي الولايات لمقاومة تنفيذ القرارات
الامبراطورية ، وتعرض شخص الامبراطور للخطر ، وذبح ضباطه ، وبذلت
السلطات المدنية والعسكرية أقوى الجهود لقمع ذلك الحماس الشعبي .
وكانت الجزر الكثيرة في الأرخبيل ، أو البحر المقدس ، مليئة بالتماثيل
الدينية والرهبان . ولم يتورع أنصار هؤلاء الرهبان وتلك التماثيل عن
نيل عدو المسيح ، وعدواؤه وقديسيه ، وسلحوا أسطولا من القوارب
والغلايين ، ورفعوا أعلامهم المقدسة ، وأبحروا في جراتهم وبسالته صوب مرفأ
القسطنطينية لكي يجلسوا على العرش شخصا جديدا يكون مقربا لله
وللشعب وكانوا في ذلك الهجوم يعتمدون على عون يأتيهم بمعجزة ، غير أن
معجزاتهم كانت عديمة الجدوى أمام « قذائف النار اليونانية » ، وبعد
هزيمة أسطولهم واحتراقه ، تركت الجزائر المارية لرحمة الفاتح أو
عدالته . وقام ابن ليو ، في السنة الأولى من حكمه ، بحملة ضد العرب ،
وفي أثناء غيابه استولى قريبه أرتافاسديس Artavasdes بطل العقيدة
الأرثوذكسية . الطموح ، على العاصمة والقصر والعرش . وأعيدت عبادة
الصور والتماثيل في طفر وانتصار ، وتخلى البطريرك عن رايته ، أو أخفى
أجاسيسته ، واعترفت روما الجديدة والقديمة بالحق العادل للمغضب .
وهرب قسطنطين الى الجبال التي نشأت فيها أسرته ، غير أنه هبط ثانية
على رأس مريديه من الأيسوريين الشجعان ، وأزعج انتصاره الحاسم ،
جبرش المغتصبين وتكهناتهم . غير أن عهده الطويل ساءه الصخب والفتن
والنأمر ، والكراهية المتبادلة ، والانتقام العموي ، وكان اضطهاد الصور
والتماثيل دافعا من الدوافع التي أوغرت صدور أعدائه ، أو ذريعة تذرعوها
بها لمناصبته العداء ، وإذا كانوا قد خسروا تاجا دينويا ، فقد كافأهم
اليونان بتاج استشهاد ، وفي كل عمل من أعمال الخيانة السافرة أو الخفية

كان الامبراطور يشعر بما يضره له الرهبان من عداوة لا تعرف الصلح ، لانهم عبيد أمناء للخزافة التي يرجع اليها الفضل في ثرائهم ونفوذهم . فكانوا يصلون ، ويعطون ، ويصفحون ، ويشيرون النفوس ، ويتآمرون . وانهزم من فلسطين الموحشة سيل من الاتهام ، وجرى قلم القديس يوحنا الدمشقي (١) ، آخر الآباء اليونانيين ، يطلب الهلاك للطاغية في هذه الدنيا وفي الآخرة . وليس لدى فسحة من الوقت لبحث الى اى مدى كان الرهبان هم السبب في خلق الالهم الحقيقية أو المصطنعة ، والى اى مدى بالغوا في تلك الآلام ، أو لمعرفة عدد من فقدوا حياتهم أو أطرافهم ، أو عيونهم أو لحاهم ، نتيجة قسوة الامبراطور . ولقد انتقل الامبراطور من معاقبة الأفراد الى الغاء طائفة الرهبان كلها ، وبما أن تلك الطائفة كانت غنية ولا تفع منها ، فمن الجائز أن سخطه قد أثاره الجشع وبررته الوطنية ، وكان الاسم المخيف « التتني » ، الذي أطلق على رجل يتولى مهمة التفتيش العام ، مصدر فزع وكرامية لأصحاب الأردية السوداء (الرهبان) ، وقد حلت الجماعات الدينية ، وحولت مبانيهم الى مخازن وتكنات ، وصودرت أراضيهم وامتعتهم ، ومواشيهم ، وان سوابقنا الحديثة لتؤيد الاتهام الموجه الى الامبراطور أن آثار الأديرة ، بل والكتب الموجودة فيها ، قد تعرضت لتخريب عابث داعر ، أو خبيث حاقد . والى جانب تحريم مهنة الرهبنة وردائها ، حرمت عبادة المسور والتماثيل تحريما صارما ، سواء أكانت العبادة خاصة أم عامة ، ويبدو أن الامبراطور قد أجبر رعايا الامبراطورية الشرقية أو على الأقل رجال الدين منهم ، على نبذ الوثنية والاقلاع عنها .

ثورة ايطالية

نبذ الشرق الصابر صوره وتماثيله الدينية مرغما كارها ، غير أن حرص الايطاليين المستقلين دفعهم الى تقبل هذه العبادة بشغف ، والى الدفاع

(١) كان يوحنا أو منصور ، نبلا مسيحيا من دمشق يشغل منصبا كبيرا في خدمة الخليفة ، وعرضه حماسه نظمية الصور لسلط الامبراطور اليوناني ودميسته ، وقد اشتبه في أنه على اتصال خائن بإعداد الخليفة ، فقطعت يده اليسرى ، ولكن المذراء أعادتها له بصورة معجزة . وبعد هذا الانقلاب استقال من منصبه ، ووزع ثروته ، وانزوى في دير القديس ساباس ، بين أورشليم والبحر الميت . والقصة شهيرة ذاتمة ، غير أن المؤلف الذي كتب عنه ، وهو الأب لكوين Lequien أثبت لسوء الحظ ، أن يوحنا الدمشقي كان راحيا فعلا قبل حدوث النزاع حول حركة عظيم الصور والتماثيل الدينية .

عنها في عزم وقوة . وكان بطريرك القسطنطينية وبابا روما متساويين من حيث المقام والاختصاصات الدينية ، غير أن الحبر اليوناني كان عبدا أجيرا تحت عين سيده ، الذي يستطيع بإياديه من رأسه أن ينقله من الدير الى العرش الأسقي ، أو من العرش الى الدير . وكان أساقفة اللاتين يعيشون وسط متبربري الغرب في مكان ناء محفوف بالأخطار ، وأثار ذلك فيهم شجاعة وحرية ، وكان انتخايم الشعب يحجب الرومان فيهم ويقرهم الى قلوبهم ، وكانوا يستخدمون دخلهم الكبير في التخفيف من فاقة الافراد والجماعات . وأرغمهم ضعف الأباطرة واهمالهم على الاهتمام بأمان المدينة الدنيوى ، سواء في السلم أو في الحرب . وفي مدرسة المحنة والشدة كان الكاهن يتعلم بصورة غير محسوسة فضائل الحاكم وطموحه ، وكان الايطالى ، أو اثيوبانى ، أو السورى ، الذى يجلس على كرسي القديس بطرس ، يتخذ طابعا واحدا ويسير على سياسة واحدة ، وبعد أن فقدت روما جيوشها وولاياتها ، أعادت لها عبقرية البابوات وثرواتهم تفوقها وسيادتها . ومن المتفق عليه أن سلطانهم قام في القرون الثامن على الثورة ، وأن هرطقة محطى الصور والتماثيل الدينية هي التى أحدثت تلك الثورة وبورتها . غير أن مسلك جريجورى الثانى وجريجورى الثالث في هذا الصراع المشهود قد فسرتهم رغبات أصدقائهما وأعدائهما تفسيرا مختلفا . فالكتاب البيزنطيون يعلنون بالاجماع أنها ، بعد تحذير عديم الثمرة ، قررا انفصال الشرق عن الغرب ، وحرما الطاغية الذى دنس الأماكن المقدسة من دخل ايطاليا والسيادة عليها . ولا يزال اليونان ، الذين شاهدوا اكتمال الانتصارات البابوية ، يصبرون في وضوح أكثر عن حرمانهم من أخوية الكنيسة ، وبما أنهم أكثر تعلقا بدينتهم من تعلقهم ببلادهم ، فانهم يمتدحون حماس هذين الرجلين الرسولين (البابوين) وأرثوذكسيتهما بدلا من توجيه اللوم اليهما . أما أنصار روما الحديثون فانهم يتوقون الى قبول هذا المديح وتلك السابقة ، وهذا المثل المجيد العظيم لخلع هراطقة ملكيين يشيد به الكاردينال بارونىوس والكاردينال بللامين (١) ، وإذا سئلا عن السبب في عدم توجيه نفس التهديدات الى أشباه نيرون وجوليان من الأقدمين ، وأجابوا بأن ضعف الكنيسة الأولى هو الذى كان السبب في صبرها على ولائها . وفي هذا الشأن لا تختلف آثار المحبة عن آثار الكراهية ، وأنا لنرى البروتستانت المتحمسين ، الذين يسعون الى إثارة سخط الملوك والحكام وإثارة مخاوفهم ، يسهبون في وصف وقاحة جريجورى الثانى والثالث وخيانتهم للملكهما الشرعى .

(١) كاردينالان عاشا في القرن السادس عشر .

ولم يدافع عنهما الا الكاثوليك المعتدلون ، وأغلبهم ينتمون ، الى الكنيسة
الغالية ، وهم الذين يحترمون القديس دون الموافقة على الذنب . وهذان
الدفاعان عن تاج الملك وتاج البابوية يحيطان صدق الحقائق بقواعد
العدالة ، والكتاب المقدس ، والقول المأثور ، ويستشهدان باللاتين ، وبسير
حياة البابوات أنفسهم ورسائلهم .

وما تزال هناك رسالتان أصليتان كتبهما جريجورى الثانى الى
الامبراطور ليو ، واذكنا لا نستطيع اطراءهما كلاصديق نماذج البلاغة
والمنطق ، فانهما ترسمان صورة لمؤسس المملكة البابوية ، او على الأقل
تبيينان القناع الذى اختفى وراءه . يقول جريجورى : « لقد تذوقنا خلال
عشر سنوات صافية موقفه عزاء رسائلك للملك السنوية ، التى تحمل
توقيعك مكتوبا بخط يدك بالحبر الأرجوانى ، ووعودك المقدسة بالتمسك
بمقيدة آباءك الأرثوذكسية . نيا للأسف على التغير ، وبالجسامة الفضيحة .
انك الآن تتهم الكاثوليك بالوثنية ، وانك يهذه التهمة انما تظهر جهلك
وبعدك عن التقوى . وقد اضطررنا الى أن نستخدم خشونة الأسلوب
والحجج لكى تتفق مع هذا الجهل . ان المبادئ الأولى للأدب المقدس
انما تكفى لاحراجك ، ولئلا أنك لمخلت مدونة أولية وجاهرت بعدائك
لعبادتنا . لقف الأبطال السذج الإنقياء بكتيهم التى يتعلمون منها القراءة
والهجة فى وجهك ، . وبعد هذه التحية المهذبة اللائقة يتناول البابا بيان
الفرق العادى بين الأوثان القديمة وبين الصور والتماثيل الكاثوليكية ،
فالأولى هى صور خيالية لأشباح أو شياطين ، فى وقت لم يكن الرب الحقيقى
قد أظهر شخصه فى أية صورة مرئية ، أما الثانية فهى أشكال صادقة
للمسيح ، وأمه ، وقديسيه ، وقد وافقت هذه الأشكال ، بما أتت من
معجزات كثيرة ، على براءة هذه العبادة النسبية وفضلها . وفى الحق
أن جريجورى لابد أنه كان واثقا من جهل ليو ، حيث انه أكد أن استخدام
الصور كان مستندرا منذ عهد الرسل ، وأنه كان لها وجود مبجل محترم
فى المجالس الكنسية السنة التى عقدتها الكنيسة الكاثوليكية . ثم لجأ
البابا الى حجة أكثر تمويها تستند الى ما للصور من سيطرة حالية ،
والى ما جرى بشأنها حديثا : وقال ان انسجام العالم المسيحى يقوم مكان
طلب عقد مجلس عام ، ويصنف جريجورى بأن مثل هذه المجالس
لا يكون لها نفع الا تحت حكم أمير أرثوذكسى ، وينصح ليو الفاجر المتجرد
من الانسانية ، والذي يعتبر مذنبا أكثر من أن يعتبر هرطقيا ، ينصحه
بالهتوف والصمت والانصياع المطلق لمرشديه الروحانيين فى القسطنطينية
وروما . ويحدد الحبر حدود السلطة المدنية والسلطة الدينية ، فيخصص
الجسد للأولى ، والنفس للثانية ، ويقول ان سيف العدالة فى يد الحاكم ،

أما رجال الدين فمضى يدهم سلاح القوى وأمضى ، وشعر سلاح العزم من الكنيسة ، وأنهم في ممارسة مهمتهم الالهية لا يستطيع الابن الغيور أن يرى آباء المذنب ، ومن ثم فإن خليفة القديس بطرس يستطيع تقاطع بلوك الأرض ، ومضى يقول : « أيها الطاغية ، أنك تهاجمنا بيد عسكرية من لحم ودم » ونحن العزل النسطاء لا نستعنا إلا أن نتوصل إلى المسيح ، ملك الجنوخ السماويين ، أن يبعث لك شيطاننا يحطم جسدك وبذلك يتاح لنفسك الخلاص » لقد أعلنت في زهو أحق : « سوف أرسل أواصرى إلى روما ، وأحطم تمثال القديس بطرس قطعة قطعة ، وأجىء بجرجورى إلى موطن العرش الامبراطورى مبعدا عن البلاد ومكبلا بالسلاسل كسلفه ماركن » ، زانى لادعو الله أن يسمح لى بأن أخطو خطو القديس ماركن ! ولكنى أحذرك من أن مصير الامبراطور كونستانتز ينتظر مضطهدى الكنيسة . ولقد أصدر أساقفة صقلية حكما غادلا بالادانة على ذلك الصاعية ، وبعد ذلك قتله أحد خدم القصر ، وكل ذنوبه فوق ظهره ، بينما لا يزال القديس موضوع التبرجيل والاحلال من الأمم السنكودية التى انتهى بيهتها فترة نفيه وحياته . غير أنه من واجبتنا أن نعيش لكن نعلم الشعب المؤمن وثقت إلى جواره ، وليس هناك ما يضطرنا إلى المخاطرة بحياتنا إذا تشب ببتنا وبينكم قتال . ورغم أنك لا تستطيع الدفاع عن الرعايا الرومان ، فإن موقع المدينة البغرى قد يعرضها لنهبك وسلبك ، غير أننا نستطيع أن ننقل إلى أول قلعة فى بلاد اللبازد على بعد أربعة وعشرين (ستاديا وهو ما يساوى ٦٠٧ أقدام انجليزية) ، ولك عندئذ أن تطارد الرياح . هل تجهل أن البوابات هم رابطة الوحدة ووسيلة السلام بين الشرق والغرب ؟ أن عبود الأمم مركزة على شخصنا الضعيف المتواضع ، وهى تقدس الحوارى القديس بطرس كاله على الأرض ، وهأت تهدد بتحطيم تمثاله . ان ممالك الغرب الداخلية النائية تقدم ولاها للمسيح ولناثيه ، وما نحن فتاهت لزيارة ملك من أقوى ملوكها يرغبت فى أن يتلقى من أيدينا سر المسودية المقدس . لقد خضع المتبربرون للانجيل ، ولم يبق هناك أحد يحرك يصم أذنيه لصوت الراعى . لقد اتقد الغضب فى صدور هؤلاء المتبربرين الأتقياء ، وهم متعطشون للانتقام ممن سيطر سيف الاضطهاد على الشرق ، فإذا أصرت على موقفك قنح أبرياء من الدماء التى سوف تسفك فى الصراع ، وليقع ذنب هذه الدماء على رأسك » .

وأول هجوم قام به ليو ضد القمائل الدينية فى القسطنطينية كان قد شاعده بسهوز من الغرباء من ايطاليا والغرب ، ثم روى فى حزن وسخط ذلك الصل الدنس الذى قام به الامبراطور ، ولكنهم عندما تلقوا قراره التحريمى تولاهم الخوف على آلهتهم المحلية . وقد الغيت من كل

كنائس إيطاليا نمائيل المسيح ، والعذراء ، والملائكة ، والشهداء
والقديسين ، وعرض على الحبر الروماني أن يختار بين أمرين أحلاهما مر ،
فأما رضا الملك ثبنا لموافقته ، وأما التجريد والنفي فصا صا على العصيان .
ولم تسمح له أخيرة ولا السياسة بأن يتردد ، وتبين لنا اللهجة المتشائمة
التي خاطب بها الامبراطور ثقته في صدق عقيدته أو قوة مقاومته . ولم
يعتمد الحبر الروماني على الصلوات أو المعجزات ، بل امتشق الحسام ضد
العدو العام ، وحذر الايطاليين في رسائله الرعوية من الخطر المحقق
بهم ، ووجه نظرهم الى الواجب عليهم . وعند هذه الإشارة هبت منى
رافنا ، وفينسيا (البندقية) ، وبنتابوليس ، والمدن الخاصة لنائب
الامبراطور ، هبت كلها لتأييد قضية الدين ، وكانت أغلب قوتهم الحربية
بالبحر والبر تتألف من الوطنيين ، وسرت روح الوطنية والحساس نى
الجنود المرتزقة الغرباء ، وأقسم الايطاليون أن يعيشوا ويموتوا دفاعا عن
البابا والتماثيل المقدسة ، وكان الشعب الروماني مخلصا لأبيهم الروحي ،
وحتى اللمبارد أنفسهم كانوا طامعين في نوال نصيب من فضل جريه
المقدسة ومزيتها . وكان أكبر عمل من أعمال القدر بالامبراطور هو تدمير
نمائيله ، غير أنه كان في الوقت عينه عملا انتقاميا واضحا أكثر ما يكون
الوضوح . أما أشد اجراءات الثورة فعالية ، وأكثرها ارضاء للشوار فهو
أنهم امتنعوا عن دفع الجزية المفروضة على إيطاليا ، وحرموا الامبراطور
يذلك من قوة أساء استخدامها منذ عهد قريب يفرض ضريبة جديدة .
وكان انتخاب الولاة والحكام من العوامل التي حافظت على شكل من أشكال
الحكم ، وبلغ السخط العام حدا جعل الايطاليين على استعداد لانتخاب
امبراطور أرثوذكسى ونقله على رأس أسطول وجيش الى قصر
القسطنطينية . وفي ذلك القصر أدين ، جريجورى الثانى وجريجورى الثالث
أسقفا روما ، بخلق الثورة ، وبذلت كل محاولة ، بالتدليس أو بالقوة ،
للقبض عليهما وقتلهما . ولهذا زار المدينة ، أو هاجمها ، ضباط الحرس
ودوقات ، ونواب الامبراطور ، من أصحاب المناصب الرفيعة أو المهام
السرية ، ونزلوا الى البر مع قوات أجنبية ، وحصلوا على بعض المساعدات
الداخلية ، ولا شك في أن أهل نابولى المتعصبين لخرافاتهم الدينية قد
يستشعرون الخجل من أن آباؤهم الدينيين كانوا على اتصال بقضية
الهيراطقة . غير أن شجاعة الرومان وبقتهم صدت هذه الهجمات السرية
أو السافرة ، فهزم اليونان وقتلوا ، ومات زعمائهم بصورة شائعة ، ورفض
البابوات رغم نزوعهم الى الرحمة والشفقة ، أن يتوسطوا من أجل هؤلاء
الضحايا المذنبين . وفي رافنا كانت أسماء المدينة الكثيرة تعاني من عداء
دموى ورائى ، ووجدوا في الخصومة الدينية غذاء جديدا للفتنة ، غير أن
انصار التماثيل كانوا أكثر عددا أو أقوى روحا وشجاعة ، عندما حاول

نائب الامبراطور ان يصد التيار فقد حياته فى شغب شعبي • وارسل الامبراطور أسطولا وجيشا لمعاينة هذا العمل الفاضح الفاحش ، وبعد أن تعرض اليونان لخسارة كبيرة وتأخير طويل بسبب الرياح والأمواج • نزلوا جواز رافنا ، وهددوا بإبادة العاصمة المذنية ، وبأن يحذوا حذو جستنيان الثانى ، أو يفوقوه فيما فعله حينما أراد عقاب ثورة سابقة ، فاختار خمسين فردا من سكانها البارزين وقتلهم ، وارتدى النساء ورجال الدين على الأرض يتلون الصلوات وهم يلبسون الخيش ، وقد علا وجوههم شحوب الموت ، وحمل الرجال السلاح للدفاع عن بلدهم ، وألف الخطر المشترك بين الأحراب وفضل كل هؤلاء خوض المعركة على شقاء الحصار الطويل • وحينما كان القتال على أشده بين الجيشين ، وكل منهما يتقدم مرة ويتأخر مرة أخرى ، ظهر طيف ، وسمع صوت ، وانتصرت رافنا لأن الطيف أكد لها النصر • وعاد الغرباء الى سفنهم ، غير أن شاطئ البحر الزاخر بالناس امتلا بعدد كبير من القوارب ، وتلوث مياه نهر البو بالدماء الى درجة أن الناس ، تحيزا منهم ، امتنعوا عن أكل سمك النهر طوال ستة أشهر ، وأصبح ذلك النصر موضع احتفال سنوى ساعد على دوام عبادة التماثيل وكرامية الطاغية اليونانى • وفى وسط انتصار الجيوش الكاثوليكية عقد الحبر الرومانى مجلسا من ثلاثة وتسعين أسقفا ضد هرطقة مخطئى التماثيل الدينية ، وأصدر بموافقتهم حرمانا عاما ضد جميع من يهاجمون الآباء الدينين وتماثيل القديسين ، سواء بالكلام أو الأعمال • وانطبق هذا الحكم بصورة ضمنية على الامبراطور • غير أنه اعترض اعتراضا أخيرا عديم الجدوى ، ويفهم من هذا أن اللعنة ظلت مسيطرة على رأسه المذنية • وما أن حقق البابوات سلامتهم ، وعبادة التماثيل ، وحرية روما وإيطاليا حتى تراخوا فى شدتهم وتجاوزوا للبلاط عن بعض بقايا السلطة • ودفعتهم آراؤهم المعتدلة الى تأخير انتخاب امبراطور جديد ثم الى منعه ، ونصحوا الايطاليين ألا ينفصلوا عن جسم الملكية الرومانية • وسمح لمناصب الامبراطور بأن يقيم فى رافنا أسيرا أكثر منه سيديا ، وظل حكم روما وإيطاليا يمارس باسم خلفاء قسطنطين حتى لبس شارلمان تاج الامبراطورية •

ولقد سبق أن قاست حرية روما من ظلم جيوش أغسطس وفتون دمهائه وما هى الآن تخلص عن نفسها ، بعد سبعمائة وخمسين سنة من الاسترقاق ، نير الامبراطور ليو الأيسورى واضطهاده • وكان القياسرة قد قضوا على الانتصارات التى حققها قناصل روما ، وعندما اضمحلت الامبراطورية وسقطت كانت حدودها المقدسة قد تراجعت شيئا فشيئا

وابتعدت عن المحيط ، ونهر الراين ، ونهر الدانوب ، ونهر الفرات ، وعادت روما الى حدودها القديمة ، من فيريو الى ترائسينا ، ومن فارسي الى مصب نهر التيبر . وعندما استبعد الملوك وانتهى عهدهم ، ارتكزت الجمهورية على ذلك الأساس الراسخ المتين الذي شادته حكمة الرومان وقضيلتهم . وأصبحت السلطة التشريعية الدائمة مقسمة بين حاكمين سنويين ، وظل السناتو يدارس سلطة الادارة وسلطة الشورى ، ووزعت السلطة التشريعية في مجالس الأمة بحسب مقياس متناسب من الملكية والخدمات ، ولقد كان الرومان الأوائل يجهلون فنون الترف ، فارتقوا بعظم الحكم وعلم الحرب ، وكانت ارادة المجتمع مطلقة ، وحقوق الأفراد مقدسة وكان الدفاع عن الفتوحات موكولا الى ثمانية وثلاثين ألفا من المواطنين المسلحين ، وهكذا تشكلت عضاية من التصوص والخراجين على القانون وعُدت في قالب أمة تستحق الحرية وتطمح في المجد . وعندما تلاشت نسيئة الإباطرة اليونان ، تمتلكت في أنقاض روما صورة مخزنة للتدهور ونقص السكان وأصبح استرقاقها عادة ، وخريبتها عابرة تجيء بها الصدفة ، وكان ذلك كله وليد خرافتها الدينية ، وموضع دهشتها وفزعها . واندثر من ذاكرة الرومان ، ومن حياتهم العملية ، آخر أثر من مادة الدستور ، بل ومحيث أشكاله نفسها ، ولم تعد لديهم المعرفة ، أو القضييلة التي تمكنهم من بناء صرح دولة لها كيانهما . وكانت بقيتهم الضئيلة ، وهي ذرية المبيد والقرباء ، موضع الازدراء والاحتقار في أعين المتبربرين ، وكلما كان الفرنجة أو اللبلارد يسيرون عن احتقارهم الشديد الميرير لعدو من أعدائهم كانوا يتسمنونه رومانيا ، وتحت هذا الاسم كما يقول الأسقف ليوتبراغند Lieutprand ، « نضم كل ما يتسم بالحقارة والجبن والخيانة ، وكل ما يتصف بالتطرف في الجشع والترف ، وكل رذيلة تحط من قدر الطبيعة البشرية » . وبحكم الضرورة التي أملاها وضع سكان روما عليهم انصبوا في قالب فج من الحكم الجتهوزي ، واضطروا الى انتخاب بعض القضاة في وقت السلم ، وبعض القادة في وقت الحرب ، وكان التبلد يجتمعون للتشاور ، وكانت قراراتهم لا توضع موضع التنفيذ الا بعد اتفاق كلمة الشعب وموافقة عليها . ومع أن السناتو والشعب الروماني استعادا الطابع القديم ، الا أن الروح لم يعد لها وجود ، وتلوث استقلالهم الجديد بعار الصراع الصاخب الذي يتسم به الضغط والظلم ، ولم يكن ممكنا أن يستعاض عن الافتقار الى القوانين الا بتأثير الدين ، واستطاع سلطان الاسقف أن يملف من آرائهم الداخلية والخارجية . وبفضل احساناته ، وعظائمه ، واتصاله بملوك الغرب وأخباره ، وخدماته الحديثة ، وعرفان الرومان لفضله ، والقسم الذي أقسموه بالولاء له ، كل أولئك عودهم على

اعتبار الحاكم أو الملك الأول للمدينة . ولم يكن مما يسمى إلى التواضع المسيحي الذي اتسم به البابوات أن يطلق عليهم اسم « المولى » Dominus . وما تزال وجوههم وأسمائهم ظاهرة على أقدم العملات . أما سلطتهم الزمنية فإن ألف سنة من التبجيل والاحترام تؤكدتها وتدعمها . كما أن أئبل لقب شرف يحصلونه قد اختاره لهم اختياراً حراً ذلك الشعب الذي أنقذوه من العبودية .



أخضع اللبارد مدينة رافنا ، وأنهوا حكم نائب الإمبراطور ، ثم هاجموا روما . وأُنقذت روما على يد بين ، ملك الفرنجة ، وفي نهاية الأمر استسلم اللبارد لابنه شارلمان في سنة ٧٧٤ .

علاقات بين وشارلمان والبابوات

تشكل الالتزامات المتبادلة بين البابوات وأسرة كارلوفنجيا نقطة عامة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، وبين التاريخ المدني والتاريخ الديني . ولقد حظي أنصار الكنيسة الرومانية من غزو إيطاليين بفرصة موثقة ، ولقب مظهرى جذاب ، وتمنيات الشعب ، وصلوات رجال الدين ودسائسهم . غير أن أهم هدية قدمها البابوات إلى أسرة كارلوفنجيا هي منصب ملك فرنسا ومنصب نبيل روما Patrician ١ - في ظل مملكة القديس بطرس الكهنوتية بدأت الأمم ترجع إلى عادة التطلع إلى ضفاف نهر التيبر بحثاً عن ملوكها ، وقوانينها ، والمتكهنين بمصيرها . واحتار الفرنجة بين اسم حكومتهم وجوهرها . فكل سلطات الملك كان يمارسها بين ، ناظر القصر الملكي ، ولم يعوزه لبلوغ منتهى أطباعه إلا اللقب الملكي . ولقد سحق أعداءه بقوة بأسه ، وضاعف عدد أصداقائه بكرمه وسخائه ، وكان أبوه (١) هو الذي أنقذ العالم المسيحي ، وتعاقب من هذه

(١) هو شارل مارتل الذي كان ناظراً للقصر في عهد الملك الضعيف ثيودوريك الرابع الميروفنجي - (الترجمة) .

الأسرة أربعة أجيال كانوا جديرين بما يكفوا من مكافئة بل أنهم أضفوا عليها مجدا وشرفا . وكان الملك الضعيف شلدريك الميروفنجي ، آخر سلالة كلوفيس ، لا يزال محتفظا باسم الملكية وصورتها ، غير أن حقه الملكي الذي عفا عليه الزمن لم يعد يستخدم إلا كأداة للفتنة ، وكانت الأمة راغبة في استعادة بساطة الدستور ، كما أن بين ، وهو فرد من الرعية وحاكم في الوقت عينه ، كان يطمح في تدعيم مركزه ومصدر أسرته . وكان ناظر القصر والنبلاء مرتبطين بقسم الولاء للملك الصوري ، ودم أسرهم كلوفيس في نظرهم كان دما نقيا مقدسا ، فأرسلوا رسلهم إلى الحبر الروماني يطلبون منه إزالة مخاوفهم أو إحلالهم من وعدم . أما البابا زخاري ، خليفة جريجوري الثاني وجريجوري الثالث ، فقد دفعته مصلحته إلى تأييد قضيتهم ، وأصدر قرارا بأن الأمة في مقدورها بصورة شرعية أن تجمع في شخص واحد بين لقب الملك وسلطته ، وأن شلدريك النكود ، وهو ضحية السلامة العامة ، يجب أن يجرد من لقبه ، وتحلق بحيثه ، ويوضع في دير طوال الأيام الباقية من حياته . وقبل الفرنجة تلك الإجابة التي لامت رغباتهم ، على اعتبار أنها فتوى شرعية ، أو حكم قاض ، أو صوت نبي . وهكذا اختفت سلالة أسرة الميروفنجيين من الأرض ، وارتفع قدر بين على أسنة الرماح نتيجة انتخاب شعب حر تعود طاعة قوانينه والانضواء تحت لوائها . ثم توج بموافقة البابوات مرتين ، توجه في أحدهما القديس بونيفاس ، أشد أتباع البابوات إخلاصا وأكبر رئيس ديني في ألمانيا ، وتوج للمرة الثانية على يد اسطفانوس الثالث الذي اعترف بفضل ولي نصته ووضع التاج على رأسه في دير القديس دنيس ، ثم مسح بالزيت المقدس في براعة كما كان شأن ملوك إسرائيل . واتخذ خليفة القديس بطرس شخصية سفير الهى ، وتحول زعيم قبيلة الماني إلى ملك دهن بالزيت الالهى . وانتشر هذا النوع من الشعائر اليهودية في أوروبا الحديثة وظل معمولا به بفضل خرافتها وغرورها ، وهكذا أحل الفرنجة من قسمهم القديم ، غير أنهم هددوا وذريتهم بلعنة رهيبة إذا تجرأوا على معاودة حرية الاختيار نفسها ، أو انتخابوا ملكا لا يكون من نسل الملوك الكارلوفنجيين المقدسين ذوي الفضل والجدارة . ولم يدرك هؤلاء الملوك الخطر المحدق بهم ، فتشامخوا بحصانهم الحالية ، ويؤكد أمين سر الملك شارلمان أن صولجان الملك الفرنسى قد انتقل إليهم بسلطة البابوات ، وكانوا في أجرا مشروعاتهم يتمسكون في ثقة بهذا الدليل على السلطة الشرعية الزمنية ، وبصلها الناجح .

٢ - عندما تغيرت العادات واللغة أصبح نبلاء روما بعيدين كل البعد عن سناتو روميولوس ، أو قصر قسطنطين - عن نبلاء الجمهورية الأحرار ،

أو آباء امبراطور الوهميين . وبعد أن استعادت جيوش جستينيان إيطاليا وأفريقيا ، استلزمت هذه الولايات البعيدة كما استلزم الخطر المحقق بها ، وجود حاكم أعلى ، وأطلق عليه اسم نائب امبراطور أو النيبيل Patrician سواء بسواء (١) . وامتدت السلطة الشرعية لحكام رافنا هؤلاء ، الذين أصبح لهم مكان في تاريخ الملوك ، الى المدينة الرومانية . ومنذ ثورة إيطاليا وزوال النيابة الامبراطورية Exarch استلزمت مخنة الرومان بعض التضحية باستقلالهم . ورغم ذلك فانهم ، حتى في هذا العمل ، مارسوا حق التصرف من تلقاء أنفسهم ، وكانت قرارات السناتو والشعب تمنح شارل مارتل وذريته على التوالي مناصب نبلاء روما . ولا شك في أن زعماء أمة قوية كان ينبغي عليهم أن يرفضوا مثل هذا اللقب الدليل والمنصب الثانوي ، غير أن حكم الأباطرة اليونان كان معطلا ، وفي هذا الفراغ الذي منيت به الامبراطورية ، استمدوا من البابا والجمهورية تكليفا أكثر قهرا ومجدا . واهدى سفراء الرومان هؤلاء النبلاء مفاتيح ضريح القديس بطرس كههد ورمز للسيادة ، ومعها علم مقدس كان من حقهم ومن واجبهم أن ينشروه دفاعا عن الكنيسة والمدينة . وفي عهد شارل مارتل وبين ، كان تدخل مملكة اللبارد يضمن حرية روما ولكنه يهدد سلامتها ، وكان منصب النيبيل لا يمثل الا حق هؤلاء الحماة البعيدين ، وخدمتهم والتحالف معهم . وحطمت قوة شارلمان وسياسته عدوا وفرضت سيدها . وفي أول زيارة قام بها للعاصمة قوبل بكل ألوان التكريم التي كانت تقدم من قبل لنائب الامبراطور وممثله ، واكتسب هذا التكريم شيئا من الروعة الجديدة لأن البابا هادريان الأول قابل الزيارة بالفرح والشكر . فما كاد يعلم بهذه الزيارة الملكية المفاجئة وبمقدم شارلمان ، حتى أوفد حكام روما وتبلاها لاستقباله بالعلم ، على بعد ثلاثين ميلا من المدينة . وعلى بعد ميل منها ، اصطف على طريق فلامينيا أبناء البجاليات الوطنية من اليونان ، واللبارد والسكسون ، وغيرهم ، وكان الشباب الروماني يحمل الأسلحة ، أما الأطفال الأصغر سنا ، فقد حملوا في أيديهم سعف النخل وأغصان الزيتون ، وأخذوا ينشدون المدائح لمنقذهم العظيم . وعندما شاهد شارلمان الصليبان المقدسة وأعلام القديسين ، ترجل من فوق جواده وتقدم موكب نبلائه الى الفاتيكان ، وعندما ارتقى السلم : أخذ يقبل في ورع وتقوى كل درج من الدرجات المؤدية الى عتبات الرسل . وكان هادريان في مدخل الفاتيكان متاهبا لاستقباله على رأس قساوسته . ثم تعانق الرجلان . معانلة الأصدقاء والأنداد ، ولكنهما في مسيرتهما

(١) كان مقره مدينة رافنا .

صوب المذبح اتخذ الملك وضعه الى يمين البابا . ولم يقنع ملك الفرنجة بهذه المظاهر الباطلة الجوفاء التي تعبر عن الاحترام ، ففي الأعوام الستة والعشرين التي انقضت بين غزو لمبارديا وتوحيجه الامبراطوري ، خضعت روما ، التي انقذها بسيفه ، الى صولجان شاوكان كما لو كانت ملكا خالصا له . واقسم الشعب يمين الولاء لشخصه ولأسرته ، وصكت النقود واقامت العدالة باسمه ، كما أن انتخاب البابوات . كان خاضعا لسلطته ، يبحثه ويصادق عليه . ولم يبق هناك أي امتياز منكمي يستطيع لقب امبراطور أن يضيفه الى نبيل روما اللهم الا أن يكون له في الملك حق أميل يشعر به في دويلة نفسه .

وكان عرفان الملوك الكارلوفنجيين بالجميل متناسبا مع التزاماتهم ، فلقد قدست أسمائهم كمخلصي الكنيسة الرومانية ووليائ تعمتها . وبفضل سخائهم وجودهم تحول ميراثها القديم من هزاع ومنازل الى سيطرة زمنية على مدن وولايات ، وكان منصب نائب الامبراطور أول ثمرات فتوحات بين . ولقد تخلى استولفوس عن غنيته هذه وهو حزين مكود ، وسلمت مفاتيح المدن الرئيسية ورجاقتها الى السفير الفرنسي . وقسمها هو بدوره وباسم مولا أمام قبر القديس بطرس وكان من الممكن أن يمتد نطاق هذه الولاية الكبيرة التي كانت خاضعة لنائب الامبراطور بحيث تشمل ولايات ايطاليا التي كانت قد أطاعت الامبراطور ونائبه ، غير أن حدودها الدقيقة الأصلية شملت أقاليم رافنا وجوثونيا وفيراوا ، وصحبا ولاية تابعة لها ولا تنفصل عنها ، وهي بنتابوليس Pentapolis ، التي كانت تمتد على طول ساحل الأدرياتيك من ريمني الى أنكونا ، وتنتظم في الاقليم الأوسط حتى سلاستل جبال الألبين . وفي هذه العملية أدين ظمغ البابوات وجشعهم ادانة شديدة . ولعله كان حريا بتواضع كاهن مسيحي أن يتبذ ملكة دنيوية لم يكن من السهل عليه أن يحكمها دون أن يتخلل عن فضائل مهنته ، ومن الجائز أيضا أن فردا مخلصا من أفراد الرعية ، بل وعدوا كريما ، كان يمكن أن يكون أقل تلغا على تقسيم أسلاب المتبرير ، ولو أن الامبراطور كان قد وكل الى البابا أسطفان أن يلتبس باسمه إعادة الاكسرخية لنائبه فاني لا أبرى البابا من لوم الخيانة والزيغ . غير أن التفسير الجناح للقوانين يتيح لكل انسان أن يقبل دون ارتكاب اساءة أي شيء يمنحه اياه ولي نعمته اذا لم يكن في هذا المنح ظلم لأحد . ولقد تخلى الامبراطور عن حقه في تعيين نائبه ، أو أنه خسر ذلك الحق ، وتحطم سيف استولفوس على سيف أقوى هو سيف الملك الكارلوفنجي . ولم يكن بين قد عرض للخطر شخصه وجيشه في حملة مزدوجة الى ما وراء

جبال الألب من أجل معطم التماثيل الدينية . فلقد كان سيدا للبلاد التي فتحها ، ومن حقه الشرعى أن يتنازل عنها ، وردا على لجاجة اليونان أجاب في رزع وتقوى . بأنه ليست هناك أية اعتبارات انسانية يمكن أن تقر به على أن يسترد الهبة التي خلعها على الحبر الرومانى من أجل غفران ذنوبه وخلص نفسه . ولقد منحت الهبة الرائعة متفوعة بسيطرة مطلقة عليها ، وشاهد العالم لأول مرة أسقفا مسيحيا يمتلك امتيازات ملك دنيوى . كاختيار الحكام ، وممارسة القضاء ، وعرض الضرائب ، والتحكم فى ثروة قصر رافنا . وعندما تفككت مملكة اللمبارد ، حاول سكان دوقية سبوليتو أن يتجنبوا العاصفة ، فحلقوا شعر رؤسهم على الطريقة الرومانية ، وجاهرُوا بأنهم خدام القديس بطرس ورعاياه ، وأكملوا بهذا الاستسلام الاختيارى الحلقة الحالية التى تحيط بالبولة الكنسية . واتسعت تلك الدائرة الغامضة الى حدود لانهاية لها بفضل الهبة الشفوية أو المكتوبة التى منحها شارلمان ، وهو الذى ، فى أول نشوات ظفره ، جرد نفسه وجرد الامبراطور اليونانى من المدن والجزائر التى كانت من قبل ملحقة بمنطقة النيابة الامبراطورية . غير أنه فى لحظات الشرود والتأمل كان ينظر بعين القيرة والحسد الى العظمة الحديثة التى وصل اليها حليفه الدينى ، فتهرب فى احترام من تنفيذه وعوده ووعوده أبيه ، ومن ثم أكد ملك الفرنجة واللمبارد أن حقوق الامبراطورية لا يمكن التصرف فيها ، وفى حياته وموته اعتبرت رافنا وروما فى عداد عواصم ملكه . وتلاشت سيادة ولاية النيابة الامبراطورية فى أيدي البابوات ، ولكنهم وجدوا فى رؤساء أساقفة رافنا منافسا محليا خطيرا ، كما أن النبلاء والشعب استنكفوا الخضوع لسلطان قسيس ، ولم يكن فى مقدورهم ، وسط متاعب ذلك العصر واضطرابات ، الا الاحتفاظ بذكرى حق قديم استطاعوا فى عصر أكثر ازدهارا أن يحيوه وبؤكده .

والخداع هو حيلة الضعف والمكر ، وكثيرا ما وقع المتبرين القوى الجاهل فى حبال السياسة الكهنوتية . وكان قصر الفاتيكان وقصر اللاتيران ترسانة ومصنعا أنجبا أو أخفيا ، وفقا للظروف ، مجموعة متنوعة من الأعمال الزائفة أو الصادقة ، والفاسدة أو المريبة ، حسبما كانت تلك الأعمال تخدم مصلحة الكنيسة الرومانية . وقبل نهاية القرن الثامن ألف كاتب رسول ، من الجائز أنه إيزيدور السبيى السبعة ، قصة الأحكام التى أصدرها قسطنطين والهة التى منحها ، وهما العمودان السحريان اللذان تركز عليهما مملكة البابوات الروحية والدنيوية . وهذه الهبة المشهودة عرف بها العالم فى رسالة كتبها البابا هادريان الأول الى شارلمان يحضه فيها على تقليد سخاء قسطنطين العظيم واحياء اسمه . وتقول القصة ان

قسطنطين ، أول الأباطرة المسيحيين شفى من مرض الجذام ، وتظهر في ماء المعمودية ، على يد الأسقف الروماني ، القديس سيلفستر Silvester ، فكافأ الأسقف مكافأة لم يحظ طبيب بمثل عظمتها ومجدها . ذلك ان المهتدى الملكى انسحب من مقر القديس بطرس ومن أرضه الموروثة ، وأعلن عزمه على تأسيس عاصمة جديدة في الشرق ، وترك البابوات السيادة المطلقة الدائمة على روما ، وإيطاليا ، ولايات الغرب ، ولقد أثرت هذه الرواية أنفع الثمار ، فاتهم ملوك اليونان بجريمة الاغتصاب ، وأصبحت صورة جريجورى حقا يطلب بمقتضاه ميراثه الشرعى . وتخلص البابوات من دين العرفان بالجميل ، وأصبحت الهبات الضئيلة التى وهبها الملوك الكارولوفنجيون لاتعدو أن تكون ردا عادلا لا رجعة فيه لجزء صغير من الدولة الكنسية . ولم تعد السيادة على روما وقفا على اختيار شعب متقلب ، وتقلد خلفاء القديس بطرس وقسطنطين حلة الملك التى كانت للقيصرة ، كما اكتسبوا امتيازاتهم ولقد بلغ من جهل تلك العصور وسذاجتها أن أسخف قصة تخرافية قوبلت بالاحترام نفسه في اليونان وفي فرنسا ، وما تزال مسجلة بين قرارات القانون الكنسى . ولقد عجز الأباطرة والرومان عن تبين تدليس قوض حقوقهم وحريتهم ، ولم يعترض عليه الا رهبان دير فى سابين Sabine أنكروا في يده القرن الثانى عشر صحة وصدق هبة قسطنطين . وفى أثناء حركة احياء اللوم وانتعاش الحرية دحضت كتابات لورتنىوس فاللا هذا التصرف الموهوم ، وهى كتابات جرى بها قلم ناقد بليخ روماني محب لوطنه . وكم دهش معاصروه فى القرن الخامس عشر لجراته الدنسة ، ولكن تلك هى شيمة العقل فى تطوره الصامت الذى لا يقف فى طريقه شيء ، حتى ان المؤرخين والشعراء ، قبل نهاية العصر التالى أنكروا فى احتقار تلك الخرافة ، كما نبذها المدافعون عن الكنيسة الرومانية صراحة أو نقدوها فى أسلوب معتدل . بل ان البابوات أنفسهم كانوا ينظرون فى ابتسامة ساخرة الى سذاجة الدهماء ، ولكن ظل اللقب الزائف البائد يكسب حكمهم قدسية ، وبقي الصرح قائما بعد أن قوضت الأسس التى كان مرتكزا عليها ، وانتهت الى المصير نفسه الذى انتهت اليه الاحكام البابوية وتكهنات العرافين الغامضة .

اعادة التماثيل والصور

الدينية فى الشرق

بينما كان البابوات يوطدون حریتهم وسلطانهم فى إيطاليا ، كانت الصور والتماثيل الدينية ، وهى أول أسباب ثورتهم ، قد أعيدت فى الامبراطورية الشرقية . وفى عهد قسطنطين الخامس ، كان اتحاد السلطة

المدنية والسلطة الدينية قد طوح بشجرة الخرافة دون أن يستأصل
 جذورها ، ولقيت الأوثان ، وقد اعتبرت الصور والتماثيل الدينية اذ ذاك
 أوثانا ، لقيت تلك الأوثان صدرا رحبا من طائفة الرهبان والنساء ، وهما
 أكثر الناس نزوعا الى التعبد ، وحاز التحالف الوثيق العزيز بين هؤلاء
 وهؤلاء نصرا نهائيا على عقل الرجال وسلطتهم . وحافظ ليو الرابع على
 ديانة أبيه وجده بصورة أقل صرامة ، غير أن زوجه ايرين الجميلة الطموح
 كانت قد تشربت حماس الأثينيين ، ورثة الوثنية ، أكثر من تشربها
 لفلسفة أجدادهم . وعندما كان زوجها على قيد الحياة ، أشعل الخطر والرياء
 نار هذه الأحاسيس ، ولم يكن في وسعها الا أن تعمل على حماية وتشجيع
 بعض المقربين إليها من الرهبان الذين أخرجتهم من كهوفهم وصوامعهم ،
 وأجلستهم على المروش الأسقفية في الشرق . ولكن ما أن حكمت باسمها
 وباسم ابنتها ، حتى تولت القضاء على أعداء التماثيل الدينية بصورة أكثر
 جدية وخطورة . وكانت أول خطوة خطتها على طريق اضطهادها لهؤلاء
 الناس في المستقبل هو أنها أصدرت مرسوما عاما يقضى بحرية الضمير .
 وعندما عاد الرهبان الى مراكز القوة عرضت آلاف الصور والتماثيل أمام
 الناس لتكون موضع تقديسهم وتجيلهم وابتدعت آلاف القصص عن
 آلامها ومعجزاتها . وعندما كانت تخلو بعض المناصب الأسقفية بموت
 أصحابها أو إبعادهم ، كانت أماكنهم تشغل في حكمة وحذر ، وكان أكثر
 المتنافسين تلهفا على الخطوة الدنيوية أو السماوية ينتظرون حكم ملكتهم
 ويتملقونه ، وترتب على ترقية أمين سرها تاراسيوس أن أصبح بطريرك
 القسطنطينية في يدها ، وبذلك دانت لها الكنيسة الشرقية . غير أن
 قرارات مجمع عام لا يمكن إلغاؤها الا بقرار مجمع مماثل ، وكان أعداء
 التماثيل الدينية الذين جمعهم يتسمون بالجرأة في الدفاع عن آرائهم ،
 ويكرهون المناقشة ، ومع أن صوت الأساقفة كان ضعيفا الا أن جنود
 القسطنطينية وشعبها ردوا ذلك الصوت في صخب أعظم قوة وأشد
 بأسا . غير أن الماطلة والدسائس التي دامت سنة بأكملها ، وعزل القوات
 المتمردة ، واختيار نيقيا لتكون مكانا لاجتماع مجلس كنسي أرثوذكسي
 ثان ، كل أولئك أزال تلك العقبات ، وأصبح ضمير الأساقفة مرة أخرى
 في يد الحاكم ، وفق الأسلوب اليوناني . ولم يسمح لهذا المجلس
 الا بثمانية عشر يوما لاتمام هذا العمل الهام ، وجاء أعداء التماثيل والصور
 الدينية لا كقضاة بل كجرمين أو تائبين ، وازدان المشهد بحضور سفراء
 البابا هادريان وبطاركة الشرق ، وصاغ القرارات الرئيس تاراسيوس ،
 ثم قوبلت تلك القرارات بأصوات الاستحسان من ثلاثمائة وخمسين أسقفا ،

وحظيت بتوقيعاتهم . وقد أعلنوا بالاجماع أن عبادة الصور والتماثيل الدينية تتفق مع الكتاب المقدس ، ويرتاح لها آباء الكنيسة ومجلسها . ولكنهم تردّدوا فيما إذا كانت تلك العبادة مياصرة أو نسبية ، وفيما إذا كان نفس اللون من العبادة ينبغي تقديمه للرب ولصورة المسيح سواء بسواء . وما تزال قوانين هذا المجلس النيقى الثانى موجودة كآثر عجيب للخرافة والجبل ، وللزيف والحماقة . وليست أريد أن أبدي أية ملاحظة اللهم إلا بحكم الأساقفة فيما يختص بالميزة المقارنة التي لعبادة الصور الدينية وللأخلاق . فثمة راعب كان قد عقد هدنة مع شيطان الزنا ، شريطة أن يعترض الشيطان صلواته اليومية التي كان يقدمها لصورة معلقة في صومعته . غير أن شكوكه دفعته الى استشارة الكاهن ، فأجاب ذلك المفتى قائلا : « من الأفضل لك أن تردّاد كل ماخور في المدينة ، وتزور كل عاهرة ، على أن تتخلّى عن عبادة المسيح وأمه في صورهما المقدسة » . وانه لمن سوء الحظّ نسوعا ما ، فيما يتعلق بشرف الأرثوذكسية ، وعلى الأقل الأرثوذكسية الرومانية ، أن الحاكمين اللذين عقدا مجلسي نيقيا ملوثان بدم ابنائهما . وكان ثانى هذين الاجتماعين قد عقد وتفذت قراراته تنفيذا صارما بموافقة الملكة ايرين وبحكم سلطانها المطلق ، وأبت هي على خصومها ذلك التسامح الذي منحتّه في بادئ الامر لأصدقائها . وخلال العقود الخمسة التالية ، التي استغرقت ثمانية وثلاثين عاما ، ظل النزاع محتدما على أشده ، وكان النجاج حليف أنصار عبادة الصور الدينية مرة / ومحطمي تلك الصور مرة أخرى ، ولكني لا أميل الى أن أتبع بالتفصيل الدقيق تكرار الأحداث نفسها . فهناك نفور الذي سمح بالحرية العامة في الأقوال والأفعال ، وهذه الفضيلة الوحيدة في عهده يتهمها الرهبان بأنها سبب من أسباب هلاكه الدنيوى والأبدى . أما ميخائيل الأول فقد اتهم خلقه بالضعف والخرافة ، غير أن القديسين والصور والتماثيل الدينية عجزت عن تدعيم مركز نصيرهم على العرش . وعندما كان ليو الخامس يشغل منصب صاحب الحلة الأرجوانية ثبت اسم أحد أبناء أرمينيا وأكد ديانته ، وأزال الأوثان ، وحكم على أنصارها المشاغبين بالنفى لثمرة الثانية . وكان يمكن لاستحسانهم أن يضفى صفة القدسية على قتل طاغية مارق ، غير أن قاتله وخليفته ، ميخائيل الثانى ، كان ملوثا منذ مولده بهرطقات قريجية . ولقد حاول أن يتوسّط بين الأطراف المتنازعة ، غير أن رزح الكاثوليك العنيدة قذفت به الى الكفة المضادة دون أن يشعروا وكان النجس صونا لا يعتدله ، غير أن ابنه توفيلوس كان لا يعرف الخوف ولا الرحمة ، وكان آخر أعداء الصور الدينية ، وأشدّهم قسوة . وحرى ببار الحماض عتيفا قويا ضدهم ، وعندما حاول هؤلاء الإباطرة صد

ذلك التيار ، لم يقابلوا الا بالكراهية العامة التي ضاعفت الالامهم . وبعد موت توفيلوس تحقق النصر النهائي للصور الدينية على يد امرأة ثانية هي ارملته تيودورا التي تركها وصية على الامبراطورية ، وكانت اجراءاتها في هذا الشأن جريئة حاسمة . وقد ابتدعت قصة تقول ان زوجها قد ندم وتاب عما فعل توبة متأخرة ، وبذلك أنقذت سمعة زوجها الراحل ونفسه ، وخففت الحكم على البطريك عذر الصور من فقء عينيه الى جلده ماثنى جلدة . فارتفعت فرائض الاساقفة ، وعلا صراخ الرهبان ، واحتفلت الأرثوذكسية سنويا بذكرى انتصار الصور والتماثيل الدينية . ولم يبق الا سؤال واحد ، وهو ما اذا كانت تلك الصور والتماثيل تمتلك أية قدسية حقيقية كاسنة فيها . وقد أثار اليونان هذا السؤال في القرن الحادى عشر ، وبما أن هذا الرأى يتسم بأعظم قدر من السخف ، فاني لأعجب من أنه لم يلق ردا سريحا بالإيجاب . وفي الغرب قبل البابا هادريان الأول قرارات مجمع نيقيا وأعلنها ، وأصبح الكاثوليك الآن يججلون ذلك المجمع على اعتبار أنه المجمع السابع بين المجالس الكنسية العامة . واتقادت روما وايطاليا لصوت أبيها الرومى ، غير أن الجزء الأكبر من المسيحيين اللاتين كان شديد التخلف في سباق الخرافة . أما كنائس فرنسا ، والمانيا ، والجلترا ، واسبانيا ، فقد اتخذت طريقا وسطا بين عبادة الصور وتدميرها . فقبلوا وجودها في معابدهم لا كاشياء يعبدونها الناس ، بل كأثار تذكارية حية نافعة تذكهم بالإيمان والتاريخ . ولقد ألف باسم شارلمان كتاب شديد اللهجة عن هذا النزاع ونشر على الناس ، وعقد تحت سلطته في فرانكفورت مجلس كنسى من ثلاثئة أسقف وجهوا اللوم الى حدة محطى الصور وعنفهم ، غير أنهم وجهوا لوما أشد الى خرافة اليونان ، والى قرارات مجلسهم المزعوم الذى كان موضع احتقار متبربري الغرب فترة طويلة . ولقد تقدمت عبادة الصور بين هؤلاء المتبربرين فى صمت وبصورة غير محسوسة . غير أن هذا التردد والتأخر من جانبهم انما تموض عنه تعويضا كبيرا تلك الوثنية الغظة التي تتسم بها الصور السابقة للاصلاح ، ودول أوروبا وأمريكا التي ما تزال غارقة فى ظلام الخرافة .

انفصال البابوات عن

الامبراطورية الشرقية نهائيا

بعد مجمع نيقيا ، وفى عهد الامبراطورة ايرين النقية أكمل البابوات انفصال روما وايطاليا (عن القسطنطينية) بنقل الامبراطورية الى شارلمان الذى كان أقل تمسكا بالمعقيدة الصحيحة (الأرثوذكسية) . لقد كان لزاما عليهم أن يتخبروا أى جانب ينحازون اليه من بين الأمم المتنازلة ، ولم يكن

هو الدافع الوحيد الذى يحدد اختيارهم هذا ، وفى الوقت الذى غضبوا فيه الطرف عن سقطات أصدقائهم ومواطني الضعف فيهم نراهم ينظرون فى امتعاض وريبة الى فضائل أعدائهم الكاثوليكية . ولقد نبهت الاختلاف فى اللغة والعادات جنود العداوة بين العاصمتين ، كما ياعد بينهما النفور اللدود الذى دام سبعين عاما . وتذوق الرومان فى غمرة هذا الشقاق طعم الحرية ، كما ألف البابوات مظاهر السيادة ، وكان من الجائز أن يمرضهم خضوعهم لانتقام طاغية حقود ، وكانت ثورة إيطاليا قد فضحت عجز البلاط البيزنطى وطفيلياته معا . وكان الأباطرة اليونان قد أعادوا الصور والتماثيل ، ولكنهم لم يعيدوا ضياع كالابريا وأبرشيات الليريا التى كان محطمو الصور قد انتزعوها من خلفاء القديس بطرس . وإن البابا هادريان (٧٧٢ - ٧٩٥) ليهدهم بالحرمان من الكنيسة إذا لم يسارعوا بالاقلاع عن هذه الهرطقة الفعلية . لقد كان اليونان آنذاك أرثوذكسين ، ولكن ربما شاب عقيدتهم شيء من روح الملك الحاكم ، كما كان الفرنجة متبردين ، ولكن النظرة الفاحصة قد تبين أنهم عما قريب سيتحولون من استخدام الصور الى عبادتها . وقد تلوث اسم شارلمان بما اتسمت به مجادلات كتابه من حدة وفظاظة ، ولكن الفاتح نفسه ، بوصفه رجلا سياسة ودولة ، سافر مختلف عادات فرنسا وإيطاليا . وفى المرة الأربع التى زار فيها الفاتيكان أو حج اليه ، عافق البابوات ، باسم الصداقة والتقوى ، وركع أمام قبر القديس بطرس ، وبالتالى أمام صورته ، واشترك ، دون أن يخافه ريب ، فى الصلوات والمواكب وفق الطقوس الرومانية ، فهل تجيز القطنة أو عرفان الجميل للأخبار أن يتنكروا لولى نعمتهم الذى أحسن اليهم ؟ وهل كان لهم الحق فى التنازل عن حبة الولاية أو النياحة التى منحهم إياها ؟ وهل كان لديهم من القوة ما يمكنهم من القضاء على حكمه فى روما ؟ لقد كان لقب « النبيل » Patrician دون ما يستحق شارلمان ودون مستوى عظمته ، وكان أحياء الامبراطورية الغربية هو الوسيلة الوحيدة التى يستطيعون بها الوفاء بالتزاماتهم أو الإبقاء على كياناتهم . وسوف يقضون نهائيا بهذا الاجراء على مزاعم اليونان ، ويستعيدون مجد روما . وينتشلونها من وحدتها كمجرد بلدة فى ولاية ، وسوف يتحد المسيحيون اللاتين فى ظل رياسة سامية فى عاصمتهم القديمة . وسوف يتسلم فاتحو الغرب تيجانهم من خلفاء القديس بطرس . وسوف تكسب الكنيسة الرومانية محاميا غيورا محترما ، وسوف يمارس الأسقف حكم المدينة . (روما) ، معززا مكرما مطمئنا ، فى ظل سلطة الكارلوفنجيين .

وقبل القضاء على الوثنية فى روما ، كثيرا ما أسفرت المناقشة على الحظوة بأسقفية غنية ، عن الشغب والهياج وسفك الدماء . وكان الشعب

أقل عددا ، ولكن روح العصر كانت أشد همجية وشراسة ، والجزء أجل
قتلا ، والتطاحن على كرسي القديس بطرس عنيفا بين قادة رجال الكنيسة
الذين تطلّموا الى مقام الملك . ولقد جاوز حكم هادريان الأول كل مقاييس
العصر الخالية والقادمة : فقد كانت أسرار روما ، وأملك الكنيسة ،
والقضاء على اللبّاردين ، وصداقة شارلمان كانت هذه كلها دلائل شهرته .
انه وطّد بطريقة غير محسوسة أركان عرش خلفائه ، وأبرز في فترة
قصيرة فضائل أمير عظيم . لقد كانت ذكراه موضع الاجلال والاكبار ،
ولكن في الانتخابات التالية اختير أحد قساوسة اللاتران ، وهو ليو الثالث ،
وفضل على ابن أخى هادريان وصفيه الذي كان قد رفعه الى أعلى مناصب
الكنيسة . وتحت ستار من رضاهم أو ندمهم اختفت لأكثر من سنوات
أربع ، أبشع وأفظع نوايا الانتقام ، حتى نأى يوم أحد المراكب حين فرقت
عصابة عاتية من المتأمرين الحشود العزلاء ، وكالت الضربات لشخص
البابا وأثخنه بالجراح . ولكن مشروع المتأمرين للقضاء على حياته أو سلبه
حريته باء بالخيبة ، وربما كانت هذه الخيبة نتيجة للاختلال الذي دب
في صفوفهم أو نتيجة لوخز ضمائرهم . وترك ليو مسددا على الأرض ، وقد
جسبوا أنه فارق الحياة . فلما أفاق من اغماؤه ، وتغلب على ما غشيه
لما نزف من دمه ، استرد قدرته على الكلام والابصار . وارتقى هذا الحادث
الطبيعى الى مرتبة المعجزة ، معجزة استرداد بصره ولسانه اللذين سلبه
. يمكن القتل اياها مرتين وهرب ليو من سجنه الى الفاتيكان : حيث خف
دوق (سبوليتو) لنجدته ، وواساه شارلمان وأظهر العطف عليه في
محتسبه . وارتضى ، أو قل التمس - وهو في بادربون Paderborn
في وستفاليا ، أن يقوم الحبر الرومانى بزيارته . وعبر ليو جبال الألب
للمرة الثانية ترافقه ، بعثة من الكونتات والأساقفة لحراسته وليكونوا
شهود برأته . وفى شيء من الامتناع أجلى فاتح سكسونيا (شارلمان)
الى السنة التالية قيامه شخصا بهذه المهمة الدينية . وفى حجتة الرابعة
والأخيرة لروما استقبل شارلمان بمظاهر اجلال والتكريم اللائقة به وبوصفه
ملكا ونبىلا ، ورخص للبابا ليو فى أن يقسم على تطهير نفسه من الجرائم
التي نسبته اليه : وأخرست السنة أعدائه ، وعوقبت المحاولة الدنيئة
المدنسنة لقتله بعقوبة خفيفة لا تتناسب مع الجرم هو النفس . وفى يوم
عيد الميلاد فى آخر سنة من سنى القرن الثامن (سنة ٨٠٠) ظهر شارلمان
فى كنيسة القديس بطرس وارضاء لغرور روما استبدل بملابسه الوطنية
البسيطة ملابس النبلاء . وبعد الانتهاء من الاحتفال بالأسرار المقدسة ،
وضع ليو فجأة تاجا ثميناً على رأس شارلمان ، وعند ذاك دوت القبة بهتافات
الشعوب : « قليحي شارل ، النصر لشارل ، أغسطينس التقى الورع ، الذى

توج بإرادة الله امبراطورا عظيما محبا للسلام ، على الرومان « . ومسح رأس شارلمان وجسمه بالزيت الملكي ، وقام الجبر الأعظم بمراسم التحية والتكريم لشخصه ، على غرار الفياصرة ، وتعتبر اليمين التي أداها شارلمان لمناسبة تثويجه بمثابة وعد بالحفاظ على عقيدة الكنيسة وامتيازاتها ، وكانت الهدايا التي قدمها لضريح الرسول بطرس أول ثمار هذا الوعد . وفي أساديته العادلة أعلن الامبراطور جهله بمقاصد ليو ، التي ربما كان في مقنوره احباطها بتغيبه في هذا اليوم المشهود ، ولكن لابد أن الاستعدادات لهذا الحفل قد فضحت هذا السر ، كما أن رحلة شارلمان تكشف عن أنه كان يعلم به ويتوقعه ، فقد اعترف بأن اللقب الامبراطوري كان منتهي أطماعه ، كما قرر في مجمع روماني أن هذا اللقب كان الجزاء الوفاق الوحيد لمزاياه وخدماته .

عصر شارلمان وشخصيته

ما أكثر ما كان يسبغ لقب « الأكبر » ، على الملوك والأمراء ، وقد يكونون أحيانا جديرين به ، ولكن شارلمان هو الأمير الوحيد الذي من أجله اقترن اللقب بالاسم اقترانا وثيقا . ولقد دون ذلك الاسم في التقويم الروماني مشفوعا بلفظة « القديس » . كما توج لقب القديس مديح المؤرخين والفلاسفة واطراؤهم في عصر مستنير ، وفي ابتهاج نادر المثال ، ولا شك في أن بربرية الأمة التي أنجبته وهمجية الزمان الذي نشأ فيه رفعا من شأن جديده الحقيقية . ولكن المقارنة غير المتكافئة تزيد كذلك من قدر العظمة أو الأهمية الظاهرية لأي شيء . ألست ترى أن جذب الصحراء المحيطة بأطلال تدمر يضفي عليها بهاء عارضا ؟ ولست أقصد قط إلى الحط من قدر الرجل الذي استرد الامبراطورية الغربية أو الخفض من شهرته ، ولكنني أرى بعض الشوائب في قدامسته وعظمته . فليست العفة أبرز نضائله الخلقية (١) ، ولكن الشعور العام لم يلحقه ضرر بليغ بزواجه أو خليلاته التسع ، وبوقوعه المتكرر في شرك غرام دنيء أو عابر ، وبالعدد الكبير من الأبناء غير الشرعيين الذين وهبهم للكنيسة ، وبحياة العزوبة

(١) إن « رؤيا ولتي Wellin » التي ابتدعها أحد الرهبان بعد أحد عشر عاما من موت شارلمان ، تظهره وهو في « الطهر » أو « الأعراف » (مكان بين الجنة والنار) ، ومعه ثمر جارح يأكل من العضو الأثم في جسده ، أما بقية الجسد ، أو شعاع فضائله ، فكان سليما لم يمس بسوء .

الطويلة وحياة الفجور التي تردى فيها بناته (١) اللاتي كان يشك في انه
أياهن يحبهن حبا جنونيا جارفا . ولا أكاد أستبيح لنفسى كيل الاتهام
لأطماع الفاتح ، ولكن أبناء أخيه كارلومان Carloman والأمراء
الميروفنجيان في أكويتين Aquitain (ولاية قديمة في الجنوب الغربي
من الغال) ، والأربعة آلاف والخمسمائة سكسوني الذين ضرب أعناقهم
في المكان نفسه - كل أولئك سوف يكون لديهم ما يقولون ضد عدالة
شارلمان وإنسانيته يوم يقوم الحساب وتوزن الأعمال بالعدل والقسطاس .
لقد كانت معاملته للسكسون المقيمين ضريبا من سوء الاستغلال لحق
الفتح ، كما أن قوانينه لم تكن أقل من أسلحته فتكا وشراسة . وفي
تقصي البواعث التي كانت تتجمل في نفسه يجدر أن ينسب إلى مزاجه
وطبعه كل ما أسقط من حساب تعصبه . وان القارئ الذي لا يكاد يبرح
مكانه ليدهش لما تميز به شارلمان من نشاط دائم لا يفتر في عقله
وجسمه ، كما أن رعاياه وأعداءه على السواء لم يكونوا أقل دهشة لظهوره
المفاجيء في اللحظة التي كانوا يعتقدون فيها أنه في أقصى أركان
الإمبراطورية ، وما كان زمن الحرب أو السلم ، ولا فصل الصيف
أو الشتاء ، أو أن يخلد فيه إلى الراحة . وانه لمن العسير على خيالنا أن
يوفق بين هوليات حكمه وبين جغرافية رحلاته وتقلاته، ولكن هذا النشاط
كان خلة تميز بها بنو عشيرته عامة أكثر منها ميزة شخصية له خاصة .
فقد كان الرجل من الفرنجة يقضى حياته شريدا لا يقر له قرار : في الصيد
أو في الحج أو في المغامرات الحربية . ولم تكن جولات شارلمان تتميز عن
ذلك بشيء أكثر من حشد ضخم يسير في ركابه ، وهدف أجل خطرا يسعى
إليه . ويجب الحكم على شهرته العسكرية بأعنان النظر في جيوشه
وأعدائه وأعماله . لقد غزا الإسكندر بأسلحة أبيه فيليب . ولكن البطلين
الذين سبقا شارلمان أورثاء اسمهما أو شهرتهما ، وقوة حسنة يحتذيها ،
كما أورثاء رفاق انتصاراتهما . وبطش ، وهو على رأس جيوشه المحنكة
المتفوقة ، بالأمم الهمجية المنحلة التي عجزت عن الائتلاف والاتحاد من أجل
سلامتها المشتركة ، كما أنه لم يواجه قط أي عدو متكافئ معه في المدة
أو النظام أو الصناد . وكم تدهور علم الحرب ثم انتعش مع تدهور فنون
السلام وانتعاشها . ولكن حملات شارلمان لم تتميز قط بأي حصار أو معركة .

(١) ان ذواج اجنهارد Eginhard من اما Imma ابنة شارلمان ، لتدخضه دحضنا
كافيا في رأيي ، تلك الفضائل والشكوك التي لوت هؤلاء القادات العسائوات ، دون
استثناء زوجته . ولا بد أن الزوج كان أقوى من أن يعرض له المؤرخ بسوء .

ذات مشقة فريدة أو نجاح نادر المثال ، ومن الجائز أنه كان يتظر بعين
الحقد والحسد الى الضائم التي اسنولى عليها جده من العرب . وبعد حملته
على اسبانيا هزمت مؤخرة جيشه فى جبال البرانس (١) ، وليس بمستبعد
ان يكون جنوده الذين كان موقفهم عصيبا ، وجراتهم لا غناء فيها ، قد
اتهموا ، وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، قائدهم بأنه كانت تعوزه المهارة
والحرص والحذر . واني لأمس مع الاجلال والاحترام ، قوانين شارلمان
التي حظيت فى سهولة ويسر بالثناء والاطراء من جانب قاضى وقور ،
تلك القوانين التي لم تشكل نظاما ، بل سلسلة من مراسيم طارئة هزيلة :
لتصحيح الأخطاء أو تهذيب الآداب العامة ، وإدارة مزارعه ، والعناية
بدواجنه ، بل حتى وبيع ما تنتجه من بيض . لقد كانت به رغبة الى تحسين
قوانين الفرنجة وأخلاقيهم ، وان محاولاته فى هذا المجال جديرة بالثناء
مهما كانت ضعيفة ، فقد أبطل حكمه أو عدل من مساوىء العصر المزمته .
ولكنى لا أكاد أثبت فى نظمه تلك النظريات العسامة والروح الخالدة ،
للمشرع الذى تبقى آثاره من بعده سندا ونفعا للأجيال القادمة . ومن ثم
اعتمدت وحدة امبراطوريته واستقرارها على حياة فرد واحد . وأخذ بهذا
التقليد المحفوف بالخطر ، ألا وهو تقسيم ممالكه بين أبنائه . وبعد المجالس
العامة الكثيرة التي عقدها ، ترك الدستور يتأرجح بين الاختلال الناشئ
عن القوضى والاستبداد . وأغراء تقديره لتقوى رجال الدين وعلمهم بأن
يعهد الى هذه الطائفة الطموحة المتطلعة بمقاييد الحكيم الزمنى والقضاء
المدني . وربما نعى ابنه لويس ، الى حدهما ، على أبيه شارلمان حمقه وبعيم
تبصره ، حين ابتزع الأبيساقية من هذا الإبن ملكه وامتهنوه . ولحزنت
قوانينه العشور لأن شياطين ملجن أعلنت فى الهواء أن التخلف عن اللبغ
كان السبب فى البقاية التي حلت أخيرا . أما فضل شارلمان على الأدب
فيشهد به تشييده للمدارس ، وإدخال الفنون ، والمؤلفات التي نشرها
باسمه ، واتصاله الوثيق برعاياه وبالغرباء الذين كان يدعوهم الى بلاطه
لتعليم الأمير والشعب معا . وكانت دراسته الخاصة مختلفة مضمينة
ناقصة ، وإذا كان قد تحدث باللاتينية أو فهم الاغريقية ، فانه انما اكتسب

(١) سقط فى هذا الاشتباك قائد شجاع اسمه رولان لا يكاد التاريخ يعرف عنه شيئا
سوى هذا الخبر ، وان كان قد أصبح أبرز شخصية من شخصيات الأساطير ، فبعد ذلك
بثلاثة قرون تناول الشاعر تلك القصة الشعبية . لامن حيث تأسسها الصحيحة ، بل نى
حدة اللؤلؤ الأعلى للفروسية المسيحية ، ونسج منها ملحمة خالدة تسمى بأشودة رولان
Chanson de Roland محورها شخصية شارلمان وعظمة فرسانه .

هذه المبادئ الأولية من المصرفة من الحديث لا من الكتب ، وقد حاول
الامبراطور جاهدا في سني نضجه أن يتعلم الكتابة التي يتعلمها الآن كل
فلاح في مملوكته . أما قواعد النحو والمنطق والموسيقى والفلك ، لما كان
يتزود بها الا لأنها توابع تخدم الخرافة أو العقيدة ، ولكن حب الاستطلاع
الكامن في العقل البشري ، لابد أن يتجه في النهاية الى النهوض به . وان
تشجيع العلم والمعرفة ليحس على شخصية شارلمان أحسن رواء وأبهجه .
وان وقار شخصه ، وطول عهده ، وظهر جبروته ، وثشاط حكومته ، وتبجيس
أقصى أمم الأرض له ، كل أولئك ميزه عن العديد العديد من الملوك ،
وان أوروبا لتعتبر استعادة شارلمان للامبراطورية الغربية ، بداية عصر
حديد من تاريخها .

في سنة ٩٦٢ أخضع ملك ألمانيا « آنو » إيطاليا ، ووضع يده على
الامبراطورية الغربية . ومن ثم انتقل الآن التاج الامبراطوري الى ألمانيا
والأمة الألمانية .

الامبراطور شارل الرابع

يمكن في القرن الرابع عشر أن نقسم في اسطبح ضيوة ممكن جالة
الامبراطورية الرومانية في ألمانيا وتباينها ، خلق للامبراطورية التي لم يعد
لها - فيما عدا حدود الراين والدانوب - الا ولاية واحدة من ولايات
تراجان وقسطنطين وكان خلفاؤهما الهزيلون الذين لا يستحقون الذكر
هم أمراء (كوتنات) آل هابسبرج ، وفامو ، ولكسمبرج ، وشوارتنبيرج .
وحصل الامبراطور هنري السابع لابنه على تاج بوهيميا ، وولد جليسه
شارل الرابع وسط شعب غريب متبربر ، على حد قول الألمان أنفسهم .
وبعد أن حرم لويس أمير بافاريا من رحمة الكنيسة . تلقى (شارل) هدية
أو قل وعدا ، بالامبراطورية انشاقرة من الاحبار الرومان الذين زعموا ،
وهم في المنفى أو في الأسر في أفينون Avignon ، أنهم يملكون الأرض
وما عليها . واتحدت ، بروت منافسيه ، كلمة هيئة الناحين ، ونودى
بالاجماع بشارل ملكا على الرومان ، وامبراطورهم المقادير ، وهو لقب امتن
في نفس المعص باصفائه على قياصرة ألمانيا وإليونان . فلم يكن الامبراطور
الألماني آنذاك أكثر من حاكم منتخب هزيل ضعيف ، على جماعة من الأمراء
الارستقراطيين الذين لم يتركوا له قرية واحدة يمكن أن يقول انها ملك
خاص له . ولعل أعظم امتياز له هو حقه في الرئاسة وفي تقديم الاقتراحات

فى مجلس السناتو الوطنى الذى كان يجتمع بناء على دعوة منه . أما مملكته الأولى ، وهى وطنه الأصلى وفيها كان منشؤه ، أى مملكة بوهيميا ، وهى أقل ثراء من مدينة نورمبرج المجاورة لها - نقول ان بوهيميا هذه كانت أثبت قاعدة لسلطانه وقوته ، وأكبر مورد لدخله . وكان الجيش الذى عبر به جبال الألب يتألف من ثلاثمئة فارس . وتوج شارل فى كاتدرائية سانت أمبروز بالتاج الحديدى الذى نسبته الرواية المأثورة الى ملوك اللمبارد . ولم يرخص له فى دخول المدينة الا بصحبة رجال غير مسلحين . وأغلقت عليه بعد ذلك أبواب المدينة ، وأخذ ملك إيطاليا أسيراً - أسره جنود آل فيسكونتى Visconti الذين دعم سلطانهم فى ميلانو . وتوج شارل مرة ثانية بتاج الامبراطورية الذهبى فى الفاتيكان ، ولكن الامبراطور الرومانى ، تنفيذاً لمعاهدة سرية ، انسحب على الفور ، ولما ينقض عليه بين جدران روما ليلة واحدة لمجرد الراحة . وان بتراكم (الشاعر الإيطالى المشهور الذى عاش فى القرن الرابع عشر) صاحب البيان الساحر الذى أحيا خياله أمجاد الكايتول الوحشية ، نرى لهذا الهروب الكرى الذى عمد اليه فتى بوهيميا وينحى عليه باللائمة . وكان فى مقدور معاصريه أنفسهم أن يلحظوا أنه لم يمارس سلطته الا فى بيع الامتيازات والألقاب وهو عمل رابح دون ريب . ولقد ضمن ذهب إيطاليا انتخاب ابنه ، ولكن بلغ الفقر المهين بالامبراطور الرومانى الى حد أن قصابا قبض عليه فى شوارع مدينة ورمز Worms واحتجز فى نزل عام ، ضماناً أو رهينة للوفاء بالتزاماته .

لننزل وجوهنا عن هذا المنظر المخزى الى عظمة شارل نفسه ، تلك العظمة التى برزت فى مجالس الديت فى الامبراطورية . فان المرسوم (١) الذهبى الامبراطورى الذى يقرر الدستور الألماني قد أعلن فى أسلوب ملك

(١) Golden Bull ومنها المرسوم الذهبى أو الامبراطورى ، لأنه كان يختم بخاتم الذهب . وافر المرسوم الذى تمنى بصلده مركز هيئة الناخبين السبعة وحده . وهؤلاء هم : ثلاثة أساقفة ، أى أساقفة ميونخ ، وكولون ، وترف - وأربعة أمراء أى أمراء سكسونيا ، براندنبرج ، الهلانتين ، وملك بوهيميا . ووضع هذا المرسوم قواعد الورقة فى الامارات الناجبة بصفة دائمة ، على حق طيف اميرى بافاريا والنمسا من قائمة الناخبين ، وهما أعظم الأمراء شأنًا من الناحية الإقليمية ، كذلك حما المرسوم ، ضماناً ، ما كان يزعمه البابا لنفسه من شأن فى انتخاب امبراطور ، وان لم ينص المرسوم صراحة على ذلك . وشكل الناخبون هيئة واحدة تعتبر فوق مستوى الأمراء ، وتعد من سلطة التاج . وتجمع بينها مصلحة مشتركة فى المحافظة على درجة من الاتحاد فى امبراطورية مهددة بالانقسام .

ومشرع • فقد انحنى أمام عرشه مائة أمير ،
 بما أسبقوا طواعية واختيارا من أمجاد على ربي
 المادية الملكية قام الضباط العظام الوراثيون وهم
 كانوا يساوون الملوك منزلة ولقباً ، قاموا بالخدمة الثالثة
 القصر • فأختار الملكة للثلاثة كان يحملها بصفة رسمية
 هينتز Mainz وكولون Cologne وتريف Treves
 المستشارين الدائمين في ألمانيا وإيطاليا وأرل • وكان كبير
 يمارس مهنته وهو يستطى جواده ، ومعه مكيا لفضي ممثلي يانه
 ينثره على الأرض ، حتى اذا فرغ من ذلك ترجل لتوه ليشرف على ترتيب
 الضيوف • وكان النادل الأكبر (رئيس خدم المائدة) وهو كونت ولاية
 بالاتين الواقعة في حوض الراين يضع الصحف على المائدة ، على حين قدم
 كبير الأمناء - حاكم برندنبرج - الابريق والطست الذهبين للخل بعد
 الانتهاء من الطعام • أما ملك بوهيميا وكبير السقاء أو حاملو الأكواب فقد
 مثله أخو الامبراطور ، وهو دوق لكسمبرج وبراتانت • واختتم الحفل
 بكبار الصيادين الذين كانوا يدخلون بخنازيرهم أو غزلانهم ، وسط
 نفتح الأبواب ونباح كلاب الصيد • ولم تكن المكانة السامية للامبراطور
 مقصورة على ألمانيا وحدها ، بل ان ملوك أوروبا الوراثيين اعترفوا كذلك
 بسمو مرتبته ومقامه ، فكان يتصدر الأمراء المسيحيين ، وكان الحاكم الزمني
 للدولة الكبرى في الغرب • ولقد أضفى على شخصه لقب صاحب الجلالة
 لأمد طويل ، وكان ينازع البابا في ميزة رفيعة واحدة هي صنع الملوك
 وعقد المجالس • أما ففيه القانون المدني ، العلامة بارتولوس Bartolus
 الذي كان يجري عليه شارل الرابع راتباً ، فقد دوت مدرسته بالنظرية
 التي تقول بأن الامبراطور الروماني كان الملك الشرعي للأرض من أقصاها
 الى أقصاها ، أو من مشرق الشمس الى مغربها • وحكم على الرأي المعارض
 لهذه النظرية • لا بأنه مجرد خطأ ، بل بأنه هرطقة ، حيث ورد في الانجيل :
 « لقد صدر أمر من قيصر أغسطس بأن ترضى الضريبة على العالم كله » •

موازنة بين شارل الرابع وأوغسطس

اننا اذا أغفلنا فارق الزمان والمكان بين أغسطس وشارل ، فلسوف
 يكون التباين شديدا صارخا بين القيصريين ، البوهيمى الذى أخفى ضعفه
 تحت قناع من التباهي والتفاخر ، والروماني الذى ستر قوته تحت مظهر

فان أغسطس وهو على رأس جيوشه الظافرة ،
 من الخيل والفترات الى المحيط الأطلسي ، يعلن أنه
 منو لكل فرد من بنى وطنه • ولقد باشر فاتح روما
 بالشرعية المألوفة : على الناس جميعا ، ولكنه في إعلان
 صوت السناتو والشعب ، وبمقتضى أوامرهم تقبل مليكهم ،
 بمتة أو تفويضه الموقوت في ادارة الجمهورية • واحتفظ
 ، في لباسه ، وفي حياته المنزلية ، وفي كل مظاهر الحيانة
 بجماعية - احتفظ بشخصية الرومانى العادى • ولقد أكبر فيه أشد
 متملقه دهاء سر حكمه المطلق الثابت •

اقرأ في هذه السلسلة

أعلام الاعلام وقصص اخرى	برندان رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ي . وادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس مكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت . و . فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر . ج . فوديس
الأرض الغامضة	ليسترديل راي
الرواية الانجليزية	والتر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجانس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشباشنة	د . قنبري حنفي وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	إولج فوليكف
التهوة القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات القيود	ديفيد وليم ماكبول
الموسيقى - تعبير تسمى - ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى	د . محسن حاسم الموسوى
ديلان توماس	أشرف يس . يى . كوكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د . عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	يل شول وأدبنيث
فن الترجمة	د . صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ثى ماتلر
ستدال	فيكتور برومبير

التفتشة الاسرية والابناء الصغار

نظرية الفيلم الكبرى

مختارات من الادب القصصى

الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد

حرب القضاء

ادارة الصراعات الدولية

الميكروكمبيوتر

مختارات من الادب اليساباني

الفكر الاوربي الحديث ٣ ج

تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة

اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

كتابة السيناريو للسينما

الزمن وقياسه

اجهزة تكييف الهواء

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى

سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى

التجربة اليونانية

مركز الصناعة فى مصر الاسلامية

العلم والطلاب والمدارس

الشوارع المصرى والفكر

حوار حول التنمية الاقتصادية

تبسيط الكيمياء

العادات والتقاليد المصرية

التفوق السينمائى

الخطيطة السبائية

البلور الكونية

دراما الشاشة

د • محبى الدين احمد حسين

ج • داندلى اندرو

جوزيف كونراه

د • جوعان دوشبىز

طائفة من العلماء الامريكيين

د • المسيد عليوة

د • مصطفى حنانى

صبرى الفضل

فرانكلين ل • باومر

جابريل باير

انطونى دى كرسبى

داويت سوين

زافيلكسكى ف • س

ابراهيم القرضاوى

بيتر رداى

جوزيف داموس

س • م • بورا

د • عاصم مخمخ رزق

روثالد د • سمبسون

د • اتور عبد الله

والث وتيمان روستو

فريد س هيس

جون يوركهارت

الآن كاسبىيار

سلمى عبد المعطى

فريد هويل

شاندرا ويكراما حاسينج

حسين حلمى المهندس

روى روبرتسون
 هاشم النحاس
 دوركاس ماكلينتوك
 بيتر لورى
 بوريس فيدروفيتش سيرجيف
 ويليام بينز
 ديفيد الدرثون
 جمعها : جون ر • بورد
 وميلتون جولد ينجر
 ارنولد توينبي
 د : صالح رضا
 م • ه • كنج وآخرون
 جورج جاموف
 د • السيد طه أبو سديرة
 جاليليو جاليلي
 اويك موريس وآلان هو
 سيريل السريد
 آرثر كيستر
 توماس ا • هريس
 مجموعة من الباحثين
 روى ارمز
 ناجاي متشيرو
 بول هاريسون
 ميخائيل اليبى ، جيمس لقلو
 فيكتور مورجان
 اعداد محمد كمال اسماعيل
 بيرتون بودوك

الفيزيويين والايدز
 عجيب محفوظ على الشاشة
 مسور افرقية
 الحضرات حقائق اجتماعية ونفسية
 وظائف الاعضاء من الألف الى الياء
 الهندسة الوراثية
 تربية أسماك الزينة
 الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
 الفكر التاريخى عند الاغريق
 قضايا وملمح الفن التشكيلى
 التغذية فى البلدان النامية
 بداية بلا نهاية
 الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
 حوار حول النظامين الرئيسيين
 للكون
 الارهاب
 اثنتاين
 القبيلة الثالثة عشرة
 التوافق النفسى
 الدليل الببليوجرافى
 لغة الصورة
 الثورة الاصلاحية فى اليابان
 العالم الثالث عمدا
 الالتراض الكبير
 تاريخ النقد
 التعليل والتوزيع الاوركستراالى
 الحياة الكريمة (٢ ج)

الفردوسى الطوسى	الشاهنامه (٢ ج)
محمد فؤاد كوبرلى	قيام الدولة العثمانية
ادوارد ميرى	عن النقد السيتمائى الأمريكى
اختيار / د . فيليب عطية	ترانيم زرادشت
اعداد / موى براخ وآخرون	السينما العربية
نادين جوريمير وآخرون	دليل تنظيم المتاحف
آدامز فيليب	سقوط المظفر وقصص أخرى
زيجمونت هينر	جماليات فن الاخراج
ستيفن اوزمنت	التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
جوناثان ريلى سميث	الحملة الصليبية الاولى
تولى بار	التمثيل للسينما والتلفزيون
بول كولنسر	العثمانيون في أوروبا
موريس بير براير	صناع الخلود
الفريد ج . بنكر	الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)
رودريجو فارتيجا	رحلات فارتيجا
فانس بكارد	انهم يصنعون البشر (٢ ج)
اختيار / د . رفيق الصهبان	في النقد السيتمائى الفولسى
بينر نيكوللز	السينما الخيالية
برتراند راسل	السلطة والفرد
بينارد بودج	الأزهر في الف عام
ريتشارد شاخز	رواد الفلسفة الحديثة
ناصر خسرو علوى	سفر نامه
نفتالى لويس	مصر الرومانية
جاله كرابس جونيور	كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر
هربرت شيلر	الاتصال والهيمنة الثقافية
اختيار / هيرز الفضلي	مختارات من الآداب الآسيوية
احمد محمد شنوانى	كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)
اسحق عظيموف	الشعوس المتفجرة
لوريتو تود	مدخل الى علم اللغة

